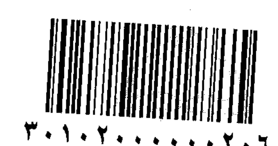
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع العقيدة



موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ

رسالة
مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالب
أحمد بن عبد بن الحسين العوايشة

إشراف
فضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
الأستاذ بقسم الدراسات العليا بالكلية

١٣٩٩ هـ - ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ

المؤمنون ٧١

انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ

الأنعام ٢٤

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ
أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ

النحل ٢٥

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ
فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ

الأنبياء ١٨

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

أتوجه بالطاعة والشكر لله رب العالمين الذي وفقني لاتمام هذا البحث، وأعانني عليه ، فمنه سبحانه وتعالى أستمد العون في حياتي واستلهم السداد في أعمالي .

واني لاشكر من بعده ، استاذي الدكتور راشد بن راجح الشريف ، على ما بذل لي من مساعدة وتسهيل وتشجيع ، فجزاه الله عني خير الجزاء ، وأجزل له في المثوبة والعطاء .

كما أشكر القائمين على عمادة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، وأخص منهم بالذكر سعادة الدكتور محمد بن سعد الرشيد عميد كلية الشريعة ، والدكتور عليان الحازمي وكيل الكلية ، والدكتور محمد العروسي رئيس قسم الدراسات العليا الشرعية .

كما أتوجه بالشكر الجزيل الى استاذي الكبير ، فضيلة الشيخ عبد الرحمن حنبكة الميداني المشرف على هذه الرسالة ، على الرعاية والعناية التي شملني بها ، والتوجيهات المفيدة التي أرشدني اليها .

كما أتوجه بالشكر الى فضيلة أستاذي الشيخ محمد قطب ، المشرف السابق على الرسالة لما بذل من جهد وأبدى من توجيهات .

كما أشكر أستاذي الشيخ محمد الغزالي ، والدكتور محمد الشلبي والزميلين الاخوين الكريمين سفر بن عبد الرحمن ، وحسين الخالدي . وجميع من قدم لي مساعدة ،

جزى الله هؤلاء جميعا عني وعن المسلمين خير الجزاء انه سميع مجيب الدعاء .

الفهـــــــــــرست

==========

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :

" بسم الله الرحمن الرحيم "

المقدمة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وصفيه من خلقه وأمينه على وحيه ، بلغ الرسالة وأدى الامانة ، ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء والطريق الواضحة ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك ولا يتنكبها الا ضال ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه وعمل بسنته الى يوم الدين . وبعد

فقد أكرم الله سبحانه وتعالى هذه الامة أن بعث فيهم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل رسول بأكمل دين وأقوم شريعة ، ليخرجهم من عبادة الاوثان الى عبادة الواحد القهار ، ومن جور الاديان الى عدل الايمان ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة . وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ، ليكون دستورا خالدا للبشرية على مر العصور والأيام حتى يرث الله الارض ومن عليها ، واعتنق هذا الدين رجال حملوا علم الدعوة الاسلامية ونشروها بين الناس ، أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وحاربوا الترف والفجور ، وحققوا مفهوم لا اله الا الله فى واقع حياتهم ، وحكموا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى جميع شئونهم فنصرهم الله ومكن لهم فى الارض حين استقاموا على شرع الله ونهجه ، وبدأت طلائع الغزو الفكرى تغزو المجتمعات الاسلامية رويدا رويدا ، وبدأ السوس ينخر فى عظم المسلمين لما انحرفوا عن تطبيق شرع الله فى واقع حياتهم ، وبدأت الامة الاسلامية تفقد ذاتيتها وأصالتها ، وتحس بالضعف والانهيار أمام الامم الاخرى والانبهار التام بحضارتها ، وتستمد كل مقومات حياتها من حضارة هذه الامم ومناهجها

وقيمها بلا وعى وتدبر . والأهم من ذلك خطورة أنها بدأت ترتد على مقومات حياتها الاصلية بالنقد والتجريح والشتم والدس الرخيص ، ارضاء لمن أصبحت تشعر بالضآلة امام حضارتهم المادية . وبدأ الذباب المنهار من ابناء هذه الامة ينقل جراثيم الغزو الفكرى لبلاده حينا بقوة السلاح ، وحينا آخر بالاقلام المأجورة وبدأت أعراض الامراض الفكرية تظهر على الساحة الاسلامية بصور شتى ، على شكل شعارات مضللة واتجاهات متباينة ، عليها من البريق والخداع ما يكفى لتضليل كثير من الناس البلهاء المغفلين ، الذين يسيرون خلف كل ناعق ، وبدأت طلائع الغزو الفكرى بالشيوعية والوطنية والقومية والعلمانية والوجودية ونظرية التطور الالحادية وغيرها من المسميات والشعارات الخادعة تغزو بلاد المسلمين . وسرت عدوى هذه الامراض – التى ظهرت فى أوربا نتيجة لبعدها عن دين الله ، وعدم تحكيم شرعه فى حياتها ولحماقة الكنيسة التى حكمتها – فى بلاد المسلمين سريان النار فى الهشيم ، وتغلغلت فى عقول وقلوب كثير من ابناء أمتنا الذين فقدوا رصيدهم من مفهوم لا اله الا الله ، ولم يعملوا بمقتضاه فى حياتهم ، وتربت على ذلك أجيال ممسوخة مريضة هزيله ، حملت على عاتقها مهمة الاجهاز على منابع الحياة الكامنة فى أمتها ، وتعبيدها للغرب تارة وللشرق تارة أخرى ، ونسى هؤلاء أو تناسوا أن الظروف التى مرت بها اوربا والتى جعلتها تكره الدين وتتحلل من الاخلاق ، ليست موجودة فى ديننا ولله الحمد .

ومهدت هذه الطلائع الشيطانية الطريق امام قوى البغى والفساد المجتمعة تحت راية الشيوعية للقضاء على الاسلام واقتلاع جذوره من الارض ، بعد أن شككوا كثيرا من الناس فى أمور دينهم وتقاليدهم وأخلاقهم ، وغرسوا فى نفوسهم أن ما عند أوربا هو الحضارة ، لأنها تملك العلم والقوة ، وانتشرت الاحزاب الشيوعية فى معظم بلاد المسلمين ، وبدأت تطلق الشعارات الخادعة ، وتعمل فى السر والعلن ضد الاسلام والمسلمين ، وخدع كثيرا من ابناء أمتنا الاسلامية وحكامها ، واخذوا

يرددون عن وعى وغير وعى شعاراتها وافكارها ، ويخدمون أغراضها ، ويتسابقون فى تنفيذ مخططاتها الاجرامية الشيطانية ، واصبح المغرور بفكرهم يفتخر بانه يطبق الاشتراكية فى بلاده ، أو يكتب فى الدفاع عنها ، أو أنه جندى فى احزابها . وزادت جرأتهم على دين الله حيث بدأوا - زيادة فى تضليل الناس بتبرير الاشتراكية بنصوص من الدين يزعمون فيها أن الاسلام دين الاشتراكية ونسوا حقيقة مهمة هى أنه لا يمكن أن يتم لقاء بين الشيوعية والاسلام ، لأن قاعدة التصور فى كل منهما مختلفة ، فالاسلام يقوم على قاعدة تصور منطلقة من مفهوم لا اله الا الله ، والشيوعية قائمة على تصور منطلقة من انكار وجود الله . وأعان الشيوعية وأتباعها على ترويج أفكارها فى عالمنا الاسلامى الفراغ الرهيب الذى تحياه امتنا الاسلامية ، وكلمة صريحة أطلقها شيخنا الاستاذ محمد الغزالى حفظه الله حين قال : " وغاظنى أن الفراغ الدينى الرهيب فى الامة الاسلامية المترامية الاطراف هو أول ما يعين الشيوعية على خداعها ، ويوقع القاصرين فى حبائلها وهو فراغ لا يملأ جزءا منه علماء الدين المحنطون فى معارضهم التقليدية الباهتة ولا رجال السياسة المنسلخون عن عقيدتهم وشريعتهم الحارسون لحكم مدنى ميت الروح وضيع الهدف . " (١)

وظن جنود الشيوعية ودعاتها والمخدوعين بشعاراتها وافكارها ، أن نهاية الاسلام قد قربت . ولكن الله رد كيدهم فى نحورهم ، وأنبت فى وسط الظلام رجالا حملوا علم الدعوة الى الله من جديد ، بقوة وعزم ، وظهرت حركات اسلامية فى كل بلد اسلامى ، تدعوا الناس الى العودة من جديد الى الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما فهمها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحكيم شريعة

---

(١) الاسلام فى وجه الزحف الاحمر ص ٢

الله فى شئون حياتهم ، وتحارب البدع والضلالات التى دخلت على العقيدة والشريعة ، وانبثق من هذه الحركات المباركة فكر حر أصيل مستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مباشرة ، وتكمن عظمة هذا الفكر بل حياته فى سر واحد فقط ، هو أنه شخص مرض الامة الاسلامية ، وادرك أن سبب انحطاطها هو بعدها عن حقيقة لا اله الا الله ، وأن العلاج الشافى لامراض الامة يبدأ من تصحيح مفهوم الناس من جديد لمدلول هذه الحقيقة ، وازالة ما علق فى أذهانهم حولها من بدع وضلالات وخرافات .

وكان من توفيق الله عز وجل لى أن التحقت بقسم الدراسات العليا الشرعية كلية الشريعة – مكة المكرمة – فى فرع العقيدة ، وأن أدرس مادة المذاهب الفكرية المعاصرة على يد علم من أعلام الفكر الاسلامى المعاصر هو الاستاذ محمد قطب حفظه الله ، وأن أختار لرسالتى فى الماجستير موضوعا فى هذه المادة . وباشراف هذا الاستاذ الكريم ، وقد هدانى الله عز وجل لاختيار موضوع فكرى ، ووفقنى لاختيار " نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ " وقد آثرت هذا الموضوع على غيره لاسباب منها :

١ – الانبهار الشديد بالفكر الماركسى الذى ابتلى به كثير من شباب أمتنا ، والحرب الفكرية والعسكرية التى تشنها الشيوعية واتباعها على الاسلام وأهله .

٢ – أن هذا الموضوع لم يكتب فيه – على حد علمى – من وجهة النظر الاسلامية ، أو بشكل مفصل وشامل ، حيث ان الكتب التى كتبت فى نقض الشيوعية كانت تتناول بعض القضايا فى الفكر الشيوعى وتناقشها مناقشة عامة دون أن تدخل فى كثير من التفصيلات ، نعم كتب الاستاذ محمد باقر الصدر فى نقض بعض مواضيع المادية التاريخية فى كتابه

اقتصادنا وناقشها من زاوية فلسفية اقتصادية ، كما كتب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في نقض أوهام المادية الجدلية وناقش قضاياها بأسلوب علمي ، وناقش بعض قضايا التفسير المادي للتاريخ من زاوية علمية بحتة .

لهذا آثرت الكتابة في هذا الموضوع الشاق خدمة لدين الله عز وجل ، وقد عرفت منذ البداية أن مهمتي ليست يسيرة ، وأن موضوعي ليس سهلا ، وأن علي أن اخوض في ميادين بعيدة عن مجال دراستي الشرعية ، فاستعنت بالله عز وجل ، وشرعت في قراءة الفكر المادي من مصادره مسترشدا بالتوجيهات القيمة والآراء السديدة التي كان استاذي الفاضل الشيخ محمد قطب حفظه الله يزودني بها باستمرار - واستغرقت القراءة مني جهدا ووقتا ، ولكن الله سبحانه وتعالى اعانني على قراءة فكرهم واراني اياه على حقيقته عاريا ، وخرجت بنتيجة أن هذا الفكر تافه هزيل ، لا يستحق كل ما نسمعه عنه من جعجعات وطنطنات .

وقد اعترضتني في الطريق بعض الصعوبات ، منها أنني لم أجد المصادر الشيوعية الكافية في هذه البلد - ولله الحمد على خلوه منها - واخيرا حصلت عليها من الاردن ، ولم أجد من كتب في هذا الموضوع من وجهة النظر الاسلامية بشكل واسع مفصل كما ذكرت . وشرعت بحمد الله عز وجل بالكتابة ، وكنت أعرض ما أكتبه على شيخي الاستاذ محمد قطب حفظه الله تعالى ، وقد قرأت عليه معظم الابحاث التي دونتها في هذه الرسالة مرتين كان خلالهما يتفضل بتوجيهاته وارشاداته . وشاءت ارادة الله عز وجل أن يتفرغ الاستاذ محمد قطب قبل أن أتمكن من قراءة الرسالة عليه القراءة الختامية ، واكرمني الله عز وجل مرة أخرى بمشرف كفء هو فضيلة الشيخ الاستاذ عبد الرحمن حسن حنبكه الميداني . فهو علم آخر من اعلام الفكر الاسلامي المعاصر ، متخصص في كشف اباطيل الملحدين ، ودسائس المضللين من دعاة

المذاهب الهدامة ، فقد وسع لى صدره . واستقبلنى وأكرمنى فى بيته واعطانى من وقته الشيء الكثير ، على الرغم من كثرة اشغاله ، فلم يبخل على بنصيحة أو فائدة علمية ، فاستفدت من توجيهاته السديدة فوائد كثيرة اضفتها فى رسالتى الى الفوائد السابقة التى استفدتها من الاستاذ محمد قطب ، فجزاهما الله عنى خير الجزاء وأجزل لهما فى المثوبة والعطاء انه سميع مجيب .

وقد قسمت موضوع الرسالة الى تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة :

أما التمهيد: فقد خصصته لبيان الظروف التى مهدت لانتشار التفكير المادى فى اوربا وتعرضت فيه لخصائص الحضارتين اليونانية والرومانية منبت المادية القديمة ، كما تتبعت خط الانحراف فى الدين النصرانى . والظلم الذى مارسته الكنيسة على الناس ، والنتائج الخطيرة التى ترتبت عليه ، وقيام النهضة على أساس غير دينى .

أما الباب الاول فهو : عرض نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ من وجهة نظر أصحابها وقد مهدت لهذا الباب بعرض موجز للتفسير المادى للتاريخ، وبينت فيه الصلة بينه وبين المادية الجدلية ، وجاء هذا الباب فى ثمانية فصول :

الفصل الاول : المادة سابقة فى الوجود على الفكر ، وقد عرضت فيه لتعريف المادة عند الماديين . وأنها فى رأيهم سابقة فى الوجود على الفكر وهى أزلية وابدية .

الفصل الثانى : قوانين المادة عرضت فيه قوانين المادة وكيف فهمها الماديون وكيف طبقوها على حياة المجتمعات البشرية .

الفصل الثالث : أثر نظرية دارون على التفسير المادى للتاريخ ، وقد عرضت فيه آثار الدارونيه على الفكر الاوربى بصفة عامة والفكر الشيوعى بصفة خاصة .

الفصل الرابع : مراحل التطور فى التاريخ البشرى وحتمياته ، وقد تحدثت فيه عن اساليب الانتاج وقوى الانتاج وأثرها على الحياة الانسانية ، ثم تعرضت فيه لتقسيم الماديين للمراحل الاجتماعية فى التاريخ البشرى وهى الشيوعية البدائية والرق والاقطاع

والرأسمالية والاشتراكية الممهدة للشيوعية ، وتعرضت للصراع الطبقي ونشوء الامم والاستعمار .

الفصل الخامس : التفسير المادى للتاريخ والدين ، وقد عرضت فيه موقف الشيوعيين من الدين ، وناقشت القضايا المتعلقة بهذا الموضوع .

الفصل السادس : التفسير المادى للتاريخ والاخلاق ، وقد عرضت فيه موقف الشيوعيين من الاخلاق ، وناقشت القضايا المتعلقة به كذلك .

الفصل السابع : التفسير المادى للتاريخ والشخصيات البارزة ، فقد عرضت فيه موقف الشيوعيين من الافراد البارزين والهدف الذى يكمن خلفه .

الفصل الثامن : التفسير المادى للتاريخ والاسرة ، وقد عرضت فيه موقف الشيوعيين من الاسرة ، وعلاقة الرجل بالمرأة ، وشيوعية النساء القديمة والحديثة .

أما الباب الثانى فهو : مناقشة النظرية وقد جاء فى عشرة فصول

الفصل الاول : هل المادة أزلية أبدية ؟ وقد تعرضت فيه لمناقشة الشيوعيين فى أزلية المادة وأبديتها ، وتعرضت للأدلة الايمانية والعلمية التى تبطل دعواهم ، وناقشت جميع القضايا المتعلقة به .

الفصل الثانى : هل المادة سابقة فى الوجود على الفكر ، تعرضت فيه لتعريفات المادة الحديثة ، والمغالطة المفتعلة فى أسبقية المادة فى الوجود على الفكر ، وتراجع الماركسيين عن هذا الرأى .

الفصل الثالث : مناقشة قوانين المادة ، تعرضت فيه لمناقشة قوانين المادة وهى الترابط والحركة ، والتطور والتناقض بالادلة العلمية .

الفصل الرابع : قوانين المادة لا تنطبق على حياة الانسان ، تعرضت فيه لسلوك الانسان وسلوك المادة وتفرد الانسان عن المادة .

الفصل الخامس : مناقشة أثر نظرية دارون على التفسير المادى للتاريخ ، تعرضت

فيه لمناقشة نظرية داروين بالادلة العلمية . ولاقوال العلماء التى تحدثت عن تفرد الانسان عن الحيوان .

الفصل السادس : مناقشة مراحل التطور فى التاريخ البشرى وحتمياته ، وقد خصصته لمناقشة أهم الادلة التى اعتمد عليها التفسير المادى للتاريخ والقضايا التى بحثها ، فقد تعرضت لمناقشة تطور القوى المنتجة وادوات الانتاج . والشيوعية البدائية والرق وصراع الطبقات ومرحلة الاقطاع والراسمالية ، وعرضت موقف الاسلام من الطبقات والرق والاقطاع ، ودور اليهود فى ظهور الراسمالية ، وتعرضت بالنقد للعامل الاقتصادى والحتميات ، ونشوء الامم والاستعمار ، وتعرضت لنزعة الملكية الفردية ، ودعواهم من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته ، وتعرضت لفكرة زوال الدولة وتنبوءات ماركس والادلة التى تكذبها ، وابرزت تراجعهم عن كثير من مبادئ الشيوعية .

الفصل السابع : مناقشة موقف التفسير المادى للتاريخ من الدين . تعرضت فيه لاسباب محاربة الشيوعية للدين والقضايا التى اثاروها حول الدين بالمناقشة العلمية .

الفصل الثامن : مناقشة موقف التفسير المادى للتاريخ من الاخلاق . وتعرضت فيه لمناقشة مفهوم الشيوعية للاخلاق ، والقضايا المتعلقة بها .

الفصل التاسع : مناقشة موقف التفسير المادى للتاريخ من الشخصيات البارزة تعرضت فيه لموقف الشيوعيين من الافراد البارزين ، ودور الانبياء والمصلحين فى دفع عجلة التاريخ الى الامام .

الفصل العاشر : مناقشة موقف التفسير المادى للتاريخ من الاسرة . وقد تعرضت فيه لمناقشة موقف الشيوعيين من الاسرة ، ولحالة المرأة الاوربية فى الشرق والغرب ، وعن وضع المرأة فى الاسلام .

أما الباب الثالث فهو : التصور الاسلامى ويشتمل على فصلين ،

الفصل الاول : سنن الله فى الكون والانسان وخصائصها . وقد تعرضت

فيـــه لمفهوم التصور الصحيح للالوهية واثره على الناس ، وسنن الله الثابتــة في الكون . وعن الانســان في التصــور الاســلامى .

الفصـــل الثانــى : تفسـير تاريخ الامم بمقتضى التصور الاســلامى . وقد تعرضت فيه لبيان مفهوم الحضارة في الاســلام ، وعوامل سقوط الحضارات .

الخاتمـــة : وقد تعرضـت فيها لاهم النتائج التي توصلت اليها من خــلال البحث .

هذا وأن أملى في الله عز وجل كبير في أن اكون قد وفيت هذا الموضوع حقــه من العناية والبحث والتمحيص ، وأن أكون قد أتيت فيه بجديد ، ومن الله استلهم العون والسداد ، فهو ولى ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم وبارك على نبينـــا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

التمهيـــــــد

الظـروف التي مهـــدت
لانتشـار التفكير المـادي في أوربـا

تمهيد عام

حين يكتب الانسان عن المذاهب المادية فى أوربا ، فلابد من طرح سؤال هو : هل نشأت هذه المذاهب نشأة طبيعية ، أم أن لهـا ظروفا خاصة بها ؟

ان أوربا التى نشأت فيها المذاهب المادية المعادية للدين وانتشرت منها ، لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله ، وانما اعتنقت دينا محرفا ممزوجا بالوثنية ، هو الدين النصرانى .

ولكى نعرف كيف حرف الدين النصرانى عن أصله الصحيح ، والآثار التى ترتبت على هذا التحريف ، لابد لنا من الرجوع الى الوراء قليلا لنعرف طبيعة الدين النصرانى ، والجو الذى نشأ فيه هذا الدين ، والظروف التى أحاطت به منذ بدايته ، ومن ثم كيف تم التحريف .

الدين الصحيح كما أنزله الله على عيسى عليه السلام :

أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل الى أقوامهم مبشرين ومنذرين ، أرسلهم لهداية الناس واخراجهم من الظلمات الى النور .

وكانت رسالتهم التى أرسلهم الله بها واحدة ، وهى دعوة الناس الى توحيد الله وافراده سبحانه وتعالى بالربوبية (١) والالوهية (٢) ، فيعبدونه وحده بلا شريك ويطيعون أمره .

فكان كل رسول يقول لقومه : " ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره " (٣)

---

(١) توحيد الربوبية هو اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى خالق العباد ورازقهم ، محييهم ومميتهم . وقد أقر بهذا التوحيد المشركون السالفون ، ومعظمهم اهل الملل السابقة كاليهود والنصارى وغيرهم والدليل على هذا الاقرار هو قوله تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله ، قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون " سورة لقمان الاية ٢٥ .

(٢) توحيد الالوهية ، وهو توحيد العبادة ، وهو افراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة لانه المستحق لان يعبد لاسواه ، مهما سمت درجته وعلت منزلته وهو التوحيد الذى جاءت به الرسل الى أممهم . لان الرسل عليهم السلام جاءوا بتقرير توحيد الربوبية الذى كانت اممهم تعتقده ودعوتهم الى توحيد الالوهية ، كما أخبر الله عنهم فى كتابه المجيد .
" والى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، ان أنتم الا مفترون " سورة هود الاية ٥٠ ــ انظر تطهير الجنان والاركان عن درن الشرك والكفران ص ١٢ـ١٧ وكتاب الجامع الفريد الرسالة الثالثة انواع التوحيد وانواع الشرك ص ٣٤٠ ، ورسالة تطهير الاعتقاد عن ادران الالحاد ص ٤٩٦ .

(٣) سورة هود اية ٥٠ .

فكانت كل رسالة سماوية ذات شقين : عقيدة وشريعة .

أما العقيدة فهى ثابتة لاتتغير وهى دعوة الرسل جميعا " أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره "(١) . هى توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن الصاحبة والولد والشريك . وارجاع الامر والخلق والتدبير والتحاكم اليه سبحانه وتعالى . وشريعة تحكم حياة الناس بما يتناسب مع نموهم وتقدمهم ، الى مجتمع منظم ودولة . فيها التشريع الاقتصادى والسياسى والاجتماعى الخ . يحكم بها وفق مايرضى الله سبحانه وتعالى وكما أنزلت من عنده ، من غير تحريف أو تعطيل أو تبديل .

ومن بين الرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه السلام، أرسله الله سبحانه وتعالى الى بنى اسرائيل بعقيدة التوحيد الخالصة ، المطهرة من الشرك . وشريعة تحكم حياتهم على هدى الله عز وجل . وقد آمن معه نفر من قومه فصدقوه ونصروه ، وأبى اكثر يهود الا نفورا . قاوموا دعوة الله وعذبوا رسله وقتلوهم .

حرفوا دينهم ، فأحلوا ماحرم الله عليهم ، وحرموا ما أحل الله لهم . أسرفوا فى حب الدنيا ومتاعها المادى ، فكان الجشع والطمع ديدنهم ، والحقد والبغضاء والحسد والفتنة خلقهم وشيمتهم .

لهذه الصفات الخسيسة والطباع اللئيمة كرههم الناس واضطهدوهم وأذلوهم وشتتوهم ، لذلك نشأوا حاقدين على البشرية ، أحبوا انفسهم واستعلوا على البشرية وزعموا أنهم شعب الله المختار ، لم يتركوا بابا للخير الا أوصدوه ولاقبرا للشر الا نبشوه .

وشاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يرسل اليهم سيدنا عيسى عليه السلام برسالة جديدة ، وهى ككل رسالة منزلة من عند الله عقيدة وشريعة . وان كانت لم تأت بتفصيلات تشريعية ، وذلك لان شريعتها الاساسية كانت التوراة مع تعديلات غير كثيرة نزلت على عيسى عليه السلام فى الانجيل .

---

(١) سورة هود آية ٥٠

قال الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى عليه السلام : " ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون " (١) .

فكان المفهوم الطبيعى للنصرانية أن تحكم شريعة الله المنزلة فى التوراة مع مراعاة التعديلات الواردة فى الانجيل .

وقد نزلت رسالة عيسى عليه السلام لمواجهة المادية المتطرفة التى كانت شائعة فى بنى اسرائيل ، والعالم الرومانى يوم بعث المسيح عليه السلام ،تلك المادية التى غالت فى التشبث فى الارض والواقع المحسوس والقيم الارضية تلك المادية المتطرفة التى قطعت كل صلة لها بالسماء ، وعالم الروح . لذلك لابد لها من قدر ملائم من الروحانية الصافية لتتناسب مع المادية المتطرفة ،لعلها تصلح النفوس .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب حفظه الله : " ومن ثم كانت كل تعاليم المسيح عليه السلام دعوة للتطهر والروحانية ، دعوة ترتفع بالانسان عن نفسه وتصل به الى الافاق العليا التى تسمو عن الجسد والمادة . الافاق الطليقة من قيود الارض ومن نوازع الشهوات " (٢) .

البيئة التى نشأت فيها النصرانية :

كانت الدولة الرومانية الوثنية هى المسيطرة على بلاد الشام وبيت المقدس وقت نزول الرسالة على عيسى عليه السلام .

ومنذ اللحظة الاولى بدأ اليهود يكيدون للدعوة الجديدة ، ويشعلون نار الفتنة والفساد ضد هذا الدين الجديد .

---

(١) آل عمران ــ اية ٥٠ .

(٢) الانسان بين المادية والاسلام ص ٩ .

وكما هو معلوم أن اضطهاد الانبياء وقتلهم عادة متأصلة فى نفوس اليهود يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : " أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون " (١) .

بداية اضطهاد النصارى

ونشأ الخلاف بين اليهود والنصارى ولم تتدخل الدولة الرومانية فى بداية الامر فى هذا الخلاف ، لانها كانت تعتبره خلافا داخليا لايضر بمصلحة الدولة وكل مايهم الدولة هو استقرار الامن ، وخضوع الهيئات كلها لنظام الحكم فيها ، وليس من مصلحتها أن تتدخل فى المسائل الخلافية التى لاتضر بمصالحها . ولكن اليهود لم تفتر همتهم ولم يقعدوا عن اشعال نار الفتنة ساعة واحدة ، لجأوا الى جميع الوسائل والحيل حتى تمكنوا أخيرا من اقناع الحاكم الرومانى بيلاطس من أن المسيح ودعوته خطر على الامبراطورية . فأمر بيلاطس بقتل المسيح عليه السلام صلبا . ولكن الله سبحانه وتعالى نجاه من كيدهم فلم يتمكنوا من صلبه ، بل صلب يهوذا الاسخريوطى مكانه ، حيث أوقع الله شبه عيسى عليه السلام عليه .

قال الله تعالى داحضا زعمهم الباطل بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه " وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما " (٢) .

والمهم فى الامر أن الاضطهاد الدينى للنصرانية بدأ منذ اللحظة الاولى لظهورها ، واستمرت عملية الاضطهاد والتعذيب بعد رفع عيسى عليه السلام من الارض فترة طويلة ، وكان الاضطهاد قاسيا أليما فوق مايتصوره العقل ويتحمله البشر ، كان النصرانى يؤخذ بالتهمة والظن ، ويعدم ان أقر

---

(١) سورة البقرة ـ اية ٨٧
(٢) " النساء ـ اية ١٥٨

أنه نصراني . وزاد الطين بلة أن الرومان اتهموا النصارى بحرق روما فصبوا جام غضبهم عليهم . وكان أقسى اضطهاد شهدوه على عهد نيرون الطاغية . فقد تفنن في تعذيبهم حتى كان يلبس بعضهم جلود الحيوانات ويطعمهم للكلاب . وكان يدهن جلود بعضهم الاخر بالقار ، ويشعل النار في أجسادهم لتصير مشاعل تنير الظلام في الليل على جوانب الطرقات ، وغير هذه من الالوان البشعة في التعذيب .

وجاء بعده الامبراطور تراجان فعذبهم وأعدم الكثيرين منهم . ثم جاء الامبراطور ديسيوس ولم يقل عن سابقه في اضطهاد النصارى . واخيرا جاء الامبراطور دقلديانوس . وقد قتل الكثيرين من النصارى وخاصة من الاقباط في مصر حتى سمي عصره بعصر الشهداء لكثرة القتلى الذين ماتوا تحت سياط التعذيب وبالحريق والصلب . (١)

في هذا الجو المشحون بالاضطهاد نشأت النصرانية وترعرعت بعد المسيح عليه السلام ، وفي هذا الجو المظلم المليء بالاضطراب النفسي والخوف والفزع دونت الاناجيل المعروفة .

وجديربي وأنا أكتب عن الجو الذي نشأت فيه الديانة النصرانية ، أن أتعرض لخصائص الحضارة السائدة في ذلك الوقت واثرها على هذه الديانة .

لقد كانت الحضارة الرومانية هي السائدة في ذلك الوقت ، ولكن الرومانيين تتلمذوا على اليونانيين وتأثروا بفكرهم ومدارسهم الفلسفية ، وتتلمذوا في الفكر والآداب عليهم . وبناء على هذا الامر فلا بد من عرض سريع لاهم خصائص الحضارة اليونانية ، وأثر مدارسها الفلسفية على النصرانية .

---

(١) انظر كتاب المسيحية ص ٦٠ ـ ٦١ ، والاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام ص ٣٣ ـ ٤٣ ومحاضرات في النصرانية ص ٣١ ـ ٣٥ .

خصائص الحضارة اليونانية

كان اليونانيون أمة موهوبة ومن أذكى أمم العالم ، وأكثرها استعدادا للعلم والاداب ، ولكنهم كانوا في الدرك الاسفل من ناحية التدين والعبادة ، فقد كانوا يعبدون الاوثان وينحتون التماثيل والاصنام ويتقربون اليها .

هذا وقد ظهر منهم فلاسفة وأدباء وعلماء ، ماتزال علومهم تذخر بها مكتبات العالم . وتمتاز الحضارة اليونانية بالاضافة الى الصفات التي كانت تشترك فيها مع باقي الامم في ذلك الوقت بالخصائص التالية :

١ ـ الايمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس .

٢ ـ قلة الدين والخشوع

٣ ـ شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها

" ويمكن أن نحصر هذه المظاهر المشتتة في كلمة مفردة وهي " المادية " فقد كانت الحضارة اليونانية شعارها " المادية " وهي التي ينم بها كل مايتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفة ودين ، فلم يستطيعوا ان يتصوروا صفات الله وقدرته الا في شكل آلهة شتى نحتوا لها تماثيل ، وبنوا لها معابد وهياكل . فللرزق اله . وللرحمة اله ، ثم نسبوا اليها كل مايختص بالجسم المادي ونسجوا حولها نسائج (١) من أساطير وخرافات وصوروا المعاني المجردة وتصوروها في أجسام واشكال ، فللحب اله وللجمال اله . " (٢)

وتشير كتب التاريخ الى أنه قد كثر في حياة اليونانيين الطرب والرقص ورقة الدين وقلة الخشوع ، والولوع بالصور والتماثيل . فقد كانوا يعظمون آلهتهم كما يعظمون حكامهم وشيوخهم . وكانت عباداتهم وأعمالهم الدينية جسدا بلا روح . وقد نشأ في نفوس اليونانيين حب الوطنية ، حتى ان بعض علمائهم طالب بمعاملة الاجانب كما تعامل البهائم ، وكانوا يميزون بين اليوناني وغير اليوناني ، " بل ان ارسطاطاليس لم يكتف بحب وطنه والولاء له فحسب ، بل قال :

---

(١) ورد في لسان العرب نسج الحائك الثوب ينسجه وينسجه نسجا . ويقال نسيج وحده بمعنى منفرد بخصائصه وصفاته ـ ج ٢ ص٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧٤ .

ان اليونانيين ينبغى لهم أن يعاملوا الاجانب بما يعاملون به البهائم " (١)

مدرسة الاسكندرية

نشأت هذه المدرسة فى مصر فى الشرق ، وكان من أشهر اساتذتها آمنيوس المتوفى عام ٢٤٢ م الذى اعتنق النصرانية ثم ارتد عنها الى وثنية الدولة الرومانية . ثم جاء افلوطين عام ٢٧٠ م الذى تتلمذ على هذه المدرسة ثم رحل الى الهند وفارس ، واطلع على تعاليم البرهمية والبوذية .

أهم خصائص فلسفة أفلوطين :

وتتلخص فلسفة افلوطين بما يلى :

١ ـ الكون نشأ عن " الخالق الازلى الاول " الذى لاتحده الافكار .

٢ ـ الارواح شعب (الروح واحد) تتصل بالخالق الازلى عن طريق (العقل) المنبثق عن الخالق الازلى الاول .

٣ ـ العالم كله فى تدبيره وتكوينه وتحركه يخضع لهذه الثلاثة : المنشىء الازلى الاول ـ العقل المنبثق عنه ـ الروح التى هى مصدر تتشعب منه الارواح جميعا .

ويشرح افلوطين نظريته الثلاثية فيقول :

١ ـ عن المنشىء الاول صدر العقل . وليس صدوره كالولادة ، ولكنه انبثاق .

٢ ـ ومن العقل انبثقت الروح التى هى وحدة واساس الارواح كلها .

٣ ـ وهذه الثلاثة : المنشىء الاول ، والعقل ، والروح اساس توالد العالم كله . (٢)

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٨

(٢) انظر أضواء على المسيحية ص ٣٠ ـ ٣١ ، ومحاضرات فى النصرانية ص ٣٨ ـ ٣٩ .

أثر مدرسة الاسكندرية على العقيدة النصرانية

تأثرت العقيدة النصرانية بفكرة التثليث من مدرسة الاسكندرية تأثرا كبيرا ، حيث لأن فلسفة مدرسة الاسكندرية ترجع العالم فى تكوينه وتدبيره الى ثالوث مقدس : المنشىء الاول ، والعقل الذى تولد منه كما يتولد الولد من أبيه ، والروح الذى يتصل بكل حى ومنه الحياة ، فاذا عبرنا عن المنشىء الاول بالآب ، وعن العقل المتولد عنه بالابن ، وعن الروح بروح القدس كما هو ثالوث النصارى الذى أخذ ببعضه مجمع نيقيه وكله المجامع التى جاءت من بعده ، فاننا لانكون قد خرجنا فى التسمية عن الصواب .

والمعروف أن السابق استاذ اللاحق ، ومدرسة الاسكندرية سابقة على مجمع نيقيه والمجامع التى جاءت من بعده (١) ، هذه المجامع التى قررت عقيدة التثليث وفرضتها على النصارى ظلما وعدوانا ، حين حرف علماؤهم كلام الله عن موضعه .

يقول الفيلسوف جون لوتيه : " ان هذا التزاوج الذى تحدثنا عنه فى الباب السابق بين العقيدة اليهودية والميتافيزيقا الاغريقية لم ينتج فلسفة فحسب ، بل كان منه أيضا دين ، فالمسيحية الخارجة من المسيحية لم تلبث أن تشربت رويدا رويدا بالتصورات والافهام الفلسفية للاغريق ، بوساطة بولس الرسول ومؤلف الانجيل ـ كما يقول القديس يوحنا ـ وآباء الكنيسة . لقد شرب اللاهوت المسيحى من الينابيع نفسها التى شرب منها المذهب الافلاطونى الجديد ، فظهرفيه مشابه كثيرة لهذا المذهب ، وان افترق عنه فى عدة نقاط أساسية .

" حقا استند اللاهوت المسيحى ، مثل المذهب الافلاطونى الجديد الى مذهب التثليث . فالاقانيم الثلاثة الالهية هى نفسها لاتختلف فيها ، الاول هو الله

---

(١) انظر محاضرات فى النصرانية ص ٣٩ .

الذى لا يوصف ولا يحيط به ادراك ، الله الذى يحوى فى وحدته كل كمالات اذ كان منبعها : هو الخير المطلق ، وقد أطلق عليه المسيحيون اسم الآب والثانى ، أو الابن ، هو الكلمة ، وهو كذلك العقل الالهى ، بل ان نظرية المثل الافلاطونية ، التى تجعل الكلمة هى المقر الازلى ، نجدها عند القديس كليمانت كما عند افلوطين ، والثالث هو دائما الروح القدس .

" وكذلك لم تكن الاقانيم سواء فى رأى الافلاطونيين المحدثين ، فأصبحت سواسية فى رأى المسيحيين : الفكر او العقل الالهى يجب أن يكون تعبيرا معادلا للذات الالهية . فالابن الذى صدر عن الآب يمكن أن يكون دونه والا لكان من طبيعة الكامل أن يكون منه غير الكامل ، وذلك لا يكون انحطاطا حقيقيا ، وهذا ان صح صار الباب مفتوحا للمذهب الحلولى الذى يتمثل غير الكامل نتيجة (او معلولا) ضرورية للكامل ، أى أنه وهو ليس الا واحدا وكما صار الابن " (١) . والابن فى منزلة سواء . كذلك الحب الالهى أى روح القدس صار فى نفس المنزلة . وهذا ماحدا بعلماء اللاهوت المسيحى الى اطلاق أسماء اشخاص بدلا من اقانيم على الوحدات الالهية .

" وأخيرا نجد فارقا ثالثا يستخلص من هذين الفارقين : ذلك بأنه عند الفلاسفة الاسكندريين يتم الصدور عن الله نفسه من الاقنوم الاول الى الثانى والى الثالث بطريق الفيض ، لكن الروح لما لم تبق روح العالم ، لم تعد واسطة بينه وبين الله .

ثم التثليث كما فهم الافلاطونيون المحدثون ، نجده تثليثا مفتوحا كما رأينا بينما نراه فى اللاهوت المسيحى تثليثا مغلقا ، فالعالم ، كما ذهب رجال هذا اللاهوت ، لا يصدر بعد عن الروح الالهية وحدها بطريق الفيض ، بل يجب أن يكون انتاجا مشتركا للاشخاص الثلاثة معا ، هذه الاشخاص التى لا تتساوى الا فى الازلية فحسب ، بل فى كل شىء . وكذلك بينما صدور تلك

---

(١) هكذا وردت . ولعله خطأ مطبعى لان المقصود من كلامه هو الاب .

الاشخاص الالهية يتم بالفيض ، نجد الانتقال من الله الى العالم يتم على وجه آخر هوالخلق . لقد كان العالم من العدم بما فيه المادة نفسها ايضا ، بعمل اشترك فيه القدرة الالهية والعقل الالهى والحب الالهى ، وكانوا جميعا فى مرتبة سواء . » (١)

خصائص الحضارة الرومانية

تأثر الرومان بحضارة اليونانيين تأثرا كبيرا . وبخاصة فى مجال العلم والفلسفة والاداب ، فخضعوا لهم علميا ، واقتبسوا من علومهم وآدابهم وفلسفتهم ، ولم يقتصر الخضوع على هذا فحسب وانما غلبت المدنية اليونانية المدنية الرومانية فى الاخلاق والاجتماع والعواطف والنزعات ، بل فى كل ناحية من نواحى الحياة العامة ، حتى أصبح الرومانى يقلد الاغريق ويتنبل بذلك ويتظرف .

وهناك تشابه كبير بين اليونانيين والرومانيين من حيث الايمان بالمحسوس ، والغلو فى تقدير الحياة والشك فى الدين والاستخفاف بنظامه وطقوسه ، والاعتزاز بالقومية والتعصب لها ، والحب المفرط للوطن ، والاعتداد بالقوة واحترامها احتراما زائدا يبلغ العبادة والتقديس . (٢)

لم يكن للدين أثر على اخلاق الرومان وسياستهم

وكان الرومان كلما تقدموا بالعلم وتنورت افكارهم زادوا استخفافا بالدين وفصلوا بين السياسة والدين من أول يوم حيث قالوا ان الالهة لادخل لها فى السياسة وأمور الدنيا . يقول "سيسرو" " لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل ابياتا معناها أن الالهة لادخل لهم فى أمور الدنيا يصغى اليها الناس ويسمعونها بكل رغبة " (٣) .

---

(١) المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية ص ١٤٢ ــ ١٤٥ .
(٢) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧٨ ــ ١٧٩ .
(٣) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٠ .

فلم يكن للدين تأثير في سياسة الامة واخلاقها ومجتمعها ، ولم يكن يملك عليهم شعورهم وميولهم ويراقب عليهم اخلاقهم ونزعاتهم ، ولم يكن دينا عميقا يحكم على أرواحهم وينبعث من اعماق قلوبهم ، بل كان تقليدا من التقاليد تقضي السياسة بالبقاء عليه ولو بالاسم والرسم " [١] .

يقول ليكي : " ان الدين الروحي كان اساسه على الاثرة ، ولم يكن يرمي الا الى رفاهة الافراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد في ذلك أنه ظهر في روحية مئات من الابطال والعظماء ، ولكن لم ينهض فيها زاهد في الدنيا عزوف عن ملذات الحياة ، ولا تسمع مثالا في تاريخ الروم للتضحية والايثار الا وتجده لاتاثير فيه للدين ولكن مبنيا على الوطنية " [٢] .

ويقول الاستاذ الندوي : " والظاهرة التي يمتاز بها الروم من بين أمم الارض المعاصرة بل بعدها ، والتي اصبحت لها دينا تدين به وشعارا تعرف به هو روح الاستعمار والنظر المادي البحت الى الحياة ، وذلك ما ورثته اوربا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه " [٣] .

ويقول الاستاذ محمد أسد : " كانت الفكرة التي تقوم عليها الامبراطورية الرومانية هي الاجتياح بالقوة واستغلال الاقوام الاخرين ، لفائدة الوطن الام وحده ، وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون في عنفهم سوءا ولا في ظلمهم انحطاطا . وان "العدل الروماني " الشهير كان عدلا للرومان وحدهم [٤] .

---

(١) انظر نفس المصدر ص ١٨٠

(٢) ليكي : تاريخ اخلاق اوربا ص ١٧٧ نقلا عن المصدر السابق ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨١ .

(٤) وهذا هو الاسلوب الذي نهجته الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا وغيرهما من الامم المستعمرة حيث كانوا يستغلون خيرات البلاد وينهبون ثرواتها في سبيل الترفيه عن شعوبهم فقط .

ومن الهين أن اتجاها كهذا كان ممكنا فقط على أساس ادراك مادى خالص للحياة وللحضارة " ادراك مادى هذبه على التأكيد ذوق فكرى ولكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية " . ان الرومانيين فى الحقيقة لم يعرفوا الدين وان آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية لقد كانت أشباحا سكت عن وجودها حفظا للعرف الاجتماعى ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية . بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها اذا سئلت مثل ذلك ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية " (١) .

وعلى هذا الاساس فالفلسفة الرومانية فلسفة ارضية ، لاتؤمن الا بالحياة المادية ، وتنكر تدخل الله سبحانه وتعالى فى شئون السياسة والحكم وفرض الشرائع الاخلاقية عليهم ، أى انهم يرفضون التحاكم الى شرع الله .

ومع أنهم كانوا يعبدون آلهة وثنية متعددة ، فانهم كانوا لا يدينون لها بالطاعة فى أعمالهم وتصرفاتهم ولاسلطان لها على نفوسهم .

وقد كانت الاديان فى الدولة الرومانية قبل أن تصير نصرانية ثلاثة هى

(١) دين الدولة الرسمى وهو الوثنية .

(٢) دين اليهود .

(٣) دين النصارى .

وفى خضم الاضطهاد الدينى للنصارى حدث مايلى :

أ ــ دخل نفر من النصارى فى الوثنية ولكنهم ظلوا بعقولهم وقلوبهم نصارى .

ب ــ دخل نفر من الوثنيين فى النصرانية بعد زوال الاضطهاد ولكنهم ظلوا بعقول وعاطفة وثنية .

وقد نشأت فى الدولة الرومانية فلسفة خاصة نتيجة للظلم والاضطهاد الذى كان يعانيه المجتمع ، والترف والبذخ الذى كان يعيشه النبلاء والاشراف ، وفساد رجال الدين ، ونتيجة لضعف السلطان الدينى فى النفوس .

---

(١) محمد اسد ــ الاسلام على مفترق الطرق . ص ٣٥ ــ ٣٦ .

فلما أراد الفلاسفة أن يملأوا الفراغ الذى تركه سلطان الدين فى صدور الناس قدموا تلك الفلسفة التى تسموا فيها العواطف بالعقل الى أعلى ، وامتزجت تلك الفلسفة الجديدة بالوثنية والنصرانية وتكونت ديانة جديدة ، أو فلسفة جديدة هى النصرانية التى امتزجت بالفلسفة والافكار الوثنية ، أو الوثنية التى صارت مسيحية وانصهرت فى بوتقة تسمى الفلسفة "(١) .

انحراف النصرانية

سار الانحراف فى النصرانية فى طريقين :

الاول : انحراف فى العقيدة .

والثانى : فصل العقيدة عن الشريعة .

كيف بدأ الانحراف فى العقيدة ؟

ذكرنا سابقا أن الدين المنزل من عند الله على عيسى عليه السلام هو دين التوحيد الخالص، دين الانبياء جميعا ، الذين افردوا الله سبحانه وتعالى بالعبادة والحاكمية، ونزهوه عن الصاحب والولد والشريك .

ولكن النصارى حرفوا دين الله ، وقاوموا دعوة التوحيد التى جاء بها عيسى عليه السلام ، ومزجوا العقيدة الصحيحة بتعاليم الوثنيين وفلسفتهم ارضاء للجماهير حتى يكسبوا ودهم ويدخلوا فى دينهم ويكونوا عونا لهم فى نشر الدين فى الارض .

أول من بدأ التحريف :

وقد بدأ التحريف فى وقت مبكر من ظهور هذا الدين على الارض وتولى كبر التحريف اليهودى شاول او بولس ، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للديانة النصرانية المحرفة .

---

(١) انظر اضواء على المسيحية ص ٢٩ .

يقول الدكتور احمد شلبى : " وبولس هو المؤسس الحقيقى للديانة المسيحية .. .. ولم ينفر بولس من الطقوس الوثنية ، بل على العكس اقتبس كثيرا من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين دون أن ينفروا منها " (١) .

ويقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب : " فلقد التقت المسيحية بالوثنية فصافحتها مصافحة المسالمة والموادعة ، بل والمصادقة !! فلم تنكر عليها وجها من وجوهها ـ بل ان دعاة المسيحية ورسلها الاولين قد غيروا وبدلوا فى صميم الشريعة ، لكى تجىء على سمت التفكير الوثنى وما استقر فى نفوس الوثنيين وحياتهم من تقاليد وعادات " (٢) .

التحريف الاول : تحريف العقيدة :

وأول تحريف أصاب من الديانة النصرانية مقتلا هو تحريف العقيدة وقد سار هذا التحريف فى طريقين :

الاول : القول بالوهية المسيح وبذر بدرة التثليث .

الثانى : استحلال ماحرم الله وتحريم ما أحل الله .

وقد ظهر هذا التحريف فى وقت مبكر والحواريون لا يزالون على قيد الحياة حين انتشر بين الناس ان للمسيح طبيعة الهية . على الرغم من ان سيدنا عيسى عليه السلام ـ كما تعترف دائرة المعارف البريطانية ـ لم تصدر عنه اى دعوى تفيد أنه من عنصر الهى ، او من عنصر اعلى من العنصر الانسانى المشترك (٣) .

وكانت اليد الطولى فى التحريف كما ذكرنا سابقا لبولس الرسول، اليهودى الاصل الذى اشتهر اول حياته باضطهاد النصارى ثم تحول فجأة فاصبح

---

(١) المسيحية ص ٧٣

(٢) المسيح فى القرآن والتوراة والانجيل ص ٣٣٨ .

(٣) انظر رسالة العلمانية واثارها فى الحياة الاسلامية المعاصرة ص ١٣ والجفوة المفتعلة ص ١٥ .

الشخصية النصرانية الاولى والقطب الكنسى المعظم .

وبولس هو أول من أثار موضوع ألوهية المسيح مدعيا أنه " ابن الله " (١) .

" ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه " (٢) _ وكانت هذه الدعوى البـــذرة الاولى لعقيدة التثليث .

وقد تأثر بولس بمدرسة الاسكندرية التى أشرنا سابقا الى تعاليمها وعنهـــا نقل فكرة التثليث .

يقول ولز " على أن ما أسهمت به نحلة الاسكندرية فى الفكر المسيحـــى والطقوس المسيحية كان أعظم قدرا أو يكاد " . (٣)

ويقول فى موضع آخر : " وظهر للوقت معلم آخر عظيم يعده كثير مـــن الثقات المؤسس الحقيقى للمسيحية وهو شاؤل الطرسوسى او بولس والراجـــح أنه كان يهودى المولد وان كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك . ولا مـــراء فى أنه تعلم على أساتذة من اليهود بيد أنه كان متبحرا فى لاهوتيات الاسكندرية الهلينية .. وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفى للمدارس الهلنستية ، وباساليب الرواقيين ، كان صاحب نظرية دينية ومعلما يعلم الناس قبل أن يسمـــع بيسوع الناصرى بزمن طويل .. ومن الراجح جدا أنه تأثر بالمترائية اذ هو يستعمـل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المترائية . ويتضح لكل من يقرأ رسائله المنوعـــة جنبا الى جنب مع الاناجيل أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لاتبدو قط بارزة قويـــة فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعاليم . ألا وهى فكرة الشخص الضحية الذى يقـدم قربانا لله كفارة عن الخطيئة ، فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للـــروح الانسانية ، أما ماعلمه بولس فهو الديانة القديمة ديانة الكاهن والمذبـــح وسفك الدماء طلبا لاسترضاء الالـه " (٤) .

---

(١) انظر رسالة بولس الى اهل رومه صح ١ : ٤_٥

(٢) مريـم ٣٥ .

(٣) معالم تاريخ الانسانية ص ٧٠٩ جـ ٣

(٤) معالم تاريخ الانسانية ص ٧٠٥ _ ٧٠٦ جـ ٣

ويقول الدكتور أحمد شلبى : " لقد أحدث بولس فى المسيحية أحداثا خطيرة .. نقلها من التوحيد الى التثليث ، قال بألوهية المسيح وألوهية الروح القدس .. الخ "(١) .

وبعد هذا التحريف فى العقيدة الذى هدم أساس الديانة النصرانية التى تعانى من التحريف حتى يومنا هذا ، نعرض التحريف الخطير الثانى فى العقيدة الذى هز النصرانية من اساسها وهو تحريم ما أحل الله ، واستحلال ما حرم الله، والمساومة على العقيدة .

ثانيا : استحلال ماحرم الله وتحريم ما أحل الله :

قدم النصارى واحبارهم ورهبانهم تنازلات كثيرة فى عقيدتهم وشريعتهم لكسب ود الوثنيين طمعا فى دخولهم فى دينهم، ومن اهم هذه التنازلات بعد التثليث: تحريم ما أحل الله واستحلال ماحرم الله سبحانه وتعالى . والى هذا أشار الله سبحانه وتعالى بقوله :

" اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون "(٢) .

وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه . روى الطبرى عن مصعب بن سعد عن عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب . فقال ياعدى اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته . وانتهيت اليه وهو يقرأ فى سورة براءة فقرأ هذه الآية اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال : قلت يارسول الله انا لسنا نعبدهم فقال اليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ماحرم الله فتحلونه قال قلت بلى قال فتلك عبادتهم " وفى رواية اخرى قلت يارسول الله

---

(١) المسيحية ص ١٠٣
(٢) التوبة ــ ٣٠

أما انهم لم يكونوا يصلون لهم قال صدقت . ولكنهم كانوا يحلون لهم ماحرم الله فيستحلونه ويحرمون ما أحل الله فيحرمونه " (١) .

وعن أبى البخترى قال سئل حذيفة عن قول الله عز وجل " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . هل عبدوهم ؟ فقال لا ولكن احلوا لهم الحرام فاستحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه " وذكر عبد الله بن عباس رضى الله عنهما نحو هذا حيث يقول : " لم يأمروهم أن يسجدوا لهم ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم فسماهم الله بذلك أربابا . " (٢)

ويجب علينا هنا أن نلاحظ قضية هامة ، وهى أن المساومة على العقيدة والتشريع الربانى ، وتقديم التنازلات على حساب الدين الاسلامى ، من أجل استرضاء كفار قريش الذين عذبوا المسلمين واضطهدوهم ، قضية أباها الله سبحانه وتعالى وأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يرفضها رفضا حازما فقد أخرج ابن جرير وابن ابى حاتم والطبرانى عن ابن عباس " أن قريشا دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا هذا لك يامحمد وكف عن شتم آلهتنا ولاتذكرها بسوء . فان لم تفعل فانا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح قال ماهى ؟ قالوا تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، قال حتى أنظر مايأتينى من ربى . فجاء الوحى من عند الله " قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون .. (٣) الى آخر السورة . وأنزل الله — قل أفغير الله تأمرونى أعبد ايها الجاهلون (٤) — الى

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن — ج ١٠ ص ٨٠ — ٨١ . وقد جاء الحديث بالفاظ متقاربة فى ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٥ . وجامع الترمذى مع شرحه تحفة الاحوذى ج ٤ ص ١١٢ وقال الترمذى عنه حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث عبد السلام بن حرب بن غطيف بن اعين ليس بمعروف فى الحديث

(٢) الجامع لاحكام القرآن ج ٤ ص ٢٦٥٦ وجامع البيان فى تفسير القرآن ج ١٠ ص ٨١

(٣) سورة الكافرون وتمامها : ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا انا عابد ماعبدتم ولا انتم عابدون ما اعبد . لكم دينكم ولى دين .

(٤) الزمر وتمامها . ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين . الايات ٦٤ ، ٦٥ .

قوله ـ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين " (١) .

أما النصارى فساوموا على عقيدتهم وشريعتهم ، وقدموا تنازلات كبيرة في سبيل ارضاء الوثنيين كما ذكرت سابقا ، فمثلا حرم النصارى الختان الذى أحله الله لهم واحلوا لحم الخنزير الذى حرمه الله عليهم . وكان أول من قدم تنازلات في الشريعة النصرانية للوثنيين من أجل قبول العقيدة النصرانية هو :(شاول بولس) الذى دخل في النصرانية ليكيدها ويفسد اصولها ، وهو يهودى الاصل وعدو للمسيحية كما عرفنا .

يقول برنتون : " كانت العقبة الكبرى في وجه الاميين الذين وجدوا أسلوب الحياة المسيحية جذابا قانون اليهود ـ أى شريعة التوراة ـ الى أن يشرح الكاتب كيف أن بولس أزال هذه العقبة فافتى بأن " الاغريق والمصريين والرومان الذين يقبلون المسيحية في حل من الختان وفي حل من التقيد بحرفية القانون " (٢) .

ويقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب عن استحلال لحم الخنزير : " وكذلك كان الشأن في الخنزير " الذى تحرمه الشريعة ـ فلقد اباح رسل المسيحية للمسيحيين أكله استجابة للعادة التى كانت قد رسخت في الوثنيين من استطابة طعامه والحرص على اقتنائه " (٣) .

وفي غمار موجة الاضطهاد التى ابتلي بها النصارى ، زاد التحريف في الديانة ، واقتبسوا كثيرا من عادات الوثنيين كلباس القساوسة وحلق اللحى وغيرها .

---

(١) فتح القدير جـ ٥ ص ٥٠٨ وانظر القرطبي جـ ٨ ص ٧٣١٥ ـ ٧٣١٧ .
(٢) افكار ورجال ص ١٨١ .
(٣) المسيح في القران والتوراة والانجيل ص ٣٣٩
ـ ومحاضرات في النصرانية ص ١٣٥ .

من الهدع والخرافات لامجال لحصرها وانما تراجع فى مظانها " (١) .

ولم يخف الاضطهاد عن النصارى الا فى عهد قسطنطين الذى تسلم عرش الامبراطورية الرومانية فى حالة ضعف وضعضعة فأراد أن يرأب الصدع ويعيد بناء الدولة من جديد ، لتبقى قوية متماسكة ، فأظهر عطفه ووده للنصارى ، ليعاونوه على ماعقد النية عليه .

ولما كانت سنة الله لاتتغير وهى أن الحق والباطل دائما فى صراع مستمر ، فقد دب الخلاف بين النصارى الموحدين وبين النصارى المتأثرين بالتثليث والوافد اليهم على يد بولس ــ ومدرسة الاسكندرية .

وقد خشى الامبراطور على سلامة بنيان دولته من هذا الخلاف ، فدعا القساوسة والرهبان الى عقد اجتماع موحد للقضاء على ذلك الخلاف .

مجمع نيقية

وبالفعل اجتمع كثير من الرهبان والقساوسة لبحث هذا الامر الخطير ولكن الوثنية انتصرت فى هذا المجمع العام الذى ترأسه الامبراطور ، وقد عقد هذا المجمع فى نيقية عام ٣٢٥م .

يقول ولز : " وثمة أمر هام جدا علينا أن نلحظه ونسجله وهو الدور الذى لعبه الامبراطور فى تثبيت المسيحية فلم يقتصر الامر على أن قسطنطين الكبير هو الذى دعا لاجتماع مجمع نيقيه ــ بل ان كل المجامع العظيمة ومنها اثنان بالقسطنطينية ــ جمعتها كلها يد الامبراطور " . (٢)

أهم قرارات هذا المجمع :

أ ــ القول بالتثليث وبالوهية المسيح ونزوله ليصلب تكفيرا عن خطيئة البشر .

ب ــ عدم التصريح لمن يترمل من الكهنة بأن يتزوج مرة أخرى .

---

(١) انظر المسيحية ، ومحاضرات فى النصرانية وقصة الحضارة ، ومعالم تاريخ الانسانية وغيرها من الكتب التاريخية ومقارنة الاديان .

(٢) معالم تاريخ الانسانية جـ ٣ ص ٧٢١ .

جـ - اختار المجمع الكتب المقدسة التى لاتتعارض مع القرارات السابقة وقرر تدمير ماعداها من الرسائل والاناجيل " (١) .

وينقل ول ديورانت نص القرار الذى صدر عن المجمع " نحن نؤمن بإله واحد هو الاب القادر على كل شىء خالق الاشياء كلها ماظهر منها ومابطن وسيد واحد هو المسيح ابن الله ، المولود - غير المخلوق من نفس جوهر الاب - وأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد وصار انسانا ، وتعذب وقام مرة ثانية فى اليوم الثالث وصعد الى السماء وسوف يعود ليحاسب الاحياء والاموات " . (٢)

وقد أثمر آخر الامر ذلك الاجماع العملى على العقيدة الاساسية التى اشتق منها اسم الكنيسة فى العصور الوسطى وهو الكنيسة الكاثوليكية . وكان فى الوقت نفسه ايذانا باستبدال المسيحية بالوثنية وجعلها المظهر الدينى والعضد القوى للامبراطورية الرومانية " (٣) .

واعتنق قسطنطين النصرانية وانتصرت على الوثنية واصبح لها دولة قوية مترامية الاطراف، ولكن النصارى الذين انتصروا فى ساحة القتال وكونوا دولة عظيمة، انهزموا فى معترك العقائد والاديان، وكان أكبر مسخ للنصرانية على يد قسطنطين الذى فرض الوثنية عليها .

سبب مداهنة النصارى للوثنيين :

كان النصارى فى حالة ضعف واضطراب ، فقد تلاحقت عليهم عدة اضطهادات من أقسى ماعرفته البشرية كما ذكرنا ذلك .

---

(١) المسيحية ص ١٦٥ .

(٢) اما الاسلام فقد نفى الولد والشريك والصاحبة والولد عن الله سبحانه وتعالى، ونزهه عن النقائص والعيوب، كما نفى الصلب عن المسيح عليه السلام، ورد امر الحساب الى الله سبحانه وتعالى، وجميع الانبياء عليهم السلام شهود على اقوامهم، كما نفى فكرة الحلول والاتحاد والتجسيد فى البشر عن الله سبحانه وتعالى .

(٣) قصة الحضارة جـ ٣ مجلد ٣ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

اريوس خالف قرارات المجمع لأنه كان موحدا ونفى الصلب والبنوة عن عيسى عليه السلام ولا يزال اتباعه الى اليوم ويسمون بالموحدين .

وحين تسلم قسطنطين العرش ، أمر برفع الاضطهاد عنهم ، ولاجل هذا كانوا على استعداد لان يقدموا تنازلات كبيرة فى عقيدتهم ، وذلك راجع الى أمرين : الامر الاول : ان بذور التحريف وجدت فى عصر مبكر من ظهور الديانة على يد بولس وانصاره ابان الاضطهادات الاولى . ثم تعمقت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير كثير من المنافقين واليهود الذين تسلموا وظائف كبيرة فى الدولة الرومانية ، بسبب تظاهرهم بالنصرانية على الرغم من أنهم لم يحتفلوا بأمر الدين ولم يخلصوا له قط فى حياتهم ، بل كانوا يهدفون الى تدميره والقضاء عليه .

الامر الثانى : قد يكون مع هؤلاء فئة من علماء النصارى رضيت بالتنازلات فى العقيدة استرضاء لقسطنطين رغبة باقامة دولة نصرانية ، واحتمال وجود هذا الصنف أورده المؤرخ درابر . ولكن الانسان متى قبل التنازلات فى عقيدته استسلم للتحريف ، وهذا هوالذى وقع للنصارى فقد قوى سلطانهم وحكموا الناس باسم الدين النصرانى ولكنهم لم ينقحوا عقيدتهم بل زاد التحريف واستغل الدين فى سبيل تحقيق مصالح الكنيسة ورجالها الخاصة .

يقول درابر : " دخلت الوثنية والشرك النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ولم يخلصوا له يوما من الايام . وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية الا قليلا فى آخر عمره (٣٣٧ م) .

ان الجماعة النصرانية وان كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها ، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء . هنالك يختلف الاسلام عن النصرانية اذ قضى الاسلام على منافسته (الوثنية) قضاء باتا ونشر عقائده خالصة بغير غش .

وان هذا الامبراطور الذى كان عبدا للدنيا لم تكن عقائده الدينية تتساوى شيئا رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـ النصرانى والوثنى ـ

أن يوحد هما ويؤ لف بينهما ، حتى ان النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر اذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الامر من أدناس الوثنية وأرجاسها " (١)

ثم توالت المجامع المقدسة بعد مجمع نيقية على الانعقاد واحدا اثر الاخر وكان من أشهرها مجمع القسطنطينية الاول عام ٣٨١ م الذى قضى بألوهية الروح القدس ثم مجمع رومه الذى عقد سنة ١٢١٥ م وفيه تقرر أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء وكان آخر المجامع مجمع رومه الذى عقد سنة ١٨٦٩ م وفيه تقرر أن البابا معصوم . (٢)

ونختتم حديثنا عن المجامع المقدسة وأثرها على الدين النصرانى بعبارة لزكى شنودة جاء فيها : " كانت هذه المجامع فى بداية أمرها وسيلة للدفاع عن الايمان المسيحى . ثم لم تلبث ان أصبحت بعد ذلك أداة فى يد الامبراطور لتنفيذ أغراضه ، مستغلا فى ذلك مطامع بعض الاساقفة وطموحهم الى الجاه والنفوذ والسلطان . وهكذا اصبحت المجامع أداة هدم بعد أن كانت أداة بناء (٣) ، وقد فتحت الباب على مصراعيه للخصومة والشقاق بين المسيحيين فى البلاد المختلفة " (٤) .

ويصور شيخنا الاستاذ محمد قطب حفظه الله استغلال الكنيسة للعقائد الممزوجة بالوثنية التى صنعتها الكنيسة ومجامعها للناس تصويرا رائعا حيث يقول :

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٣ــ١٨٤ نقلا عن النزاع بين الدين والعلم ص ٤٠ــ٤١

(٢) انظر المسيحية ص ١٦٥ ــ ١٦٧

(٣) نخالف الكاتب فيما ذهب اليه من أن المجامع كانت اداة بناء ، لأن اول المجامع وهو مجمع نيقيه كان هداما حيث هدم اكبر جزء فى العقيدة وهو القول ببنوة المسيح ، فنقل النصرانية بهذا القرار من التوحيد الى الشرك رسميا .

(٣) المسيحية ص ١٦٨ ــ نقلا عن تاريخ الاقباط فى مصر لزكى شنوده ص ١٧٧ .

" ومزجت العقيدة السماوية بعناصر وثنية من التى كانت قائمة يومئذ تأليفا لقلوب الوثنيين وتشجيعا لهم على الدخول فى الدين • فلما اصبح هذا المزيج المختلط غير مفهوم للناس ، ادعت الكنيسة لنفسها التفرد بمعرفة الاسرار التى خفيت عليهم — وعلقت ايمانهم بالله بالتسليم بهذه الاسرار دون مناقشة ودون علم — وجعلت وساطة الكنيسة ضرورية لاتمام الاتصال بينهم وبين الله • ثم فرضت الكنيسة لنفسها — عن هذا الطريق — سلطانا بشعا على القلوب والافكار والمشاعر " (١) •

التحريف الثاني : فصل العقيدة عن الشريعة :

لم تحكم النصرانية منذ ظهورها واقع الناس وحياتهم بشريعة الله • وقد عمل المسيح عليه السلام جاهدا لاقامة حكم الله وتطبيقه على حياة الناس الذين أرسل اليهم وتصحيح انحرافاتهم الاعتقادية • وشاءت حكمة الله تعالى أن يرفعه اليه قبل اقامة دولة تحكم بشرع الله• ودعوة الانبياء عليهم السلام تكون دائما ضعيفة فى بداية أمرها لقلة الاتباع وضعفهم • ثم ينشط الدعاة المخلصون لله عز وجل فى تبليغ دعوة الله فيمكن الله لهم فى الارض وينصرهم على أعدائهم •

ولكن النصارى أبوا الا أن يحرفوا دينهم •فاذا لم يحرفوا بعض الكلام عن مواضعه — حيث حرفوا الكلم عن مواضعه — حرفوا الفهم عن المعنى المقصود من كلام نبيهم فاتخذوا من قولة المسيح حين سأله الفريسيون عن جواز اعطاء الجزية لقيصر أم لا • فقال لهم بعد أن طلب منهم العملة التى يدفعون بها الجزية وقد ظهرت على أحد وجهيها صورة القيصر قال : " اعطوا اذن ما للقيصر لقيصر وما لله لله" فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا " (٢) • " اتخذوا هذه المقولة حجة لفصل الدين عن الدولة مع أن المسيح عليه السلام ان كان قالها حقا فانما يقصد منها أن الاوان لم يحن بعد لمقاتلة قيصر ولا يمكن أن يكون قد قصد بها المعنى الذى ادعته الكنيسة من فصل الدين عن الدولة ، لانه لا يمكن لنبى مرسل من عند الله

---

(١) جاهلية القرن العشرين ص ٢٤٨ — ٢٤٩

(٢) متى صح ٢٢ : ١٨ — ٢٢ •

أن يقسم العالم الى قسمين ، ويعطى الطاغية الكافر شرعية وحكما ." (١) ولكن الكنيسة هى التى فسرت هذه القولة بفصل الدين عن الدولة واعتبار الدين علاقة بين العبد والرب محله فى القلب ، ولا يتدخل فى شئون الحياة العملية (فيما عدا الاحوال الشخصية) .

وهكذا كانت حياة الناس تحكم قلوبهم ومشاعرهم ديانة محرفة ، وتحكم حياتهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية قوانين رومانية وثنية .

وحين سيطرت الكنيسة على الحكم لم تغير من واقع الحال ، ولم ترد الناس الى التحاكم لشرع الله ، بل احتفظت بالسيادة لنفسها لتحقيق مطامعها الشخصية وسلكت فى سبيل هذا الهدف شتى أنواع الطغيان واستعملت أخس الوسائل وأحقر الاعمال .

وزاد طغيان الكنيسة ورجالها فى جميع ميادين الحياة ، وفيما يلى تفصيل ذلك .

طغيان الكنيسة

الكنيسة معبد النصارى وما يشتمل عليه هذا المعبد من رجال هم عندهم مقدسون ، لانهم فى عقيدتهم موهوبون من عند الله أو الرب المسيح " قاتلهم الله أنى يؤفكون " (٢) . فالبابا والقسيس وواعظ القرية وراعى الابرشية كلهم لهم قداسة حيث اغتصبوا هذا السلطان لذواتهم وشاركوا الله سلطانه فى الارض ، ابتدعوا هذه القداسة ، لا لأنهم يقومون على تنفيذ شرع الله وانما فرضوا سلطانهم على الملوك والناس لتحقيق مصالحهم الشخصية . وقد مارست الكنيسة الوانا كثيرة من الطغيان من أهمها :

---

(١) مقتطفات من محاضرة شيخنا الاستاذ محمد قطب على طلاب السنة المنهجية فرع العقيدة يوم الاحد ٢٣/١٢/١٩٧٧م .
(٢) التوبة ـ ٣٠ .

الطغيان الروحي :

بعد أن حرف النصارى دينهم، أصبح كثير من عقائدهم غير مفهوم لدى الناس، فاتخذت الكنيسة لنفسها حق فهم هذه الاسرار، وعلى الناس أن يؤمنوا بها دون مناقشة، واصبحت تفسر هذه الاسرار لمصالحها الشخصية . ونتيجة لهذا الغموض في العقيدة أمسى للكنيسة حق منح المغفرة لمن تشاء . وحرمانها عمن تشاء، وحالت بين الناس وخالقهم . فما عادت التوبة تقبل الا عن طريقها بعد أن يعترف المذنب بذنوبه أمام القسيس والكاهن(١) (أى مايسمى بعرفهم بكرسى الاعتراف) كما فرضت الكنيسة سلطانها على أرواح الناس وعقولهم . وهذا أمر لاتملكه . والاسرار التى فرضتها الكنيسة والتي لا يمكن للعقل أن يتقبلها اعتبرت مسلمات لا يجوز التفكير فيها ولا مناقشتها . وأهم هذه الاسرار التى لاتناقش والا تعرض المناقش للحرمان والطرد من رحمة الله على زعم الكنيسة هى : عقيدة التثليث والعشاء الربانى وكرسى الاعتراف وغيرها من امور العقيدة . أضف الى ذلك أنها باركت فصل الدين عن الدولة .

وعززت الكنيسة سلطتها الدينية بادعاء حقوق لا يملكها الا الله سبحانه وتعالى مثل حق الحرمان . وحق الغفران . وحق التحلة . وهو حق خاص يبيح للكنيسة

---

(١) الاسلام لا يقر الوساطة بين الخالق والمخلوق . واذا ما أذنب الانسان ذنبا وستره الله عز وجل لا ينبغى له ان يحدث الناس عن ذنبه . وأن يعترف امامهم بتفاصيله مهما كانت مرتبتهم سواء كانوا من العلماء او غيرهم من الناس . بل على الانسان ان يستغفر الله لذنبه مباشرة بدون وساطة أحد لان الله غفور رحيم .

عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل امتى معافى الا المجاهرين . وان من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يافلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه " . والمجانة هى المجاهرة صحيح البخارى ج ٨ ص ٢٤ .

أن تخرج عن تعاليم الدين وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت المصلحة — مصلحتها هي — ذلك "[1] . وحتى الحرمان كان شبحا مخيفا للافراد والشعوب في آن واحدة . فأما الذين تعرضوا له من الافراد فلا حصر لهم من الملوك أمثال هنرى الرابع الالماني وهنرى الثاني الانجليزى ورجال الدين المخالفين من آريوس حتى لوثر والعلماء والباحثون من برونو الى ارنست رينان وغيرهم .

" أما الحرمان الجماعي فقد تعرض له البريطانيون عندما حصل خلاف بين الملك يوحنا ملك الانجليز وبين البابا ، فحرمه البابا وحرم أمته فعطلت الكنائس من الصلاة ومنعت عقود الزواج ، وحملت الجثث الى القبور بلا صلاة ، وعاش الناس حالة من الهيجان والاضطراب ، حتى عاد يوحنا صاغرا يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا ، ولما رأى البابا ذله وصدق توبته رفع الحرم عنه وعن الامة " (٢) .

الطغيان السياسي :

ذكرنا فيما سبق أن الكنيسة هي التى فسرت قولة المسيح عليه السلام " اعطوا اذن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله " بفصل الدين عن الدولة . ولكن البابوات ورجال الكنيسة حين تمت لهم السيطرة السياسية في القرن الخامس الميلادى لم يهدفوا من وراء سيطرتهم السياسية الى تطبيق حكم الله في الارض ، ولكنهم استغلوا سلطتهم السياسية في سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية فادعت الكنيسة ان لها سلطة زمنية على أرواح وعقول واجساد البشر ، واشتطت في هذا السلطان الى حد الوحشية والفظاظة . ولم يعد يخطر في بالهم ان يروا على حد تعبيرهم مملكة الرب موطدة في قلوب البشر بل اصبح همهم ان يروا قوة الكنيسة التى هي قوتهم متسلطة على شئون الناس في جميع مجالات

---

(١) معالم تاريخ الانسانية ج ٣ ص ٨٩٦

(٢) انظر حرية الفكر ص ٥٦ . والعلمانية واثارها في الحياة الاسلامية المعاصرة ص ٩٥ .

الحياة • وكانوا لا يخجلون فى سبيل تحقيق هذا الهدف من المساومة على أمور الدين •

يقول ولز فى معرض حديثه عن الكنيسة : " فاصبح قساوستها واساقفتها على التدريج رجالا مكيفين وفق مذاهب واعتقادات حتمية واجراءات مقررة ثابتة حتى اذا ما آن أوان توليهم منصب الكرادلة او البابوات اذا بهم فى العادة كهول قد الفوا من الكفاح السياسى ، ذلك الضرب الذى يقصد الى غاية قريبة مباشرة ولم يعودوا اهلا لقبول آراء رحيبة يشمل افقها العالم بأسره •

ولم تعد لهم بعد رغبة فى رؤية مملكة الرب موطدة فى قلوب الناس • فقد نسوا ذلك الامر واصبحوا يرغبون فى رؤية قوة الكنيسة التى هى قوتهم ، متسلطة على شئون البشر وكانوا فى سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أى شىء حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة فى نفوس البشر •

" ونظرا لان كثيرا منهم كانوا على الارجح يسرون الريبة فى سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة لم يسمحوا بأية مناقشة فيه ، كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون فى مخالفة ، لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم بل لانهم كانوا غير واثقين منها • وكانوا يريدون ممن حولهم موافقتهم على رأيهم لاسباب تتصل بالسياسة " (١) •

هذا وقد فرضت الكنيسة سلطانا قاسيا على الملوك والامراء والنبلاء ، ولم يكن هذا الطغيان على الملوك من أجل خدمة دين الله واجبارهم على تنفيذ شرعه وانما كان من أجل مصالح رجال للكنيسة ومنافعهم الشخصية واظهار عظمة بابواتها وقوتهم ، ولتتمكن اكثر من فرض طغيانها الروحى والمالى على الناس • حيث لم يكن هناك ملك — على جبروت الملوك جميعا — يجرؤ على مخالفة البابا • وقد كان الملك يستمد من ذله أمام البابا شموخا على رعيته وكان الملوك واعوانهم ادوات تنفيذ فى يد البابا ولم تكتف الكنيسة بهذا الاذلال للملوك بل جندت

---

(١) معالم تاريخ الانسانية ج ٣ ص ٩٠٢ — ٩٠٣

جيشا لها لملاحقة العصاة وتأديب الملوك الخارجين عن طاعتها المطلقة .

كان لهذه التصرفات الحمقاء التي مارستها الكنيسة الاثر الكبير في نزع هيبتها من صدور الناس لانها لم تنفذ شرع الله الصحيح ، فثار الناس من علماء ومفكرين وكتاب وفنانين وملوك وأمراء على الكنيسة ليتخلصوا من نيرها القاسي المذل ، وبالتالي تحطيم الدين الذي تدعوا اليه الكنيسة ورفض سلطته والتحرر من قيوده التي فرضتها الكنيسة باسمه .

يقول ول ديورانت " واتفقت الكنيسة والدولة على أن الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب أن يعاقبوا بالاعدام "(١) .

ويقول ولز : " ثم يجيء هلدبراند العظيم الذي ختم حياته تحت اسم جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) والذي فصل الشيء الكثير بتقريره العزوبة على رجال الدين وتشبثه بسيادة الكنيسة على الملوك والامراء لكي يركز قوة الكنيسة في روما .

" وحدث نزاع عظيم بين هلدبراند والامبراطور المنتخب هنري الرابع على مسألة التعيينات فحاول الامبراطور ان يخلع البابا ، فحرم البابا الامبراطور ، وأحل اتباعه الامراء من ولائهم له . واضطر الامبراطور ان يذهب تائبا الى البابا في كانوسا (١٠٧٧) وان ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثرا بالخيش وهو حافي القدمين في الثلج في فناء القلعة "(٢) .

الطغيان المالي :

استخدمت الكنيسة سلطانها الروحي في ابتزاز اموال الناس ليرفه رجالها عن أنفسهم بالملذات والمتع التي حرموها على غيرهم ، وليبنوا القصور ويزينوها بالاثاث الفاخر والتحف فاحلوا لانفسهم ماحرموه على غيرهم .

---

(١) قصة الحضارة ج ٥ مجلد ٤ ص ٦٩

(٢) معالم تاريخ الانسانية ج ٣ ص ٩١٠ ـ ٩١١ .

وقد استخدمت الكنيسة مختلف وسائل الابتزاز ، ففرضت العشور والضرائب والخدمة المجانية يوما واحدا في الاسبوع ، وأن يوصي الميت بجزء من وصيته للكنيسة فتحولت الى اقطاعية كبيرة . وبارکت نظام الاقطاع وحمته ووقفت بوجه من ثار ضده .

يقول ول ديورانت: " وكان ينتظر من القس أن يصب اللعنات من اجل عشوره ـ على حد قول الانجليز ـ اى ان يخرج من الدين من يحاولون التملص من أدائها او يزورون في ايرادهم لان الناس في تلك الايام كانوا يكرهون أداء العشور للكنيسة التي يرون أن أعمالها لازمة لنجاتهم " (١) . ويقول أيضا : " وكان ينتظر من كل مالك حسب السنن الاقطاعية ان يوصي حين مماته بجزء من ماله للكنيسة . وكان الذين لايفعلون هذا يرتاب في صدق ايمانهم ويتعرضون لعدم الدفن في الاراضي المخصصة للموتى الصالحين .

واذا كان الذين يعرفون الكتابة من غير رجال الدين نسبة ضئيلة من الاهليين فان القس كان هو الذي يدعى في العادة الى كتابة الوصايا . وقد اصدر البابا اسكندر الثالث في عام (١١٧٠م) قرارا يحرم على اى انسان عمل وصية صحيحة من الوجهة القانونية الا في حضرة قسيس . وينص ان كل موثق من غير رجال الدين ـ يجرؤ على كتابة وصية بغير هذا الشرط يطرد من حظيرة الدين ، وكانت الكنيسة وحدها هي المختصة باثبات صحة الوصايا " (٢) .

ويصور ديورانت ضخامة ممتلكاتها قائلا : " واذا كانت املاك الكنيسة مما لا يجوز انتقاله الى غيرها وكانت قبل عام ١٢٠٠م معفاة في الاموال العادية من الضرائب الزمنية فقد أخذت هذه الاملاك تنمو على مر القرون فلم يكن من الامور غير العادية ان تمتلك كنيسة كبرى او يملك دير للرجال والنساء عدة الاف من الضياع تشمل فيما تشمله اثنتى عشرة بلدة بل تشمل احيانا مدينة كبرى او مدينتين " (٣) .

---

(١) قصة الحضارة مجلد ٤ ص ٦٨
(٢) نفس المصدر ص ٦٩
(٣) نفس المصدر ص ٧٠

صكوك الغفران :

لم تكتف الكنيسة بالاموال الطائلة التى كانت تأتيها عن طريق الهبات والضرائب والعشور وغيرها بل قادها طمعها وجشعها المادى الى المزيد من نهب أموال الناس ، ولو أن النهب جاء عن طريق الظلم لكان أثره على النفوس أخف . ولكن النهب جاء فى هذه المرة بطريقة هزلية اصطدمت مع العقول السليمة مباشرة . فكانت الضربة القاصمة التى وجهتها الى الكنيسة ودينها المحرف هذه المهزلة التى لم تسبق فيها الكنيسة لا فى المتقدمين ولا عند المتاخرين ، وهى بيع الجنة وتوزيعها فى مزاد علنى وكتابة وثائق وتعهدات تضمن فيها الكنيسة للمشترى غفران ماتقدم من ذنبه وما تأخر .. وليتها اكتفت بالاحياء ولكنها الام الرؤوم لم تغفل عن الاموات الذين فاتهم هذا المزاد الخطير الذى تغفر فيه الذنوب والخطايا .. فسمحت للاحياء بشراء صك الغفران لمن يحبون وهنا يفتح المجال للذى يدس وثيقة الغفران فى جيبه أن يفعل مايشاء من المنكرات فقد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر .. ماذا عليه لو أشرك بالله والمسيح عندهم ؟.. ماذا عليه لو زنى وسرق وفجر وقتل ؟ !! أليس المسيح هو الذى منحه الغفران .. والمسيح هو الذى يدين ويحاسب ؟ هل يمنح الناس المغفرة ثم يحاسبهم على الذنوب . " لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا " . (١) أما الفقراء والمحرومون الذين لا يجدون حيلة فيظلون محرومين من هذه الموهبة مهما بلغت تقواهم ومحبتهم العظيمة للمسيح عليه السلام ..

ـ الاساس الذى قامت عليه هذه المهزلة :

ان الاساس الذى قامت عليه هذه الهدعة هو الفكرة الوثنية التى زعمها رجال الدين لانفسهم وهى فكرة القداسة . وعن هذه الفكرة نشأت ضلالة

---

(١) مريم ٨٩ ـ ٩٢ .

أخرى وهى الاستشفاع برجال الدين ، ليغفر الله لهم ذنوبهم . وظل الجهلة يتوسلون الى القساوسة راجين الشفاعة والتقرب الى الله زلفى . وقد ترتب على هذه التصرفات ادعاء رجال الكنيسة لانفسهم حق التوسط بين الخالق وخلقه . فعن طريقهم تقبل الصلوات ، وهم الذين يطعمون العشاء الربانى وهم الذين يعمدون ، وهم الذين يقومون بمراسيم الزواج والموت ، وهم الذين يتقبلون الاعترافات من المذنبين . (وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا) (١) .

وقد كان النصرانى يستطيع ضمان الملكوت مع المسيح باعتراف واحد فى العمر هو اعترافه ساعة الاحتضار أمام القسيس . حيث يتم دهن جسده بالزيت المقدس فيتطهر من كل الارجاس والذنوب . وكان من العقوبات القاسية التى تتخذها الكنيسة ضد من يخالفها من الشعوب حرمانهم من الاعتراف الاخير والصلاة عليهم . فلا يشكون أن المحرومين ذاهبون الى الجحيم .

واستمر الحال مدة طويلة الى أن عقد مجمع لاتران عام ١٢١٥ الذى فرض على الناس أن يعترفوا أمام قسيس الابرشية مرة كل عام لكى يستطيعوا الحصول على الغفران . (٢)

وأخذ الناس يتوافدون على الكنيسة والابرشيات ويقدمون الهدايا لرعاتها وقساوستها فارتفع مركزها المادى والمعنوى . ولكن الناس تقاعسوا عن الاعتراف وتقديم الهدايا . وزاد الحاح الكنيسة على تثبيت مركزها وتعبئة خزائنها . واخيرا هداها تفكيرها الى كتابة الغفرانات فى صكوك تباع على الناس . وتنص على غفران ابدى ليكون حافزا قويا على دفع المبلغ الذى تقرره الكنيسة .

يقول الصك : " ربنا يسوع يرحمك يا .. (يكتب اسم الذى سيغفر له) ويحلك باستحقاقات الامة الكلية القدسية ، وانا بالسلطان الرسولى المعطى لى احلك من جميع القصاصات والاحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها . وايضا من جميع الافراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كل علة وان

---

(١) المجادلة ـ ٢ .

(٢) انظر تاريخ العالم جـ ٥ ص ٥٠٢

كانت محفوظة لابينا الاقدس البابا ، والكرسى الرسولى ، وامحو جميع اقذار الذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وارفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر ، واردك حديثا الى الشركة فى أسرار الكنيسة . واقرنك فى شركة القديسين ، أردك ثانية الى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك حتى انه فى ساعة الموت يغلق امامك الباب الذى يدخل منه الخطاة الى محل العذاب والعقاب ويفتح الباب الذى يؤدى الى فردوس الفرح ، وان لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الاخيرة ، باسم الاب والابن والروح القدس " (١) .

الاسباب التى دفعت الكنيسة الى ارتكاب هذه المهزلة :

فى هذه المرحلة كانت الكنيسة تواجه الد أعدائها " المسلمين " وكانت الحروب الصليبية قد استمر اوارها وبدأت بوادر الهزيمة تلوح للنصارى . وخاب ظن النصارى بكنيستهم التى وعدتهم ومنتهم بالنصر (وما يعدهم الشيطان الا غرورا) (٢) . واصبحت الوعود الشفوية بالمغفرة للمشتركين فى الحرب لاتجدى نفعا فقررت الكنيسة كتابة وثيقة خطية محسوسة يحملها المقاتل ويندفع للاشتراك فى الحرب بثقة وعزم . وبرزت الى الوجود مهزلة صكوك الغفران . اضف الى ذلك طمع الكنيسة وحرصها على الابهة والعظمة وحب الترف . فتحقق لها ماتصبوا اليه فى بداية الامر من جمع اكبر ثروة فى اوربا . حتى أن أموال الكنيسة ودخولها اصبحت تعادل دخول ملوك اوربا مجتمعين .

يقول ديورانت : " كذلك جاءت الى البابوات اموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية ومن الحجاج القادمين الى روما . وقد حسب دخل الكرسى البابوى عام ١٢٥٠ م فكان اكثر من دخل رؤساء الدول الاوربية الزمنيين مجتمعين . ولقد تلقى البابا عام ١٢٥٣ م ثلاثة امثال ايراد التاج .

ومهما تكن ثروة الكنيسة متناسبة مع اتساع وظائفها ، فقد كانت هذه الثروة

---

(١) المسيحية ص ٢١٠ ــ محاضرات فى النصرانية ص ١٩٥ .

أهم أسباب الالحاد فى هذا العصر "(١) .

- نتائج هذه البدعة :

ظهرت هذه البدعة في الفترة التى اتصلت فيها أوربا بنور الاسلام وتأثرت بالمنهج التجريبى الذى كان الفضل للمسلمين فى ابتداعه وتطبيقه ونشره على العالم . فأخذت العقول السليمة النائمة تتلمس مكانها فى الحياة ، والفطر تستيقظ من سباتها العميق .

كانت هذه البدعة فى بداية أمرها من عوامل قوة الكنيسة وشموخها ، فازدادت ثراء وسلطة وشددت قبضتها على الناس وعلى الملوك والامراء وارتفعت مكانة رجالها الدينية فى نظر الجهلاء لانهم ظنوا فيهم الصلاح والقداسة لانهم يملكون حق مغفرة الذنوب ، ومن يملك هذا الحق فلابد أن يكون مغفورا له ماتقدم من ذنبه وما تأخر . قويت سلطة الكنيسة العسكرية والسياسية وضعفت سلطة الملوك والامراء . هذه الثمار التى جنتها الكنيسة لم تستخدمها فى خدمة دين الله ورد الناس الى الدين الصحيح ، بل زادت غطرسة وفجورا وطغيانا وظلما . فقد رأت الناس يعبدونها من دون الله ويأخذون بتعاليمها دون تعاليم المسيح واصبحت تتحكم فى الضمائر والارواح كيف تشاء . تغفر لمن تشاء منهم وتعاقب بالحرمان من تريد . وازداد آباء الكنيسة مضيا فى الضرر والبطش غير حافلين بعواقبها الوخيمة وشرورها الاثيمة . وسنة الله لاتجامل أحدا فالزبد يذهب جفاء والظلم عاقبته وخيمة . فصكوك الغفران التى زادت من ثراء الكنيسة وتجبرت بسببها كانت مسمارا فى نعشها وبداية لنهايتها ونذيرا لبداية الثورة عليها وعلى دينها المحرف .

فمن الناحية الاقتصادية انخفض الشراء لكثرة العرض وقلة الطلب مما اضطر الآباء والقساوسة الى المساومة عليها بأبخس الاثمان حيثتولد شعور لدى الناس أن شراءها اضاعة للمال فيما لا طائل تحته . وبدأت مكانة رجال الدين والهالة القدسية التى كانوا محاطين بها تضعف رويدا رويدا . ومن الناحية

---

(١) قصة الحضارة ج ٥ مجلد ٤ ص ٧٢ .

السياسية بدأت العداوة والبغضاء تاكل قلوب الملوك والامراء والاقطاعيين ضد الكنيسة التى رأوا فيها اكبر خطر يهددهم ويقضى عليهم ، لذلك حين وجدوا الفرصة سانحة للقضاء على الكنيسة قلموا أظافر حقدهم وناصروا الحركات المعارضة وأججوا سعيرها وعلى سبيل المثال نجد ثورة لوثر على الكنيسة لو لم يجد الحماية والعطف من الامراء لما نجى من قبضة الكنيسة وقرارات حرمانها .

والاهم من هذا كله أن الاوربيين راوا الحياة الكريمة التى يعيشها المسلمون عن طريق احتكاكهم بهم فى الحروب الصليبية والاندلس والشمال الافريقى حيث لاكهنوت ولا طغيان ولا احتكارات فهزت هذه الروءية نفوسهم وكذب كثير منهم صكوك الغفران ووعود الكنيسة .

ولا يشك أى منصف ا فى ان للاسلام تأثيرا مباشرا فى اندلاع الثورة على الكنيسة ودينها المحرف والذى يهمنا هو أن مهزلة صكوك الغفران قد ساعدت بصفة مباشرة على هدم التعاليم الدينية من أساسها والاستهتار بكل المعتقدات والاصول الايمانية بجملتها واسهمت فى انتشار فكرة انكار الاخرة والجنة والنار التى لا يقوم دين بغيرها " (١) .

الفساد الاخلاقى فى الكنيسة :

كان لبدعة الرهبنة وفرض العزوبية على رجال الكنيسة أثر واضح فى فساد الاخلاق وانتشار الرذيلة فى الكنيسة حيث ان الرهبنة كانت رد فعل للترف الذى كان يعيش فيه الملوك والامراء الرومان . وقد كان النصارى ينظرون الى المرأة نظرة احتقار واذلال على اساس انها محل الشر وسبب الخطيئة الاولى وكان الجنس وحتى التفكير فيه مستقذرا عندهم . ولكن الرهبان بشر ولهم غرائز . ولابد للغرائز اذا لم توجه التوجيه السليم على الهدى الربانى أن تنطلق جامحة تحطم الحواجز التى تعترض سبيلها .

ونتيجة لهذا الكبت المبتدع انتشرت الفاحشة والرذيلة والسلب والنهب

---

(١) انظر العلمانية واثارها فى الحياة الاسلامية المعاصرة ص ٨٥ ـ ٨٦ .

بين رجال الكنيسة ، حتى ان سجلات الاديرة تحوى فيما تحوى على عشرين مجلدا من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسى بين الرهبان والراهبات [١] .

الطغيان العلمى :

لم تكتف الكنيسة بفرض سلطانها على ارواح الناس واجسادهم واموالهم واحتفاظها لنفسها بالاسرار التى لاتناقش . والعقيدة التى لاتفهم بل تمدى الامر حدوده وفرضت الكنيسة سلطانها على العقول والافكار خوفا على بنائها من الانهيار ، أمام صوت الحق والنور ، امام العلم القادم من بلاد المسلمين .

وقد احتضنت الكنيسة نظريات علمية معينة قالت عنها انها من وحى السماء وتحمل طابع القداسة ، فلا يجوز الخروج عليها لانه كفر وخروج من حظيرة الدين .

يقول ولز : " ولم يقتصر تعصب الكنيسة على الامور الدينية وحدها . فان الشيوخ الحمقاء المولعين بالابهة السريعى الهياج الحقودين الذين من الجلى أنهم كانوا الاغلبية المتسلطة فى مجالس الكنيسة ، كانوا يضيقون ذرعا بأية معرفة عدا معرفتهم ، لا يثقون باى فكر لم يصححوه ويراقبوه فنصبوا أنفسهم للحد من العلم ، الذى كانت غيرتهم منه بادية للعيان . وكان اى نشاط عقلى عدا نشاطهم يعد فى نظرهم نشاطا وقحا " [٢] .

ولما أثبت العلم التجريبى الذى أخذته اوربا عن المسلمين باعترافهم بطلان ما اعتقدته الكنيسة من نظريات ، لجأت الكنيسة الى العنف واستخدام القوة ضد المخالفين من العلماء فاحرقتهم احياء . يقول انجلز فى معرض حديثه عن النهضة الاوربية : " وتحطمت الدكتاتورية الروحية التى كانت للكنيسة ، نبذتها اكثرية الشعوب الجرمانية مباشرة متبنية البروتستانتينية بينما كان ينضرب جذوره

---

(١) انظر قصة الحضارة ج ٤ مجلد ٥ ص ٨٦ وراجع فصل اخلاق رجال الدين من هذا الكتاب من ص ٧٦ ـ ٨٨

(٢) معالم تاريخ الانسانية ج ٣ ص ٩٠٥

فأعمق لدى الشعوب . فكر حر نشيط مأخوذ عن العـــرب ومتخذ بالفلسفـــة اليونانية المكتشفة لتوها ويمهد لمادية القرن الثامن عشر .

" وبدأ بيد مع الايطاليين العظام الذين تبدأ بهم الفلسفة الحديثة قدمـــت شهداءها طعاما للنار واسرى لزنزانات محاكم التفتيش ومما له دلالته ، أن البروتستانت قد تجاوزوا الكاثوليك فى اضطهاد الدراسة الحرة للطبيعة . ان كالفان قد أحرق بالنار سيرفيت وهو على وشك اكتشاف دوران الدم شاويا اياه حيا مدة ساعتين . ان عهد التفتيش قد اكتفى على الاقل بمجرد حـــرق جيوردانو برونو " (١) .

محاكم التفتيـش :

ظهرت محاكم التفتيش على مسرح الحياة الانسانية فى وقت مبكر لمحاكمـــة المخالفين للعقيدة النصرانية .

وفى عهد تيودوسيوس (٣٩٥ م) ظهرت لاول مرة " محكمة التفتيـــش " ثم تنظيمها فيما بعد فى القرن الثانى عشر . وكان أعضاؤها من الرهبـــان وكانت وظيفتهم اكتشاف المخالفين فى العقيدة ولهم سلطان كبير ولا يسألـــون عما يفعلون . وتاريخ محكمة التفتيش هو تاريخ الاضطهاد الدينى فى أقسى صـــوره وقتل حرية الفكر بابشع اداة ومن أقذر سبلها أنها حتمت أن ينهى كل انسان فى غير تباطؤ بما يصل الى سمعه بشأن الملحدين وهددت من يتوانى بعقوبـــات صارمة فى الدنيا والاخرة . فانتشر بسببها نظام التجسس حتى بين أفـــراد الاسرة الواحدة " (٢)

ويقول الدكتور توفيق الطويل : " وفى القرون التالية كثر صرعى هذا النظـــام وتعرض للشنق والحرمان جماعات كثيرة لانهم فى نظر الكنيسة هراطقة وكثيـــرا

---

(١) نصوص مختارة ص ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

(٢) انظر الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للامام محمد عبده ص ٤٠ .

ماكانت الكنيسة تلجأ الى الاعدام البطىء مبالغة في التنكيل ، فتسلط الشموع على جسم الضحية وتخلع أسنانه كما فعل ببنيامين كبير اساقفة مصر لانه رفض الخضوع لقرار مجمع خلقدونية الذى يرى أن للمسيح طبيعتين الاهية وانسانية .

" وكان الاعدام يسبقه صور من التعذيب كالكى بالنار والضرب ، لحمل المتهم يعترف بجرمه فان لم يعترف قتل لانه لم يكن يعتبر بريئا حتى تثبت ادانته بل مجرما حتى تثبت براءته وهيهات أن تثبت واذا اعترف بجريمته استمر تعذيبه قبل القضاء عليه لعله يكشف عن انصاره وشركائه . وكانت تقضى القوانين ان يحمل الابناء والاحفاد تبعة الجرم الذى يدان به الاباء . فيسلبون حقهم في مباشرة الكثير من الوظائف ومزاولة الكثير من المهن .

" واما الجماعات التى أعدمت فاكثر من ان يحصيها عد ، ففى اسبانيا فقط قدمت محكمة التفتيش للنار اكثر من واحد وثلاثين الف نسمة وحكمت على اكثر من مائتين وتسعين الفا بعقوبات اخرى تلى الاعدام .

" وفى عام ١٥٦٨ م اصدر الديوان حكمه بادانة جميع سكان الاراضى الواطئة والحكم عليهم بالاعدام واستثنى من الحكم بضعة افراد نص القرار على أسمائهم وبعد عشرة ايام من صدور الحكم دفع للمقصلة ملايين الرجال والنساء والاطفال ..

" ولما ظهر البروتستانت اتجهت الكنيسة لهم بالاضطهاد العنيف وكثرت المذابح ومن اهمها مذبحة باريس فى ٢٤ اغسطس سنة ١٥٧٢ م والتى سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم من البروتستانت هؤلاء الذين دعوا لباريس لعمل تسوية تقرب بين وجهات النظر ثم قتلوا خيانة وهم نيام ، فلما اصبحت باريس كانت شوارعها تجرى بدماء هؤلاء الضحايا .

وانهالت التهانى على تشارلس التاسع من البابا ومن ملوك الكاثوليك وعظمائهم على هذا العمل الدنىء " (١) .

---

(١) الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام ص ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٠ وانظر التعصب والتسامح لشيخنا محمد الغزالى حفظه الله ص ٣١٤ ــ ٣١٥ .

" وكانت المحكمة عبارة عن سجون مظلمة تحت الارض بها غرف خاصة للتعذيب والات لتكسير العظام وسحق الجسم البشرى . وكان الزبانية يبدأون بسحق عظام الارجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا حتى يهشم الجسم كله ويخرج من الجانب الاخر كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم، وكان لدى المحكمة الات تعذيبية اخرى منها آلة على شكل تابوت فيه سكاكين حادة يلقون الضحية فى التابوت ثم يطبقونه عليه فيتمزق جسمه اربا اربا، والات كالكلاليب تغرز فى لسان المعذب ثم تشد فتقصه قطعة قطعة، وتغرز فى أثداء النساء حتى تتقطع كذلك . وصور اخرى تتقزز منها النفوس وتشمئز لذكرها " (١) .

وقد كان المسلمون فى أسبانيا من اوائل الضحايا الذين حكمت عليهم محاكم التفتيش بالابادة التامة باقسى واشنع مايتخيله الانسان من الهمجية والوحشية ثم تلاهم المتأثرون بالحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى النير ـ ثم انتقلت المحاكم من اسبانيا الى بقية المناطق التابعة للكنيسة الام " روما " .

وعلى كل حال فان محاكم التفتيش ستبقى وصمة عار فى جبين الكنيسة ودينها المحرف ورجالها الشياطين فى القرون الوسطى .

وسيبقى دين الله الصحيح الذى نزل على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم انموذجا يحتذى به حتى يرث الله الارض ومن عليها فى حسن معاملته للبشرية . فمن اصول الاسلام العامة عدم قتل الابرياء أو المخالفين فى العقيدة من أهل الكتاب ان لم يؤذوا المسلمين . قال الله تعالى " لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين " (٢) .

وفى وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقادة الجيش ووصايا اصحابه وحسن معاملة صلاح الدين للصليبيين والمماليك للاقباط فى مصر (٣) ومقابلة

---

(١) العلمانية واثارها فى الحياة الاسلامية المعاصرة ص ٩٧ ـ ٩٨
(٢) الممتحنة ٨
(٣) انظر التعصب والتسامح ص ٣١١ ـ ٣١٨

الاساءة بالاحسان أروع الامثلة التى يفاخر بها المسلمون على مر العصور .

- بخلاف النصارى- فان محاكم التفتيش كانت نابعة عن اصل عقيدى قررته مجامعهم المقدسة ، يكفر من يخالف قراراتها ، فلديها حق الغفران ، وحق الحرمان وحق النحلة وهو حق خاص يبيح للكنيسة ان تخرج عن تعاليم الدين وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت المصلحة - مصلحتها هى - ذلك " (١) .

ونختم حديثنا عن محاكم التفتيش البشعة بنصين لسلامه موسى وول ديورانت: يقول سلامه موسى " كان الانسان فى تلك العصور يكبس منزله وهو هادئ وادع فيحمل فى جوف الليل ويعتقل الاشهر بل السنين وهو لا يدرى ماهية التهمة التى سيتهم بها لان خصما له من الجيران قد ابلغ المحكمة بانه سمعه يقول كيت وكيت .. عن الرؤيا أوعن الثالوث اوعن المعجزات . ثم اذا اصر المتهم على انكار مانسب اليه من التهمة جاز للمحكمة تعذيبه بان تقطعه . اشلاء . شلوا بعد شلوا امام عينيه وان تقرض لحمه بالمقراض واخيرا تحرقه " (٢) .

ويقول ول ديورانت : " واذا ماعفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسى والانهماك فى ملاذ المأكل والمشرب فانا لا نستطيع ان نعفو عن اعمال محاكم التفتيش " (٣) .

حركة الاصلاح الدينى :

قامت حركات اصلاحية داخل الكنيسة وخارجها ، كرد فعل للطغيان الذى كانت تمارسه الكنيسة على الناس ، وأهم الاسباب التى اشعلت نار الحركة الاصلاحية هى :

١ - تأثر المصلحين بالثقافة الاسلامية والمنهج التجريبى القادم اليهم من بلاد المسلمين عن طريق الحروب الصليبية وجامعات الاندلس والشمال الافريقى .

---

(١) انظر معالم تاريخ الانسانية ج ٣ ص ٨٩٦
(٢) حرية الفكر ص ٦٢
(٣) قصة الحضارة ج ٤ مجلد ٥ ص ٨٦ .

٢ ـ البدع الكثيرة التى استحدثتها الكنيسة لخدمة مصالحها الشخصية ومن اهمها :

أ ـ سلطة البابا وما ترتب عليها من فساد وطغيان حيث منح حق الغفران والحرمان وحق فهم الكتاب المقدس واسراره والفصل فى المسائل الدينية •

ب ـ بدعة الاستحالة : " وهى اعتقاد النصارى انهم حين يشربون الخمر وياكلون الخبز يوم الفصح " يستحيل الخبز الى لحم عيسى ويستحيل الخمر الى دمه فمن اكل ذلك الخبز وشرب تلك الخمر فقد ادخل المسيح فى جوفه وامتزج به وبتعاليمه " (١) •

جـ ـ صكوك الغفران وقد شرحناها شرحا واسعا فلتراجع فى مكانها •

د ـ الضرائب الباهظة وكانت تشمل الفقير والغنى •

هـ ـ محاربة الهراطقة ، والهرطقة كما فهمتها الكنيسة هى مخالفة راى الكنيسة " فرأى يراه عالم فى الكون هرطقة ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسى هرطقة وانتقاد شىء يتصل بالكنيسة هرطقة ومساعدة واحد من هؤلاء او الرضا عن اتجاهه هرطقة وهكذا •• " (٢)

أوائل الهراطقة على رأى الكنيسة :

وكان من أوائل الهراطقة على رأى الكنيسة ويكلف الذى وجه انتقادات صريحة للكنيسة وما عليه رجالها من فساد ونبش قبره عام ١٤٢٨ م واحرق بامر من البابا مارتن الخامس ••

" ولم يكن هذا الانتهاك لحرمة المقابر عمل متعصب بمفرده بل كان عملا اتته الكنيسة •

" وجون هس عميد جامعة براج ، احرق حيا عام ١٤١٥ م بقرار من مجمع

---

(١) انظر متى ٢٦ : ٢٧ ـ لوقا ٢٤ ـ ٢٨ مرقص ١٤ ـ ٢٢ المسيحية ص ٢٠٩

(٢) معالم تاريخ الانسانية جـ ٣ ص ٩٠٩

كونستانس المنعقد عام ١٤١٤ ـ ١٤١٨ بتهمة الهرطقة رغم ضمان الامبراطور لسلامته " (١) .

وفي القرن السادس عشر ظهر لوثر، ثم تلاه كالفن اللذان ظهرت على أيديهما حركة الاصلاح البروتستانتينية، واهم شيء نادت به هو رد الاحكام التي صدرت عن الهابوات ولم تكن موجودة في الكتاب المقدس ومحاربة صكوك الغفران، وحق الغفران الممنوح للبابوات ، وكثير من العقائد الفاسدة كالاستحالة والعشاء الرباني، ونادت باباحة الزواج للكهنة وعدم اتخاذ الصور والتماثيل والسجود لها في الكنائس وانكرت حق فهم الكتاب المقدس على الكنيسة " (٢) .

دوافع حركات الاصلاح الديني القومية :

يقول الاستاذ الندوى : " والدين السماوى مهما تحرف وتغير لا يعرف الفروق المصطنعة بين الانسان والانسان ولا يفرق بين الاجناس والالوان والاوطان، فجمعت النصرانية الامم الاوربية تحت لواء الدين، وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة واخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فقلت العصبية القومية والنعرة الوطنية وشغلت الامم عنها لمدة طويلة ولكن لما قام لوثر سنة ١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م بحركته الدينية الاصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية، ورأى من مصلحة مهمته ان يستعين بالالمان جنسه ونجح في عمله نجاحا لا يستهان .

وانهزمت الكنيسة اللاتينية في عاقبة الامر فانفرط عقدها ، استقلت الامم واصبحت لاتربطها رابطة . ولم تزل كل يوم تزداد استقلالا في شئونها وتشتتا حتى اذا اضمحلت النصرانية نفسها في اوربا قويت العصبية القومية والوطنية " وكان الدين والقومية ككفتي ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الاخرى . ومعلوم ان كفة الدين لم تزل تخف كل يوم ولم تزل كفة منافسته راجحة . وقد اشار الى هذه الحقيقة التاريخية ـ الانجليزى المعروف لورد لوثين ـ السفير البريطاني في امريكا في خطبته التي ألقاها في حفلة جامعة عليكرة في يناير سنة ١٩٣٨م) .

---

(١) نفس المصدر ص ٩١٠ ، ٩٧٨ .
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢١١ ـ ٢١٢

" لما قضت حركة لوثر التى تدعى حركة اصلاح الدين على وحدة اوربا الثقافية والدينية انقسمت هذه القارة فى امارات شعبية مختلفة واصبحت منازعاتها ومنافساتها خطرا خالدا على أمن العالم " (١)

ويقول ولز : " كانت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضمائر الامراء وذوى اليسار والاقتدار من الناس . كذلك شرعت تفقد ايمان عامة الناس بها وثقتهم فيها وكان من نتيجة انحطاط سلطانها الروحى على الطبقة الاولى أن جعلتهم ينكرون تدخلها فى شئونهم وقيودها الخلقية عليهم ومدعياتها بالسيادة العليا فوقهم وادعاءها الحق فى فرض الضرائب وفى حل ارتباطات الولاء ، لذلك كفوا عن احترام مالها من سلطان وممتلكات .

" ولقد ظل هذا الخروج عن الطاعة يصدر عن الامراء والحكام طوال العصور الوسطى باكملها . بيد أن الامراء لم يشرعوا فى التفكير جديا فى الانفصال عن المذهب الكاثوليكى واقامة كنائس جزئية منفصلة الا عندما اخذت الكنيسة فى القرن السادس عشر تنضم علنا لخصمها القديم الامبراطور ، عندما قدمت اليه التأييد وقبلت منه المساعدة فى حملتها على الهراطقة وماكانوا ليقدموا على ذلك أبدا لولا أنهم ايقنوا ان سيطرة الكنيسة على أذهان الجماهير قد ضعفت .

" ولما انفصلت انجلتره وأسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا عن الارتباط بروما . اظهر الامراء وغيرهم من الوزراء اقصى بوادر القلق والاهتمام بحفظ زمام الحركة فى ايديهم ذلك أنهم كانوا لا يسمحون من الاصلاح الا بالقدر الذى يمكنهم من فصم العلاقة مع روما .

" فأما ماتجاوز ذلك ، واما اى انفصام خطر يتجه بالافكار الى تعاليم يسوع البدائية او التفسير الفج المباشر للكتاب المقدس ، فأمور كانوا يقاومونها " (٢)

اذن فالامراء والحكام كانوا يهدفون من وراء الاصلاح الدينى الانفصال

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢١١ ــ ٢١٢
(٢) معالم تاريخ الانسانية جـ ٣ ص ٩٨٩ ــ ٩٩٠ ــ ٩٩١

عن الارتباط الدنيوى بكنيسة روما ، أما ماسواه من الاصلاح اصلاح العقيدة والشريعة المحرفة فهذان امران يتفقون فيها مع كنيسة روما على استئصال جرثومتها من عقول المصلحين . ومن هنا كانت معظم الحركات الاصلاحية التى زعمت أنها تريد رد الدين الى نقائه دوافعها قومية لادينية . وقد فشلت فى أداء مهمتها وذلك لان الدين فى نفوس المصلحين كان مايزال يحمل فصل العقيدة عن الشريعة ، فصل الدين عن الدولة ، وأنها كانت فى معظمها قومية لادينية حيث كان الامراء والكنيسة يقاومون الدعوة الاصلاحية لتنقية الدين والرجوع به الى تعاليم عيسى عليه السلام الاصلية ، وكان الامراء يشجعون الدعوة الاصلاحية التى تدعو الناس الى الانفصال عن كنيسة روما .

ثم ان الحركات الاصلاحية الدينية كانت فى معظمها متجهة الى فساد الكنيسة ورجالها ولم تكن متجهة لتصحيح التحريف الذى دخل على الدين المنزل من عند الله على المسيح عليه السلام . فقد بقيت مسألة التثليث والصلب وحقيقة الاناجيل وعدم البحث عن الانجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام وعن مدى سلطة المجامع فى اتخاذ القرارات التى تتعلق باسس الدين دون بحث ولم تتناولها أيدى المصلحين .

الدين الذى اعتنقته اوربا دين محرف :

ان اوربا لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله على عيسى عليه السلام على الرغم من انتشار النصرانية فيها ، وتعصب الاوربيين لها وخاصة فى الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش الوحشية ضد المسلمين بل عرفت دينا محرفا ممزوجا بالوثنية ، لان العقيدة كما ذكرنا سابقا شوهت تشويها سخيفا لاتقبله العقول السليمة فقالوا بالتثليث واعتقدوا بربوبية عيسى عليه السلام ولم يحكموا الشريعة الربانية فى حياة الناس الا قليلا فى الاحوال الشخصية لانهم فصلوها عن العقيدة . وقد كان المناخ الاوربى فى اصله فاسدا وعمق هذا الفساد الدين المحرف الذى يشد به النصارى وما صاحبه من ظلم روحى وفكرى وعلمى وفساد خلقى وطغيان مالى وسياسى مارسته الكنيسة على الناس . اضف الى ذلك مهزلة صكوك الغفران وعصمة البابا وغيرها من هذه الاسباب ادت الى انحراف

أوربا ، فكرهت الدين وحاربته وارتدت وثنية لاتؤمن الا بالمادة وما تدركه الحواس .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب : " ولكن اوربا حين نزعت عنها سلطان الكنيسة لم تكتف بذلك بل نزعت عنها سلطان الدين أيضا . اذ كان الدين لديها ممثلا فى الكنيسة مجسما فيها واغراهم بهذا ان فى العقيدة المسيحية كما صورتها الكنيسة لا كما انزلها الله سبحانه وتعالى كثيرا مما يناقض العقل ويثقل على الافهام وليست مشكلة التثليث الا واحدة من هذه المتناقضات .

" على أى حال لقد تجردت اوربا من نير الكنيسة ومن سلطان الدين معا وارتدت بذلك رومانية كاملة ، لا يقف شىء فى سبيل نزعتها الرومانية التى لاتعرف غير الجسد ونزواته ولا تؤمن الا بالواقع المادى الذى تثبته الحواس . ونشأت على انقاض الكنيسة والدين فلسفة مادية بحتة تستمد وحيها من الارض من واقع الحواس ولا ترتفع ببصرها لحظة واحدة الى السماء " (١) .

ويقول محمد أسد : " وخلاصة القول ان المدنية الاوربية قائمة فى أساسها على المدنية الرومانية الوثنية وهى لم تأخذ من النصرانية ــ التى اعتنقتها لاسباب سياسية قاهرة ــ سوى الطلاء الخارجي فحسب ثم ان المدنية الاوربية لاتزال فى واقعها مادية لاتؤمن بغير القوة " (٢) .

النهضة الاوربية

يقصد الاوربيون بالنهضة احياء العلوم والاثار الرومانية واليونانية . وانه فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى بدأت المدنية اليونانية تؤثر فى عقول الغربيين . وانبعثت من ايطاليا لغة اليونانيين القدماء وشعرهم وفلسفتهم حتى شملت اوربا كلها .

---

(١) الانسان بين المادية والاسلام ص ١٦
(٢) الاسلام على مفترق الطرق ص ٣٨

لقد ولدت النهضة الاوربية الحديثة على بعدة من الدين ففي القرون الوسطى قامت الحروب الصليبية بين اوربا النصرانية وبين العالم الاسلامي، على الرغم من ان اوربا لم تكن في حقيقتها متدينة بالدين المنزل من عند الله، ولكن عدم التزامها بالدين الصحيح، لم يمنعها من أن تتعصب وتتجمع لمحاربة المسلمين حربا وحشية لاهوادة فيها . ونتيجة لهذه الحروب نشأ احتكاك بين العالم النصراني والعالم الاسلامي . فاستفاد النصارى من علوم المسلمين التي كانت مفخرة القرون الوسطى . أضف الى ذلك احتكاك النصارى بالمسلمين في الغرب في الاندلس والشمال الافريقي . وقد اخذ النصارى عن المسلمين العلوم التجريبية التي قامت على اساسها نهضتهم العلمية الحديثة .

وقد استفادوا من المسلمين فكرة التجمع في امم بعد ان كانوا اقطاعيات منفصلة كما طالبوا بتحرير كيان الانسان وضميره من العبوديات التي تخنقه وتكتم أنفاسه . حين رأوا الحرية العملية للانسان وممارسته لحقوقه في ظل شريعة الله في بلاد المسلمين .

أوربا تضيع فرصة النجاة :

لكن أوربا ضيعت على نفسها فرصة النجاة بنتيجة الحقد والتعصب البغيض الذي أشعلته الكنيسة في قلوب النصارى . فتركت النور القادم اليها من بلاد المسلمين . وسار علماؤها ومفكروها في دياجير الظلام عائدين القهقرى الى الوثنية الرومانية واليونانية لعلهم يجدون الخلاص من الظلم والاضطهاد الذي كانت تمارسه الكنيسة عليهم .

واستمرت اوربا تخاصم الدين الاسلامي في وحشية قاسية ، كان ذلك يبدو نموذجا منها في محاكم التفتيش البشعة ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية زادت العداوة بين العلماء والمفكرين والدعاة الى الاصلاح الاجتماعي وبين الدين ويرجع ذلك الى حماقة الكنيسة وتصرفاتها المثيرة للنفوس .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب : " كانت الكنيسة تحارب العلم لان الجهالة سندها الاكبر في الاحتفاظ بسلطانها على الناس ويوم تتعلم

الجماهير ـ يوم تعلم أن ماتلقنه اياها الكنيسة يشتمل على مجموعة من الاساطير التى لاتثبت للمناقشة ـ يومئذ لن تسلم الجماهير قيادها للكنيسة بالسهولة التى يتم بها الامر فى ظل الجهالة والظلام .

" وكانت الكنيسة تحارب الحرية " لان الحرية خطر على السلطان الغاشم ، ويوم يحس الناس طعم الحرية ويتذوقونه ، فلن يصبروا على العبودية ولو كانت العبودية تفرض عليهم باسم الدين وسلطانه .

" وكانت الكنيسة تفجر وتعبث داخل اديرتها وهياكلها ، وهى تفرض على الناس الزهادة والتقوى وتطالبهم بمكارم الاخلاق ، وذلك فوق الاتاوات والعشور وفوق مساندة الاقطاع ضد الفلاحين الذين يسحق كيانهم الفقر والحرمان " (١) .

وحين قامت النهضة على اساس غير دينى ابتعد الناس عن الدين رويدا رويدا وعاشت اوربا قرونا كاملة بشخصية مزدوجة نصرانية ووثنية فى ذات الوقت . وبدأت النهضة تسير فى طريقها مستمدة من الوثنية اليونانية والرومانية ، فكرها ونظام حياتها ، وتحول كل تقدم ياتيها عن طريق العالم الاسلامى الى هاتين الوثنيتين .

يقول راندال : " فقد كانت الشعوب الغربية وهى تترك العالم القديم سائرة فى الطريق الموصل الى العالم الجديد تتناول فى لهفة كل مايقع تحت ايديها من كنوز الاغريق وروما " (٢)

ويعترف الكاتب بفضل المسلمين على اوربا بقوله : " وسط هذا العالم الذى أخذت رقعته فى الاتساع اتجه رجال القرون الوسطى الى المعرفة العلمية التى وجدوها فى مكاتب العرب (٣) وجامعاتهم الغنية ـ " وعن طريق أسبانيا

---

(١) جاهلية القرن العشرين ص ٢٩ ـ ٣٠

(٢) تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ١٨٠

(٣) المقصود بالعرب هم المسلمون .. لان الاسلام هو الذى جعل العرب أمة واحدة وجعل لها ثقافة واحدة هى الثقافة الاسلامية ويشترك فيها العرب وغير العرب من المسلمين .

جاءت أول معرفة بمؤلفات ارسطو الكبيرة • ولكن المسلمين انقذوا من العالم القديم شيئا كان ارسطو بالرغم (١) من عبقريته عاجزا كل العجز عنه وهو العلم الرياضى والآلى •

" ويظهر أن عظمة العرب كانت كامنة فى مقدرتهم على تمثل افضل مافى التراث الفكرى للشعوب التى احتكوا بها اكثر مما كانت فى ابداع أصيل (٢) • فقد أخذوا من العلم اليونانى المعرفة الرياضية والطبية التى احتقرها الرومانيون ونبذها المسيحيون جانبا وراحوا يعملون بصبر وجهد فى ذلك الطريق الذى ازدراه الاغريق فى أوج عظمتهم تابعين طريق التطور البطىء والتكيف العملى • وقد اكتسبوا من الهند الارقام (العربية) التى لايمكن الاستغناء عنها • وشكل التفكير الجبرى الذى لولاه لما استطاع المحدثون قط أن يبنوا على الاسس التى وضعها الاغريق •

" وبنوا فى القرن العاشر فى أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب • بل كان علما طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية، وعلى الاجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم المانيا الحديثة " (٣) •

ويقول محمد أسد : " ان العصور الوسطى قد اتلفت القوى المنتجة فى أوربة كانت العلوم فى ركود وكانت الخرافات سائدة والحياة الاجتماعية فطرية خشنة الى حد من الصعب علينا ان نتخيله اليوم • فى ذلك الحين أخذ النفوذ الاسلامى فى العالم — فى بادىء الامر بمغادرة الصليبيين الى الشرق

---

(١) والصواب على الرغم •

(٢) هنا يظهر تعصب الكاتب وحقده على المسلمين حيث ينفى عنهم الابداع العلمى الاصيل •
والواقع ان للمسلمين تراثهم وعلومهم الخاصة بهم والتى حازوا قصب السبق بها على غيرهم من الامم كعلم الجبر والكيمياء والصفر الحسابى، ومن اراد التوسع فليراجع كتاب شمس العرب تسطع على الغرب •

(٣) تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ٣١٣ — ٣١٤ •

والجامعات الاسلامية الزاهرة فى أسبانيا المسلمة فى الغرب • ثم بالصلات التجارية المتزايدة التى أنشأتها جمهوريتا. جنوة والبندقية اخذ هذا النفوذ يقرع على الابواب الموصدة دون المدنية العربية •

وأمام تلك الابصار المشدوهة ، أبصار العلماء والمفكرين الاوربيين ظهرت مدنية جديدة ـ مدنية مهذبة راقية خفاقة بالحياة ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت ثم اصبحت فى اوربة من قبل نسيا منسيا • ولكن الذى صنعه العرب كان اكثر من بعث لعلوم اليونان القديمة ، لقد خلقوا لانفسهم عالما علميا جديدا تمام الجدة • لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة الى الغرب، ولسنا نبالغ اذا قلنا ان العصر العلمى الحديث الذى نعيش فيه لم يدشن فى مدن اوربة النصرانية ولكن فى المراكز الاسلامية : فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة• " (1) •

بداية ظهور الفلسفة المادية الحديثة

بدأت بوادر ظهور الفلسفة المادية الحديثة فى مطلع عصر النهضة حين اتجهت أوربا نحو الحضارة اليونانية والرومانية تأخذ عنها كل مايتعلق بنواحى حياتها الفكرية والمادية ، بمذهب الانسانية الحديثة اول طلائع المادية، .. ركز الانسانيون فى كتبهم الادبية وفنونهم على الفردية الانسانية وحرية الفرد فى التفكير والحكم على الاشياء •

يقول رابوبرت فى معرض حديثه عن عصر النهضة :

" وامتاز ذلك العصر بشعور الانسان فيه بشخصيته المطلقة ومعارضته للسلطة وذويها ، وذهابه شوطا بعيدا فى اعتبار العالم كله وطناله • وهذه دلائل اعظم رقى يصل اليه الناس فى تقدمهم العقلى • وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الانسانية والحياة الدنيوية مخالفة فى ذلك طريقة التفكير فى القرون الوسطى

---

(1) الاسلام على مفترق الطرق ص ٣٩ ـ ٤٠

ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء " الانسانيين " كما تسمى عقائدهم ومثلهم العليا " الانسانية " وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الانسانيون " نمو الفردية " اعنى الرأى القائل بان الانسان ينبغى أن يفكر بنفسه لنفسه — وهو راى كان قد أهمل فى عصر عهودية العقل " (١) .

ويقول كرين برينتون فى معرض حديثه عن الحركة الانسانية وفنونها : " انه طالما كانت العصور الوسطى فى الواقع عصورا دينية وطالما ان عصر النهضة يعنى على الاقل محاولة العودة الى الوثنية اللادينية ان لم نقل الزندقة فان فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة .

أما فن عصر النهضة فيتمتع بحرية بوهيمية وهذه هى حقيقة الامر وكان النحاتون والرسامون فى ذروة عصر النهضة يقلدون العرى الكلاسيكى كما يقلدون كل شىء كلاسيكى آخر " (٢) .

وظهر من العلماء والكتاب الانسانيين بترارك ١٣٠٤ — ١٣٧٤ ورابليه ١٤٩٠ — ١٥٥٣ وشكسبير ١٥٦٤ — ١٦١٦ وغيرهم وكان هؤلاء ينشدون طريقا وسطا بين النصرانية التقليدية والعلمانية الحديثة . ونتيجة لتحرير العقول من العبودية التى فرضتها الكنيسة عليها فصلت الفلسفة عن الدين واصبحت علما دنيويا مستقلا لان العلوم الطبيعية هى التى مهدت الطريق أمام الفلسفة لتستقل فى عملها ، فالاكتشافات الجغرافية ونظرية كوبرنيكس حول العالم وقوله بدوران الارض وكرويتها . وابحاث جاليلو العلمية وغيره . هذه العلوم اثرت تاثيرا كبيرا على العلوم فى العصور الحديثة .

يقول فندلهند : " كلما انفصلت الفلسفة عن الدين وكانت علما كونيا مستقلا كانت مهمتها التى يجب ان تؤديها هى ان تبحث فى علوم الطبيعة والى هذه

---

(١) مبادىء الفلسفة ص ١١٢
(٢) منشأ الفكر الحديث ص ٢٧

الغاية كانت تتجه كل أبحاث الفلسفة زمن النهضة حتى ان شعارها كـــان " لتكونن الفلسفة علما طبيعيا " (١) .

المذهب العقلي والمذهب التجريبي

عندما انبثق فجر الفلسفة الحديثة التى انفصلت عن الدين بدأ الفكر يتعرض للدين والنظم التى بنيت عليه بالبحث والنقد الهادم واصبح الحق فى نظر الناس هو الذى يقتنع الفكر به ويستطيع ان يبرهن عليه ، لا ماقاله من قديم فلان أو فلان . وقد أهمل الفكر الحديث البحث فى الغيبيات وكانت الفلسفة الحديثة تنظر الى الماضى البعيد ، الى الاغريق والرومان فاعتاضت بما عندهم عن عقائد القرون الوسطى الاوربية المظلمة .

وبدأت الفلسفة تتجه نحو الطبيعة وعلومها وكان من خواص هذه الفلسفة الطبيعية لفتعقل الفرد الى التطلع نحو الطبيعة وتحريره من رق الايمان الاعمى على الطريقة التى كانت سائدة فى اوربا حيث كان من اغراض الحركة الفكرية الحديثه تقرير حق الافراد فى الحكم على الاشياء والترخيص لكل فرد ان يبحث اى شـــىء وينتقـــده دون تقييد من سلطة خارجية .

يقول رايبورث : " وعلى الجملة فقد تقرر أن يكون لعقل الفرد القـــول الفصل فى الحكم على الاشياء وبذلك نشأ الاعتقاد بان العقل قادر على أن يحل كل ألغاز العالم ويصل الى أبعد اسرارها ، وعلى هذا الاساس بنى (ديكارت) و (سبينوزا) وليبنتز) نظمهم الكبرى (فيما بعد الطبيعة) ويسمـــى مذهبهم مذهب العقليين " (٢) .

ويقول برينتون : " فالمذهب العقلى يتجه نحو ازالة الله وما فوق الطبيعـــة من الكون وقد ترك المذهب العقلى الاشياء الطبيعية التى يتمسك بها اتباعه علـــى أنها قابلة للفهم دائما ومن الوجهة التاريخية فان نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام

---

(١) مبادىء الفلسفة ص ١١٤

(٢) نفس المصدر ص ١١٧

البارع للاساليب العلمية يرتبط بشدة مع نموالوضع العقلى نحوالكون ومع علم الكون العقلى " (١) .

اذن فالمذهب العقلى بدأ يتجه الى ازالة الله وما فوق الطبيعة من الكون وقد مهد لهذه العملية بمقدمات طويلة حيث ان الالحاد لا يتم دفعة واحدة وذلك لان التدين فى اوربا كان قويا وان كان على غير الهدى الربانى .

وكان من أهم هذه المقدمات انتعاش المادية القديمة ، فقد انتعشت على يد توماس هوبز فى انجلترا الذى ذهب " الى ان كل مظاهر العالم الحقيقية نتيجة الحركة وان ليس هناك ارواح غير مجسدة ، وفسر الروح بانها اجسام طبيعية رقيت حتى لم تستطع حواسنا ادراكها " (٢) .

وفى هذا العصر الذى برزت فيه فكرة المادية دعمتها فكرة اخرى هى نظرية الملكية المطلقة :

يقول راندال : " نشأت نظرية الحق الالهى للملوك فى أول عهدها كمحاولة لتحرير الحكومة المدنية ، أو العلمانية من رقابة البابا والكهنة . كما انها كانت ردا على دعواه فى ان له حقا الاهيا فى السيطرة على الامور الزمنية " (٣) وقد حاول الكتاب والمفكرون انتزاع الحق الالهى من الكنيسة للملوك ونشأ صراع حاد بين البابا والملوك على هذا الحق الالهى ، اسفر فى نهاية الامر عن وحدة تامة بين حق الملك الالهى وحق السيادة القومية ، واصبحت الكنيسة خاضعة للسلطة الزمنية ، وقد كان دفاع الكتاب عن الحق الالهى للملوك يستند الى العقل لا الى الدين ، وظهر هوبز فى انجلترا ومكيافلى فى ايطاليا وبودان فى فرنسا . وتظهر اهمية هؤلاء الثلاثة فى انهم وضعوا فى الدفاع عن الحكم الاستبدادى نظرية كانت فيما بعد نافعة فى محاربته وفى توطيد سلطة سيادة الدولة القومية .

---

(١) منشأ الفكر الحديث ص ١٠٣

(٢) مبادئ الفلسفة ص ١٥٣

(٣) تكوين العقل الحديث ج ١ ص ٢٧٧

نظرية العقد الاجتماعـــي :

يقول راندال : " تعود اصول فكرة العقد الاجتماعي الى الفكر الروماني وفكـر القرون الوسطى معا • وقد قامت نظرية الامبراطورية الرومانية كما ضمنت في مجلـــة الحقوق المدنية على القول بان كل سلطة وكل حق في وضع القوانين يعود ان للشعـب الروماني • غير ان الشعب تنازل بموجب قانون شهير عن هذه الحقوق للامبراطـــور وهوتفسير طبيعي لمجرى التاريخ الروماني • فجميع حقوق الشعب الرماني وجميـــع سلطاته انتقلت الى الامبراطور وله وحده حق وضع القوانين وحق تفسيرها •

" وعندما تم احياء القانون الروماني في القرون الوسطى انتبه الامبراطور الـــى هذه النظرية واتخذها سلاحا ضد سيطرة الكنيسة ثم تبعه في ذلك جميع الامراء •

وهكذا نشأت نظرية العقد الاجتماعي القائلة بان كل سلطة مدنية ترتكز في اساسهـــا على الشعب وان الشعب قد حولها الى الحاكم ليمكنه من القيام ببعض الوظائـــف الضرورية • ومن الواضح انها نظرية ذات حدين • فقد تفسر لتاكيد سلطـــة الحاكم الشاملة باعتباره مصدر جميع السلطات اوالتاكيد سيادة الشعب الاساسيـة باعتباره المصدر الاخير لتلك السلطة ••

" استخدم هوبس هذه النظرية من أجل توطيد دعائم دولة قوية استبداديـــة معتبرا ان لا شيء يجدي سوى العقل " (١) •

اذن فهذه النظرية تركز علـى فصل الدين عن السياسة وان كان الدين لـــم يحكم واقع اوربا الا في الاحوال الشخصية • فهم يركزون على سلطة الشعب ثـــم سلطة الحاكم باعتباره مصدر كل السلطات وتنطلق في تقرير هذا الحق من العقـــل، وفيه اشارة الى تقديس العقل وتقديمه على الدين لان هوبز يصرح بانه لا شـــيء يجدي في هذه الحياة سوى العقل •

وينطلق هوبز في نظريته في الطبيعة البشرية من ان الانسان ذئب على اخيـــه الانسان فاذا لم توجد سلطة تحد من الصراع بين بني البشر هلك الناس جميعـــا في حومة هذا الصراع الابدي • ولما كانت هذه هي الحالة الطبيعية للانســـان فان عقله يوصيه ان يبحث عن السلام والامن ويحافظ عليهما •

---

(١) نفس المصدر ص ٢٨١

المذهب التجريبي

كان المنهج السائد عند اصحاب المذهب العقلاني هو اخضاع كل شيء لبحث العقل لان له القول الفصل في الحكم على الاشياء . هذا الميل الى اخضاع كل شيء لبحث العقل ادى الى وضع العقل نفسه تحت البحث حيث صار كل من العالم المادى والعقلى خاضعا للنظر والاختبار .

وطريقة التفكير الاوربية الحديثة تشبه طريقة اليونانيين القدماء فى التفكير حيث انطلقوا من مبدأ واحد هو النظر فى الكون المادى . ثم جاء بعده عصر النظر فى الانسان نفسه . ثم تلاه عصر النظر فى الابحاث النفسية .

وأخذ الانسان يسأل عن اصل المعرفة وعن الادراك وعن منبعهما وانتهت اخيرا بفلسفة الشك فقديما اسسها السوفسطائيون فى اليونان . وحديثا دافيد هيوم فى انجلترا .

يقول رابوبرت : " من ذلك نرى أن الفلسفة الحديثة اتبعت فى تطورها الطريقة التى جرى عليها الفكر عند اليونان . فالفلسفة اليونانية كانت ايام طفولتها فلسفة طبيعية تبحث فى عالم الطبيعة ، ثم تحول البحث الى الانسان وقواه الباطنة فبعد أن كانت الفلسفة فلسفة نظر فى الكون صارت فلسفة انسان " فلسفة انثروبولوجية " ثم آلت الحركة التى قام بها السوفسطائيون الى الشك فى الحقائق . وهذا بعينه هو الطريق الذى سلكه الفكر الحديث . فقد كان مجرى الفكر متجها نحو الطبيعيات عندما فارق منبع النهضة ثم اتجه نحو الانسان عند اجتيازه هولندا والمانيا وفرنسا . ثم ارتقى فاتجه الى البحث فى نظرية المعرفة عند وصوله الى انجلترا ثم وصل فى النهاية الى الشك والارتياب . وكما مهد السوفسطائيون بشكوكهم الطريق للاصلاح الذى قام به سقراط ولنظام افلاطون " المثالى " فكذلك الشك الذى اسسه هيوم مهد السبيل للاصلاح الذى قام به " كانت " مذهب المثال الالمانى " (1)

---

(1) مبادىء الفلسفة ص ١١٩ ـ ١٢٠

وانتشرت نظرية التجريبيين القائلة بان المعرفة مستقاة من التجربة في انجلترا وترى هذه النظرية كما يقول الدكتور البهي : " ان تحصيل الانسان للحقائق الكونية ومعرفته بها لايكون الا بالتجربة الحسية وحدها . ومعنى ذلك أن الحس المشاهد ــ لاغيره ــ هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية . ففي العالم الحسى تكمن حقائق الاشياء . اما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية والبحث عن العلة في هذا المجال ، فأمر يجب ان يرفض . ولهذا تكون كل نظرية او كل فكرة عن وجود لمطابع الحقيقة فيما وراء الحس نظرية او فكرة مستحيلة " (١) .

وقد ذكرنا سابقا ان الاوربيين اخذوا المنهج التجريبي عن المسلمين وقد حمل لواء هذا المنهج من الاوربيين فرنسيس بيكون الذى يعتبر مؤسس الفلسفة التجريبية الاوربية . ثم جاء ديكارت الفرنسي الذى رفض التسليم بشيء لم يفحصه العقل ويتحقق من وجوده . وكل ماكان مبنيا على الحدس والتخمين او منشوءه العرف والعادة يجب ان يرفض . وطريقة البحث عنده تبدأ بابسط الاشياء ثم تنتهي بأكثرها تعقيدا حتى يصل الى المقصود ، ولا يمكن الحكم بصحة مقدمة في التجربة حتى يتأكد منها في الاختبار (٢) .

وظهر في انجلترا الفيلسوف جون لوك الذى اعتبر ان اصل المعرفة التجربة لا العقل. ثم جاء بعده دافيد هيوم ورقى ماقاله لوك في التجربة واوصله الى مذهب الشك .

هذا وقد سار المنهج التجريبي جنبا الى جنب مع المنهج العقلي مع وجود الخلاف بين الطرفين حتى جاء كانت الذى حاول ان يوفق بين الطرفين ويزيل الخلاف بينهما بتحديد دائرة لكل من العقل والتجربة . وتقويم كل باعتبار مايوصل اليه من النتائج ، وقد وجه كانت ابحاثه نحو المعرفة وسمى نظامه بالنظام الاقتصادى (٣) .

---

(١) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٩٧ .
(٢) انظر مبادىء الفلسفة ص ٢١٤
(٣) انظر نفس المصدر ص ١٢١ .

مذهب السببيـــة
في عصر النهضة في اوربا

نشأ هذا المذهب على يد نيوتن ولوك ، حيث اكتشف نيوتن قانون الجاذبيـة وعلاقة الكواكب والسيارات بعضها ببعض ، حيث بدت وكأنها تشرح ولو بصـــورة مؤقتة الظواهر الطبيعية في الكون، والسببية تسمح بالانتقال من حيز المظاهـــر الخارجية الى واقع الحياة وتهتك اسرارها ، يقول برينتون : " ان السببية تهـد م كل مابنته الخرافات والالهامات والمعتقدات الخاطئة في هذا العالم " (1) .

ويبين برينتون منهج نيوتن في تصور الاله ووضع الانسان ومركزه في هذا الكـــون بقوله : " الاله في عرف نيوتن اشبه بصانع الساعة ولكنه صانع هذه الساعـــة الكونية ونعني بها الكون . لم يلبث أن شد على رباطها الى الابد فبامكانـــه أن يجعلها تعمل حتى الابد .

أما الرجال على هذه الارض فقد صممهم الاله كأجزاء من الته الضخمة هـــذه ليجروا عليها . وانه لبيد و أن ليس ثمة داع او فائدة من الصلاة الى الاله صانـــع هذه الساعة الضخمة الكونية ، الذي لايستطيع اذا ما اراد التدخل في شئون عمله" (2) وقد نشأ جيل آمن بهذه النظرية ، وقفز بها قفزة هائلة من الايمان باللـــه الى الالحاد . فحين نجد فولتير الفرنسي يدعو الى اختراع الله ، نجد ابن الجيل الثاني من معتنقي السببية كما يقول برينتون : " لم يروا ثمة حاجة لاختراع الالــه حيث ألغوا من خلال دراستهم للرياضيات مفهوم اللانهائية . فالجهاز الكوني كـان ومايزال موجودا. وسيوجد دوما وابدا ـ واذا كان الاله خارج هذا العالم فكيـف يستطيع أن يكون داخله او بالاحرى داخل عقولنا بمثابة ـ مفهوم ؟

---

(1) نفس المصدر ص ١٥١

(2) ليس الواقع كذلك لان الله من صفاته القدرة وهو سبحانه وتعالى يستطيـع ان يغير نظام الكون متى شاء ولكن سنته ثابته بحكمته . قال تعالـــى " انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون " يس ٨٢ .

ويتبين لنا من هذا أن فكرة الاعتقاد بالله ليست ضرورية وان فكرة الطبيعة كافية .

" ولكن ثمة اناس ذهبوا الى ابعد من ذلك واعتبروا فكرة الاله فكرة شريرة ، وخاصة اذا ماكان اله الكنيسة الكاثوليكية ، وأطلقوا على أنفسهم بكل فخر اسم الملحدين . وهم يعتقدون أن ليس ثمة وجود للمسيح او لإله المسيحية . ويقولون ان الكون ليس الا مجموعة متحركة ذات نظام معين يمكن فهمه باللجوء الى السببية المعتمدة على أسس العلوم الطبيعية " (١) . ويقول في موضع آخر : " وقد اهمل جميع المؤمنين بالمذهب الجديد الا وهو مذهب السببية من معتقدين بالله او ماديين الاكتراث بما أورده الدين المسيحي عن الله ، وقالوا ان العالم ليس الا آلة ضخمة وان الانسان جزء منها وهو يخضع لقوانين الطبيعة ، كما افترضوا وجود مدرسة في نفوس الناس دعوها مدرسة السببية تتيح للناس ان يتدربوا فيها ليحيطوا بقوانين الطبيعة ونظمها . وأن ينسقوا سلوكهم بحيث يكون على انسجام تام مع القوانين الطبيعية . وبذلك يتسنى لهم العيش معا في أمن وسلام وسعادة . " (٢)

وكان من أشهر السببين الماديين هو لباخ الذى أنكر بصورة قاطعة على حد زعمه الله والحرية والخلود . وكان هو لباخ عالما فيزيائيا اعتقد أن العلم النيوتوني يتضمن تفسيرا كاملا للكون ولا يتطلب اية اضافة من أى نوع كان . يقول هولباخ " تفعل المادة لانها موجودة ، وتوجد لتفعل . فاذا سئلنا كيف توجد المادة او لماذا توجد ؟ لاجبنا باننا لانعرف . ولكن اذا فكرنا على أساس من المقايسة بين مالانعرفه وبين مانعرفه ، لوجب أن يكون رأينا أن المادة توجد بالضرورة ولانها تحتوى في ذاتها علة كافية لوجودها .

" انه لاقرب الى الطبيعى والمعقول أن نشتق من صور المادة كل شىء موجود لان كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها ونختبر كل لحظة نتائجها بأنفسنا ونراها فاعلة متحركة ، تنقل الحركة وتولد القوة دون انقطاع من أن نعزو تكون الاشياء لقوة مجهولة ولكائن روحى لايستطيع ان يخرج من طبيعته ماليس هو

---

(١) نفس المصدر ١٥١ ــ ١٥٢
(٢) نفس المصدر ١٥٢ ــ ١٥٣

بذاته ، كائن يعجز بحكم الجوهر المنسوب اليه أن يفعل اى شيء أو أن يحرك أى شيء " (١) .

ويرجع راندال السبب الذى دفع الناس فى فرنسا الى اعتناق مذهب سبينوزا الى النهاية ، الى تصرفات الكنيسة الكاثوليكية . يقول راندال : " ولم يكن معظم الناس راغبين فى اتباع سبينوزا وهولباخ الى النهاية القصوى الا فى فرنسا حيث دفعت الكنيسة الكاثوليكية بسياستها الاجتماعية وتحالفها مع النظام القديم ومساوئها ، كل رجل عاقل الى المعارضة القوية ، لا لنظام الرهبانية الكاثوليكى فحسب ولكن لكل ماله صلة به وللديانة ذاتها " (٢) .

الصراع الفكرى فى أوربا :

لمسنا فيما سبق عرضه من مذاهب انسانية وعقلية وتجريبية أن الفكر الاوربى كان مسرحا للصراع حول تبرير مصادر المعرفة التى عرفتها البشرية حتى الوقت الحاضر وهى الدين والعقل والحس . وقد مر ذلك بمراحل بدأت بالصراع ضد السلطة البابوية مع عدم الخروج على الدين ذاته حتى وصل الامر الى انكار الدين جملة وعدم تحكيمه فى أى أمر من أمور الحياة .

يقول الدكتور محمد البهى فى معرض بيان هذه المراحل : " كان الدين او النص سائدا طوال القرون الوسطى فى توجيه الانسان سواء فى سلوكه وتنظيم جماعته او فى فهمه للطبيعة . وكان يقصد بالدين " المسيحية " . وكان يراد من المسيحية الكثلكة ، وكانت الكثلكة تعبر عن البابوية " (٣) .

ولما قامت حركة لوثر كالفن الاصلاحية تعرضت النصرانية للجدل الفكرى وأصبحت موضوعا للنقاش العلمى والمذاهب الفلسفية ، وكانوا يهدفون من انكار للدين سلطة انكار سلطة البابا .

---

(١) تكوين العقل الحديث ج ١ ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩
(٢) نفس المصدر ص ٤٤١ ـ ٤٤٢
(٣) الفكر الاسلامى الحديث ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ .

يقول الدكتور البهى : " وفى عهد لسيادة " الدين " كمصدر للمعرفة ـ سواء فى عصر سلطة الكنيسة الكاثوليكية او فى عهد الاصلاح الدينى للوثر ـ انظر الى الكتاب المقدس ، وهو الانجيل انه فوق العقل ـ على معنى ان للعقل أن يبحث ويرى ـ ان جاز له أن يبحث ويرى ـ ولكن للكتاب المقدس الكلمة الاخيرة فيما يرى العقل ويحكم • والفلاسفة الذين ناصروا الدين والوحى اعتبروا ان الالوهية المرجع الاخير للوجود وللمعرفة على السواء " (١) .

سيادة العقل أو عصر التنوير

يقول الدكتور البهى : " استمر اعتبار الوحى كمرجع أخير للمعرفة على خلاف فى تحديد تعاليمه حتى كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر وهو عصر " التنوير " فى تاريخ الفلسفة الاوربية ـ وعصر التنوير له طابعه الخاص الذى يتميز به عن العصر السابق عليه ، وكذا عن الاخر اللاحق له • وله طابعه المشترك فى الفكر : الالمانى والانجليزى والفرنسى فى الفترة الزمنية التى تحدده وله فلاسفة فى دوائر الفكر الثلاث كونوا الطابع الفكرى الذى عرف به (٢)

وقد ذكرنا فى مذهب العقليين بعضا من أساتذة هذا المذهب • ويتميز طابع عصر التنوير الفكرى بوجوب سيادة العقل كمصدر للمعرفة على غيره والمقصود به الكاثوليكية النصرانية • وللعقل الحق فى الاشراف على جميع اتجاهات الحياة السياسية والدينية والقانونية والاجتماعية • " حيث ان الانسانية هى هدف الحياة للجميع وليس الله او المجتمع الخاص او الدولة الخاصة ••

فالتنوير لايقصد به الا ابعاد الدين عن مجال التوجيه واحلال العقل محله فيه • " (٣)

---

(١) نفس المصدر ص ٣٢١ ـ ٣٢٢

(٢) نفس المصدر ص ٣٢٢

(٣) نفس المصدر ٣٢٣ •

أهم فلاسفة عصر التنويـــــر

ذكرنا أن فلاسفة عصر التنوير ذهبوا الى سيادة العقل ، ومن هـــؤلاء الفلاسفة الذين دخلوا حلبة الصراع ـ من أجل سيادة العقل الفيلسوف الالمانـــى فيشته الذي ولد عام ١٦٦٢ ـ ١٨١٤ م .

وقد أقام فلسفته على أساس استخدام مبدأ النقيض، وقد أكد فيها علـــى قيمة العقل الانساني وحريته حيث يعتبره الاساس والطبيعة تابعة له . ويركـــز على الحرية الفردية ويعتبر العمل من أجل الدولة كانتاج للانسان ـ عمـــلا يتم بالخلقية والمدنية ويدعو الى جعل قيادة الجماهير فى يد الخاصة " وهـــم أصحاب العقل " الخالق " ويجب أن يوضع بيدهم توجيه الجماهير والعامـــة ويحدد رسالة هؤلاء الجماهير في أن يسيروا فى ذات الطريق الذى عبـــره عظماؤهم والى نفس الغاية التى قصدوا اليها فى مسيرهم .. ويرى أن تطـــور البشرية يجب ان يكون الى الانصهار فى جمهورية عامة ، وهو عمل للعقـــل صادر عن حرية فى الفكر وارادة خلقية ـ ويوم تنصهر الشعوب فى جمهوريـــة يدل ذلك على انها تمدنت بالعقل وعلى أن العقل أدى رسالة عظيمة ."(١)

النقيض عنـــد هيجـــل :

استخدم فيشته مبدأ النقيض كي يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفـــة مقابل الدين والطبيعة ، وهيجل يستخدم مبدأ النقيض ايضا لتاكيد قيمة العقـــل من جهة ثم لدعم فكرة الالوهية من جديد، وتاكيد الوحى كمصدر اخيـــر للمعرفة لانه يعتبر الله سبحانه عما يصفون ـ عقلا .

واستخدم مصطلحات خاصة به وهى الدعوى ، ومقابل الدعوى وجامـــع الدعوى ومقابلها ، والمجال الذى استخدم فيه هيجل مبدأ النقيض كى يصـــل

---

(١) نفس المصدر ص ٣٣١ ـ ٣٣٢

الى هدفه هو مجال الفكرة حيث تصور أن هناك فكرة مطلقة اطلق عليها اسم العقل المطلق ، ولهذا العقل المطلق وجود ذاتى ازلى قبل خلق الطبيعة ومنه — وهو الله عنده — انبثقت الطبيعة وهى تغايره تماما ، لانها مقيدة ومتفرقة ، وهى عنده العقل المقيد . ثم انتقلت الفكرة من الطبيعة او العقل المقيد الى جامع يلتقى فيه الشيء ونقيضه وهو العقل المجرد . الذى هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها ، هو جامع الدعوى ومقابل الدعوى .

يقول الدكتور البهى عن العقل المجرد : " هو العقل فى صورة اتصال العالم بعضه ببعض ، سواء ما يأخذ منه طريقه الى الظهور او ماظهر منه بالفعل وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والاخلاق ، وفى الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة . واذن فالعقل المجرد الذى يتحقق فى اى واحد من هذه القيم العاملة المذكورة جامع للمتقابلين : جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله . وللفكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة . ذلك أنه ليس له اطلاق العقل المطلق ولاتحديد عقل الطبيعة بل فيه اطلاق بالنسبة الى الطبيعة وتقييد بالنسبة للعقل المطلق ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى " (١)

ويوضح مبدأ النقيض بمثال الماء . فالماء دعوى وتحول الماء الى بخار مقابل الدعوى وصيروره الشيء الى نقيضه وهو صيرورة الماء الى بخار جامع الدعوى ومقابل الدعوى . وصيرورة الشيء الى نقيضه ستنحل من جديد الى دعوى فمقابل الدعوى الى جامع الدعوى ومقابلها وهكذا . فالشيء ومقابل الشيء وصيرورة الشيء الى مقابله تمثل خطوات النقيض الفكرية وهى الدعوى — ومقابل الدعوى . والجامع بين الدعوى ومقابلها .

يقول الدكتور البهى : " وباستخدام مبدأ النقيض كخاصة من خواص العقل الانسانى وصل " فيشته " و" هيجل " معا من الوجهة الفلسفية الى :

---

(١) نفس المصدر ص ٣٣٤

" ترجيح جانب العقل على الطبيعة والحس . وتقدير الدولة كعمل خلقي للعقل الانساني كما وصلا الى أن سعادة البشرية رهن بالتعاون على العمل المثمر المنظم في الطريق الذي يرسمه علماء الفكر والسياسة . " (١)

الثورة الفرنسية والثورة الصناعية

كان للظلم الديني الذي كانت تمارسه الكنيسة على الافراد ، والظلم السياسي الذي كان يمارسه الحكام والظلم الاقتصادي الذي كان يمارسه الاقطاعيون أثر كبير في اشعال نار ثورة علمانية تفصل الدين نهائيا عن شئون الحياة . ينطلق مفكروها من قاعدة " اشنقوا اخر ملك بامعاء آخر قسيس " لان القسيس في نظرهم في كل بلد وفي كل عصر من اعداء الحرية حليف الحاكم المستبد يعينه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الاخر " (٢) .

وبالفعل حدثت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م جاءت لتخليص الفرد من نير الظلم السياسي الذي كانت تمارسه الدولة على الافراد . فقد كانت الدولة تفرض شتى القيود التي تحد من نشاط الفرد وحريته، فاتجه الافراد الى التحلل من قيود التشريعات التي تنظم بها الدولة مسائل الاقتصاد كالاقطاع والحرف في المدن وسيطرة الدولة على السياسة التجارية والخارجية . وحين ارادت الشعوب ان تتحرر اتجهت الافكار الى تبديل سياسة الدولة تجاه الاحتكار الاقتصادي الذي حرم الفرد من الحياة الكريمة . وقد كانت الافكار تنادي من قبل الى تحرير الفرد من الاوهام والخرافات التي صورتها الكنيسة لهم على انها دين منزل من عند الله، وكان معظم المفكرين يوجهون الناس الى التحرر من كل لون من الوان الضغط والتقييد . وقد اسفرت الثورة الفرنسية عن اعلان حقوق الانسان الاوربي وحريته . وعن الاخاء والمساواة وتحطيم امتيازات الطبقة الممتازة واطلاق الحرية للفرد فتحطم الاقطاع وحلت البرجوازية مكانه . فقد ولدت لاول مرة في تاريخ النصرانية دولة علمانية لاتقيم لدين الله وزنا تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب لا باسم خالق الشعب وعلى حرية التدين بدلا من الالتزام بالكاثوليكية وعلى الحرية الشخصية عوضا

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤١

(٢) افكار ورجال ص ٥٠٢

عن التقيد باخلاق الدين وعلى دستور من وضع المفكرين لا من قرارات الكنيسة .

وقامت الثورة بأعمال غريبة على عصرها حيث سرحت الرهبان والراهبات، وصادرت اموال الكنيسة والغت كل امتيازاتها، وحاربت العقائد الدينية علنا، وحلت الجماعات الدينية واصبح رجال الدين موظفين مدنيين لدى الثورة، واتجهت الى العقل بالعبادة، وفتنت بالعلم وفنونه . (١)

وقد سارت الثورة الصناعية جنبا الى جنب مع الثورة الفرنسية حيث اطلقت للفرد الحرية فى التفكير والاختراع والعمل الذى كان من شأنه قلب نظم الانتاج القديمة رأسا على عقب ، ونتج عن هاتين الثورتين العظيمتين فى حياة اوربا التركيز على الفرد وحريته .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب فى معرض حديثه عن الفرد الاوربى فى القرون الوسطى وعن الظلم الذى مارسته الكنيسة عليه باسم الدين وعن ظلم الاقطاعيين للافراد : " وكان على الناس أن يزيحوا عن كاهلهم مايرزخون تحته من اثقال . اول ثقل بدأوا يزحزحونه هو الكنيسة ورجال الدين . وهنا دخلت " عبادة الطبيعة " مهربا من الكنيسة والهها المتجبر الذى تحكم باسمه الناس ومحاولة لاقامة " عبادة " جديدة يلتقى فيها العابد والمعبود مباشرة بلا وسيط .

" ثم اخذوا يزيحون ثقل الاقطاع بما يشمله من طبقة الاشراف وكانت الثورة الفرنسية جماع هذه الثورة التى اطاحت بالملكية ورجال الاقطاع على الطريقة الاوربية او على الطريقة الفرنسية : المقصلة وقطع الرقاب . وبدأ الفرد يحس بكيانه ــ ولكنه فى هذه الجاهلية التى لاتعرف الله ــ لم يكن يتوقع له أن يحس بكيانه على اهتداء انه ــ مثلا ــ لم يسع الى الاتصال المباشر بخالقه بغير وساطة الكاهن وانما ادار ظهره للكنيسة بكل ماتحمله من كهنة وقسس واله .

ولم يحاول أن يفرز التقاليد السارية فى مجتمعه فيرى ماكان منها ذا قيمة

---

(١) انظر تاريخ اوربا فى العصر الحديث نشر الفصل الاول .

باقية فيقوم بأدائه عن ايمان فتكون له الشخصية المتميزة فى هذا الاداء — وانما أدار ظهره لمجموعة الاخلاق والتقاليد فى عصره على أنها شىء بائد .. لابد أن يبيد . وهكذا لم يتعقل فى ثورته المجنونة . لقد كان — فى هياجه — يلقى كل شىء لينطلق خفيفا من الاثقال ..

" ثم كان الانقلاب الصناعى الذى اتى على بقية ماكان من بنيان — لقد احدث هذا الانقلاب تغيرا كاملا فى صورة المجتمع — فى كل شىء فيه — وكان عاملا من أهم العوامل فى التركيز على فردية الانسان ..

" لقد جاء العمال من المدينة فرادى .. غير متعارفين ولا مترابطين . وسكنوا فى المدينة كذلك فرادى . لا يلتقون الا فى زمالة العمل وحده . ولكن لاتقوم بينهم الروابط التى كانت تقوم بين الفلاح وأخيه فى الريف . حيث الناس متعارفون ، متعاونون ، تربطهم القرابة والمصاهرة والجوار ودوام الاتصال والتقاليد المشتركة التى توحد كيانهم من الداخل فيلتقون متعارفين بالمشاعر والافكار .

" بل انهم جاءوا فرادى بلا أسر . فقد كان الجيل الاول من العمال النازحين من الريف يتحسسون الطريق فى المدينة فلا يحضرون معهم أسرهم حتى يطمئنوا أولا الى الجو الذى يعيشون فيه . وكان معظمهم من الشباب العزاب الذين لم يرتبطوا بعد برباط الزواج .

" وهكذا أحس كل انسان فى المدينة بفرديته المتميزة اكثر مما احس بالرباط الجمعى — ثم عملت المرأة .. وأحست كذلك بفرديتها . " (1)

سيادة الطبيعة

انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر وابتدأ عصر جديد من عصور الفكر الاوربى فى بداية القرن التاسع عشر حيث تميز هذا القرن بفلسفة خاصة به وهى سيادة الطبيعة على الدين والعقل واستقلال الواقع كمصدر للمعرفة اليقينية مقابل الدين والعقل .

---

(1) جاهلية القرن العشرين ص ١٢٠ — ١٢١ .

وقد قامت هذه الفلسفة التى تدعو الى سيادة الطبيعة ان لم نقل عبادتها فى جو معين ، حيث تولدت الرغبة فى نفوس كثير من العلماء والفلاسفة لمعارضة الكنيسة التى كانت تملك نوعا خاصا من المعرفة ، التى كانت تستغل بمعرفتها الخاصة بها معارضة خصومها • والمقصود بمعرفة الكنيسة هى المعرفة الدينية ، فقام فريق من العلماء والفلاسفة بمعارضة الكنيسة ومعرفتها الخاصة معارضة قوية وشنوا هجوما عنيفا عليها باسم العلم • أضف الى ذلك أن هؤلاء العلماء والفلاسفة اعتبروا فلسفة عصر التنوير فلسفة فاشلة لم تحقق الهدف المطلوب منها ، وهو ابعاد التوجيه الكنسى كلية عن توجيه الانسان وتنظيم الجماعة الانسانية ، حيث مالت الفلسفة المثالية الى تأييد الدين والوحى من جديد على عهد هيجل ، بعد أن شكك "كانت" بالمعارف الدينية • وقد قامت هذه الفلسفة الوضعية على أساس خاص بها ، وهو تقدير الطبيعة وحدها كمصدر للمعرفة اليقينية •

يقول الدكتور محمد البهى : " ومعنى تقديرها للطبيعة على هذا النحو أن الطبيعة فى نظرها هى التى تنقش الحقيقة فى ذهن الانسان وهى التى توحى بها وترسم معالمها الواضحة • هى التى تكون عقل الانسان • والانسان — لهذا — لا يملى عليه من خارج الطبيعة اى لا يملى عليه مما وراءها كما لا يملى عليه من ذاته الخاصة • اذ ما يأتى من (ماوراء الطبيعة) خداع للحقيقة وليست حقيقة ايضا !!! •

" وبناء على ذلك : يكون (الدين) — وهو وحى (اى مابعد الطبيعة) — خداع ! وهو وحى ذلك الموجود الذى لا يحده ولا يمثله كائن من كائنات الطبيعة هو وحى الله الخارج عن هذه الطبيعة كلية ••

" وكذلك (المثالية العقلية) وهم لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعى اذن هى تصورات الانسان من نفسه من غير ان يستلهم فيها الطبيعة المنثورة التى يعيش فيها وتدور حوله •

" ان عقل الانسان فى منطق هذه الفلسفة — أى مافيه من معرفة — وليد الطبيعة

التى تتمثل فى الوراثة ، والهيئة ، والحياة الاقتصادية والاجتماعية ، انـــه مخلوق ولكن خالقه الوجود الحسى .. انه يفكر ، ولكن عن تفاعل مع الوجـــود المحيط به .. انه مقيد مجبر وصانع القيد والجبر هو حياته المادية . ليـــس هناك عقل سابق على الوجود المادى كما انه ليست هناك معرفة سابقة للانســـان عن طريق الوحى - عقل الانسان ومعرفته يوجدان تبعا لوجود الانسان المـــادى .. هما انطباع لحياته الحسية المادية التى يتنفسها . " (١)

والفرد فى هذه الفلسفة ليس غاية وحياته التى يعيشها ليست هدفـــا لسعيه انما غايته الاخيرة التى يجب أن يسعى اليها هى الجماعة حيـــث ان طريق الانسان فى حياته الطبيعية تبدأ من الفرد وتنتهى بالجماعة . ومنطـــق الطبيعة وحده هو الذى يرسم الطريق المستقيم فى حياة الانسان كما يزعمـــون . وقد ناصر هذه الفلسفة الوضعية علماء ومفكرون ، روجوا لها بين النـــاس فانتشرت فى اوربا على يدهم وكانت من أعظم الممهدات لفلسفة ماركس الماديـــة واهم هؤلاء العلماء هو :

أوجست كومت :

يعتبر كومت فى مقدمة بناة الفلسفة الوضعية دعا الى الاصلاح الشامـــل للجماعة الانسانية ، وحمل استقلال الافراد والبحث الحر واستقلال الاتجـــاه فى الحياة مسئولية ماينتج عن الحرية والاستقلال من فوضى الاراء والاحـــوال العامة وينطلق فى فلسفته لاصلاح الجماعة من العلم ، ويدعو الى سيـــادة العلم على كل شىء .

يقول الدكتور محمد البهى : " والفلسفة الوضعية او الواقعية التى يجـــب أن يقام عليها نظام الجماعة الجديد ليست سوى النظام المنظم للعلم الواقعـــى نفسه . ونظام العلم الواقعى يقوم على أن (المعرفة الانسانية) تستند الـــى علاقات الظواهر بعضها ببعض وانه ليس هناك فى دائرة المعرفة (مطلـــق) يجعل اساسا لمجهول . والمبدأ المطلق الوحيد الذى له اعتبار عام : هـــو

(١) الفكر الاسلامى الحديث ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

أن كل شيء نسبي .. واذن ليس هناك فائدة من الحديث عن الاحوال والعلل الاولى للوجود ، ولا عن أهدافها الاخيرة وهي معرفة الميتافيزيقا والدين . " (١)

والتاريخ الذى استخدمه كومت هو تاريخ المعرفة اليونانية ، فقد كانت معرفة الانسان قبل الفلسفة الاغريقية ذات طابع ديني ثم أصبحت المعرفة فلسفة عقلية على عهد سقراط وافلاطون وغيرهما ، ثم مالت المعرفة الى التجربة والواقع على عهد ارسطو ، ثم ابتدأت دورة جديدة فقد كانت المعرفة في القرون الوسطى ، دينية ، ثم صارت عقلية في عصر التنوير ثم قوى الميل الى اعتبار المعرفة الحسية او الوضعية وحدها دون العقل والدين معا في القرن التاسع عشر .

فورباخ :

هو ثاني الفلاسفة المقدمين في الفلسفة الوضعية وهو ثمرة من ثمرات الفكر المادى الذى ساد في القرن التاسع عشر الذى اشتد فيه الجدل ضد الدين النصراني على وجه الخصوص وضد المثالية العقلية .

وهو يرى أن الفلسفة هي علم الواقع في حقيقته وفي عمومه ، وجوهر الواقع هو الطبيعة الشاملة التي تدرك بطريق الحواس . وعنده ان الحقيقة والواقع والحس كلها سواء . وليست الحقيقة هي المادية ، ولا هي المثالية النظرية ولا هي علم الطبيعة ولا علم النفس هي علم الانسان فقط .

وفي نظره من جانب آخر ان علم الانسان ايضا هو الدين ، والدين اذن محصول للعقل الانساني وليس موحى به من خارج الانسان .

والطبيعة الالهية كذلك هي طبيعة الانسان نفسه التي تجردت من قيود الفردية والشخصية . اى قيود الانسان الواقعى الجسمى — هي الانسانية . هذه الطبيعة الانسانية المتجردة ينظر اليها في احترام وخشية وقدسية . على انها

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤٦ .

شيء اخر مقابل لطبيعة الانسان الفردية . والله بالنسبة للانسان هو كتاب جامع لاحساسات الانسان العالية وافكاره وآماله ، وفي نظره ايضا أن الحياة الاخروية ليست شيئا اخر غير هذه الحياة الانسانية — على اعتباره ان الله ليس شيئا اخر غير الانسان اذا كان حكيما عادلا خيرا — لكن بعد أن ينظر اليهما نظرة مثالية ، والفجوة القديمة على نحو ما تصور الاديان — بين هذه الحياة والحياة الاخرى يجب أن تزول كي تركز الانسانية نفسها بنفس غير مشتته وقلب موحد في عالمها المشاهد وفي حاضرها القائم وعن طريق هذا التركيز غير الموزع في العالم الواقعي فقط تقوم حياة جديدة للانسان وتنتج اعمال وتاملات كثيرة وينشأ عظماء من الناس .

ويمضي قائلا ، واذا انقطع ايماننا او تصديقنا بحياة أفضل في الاخرة وأردنا مع ذلك من غير تفرق ايجاد حياة افضل نستخلق ايضا حياة افضل . ولكن لكي نريد هذا ونريد ان نحققه ، يجب أن نضع مكان محبة الله محبة الانسان كدين وحيد حق ، وان نضع مكان الايمان بالله الايمان بالانسان نفسه وبامكانياته الخاصة وبعظمته — الايمان بان تقرير المصير للانسانية ليس من طبيعة خارجة عنها او فوقها وانما يرتبط بها نفسها تمام الارتباط . (1)

دارون :

تعتبر نظرية دارون من أكبر الاحداث التي هزت العقيدة الاوربية ورجتها رجا عنيفا حيث جاء دارون يقول : انه لا يوجد شيء ثابت على وجه الارض لا الانسان ولا الحيوان ولا النبات وليس هناك قصد ثابت على الاطلاق في الخليقة ، والطبيعة الخالقة لم تقصد خلق الانسان ، وانما هو جاء نتيجة لعملية التطور البطيئة التي استغرقت ملايين السنين والانسان كان في منشئه حيوانا .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب في معرض حديثه عن اثار نظرية دارون :

---

(1) انظر الفكر الاسلامي الحديث ص ٣٥٠ — ٣٥٢ — تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص ٢٤٠ .

" أول نتائجها زلزلة الايمان بالله وبالعقيدة ، وثاني نتائجها زلزلة الايمان بالانسانية والانسان ورفعته وسموه وروحانيته .

وثالث نتائجها زلزلة الايمان بثبات اى نظام من النظم او قيمة من القيم او فكرة من الافكار ورابع وخامس وسادس — زلزلة كل شيء كان راكزا من قبل وتحطيم كل بنيان راسخ الاساس .

" فكرة الله الخالق المريد المدبر ذي القصد لقيت أول زلزلة مباشرة على يد داروين في قضية خلق الانسان . حيث نفى داروين القصد ونفى الخلق المباشر للانسان بيد الله وارجعه الى عملية التطور ونفى أن ثمة شيئا فى كيان الانسان يمكن ان يكون " نفخة الله فى روحه " . اذ قرر على سبيل الجزم الحيوانية المطلقة لاصل الانسان " (١) .

هذا وقد كان لهذه النظرية أثر كبير فى تعميق الفكر المادى فى أوربا كما أثرت على فكر ماركس على وجه الخصوص . وسوف نتعرض لهذه النظرية وايحاءاتها وصلتها بالتفسير المادى للتاريخ فى فصل مستقل باذن الله تعالى .

بداية ظهور الاشتراكية

على أثر الانقلاب الصناعي الذى حدث فى أوربا واتساع نطاق التجارة واتساع دائرة الاستعمار الاوربى ، حدث انقلاب هائل فى نظام الهيئة الاجتماعية نتج عنه ظهور البطالة فى الاعمال اليدوية . وقد قام العمال اليدويون حياة العمال فى المصانع وقاومت الحكومة حركات العمال . ومع مضى الزمن دخلت المرأة والأولاد الى المصانع واصبحت البضائع التى تنتجها المصانع تباع بكلفة أقل من البضائع التى تنتج عن طريق الاعمال اليدوية ، وكثر الطلب على انتاج المصانع واصبح اصحاب المصانع والاعمال يستغلون العمال فى الليل والنهار لزيادة كمية الانتاج على الرغم من قلة الاجور وعدم كفايتها ، والعمال بحاجة الى الرعاية الصحية فى كل وقت وقد نسى او تناسى اصحاب المصانع الرعاية الصحية لعمالهم ولم يهتموا بمشاكلهم . وقد ترتب على هذا الاهمال مشكلة العمل

---

(١) معركة التقاليد ص ١٥ — ١٦ .

والعمال ، وارتفعت الاصوات بالمطالبة بتحديد ساعات العمل وتامين الرعاية الصحية للعمال واسرهم ، وزيادة اجورهم . وهنا بدأ الفكر الاجتماعي ياخذ طريقه ويفرض نفسه كمشكلةتطالب بحل .

يقول الدكتور رؤوف شلبي : " ولا يعرف على وجه التحديد أول من استعمل لفظ اشتراكى أو اشتراكية غير ان اول ظهورهاتين الكلمتين مطبوعتين كان في ايطاليا سنة ١٨٠٣ م ولكن مدلولهما يخالف المدلول الحالي . وذلك أن كلمة sosialism مشتقة من sosia ومعناها اجتماعي ، والافكار التي كانت تدور في القرنين الماضيين كانت حول المشكلة الاجتماعية ، ولم يعثر على هاتين الكلمتين بعد ذلك على اثر الا في عام ١٨٣٢ في مجلة التعاون التي كان يصدرها انصار احد الرواد الثلاثة روبرت اوين . وكانت دلالتها على للمبادئ التعاونية التي دعا اليها لاصلاح حالة العمال . " (١)

فكلمة اشتراكى في بداية امرها تعني قضية النظم الاجتماعية المختلفة التي كانت شعوب اوربا تناضل من اجلها في مواجهة الاضطرابات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

رواد الاشتراكية الاوائل :

وأشهر من تصدى لهذا العمل ثلاثة رواد هم :

سان سيمون ، وشارل فورييه ، وروبرت أوين . وقد اتفق هؤلاء الرواد كما يقول كول على مايلي :

" يتفق سان سيمون وفورييه واوين ، رغم اختلافاتهم العديدة في اتجاه اجتماعي أساسا وقد كان ذلك صحيحا بثلاثة معان مختلفة وان كان بعضها متصلا بالبعض الآخر .

ففي المكان الاول : كان المفكرون الثلاثة يعتبرون المشكلة الاجتماعية اهم المشاكل الى حد بعيد . واصروا على أن واجب الرجال الصالحين هو أن يعملوا على دعم السعادة والرفاهية العامتين .

---

(١) التضليل الماركسى ص ٣٨ ـ ٣٩ .

وثانيا ذهب الثلاثة الى أن هذه المهمة لاتتفق مع استمرار اى نظام يقوم على الصراع التنافسى بين الانسان والانسان من أجل وسائل الحياة او يشجع هذا الصراع .

ثالثا : كان الثلاثة ينظرون بريبة عميقة الى السياسة والسياسيين واعتقدوا أن الاشراف على الشئون الاجتماعية مستقبلا يجب ان يكون للمنتجين وليس للبرلمانات أو الوزراء .

وأنه اذا امكن تنظيم الجوانب الاقتصادية والاجتماعية تنظيما سليما فان صور الحكم التقليدية والتنظيم السياسى سرعان مايستبدل بغيره ويحل عالم جديد من التعاون والسلام " (١) .

خاتمة البحث

من خلال البحث فى الظروف التى مهدت لانتشار التفكير المادى فى أوربا وجدنا ان التحريف الذى وقع فى الدين النصرانى على يد الكنيسة كان من اهم الاسباب التى جعلت معظم الناس فى اوربا يتخلون عن الدين . لأن اوربا لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله كما وضحنا ذلك سابقا . ولم تستفد من علوم المسلمين واحتكاكها بهم لتصل الى طريق الرشد ، وانما خاصمت الاسلام وصدت الناس عن اتباع تعاليمه . وقامت نهضة اوربا على اساس غير دينى ، قامت على اساس مادى لايؤمن الا بما تدركه الحواس .

لهذا نجد أن كارل ماركس لم يكن هو الذى ابتدع الفكر المادى وانما كان لهذا الفكر مقدمات سبقت ظهور ماركس بقرون عديدة كما وضحت ذلك فى تتبع مراحل التفكير فى أوربا .

---

(١) نفس المصدر ص ٦٠ ـ ٦١
نقلا عن تاريخ الفكر الاشتراكى راشد البراوى ص ١٠ ـ ١١ .

وان كان لماركس من أثر على الفكر المادى ، فانما يكمن في تعميق هذا الفكر ونشره فماركس يلغى اى تفكير غير مادى والتفكير بشيء غيبي في نظره خطأ وضلال وقد نشر هذا الفكر المادى على جميع نواحي الحياة . فالدين مادى ، والانسان مادى ، والحياة مادة ولاشيء في نظره الا وأصله مادى وراجع الى المادة .

يرى الاستاذ الغزالي ان اضيف الى ~~الموضوع~~ اسباب الحوادث الانشقاقات المذاهب المادية قضية تقاعس المسلمين عن نشر الدعوة الاسلامية في القرون الأخيرة

الباب الاول

عرض نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ
من وجهة نظر أصحابها

عرض موجز للتفسير المادى للتاريخ

فى هذا الباب أكتفى بعرض النظرية من وجهة نظر أصحابها مستشهدا بنصوص من كتبهم • وأوضح هذه النصوص وما يترتب عليها من احكام • حسب وجهة نظر اصحابها دون مناقشة لهم الا بما تقتضيه ضرورة البحث •

ولابد لى فى بداية هذا الباب من بيان موجز لاهم الافكار التى بنى عليها التفسير المادى للتاريخ ليتكون عند القارىء فكرة مبسطة عن الموضوع يستطيع من خلالها متابعة جزئيات البحث •

يقول الماديون : ان التفسير المادى للتاريخ جزء لا يتجزأ من الفلسفة الماركسية • ويبحث فى دراسة التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية فى التاريخ البشرى • ويوضح تمايز بعض مراحل التاريخ عن بعض المراحل الاخرى على ضوء ظروف هذا المجتمع الاقتصادية او ذاك • ويدرس التفسير المادى للتاريخ كذلك شروط حياة المجتمع المادية • وهى الطبيعة اوالوسط الجغرافى ، وازدياد نموالسكان والعامل الاساسى وهو اسلوب الانتاج •

وهذه الشروط لحياة المجتمع المادية هى التى تحدد فى النهاية هيئة المجتمع وآراءه وافكاره واوضاعه السياسية والقانونية والدينية والاخلاقية ٠٠الخ •

أ ـ الوسط الجغرافى :

هو أحد الشروط الضرورية الدائمة لحياة المجتمع المادية • ولكنه ليس القوة الاساسية التى تحدد فى النهاية هيئة المجتمع وتعين نظام الناس ووظيفته انه قد يعجل اويبطىء سير التطور وذلك لان تطور المجتمع وتغيره يجرى بصورة اسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافى وتغيراته •

ب ــ نمو السكان وكثافتهم :

وهذا لايكون القوة الاساسية التى تحدد هيئة المجتمع وبنيانه أيضـــا وان كان وجود السكان امرا لابد منه لانه لايمكن أن تكون هناك حياة مادية فى المجتمع بدون وجود حد أدنى من الافراد فى المجتمع .

جـ ــ القوة الاساسية فى تطوير المجتمع هى اسلوب الانتاج :

وأسلوب الانتاج هو : كما يعرفه أصحاب المادية التاريخية " وحدة قوى الانتاج وعلاقات الانتاج اى وحدة جانبى الانتاج المعبرين عن نوعين من العلاقات: علاقات الانسان بالطبيعة وعلاقة الانسان بالانسان "[1] .

وأسلوب الانتاج هو الذى يحدد طابع النظام الاجتماعى وهيئة المجتمـــع وقوى الانتاج تعبر عن علاقة الناس بالطبيعة ومدى سيطرتهم عليها . وتقوم بيـــن الناس وأدوات الانتاج وحدة قوية لانه لايمكن فصل الناس عن أدوات الانتاج .

وبفضل هذه الوحدة " تقوم أدوات الانتاج بتحديد علاقة الانسان الخاصـة بالطبيعة مع انها هى ذاتها من نتاج عمل الانسان الفكرى وتكشف عن مدى تطـــور الانسان والمجتمع كله .

ان الانسان يتكيف مع وسائل العمل المتوفرة فى المجتمع ويغيرها . وهو اذ يقـوم بتحسين وسائل العمل التى ينصبها بينه وبين الطبيعة ويستخدمها فى الانتـــاج يتغير هو ايضا بدوره[2] " .

ولابد من أسلوب لانتاج الحاجات الضرورية لحياة الناس . كالمأكل والملبـس والمسكن والوقود وادوات الانتاج .

هذه الحاجات الضرورية لابد منها . ومن أجل الحصول عليها لابد من انتاجها ولاجل انتاجها لابد من ادوات الانتاج . وهذه الادوات لابد من معرفة كيفية استخدامها .

---

(١) المادية التاريخية ص ٤٩

(٢) نفس المصدر ص ٥٥ .

هذه العناصر تؤلف جانبا واحدا من أسلوب الانتاج الذى يعبر عن سلوك الناس نحو أشياء الطبيعة وقواها التى تستخدم لانتاج الحاجات المادية .

أما الجانب الثانى لاسلوب الانتاج فهو علاقات الانتاج من الناحية البشرية . اى فيما بين الناس بعضهم وبعض .

فالناس وهم يناضلون مع الطبيعة التى يستثمرونها لانتاج حاجاتهم المادية ليسوا منفردين بعضهم عن بعض بل ينتجون جماعيا . ومن هنا كان الانتاج جماعيا وليس فرديا .

والاساس فى علاقة الانتاج هو ملكية وسائل الانتاج ، وملكية وسائل الانتاج تحدد نوعية الملكية سواء كانت خاصة ام جماعية . فان كانت وسائل الانتاج ملكية جماعية كانت الملكية جماعية . وان كانت هذه الوسائل بيد أفراد قليلين كانت الملكية خاصة .

يقول الماديون : ان التاريخ البشرى قد سجل خمسة اطوار اجتماعية حتمية الوقوع لعلاقات الانتاج وهى :
المشاعية البدائية والرق ، والاقطاع ، والرأسمالية ، والشيوعية الثانية .

هذه التشكيلات الاجتماعية تنقسم الى قسمين :
القسم الاول : وهو التشكيلات المتناقضة : وهى الرق ، والاقطاع والرأسمالية واساس التجمع بينها انها قائمة على أساس الاستعباد وسيطرة الانسان على الانسان . وهذا الظلم نتيجة حتمية للملكية الخاصة على حد تعبيرهم
القسم الثانى : التشكيلات غير المتناقضة وهى المشاعية البدائية والشيوعية الثانية التى هى أعلى مرحلة من مراحل تطور المجتمع كما يزعمون . وأساس التجمع بينهما انهما قائمتان على اللاطبقية القائمة على علاقات المساواة والتضامن وعندهم ان الانتقال من طور الى طور حتمى الوقوع أولا .

وراجع الى أسباب اقتصادية ثانيا .

وصراع المتناقضات فى المجتمع بين قوى الانتاج وعلاقة الانتاج بين الطبقات المستغلة والطبقات المستغلة هو وحده الفعال فى التطور الاقتصادى والبشرى بادئا من الشيوعية البدائية ، ومنتهيا بالشيوعية الثانية .

وعند الانتقال من طور الى طور تكون المرحلة الجديدة فى هذا الانتقال أحسن من سابقتها وينشأ هذا التطور عن التناقض الداخلى فى النظام القائم حين تتغير وسائل الانتاج . واهم مافى هذا التفسير ان كل تطور من هذه الاطوار الحتمية تصاحبه عقائد وافكار وقيم واخلاق صادرة عن الوضع الاقتصادى لان الوضع الاقتصادى هوالمحدد للاوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والاخلاقية والقانونية والفكرية وغيرها . وان هذه العقائد والافكار والبقية الباقية من الايديولوجيا تتطور حتميا مع تغير الوضع الاقتصادى وان كل اسباب التطورات البشرية محصورة فى تغيروسائل الانتاج وعلاقاته .

هذه الفلسفة المادية لاتؤمن الا بالمادة لان العالم مادى ولاشىء غير المادة ، ولا وجود لعالم غيبى لانه وهم وخرافة ، ولامجال لمشيئة الله فى خط سير البشرية .

والمادة هى الاصل والفكر نتاجها وهى سابقة فى الوجود عليه . وبالتالى فالاساس الاقتصادى هوأساس كل شىء اساس كل تغير ، اساس كل عقيدة وأخلاق وقيم وأفكار ، وهذه متطورة على الدوام ولاتثبت على حال واحدة .

وبناء على دراستهم للمجتمع فان التفسير المادى للتاريخ عندهم هو التفسير العلمى الصحيح ، ولاول مرة فى التاريخ لتفرده فى دراسة المجتمع البشرى دراسة علمية ، وهذا مايميزه عن الدراسات الاجتماعية الاخرى .

يقول أصحاب المادية التاريخية : " ان الحل الذى تقدمه المادية التاريخية للمسألة الاساسية فى الفلسفة بالنسبة للمجتمع ليس وحدانيا وحسب

وانما هو أيضا الحل العلمى الصحيح لاول مرة فى التاريخ " (١) .

ويقول جورج بوليتزر : " كما أن الفلسفة الماركسية نظرة علمية للعالم وهى النظرة الوحيدة العلمية اى التى تتفق وتعاليم العلوم ، فماهى هذه العلوم ؟ تعلمنا العلوم أن الكون حقيقة مادية ، وان الانسان ليس غريبا على هذه الحقيقة وانه يمكنه معرفتها ثم تغييرها كما تدل على ذلك النتائج العلمية التى توصلت اليها مختلف العلوم " (٢) .

ومقتضى كلامهم أن نظريتهم اكتسبت صفة العلمية وانها الوحيدة من بين الدراسات الاجتماعية فى تاريخ البشرية التى تميزت بهذه الخاصية لانها نظرية مادية صرفة ، هذه النظرة المادية تتفق وتعاليم العلوم التى تقول بأن الكون حقيقة مادية . وبناء على هذه النظرة العلمية عندهم فأن المادة هى الحقيقة الوحيدة فى هذا الكون ولها قوانينها الحتمية . والانسان قادر على التغيير فى الكون المادى .

وبناء على ماتقدم نأتى على تعريف المادية التاريخية عند أصحابها يقول سبركين وياخوت : " هى العلم الفلسفى الخاص بعلاقة الوعى الاجتماعى بالوجود الاجتماعى ، وبأكثر القوانين عمومية والقوى المحركة لتطور المجتمع البشرى هى نظرية عامة واسلوب للمعرفة العلمية للمجتمع وتحويله " (٣) .

اذن فالمادية التاريخية فلسفة خاصة تبين العلاقة بين الوعى الاجتماعى والوجود الاجتماعى .

والوعى الاجتماعى هو الافكار الاجتماعية الجديدة والمؤسسات . وهذا

---

(١) المادية التاريخية ص ٦

(٢) اصول الفلسفة الماركسية ج ١ ص ١٤

(٣) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ١٢٢ .

وهذا الوعى تابع للوجود الاجتماعى والوجود الاجتماعى يؤثر فيه ويغيره والوجود الاجتماعى هو حياة المجتمع المادية ، والعلاقات القائمة بين الناس والطبيعة وبين أنفسهم .

وتبين المادية التاريخية كذلك العلاقة القوية بين الوعى الاجتماعى والقوى المحركة للانتاج .

والقوى المحركة للانتاج هم الافراد وخبراتهم الانتاجية وادوات العمل وأثر ذلك على تطور المجتمع وتحويله من طور الى طور . وبناء على ذلك فسر التاريخ عندهم لاول مرة على أنه عملية طبيعية للتطور اى على أنه التبدل الحتمى لمختلف التكوينات الاجتماعية . والمقصود من هذه التكوينات الاجتماعية : الاطوار التى انتقلت فيها البشرية من المشاعية البدائية والتى ستنتهى فيها عند الشيوعية الثانية .

ويلزم من هذا التعريف للمادية التاريخية أن الوعى الاجتماعى يتغير بتغير الوجود الاجتماعى . اذن فالعقائد والاخلاق والقيم والافكار تتغير تبعا لتغير وجودها الاجتماعى السابق عليها . وهم ينطلقون من قاعدة مفادها انهم بهذا الربط المحكم بين الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى حازوا قصب السبق ولاول مرة فى تاريخ البشرية حيث جاء تفسيرهم المادى للتاريخ بفلسفة علمية صحيحة تفسر حياة البشرية وتاريخها . وقد استشهدنا بموضع سابق بنصوص أوردها الماديون حول هذا الزعم .

وبما أن المادية التاريخية جزء لا يتجزأ من الفلسفة الماركسية فقد طبق الماركسيون قوانين المادية الديالكتيكية على حوادث التاريخ . وسوف نعرض بشكل مبسط لمفهوم الجدل والديالكتيك ، ونثبت الصلة القوية بين المادية التاريخية والمادية الجدلية او الديالكتيكية .

صلة المادية التاريخية بالمادية الجدليـــة

يعترف أصحاب التفسير المادى للتاريخ بالصلة القوية بين المادية التاريخيـــة والمادية الجدلية ولتوضيح هذه الصلة والاستشهاد عليها ، لابد من بيـــان موجز لمفهوم المادية الجدلية .

المادية الجدلية ، الجدل في اللغـة :

الجدل من " شدة الفتل " وجدلت الحبل اجدله جدلا ـ اذا شددت فتله وفتلته فتلا محكما " [1] .

" والجدل اللدد في الخصومة والقدرة عليها وقد جادله مجادلة وجدالا ورجل جدل ومجدل ومجدال : شديد الجدل : ويقال جادلت الرجـــل فجدلته جدلا اى غلبته . ورجل جدل اذا كان اقوى فى الخصام .

وقد جاء ذكر الجدل فى القرآن الكريم فى عدة مواضع منها قوله تعالـــى : " وجادلهم بالتى هى أحسن " [2] . وقوله تعالى : " ولا جدال فى الحج " [3] وغيرها [4] . ولا جدال فى الحج اى ولا مخاصمة فى الحج . وجادلهـــم بالتى هى أحسن : " اى من احتاج منهم الى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب " [5] .

والجدلية معناها البحث والمناقشة ليصل المتناقشان الى الحقيقة وذلـــك عن طريق الكشف عن المتناقضات التى تنطوى على حجج المتنازعين . وفى هـــذا المعنى تقارب شديد مع المعنى اللغوى . واول من قال بان المتناقضات موجودة

---

(١) لسان العرب جـ ١١ ص ١٠٣

(٢) النحل ١٢٥

(٣) البقرة ١٩٧

(٤) نفس المصدر ص ١٠٥

(٥) تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٥٩١ .

فى أصل كل شىء ولها أهمية كبرى هو الفيلسوف هيجل .

يقول كاريوهنت : " الجدلية اذن هى فكرة ونقيضها ثم تآلف النقيضين فالفكرة تؤيد القضية . والنقيض ينكرها اوبتعبير هيجل ينفيها . اما تآلف النقيضين فيحتضن ماهو حقيقى الفكرة ونقيضها . وبهذا تقربنا خطوة نحو الحقيقة . ولكن حالما يتعرض تالف النقيضين الى فحص ادق نجدها هى أيضا ناقصة . وهكذا تعود العملية فتبدأ من جديد بفكرة اخرى بنفيها ونقيضها ثم يجرى التوفيق بينهما بتالف جديد للنقيضين .

وبهذه الطريقة المثلثة يمضى الفكر حتى يصل فى النهاية الى المطلق . وعندئذ يمكننا أن نواصل التفكير الى مالا نهاية دون ان نشهد اى تناقض . وعلى هذا يطلق اصطلاح الجدلية على عملية التنازع والتوفيق التى تجرى ضمن الواقع ذاته . وداخل الفكر البشرى بشأن الواقع " (١) .

أما ماركس فقد انطلق فى جدليته من المادة . وعاب على هيجل الذى يقول ان حركة الفكر هى مبدعة الواقع . وهى المرجع الاخير والاساس . ولقوله ايضا بالعقل الكلى اى الوجود المطلق خلف المادة . ويقصد به الله . وقال ماركس ان منهجه الجدلى يختلف عن منهج هيجل ابتداء من الاساس .

يقول ماركس : " لايختلف منهجى الجدلى فى الاساس عن منهج هيجل فقط بل هو نقيضه تماما اذ يعتقد هيجل ان حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة هى مبدعة الواقع الذى ليس هو سوى الصورة الظاهرية للفكرة . اما انا فاعتقد على العكس ان حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع . وقد انتقلت الى ذهن الانسان " (٢) .

---

(١) الشيوعية نظريا وعمليا كاريوهنت ص ٢٨

(٢) اصول الفلسفة الماركسية جـ ١ ص ٣٦ نقلا عن راس المال جـ ١ ص ٢٩ .

يرى الدكتور السبوط التوسع فى هذا الموضوع قليلا

ماهو الديالكتيك :

يقول ستالين : " أخذت كلمة ديالكتيك من الكلمة اليونانية " ديالغو " ومعناها المحادثة والمجادلة . وكان الديالكتيك يعنى فى عهد الاولين فن الوصول الى الحقيقة باكتشاف التناقضات التى يتضمنها استدلال الخصم والتغلب عليها .

" وكان بعض الفلاسفة الاولين يعتبرون أن اكتشاف تناقضات الفكر والمصادمة بين الاراء هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة . فهذا الاسلوب الديالكتيكي فى التفكير ، الذى طبق فيما بعد على حوادث الطبيعة ، اصبح الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة .

" ان حوادث الطبيعة بموجب هذه النظريقة ، هى متحركة متغيرة دائما وأبدا ، وتطور الطبيعة هو نتيجة تطور تناقضات الطبيعة ،نتيجة القوى المتضادة فى الطبيعة . " (١)

هذه الفلسفة الجدلية تبدأ من المادة فى دراستها معتمدة على المنهج التجريبى وهى الفلسفة العلمية الوحيدة فى قولهم ، لانها القادرة على تفسير جميع ظواهر الوجود تفسيرا حتميا على حد تعبيرهم .

وبعد هذا البيان الموجز لمفهوم المادية الجدلية عند الماديين أثبت الصلة بين المادية التاريخية والمادية الجدلية . يقول الماديون ان المادية التاريخية جزء لايتجزأ من الفلسفة الماركسية . هذه الفلسفة العامة الشاملة التى تنظر للكون والانسان والحياة نظرة مادية جدلية . وذلك بتصويرها لحوادث الطبيعة تصويرا ماديا . انطلاقا من نظرتها المادية الى العالم والتى مفادها ان العالم مادى بطبيعته ، ويتطور تبعا لقوانين حركة المادة وأن الكون والحياة والانسان مادة تتطور تتطورا ذاتيا وان حوادث العالم المتعددة هى مظاهر مختلفة لحركة المادة .

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ١٤ ــ ١٥ .

من هذا الاساس المادى تفسر حياة البشر وتاريخهم . والمادية التاريخية تطبق هذه الافكار المادية على حوادث الحياة والمجتمع وسير التاريخ البشرى .

يقول لينين : " ان هذه الفلسفة الماركسية المسبوكة من قطعة فولاذية واحدة لا يمكن انتزاع اى منطلق اساسى منها ولا اى جزء جوهرى واحد دون الخروج عن الحقيقة الموضوعية ، ودون الوقوع فى أحضان الدجل البرجوازى الرجعى "(١)

أى أن هذه الفلسفة العامة واحدة ولا يمكن عزل اى جزء جوهرى منها عن سائر اجزائها . فلا يمكن فصل المادية التاريخية عن المادية الجدلية . ويقول أصحاب كتاب المادية التاريخية : " ان تحريف المادية الديالكتيكية يؤدى حتما الى تشويه المادية التاريخية . ان المادية التاريخية لا تتوافق مع اية فلسفة اخرى غير المادية الديالكتيكية . ان للاعتراف بالمادية التاريخية مع نكران المادية الديالكتيكية ليس الا زيفا خالصا وسفسطة مقرفة " (٢) .

اذن فالمادية التاريخية لا تتوافق مع اية فلسفة اخرى غير المادية الديالكتيكية وما ينطبق على احداهما ينطبق على الاخرى وذلك لاتحادهما فى الاساس المادى .

ولو ان المادية الديالكتيكية اعترفت بما وراء الطبيعة فى الفكر والفلسفة لانهار التفسير المادى للتاريخ لانه مبنى على الاساس المادى . لذلك فان الاعتراف بالمادية التاريخية دون القاعدة والاساس الذى قامت عليه وهو الفلسفة المادية هو فى نظرهم تشويه لهذه النظرية المادية عن التاريخ والمجتمع . لان اى نظام لابد وأن يكون له قاعدة تصور ينطلق منها فى سيره .

يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية ايضا : " ان المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تظهران كعلم واحد وكفلسفة متكاملة فلا المادية التاريخية معقولة بدون المادية الديالكتيكية ، ولا المادية الديالكتيكية ممكنة بدون المادية التاريخية فبماذا نفسر ذلك ؟ .

---

(١) المادية التاريخية ص ١٣ نقلا عن المؤلفات الكاملة ج ١٤ ص ١٣٢ .
(٢) المادية التاريخية ص ١٣ ــ ١٤ .

" اولا : بأنه لا يمكن وضع نظرة مادية ديالكتيكية عن العالم ككل اذا لم يتوفر التفسير المادى للحياة الاجتماعية ، اذا لم يكن قد اكتشف أن المجتمع هو ايضا شكل لحركة المادة وخاضع فى تطوره لقوانين موضوعية كقوانين الطبيعة ، والماديةالديالكتيكية غير ممكنة بدون المادية التاريخية ثانيا : لان الاجابة العلمية الصحيحة عن المسألة الاساسية فى الفلسفة حول أولوية المادة وثانوية الوعى غير ممكنة بدورها بدون توضيح سبب وكيفية ظهور الوعى الانسانى ، والدور الذى لعبه فى ذلك التطبيق العملى الاجتماعى التاريخى للناس اذ أن الاجابة عن هذا السؤال تقدمها المادية التاريخية . " (١)

فى هذا النص يوضحون سبب استحالة فصل المادية التاريخية عن المادية الديالكتيكية لانهما يتمم بعضهما بعضا لان المادية الجدلية نظرة مادية للعالم ككل . وبما أن حياة المجتمع البشرى جزء من العالم فلابد اذن من تفسيره تفسيرا ماديا حتى تصح نظريتهم الشاملة كما يقولون . ولو لم يفسر التاريخ البشرى تفسيرا ماديا لكانت نظريتهم للتفسير المادى للتاريخ العلمية كما يزعمون ناقصة ويترتب على نقصانها عدم شمولها وبالتالى عدم صحتها .

وبما أنهم يريدون تأكيد الاساس المادى الذى انطلقوا منه ، وهو أسبقية المادة على الوعى والفكر وبما أن الوعى والفكر ينطلقان من المجتمع البشرى والمجتمع فى نظرهم شكل لحركة المادة وخاضع فى تطوره لقوانين موضوعية مادية كقوانين الطبيعة ، فلابد اذن من معرفة كيف ظهر هذا الوعى ، وما هو الدور الذى أداه فى التطبيق العملى الاجتماعى . وبما أن المادة هى الاساس عندهم ، اذن فلابد من تفسير الوعى على هذا الاساس تفسيرا ماديا .

والذى يترتب على كلامهم هذا بناء على الصلة القوية بين المادية التاريخية والمادية الجدلية وبما انهما متكاملتان انه اذا بطل اى جزء يسير او جانب واحد من احدى النظريتين انهارت العلمية الصحيحة الشاملة التى يزعمونها لانه لا يمكن

(١) نفس المصدر ص ١٢ .

أن تكون النظريتان صحيحتين الا اذا صحتا معا . ولاتصح احداهما الا اذا كانت الاخرى صحيحة .

الفصل الاول : المادة سابقة فى الوجود على الفكر

تمهيد :

نحن نعتقد أن الفكر نعمة أنعم الله بها على الانسان وميزه بها على سائر الحيوانات وقيمة الانسان الحقيقية تتجلى بفكره ، وقدرته على الابداع فى الحدود التى رسمها الله سبحانه وتعالى له .

ومن هنا كان للفكر اثر عظيم فى ابراز العلماء والمفكرين ، والعظماء والقادة الذين كان لهم دور عظيم فى تاريخ البشرية . ولكن اصحاب المذهب المادى يقدمون المادة على الفكر ، ويعتبرونه من نتاجها وهى المؤثرة فيه .

وقبل أن أبين أسبقية المادة على الفكر يحسن بى ان اعرف ماهى المادة

يعرف لينين المادة بقوله : " هى مقولة فلسفية تخدم فى تعيين الواقع الموضوعى المعطى للانسان ، فى احساساته التى تنسخه تصوره تعكسه والموجود بصورة مستقلة عن الاحساسات " (١) .

وبناء على هذا التعريف الذى يعتبر المادة شاملة لجميع مفاهيم الاشياء كالورد ، والشجر ، والبيت وغيرها كلها مفاهيم تكتسب المادة خاصية السبق على الادراك والتأثير فيه .

وبما أن الفلسفة تدرس المفاهيم شاملة الى اقصى حد اطلق على هذه الدراسة مقولة فلسفية ، وبما ان المادة تدرس المفاهيم شاملة الى اقصى حد

---

(١) الدفاتر الفلسفية جـ ١ ص ٣٢

اذ ن . على هذا الاساس مقولة فلسفية ووظيفتها تعيين الواقع الموضوعي اي الواقع المادي الموجود خارج الادراك وهو المؤثر في أعضاء حواس الانسان واثارة احساساته .

اذ ن فالفكر انعكاس للمادة الواقعة على الدماغ ، وهو يفكر في المادة التي تعكس عليه . وقبل انعكاس المادة على الدماغ لا يوجد فكر . والى هذا أشار ستالين بقوله :

" تقوم المادية الفلسفية على مبدأ آخر وهو أن المادة والطبيعة والكائن هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الادراك أو الشعور بصورة مستقلة عنه . وأن المادة هي عنصر أول لانها منبع الاحساسات والتصور والادراك بينما الادراك هو عنصر ثان مشتق ، لانه انعكاس المادة ، انعكاس الكائن وأن الفكر هو نتاج المادة لما بلغت في تطورها درجة عالية من الكمال . او بتعبير أدق ان الفكر هو نتاج الدماغ ، والدماغ هو عضو التفكير . فلا يمكن بالتالي فصل الفكر عن المادة دون الوقوع في خطأ كبير . " (١)

اذ ن فالمادة على حد تعبيرهم هي منبع الاحساسات والتصور والادراك . فلا يوجد ادراك بدون المادة التي ينعكس عنها الادراك . والفكر نتاج المادة المتطورة الراقية . وبالتالي لا يمكن فصل الفكر عن المادة ، فحيثما توجد المادة يوجد التفكير وحينما تنعدم المادة ينعدم التفكير حيث لا يمكن فصل الفكر عن المادة لان الفصل بينهما يؤدي الى الوقوع في الاخطاء . هذا هو مبدأهم الذي يسيرون عليه في تحديد قيمة الفكر ومكانته . يقول انجلز : " لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة فان هذه المادة هي جوهر التغيرات التي تحدث " (٢) .

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٢٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٠ نقلا عن الاشتراكية الطوبارية والاشتراكية العلمية المقدمة .

المادة أزلية أبدية : ـ حسب قولهم ـ

بعد أن عرفت المادة وبينت أنها سابقة في الوجود على الفكر ، أبين رأيهم في أزلية المادة وأبديتها .

يقول الماديون : " وبالتالي فليس للكون لانهاية ولا حدود ، العالم أبدى وليس له أى " بداية " ولن يكون له أي نهاية . ومن هنا فاى عالم "غيبي " غير مادى غير موجود ولا يمكن أن يوجد . وفى واقع الامر انه اذا لم يوجد شئ غير المادة فلا يوجد غير عالم مادى واحد . وهذا يعنى انه عند الاشياء والظواهر المختلفة فى العالم المحيط بنا هناك خاصية واحدة توحدها هى ماديتها " (1) .

اذن فلا يوجد شئ على حد تعبيرهم غير العالم المادى ، ولا يمكن أن يوجد عالم روحى او يوم آخر كما جاءت به الاديان وجميع هذه الظواهر المختلفة فى الكون يوحدها شئ واحد هو ماديتها . اى كلها مادية لاغير والانسان فى نظرهم نتاج المادة ايضا .

وينبنى على كلامهم ان المادة اكتسبت صفة الازلية والخلود فليس لها بداية ولا نهاية وهذه هى صفات الله سبحانه وتعالى . اذن فعلى حد تعبيرهم المادة خالقة ، ولها خصائص الخالق ، وليس هناك عالم غيبى لان العالم محصور فيما تدركه الحواس . ويدعون بان العلم يؤيدهم فيما ذهبوا اليه ، ولنستمع الى مايقولون بخصوص هذه الدعوى :

يقول اصحاب المادية التاريخية : " ثم ان العلم اذ يكشف عن الصلات الطبيعية بين ظواهر الطبيعة يطرد فى تطوره الاله من الطبيعة ويدحض خطل المثالية ويؤيد صحة النظرة المادية الى العالم . والعلم يتفق مع المادية فى بحثه عن الحقيقة فى الحياة ذاتها . وفى الطبيعة ويفسر ظواهر

---

(1) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٣٩ .

الطبيعة والمجتمع معتمدا على القوانين الموضوعية ، وهذا ما يدل على أن العلم الحقيقى هو ذو طابع مادى . ان العلم مادى بطبيعته وجوهره والمثالية غريبة عنه وعدوة له . " (١)

يترتب على هذا النص ان المثالية عدوة للعلم ، وبالتالى فان الاديان عدوة للعلم لانها مثالية ، وأن العلم فقط يحمل الطابع المادى لاغير . والعلم على حسب دعواهم موافق لهم ويخدم أغراضهم فى بحثهم عن الحقيقة فى الحياة ذاتها فى الكون المادى ، والعلم فى تطوره يطرد الاله من الطبيعة وهو تعالى عما يقولون ليس له وجود لانه خارج حدود المادة ولانهم لا يعترفون بما هو خارج حدود المادة ، لانه فى حسبهم لا يوجد شىء خارج حدود المادة، والمادة شاملة لكل شىء ومحيطة به ، ولها صفات الخلق والقدرة والابداع وهى الاساس الذى ينطلق منه الفكر والعلم وكل شىء على حد زعمهم .

وعلى أساس انكارهم لوجود الله تعالى انكروا كل عمل وهدف قصد به ابتغاء مرضاة الله تعالى وانكروا اثر هذا الهدف ، وبالتالى انكروا دور الاسلام ودولته فى الواقع البشرى الذى ماقام الا لاعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى فى الارض .

يقول ماركس : " ان العزة الالهية والهدف الالهى هى الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ ، والواقع أن هذه الكلمة لاتشرح شيئا " (٢) .

ولم يكتفوا بانكار وجود الله سبحانه وتعالى والتكليف الربانى الا وهو اعلاء كلمة الله فى الارض ونشر العدل : " ... " الذى حمل لواءه جند الاسلام ، واسقاط فترات الهدى والايمان من حياة البشرية ، بل صرحوا بأن

---

(١) المادية التاريخية ص ٥٠٠

(٢) بؤس الفلسفة ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

الله من ابداع الانسان ، وأن المشكلة ليست هي مشكلة وجوده سبحانه بل هي مشكلة فكرة وجوده ، ولنستمع الى دعواهم بهذا الخصوص :

" ولقد أثارت النزعة المادية الجدلية هذه الصعوبات وفقدت فكرة " الله " كل محتواها ولم يعد النقاش حول وجود الله اوعدم وجوده ، ذلك النقاش الذى أثار النزعة الالحادية الساذجة غير الماركسية يثار كما اثير سابقا ، لقد أصبح الله كما قال لابلاس : فرضية لانفع فيها ، وحل محل مشكلة وجود الله مشكلة فكرة وجود الله في رؤس الناس ، هاتان مشكلتان لاتميز النزعة المثالية الموضوعية بينهما .

" ولاشك في أن فكرة الله والعواطف الدينية موجودة ، وهي تتطلب تفسيرا بدلا من القول بان الانسان كائن "الهي " يجمع في ذاته العنصر الطبيعي والعنصر الالهي كما يجمع عنصر الموت والخلود في هذه الحياة وفي الحياة الاخرى . يجب القول بان " الله " و " الديانة " هما ظاهرتان انسانيتان لان العنصر الالهي هو من ابداع الانسان وليس الانسان هو من ابداع الله " (١) .

اذن فمهدؤهم الذى ينطلقون منه أن الله لانفع فيه واثارة النقاش حول وجوده لاطائل تحته اذ لديهم فكرة لاتتغير وهي أن ما وراء الكون المادى وهم وهراء وهو غير موجود — وعلى الرغم من اعتراضهم بالعواطف الدينية والديانات لكنهم يرجعون مصدرها الى الوهم والخيال لانهما ظاهرتان انسانيتان . والعنصر (الالهي) طبقا لهذه القاعدة هو من صنع الانسان وليس الانسان من صنع الله .

الطبيعة والمادة عندهم تحملان نفس المعنى

وقد ترد الطبيعة بمعني المادة ، والمادة بمعنى الطبيعة وخاصة حين يتكلمون عن الخلق .

---

(١) أصول الفلسفة الماركسية ج ١ ص ٢٠٦ .

يقول انجلز : " فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة ، فهى الاســـاس الذى نمونا عليه . نحن الناس نتاجها ايضا . وخارج الطبيعة والانســـان لايوجد شىء . اما الكائنات العلوية التى ولدت من مخيلتنا الدينية فليســـت سوى انعكاس خيالى لوجودنا نحن " (١) .

ويقول اصحاب اسس المادية الديالكتيكية " وجدت الطبيعة ليس فقـــط قبل الناس وانما عموما قبل الكائنات الحية . وبالتالى مستقلة عن الادراك وهى الاولية اما الادراك فلم يستطيع التواجد قبل الطبيعة فهو ثانوى " (٢) .

يقول لوموسف فى قانونه عن بقاء المادة : " انه فى الطبيعة لا ينشـــأ شىء من لاشىء ولا يختفى أبدا بلا أثر . ولكن اذا كان الامر كذلك فان المـادة الطبيعة قد وجدت دائما ، لاننا اذا سلمنا بانه فى وقت من الاوقات لم يكـــن هناك شىء فى العالم اى لم تكن توجد مادة فمن اين لها ان تنشأ ؟ ولكـــن ما ان توجد المادة فهذا يعنى انها لم تنشأ فى اى وقت من الاوقات ، بـــل وجدت دائما وستوجد دائما فهى أبدية وخالدة . ولهذا لم يمكن ان تخلـــق فلا يمكن ان يخلق مالايمكن افناؤه . وبذلك فالمادة لم تنشأ ابدا ، بـــل وجدت دائما وستوجد دائما فهى أبديــة . . " (٣) .

اذن فالمادة ابدية خالدة ، لم تنشأ من العدم لانه لايمكن ان يخلـــق مالايمكن افناؤه . ولهذا لايجوز السؤال عن بداية المادة ونهايتها لان اثارهـــا واضحة ومشاهدة .

والحركة كذلك محال خلقها وافناؤها لانها صفة للمادة .

---

(١) لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ١٦
(٢) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٤٣
(٣) نفس المصدر ص ٣٠ ــ ٣١ .

يقول انجلز : " المادة بدون حركة أمر غير معقول بقدر ماهي الحركة بدون مادة واذن فالحركة محال خلقها وافناؤها قدر ماهو محال ذلك بالنسبة للمادة نفسها . " (١)

وعلى هذا لا يمكن للحركة ان توجد منفصلة عن المادة وكذلك بالنسبة للمادة ومادامت المادة لا يمكن خلقها وافناؤها فالحركة لا يمكن خلقها وافناؤها كذلك وذلك للترابط التام بينهما . فاذا فقدت الحركة فقدت المادة . واذا فقدت المادة فقدت الحركة . وبما أن الاساس في كل شيء – عندهم – هو المادة ولا غير وهي ازلية ابدية وسابقة في الوجود على الفكر فانه يترتب على هذا الاساس النتائج التالية :

١ – تعلمنا المادية أن العالم مادي بطبيعته ذاتها . وان كل ماهو موجود يوجد على اساس الاسباب المادية وينشأ ويتطور وفقا لقوانين حركة المادة .

٢ – تعلمنا المادية أن المادة حقيقة موضوعية توجد خارج ذهننا ومستقلة عنه وان الذهني لا يوجد منفصلا عن المادي . بل ان كل ماهو ذهني او روحي هو نتاج لعمليات مادية .

٣ – تعلمنا المادية أنه من الممكن تماما معرفة العالم وقوانينه ، وأنه على الرغم من اننا لا نعرف الكثير في العالم المادي فليس هناك مجال للواقع غير قابل للمعرفة ويقع خارج العالم المادي . " (٢)

اذن فالعالم محصور في ماديته ولا شيء فيه غير مادي وكل مافيه ناتج على أساس مادي . فالروحانيات والغيبيات لا وجود لها الا على اساس مادي وكل شيء خارج العالم المادي وهم وخرافة ولا وجود له كما يزعمون ، والفكر لا يمكن ان يسبق المادة لانه ناتج عنها ولا يوجد شيء في الواقع غير قابل

---

(١) نصوص مختارة ص ٩٨

(٢) مدخل الى المادية الجدلية ص ٣٠ – ٣١ .

للمعرفة ، وعلى الرغم من المعرفة القليلة عن العالم المادى، والفكر يبدأ من الاحساس ومصدر الاحاسيس هو المادة التي يعمل بها الانسان متاثرا بالحاجات التى تفرضها الطبيعة عليه . ومن هنا قال ماركس : " ليس وعى الناس هو الذى يحدد وجودهم . بل وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم " (١) . وبما أن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم ونظرا لتغير الظروف الخارجية المماثلة للناحية المادية وتغيرها، وتبعا لذلك يتبعها تغير فى الوعى فمقتضى كلامهم أن الافراد ليس لهم وجود ولا أثر فى التغيير فى مجريات الاحداث عبر تاريخ البشرية الطويل . فاذا تغيرت الظروف الخارجية للمادة تغير معها كل شيء يصاحبها من دين وخلق وفكر وقيم وعادات . ومن هنا تبرز أهمية النظرية الماركسية فى نظرهم من الناحية العملية فيما يتعلق بأسبقية المادة على الفكر .

ويترتب عليها مايلى :

أولا : اذا كانت الظروف هى التى تتغير اولا ثم يتغير وعى الناس فلا يجب البحث عن سبب اي عقيدة نظرية او مثالية فى أدمغة الناس او فى مخيلاتهم او عبقريتهم المبدعة بل فى تطور الظروف المادية ، لان الفكرة التى تقوم على دراسة هذه الظروف هى الفكرة الصائبة المقبولة .

ثانيا : اذا كان وعى الناس وعواطفهم واخلاقهم وعاداتهم تحددها الظروف الخارجية ، فانه يصبح من البديهى ان تغيير هذه الظروف وحده يمكن ان يغير وعى الناس فليس هناك أنسان خالد او " طبيعة انسانية خالدة " ومن الطبيعى اذن أن يكون الانسان فى نظام يقوم على الملكية الفردية ويحتدم فيه النضال الفردى من أجل الحياة ذئبا يفترس اخاه الانسان كما انه من المحتم ان تنتصر أفكار الاخاء بين الناس فى نظام تحترم فيه المنافسة الاشتراكية ويقوم على الملكية الاشتراكية .

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية ج ١ ص ٢٣٨ نقلا عن دراسات فلسفية ص ٧٩ ، مشاركة فى النقد الاقتصادى السياسى .

" الانسان ليس صالحا ولا طالحا بل هو ماتصنع منه الظروف " (١) .

وبناء على اعترافهم لا يوجد شيء غير العالم المادى ، فالبحث عن العقيدة مضيعة للوقت لانه لا أثر لها في الواقع ، انما الفكرة الصائبة هي التى تقوم على دراسة الظروف المادية المتطورة ، وهى وحدها القادرة على تغيير وعى الناس ، وذلك لعدم وجود الانسان الخالد .

والملكية الفردية عندهم هى السبب الذى يجعل من الانسان ذئبا يفترس أخاه الانسان بسبب الصراع على الحياة . وعلى حد تعبيرهم فانه اذا تغير وعى الناس نتيجة لتغير الظروف المادية ، فلابد من الحتمية التى لامفر منها وهى انتصار الشيوعية التى لاتقاوم .

وبعد هذا العرض لنظرية التفسير المادى للتاريخ او المادية التاريخية حول أسبقية المادة على الوعى ، وما ترتب عليها من نتائج ، سننظر مدى كلامهم من الصحة ، حين عرض هذه الافكار على شريحة المناقشة فى فصل مستقل باذن الله تعالى .

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية جـ ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

الفصل الثانى

قوانـــين المـــادة

قوانين المـــادة

يقول الماديون ان المادة لها قوانين عامة ثابتة تسمى قوانين الجـــدل وهي : الترابط والحركة والتطور والتناقض .

اولا : الترابط في الطبيعة .

يقول الماديون : الطبيعة وحدة واحدة متماسكة فيما بينها والحوادث والاشياء غير منفصلة بعضها عن بعض، لارتباطها التام، ولا يمكن فهم اي حادث من حوادث الطبيعة اذا نظر اليه بمفرده بمعزل عن الحوادث التي تحيط بـــه وانما يمكن فهمه اذا نظرنا اليه من حيث الحوادث التي تحيط به والتي تحدده وتكيفه .

يقول ستالين : " ان الديالكتيك خلافا للميتافيزيقية، لا يعتبر الطبيعـــة تراكما عرضيا للاشياء، اوحوادث بعضها منفصل عن بعض، او احداها منعـــزل مستقل عن الاخر . بل يعتبر الطبيعة كلا واحدا، ومتماسكا، ترتبط فيـــــه الاشياء والحوادث فيما بينها ارتباطا عضويا ويتعلق احدها بالاخر، ويكــــون بعضها شرطا لبعض بصورة متقابلة .

لذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية ان اي حادث من حوادث الطبيعـــة لا يمكن فهمه اذا نظر اليه منفردا بمعزل عن الحوادث المحيطة به . اذ ان اي حادث في اي ميدان من ميادين الطبيعة، يمكن ان ينقلب الى عبث فـــارغ لا معنى له، اذا نظر اليه بمعزل عن الشروط التي تكتنفه، وعلى العكس، يمكـــن فهم اي حادث من الحوادث وتبريره اذا نظر اليه من حيث ارتباطه ارتباطـــا لا ينفصم بالحوادث المحيطة به، اي اذا نظر اليه كما تحدده وتكيفه الحـــوادث التي تحيط به "[1].

ولتوضيح ماتقدم ذكره حول التفاعل والترابط بين الاشياء في الطبيعـــة

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ١٥ - ١٦) .

يضرب الماديون مثالا يوضح رأيهم .

" امامنا رقاص معدنى . فهل يمكننا ان ننظر اليه فى منأى من الكون المحيط به . كلا لان هناك رجالا قاموا بصنعه (المجتمع) من معدن استخرجوه من الارض (الطبيعة) . ولنتأمل هذا الرقاص جيدا فهو فى سكونه ليس مستقلا عن الظروف المحيطة : كالثقل والحرارة والصدأ اذ يمكن لهذه الظروف ان تؤثر فيه ليس فقط فى وضعه بل فى طبيعته (الصدأ) . ولندل قطعة من القصدير فاذا بقوة تؤثر على الرقاص، واذا به يتمدد ، واذا بشكله يتغير الى حد ما فيؤثر الوزن فى الرقاص ويؤثر الرقاص فى الوزن لان بينهما تفاعلا متبادلا ، واكثر من هذا ان الرقاص مكون من جسيمات ترتبط فيما بينها بتأثير قوة جاذبية، فاذا مابلغ الرقاص وزنا معينا عجز عن التمدد وانكسر فتنقطع العلاقة بين بعض الجسيمات .

" حتى اذا ماحمينا الرقاص تغيرت العلاقات بين الجسيمات بطريقة اخرى " التمدد " . نقول اذن ان الرقاص مكون بطبيعته وتغيراته من تفاعل الجسيمات التى يتكون منها ، كما ان هذا التفاعل مشروط هو نفسه بعلائق الرقاص (فى مجموعه بالوسيط المحيط به) لان الرقاص والوسط هما كل واحد يقوم بينهما فعل متبادل . فاذا ماجهلنا هذا الفعل اصبح صدأ الرقاص وانقطاعه واقعتين لا معنى لهما"[1] .

ثانيا : الحركة فى الطبيعة .

يقول الماديون : الحركة صفة ملازمة للمادة ، ولا يمكن فصل الحركة عنها والمادة ازلية ابدية ، ولا يجوز السؤال عمن اكسب المادة خاصية الحركة . " وفى الطبيعة لا يلعب السكون الدور الحاسم رغم انه موجود ، وانما تلعب هذا الدور الحركة والتطور والتغير . هذه الحركة ملازمة داخليا للمادة كخاصية جذرية لا تنفصل عنها ، ولا داعى لوضع السؤال التالى : من اين حصلت المادة على هذه

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية (١ : ٤٩) .

الحركة ؟ لانها موجودة منذ الازل ، ولهذا لا داعي للسؤال الذي يقول من الذي اكسب المادة الحركة ، مادامت لا تنفصل عنها وتعتبر شكلا من اشكال وجودها[1] .

اذن فالاعتراف بمصدر حصول المادة على الحركة ، يؤدي الى الاعتراف بوجود كائن خارج الكيان المادي له قوة الخلق والابداع ، وبما انه لا يوجد في حس الماديين سوى العالم المادي ، فلا يوجد اذن في العالم ظاهرة لم تكن نتيجة لحركة المادة وتطورها .

ومن خلال عرضهم لتصورات الفلاسفة المختلفة عن الاساس المادي الواحد للعالم ، يقول الماديون : " ماقيل يعني انه لا يوجد في العالم ظاهرة واحدة لم تكن نتيجة لحركة المادة وتطورها فهي تشمل كل شيء ، وفي كل مكان يمتد فعلها ، ولا يوجد شيء غير المادة المتحركة المتطورة ، وما يتولد عنها ، ولا يمكن ان يوجد . وهذا يعني انه لا يوجد غير عالم مادي واحد . ولهذا بالتحديد يشير " انجلز " الى ان وحدة العالم تنحصر في ماديته . وبعبارة اخرى ان العالم واحد لانه مادي "[2] . وقد كانت الميتافيزيقيا الاوربية تنظر الى الطبيعة على انها حالة من الركود والجمود والثبات . ولكن الاكتشافات العلمية اثبتت التغير في الكون المادي ، وبناء على الكشوفات العلمية رتب الماديون نتيجة عامة ، وهي قولهم بان الميتافيزيقيا عامة تخالف العلم وتناقضه ، لانها تقول ان الطبيعة ساكنة وجامدة . فالطبيعة في حركة وتغير دائمين ، في حالة تجدد وتطور لا ينقطعان ، ففيها شيء يولد ويتغير ، وآخر ينحل ويضمحل .

يقول ستالين : " ان الديالكتيك خلافا للميتافيزيقا ، لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود ، حالة ركود واستقرار ، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين حالة تجدد وتطور لا ينقطعان ، ففيها دائما شيء يولد ويتطور ، وشيء ينحل ويضمحل "[3] .

ولهذا لا يصح ان يكتفى بالنظر الى الحوادث من حيث علاقاتها

---

(١) اسس المادية الديالكتيكية ، والمادية التاريخية (ص ٣٤) .

(٢) نفس المصدر (ص ٤٠) .

(٣) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ١٦) .

او تكيفها بعضها لبعض بصورة متقابلة ،بل يجب النظر اليها من حيث حركتها وتغيرها وتطورها ،ومن حيث ظهورها واختفاؤها .

يقول انجلز " ان الطبيعة من اضأل الاجزاء الى اكبر الاجسام . من حبة الرمل الى الشمس،من البروتيست " وهى الخلية الحية الابتدائية ملاحظة من ستالين" الى الانسان ،هى فى حركة دائمة من النشوء والاضمحلال ،هى فى مد لا ينقطع فى حركة وتغير مستمرين وابديين" [1].

وهذا يعنى انه حين ننظر الى الكون وما فيه من اشياء،من اضأل جزء الى اكبر الاجزاء والاجسام ،كحبة الرمل ،والشمس،والخلية الحية الاولى الى الانسان يجب ان ننظر الى عمليه الارتباط بالحركة والارتباط بعملية الحياة والفناء .

والحركة عند الماديين لها صفة الشمولية،فهى شاملة لجميع انواع التغيرات التى تحدث فى الكون . يقول انجلز :" تشمل الحركة بمعناها العام تلك الحركة التى ندركها ،كأسلوب وجود المادة والخصيصة الكامنة لها .كل التغيرات التى تحدث فى الوجود ،من مجرد التغير فى المكان حتى التفكير" [2].

وللحركة اوجه متعددة عندهم :

(١) فالشكل الميكانيكى للحركة،وهو انتقال جسيمات المادة او الاجسام من مكان الى آخر .

(٢) والشكل الفيزيائى للحركة،وهو العمليات الحرارية والكهربية .

(٣) والشكل الكيميائى للحركة : وهو التفاعلات الكيميائية وتركيب الايونات .

(٤) والشكل البيولوجى للحركة وهو التغيرات التى تجرى فى الكائنات الحية.

(٥) والشكل الاجتماعى للحركة،وهو التغيرات التى تحدث فى الحياة الاجتماعية [3].

فالحركة هى التى تحدث فى الاشياء والظواهر فى العالم المادى [4].

---

(١) نقلا عن نفس المصدر السابق (ص ١٧) .

(٢) مدخل الى المادية الجدلية (ص ٥٦) .

(٣) انظر اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٣٣) .

(٤) انظر نفس المصدر (ص ٣٣) .

ولتوضيح مفهوم الحركة فى الكون المادى ،يضرب الماديون امثلة من الحوادث التى تجرى فيه . لنأخذ مثلا السيارة التى تسير،فهى اذا ماانطلقت مسرعة فى سيرها ارتطمت بشجرة واشتعلت فيها النار،فهل زالت المادة ؟كلا اذ ان السيارة المشتعلة هى حقيقة واقعة مادية كالسيارة التى كانت مسرعة فى سيرها . فهى مظهر جديد للمادة وصفة جديدة لها ،لان المادة لا تزول بل هى تتغير وتتحول ،وما تحولاتها هذه سوى تحولات الحركة التى تكون مع المادة شيئا واحدا فالمادة حركة والحركة مادة[1] .

ثالثا : التطور فى الطبيعة .

يعتبر الماديون ان حركة التطور عبارة عن تطور ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية ،الى تغيرات كيفية ظاهرة واساسية ،وتحدث هذه التغيرات الكيفية من حالة الى اخرى بصورة فجائية عن طريق القفزات ،وهذه التغيرات حتمية وضرورية ،لان الفلسفة الماركسية ترى حتمية الانهيار فى كل شئ ،ولا شئ يستطيع الصمود بوجهها فى هذا العالم الا الصعود من ادنى الى اعلى والمجرى المستمر لعملية النشوء والتغير ،وتفتخر هذه الفلسفة بانها تحطم كل التصورات عن الحقيقة المطلقة وعن اوضاع الانسانية المطلقة ،لانها لا تعترف بشئ مطلق ونهائى ومقدس . والماديون ليسوا على استعداد لقبول ماتقرره العلوم الطبيعية من نهاية ممكنة لوجود هذه الارض ونهاية الحياة نسبيا عليها ولو تنبأ العلماء ايضا بان التاريخ لن يكون حركة صاعدة من ادنى الى اعلى بل هو حركة نازلة من اعلى الى ادنى ، لان العلوم الطبيعية لم تضعها فى جدول الاعمال بعد على حد تعبير انجلز .

يقول الماديون :" وظهور الكيفيات الجديدة فى الطبيعة والمجتمع يتم دائما عن طريق القفزات ، فهكذا بالتحديد يتم الانتقال من الطبيعة غير الحية الى الطبيعة الحية ،وكل تطور العالم الحيوانى اى تطور الحيوانات من كل

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية (١ : ٦٤ - ٦٥) .

نوع معين الى آخر يتم ايضا بطريق القفزات ، وتتم تحولات متشابهة ايضا في المجتمع البشري".[(١)]

ويقول انجلز : "كذلك تحطم هذه الفلسفة الديالكتيكية جميع التصورات عن الحقيقة المطلقة النهائية ، وعن اوضاع الانسانية المطلقة المناسبة لها فليس هناك بالنسبة للفلسفة الديالكتيكية ، شيء نهائي مطلق ، ومقدس ، انها ترى حتمية الانهيار في كل شيء ، ولا يوجد شيء يستطيع الصمود في وجهها الا المجرى المستمر للنشوء والزوال ، للصعود اللامتناهي من ادنى الى اعلى".

" وهي نفسها ليست سوى انعكاس بسيط لهذا المجرى في الدماغ المفكر ، ولها ايضا في الحقيقة جانبها المحافظ ، فهي تبرر كل مرحلة معينة من مراحل تطور المعرفة والعلاقات الاجتماعية في زمانهما وظروفهما لا اكثر ، فالصفة المحافظة لهذه الطريقة في الفهم نسبية ، وطابعها الثوري هو مطلق ، وهذا هو الشيء الوحيد المطلق الذي تقبله الفلسفة الديالكتيكية . . لسنا بحاجة هنا الى بحث قضية ما اذا كانت هذه الطريقة للفهم تنسجم كليا مع الوضع الحاضر للعلوم الطبيعية ، هذه العلوم التي تتنبأ بنهاية ممكنة لوجود الارض نفسها وبنهاية اكيدة نسبياً للحياة عليها ، وتعلن على هذا الاساس ان تاريخ الانسانية لن يكون حركة صاعدة وحسب ، بل ايضا حركة نازلة . ولكننا على كل حال مازلنا بعيدين جدا عن المنعطف الذي يبدأ منه تاريخ المجتمع حركته النازلة ، ولا نستطيع ان نطلب من فلسفة هيجل ان تهتم بقضية لم تضعها بعد العلوم الطبيعية المعاصرة لها في جدول الاعمال".[(٢)]

وحركة التطور يجب فهمها من حيث هي حركة تقدمية وصاعدة ، انتقال الى كيفية جديدة من البسيط الى المركب ومن الادنى الى الاعلى ، يجب فهمها لا من حيث هي حركة دائرية ، او تكرار بسيط من نفسه ، ولا يصح ايضا ان ينظر الى حركة التطور بانها عملية حياة وفناء او نشوء واضمحلال بل يجب

---

(١) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٦٠ - ٦١) ونلاحظ في هذا النص اثر نظرية دارون الواضح على الماركسيين .

(٢) لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية (ص ١٠) .

ان ينظر الى ان الحياة والفناء ، والنشوء والاضمحلال انما يحدث فى طريق تقدمى تصاعدى ، فينقل المادة من حال الى حال غير الاولى واحسن منها .

والتطور لا يدور فى طريق دائرى ويعود من حيث اتى ، بل ينتقل الى حال احسن من الاولى .

يقول ستالين : " ان الديالكتيك خلافا للميتافيزيقية ، لا يعتبر حركة التطور حركة نمو بسيطة ، لا تؤدى التغيرات الكمية فيها الى تغيرات كيفية بل يعتبرها تطورا ينتقل من تغييرات كمية ضئيلة وخفية الى تغييرات ظاهرة واساسية ، اى الى تغييرات كيفية . وهذه التغييرات الكيفية ليست تدريجية بل هى سريعة فجائية ، وتحدث بقفزات من حالة الى اخرى ، وليست هذه التغييرات جائزة الوقوع ، بل هى ضرورية وهى نتيجة تراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية .

" ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية ان من الواجب فهم حركة التطور لا من حيث هى حركة دائرية او تكرار بسيط للطريق نفسه ، بل من حيث هى حركة تقدمية صاعدة ، وانتقال من الحالة الكيفية القديمة الى حالة كيفية جديدة وتطور ينتقل من البسيط الى المركب ، من الادنى الى الاعلى " .(١)

ويضرب انجلز الامثلة على ان التغيرات الكمية تنقلب الى تغيرات كيفية فى التطور الديالكتيكى يقول : " يمكن القول ان الكيمياء هى علم التغيرات الكيفية الناشئة فى الاجسام عن تغيرات كمية ، وكان هيجل نفسه يعرف ذلك فى عهده . لنأخذ الاوكسجين ، فاذا جمعنا فى جزئية ثلاث ذرات عوضا عن اثنتين كالعادة ، حصلنا على جسم جديد هو " الاوزون " الذى يختلف اختلافا بينا برائحته وبتأثيراته ، عن الاكسجين العادى . وماذا نقول عن مختلف تراكيب الاكسجين مع الازون ، او مع الكبريت ؟ ان كل تركيب منها يعطى جسما مختلفا من حيث الكيفية عن جميع الاجسام التى تعطيها التراكيب الاخرى " .(٢)

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ١٨) .

(٢) نفس المصدر (ص ٢٠ - ٢١) .

رابعا : التناقض فى الطبيعة .

يقول الماديون : ان كل اشياء الطبيعة وحوادثها تحوى تناقضات داخلية،لان فيها جميعها عناصر تضمحل اوتتطور،وفيها كذلك جانب سلبى وآخر ايجابى ،ولان فيها عناصر اخرى تموت واخرى تولد ،وعندهم ان النضال بين القديم والجديد ، بين مايفنى ويتطور هو المحتوى الداخلى لحركة التطور،وهو كذلك المحتوى الداخلى لتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية، (وعملية انتقال الماء مثلا الى بخار بزيادة درجة الحرارة او انتقال الماء الى جليد بنقصان درجة الحرارة) انما يتم بواسطة تضاد هذه الذرات فى المادة (الماء) مع بعضها ،والاصطدام الذى يحصل بين الذرات فى المادة هو الذى يوجد التحول .

يقول ستالين : "ان نقطة الابتداء فى الديالكتيك خلافا للميتافيزيقية هى وجهة النظر القائمة على ان كل اشياء الطبيعة وحوادثها تحوى تناقضات داخلية،لان لها جميعها جانبا سلبيا وجانبا ايجابيا،ماضيا وحاضرا ،وفيها جميعها عناصر تضمحل او تتطور،فنضال هذه المتضادات،اى النضال بين القديم والجديد ،بين مايموت ومايولد ،بين مايفنى ومايتطور،هو المحتوى الداخلى لحركة التطور،هو المحتوى الداخلى لتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية . ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية،ان حركة التطور من الادنى الى الاعلى ،لا تجرى بتطور الحوادث تطورا تدريجيا متناسقا ،بل بظهور التناقضات الملازمة للاشياء والحوادث ب " نضال" الاتجاهات المضادة التى تعمل على اساس هذه التناقضات"[1] .

اذن فالتناقض داخلى ،والنضال بين المتضادات هو المحتوى الداخلى لحركة التطور،وهو المحتوى الداخلى لتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ايضا .

---

(١) نفس المصدر (ص ٢٢) .

وحـــدة الاضـــداد

لا تفصل الجدلية بين الاضداد بل هى تنظر اليها فى وحدتها الـتى لا تنفصم، والاضداد عندهم هى " تلك الظواهر او جوانبها التى يستثـنى بعضها بعضا "[٢]. وهذه الوحدة بين الضدين : تنحصر فى انهما يرتبطـان ارتباطا لا ينفصم ويكونان معا عملية متناقضة واحدة . والضدان هما الشـرط لوجود كل منهما اى ان الواحد يوجد فقط بسبب وجود الاخر[٣]. ونتيجـة لهذه الوحدة القوية بين الضدين والعلاقة المتبادلة بينهما ينشأ الصـراع بينهما ، وهذا الصراع هو المصدر الداخلى والقوة المحركة للتطور .

" فينحصر جوهر قانون وحدة صراع الاضداد فى ان جميع الاشيـاء والعمليات تلازمها جوانب داخلية متناقضة موجودة فى وحدة لا تنفصم وفـى صراع مستمر فى نفس الوقت ، وصراع الاضداد هو بالتحديد المصدر الداخلـى والقوة المحركة للتطور "[٤].

وكما يقول لينين : " التطور هو (صراع الاضداد)"[٥].

ويمثل الماديون على صراع الاضداد بمجال الطبيعة الحية :

" نأخذ مجال الطبيعة الحية . هنا نرى بوضوح دور التناقض الجدلـى كمصدر للتطور . من لا يعرف ان الاطفال يشبهون الاباء ، ولكنهم ليسوا نسخـة منهم تماما . فالنمطية والجمود مع ذلك لا وجود لهما . يرجع هذا اولا وقبـل كل شىء الى ان قانون الوراثة يعمل الى جانب نقيضه ـ قانون التغير . وهـو يضمن " عدم تشابه " و " عدم تكرار " وتغير كل الاجسام وتطورها . والوراثـة بدورها تثبت هذه الخواص فى السلالة ، بخلاف ذلك يمكن ان تختفى التغيرات وهكذا يسوق الصراع الابدى بين القوتين المتضادتين ـ القابلية للتغير والوراثة

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية (١ : ١١٦) .
(٢) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٦٨) .
(٣) نفس المصدر (ص ٧١) .
(٤) نفس المصدر (ص ٧٢) .
(٥) نفس المصدر (ص ٧١) .

عملية تطور الطبيعة الحية . ويحدث اختيار طبيعي نتيجة للصراع بين هذين الضدين ، تولد القابلية للتغير قسمات جديدة مفيدة . اما الوراثة فتجمعها في السلالة ، ونتيجة لذلك تتولد انواع جديدة من الكائنات الحية . وليست القوة الخارجية ولا الرب انما التناقضات الداخلية الطبيعية هي المصدر والمحرك الداخلي لعملية تطور الطبيعة الحية"[١] .

وبناء على ماتقدم فان الصراع بين الاضداد يتولد عنه نوع جديد يختلف تماما عن النوع السابق ، لان التناقضات الداخلية هي المصدر والمحرك الداخلي لعملية التطور ، لذلك لا شأن للرب او القوى الخارجية على حد تعبيرهم في عملية الصراع والتناقض الداخلي .

مما سبق بيانه عن الصراع بين الاضداد ووحدتها يعرف الماديون التناقض بانه : " علاقة بين الاضداد وتظهر الاضداد كجوانب للتناقض"[٢] .

التناقض داخلي .

يعتبر الماديون ان الواقع حركة وهذه الحركة هي نتيجة التناقض والنضال بين الاضداد ، وهما داخليان لانهما جوهر الحركة .

يقول ماوتسي تونج : " سبب كل نمو اساسي للاشياء دائما لا يكون خارج هذه الاشياء بل داخلها ، في طبيعة الاشياء المتناقضة ، فلكل شيء ولكل ظاهرة تناقضاتها الداخلية الكائنة فيها . وهذه التناقضات هي التي تولد حركة الاشياء ونموها ، وهكذا تكون التناقضات الكامنة في الاشياء والظواهر هي الاسباب الرئيسية لنموها"[٣] .

ويمثلون على التناقض الداخلي بعملية تحول الماء الى بخار او الى جليد ويفسرون هذا التحول بوجود تناقض داخلي . حيث يحدث في العملية " تناقض بين قوى الانسجام بين جزئيات الماء من جهة وبين حركة كل جزيء

---

(١) نفس المصدر (ص ٧١) .

(٢) نفس المصدر (ص ٦٨) .

(٣) حول التناقض في كراسات الشيوعية عدد ٨٧ آب سنة ١٩٥٢ (ص ٧٨٠- ٧٨١) نقلا عن اصول الفلسفة الماركسية (١٠٧:١) .

الخاصة به من جهة ثانية " وهى طاقة تدفع الجزيئات الى التفرق" اى التناقض بين قوى الانسجام والتفريق . ولا شك ان هذا النضال لا يبدو واذا نظرنا الى الماء السائل بين درجتي صفر ومائة . بل يبدو كل شيء ساكنا . وكل مايبدو وهو سكون حالة السائل . غير ان المظهر الخارجي يخفى الحقيقة والجوهر اى النضال بين قوى الانسجام وقوى التفريق . وهذا التناقض الداخلى هو المحتوى الحقيقي لحالة السائل . كما ان التناقض يفسر لنا تحول الماء المفاجيء الى ماء جامد او الى بخار ماء . ولا يمكن الانتقال الكيفى الى حالة جديدة الا بانتصار احدى هاتين القوتين على الاخرى . فتنتصر قوة التفريق فى حالة تحول السائل الى بخار، ولا يقضى هذا الانتصار على القوى المعارضة بل يغير من صفتها ، فتصبح فى حالة التجمد حركة الجزيئات الجانب السلبى (او الثانوى) ، وفى حالة الغاز تصبح النزعة الى الانسجام الجانب السلبى (او الثانوى) . فالماء مهما كانت حالته الحالية هو نضال بين قوى متناقضة وهى قوى داخلية ، وبهذا تفسر تحولات الماء[1] .

اما بالنسبة للظروف الخارجية المحيطة ، فلها دور ثانوى فى عملية التناقض . والاساس فى التناقض انما هو التناقض الداخلى ، فاذا لم يوجد تناقض داخلى فان الظروف الخارجية تفقد تأثيرها .

يقول ماوتسى تونج : " فلقد دلتنا دراسة القانون الاول للجدلية " كل شيء مرتبط بالاخر" على انه لا يجب ان نعزل الواقع عن ظروفه المحيطة به . ففى حالة الماء ، هناك شرط خارجي ضرورى لتحويل الحالة وهو هبوط الحرارة او ارتفاعها . اذ ان ارتفاع الحرارة يجعل من الممكن ازدياد طاقة الجزيئات من الحركة اى ازدياد سرعتها ، بينما يؤثر انخفاض الحرارة تأثيرا عكسيا . ولكن يجب ان لا ننسى انه لو لم يكن هناك تناقضات داخلية فى داخل الشيء (فى الماء مثلا) ، كما رأينا ذلك سابقا ، فان الظروف الخارجية تفقد تأثيرها . ولهذا تعتبر الجدلية ان اكتشاف التناقضات الداخلية الكامنة

---

(١) نفس المصدر (ص ١٠٨) .

فى العملية التى درسناها ، والتى تفسر لنا نوعية هذه العملية شىء اساسى " فالتناقضات الكامنة فى الاشياء والظواهر هي السبب الرئيسى لنموها ، بينما صلة الشىء او الظاهرة المتبادلة مع الاشياء او الظواهر الاخرى وتأثيرها عليها انما هى اسباب ثانوية "(١) .

قوانين المادة وكيف يطبقونها على المجتمعات البشرية ؟

بعد ان عرضنا كيف طبق الماديون قوانين المادية الجدلية على الطبيعة نجدهم لا يكتفون بهذا القدر ، وانما يخضعون دراسة الحياة البشرية فى المجتمع وتاريخها لهذه القوانين الجدلية ، ولتطبيقها على الحياة البشرية وتاريخها اهمية كبرى فى نظرهم . يقول ستالين : "وليس من الصعب ان ندرك ماهنالك من اهمية عظمى فى اخضاع دراسة الحياة الاجتماعية ، ودرس تاريخ المجتمع لمبادىء الطريقة الديالكتيكية ، وماهنالك من اهمية عظمى فى تطبيق هذه المبادىء على تاريخ المجتمع وعلى النشاط العملى لحزب البرولتاريا "(٢) .

والشيوعيون حين يطبقون هذه المبادىء الجدلية على الكون - والكون مادى عندهم - يهدفون من وراء ذلك الى اخضاع حياة الانسان لهذه القوانين الجدلية " هذا الكون المادى واحد . لم يخلقه اله ولا اى انسان .

يقول لينين فى معرض تعليقه على كلام الفيلسوف اليونانى القديم هيراكليت الذى يقول : " العالم ، وحدة الكل ، لم يخلقه اى اله ولا اى انسان ولكنه كان وهو سيبقى نارا حية ازليا تشتعل وتنطفىء بموجب قوانين" . قال لينين معلقا : " هذا عرض جيد جدا لمبادىء المادية الجدلية"(٣) . والانسان فى نظرهم مادى ، وفكره نتاج المادة الراقية ، لانه نتاج المخ ، والمخ مادة وكذلك الروح هى نتاج اعلى للمادة .

---

(١) من ماوتسى تونج نفس المصدر (ص ١٠٨ - ١٠٩) .
(٢) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٢٣) .
(٣) الدفاتر الفلسفية (٢ : ١٢٨ - ١٢٩) .

يقول انجلز : في تعليقه على كلام لود فيغ فورباخ : " ليست المادة نتاج الروح ، بل الروح نفسه ليس سوى اعلى نتاج للمادة . فهذا طبعا مادية بحتة "[١] . ويقول في مكان آخر : " لكنه اذا ما اثيرت بعدئذ مسألة ماهية الفكر والوعي على وجه الدقة وطبيعة مصدرهما ، فانه يتضح انهما منتجان للدماغ الانساني ، وان الانسان نفسه نتاج للطبيعة "[٢] .

ومادام ان الكون مادي والانسان مادي كذلك . اذن فما ينطبق على الكون المادي ينطبق على الانسان لانه جزء منه ومن نتاجه ، وينطبق كذلك على تاريخ المجتمع البشري . يناقش هوبز هذه القضية انطلاقا من كلام بيكون يقول " اذا كانت احاسيس الانسان هي مصدر معرفته ، اذن فان التصور والفكر والخيال . . . الخ ليست سوى اشباح العالم المادي المعرى اكثر او اقل من شكله الحسي " .

" ومادام ماهو مادي هو الذي يدرك ويعرف ، فلاشيء يمكن ان يعرف عن وجود الله ، اني على يقين فقط من وجودي انا . ان كل انفعال انساني هو حركة ميكانيكية تنتهي او تبدأ . ان موضوعات الدوافع هي ما يسمى خيرا والانسان يخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الطبيعة . فالقدرة والحرية هما شيء واحد "[٣] .

اذن فعلى كلامهم هذا ان كل ماهو مادي يدرك ويعرف ، وكل مايعرف موجود لانه مدرك ، وعلى هذا الاساس فان الله تعالى بعرفهم غير مدرك . فهو لا يعرف . ومادام لا يعرف فهو غير موجود . والقوانين التي تخضع لها الطبيعة يخضع لها الانسان لانه جزء منها .

يقول انجلز : " ولكن ماهو مطبق على الطبيعة التي نفهمها الان كحركة تطور تاريخية ، مطبق على تاريخ المجتمع في جميع فروعه ، وكذلك على مجموع العلوم التي تبحث في القضايا الانسانية والالهية "[٤] .

---

(١) لود فيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية (ص ٢٣) .
(٢) آنتي د وهرنغ (ص ٤٧) .
(٣) العائلة المقدسة (ص ٦٦) .
(٤) لود فيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية (ص ٤٨) .

واول قانون جدلى طبقوه على دراسة الحياة البشرية، وتاريخ المجتمع هو :

قانون الترابط فى الطبيعة .

والطبيعة كما عرفنا عندهم وحدة واحدة متماسكة، وحوادثها غير منفصلة بعضها عن بعض، وكل اشيائها مترابطة فيما بينها ارتباطا عضويا لا ينفصم وبما ان الانسان وتاريخه جزء من الطبيعة، نراهم يفسرون الحياة البشرية بقوانين الكون المادى، فما ينطبق على الكون المادى ينطبق على الانسان وعلى المجتمع . وان اى نظام اجتماعى قائم انما يحكم عليه على اساس الظروف الاقتصادية القائمة .

يقول انجلز : " فانه ينبغى البحث عن الاسباب الاخيرة لسائر التبدلات الاجتماعية والثورات السياسية ليس فى ادمغة البشر، ليس فى فهمهم النامى للحقيقة والعدالة الابديتين، بل فى التبدلات الطارئة على اساليب الانتاج والمبادلة"[1] .

اذن فالاسباب النهائية لكافة التغيرات والتحولات الاساسية يجب البحث عنها فى الاقتصاد وفى التغيرات التى تطرأ على اسلوب الانتاج والتبادل، والحق والعدل الازليان، والدين والاخلاق والقيم والافكار لا قيمة لها، وهى ليست قيما موضوعية . وهذه الظروف الاقتصادية ليست صادرة عن ارادة الانسان، بل هى خارجة عن ارادته، وتؤثر فى سيره اثناء تطورها لان قوانينها حتمية .

يقول ماركس : " ان انتاج الافكار والتصورات والوعى مختلط بادىء الامر بصورة مباشرة ووثيقة بالنشاط المادى والتعامل المادى بين البشر، فهو لغة الحياة الواقعية . ان التصورات والفكروالتعامل الذهنى بين البشر، تبدو هنا على اعتبارها اصدارا مباشرا لسلوكهم المادى . ينطبق الامر نفسه على

---

(١) آنتى دوهرنغ (ص٣٢١) .

الانتاج الفكرى كما يمثل فى لغة السياسة، ولغة القوانين، والاخلاق، والدين والميتافيزيا . . الخ عند شعب بكامله . فالبشر هم منتجو تصوراتهم وافكارهم . . حتى الاشباح فى العقل البشرى هى تصعيدات ناتجة بالضرورة عن تطور حياتهم المادية التى يمكن التحقق منها تجريبيا والتى تعتمد على قواعد مادية ومن جراء ذلك، فان الاخلاق والميتافيزياء، وكل البقية الباقية من الايديولوجية وكذلك اشكال الوعى التى تقابلها، تفقد فى الحال كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتى . فهى لا تملك تاريخا، وليس لها اى تطور، ان الامر على النقيض من ذلك " فالبشر اذ يطورون انتاجهم المادى وعلاقاتهم المادية هم الذين يحولون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع الواقع الذى هو خاصتهم فليس الوعى هو الذى يعين الحياة بل الحياة هى التى تعين الوعى"[(١)] .

وبناء على هذا النص فان انتاج الافكار والتصورات والدين والاخلاق مرتبط مباشرة بالتعامل المادى لانه لغة الحياة الواقعية . ومادام ان الدين والاخلاق، وغيرهما هما من نتاج افكار الناس، والناس هم الذين يحولون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع هذا الواقع المادى الذى هو خاصة للبشر اذن فهذه الافكار والمعتقدات الدينية، والقيم والاخلاق لا تعين صورة الحياة التى يحياها الانسان، بل الحياة المادية والظروف الاقتصادية هى التى تعينها وتغيرها وتشكلها، لان المعتقدات الدينية والقيم والاخلاق والافكار والمبادىء ليس لها استقلال ذاتى، ولا تملك تاريخا وليس لها اى تطور، انما هى محكومة بالقوانين المادية الحتمية، فهى متغيرة بتغير الظروف المادية . وعلاقات الانتاج مستقلة عن وعى الناس وارادتهم لانها تنبعث من تلقاء نفسها .

" وليست علاقات الانتاج الجديدة نتيجة عمل واع يقوم به الناس، بل هى تنبعث على العكس من تلقاء نفسها مستقلة عن وعى الناس وارادتهم"[(٢)] .

" وهكذا لا تظل قوى الانتاج فى مكانها، بل تكتمل فتسبق ارادة الانسان وتدفعها معها"[(٣)] .

---

(١) الايديولوجية الالمانية (١ : ٣٠ - ٣١) .
(٢) اصول الفلسفة الماركسية (٢ : ٥٩) .
(٣) نفس المصدر (ص ٣١) .

وبناء على ماتقدم فالقول الفصل بالنسبة للاحكام على الحياة الاجتماعية لا يصدر عن الانسان لانه هو ذاته محكوم بالقوانين المادية والظروف المادية وفكره ودينه وخلقه ومبادئه وقيمه ومثله العليا تتغير بتغير الوضع الاقتصادى الذى هو خارج عن ارادته ومؤثر فى سيره . انما يصدر الحكم على الحياة الاجتماعية وسير تاريخ البشرية من الظروف الاقتصادية التى تولد الحركات الاجتماعية . كما ان الافكار السابقة لحركات التحرر الاجتماعية والتى تدور حول العدالة الابدية والحق الازلى لا تصدر حكما ، ولاقيمة لها ، لانها هى نفسها محكومة بالظروف الاقتصادية التى ولدت هذه الحركات والانظمة الاجتماعية نتيجة للترابط التام بين الحوادث وتكييفها بعضها بعضا بصورة متبادلة .

يقول ستالين : " فاذا صح ان ليس فى العالم حوادث منعزلة ، اذا صح ان كل الحوادث مرتبطة فيما بينها ويكيف بعضها البعض الاخر بصورة متبادلة فمن الواضح ان كل نظام اجتماعى ، وكل حركة اجتماعية فى التاريخ لا ينبغى الحكم عليها من ناحية " العدالة الابدية " او من ناحية اية فكرة اخرى مقررة سلفا كما يفعل المؤرخون على الغالب . بل ينبغى لنا ان نبنى حكمنا على اساس الظروف التى ولدت هذا النظام وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطتين بها .

" ان نظام الرق يكون فى الظروف الحاضرة خرقا وبدعة مضادة للطبيعة ولكن نظام الرق فى ظروف المشاعية البدائية ، الاخذة بالانحلال ، هو حادث مفهوم ومنطقى ، لانه يعنى خطوة الى الامام بالنسبة لنظام المشاعية البدائية ان المطالبة باقامة الديمقراطية البورجوازية فى ظروف القيصرية والمجتمع البورجوازى ، مثلا فى روسيا سنة ١٩٠٥ ، كانت شيئا مفهوما وصحيحا وثوريا تماما . لان الجمهورية البرجوازية كانت تعنى اذ ذاك خطوة الى الامام . ولكن المطالبة باقامة الجمهورية الديمقراطية البرجوازية فى ظروف الاتحاد السوفياتى الحاضرة ، تكون خرقا ، وشيئا رجعيا ومضادا للثورة . لان الجمهورية البرجوازية هى خطوة الى الوراء بالنسبة الى الجمهورية السوفياتية . كل شىء يتعلق بالظروف ، بالمكان والزمان .

" ومن الواضح ان وجود علم تاريخي وتطور هذا العلم شيئان مستحيلان بدون هذا الفهم التاريخي للحوادث الاجتماعية، فمثل هذا الفهم فقط يمنع علم التاريخ من ان يصبح فوضى احتمالات وكوم اخطاء سخيفة "[1].

اذن فمقتضى هذا الكلام ان الرجوع الى الدين، والرجوع الى الماضي والتمسك بالعادات والتقاليد والقيم، هو رجعية وخرق مضاد للطبيعة بصرف النظر عما قد يحويه هذا الماضي وهذه التقاليد والقيم من خير. وترك الالحاد، وعبادة الله الواحد الاحد رجعية وتخلف.

وبناء على ذلك فان الجديد يحل محل القديم، ويترك القديم ولو كان حسنا والجديد سيئا. وان اي دراسة او وجود للعلوم التاريخية، لا يمكن ان يصح دون الفهم لهذا الترابط الشامل، ودون التعلق بالزمان والمكان والظروف المحيطة به. لان هذا الفهم التاريخي للحوادث الاجتماعية يمنع علم التاريخ من الفوضى والاخطاء كما يزعمون.

وبناء على ماسبق عرضه نلاحظ في كلامهم مايلي:

(١) بما ان الطبيعة عندهم كل واحد متماسك. فهم يخضعون دراسة حياة المجتمع لقوانينها، فما ينطبق عليها، ينطبق على الانسان وتاريخ المجتمعات.

(٢) الترابط حتمي في كل شيء بين اجزاء الكون ومايحويه، ويكيف بعضه بعضا، والانسان يسير في حياته سيرا جبريا.

(٣) حياة المجتمع وانظمته يحكم عليها على اساس الظروف الاقتصادية التي تسير حياة المجتمع، وتجعل من النظام الذي يتلاءم معها نظاما تقدميا وتعتبر النظام الذى لا ينسجم معها نظاما رجعيا.

(٤) العودة الى الماضي بكل مافيه رجعية وتخلف، وانتصار الجديد على القديم حتمية لا مفر منها.

يقول سبركين وياخوت: " وانتصار الجديد قانون لا مفر منه حتمي مثل حتمية مجيء النهار بعد الليل "[2].

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٢٣ - ٢٥).
(٢) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٨٤).

اما القانون الثانى الذى طبقه الماديون على دراسة تاريخ المجتمع فهو:

قانون الحركة فى الطبيعة .

يقول الماديون : ان كل شئ فى الطبيعة المادية متحرك ومتغير والحياة البشرية جزء من الكون المادى ، وما ينطبق عليه ينطبق على البشر وتاريخهم . اذن فتطبيق الحركة فى الطبيعة على الحياة البشرية وحياة الناس الاجتماعية امر لا بد منه . وذلك لان تفسيرهم المادى للتاريخ ينطلق من تطبيق هذه القوانين المادية ، ومنها الحركة على احداث الحياة الاجتماعية وسير تاريخ البشرية .

يقول اصحاب كتاب المادية التاريخية :" والمادية التاريخية ، خلافا للعلوم الاخرى لا تدرس فقط هذه القوانين الخاصة او تلك من قوانين تطور اشكال معينة لحركة المادة ، وانما هى تدرس القوانين العامة الشاملة للحركة المادية ، والمجتمع هو ايضا شكل لحركة المادة"(١) .

وبما ان المجتمع شكل من اشكال حركة المادة المتغيرة ، فهو يتغير تبعا لتغير حركة المادة ، وعلى هذا الاساس فلا شئ ثابت وابدى غير متغير وبما ان العالم متحرك ومتطور عندهم ، وان اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون التطور ، فانه يترتب على هذا القول بحتمية التغير فى الانظمة لان العالم متغير ، ولا بد من انتصار الجديد على القديم ، لانه امر حتمى على حد تعبيرهم ، وبناء على هذه الحتمية فليس هناك نظام اجتماعى ثابت ، ولا مبادئ ابدية ثابتة غير قابلة للتغير ، وبخاصة فيما يتعلق بالملكية الخاصة .

يقول ستالين :" وبعد ، اذا صح ان العالم يتحرك ويتطور دائما وابدا اذا صح ان اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون للتطور . اصبح من الواضح ان ليست هناك انظمة اجتماعية ثابتة " غير قابلة للتغير" و"لامبادئ ابدية" للملكية الخاصة والاستثمار ، وليست هناك " افكار ابدية" عن خضوع

---

(١) المادية التاريخية (ص ١١) .

الفلاحين لكبار ملاكي الارض،والعمال للرأسماليين . وبالتالي ينبغي ان نؤسس عملنا لاعلى الفئات الاجتماعية التي توقفت عن التطور،وان كانت لا تزال الان تمثل القوة السائدة . بل على الفئات الاجتماعية التي تتطور والتي لها مستقبل وان كانت بعد لا تمثل القوة السائدة"(١) .

وبما انه ليست هناك انظمة اجتماعية ثابتة،وان نشوء الجديد واختفاء القديم امر حتمي لا مفر منه ،فان النظام الرأسمالي سيزول حتما لانه قديم وسوف يحل محله النظام الاشتراكي لانه جديد .ولانه على حد تعبيرهم -ليس فيه الصراع الطبقي بين كبار الملاك والفلاحين من جهة،وبين الرأسماليين والعمال من جهة اخرى .

والعلاقات الاجتماعية التي يؤسسها الناس فيما بينهم ترتبط بالقوى الانتاجية التي يترتب على تغييرها تغيير نوع الانتاج ،وبالتالي تغيير العلاقات الاجتماعية التي يؤسسونها لمطابقة انتاجهم المادي .

وبناء على ذلك فان الافكار والمبادىء التي ينتجها الناس ليست ابدية وانما هي انتاج فترة تاريخية ومرحلة انتقالية ،وذلك لان الحركة شاملة ومستمرة لا تنقطع وكل شيء خاضع لها . يقول ماركس : " ترتبط العلاقات الاجتماعية وتتعلق بالقوى الانتاجية ،ولدى تحقيقنا لقوى انتاجية جديدة يغير الناس نوع الانتاج ،وعند تغييرهم لنوع انتاجهم ،وعند تغيير طريقة كسبهم لمعيشتهم فانهم يغيرون كل العلاقات الاجتماعية ،ان الطاحونة التي تدار باليد تمثل لك مجتمعا يتحكم فيه السيد الاقطاعي ،وتمثل الطاحونة البخارية مجتمعا تتحكم فيه الصناعة الرأسمالية . ان نفس الناس الذين يؤسسون علاقاتهم الاجتماعية لتطابق انتاجهم المادي ،نراهم ينتجون ايضا المبادىء والافكار واللوائح لكي تطابق علاقاتهم الاجتماعية ،وهكذا فان هذه الافكار وهذه اللوائح ليست ابدية كالعلاقات التي تعبر عنها . انها انتاج تاريخي وفترة انتقال توجد حركة مستمرة في نمو القوى الانتاجية ،وتوجد حركة دائمة لتهديم وتقويض

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٢٥) .

العلاقات الاجتماعية وتوجد حركة دائما لتشكيل الافكار[١] .

اما القانون الثالث الذى طبقه الماديون على دراسة تاريخ المجتمع فهو:

قانون التطور فى الطبيعة .

يقول الماديون : ان المجتمع متحرك كالطبيعة، وتقوم هذه الحركة على : الانتقال من التحولات الكمية الى التحولات الكيفية، ولا يجوز الفصل بين الجانب الكمى والجانب الكيفى للترابط الضرورى التام بينهما . وعلى هذا فالانتقال من الحالة الكيفية القديمة الى الحالة الجديدة تقدم . وهم يقولون ان الرأسمالية افضل من الاقطاع، والاشتراكية افضل من الرأسمالية وكل شيء يتطور من الادنى الى الاعلى ومن الاسوأ الى الاحسن . " ان الانتقال من الحالة الكيفية القديمة الى الحالة الجديدة يكون تقدما . فالحالة الرأسمالية هى افضل من الحالة الاقطاعية، والحالة الاشتراكية هى افضل من الحالة الرأسمالية اذ ان الثورة تقوم بالانتقال من السفلى الى العلوى . لماذا ؟ لانها تقوم بالتوفيق بين النظام الاقتصادى للمجتمع وبين متطلبات نمو قوى الانتاج .

" ومن المهم ان لا نفصل بين الجانب الكيفى والجانب الكمى فى الحركة الاجتماعية بل يجب النظر اليهما فى ترابطهما الضرورى . اما النظر الى جانب دون الاخر فان ذلك يؤدى الى ارتكاب خطأ كبير[٢] .

ولكن كيف يحدث الانتقال من التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية فى المجتمع ؟ يفسر الماديون هذا الانتقال بتطبيق الامثلة على المجتمع الرأسمالى يقول موريس كورنفورث : " ونجد هذا القانون من تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية فى المجتمع كذلك . فقبل ان يوجد نظام الرأسمالية الصناعية حدثت عملية من تراكم الثروة فى شكل نقود فى ايدى قلة (عن طريق نهب المستعمرات اساسا) ، ومن تكون بروليتاريا لا تملك شيئا عن طريق تسييج

---

(١) بؤس الفلسفة (ص ١١٢ - ١١٣) .
(٢) اصول الفلسفة الماركسية (١ : ٩٥ - ٩٦) .

الارض وطرد الفلاحين . وعند نقطة معينة من هذه العملية . حين تراكمت النقود الكافية لتزويد المنشآت الصناعية برأس المال . وحين تحول عدد كاف من الناس الى بروليتاريا لتقديم العمل اللازم نضجت الظروف لتطور الرأسمالية الصناعية، عند هذه النقطة ولد التراكم فى التغييرات الكمية مرحلة كيفية جديدة فى تطور المجتمع .

" وتحدث التغييرات الكيفية عموما بفجائية نسبية ـ بوثبة ان شيئا جديدا يولد فجأة، رغم ان امكانياته كانت تحويها عملية التحول التدريجى للتغييرات الكمية المستمرة التى حدثت من قبل "(١) .

اذن فالتغير من الحالة الكمية الى الحالة الكيفية يتم عن طريق تراكم التغييرات الكمية الصغيرة تدريجيا، وبالتالى فانها فى مرحلة معينة تؤدى الى تغييرات جذرية تتحول الى كيفية جديدة . فيزول الكيف القديم ويحل محله الكيف الجديد، والانتقال من الكم الى الكيف يتم بواسطة الوثبات او القفزات ولا يمكن ان يتم بطريق آخر على حد تعبيرهم .

يقول ستالين : " وبعد اذا صح ان الانتقال من التغيرات الكمية البطيئة الى تغيرات كيفية وفجائية وسريعة هو قانون للتطور، فمن الواضح ان الثورات التى تقوم بها الطبقات المضطهدة هى حادث طبيعى تماما، ولا مناص منه" .

" وبالتالى فالانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وتحرر الطبقة العاملة من النير الرأسمالى يمكن تحقيقها لا بتغييرات بسيطة بطيئة، ولا باصلاحات بل فقط بتغيير كيفى للنظام الرأسمالى فقط، اى بالثورة .

واذن لاجل اجتناب الخطأ فى السياسة يجب ان يكون الانسان ثوريا لا اصلاحيا"(٢) .

وبما ان الانتقال من التغييرات الكمية البطيئة الى التغييرات الكيفية الفجائية السريعة هو قانون للتطور، اذن فحدوث الثورة من قبل الطبقات

---

(١) مدخل الى المادية الجدلية (ص ١٠٧) .

(٢) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٢٦ - ٢٧) .

المضطهدة امر حتمي طبيعي . وبناء على حصول الثورة فان المجتمع سينتقل حتما الى حالة احسن من الحالة السابقة .

فالانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية على حد تعبير ستالين لا يمكن ان يتم عن طريق التدرج البطيء ، بل يتم بواسطة الثورة البرولتارية ، التي تتدخل فيها ارادة الجماهير ووعيها .

اما القانون الرابع الذي طبقه الماديون على دراسة تاريخ المجتمع فهو :

قانون التناقض في الطبيعة .

يقول الماديون : يمكن تفسير جميع جوانب الواقع الاجتماعي وتكون المجتمع نفسه بواسطة التناقض ، وبما ان جميع اشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية ، والمجتمع جزء من الطبيعة ، اذن فكل مجتمع من المجتمعات يحوي تناقضات داخلية ، وبما ان النضال بين القديم والجديد ، بين ما يموت ويولد هو المحتوى الداخلي لحركة التطور ، والتطور هو نضال المتضادات اذن فنضال المتضادات في المجتمع هو المحتوى الداخلي لحركة التطور فيه .

يقول ستالين : " اذا صح ان التطور يجري بانبثاق التناقضات الداخلية وبالنزاع بين القوى المتضادة على اساس هذه التناقضات ، وان غاية هذا النزاع هي قهر هذه التناقضات والتغلب عليها ، فمن الواضح ان نضال البرولتاريا الطبقي هو حادث طبيعي تماما ولا مناص منه .

" وبالتالي ، لا ينبغي اخفاء تناقضات النظام الرأسمالي ، بل ينبغي ابرازها وعرضها ولا ينبغي خنق النضال الطبقي ، بل ينبغي القيام به الى النهاية .

" واذن لاجل اجتناب الخطأ في السياسة ينبغي اتباع سياسة برولتارية طبقية حازمة ، لا سياسة اصلاحية تقول بالتناسق بين مصالح البرولتاريا ومصالح البرجوازية ، ولا سياسة تفاهمية تقول بـ " ادماج " الرأسمالية في الاشتراكية وهذا ما تقول به الطريقة الديالكتيكية الماركسية لدى تطبيقها على الحياة

الاجتماعية، على تاريخ المجتمع"[1].

وبناء على ما تقدم فان النزاع بين القوى المتضادة مبنى على اساس التناقضات الداخلية، وغاية هذا النزاع هو التغلب على هذه التناقضات، ونتيجة لهذه الحقيقة فان نضال البرولتاريا وثورتها على النظام الرأسمالى امر حتمى لا مفر منه . وهو حادث طبيعى . لذلك فمن اجل الانتصار على هذه التناقضات يجب ابرازها وعرضها، ولا يجوز خنق النضال الطبقى . ولاجل اجتناب الاخطاء السياسية يجب على الماديين اتباع سياسة لا يوجد فيها تنسيق بين مصالح البرولتاريا والبرجوازية .

والتناقض الداخلى هو الاساس فى التطور والتقدم، اما التناقضات الخارجية وان كان لها دور ثانوى، لكنها ليست هى الاساس فى التغيير .

" مثلا اضعاف مجموع النظام الامبريالى والتناقضات بين الدول الامبريالية اى ان التناقضات الخارجية سهلت دون شك من كفاح الشعوب المستعمرة من اجل تحررها من النير الاستعمارى . ولكن الدور الحاسم لعبته القوى الداخلية التناقضات بين اوسع الجماهير الشعبية فى هذه البلاد والبرجوازية الامبريالية لانجلترا او الولايات المتحدة الامريكية وفرنسا وهولندا"[2].

والتناقضات عند الماديين نوعان : تناقضات عدائية، وتناقضات غير عدائية . فالتناقضات العدائية توجد حيث يجرى صراع المصالح الطبقية التى لا مصالحة بينها، كطبقة الاقطاعيين والفلاحين، والبرولتاريا والبرجوازية اما التناقضات غير العدائية، فهى كالتناقضات الموجودة - على حد تعبيرهم - فى المجتمع الاشتراكى الذى يخلو من وجود مصالح لطبقة معينة، فتناقضاته يمكن حلها بنجاح بواسطة النظام الاجتماعى القائم، بخلاف التناقضات العدائية فلا يمكن حلها الا بالثورة وذلك لعدم التوفيق بينها .

ويركز الماديون فى التناقض على قانون نفى النفى . وهو حلول الجديد

---

(١) نفس المصدر (ص ٢٧) .
(٢) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٧٥) .

محل القديم . " وينحصر قانون نفى النفى فى انه فى عملية التطور كل درجة اعلى تنفى وتلغى الدرجة السابقة، وهى ترفعها مع ذلك الى درجة جديدة وتحافظ على كل المحتوى الايجابى فى تطورها "[(١)] .

اذن فالتطور الجديد يلغى النظام القديم، والجديد عندهم احسن من القديم وهو امر حتمى، ولكن مع ذلك فان نفى النفى لا يلغى النظام القديم بكل محتوياته بل يحافظ على كل شىء ايجابى فيه .

ونجد الماديين يقولون بان التناقض - وهو قانون الحياة الاساسى عندهم - سيزول فى الاشتراكية ويحل محله قانون التعارض .

"ماذا يحدث اذن عند حلول الاشتراكية ؟ يزول التناقض بين الطبقات بفضل القضاء على البرجوازية المستغلة، ومع ذلك تظل الخلافات قائمة لفترة ما بين طبقة العمال وطبقة الفلاحين . بين القرية والمدينة، وكذلك بين العمل اليدوى والعمل الفكرى . وليست هذه الخلافات تناقضات بل هى تعارضات يجب التغلب عليها لان الانسان فى المجتمع الشيوعى، يمكنه القيام بمختلف الوان النشاط التى يتقاسمها اليوم افراد مختلفون، ولان التعارض بين العمل اليدوى والعمل الفكرى ينحل فى وحدة اسمى، كما توفر الثقافة العلمية المتعددة الظروف لتحقيق هذه الوحدة التى تجعل من الفرد ممارسا وعالما فى نفس الوقت .

" وهكذا نرى نهاية التناقض بين البرجوازية والبرولتاريا لا يعنى نهاية التعارض، ولهذا كتب لينين يقول منتقدا بوخارين :

" ليس التناقض والتعارض شيئا واحدا . اذ يزول الاول بينما يستمر الثانى فى النظام الاشتراكى "[(٢)] .

وبناء على ماتقدم يجب ان لا يغيب عن بالنا ان التناقض عند الماديين هو المحرك لعملية التطور فى الحياة . وانه الدافع لكل حركة، وهو شامل لكل شىء، وهو القانون الاساسى فى الحياة، فالتعارض يلغى القانون الاساسى

---

(١) نفس المصدر (ص ٨٠) .
(٢) اصول الفلسفة الماركسية (١ : ١٣١) .

اما الاختلافات الموجودة فى الاشتراكية فانها تعارضات يمكن حلها وذلك لان الانسان الشيوعى يمكنه القيام بمختلف الوان النشاط التى يتقاسمها الافراد اليوم . نتيجة لتوفر الثقافة العلمية لديهم حيث يصبح الفرد عاملا عالما فى نفس الوقت .

مما سبق عرضه حول تطبيق الماديين لقوانين المادة على حياة المجتمع وتاريخه نلاحظ مايلى :

(١) اخضاع دراسة حياة الانسان ومجتمعه لقوانين الطبيعة،لان الانسان نتاج الطبيعة وهو جزء منها ،فما ينطبق عليها ينطبق عليه ،وذلك للترابط التام بين اجزاء الطبيعة .

(٢) حياة المجتمع وانظمته يحكم عليها على اساس الظروف الاقتصادية التى تسير حياة المجتمع،وتجعل من النظام الذى يتلائم معها نظاما تقدميا والنظام الذى لا ينسجم معها نظاما رجعيا .

(٣) جميع اشياء الطبيعة وحوادثها متحركة ومتغيرة،وعلى هذا الاساس الشامل لكل شىء - والانسان وحياة المجتمع جزء منه - فلا شىء ثابت على الاطلاق . كما ان الاديان والاخلاق والافكار والقيم والعادات والتقاليد جميعها تتغير تبعا لتغير الظروف الاقتصادية .

(٤) كل شىء متغير،وانتصار الجديد على القديم امر حتمى ،وليس هناك نظام اجتماعى ثابت . وبناء على هذا الاساس فان النظام الرأسمالى سيزول حتما لانه قديم ،وتحل محله الشيوعية لانها مرحلة جديدة وانتصارها امر حتمى ،لذلك يجب ان لا تقاوم .

(٥) انكار قوة الله الذى اودع فى الانسان القوة على تغيير الكون المادى .

(٦) كل مرحلة جديدة هى حتما ارقى من المرحلة السابقة،وكل جيل ارقى من الجيل السابق فالاقطاع افضل من الرق ،والشيوعية افضل من الرأسمالية وهكذا ،وهذا الرأى مبنى على التطور فى الطبيعة،ويتم الانتقال من مرحلة الى مرحلة ثانية بواسطة الانتقال من التحولات الكمية الى التحولات الكيفية بشكل فجائى .

(٧) كل مجتمع من المجتمعات يحوى تناقضات داخلية، وهذه التناقضات حتمية، ويجب ابرازها لاجل الانتصار عليها ، والتناقض هو القانون الاساسى فى الحياة، ومع ذلك فانه يزول بحلول الاشتراكية ويحل محله التعارض .

(٨) النظام الجديد لا يلغى النظام السابق بكل محتوياته بل يبقى على الجوانب الايجابية فيه .

الفصل الثالث

اثر نظرية دارون
على التفسير المادى للتاريـــخ

لا يهمنا فى هذا الفصل ان نتعرض لتفصيلات نظرية دارون بقدر مايهمنا ان نتعرض لايحاءات هذه النظرية، واثرها على التفسير المادى للتاريخ . يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب : " ان عيب نظرية دارون ليس فى الوقائع العلمية التى بسطها فى كتبه وتابعه فيها اعوانه ومريدوه، وانما هو فى ايحاءات تلك النظرية التى خلفت طابعها الخطر، لا فى افكار الجماهير وحدها، بل فى اتجاه العلماء كذلك منذ عهده الى العصر الاخير " (١) .

وتتلخص نظرية دارون فى التطور بما يلى :

" ظهرت الحياة اول ماظهرت على شكل بروتوبلازم الذى هو اصل الحياة فى النبات والحيوان . وبعد ذلك ظهر الحيوان الدودى ومنه الرخويات كالحلازين . ثم تطورت الشوكيات كنجوم البحر، ثم القشريات كالسراطين ثم ظهرت صور جديدة من الحيوان هى عشائر ذوات صفات مستحدثة دل وجودها على وقوع انقلاب خطير فى سير الحياة، واصبح لهذه الصورة الجديدة حبل متين يمتد طوال الجسم، تدرج بواسطة التطور الى تكوين الفقار .

ثم تنشأت الفقاريات واللافقاريات، وبعد ذلك تنشأت البرمائيات ذوات التنفسين كالضفادع . ثم تدرج سلم التطور من البرمائيات الى الزواحف كالحيات والتماسيح، ومن فروع الزواحف تنشأت الطيور وذوات الثدى، ومن ذوات الثدى تنشأت السعادين والقردة، ثم تنشأت البشرانيات .

" اما من اية من الشعب العديدة التى تحولت عن الصنابير قد تنشأ الانسان فامر لا يزال محوطا من الشك عند العلماء " .

ومن هنا نرى انه بالتطور قد وجدت جميع الكائنات الحية فخرج بعضها من بعض على طول الاحقاب الجيولوجية " (٢) .

---

(١) الانسان بين المادية والاسلام (ص ١٩) .
(٢) اصل الانواع بتصرف (ص ٣٩ - ٤٤) .

اذن فالانسان تدرج فى سلم التطور الحيوانى حتى وصل الى وضعه الحالى . ولم يخلق خلقا مباشرا ، ولم يكن هناك قصد من خلقه . انما هو قد جاء هكذا نتيجة لعملية التطور البطيئة جدا والتى استغرقت ملايين السنين .

يقول اسماعيل مظهر : " حتى منتصف القرن الماضى كان المعتقد ان كل نوع من الانواع الحية قد خلق مستقلا ، وان خلق الانسان كان النهاية التى توجت اعمال الخلق ، وينبنى على هذا ان الانواع ثابتة لا تتغير ولا تتطور .

" فى سنة ١٨٥٩ اظهر " داروين " خطأ هذه العقيدة ، وان الانواع المختلفة نباتا كانت ام حيوانا ومعها الانسان ، انما نشأت تدرجا من طريق الاحتفاظ بمختلف التحولات التى تنشأ فى افراد كل منها . اما هذا التحول فقد استغرق احقابا طويلة جهد الطول ، وفقا لما يقتضيه تأثير سنن طبيعية دائمة التأثير فى طبائع الاحياء .

" ولقد ابان داروين ان مافى مستطاع الانسان ان يبتكر فى السلالات الداجنة من صور مستحدثة بالانتخاب الصناعى ، فى مكنة الطبيعة ان تستحدث مثله بالانتخاب الطبيعى ، وان كان الانتخاب الطبيعى ابطأ اثرا فى تحول الاحياء من الانتخاب الاصطناعى "[١] .

ولقد تعرضت النظرية منذ ظهورها الى نقد عنيف من كثير من العلماء حتى من الداروينيين انفسهم ، وسوف نتعرض لانتقاداتهم على النظرية فى فصل مناقشة النظرية باذن الله ، والسؤال الذى يطرح فى هذا المقام هو : لماذا يتشبث بهذه النظرية علماء الغرب والمتأثرون من علماء الشرق الاسلامى بالحضارة الغربية على الرغم من الاعتراضات والانتقادات الكثيرة التى وجهت الى النظرية ؟

والجواب على ذلك : انه الفصام النكد والعداوة الشرسة التى قامت بين الدين النصرانى المحرف فى اوربا والعلم .

---

(١) نفس المصدر (ص ٣٨) .

يقول السير جيمس جينز في كتابه عالم الاسرار : " ان في عقولنا تعصبا يرجح التفسير المادي للحقائق "[1] .

ويقول سير آرثر كيث : " ان نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ولا سبيل الى اثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها الا لان الخيار الوحيد بعد ذلك هو الايمان بالخلق الخاص المباشر ، وهذا مالا يمكن حتى التفكير فيه "[2] .

آثار الداروينية

خلفت الداروينية في الفكر الغربي آثارا بالغة الخطورة من اهمها :

انهيار العقيدة الدينية .

فقد كانت النصرانية المحرفة ومازالت تعتقد ان الله عز وجل خلق آدم وحواء ونهاهما عن الاكل من الشجرة ، فاكلا منها ، فارتكبا بذلك خطيئة لا تغتفر ، وظل الجنس البشري يرزح تحت نير الخطيئة الموروثة حتى رحم الله الناس ، فارسل ابنه ـ الوحيد ـ (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا)[3] ـ الذي هو الاقنوم الثاني في العقيدة فقتل على الصليب لينقذ البشرية من الخطيئة .

وحين جاء دارون بنظريته معلنا ان الانسان لم يخلق خلقا مباشرا كانت النتيجة ان تزعزع الايمان بآدم وحواء وجنة عدن والخطيئة التي يقوم عليها صرح الايمان النصراني . ومادام الانسان الاوربي لا يعرف الا الدين النصراني المحرف فانه سيجد نفسه تلقائيا ملحدا بالعقيدة التي تقوم على هذا الاساس الباطل في نظر العلم الدارويني .

والحق الذي لا مرية فيه ان النظرية لو تركت وشأنها ، او وجدت في

---

(١) عالم الاسرار (ص ١٨٩) ، نقلا عن الاسلام يتحدى (ص ٣٩) .
(٢) عن نفس المصدر السابق (ص ٤٠) ، وانظر مذهب النشوء والارتقاء (ص ٦) .
(٣) الاسرار (ص ٤٣) .

غير الظروف التى وجدت فيها لما انتشرت ايحاءاتها بهذه السرعة المخيفة ولما كان لها هذا الشأن كله فى التفكير الاوربى .

ولكن الذى اعطى الدارونية الحجم الكبير هو مايلى :

(١) الظروف السيئة التى نشأت فيها النظرية وترعرعت . حيث كان الوقت الذى ظهرت فيه ، زمن صراع شديد بين العلم والدين ، والثورة الصناعية اخذت تطمس ملامح المجتمع الاوربى وتصبغه بصبغة التحلل من الدين والاخلاق .

(٢) الاستغلال البشع للنظرية من قبل اليهود .

ومن المعروف لدى الكثيرين وبخاصة العلماء ان اليهود قوم يحبون انفسهم ، وقد جبلوا على الجشع والطمع وكره ماسواهم والحقد على غيرهم . لذلك فهم يخططون للقضاء على البشرية بهدم عقيدتها واخلاقها ليسهل عليهم ركوبهم كما تركب الحمير - حسبما يخططون .

وحين ظهرت نظرية دارون على مسرح الوجود استغلها اليهود فى تحطيم العقيدة النصرانية المحرفة وتأجيج نار الثورة على الكنيسة الحمقاء الظالمة ، وبالتالى القضاء على دين اوربا المحرف .

فاستغلوها فى موجة الثورة العارمة على الدين وزجوا بها فى ساحة المعركة الحامية الوطيس ، ليهدموا آخر قلعة حصينة من قلاع الديانة النصرانية المحرفة وهى انسانية الانسان وخلقه المباشر بأمر الله .

تقول البروتوكولات : " لا تتصوروا ان تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا ان نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل والاثر غير الاخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الاممى سيكون واضحا لنا على التأكيد "[1] .

(٣) اضف الى ذلك الاهمال الكامل للنظريات اللاهوتية ، حتى ان والاس قرين دارون وشريكه فى اكتشاف النظرية لا يكاد يعرف عند غير المختصين وليس لذلك من علة الا انه قال بان وراء عملية التطور قوة مدبرة[2] .

---

(١) الخطر اليهودى - البروتوكول الثانى (ص ١٠٦) .
(٢) انظر نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها (ص ٤٤) .

كما نال دارون من الشهرة والتمجيد مالم يحظ به احد من العلماء المعاصرين له . وكان لهذا الانتصار للداروينية على النصرانية المحرفة ان عمت فكرة التبرج العقائدى[١] ، وموجة الالحاد فى اوربا ، وسيطرت الافكار المادية على عقول الكثيرين من ابناء الطبقات المثقفة ، وتخلى كثيرون عن ايمانهم بسبب ايحاءات هذه النظرية الخبيثة .

اما الاثر الثانى الذى خلفته الداروينية فى الفكر الاوربى فهو نفى فكرة الغاية والقصد .

جاءت الاديان للتذكير بان للوجود الانسانى غاية ومقصدا على هذه الارض . فلما ظهرت نظرية دارون على مسرح التفكير الاوربى اسرعت وقالت ان الانسان وليد جرثومة تعاقب عليها خط التطور حتى وصلت الى وضعه الحاضر ، وان عوامل الطبيعة العمياء التى تخبط خبط عشواء كما قال دارون وراء عملية التطور هذه[٢] . وعلى هذا الاساس فمن العبث البحث عن غاية ومقصد من خلق الانسان ، لان الطبيعة لو شاءت لاعطت القطة القدرة على التطور ولجعلتها سيدة المخلوقات .

يقول جوليان هكسلى : " من المسلم به ان الانسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة او الفأر "[٣] .

وكان من نتائج هذه الفكرة ان اصبح كثير من العلماء يعتقدون بنظرية الصدفة وبخاصة فيما يتعلق بهذا الكون والدقة المبدعة فى خلقه . ونجم عنها ايضا ان شعر الناس بالضياع حيث تزعزعت قيمة الحياة فى نظر كثير من الناس وبخاصة ذوى الاحساس المرهف من العلماء والمثقفين . ونشأت اجيال فى اوربا ضائعة لا تطمح الى غاية ولا تفكر فى هدف . وخيم الخواء الروحى على نفوس المثقفين[٤] .

---

(١) اصطلاح سمعته من فضيلة شيخنا محمد الغزالى حفظه الله .
(٢) انظر كتب غيرت وجه العالم - كلام جوليان هكسلى (ص ٣٠٥) .
(٣) انظر معركة التقاليد (ص ٥٩) .
(٤) انظر العلمانية وآثارها فى الحياة الاسلامية المعاصرة (ص ١٦٦) .

اما الاثر الثالث فهو حيوانية الانسان ومادّيته .

هزت هذه الفكرة المجتمع الاوربى هزة عنيفة، ووجهت الى الكرامة الانسانية اعظم لطمة لحقه التحقير عرفتها البشرية . فقد قلبت الشعور الانسانى رأسا على عقب وهزت المشاعر وخلخلت المعتقدات والقيم . واصبح الانسان بعد نظرية داروين لا يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا على حد تعبير هكسلى (١) .

فقد قال داروين ان اصل الانسان جرثومة صغيرة . وهذا الايحاء بحيوانية الانسان، ثم زاد الطين بلة والامر خطورة الايحاء الثانى ، وهو خضوعه للقوانين المادية وتحكمها فيه وهذا هو الايحاء المادى للنظرية .

اما الاثر الرابع الذى خلفته النظرية فهو القول بالتطور المطلق .

والذى نشأ عنه القول بالحتمية والاضطراب، هذان هما العنصران البارزان اللذان شرح بهما دارون التطور . فكل مرحلة من مراحل التطور اعقبت سلفها بطريقة حتمية، بمعنى ان العوامل الخارجية - كما اسلفنا - هى التى تحدد نوعية هذه المرحلة . اما خط سير التطور ذاته بمراحلها جميعها فهو مضطرب لا يسعى الى غاية مرسومة او هدف بعيد لان (الطبيعة) التى اوجدته غير عاقلة ولا واعية بل تخبط خبط عشواء .

" عن طريق هذين العنصرين اوحت هذه النظرية بتطور حتمى مطلق لا غاية له ولا حدود . الحتمية تجعل الايمان بثبات اى شىء وان كان الدين او القيم او التقاليد جمودا ورجعية وكل محاولة للثبات على شىء من ذلك هى معركة خاسرة مع القدر الذى لا يقهر . واضطراب خط التطور يلغى كل المعايير الثابتة المتعارف عليها للحكم على الاشياء ويستبدل بها معيارا واحدا لا ميزة له فى ذاته الا عدم قبوله صفة التطور وهو " الزمان " فكل عقيدة او نظام او خلق هو افضل واكمل من غيره مادام تاليا له فى الوجود الزمنى .

---

(١) انظر معركة التقاليد (ص ٥٩ - ٦٠) .

يقول لوبون : " ان الزمان " اله لانه " هو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال " .

" ان الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا وماعلينا الا ان نتركه يعمل لنرى كل شئ يتحول ويتبدل " [١] .

وهكذا آمنت اوربا بالتطور المطلق وحسبت كل تغير - وان كان انتكاسة وانحطاطا - تقدما [٢] .

صلة نظرية التطور بالتفسير المادى للتاريخ

ان الماديين يستندون الى التطورعموما ، بغض النظر عن كون التطور داخليا ام خارجيا ، كما انهم يأخذون عن هذه النظرية تصويرها المادى الحيوانى للانسان .

يقول جون لويس : " لقد حول دارون ماكان يجول بخاطر العديد من المفكرين الى فكرة ممكنة ومقنعة وهى ان عالم الحيوان لم يوجد نتيجة عملية خلق واحدة ، بل هو ثمرة تغيرات ارتقائية عملت على تحويل الانواع التى ظهرت فى عصور مبكرة الى الاشكال الاكثر تعقيدا . والتى ظهرت فى عصور متأخرة . وقد قام دارون بهذا عن طريق تجميع عدد ضخم من الدلائل ، قبل كل شئ ، واجرى ابحاثه باقصى دقة ممكنة وبدون ان يترك اية ثغرة فى عمله مثبتا ان الارتقاء قد حدث فعلا .

" والانسان نفسه لم يخلق بفعل خاص منفصل ، بل هو ثمرة الارتقاء ونظرية الارتقاء لا تستبعد قوى مافوق الطبيعة من عملية الخلق فحسب بل تضع بدل هذه القوى تطور الحياة الطبيعى . وقد كان هذا تجديد مدهشا " [٣] .

ويقول سلامة موسى مرددا هذا الزعم ، وهو من معاول الهدم فى ديار

---

(١) روح الجماعات (ص ١٠٣ - ١٠٤) .
(٢) انظر العلمانية وآثارها فى الحياة الاسلامية المعاصرة (ص ١٧٣ - ١٧٤) .
(٣) الانسان والارتقاء (ص ٨ - ١٠) .

المسلمين : " استبدلت نظرية التطور النظر المادى بالنظر الغيبي لنشأة الاحياء على ارضنا ، وربطت بين جميع الاحياء نباتا وحيوانا وانسانا برباط جديد ، كما جعلتنا نفهم الحياة على انها ليست جامدة اذ هى - باعتبارها احدى ظواهر المادة - فى حركة وتحول ابديين "(١).

اذن فدارون على حد تعبير جون لويس وتعصبه له لم يترك قدرة فى عمله . وقد استبعد القدرة الالهية فى عملية خلق الانسان ، والخالق هو تطور الحياة الطبيعى . وعلى هذا الاساس فالنظرية مادية ، ومن هذا الاساس المادى الذى انكر قدرة الله على خلق الانسان ، والذى اعتبر الانسان نتاج تطور الحياة الطبيعى ، ربط الماركسيون تفسيرهم المادى للتاريخ بنظرية التطور . ونلاحظ ان الماركسيين يعتبرون ان ماركس قد اكتشف قانون تطور التاريخ البشرى . كما اكتشف دارون قانون تطور الطبيعة ، وعلى هذا الاساس فان ماركس مستقل فى نظريته عن دارون .

يقول كورنفورث : " وتقدم المادية التاريخية اساسا للعلم الاجتماعى بنفس الطريقة التى تقدم بها نظرية التطور عن طريق الانتقاء الطبيعى اساسا للعلم البيولوجى ، فايا كان النوع الذى يدرس فانه قد تطور عن طريق الانتقاء الطبيعى وهذا يحدد كل طبيعته .

" وبالمثل ايا كان المجتمع الذى يدرس فانه اصبح ماهو عليه بتكيف علاقات الانتاج مع الانتاج ، والافكار والمؤسسات مع علاقات الانتاج .

" والحق ان داروين قد وصل الى نظرية الانتقاء الطبيعى بنفس" اسلوب التجريد " الذى استخدمه ماركس فى نفس الوقت تقريبا - فى نظرية المادية التاريخية فقد نشأت نظرية داروين من اعتبار اساسى هو ان كل نوع يعيش بالتكيف مع بيئة ما . تماما كما نشأت نظرية ماركس من اعتبار هو ان كل مجتمع يعيش باسلوب انتاج ما "(٢).

---

(١) نظرية التطور واصل الانسان ص١١
(٢) مدخل الى المادية التاريخية (ص٢١) .

من خلال النص السابق نلاحظ فى كلام الماركسيين اعترافا ضمنيا واشارة واضحة تفيد بان ماركس بنى نظريته فى التفسير المادى للتاريخ على اساس نظرية دارون المادية . ولكن الدلائل والشواهد تفيد ان ماركس ربط نظريته بنظرية دارون .

يقول داونز : " وهو كثير الاشارة الى مراجع العلماء فى علوم الحياة الكيمياء والطبيعة ، وواضح من هذا انه كان يأمل ان يصير داروين علم الاجتماع ، او نيوتن الاقتصاد . كما اعتقد انه بالتحليل للمجتمع يستطيع ان يغير كيان العالم من الرأسمالية الى الاشتراكية .

" وكانت الطريقة العلمية التى اشار اليها فى ابحاثه عاملا فى تقبل الجمهور لآرائه ، اذ كانت تسيطر على اذهان الناس نظرية التطور فى القرن التاسع عشر بدرجة اعتقدوا معها امكان تطبيقها على كل مظاهر الحياة فلما ربط ماركس نظريته التاريخية فى تنازع البقاء بين الطبقات وبين نظرية داروين فى التطور ، ضمن لها ذلك الاحترام العلمى الذى ابعدها عن الطعن والتشكك "[1] .

اذن فماركس استغل تقبل الجماهير فى اوربا لنظرية التطور ، التى تشمل كل شىء فى الحياة عندهم ، وربط بينها وبين نظريته فى صراع الطبقات وجعلها اساسا يعتمد عليه فى بحثه عن تطور المجتمع .

يقول الفيلسوف جود : " ان الدلائل فى تأييد المذهب المادى قد اتت فى الغالب من ثلاثة مصادر : علم الاحياء وعلم النفس والفيزياء .

" وسأبدأ بمعالجة الدلائل المستمدة من علم الاحياء . فقد كان يظن ان اكتشافات داروين العلمية اوضحت ان تطور الحياة من بدايتها الى نهايتها القصوى المعقدة وهى العقل كما تجلى فى علماء القرن التاسع عشر يمكن تفسيره باعتباره نتيجة لحالات جزئية من التغاير بين الانواع بعضها عن بعض ، تفاعلت مع القوى المادية فى البيئة ، فتطورت تبعا لقوانين محددة "[2] .

---

(١) كتب غيرت وجه العالم (ص ١٥٥) .
(٢) منازع الفكر الحديث (ص ٢٣) .

وقد استغلت نظرية دارون استغلالا كبيرا فى كثير من المجالات وخاصة فى هدم عقائد الناس واخلاقهم . وقد جاء هذا الاستغلال البشع من ايحاءات النظرية الخطيرة .

يقول داونز : " ومن جهة اخرى نشأت تطبيقات اخرى لنظرياته ، لا نظن ان داروين كان يرضاها لو كان حيا . فمثلا اتخذت الفاشية نظرية الانتخاب الطبيعى والبقاء للاصلح مبررا للقضاء على بعض الاجناس البشرية . وكذلك ما نادى به تجار الحروب فى الدول وتبريرهم لها لانها تقضى على العناصر الضعيفة وتستبقى العناصر القوية ، كما استغل اتباع ماركس نظرية التطور استغلالا ملتويا لتطبيقها على تنازع الطبقات فى المجتمع الانسانى ".[1]

ويبين اصحاب كتاب اصول الفلسفة الماركسية الاساس الذى اعتمد عليه ماركس وانجلز حين قالا ان للجدلية اساسا موضوعيا .

" وكان للاكتشافات الثلاثة التالية اثر كبير فى ذلك :

(١) اكتشاف الخلية الحية التى تتطور عنها الاجسام المعقدة .

(٢) اكتشاف تحول الطاقة من حرارة وكهرباء ومغناطيس وطاقة كيميائية فهى صور مختلفة نوعيا لحقيقة مادية واحدة .

(٣) نظرية التحول عند داروين . فلقد اظهرت هذه النظرية اعتمادا على علم الحفريات وعلم تربية الحيوان ، ان جميع الكائنات الحية (ومنها الانسان) هى ثمرات التطور الطبيعى ".[2]

ويعلقون فى الهامش على عدم استطاعة الماديين فى القرن الثامن عشر اكتشاف المنهج الجدلى ، وكيف ان هذه الاكتشافات كان لها اثر كبير على المادية الجدلية . " ولقد رأينا الدور الكبير الذى قامت به[3] فى تكون المادية الجدلية بادخالها فكرة التطور ، وهى فكرة جدلية رائعة (تقول بتطور نوع عن آخر) ".[4]

---

(١) كتب غيرت وجه العالم (ص ٣٠٤) .

(٢) اصول الفلسفة الماركسية (١ : ٣٧) .

(٣) يعنى علوم المادة الحية .

(٤) نفس المصدر (ص ٣٨) .

اذن فنظرية التطور لها دور كبير فى تكوين نظرية ماركس، وهى من الاسس الهامة التى اعتمد عليها فى تفسيره المادى للتاريخ .

ويقول سبركين وياخوت بعد ان سردا حاجة العلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر الى ضرورة ايجاد وجهة نظر جديدة عن العالم تحل محل النظرة الميتافيزيقية للعالم وكيف ان الاكتشافات العلمية الثلاثة العظيمة كان لها اثر فى ايجاد هذه النظرة .

" وبذلك اعد تطور العلم - وخصوصا الاكتشافات العظيمة الثلاثة فى العلم الطبيعى : قانون حفظ الطاقة، ونظرية التكوين الخلوى للكائنات الحية، ونظرية التطور لداروين - المقدمات العلمية لانتصار النظرة المادية الجدليةعن العالم التى وضعها كارل ماركس وفريدريك انجلز "[1] .

وبناء على ماتقدم نلاحظ مايلى :

(١) نظرية التطور اوحت بمادية الانسان وحيوانيته .

(٢) خطورة هذه النظرية تكمن فى ايحاءاتها التى استغلت استغلالا بشعا فى هدم الاديان والاخلاق . حيث نفت الغاية والقصد من خلق الانسان، وردت عملية الخلق الى قوى طبيعية عمياء .

(٣) تكمن خطورتها ايضا بالحتمية والاضطراب مما ادى الى القول بالتطور المطلق فلا شيء ثابت على الاطلاق، ولا شيء مقدس، وكل شيء فى تطور فالعقيدة تتطور، والاخلاق تتطور والافكار تتطور، والطور الجديد احسن وارقى من الطور القديم .

(٤) تعتبر نظرية دارون من الاسس الهامة التي اعتمد عليها ماركس فى نظريته وبخاصة فى حتمية التطور والانتقال من طور الى طور بنتيجة لتغير الظروف الاقتصادية . والقول بان الجديد افضل من القديم وسوف يحل محله .

---

(١) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ١٦) .

(٥) اعترف الماديون وغير الماديين بالصلة القوية بين نظرية دارون ونظرية ماركس، فى تطور المجتمع حيث اعترفوا هم بذلك كما بينت ذلك سابقا ومعلوم ان اى فساد يصيب الاساس يؤثر على سلامة البنيان . فاذا تزعزعت نظرية دارون تزعزعت نظرية ماركس من اساسها .

الفصل الرابع

مراحل التطور فى التاريخ وحتمياته

قبل الدخول فى تفصيلات هذا البحث،لا بد من بيان مفهوم شروط حياة المجتمع المادية،المحددة لهيئة المجتمع وافكاره،واوضاعه السياسية وعقيدته واخلاقه وقيمه ومبادئه،وماشاكل ذلك .

شروط حياة المجتمع المادية

يقول الماديون : من المؤكد ان العوامل الطبيعية تؤلف احد الشروط الدائمة لحياة المجتمع المادية،وتؤثر فى تطوره . فماهو اثرها على التطور الاجتماعى ؟

ان المجتمع جزء من الكون المادى،وهو دائما فى تطوره يتبادل التأثير مع الطبيعة،لانها شرط ضرورى لحياة الناس ولوجود المجتمع وتطوره .

فالارض والشمس،والانهار والبحار والمحيطات،والثروات الدفينة والشروط المناخية تؤلف بمجموعها الوسط الجغرافى للمجتمع البشرى . هذا الوسط الجغرافى يؤثر بشكل فعال على نموالمجتمع،لانه شرط ضرورى دائم لحياة المجتمع المادية . فهو اما ان يدفع حركة نمو المجتمع الى الامام،واما ان يكون عائقا لها .

يقول اصحاب كتاب المادية التاريخية :" ان شروط الوسط الجغرافى الجيدة تساعد على تطور الانتاج بينما تعرقل الشروط السيئة هذا التطور"[١].

ويضرب الماديون امثلة على اثر الوسط الجغرافى فى نمو المجتمع وتطوره .

" فلقد عملت سهولة استخراج الفحم الحجرى فى انجلترا على نمو الصناعة فى هذه البلاد،بينما وجود المستنقعات التى تتطلب اعمال التجفيف او وجود الصحراء التى تحتاج للرى او فقدان البترول كل ذلك ظروف يمكن ان تعيق نمو منطقة من المناطق"[٢].

---

(١) المادية التاريخية (ص ٩٨) .
(٢) اصول الفلسفة الماركسية (٢ : ٨) .

تأثيرالمجتمع فى الطبيعة

يقول الماديون : ان الانسان يحول الطبيعة حين تخضع لسيطرته ويصبح تأثيره عليها كبيرا مع تطور المجتمع، فالوسط الجغرافى الحديث لم يعد نتاجا خالصا للطبيعة، وانما معظمه نتيجة لتأثير الانسان عليها .

فالناس يقيمون السدود ويمدون القنوات ويصنعون البحيرات والممرات الصناعية، وغيرها من المنجزات التى تفيد الانسان على وجه الارض . هذه المنجزات البشرية تفتح امام الانسان مجالات واسعة لتغيير وجه الارض، وتجعله اكثر جمالا وملائمة لحياة الناس .

يقول سبركين وياخون : " وتحول البشرية ثروات الطبيعة الى وسائل لحياة المجتمع الثقافية التاريخية . كم من القرون اخاف البرق وهو يضئ ظلام الليل ويسبب الدمار فى غير قليل من الاحوال، اخاف خيال الانسان واجبره على ان يسجد امام ضربات الرعد، لكن الانسان اخضع وضبط الكهرباء، وجعلها تخدم مصالح المجتمع . لقد تحول البرق بخنوع واصبح يشتعل فى مصابيح زجاجية ينير الشوارع والمنازل، ويحرك الالات والقطارات .

" وينمو تأثير المجتمع على الطبيعة بقدر نمو الانتاج المادى، ومع كل خطوة جوهرية فى الانتاج الاجتماعى يتم ايضا تغيير فى طابع التأثير الاجتماعى على الطبيعة، ومع نمو الانتاج تتغير الحاجيات الاجتماعية، ويتغير الطلب على الموارد المادية للطبيعة" (١) .

والانسان يخضع الطبيعة ويقهرها لمصالحه الخاصة، فهو يؤثر بوعى عليها لانه يستعمل القوانين الموضوعية فى نشاطه .

يقول سبركين وياخون : " وتشهد خبرة القرون العديدة ان الناس ليسوا عاجزين امام قوى الطبيعة، وهم دائما يخرجون ظافرين فى الكفاح ضدها .

لقد اخضع الانسان قوة الماء وجعلها تعمل من اجله منذ القدم، ومنذ

---

(١) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ١٣٨ - ١٣٩) .

القدم تعلم استخدام قوة الريح في عمل طاحونة الريح ،وفي حركة المركب الشراعي . واخضع الانسان ايضا قوة البخار والكهرباء والطاقة الذرية .

" وبالتالي فليس الافراد اداة عمياء في ايدي قوى لا ترحم .بل انهم يؤثرون بوعي على الطبيعة ويقهرونها ويخضعونها لمصالحهم . وينتج من ذلك ان الانسان ليس لعبة في يد القوانين ،بل انه حاكم الطبيعة ،ولكن الناس يسيطرون عليها لا لانهم يتصرفون كما يحلو لهم ،وانما لانهم يستخدمون بمهارة القوانين الموضوعية في نشاطهم "(١) .

وبناء على هذا فان تطور المجتمع وتغيراته تجري بصورة اسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافي وتغيراته ،وعلى هذا الاساس فان الوسط الجغرافي لا يمكن ان يكون السبب الرئيسي الحاسم للتطور الاجتماعي ،وان كان يؤلف احد الشروط الدائمة لحياة المجتمع المادية ،ويؤثر في تطور المجتمع .

دور تزايد السكان في تطور المجتمع .

يقول الماديون : ان نمو السكان يؤثر في التطور الاجتماعي ،لان وجود حد ادنى من السكان على ارض معينة شرط ضروري لتطور المجتمع ،لان الانسان بمفرده لا يستطيع ان يتصدى لقوى الطبيعة واخضاعها لسيطرته ،ولا يستطيع ايضا ان يتحرر من وضعه الحيواني . ولكن الماديون لا يعتبرون نمو السكان وكثافتهم القوة الاساسية في تطور المجتمع ،وذلك لان نمو السكان لا يستطيع ان يبين اسباب انتقال نظام الى نظام آخر كالانتقال من المشاعية البدائية الى الرق مثلا . ومع ذلك فهم يعترفون باثر نمو السكان على تطور المجتمع . فهو اما ان يعيق النمو الاجتماعي واما ان يسهله .

" وعدد السكان الفعالين من العناصر التي يجب ان نحسب حسابها لتقدير القوى الانتاجية ،لان نمو السكان يؤثر في النمو الاجتماعي ،فهو يسهله او يعيقه ،وهكذا فان تدفق الايدي العاملة التي هاجرت الى الولايات المتحدة

---

(١) نفس المصدر (ص ٥٦) .

قد ساعد على النمو السريع للصناعة الضخمة التى لم يكن قد مضى قرن على وجودها . كما ان فناء جزء من سكان امريكا الشمالية من الهنود على يد المستعمرين الانجلوسكسون قد ساعد على ركود القبائل الباقية التقنى والاقتصادى .

" ولكن هذا التأثير نفسه ليس فاصلا ، والدليل على ذلك ان نمو السكان نفسه لا يمكن ان يفسر لنا لماذا يخلف نظام اجتماعى معين نظاما اجتماعيا ولا يخلفه نظام آخر . فخلف نظام الرق النظام الاقطاعى ، وهذا النظام الاقطاعى قد خلفه النظام الرأسمالى . فلو ان نمو السكان يؤثر تأثيرا قاطعا لكان على البلاد التى بلغت اضخم كثافة من السكان ان تتمتع بافضل نظام اجتماعى فقد كانت كثافة السكان فى بلجيكا عام ١٩٣٩م اعلى منها فى الاتحاد السوفياتى ، ومع ذلك لا تزال بلجيكا فى مرحلة الرأسمالية ، بينما الاتحاد السوفياتى قد انتهى من هذا النظام " [١] .

اسلوب الانتاج

يقول الماديون ان اسلوب الانتاج هو وحدة قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، اى وحدة جانبى الانتاج المعبرين عن نوعين من العلاقات ، علاقة الانسان بالطبيعة ، وعلاقة الانسان بالانسان [٢] .

واسلوب الانتاج هو القوة الاساسية التى تحدد هيئة المجتمع وطابع نظامه الاجتماعى ، وتقرر تطور المجتمع من نظام الى آخر . والمجتمع ايا كان بناؤه فان الشرط الاول لبقائه هو التفاعل مع الطبيعة ، وسد حاجات ومتطلبات الناس المادية فى المأكل والمشرب والمسكن والملبس . هذه الخيرات المادية الضرورية لحياة الناس قد لا تكون جاهزة فى الطبيعة فيضطر الانسان الى انتاجها ، لان الناس حين يقومون بانتاج الخيرات المادية ، فانهم ينتجون كل

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية (٢ : ١٠) .
(٢) انظر المادية التاريخية (ص ٤٩) .

متطلبات حياتهم ويجدون انتاجها على حد تعبيرهم .

يقول ماركس : " وليس لنا بد مع الالمان المجردين عن اية مقدمات من ان نبدأ بتقرير المقدمة الاولى للوجود البشرى بكامله ، وبالتالى للتاريخ باسره الا وهى المقدمة التى تنص على انه لابد للبشر فى[1] أن يكونوا فى مركز يمكنهم من العيش كما يكون فى مقدورهم ان (يصنعوا التاريخ) . بيد ان الحياة تشتمل قبل كل شئ على المأكل والمشرب والمسكن والملبس واشياء عديدة اخرى ، وهكذا فان العمل التاريخى هو انتاج الوسائط القمينة بسد هذه الحاجات ، انتاج الحياة المادية بالذات ، وبالفعل فان هذا العمل عمل تاريخى ، شرط اساسى للتاريخ بكامله .

" لابد فى اليوم الحاضر ، مثلما كانت الحال قبل آلاف السنين من تحقيقه يوما فيوما ، وساعة فساعة لمجرد الابقاء على الحياة الانسانية "[2] .

واذن فالشرط الاساسى للتاريخ بكامله هو انتاج الحاجات المادية الضرورية لاجل الحياة ، ولاجل الحصول على هذه الحوائج لابد من انتاجها وبالتالى فلابد من ادوات للانتاج ، ومعرفة كيفية استخدامها .

قوى الانتاج

يعتبر الماديون ان قوى الانتاج اهم مفهوم فى المادية التاريخية لانه " يعبر عن علاقة الناس بالطبيعة ، ويبين مدى سيطرة الانسان عليها "[3] .

ووسائل العمل مختلفة ومتنوعة ، وادوات العمل تحتل المكانة المرموقة بينها ، ولتحقيق عملية الانتاج لابد من وجود الشئ المراد تحويله ، ولا يمكن تحويل الطبيعة دون استخدام الالات .

اذن فانتاج الخيرات المادية الذى هو اساس الحياة ، وتطوير المجتمع

---

(١) هكذا فى الاصل ولعلها من .

(٢) الايديولوجية الالمانية (ص ٣٧) .

(٣) المادية التاريخية (ص ٤٩) .

يبدأ قبل كل شيء بصنع ادوات العمل واستخدامها ،التي تكون على حد تعبير ماركس" الجهاز العظمي والعضلي للانتاج"[(١)].

والبشر منذ اللحظة الاولى التي وجدوا فيها لم يستغنوا عن الادوات البدائية كالفأس الحجري القاطع مثلا ،والدور الرئيسي في الانتاج يلعبه الافراد ،لان ادوات الانتاج بدون الافراد العاملين عليها لا فائدة منها وتصبح ميتة . يقول سبركين وياخوت :" وهكذا فان القوى المنتجة تعبر عن علاقات مادية بين المجتمع والطبيعة ،ومستوى تطور هذه القوى دليل على درجة سيطرة البشرية على قوى الطبيعة ،وبدوره يتحدد المستوى نفسه قبل كل شيء بادوات العمل وتزويد الانتاج بالطاقة . وتنظيم وتكنولوجيا العملية الانتاجية وتطور العلم وكذلك بمستوى استخدام المنتجين المباشرين للقيم المادية للمنجزات العلمية"[(٢)].

والعمل عند الماديين هو مصدر كل ثروة ،ونتيجة لتفاعل الانسان مع الطبيعة ،فانه يحول المادة التي تقدمها له الطبيعة الى ثروة يفيد منها في الابقاء على حياته ،لان العمل هو اساس الحياة البشرية عندهم .

يقول انجلز :" يقول الاقتصاديون ان العمل هو مصدر كل ثروة ،وانه لكذلك فعلا . . مع الطبيعة التي تقدم له المادة التي يحولها الى ثروة ولكنه اكثر من ذلك ايضا الى مالانهاية له . انه الشرط الاساسي الاول لكل حياة بشرية ،وانه لكذلك الى درجة ينبغي علينا[(٣)] معها بمعنى ما ان نقول : ان العمل قد خلق الانسان ذاته"[(٤)].

علاقات الانتاج

يقول الماديون : ان الانتاج هو نضال الانسان ضد الطبيعة ،وهو لا يناضل وحده لانه لا يستطيع ان يكافح الطبيعة بمفرده وبمعزل عن الناس

---

(١) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ١٤٤) .
(٢) نفس المصدر (ص ١٥١ - ١٥٢) .
(٣) هكذا وردت في الاصل وتستعمل لغة ينبغي لنا .
(٤) نصوص مختارة (ص ١٢٣) .

والمجتمع هو الذى انقذه من حالته الحيوانية . والناس يناضلون مجتمعين ضد الطبيعة، ولهذا كانت طبيعة الانتاج اجتماعية .

وبناء على ذلك فان للانتاج علاقات اجتماعية، واساس هذه العلاقات هو ملكية وسائل الانتاج، وبناء على ملكية وسائل الانتاج تتحدد الجوانب الاخرى لعلاقات الانتاج، كالعلاقات بين الناس بعضهم ببعض فى عملية الانتاج، والتعاون المتبادل فى نشاطهم، والعلاقات القائمة على اساس توزيع المنتجات، وملكية وسائل الانتاج عندهم، اما ان تكون ملكية جماعية اى فى يد المجتمع كله، يترتب عليها علاقة واحدة - بين الافراد ووسائل الانتاج - تقوم على المساعدة والتعاون المتبادل . واما ان تكون ملكيتها ملكية خاصة يملكها اناس معينون او فئات اجتماعية او طبقات، تقوم على الظلم والاستغلال " وتظهر حتما فى المجتمع علاقة السيد بالمسود"[١] . يقول الماديون : ان التاريخ عرف ثلاثة اشكال للملكية الخاصة وقعت فى عصر الرق، والاقطاع والرأسمالية والسمة الرئيسية لها انها قائمة على الاستغلال .

وعلاقة الانتاج توجد بصورة لا ترتبط بارادة الناس ووعيهم لان البشر لا يحددون علاقة الانتاج وانما قوى الانتاج الجديدة نتيجة عمل واع يقوم به الناس، بل هى على العكس تنبعث من تلقاء نفسها، مستقلة عن وعى الناس وارادتهم"[٢] .

وكل اسلوب للانتاج له قانونه الاقتصادى الاساسى، وجميع جوانب الحياة الاخرى يحددها اسلوب الانتاج وهو شرط لوجودها لانها نابعة منه .

" وبما ان اسلوب الانتاج هو الذى يحدد نمط حياة الناس فى هذا المجتمع او ذاك، فان جميع ظواهر الحياة الاخرى تتعلق باسلوب الانتاج وتكون نابعة منه ومشروطة به"[٣] .

---

(١) المادية التاريخية (ص ٥٧) .
(٢) اصول الفلسفة الماركسية (٢ : ٥٩) .
(٣) المادية التاريخية (ص ٦٠) .

وحين تتغير قوى الانتاج يغير الناس نوع الانتاج ، ولدى تغييرهم له يغيرون علاقاتهم الاجتماعية ، وينتجون المبادىء والافكار التى تتطابق مع علاقات الانتاج الجديدة .

يقول ماركس : " ترتبط العلاقات الاجتماعية وتتعلق بالقوى الانتاجية ولدى تحقيقنا لقوى انتاجية جديدة يغير الناس نوع الانتاج ، وعند تغييرهم لنوع انتاجهم وعند تغيير طريقة كسبهم لمعيشتهم فانهم يغيرون كل العلاقات الاجتماعية . ان الطاحونة التى تدار باليد تمثل لك مجتمعا يتحكم به السيد الاقطاعى ، وتمثل الطاحونة البخارية مجتمعا تتحكم فيه الصناعة الرأسمالية .

" ان نفس الناس الذين يؤسسون علاقاتهم الاجتماعية لتطابق انتاجهم المادى ، تراهم ينتجون ايضا المبادىء والافكار واللوائح ، لكى تطابق علاقاتهم الاجتماعية ، وهكذا فان هذه الافكار وهذه اللوائح ليست ابدية كالعلاقات التى تعبر عنها ، انها انتاج تاريخى وفترة انتقال "[1].

وبناء على ماتقدم فان الانتاج فى تغير ونمو ، وتغير اسلوب الانتاج عندهم يؤدى حتما الى تغيير النظام الاجتماعى باسره ، فالافكار والمبادىء والقيم والعادات والدين والاخلاق وجميع الظواهر الاجتماعية متغيرة ومتطورة لانها مرتبطة من حيث الاساس باسلوب الانتاج فى المجتمع .

يقول ستالين : " الخاصة الاولى للانتاج انه لا يقف ابدا مدة طويلة فى مدة معينة ، فهو دائما فى حالة تغير ونمو ، وعلاوة على ذلك ، فان تغير اسلوب الانتاج يؤدى بصورة حتمية الى تغير النظام الاجتماعى بأسره . وتغير الافكار الاجتماعية والاراء والمؤسسات السياسية .

" ان المجتمع ذاته ، وافكاره ونظرياته ، وآراءه ومؤسساته السياسية تتعلق من حيث الاساس باسلوب الانتاج فى المجتمع . او بعبارة ابسط كل نمط من المعيشة يطابقه نمط من التفكير .

" ومعنى هذا ان تاريخ تطور المجتمع هو قبل كل شىء تاريخ تطور

---

(١) بؤس الفلسفة (ص ١١٢ - ١١٣) .

الانتاج ،تاريخ اساليب الانتاج التي تتعاقب خلال العصور تاريخ تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج بين الناس[١].

وعلاقات الانتاج الجديدة التي لا تتعلق بارادة الناس ووعيهم توجد داخل النظام القديم ،لان كل جيل من الناس يعمل لتحسين وسائل الانتاج القديمة ،وفكر الانسان عندهم محصور بمصالحه اليومية ،فهو لا يعي النتائج الاجتماعية ،التي تترتب على تغيير وسائل الانتاج القديمة . وقوى الانتاج ليست مستقلة عن علاقات الانتاج ،لان علاقات الانتاج اما ان تكون عائقا لنمو قوى الانتاج ،واما ان تكون دافعا لها الى النمو والازدهار ،ولكن النتيجة الحتمية عندهم انه لابد ان تتلائم علاقات الانتاج مهما تأخرت مع قوى الانتاج وذلك عن طريق قلب صورة الملكية القائمة للانتاج الى ملكية جديدة .

" ولهذا يجب علينا ان لاننسى مايلي : ان قوى الانتاج التي تتغير اولا ليست مستقلة عن علاقات الانتاج ،وان علاقات الانتاج التي يتعلق نموها بنمو قوى الانتاج تؤثر بدورها على نمو هذه القوى ،فهي اما ان تعيقها او تزيد في نموها . وتصبح علاقات الانتاج عائقا لنمو قوى الانتاج ، حينما لا تساير ازدهار قوى الانتاج وهي تصبح على العكس دافعا لهذا النمو حينما تتفق وحالة قوى الانتاج .

" مهما كان اذن تأخر علاقات الانتاج فانه يجب عليها ان آجلا او عاجلا ان تتلائم مع طابع قوى الانتاج الجديد . فكيف يتم هذا الانسجام ؟ بقلب صور ملكية وسائل الانتاج التي تكون كما رأينا العنصر الاساسي في علاقات الانتاج ولهذا فان اقامة نظام جديد للملكية يساوي اقامة علاقات جديدة للانتاج[٢].

يقول الماديون : لابد لاجل الحياة البشرية من ان يكون في مقدور البشر تلبية حاجاتهم الضرورية كالمأكل والمشرب والملبس والمسكن ،لذلك فان المطلب الاول هو انتاج الوسائط القمينة بسد هذه الحاجات .

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٤٩ - ٥٠) .
(٢) اصول الفلسفة الماركسية (٢ : ٣٤، ٣٧) .

فالرابطة المادية هى الاساس الاول الذى يجمع البشر، وهى قديمة وجدت منذ اللحظة التى وجد فيها الناس، وسابقة على كل رابطة من الروابط الاخرى .

يقول ماركس : " وهكذا فانه من الجلى تماما منذ البداية ان ثمة رابطة مادية تجمع البشر بعضهم بعضا تتحدد بحاجاتهم ونمط انتاجهم، وهى قديمة قدم البشر انفسهم ، وان هذه الرابطة لتتخذ على الدوام اشكالا جديدة وبذلك تمثل " تاريخا " حتى دون ان يوجد بعد اى هراء سياسى او دينى يحقق علاوة على ذلك التماسك بين البشر[1] .

الاشكال الاجتماعية الخمسة التى سجلها التاريخ عندهم

يقول الماديون : ولقد سجل التاريخ خمسة اشكال اجتماعية هى :
المشاعية البدائية، ونظام الرق ، والاقطاع، والرأسمالية، ثم الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية الممهدة للشيوعية .

واول هذه الاشكال الاجتماعية هو المشاعية البدائية .

يقول الماديون : ان هذا الشكل الاجتماعى للانتاج وجد منذ آلاف السنين ، حيث كان الناس يعيشون فى حالة وحشية يأكلون مما يجدونه فى الطبيعة من نباتات صالحة للاستهلاك كالخضر والفواكه، ثم اكتشفوا مصادر جديدة للغذاء باكتشافهم النار، وبعد ذلك استخدموا العصار والحجارة غير المنحوتة، وكانت اول ادوات استخدمها الانسان البدائى ، ثم اخترع الرمح الحجرى المسنون والسهم الحجرى واستخدمه فى صيد الحيوانات . وتدرج الانسان فى اختراع الادوات، ولكنه مع ذلك بقى ضعيفا فى مواجهة قوى الطبيعة وسبب ذلك راجع الى عدم استقرار الغذاء ودوامه، فلم يتمكن من ادخار قوته .

وكان البشر يعيشون فى قبائل مؤلفة من عدة بطون تجمعهم صلة القربى

---

(١) الايديولوجية الالمانية (١ : ٣٩) .

ولم يكن لديهم تملك خاص لادوات الانتاج ،وكان الغذاء مشتركا بينهم .

يقول انجلز : " وكانت جامعة البيت مشاعية تضم عدة اسر ،وفى اغلب الاحيان اسرا كثيرة . . ولا سيما على شاطئ اميركا الشمالى الغربى ، لدى الهيدائى القاطنين فى جزر كوين شارلوت ،تضم بعض الجماعات البيتية (٧٠٠) شخص تحت سقف واحد . اما بين النوتكين فكانت قبائل بأسرها تعيش تحت سقف واحد "[١] .

يقول الماديون : ان ماركس وانجلز قد برهنا على ان المشاعية البدائية كانت الشكل الاول للمجتمع ،ثم وصل العالم الامريكى مورغان بعد ذلك بثلاثين سنة ،وبصورة مستقلة عن ابحاث ماركس وانجلز الى النتيجة نفسها ،بعد ان اجرى دراسة مطولة على القبائل المتوحشة وشبه المتوحشة فى امريكا وجزر المحيط الهادى .

يقول سيفال : " ولا تزال بقايا المشاعية البدائية موجودة حتى ايامنا هذه لدى عدد من الشعوب فى شكل مشاعية بدائية ،تملك الجماعات الزراعية فيها الارض ملكا مشتركا ،وتوزع حصصا منها على اعضائها للتصرف بها بصورة مؤقتة . وليس يمكن بعد هذا ان يوضع موضع الشك ،وجود المشاعية البدائية كنقطة بدء فى تطور الشعوب كلها "[٢] .

ونرى الماديين يشددون النكير على من ينكر وجود المشاعية البدائية ويقول بان الملكية الخاصة ملازمة لطبيعة الانسان ،وان انكار المشاعية البدائية يخدم البرجوازية فى تعزيز موقفها امام نضال الشيوعية الحديثة ،لان البرجوازية قائمة على استغلال الطبقة العاملة .

يقول سيفال : " يزعم اعداء الشيوعية ،ان مجتمع المشاعية البدائية لم يوجد قط ،على دعواهم ،وان الملكية الخاصة وانقسام المجتمع الى طبقات كانا موجودين منذ وجد المجتمع ،ويسعى هؤلاء جهدهم ليظهروا ان الملكية

---

(١) اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة (ص ٢٥) .

(٢) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ (ص ١٥) .

الخاصة لا تنفصل عن طبيعة الانسان ذاتها ، وانه لا يمكن لملكية من نوع واحد ان توجد ، وان المجتمع كان دائما منقسما الى طبقات ، وان مجتمعا دون طبقات هو فرضية لا يمكن تصورها .

"ان انكار وجود المشاعية البدائية هو من مصلحة البرجوازية وعملائها في نضالهم ضد الشيوعية الحديثة" [(١)] .

ويقول اصحاب كتاب المادية التاريخية : " وهكذا فقد كان القطيع [(٢)] البدائي اول شكل انتقالي للمجتمع الذي حدث فيه تكوين الانسان . ولقد ظهر ذلك القطيع عندما انفصل الانسان عن عالم الحيوان وبدأ بانتاج ادوات العمل ، ومازال باقيا الى ان تكونت ملامح الانسان الحديث نتيجة لتطورها التدريجي البطيء" [(٣)] .

انحلال المشاعية البدائية

يقول الماديون : ان الناس لو عاشوا فرادى لما استطاعوا ان يخترعوا ادوات الانتاج البدائية ، التي كافحوا بواسطتها ضد الطبيعة ، اذن فوجود نظام مشاعي كان ضروريا للمجتمع الانساني الاول .

يقول سيفال : " لقد كان هذا النظام المشاعي البدائي ضروريا للمجتمع الانساني في تلك المرحلة من التطور . فلقد كان من المستحيل على المجتمع لو عاش افراده حياة منعزلة مبعثرة ، ان يخترع الاسلحة والادوات البدائية وان يحسنها فيما بعد . ولم يستطع الناس ان يحرزوا انتصاراتهم الاولى في ميدان الكفاح ضد الطبيعة الا بفضل حياتهم التعاونية . لقد كان اتحادهم في بطن مشاعي هو قوتهم الرئيسية" [(٤)] .

---

(١) نفس المصدر (ص ١٥) .
(٢) نلاحظ هنا التأثير الكبير لنظرية دارون على الكتاب الماركسيين .
(٣) المادية التاريخية (ص ٣٣٥) .
(٤) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ (ص ٨ - ٩) .

ولقلة الموارد الغذائية لم يكن هناك استغلال فى المجتمع المشاعى البدائى ،لان الاستغلال لا يوجد الا اذا استطاع الانسان ان ينتج مايكفيه ويكفى الاخرين ايضا على حد تعبيرهم .

اما المجتمع المشاعى فلم يكن ينتج افراده الا الضرورى من الاشياء التى يحتاجون اليها فى يومهم .وكان العمل مقسما بين الرجل والمرأة . هذا التعاون فى المجتمع البدائى وعدم الاستغلال لم يكن نابعا عن وعى منهم وارادة بل تشكل وتطور بصورة طبيعية .

يقول سيفال : " لقد كان مستوى تطور قوى المجتمع المنتجة هو الذى يحدد ظروف النظام المشاعى البدائى ،ومن الخطأ ان تصور ان الناس البدائيين هم الذين اوجدوا هذا النظام عن وعى منهم ، فلقد تشكل وتطور بصورة طبيعية ، ودون علاقة بارادة الناس ووعيهم " (١).

ونتيجة لتطور ادوات الانتاج وتحسينها واختراع ادوات جديدة ، وظهور تربية المواشى ، وظهور الزراعة ، كل هذا ادى الى تغييرات فى علاقات الانتاج وادى ادخال تربية المواشى الى اول تقسيم للعمل ، لان اصحاب المواشى بدأوا يستفيدون من لحمها والبانها وصوفها ، بينما القبائل الاخرى التى لا تربى المواشى محرومة من هذه المنتجات ، وظهر نتيجة لذلك مايسمى بنظام المقايضة المنظم وهو تبادل سلعة بسلعة اخرى . ثم ظهرت الزراعة واختراع الادوات الجديدة ، ونول الحياكة وصهر الفلزات ، كل هذا ادى الى تفسخ نظام المشاعية البدائية .

يقول اصحاب كتاب المادية التاريخية : " ومع ظهور الانتاج الفردى ظهر التناقض بين الملكية الاجتماعية ، والطابع الفردى لعملية الانتاج ، هذا التناقض الذى يحل عن طريق القضاء على الملكية الاجتماعية وظهور الملكية الخاصة لوسائل ومواد الانتاج . وهذه هى الاسباب الرئيسية التى ادت الى القضاء على النظام البدائى كحتمية تاريخية طبيعية " (٢).

---

(١) نفس المصدر (ص ٩) .
(٢) المادية التاريخية (ص ١٦١) .

صــراع الطبقـات

بعد ان تلاشت المشاعية البدائية وظهرت الملكية الخاصة ، ظهــــر اول تقسيم للمجتمع الى طبقات ، على اساس المصالح الاقتصادية ، التى هى الاســاس فى التعامل بين الطبقات البشرية وهى المحددة فى نهاية الامر لجميع المصالح والايديولوجيات الاخرى .

يقول سبركين وياخوت : " والمصالح الاساسية للفئات الاجتماعية والطبقات البشرية هى اولا وقبل كل شىء مصالح مادية اقتصادية تحدد فى نهاية الامـر المصالح السياسية والقانونية والاخلاقية والدينية والجمالية والعلمية والفلسفيــة وغيرهــا "(١) .

والطبقات وفقا لتعريف لينين هى : " مجموعات كبيرة من الناس تتمـــيز بمكانها فى نظام الانتاج الاجتماعى المحدد تاريخيا (وبعلاقاتها التى تثبت فى الغالب وتصاغ فى القوانين) بوسائل الانتاج ، وبدورها فى التنظيم الاجتماعــى للعمل ، وبالتالى اساليب حصولها على ذلك النصيب من الثروة الاجتماعية الـذى تمتلكه ومقاديره "(٢) .

اذن فاهم سمة تحدد الفوارق الطبقية هى علاقة الطبقات المختلفــــة بوسائل الانتاج ، واساليب حصولها على الثروة ومقداره .

ان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هى الاساس الاقتصادى لانقســـام المجتمع الى طبقات ، واستغلال مالكى وسائل الانتاج للكادحين ، لان تطـــور قوى الانتاج ، وتقسيم العمل ، ونمو الانتاج ، يبرز المنطلقات الاقتصادية لظهـــور الطبقات ، التى اول مانشأت عن طريق تقسيم الجماعة البدائية الى فئات طبقيـــة فتشكلت الطبقة المسيطرة " من تلك الاسر التى كانت تقوم بالوظائف الاجتماعيـــة وتستخدم سلطتها من اجل تجميع الثروة بين ايديها ، وكان اول تقسيم طبقـــى للمجتمع هو تقسيمه الى فئتين : فئة الارقاء ، وفئة الاسياد . وبعدها صـــار

---

(١) اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٢٦٢) .

(٢) نقلا عن نفس المصدر (ص ٢٦٩) .

التاريخ البشرى مسرحا للصراع الطبقى . يقول ماركس : " منذ ما تلاشت الملكية الجماعية للارض فى العصور البدائية كان التاريخ بكامله تاريخا لصراع الطبقات ".[١]

ويقول كورنفورث : " انما صار تاريخ الانسان فقط هو تاريخ الصراع الطبقى لتغير ظروف الانتاج مع نشوء الزراعة ، ثم التغير الهائل فى المجتمعات الرأسمالية ".[٢]

والطبقة التى تملك وسائل الانتاج ، وتملك الوسائل المادية هى التى تحكم ، لان الذى يملك هو الذى يحكم ، وافكارها هى المسيطرة على افراد المجتمع .

يقول ماركس: " ان افكار الطبقة السائدة هى فى كل عصر الافكار السائدة ايضا ، يعنى ان الطبقة التى هى القوة المادية السائدة فى المجتمع هى فى الوقت ذاته القوة الفكرية السائدة . ان الطبقة التى تتصرف بوسائط الانتاج المادى تملك فى الوقت ذاته الاشراف على وسائط الانتاج الفكرى ، بحيث ان افكار اولئك الذين يفتقرون الى وسائط الانتاج الذهنى تخضع من جراء ذلك لهذه الطبقة السائدة ".[٣]

وفى المجتمع القائم على التقسيم الطبقى يكون الصراع حتما سياسيا لان العلاقات السياسية تنشأ وفقا لوعى الناس نتيجة النضال الطبقى .

يقول اصحاب المادية التاريخية : " ان العلاقات السياسية - بخلاف العلاقات الاقتصادية المادية التى لا تنشأ من خلال وعى الناس - تنشأ وفقا لوعى الناس الذى يتكون على اساس النضال الطبقى ، ومن خلال سيره ووفقا للايديولوجية السياسية كذلك ".[٤]

ويقول ماركس : " ان كل نضال طبقى هو نضال سياسى ".[٥]

---

(١) نقلا عن الماركسية تفسير وتعريب (ص ٣٣) .
(٢) مدخل الى المادية التاريخية (ص ٣٠ - ٣١) .
(٣) الايديولوجية (ص ٥٦) .
(٤) المادية التاريخية (ص ٢٧١) .
(٥) نفس المصدر (ص ٢٤٧) .

وان السمة الاساسية لكل مجتمع قائم على اساس الصراع الطبقي هو وجود طبقة مظلومة داخل هذا المجتمع .

ولاجل تحرير هذه الطبقة المظلومة، لابد من بناء مجتمع جديد يقوم على اكتافها هي نفسها .

يقول ماركس: " ان كل وسائل الانتاج، وان اعظم قوة منتجة هي الطبقة الثورية نفسها "(١) .

ثانيا : نظام الرق .

يقول الماديون : على اثر تفسخ نظام المشاعية البدائية، نتيجة لضغط القوى المنتجة التي اوجدها، وظهور الملكية الخاصة لوسائل الانتاج التي هي مصدر الفوارق الاقتصادية بين الناس، والتي نشأ عنها ظهور طبقة مستغلة تسعى الى الاستغلال للانسان ومنتوج عمله، كان لابد من تحويل الانسان نفسه الى وسيلة عمل، وارغامه على العمل لدى الاخرين .

جاء نظام الرق اول اشكال الاستغلال واكثرها وحشية وقسوة . يقول انجلز : " ان تطبيق العبودية في الظروف التي كانت سائدة في ذلك الحين قد كان خطوة كبرى الى الامام، ذلك انه من الحقائق الواقعة ان الانسان قد انبثق من الحيوانات(٢)، وبالتالي فلم يكن له بد من استخدام وسائل بربرية، تكاد ان تكون وحشية، من اجل تخليص نفسه من البربرية "(٣) .

كيف نشأ نظام الرق ؟

يقول الماديون : تنشأ نظام الرق من طريقين : طريق الحروب، وكان المغلوب في الحرب يتحول الى رقيق، ولكن هذا المصدر لا يكفي وحده بل لابد من مصدر آخر للرق .

---

(١) بؤس الفلسفة (ص ١٧٩) .
(٢) نلاحظ التأثير الواضح للداروينية على تفكير انجلز .
(٣) آنتي دوهرنغ (ص ٢١٧) .

ظهرت التجارة نتيجة لزيادة تقسيم العمل والتبادل . حيث كان التجار يستفيدون من عزلة المنتجين الصغار عن السوق ، فيشترون منهم السلع باسعار متدنية ، ويبيعونها مرة اخرى باسعار مرتفعة . ونتيجة لنمو الانتاج السلعي والتبادل النقدى ، ظهر الاقراض الربوى ، وظهر استعباد المدين عن طريق الديون .

يقول ماركس: " كان الصراع الطبقى فى المجتمع القديم ، وبالدرجة الاولى صراعا بين الدائنين والمدينيين ، وقد انتهى فى روما الى زوال المدين من طبقة العامة وتحوله الى عبد "[1].

فقد كان المدين الذى يثقل كاهله الدين نتيجة للاقراض الربوى الفاحش يضطر لبيع والده او ابنه ، او نفسه رقيقا لاجل سداد دينه .

ظهور الدولة والشعب

يقول الماديون : كانت علاقة الانتاج السائدة قائمة على استغلال الرقيق من قبل اسيادهم ، وقد كان استثمار عمل الرقيق يجلب لمالكيهم ثروات هائلة . ومن اجل حماية مصالح الطبقة المستغلة ، وادارة المجتمع ظهرت الدولة لاول مرة ، ومعها كل ادوات السلطة ، الجيش والشرطة وجهاز الموظفين والسجون وغيرها . وظهرت العلاقات الحقوقية والسياسية ، ونتيجة لظهور الملكية الفردية نسفت رابطة الدم وظهر الشعب كشكل جديد لاجتماعية الناس . وتميز بوحدة الارض العامة ، واللغة والثقافة . وعن طريق الحروب والغزوات نشأت دول كبيرة كالامبراطورية الرومانية مثلا ، والشعوب تستفيد من وجود مثل هذه الاتحادات القوية ، لانها تقوى من تفاعلها بعضها مع بعض وتستفيد من المنجزات لدى الشعوب الاخرى وتطورها .

وحينما انفصل العمل الفكرى عن العمل الجسمانى ، توفرت الفرصة لامكانية تطوير المعارف النظرية التى تنمو الحاجة اليها من الانتاج ذاته .

---

(١) رأس المال (١ : ٢٠٠) نقلا عن لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ (ص ١٧) .

يقول اصحاب كتاب المادية التاريخية : " ان تطور الصراع الطبقي والمعارف النظرية ادى الى ظهور الفلسفة ، وحدثت اختلافات مهمة على صعيد الدين الذى تحول تدريجيا الى اداة روحية لاستعباد الجماهير ، وبهذا فان انقسام المجتمع الى طبقات يحدث انقلابا جذريا فى البنيان الفوقى وفى حياة المجتمع الروحية كلها ، وفى المجتمع العبودى بالذات ظهرت لاول مرة كل الاشكال الراهنة للوضع الاجتماعى "(١) .

معاملة الرقيق

كان العبد ملكا مطلقا لسيده ، يتصرف به كالسوائم ، كان سيده يستطيع قتله دون ان يناله عقاب ، وكان محروما من جميع الحقوق المدنية . ولم يكن من صالح السيد ان يكون عبده متزوجا او صاحب اسرة ، وقد كان العبد يستغل استغلالا بشعا مما يؤدى الى اتلاف قوته سريعا ، فاذا عجز عن العمل قتل وكان من الضرورى استبدال الميت بغيره ، فكانت الحروب اعظم مصدر للرق وكثيرا ماتمرد العبيد نتيجة للمعاملة القاسية كثورة اسبارطاكوس من سنة ٧٣ الى سنة ٧١ ق . م . ولكنها انتهت كلها الى الفشل . ونتيجة للمعاملة القاسية تولد عند العبيد التمرد وبغض العمل ، ولم يعد يعطى نظام الرق اية فائدة تستحق الذكر لا فى الزراعة ولا فى المعامل اليدوية .

يقول انجلز : " لكن هذه العبودية المشرفة على الموت كانت لا تزال من القوة بحيث تجعل كل عمل من اعمال الانتاج بيد و كأنه عمل عبودى وضيع لا يليق بمقام الرومان الاحرار . .

" ان المسيحية ليست مسئولة قط عن هذا الزوال التدريجى للعبودية القديمة اذ هى قد جنت من ثمار العبودية فى الامبراطورية الرومانية خلال قرون من الزمن . ولم تفعل فيما بعد شيئا لا لمنع المسيحيين من المتاجرة

---

(١) (ص ١٦٣) .

بالرقيق سواء الالمان فى الشمال ،او تجار البندقية على البحر الابيض المتوسط ولا لحظر التجارة بالرقيق الزنوج فى السنين الاخيرة . وانما زالت العبودية لانها لم تعد تدر ربحا قط . لكنها بزوالها خلفت وراءها لسعتها السامة وذلك بوسمها عمل الاحرار فى الانتاج بميسم الضعة ،فكان ذلك بمثابة الزقاق المسدود الذى وجد العالم الرومانى نفسه فيه . كانت العبودية مستحيلة من الناحية الاقتصادية ،وكان عمل الاحرار مستهجنا من الناحية الاخلاقية لم يعد فى وسع الاول ان يظل اساس الانتاج الاجتماعى ،وكان الاخير لا يزال غير قادر على ان يكون اساسا لهذا الانتاج . لم يكن ينفع فى هذا الحال سوى ثورة كاملة[١] .

انحطاط نظام الرق

يقول الماديون : نتيجة لتطور القوى المنتجة وتحسين عملية صهر المعادن وصناعة الحديد ،وانتشار المحراث الحديدى ،ونول النسيج ،وتطور زراعة الارض، وادخال ادوات جديدة اكثر صلاحية ،كان الوضع يتطلب تغييرا فى علاقات الانتاج فى مجتمع عهد الرق .

يقول سيفال :" كان نظام الرق شكلا اجتماعيا ضروريا من اشكال تطور القوى المنتجة فى مرحلة معينة من مراحل التاريخ ،ولكن هذا التطور كان بدوره سببا لانحطاط هذا النظام"[٢] .

ثالثا : نظام الاقطاع .

يقول الماديون : انتهى نظام الرق الى الدمار حين اصبح مناقضا لطابع قوى الانتاج ،ولاجل بناء الاقتصاد من جديد ، لابد من علاقات انتاجية جديدة . ونتيجة لعلاقات الانتاج الجديدة جاء النظام الاقطاعى وحل محل

---

(١) اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة (ص ٢٣٦ - ٢٣٧) .
(٢) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ (ص ٢١) .

نظام الرق ويوجد بين النظامين تشابه من حيث كونهما يعتمدان على ادوات انتاجية ضعيفة . كما ان تطور المجتمع فيهما يتم ببطء شديد .

ويتميز النظام الاقطاعي بان علاقات الانتاج فيه قائمة على ملكية الاقطاعي للارض كوسيلة رئيسية للانتاج ، وقيام ارتباط الفلاحين بالاقطاعيين داخل حدود معينة . ويشتغل الفلاح لحساب السيد الاقطاعي ولكنه يمتلك قطعة ارض خاصة به ، وله نصيب معين من المنتوج الضروري لتجديد قوة عمله ، يستفيد منه هو وعياله . يقول اصحاب كتاب المادية التاريخية : " ولهذا فان تجديد القوة العاملة هنا لم يكن مرتبطا بالحرب بصورة حتمية ، ولم يكن ذا طابع وحشي كما كان في نظام عهد الرق " (١) .

كان نصيب الفلاح من المنتوج لا يذكر ، وكان دائما معرضا للجوع والمرض والشقاء ، وكان مصيره مرتبطا باستبداد الاقطاعي ، ولا يتمتع الفلاح بأي حق سياسي ، وقد كان مجبرا على العمل مجانا اياما معينة من الاسبوع ، وتسليم جزء من محصول ارضه اتاوة لسيده الاقطاعي ، وكان الفلاح يملك حق ترك سيده لينضم الى سيد آخر ، ولكنه لا يستطيع ان يفلت من السيادة الاقطاعية .

ونتيجة للظلم الاقتصادي الفاحش ، وحرمان الفلاحين من حقوقهم حرمانا كاملا . بدأ الفلاحون النضال ضد الاقطاعيين ، فكان النضال في بداية الامر على شكل هروب من الاقطاعية ، ثم تدرج الى انتفاضات مسلحة ، ولكنها باءت بالفشل لقوة الاقطاعي اولا ، وعدم تنظيم الفلاحين ، وتحديد اهداف سياسية واضحة لهم ثانيا .

ولما كان طابع الانتاج بدائيا ولا يعتمد على الالات ، وتطور المبادلات التجارية ضعيفا ، وطرق المواصلات صعبة وسيئة ، اضطرت المدن لاجل الحصول على الحكم الذاتي ان تخوض نضالا قاسيا ومريرا . وفازت اخيرا بالحكم الذاتي وكان لها حامياتها الخاصة ، وكان الحرفيون متكتلين في هيئات حرفية استدعى

---

(١) (ص ١٦٨) .

وجودها ايجاد مستودعات مشتركة ، وضرورة مراقبة الاسعار ونوع المصنوعات بغية المزاحمة ، لذلك كانوا محتاجين للدفاع ضد الاقطاعيين . ونتيجة لتطور التبادل اخذ استغلال الفلاحين يشتد من قبل الاقطاعيين ، وكلما استطاع الاقطاعي شراء الاسلحة لتقوية رجاله ، ازدادت الاتاوات ، وقد كان الاقطاعيون الكبار يفرضون المكوس على التجارة التي تمر في اراضيهم ، ونتيجة للضغط الشديد هرب الفلاحون الى المدن ، وكانت هذه الزيادة البشرية تنفع المدن في نضالها ضد الاقطاعيين ، ولكنها اخيرا بدأت تهدد الحرفيين بسبب المنافسة الشديدة ، ونشأ الصراع بين الحرفيين والتجار ، وجاءت الاكتشافات الجغرافية فدفعت التجارة بقوة الى الامام ، وظهر نظام المعمل اليدوي وظهر التقسيم الاجتماعي للعمل ، واصبح العامل يبيع قوة عمله .

وقد نشأت السلطة المركزية ، وحلت الجيوش الملكية محل الجيوش الاقطاعية ، واضيفت على الفلاح اتاوات اخرى لسد نفقات الدولة الاقطاعية الجديدة ، وتحولت الاتاوات من عينية الى نقدية بعد ظهور التعامل بالنقود التي ظهرت على المسرح مؤخرا ، وصار الفلاح لاجل الحصول على المال اللازم لسد هذه النفقات يبيع منتوجاته في السوق ، فوقع من جديد في قبضة المحتكر والمرابي .

وقد كانت الطبقة المسيطرة في النظام الاقطاعي هي طبقة الملاك الكبار ورجال الدين النصراني . وكانت الدولة تتمتع بنظام الحكم المطلق . وكان الدين من الناحية الايدولوجية هو صاحب السيادة وحده . يقول اصحاب المادية التاريخية : " ان الدولة والكنيسة هما الجهازان الجباران المسيطران على المجتمع واللذان يحميان مصالح الطبقة المسيطرة "[1] .

وحين اصبح النظام الاقطاعي عقبة في وجه كل تطور لاحق في الانتاج الجديد ، واخذت العلاقات الانتاجية الرأسمالية تظهر وتتطور مع نمو قوى الانتاج الجديدة ، نتيجة لعدة عوامل ، منها الاكتشافات الجغرافية ، وزيادة

---

(١) (ص ١٦٩) .

التجارة، وحين اصبح الرأسمالى يستغل العامل، نتيجةلهذا كله انهار نظـــام الاقطاع، وانفجرت الثورات البرجوازية الرامية الى هدم النظام الاقطاعى، وفسح المجال امام تطور الرأسمالية .

يقول سيفال : " وهكذا نرى ان الاقطاعية التى كانت متوافقة عند نشأتها مع مستوى القوى المنتجة فى المجتمع، صارت متناقضة مع القوى المنتجة المتنامية وصار الغاؤها ضرورة تاريخية" (١) .

رابعا : نظام الرأسمالية .

يقول الماديون : ان القانون الاساسى للتغيير الاجتماعى هو الـــذى يحكم التغيرات فى اسلوب الانتاج . وينشأ النزاع بين نمو قوى الانتـــاج وعلاقات الانتاج القائمة، ويترتب على هذا النزاع حدوث الثورة الاجتماعيـــة وبالتالى انتقال السلطة الى يد طبقة جديدة بعد ان ينهار النظام القديـــم لعلاقات الانتاج .

وقد اصبح نظام الاقطاع نفسه عائقا امام تطور القوى الانتاجية حيـــث كانت الملكية الاقطاعية والاتاوات، والقيود على التجارة عائقا فى تطور الزراعـــة والصناعة، اللتين كانتا تستخدمان اختراعات جديدة تحتاج الى ايد عاملـــة بالاجـــر .

كيف نشأت البرجوازية ؟

يقول الماديون : كان الانتاج فى البداية ضعيفا ويستهلك محليـــا وكان التبادل ضعيفا ايضا، وفى القرن الثانى عشر ظهر فى اسواق المـــدن فائض الانتاج، ونشأت طبقة تخصصت فى بيع السلع وشرائها هى طبقـــة التجار طلائع البرجوازية، هذا البرجوازى الذى كان يعتقد ان كل شىء يبـــاع ويشترى، اشترى فى بداية الامر الارقاء ليعملوا عنده، ثم اشترى الحقـــوق

(١) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ (ص ٢٢) .

السياسية ، وكان الملك يقف الى جانبهم مقابل اقراضه مبلغا من المال[1] ، ينفقه لتقوية الدولة ، ونتيجة للاكتشافات الجغرافية الكبرى التى قامت من اجل الاستيلاء على الذهب ، تكدست الثروات الضخمة فى يد التجار ، وتكونت طبقة العمال المأجورة من الفلاحين المفلسين او المضطهدين الهاربين من الاقطاعيين ، او الصناع اليدويين الذين قضت عليهم المضاربة ، فانتقلوا من عبودية الاقطاعى الى عبودية البرجوازى ، فاضطروا لكى لا يموتوا جوعا الى بيع قوة عملهم الى البرجوازى . وحدثت فى القرن الثامن عشر فى اوربا الثورة الصناعية ، واشتد النضال بين البرجوازية والاقطاعية فى ذلك القرن ، واتخذ شكلا سياسيا بعد ان سيطرت البرجوازية على المجتمع اقتصاديا .

كيف تصبح قوة العمل الانسانى بضاعة ؟

هناك عدة شروط يجب توفرها لكى تصبح قوة العمل الانسانى بضاعة وهى :

(١) ان يكون الانسان العامل حرا غير مسترق لاحد .

(٢) ان توجد الاسواق لتصريف المنتجات .

(٣) ان لا يكون لدى الناس العاملين وسيلة انتاج ولا يملكون شيئا للبيع سوى قوة عملهم .

يقول اصحاب كتاب اصول الفلسفة الماركسية : " ولهذا كانت مصلحة الرأسمالى فى تحديد العمل اليومى ، كما ان مصلحة البرولتارى فى تقصيره ، فاذا وجب ثلاث ساعات لانتاج قيمة تساوى ماتتطلبه تغذية قوة العمل عند العامل واذا كان هذا العامل يبدأ عمله فى الساعة السادسة صباحا ، فانه منذ الساعة التاسعة يعمل لمصلحة الرأسمالى ، فاذا عمل بدون انقطاع وانتهى من عمله الساعة ١٤ فانه يكون قد عمل خمس ساعات لمصلحة الرأسمالى "[2] .

---

(١) كان معظم الدائنين الربويين للملوك من اليهود ، وقد كانوا يستغلون مراكز الملوك السياسية لخدمة مصالحهم الشخصية ونشر افكارهم ، انظر بروتوكولات حكماء صهيون ، واحجار على رقعة الشطرنج .

(٢) اصول الفلسفة الماركسية (ص ٧١ - ٧٢) .

وقد اصبح الرأسمالى يملك وسائل الانتاج ، ويملك البضائع المصنعة من قبل العمال ، والعامل لا يأخذ الا اجرا زهيدا يعادل ثمن قوة عمله والقيمة الزائدة المنتجة هى لصالح الرأسمالى ، الذى يسعى للحصول على اكبر قدر من الربح ، لذلك فهو تحت ضغط المنافسة يحاول زيادة الانتاج ويسعى الى ادخال آلات جديدة تساعد على تحسينه ورفع مستواه ، ويستغل العمال بشدة ، ولكن خطوة الى الامام فى الانتاج هى فى نفس الوقت خطوة الى الخلف بالنسبة للطبقة المضطهدة .

يقول انجلز : " ولما كان استغلال طبقة من قبل طبقة اخرى هو اساس الحضارة ، فان نموها كله يسير فى تناقض مستمر ، كل خطوة الى امام فى الانتاج هى فى الوقت ذاته خطوة الى وراء فى احوال الطبقة المضطهدة اى الاكثرية العظمى . كل ماهو خير للبعض لا بد ان يكون شرا للاخرين ، كل تحرر جديد لاحدى الطبقات يعنى دائما اضطهادا جديدا لطبقة اخرى . واعظم دليل على هذا نجده فى ادخال الالة ، التى يعرف العالم بأسره آثارها الان " (١) .

ان الضرورة الاقتصادية تربط العامل بالرأسمالى بصورة قوية ، لانه لا يستطيع الهروب من الرأسمالى ، فلابد للعامل أن يختار بين العمل لحساب الرأسمالى والموت جوعا ، والرأسمالية تحتاج الى السوق الواسعة من اجل تصريف الانتاج فانشأت لاول مرة نظاما اقتصاديا عالميا واحدا وسوقا عالمية واحدة . يقول اصحاب كتاب المادية التاريخية : " ولاول مرة فى التاريخ تنشىء الرأسمالية نظاما اقتصاديا عالميا واحدا ، وسوقا عالمية واحدة ، وتجرف شعوب العالم جميعها مع تيار التطور الرأسمالى " (٢) .

تكوين العمل الجماعى .

يقول الماديون : ان الرأسمالية طورت التقسيم الاجتماعى للعمل على نطاق واسع ، وظهر المعمل الرأسمالى المجهز بالوسائل الالية الضخمة

---

(١) اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة (ص ٢٧٩) .
(٢) المادية التاريخية (ص ١٧٩) .

وزادت البضاعة المنتجة ، وتطورت وسائل المواصلات ، كل هذا لايجاد السوق العالمية للاقتصاد الرأسمالى . يقول كورنفورث : " والسمة الاساسية لزيادة قوى الانتاج التى نشأت فى اطار الرأسمالية هى تشريك العمل ، فلقد حلت محل الانتاج الفردى الصغير قوة العمل الاجتماعى الذى يتعاون الناس فيه معا فى منشآت انتاجية كبيرة تستخدم آلات تعمل بالطاقة . لكن هذه السمة تعوقها علاقات الانتاج الرأسمالية التى تجعل التاريخ ملكا للرأسماليين ، وتجبر الانتاج الاجتماعى على ان يخدم الربح الخالص " (١).

نشوء الامة .

يقول الماديون : على اساس الاجتماعية الاقتصادية الرأسمالية تنشأت اجتماعية الامة ، وحل الحكم البرجوازى الدستورى محل الحكم الملكى المطلق وتقدر قيمة الفرد فى المجتمع البرجوازى الذى يسيطر عليه رأس المال بمقدار رأسماله ، واساس المساواة فى هذا المجتمع هى المساواة الاقتصادية ، والدين النصرانى المحرف يستمر فى اداء دوره المهم فى عملية استعباد الجماهير لكنه لم يعد يسيطر على الوعى وعلى الاشكال الاخرى . وتحتل الايديولوجية السياسية والحقوقية المكان الاول . والرأسمالية تشجع العلوم الطبيعية لانها بأمس الحاجة الى العلم لزيادة الانتاج وتحسين وسائله ، وبالتالى فان البنيان الفوقى يتغير بتغير العلاقات الانتاجية الرأسمالية ، " ان تغيير علاقات الانتاج الاقطاعية الى علاقات رأسمالية يؤدى الى اعادة تركيب البناء الفوقى الذى يؤدى بدوره مع ملائمته للقاعدة الجديدة الى تغيير وجه المجتمع ككل " (٢).

ويقول اصحاب المادية التاريخية فى موضع آخر : " ان عصر الرأسمالية الصاعدة هو عصر نشوء الامم ، والماركسيون يذهبون الى ان الامة لم توجد قبل الرأسمالية ، لان الشروط الاقتصادية اللازمة لنشوئها كانت لا تزال معدومة

---

(١) مدخل الى المادية التاريخية (ص ٧٣) .
(٢) المادية التاريخية (ص ١٧٤) .

ان تكون الشعوب من اختلاط مجموعات جغرافية مختلفة اتحدت فى الارض واللغة والثقافة كان المنطلق لتكوين الامة مع انه ليس ضروريا ان تتألف الامة من شعب واحد ، فكل الامم الحديثة نشأت وتنشأ نتيجة لاتحاد الشعوب المختلفة وهكذا فان الامة كشكل لتجمع الناس نشأت من متطلبات الانتاج الرأسمالى وتنشأ على اساسه وهى تنشأ لانها ضرورية من اجل تطور الانتاج الرأسمالى الضخم[1] .

تناقض الرأسمالية .

يقول الماديون : ان التشكيلة الرأسمالية القائمة على الملكية الخاصة هى تشكيلة طبقية تناقضية ، ويرافق تطور المجتمع الرأسمالى تناقضات عميقة حادة ، والتناقض الاساسى فيها هو التناقض بين البرجوازية والبرولتاريا . ويبدأ نضال العمال بشكل تلقائى نتيجة للظلم والاستغلال ، فيطالبون بتحسين ظروف معيشتهم ، وبعدها تبدأ مرحلة النضال السياسى ، وحين تكتشف الطبقة العاملة نفسها كثورة تظهر الايديولوجية العلمية للبرولتاريا والرأسمالية نتيجة للتناقض الذى تولده بين الطابع الاجتماعى لعملية الانتاج ، وشكل الملكية الخاصة ، تحتوى على الاداة التى تؤدى بها الى تدمير نفسها بنفسها .

والتناقض يحدث فى ازمات فيض الانتاج المتكررة ، وسبب الازمات ان الانتاج الرأسمالى قابل للتوسع السريع ، ولكنه يصطدم بقوة الجماهير الشرائية المنخفضة والسوق الضيقة . لذلك تكسد السلع ويتدهور الانتاج وتنمو البطالة ومن اجل تصريف المنتجات المكدسة تبحث الرأسمالية عن اسواق لتصريفها لذلك نشأ الاستعمار .

٣ان اقتصاد الامبريالية هو مصدر الحروب التى تنشب عندما لم تكن ثمة قوة اخرى بعد قادرة على ردع الدوافع العدوانية عند الامبريالية[2] .

---

(١) نفس المصدر (ص ٣٤١ - ٣٤٢) .
(٢) نفس المصدر (ص ١٧٩ - ١٨٠) .

ويقول سيفال : " غير ان الرأسمالية ، عندما تتطور قوى المجتمع المنتجة تبدو يوما فيوما ، اقل قدرة على السيطرة عليها ، واجدى برهان على ذلك هو تلك الازمات التى تأتى على نحو دورى فتزعزع النظام الرأسمالى وتدمر جزءا من القوى المنتجة ، وهكذا تصبح الرأسمالية اكثر فاكثر عائقا فى طريق تطور هذه القوى التى ولدتها هى ذاتها ، ومن هنا يتبين ان الغاء الرأسمالية بالطرق الثورية ، واستبدالها بالشيوعية[1] ، اى بمجتمع دون طبقات تكون وسائل الانتاج فيه ملكا مشتركا يصبح ضرورة تاريخية[2] .

خامسا : الشيوعية .

يقول الماديون : تؤلف الملكية الجماعية لوسائل الانتاج اساس علاقات الانتاج ، حيث لا يبقى طبقة استغلالية ، وتوزع المنتجات حسب العمل الذى يقدمه كل انسان تبعا للمبدأ القائل " من لا يشتغل لا يأكل "[3] .

ويتم تحقيق الملكية الجماعية لوسائل الانتاج بواسطة الثورة الاشتراكية وقيام دكتاتورية البروليتاريا ، ومهمة الطبقة العاملة بعد ان تستولى على السلطة وتقضى على الرأسمالية هى بناء اقتصاد اشتراكى جديد لان الثورة الاشتراكية هى ثورة اغلبية السكان ، وتؤدى ملكية وسائل الانتاج الجماعية الى القضاء على الاجور . وذلك لان فائض القيمة اصبح يعود الى المجتمع بكامله ، ويوزع بين اعضائه حسب عمل كل عضو . كما ان الملكية الجماعية لوسائل الانتاج تقضى على كل امكانية فى نشوء الازمة الاقتصادية . لان المضاربة بين المنتجين تزول ، ويزول معها استبداد الرأسمالى وبالتالى يمكن القضاء على الاستعمار واسباب الحروب .

وهدف الاشتراكية هو ايجاد الشروط المواتية لنمو قوى الانتاج ، وازالة

---

(١) خطأ لغوى والصحيح استبدال الشيوعية بها .
(٢) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ (ص ٣٦ - ٣٧) .
(٣) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٦١) .

العقبة الوحيدة التى تعترضها وهى علاقات الانتاج الرأسمالية وذلك لان الرأسمالية هى التى هيأت الاساس الموضوعى للثورة الاشتراكية، بتنميتها لقوى الانتاج الى الحد الذى ناقضت فيه الرأسمالية نفسها، وزيادة الانتاج بصورة هائلة ضرورة حتمية، لذلك لابد من انتاج وسائل انتاج بكميات كافية، وايجاد صناعة ثقيلة قوية، فترتفع انتاجية العمل بواسطة استعمال الالة فى الاعمال الشاقة، وليس على حساب ارهاق العامل . ولابد من تنمية العلم ايضا لان هدف زيادة الانتاج بالضرورة هو سد حاجات المجتمع المادية والثقافية الى اقصى حد . وحتى تقوم الشيوعية لابد لها من المرور بثلاث مراحل هى :

(١) المرحلة الانتقالية :

وهى الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، ثم الى الشيوعية، لان اعظم تحول فى التاريخ هو انتقال البشرية من الرأسمالية الى الشيوعية على حد زعمهم .

ولابد من فترة زمنية معينة حتى تتمكن الثورة من القضاء على الطبقات المستغلة، وتأكيد سيطرة العلاقات الاشتراكية فى ميادين الحياة الاجتماعية وهى ضرورية لكل بلد يختار الاشتراكية .

(٢) مرحلة الاشتراكية :

والاشتراكية كما تحددها الماركسية علميا هى : " القضاء على استغلال الانسان لاخيه الانسان، والقضاء فى نفس الوقت على طبقات المجتمع المتناحرة "[1].

والمجتمع الرأسمالى يترك للاشتراكية وضعا سيئا لا يتفق فيه انتاج وسائل الانتاج مع وسائل الاستهلاك . " ولذلك فان مبدأ الاشتراكية على كل فرد ان يؤدى حسب طاقاته وان ينال حسب عمله ، يكون خطوة كبرى الى الامام بالنسبة الى الرأسمالية المستغلة، حيث لا ينال العامل قط حسب عمله "[2].

وتوزع سلع الاستهلاك بواسطة شراء الافراد للسلع الضرورية لمعيشتهم

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية (٢ : ١١٨) .
(٢) نفس المصدر (ص ١٤٥) .

وتسد حاجات الجماهير المادية والثقافية الى الحد الاقصى بواسطة الخدمات الاجتماعية كمجانية الخدمات الطبية مثلا ،ولا بد من تقدم هائل في انتاج وسائل الانتاج ،وان يتخصص العمال في معرفة استخدامها ،وتطويرها بشكل اسمى من الدرجة التي يلغوها في مرحلة الرأسمالية التي تحرم الجماهير من الثقافة والعلم . ولكن اذا لم يصبح العمل بالنسبة للانسان حاجة طبيعية كحاجته الى التنفس والمشى ،فان احسن وسيلة لتشجيع التقدم وتخصص العمال هي : ان ينال كل فرد حسب نوع العمل الذي يؤديه ،" ولهذا تصبح وعود الرأسمالية الخلابة ،التي تريد ان تقنع العمال بانها تستطيع رفع معيشتهم اذا احسنوا نوعية عملهم حقيقة في الاشتراكية بسبب زوال الاستغلال"[1].

ولكن الفرد في الاشتراكية لا يأخذ نتيجة عمله كاملا ،وذلك لاجل الاحتفاظ بقسط منها لاجل تنمية الانتاج ،وتجديد الالات البالية . اما وسائل الاستهلاك فلابد من الاحتفاظ بقسم منها لتغطية مصاريف الادارة ،والمدارس والمستوصفات وغيرها .

وفي المجتمع الاشتراكي يعطي كل فرد حسب عمله بصورة غير متساوية بين الافراد ،بعد ان يؤمن لكل فرد اسباب معيشته ، يقول موريس توريز :

" اما فيما يتعلق بنزعة المساواة التي تقوم على قياس الناس بنفس المقياس فهي استحالة اجتماعية لان هناك تفاوتا طبيعيا بين الناس، سببه كفاءاتهم البيولوجية والنفسية . اما التفاوت الذي يسعى الشيوعيون لازالته فهو التفاوت الذي ينشأ من وجود الطبقات"[2].

ويقول اصحاب كتاب اصول الفلسفة الماركسية : " لا يوجد في المجتمع الاشتراكي اذن ،مراقبة شديدة لمقدار العمل الذي يؤديه ،ولهذا لم يعد هناك محظوظون ولا مستغلون ،بل العمل هو سيد الجميع"[3].

---

(١) نفس المصدر (ص ١٤٦) .

(٢) نقلا عن نفس المصدر (ص ١٤٧) .

(٣) نفس المصدر (ص ١٤٨) .

وفى الوقت الذى يقر فيه الشيوعيون بوجود شئ من التفاوت فى الممتلكات، فانهم ينفون وجود البطالة واستغلال القوميات واضطهادها، على حد تعبير ستالين [١].

وتوجد فى المرحلة الاشتراكية فى الاتحاد السوفياتى صورتان لملكية وسائل الانتاج الجماعية.

(١) صورة ملكية الدولة، وتمتلك الارض وباطنها والغابات والمصانع، ووسائل النقل المائية والجوية وبيوت السكن والمنشآت البلدية، وسائر المرافق الضرورية.

(٢) صورة ملكية تعاونية كولخوزية، ولها الحق فى امتلاك انتاج الكولخوز والمبانى المشتركة [٢].

وتسمح الاشتراكية بامتلاك قطعة ارض صغيرة، وبعض وسائل الزراعة البسيطة، وتسمح بوراثة الملكية الشخصية كالسيارة واغراض البيت.

يقول اصحاب اصول الفلسفة الماركسية: " لكل عائلة كولخوزية عدا دخل الاقتصاد الكولخوزى المشترك الاساسى الحق بالتمتع بقطعة ارض صغيرة تملك عليها اقتصادا خاصا بها، كبيت السكن والاغنام المنتجة، والطيور ووسائل الزراعة البسيطة، يسمح القانون اذن باقتصاديات صغيرة للفلاحين، والصناع اليدويين ويمنع استغلال عمل الاخرين. اما فيما يتعلق بوسائل الاستهلاك فللمواطنين الحق بالملكية الشخصية لماكسبوه وادخروه بعملهم. وملكية بيت سكنهم واقتصادهم العائلى المساعد، واغراض البيت للاستعمال اليومى او الاستعمال الشخصى، كالسيارة مثلا، كما لهم الحق فى وراثة الملكية الشخصية [٣].

(٣) الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية :

يقول الماديون : حتى يتحقق مبدأ " من كل حسب طاقته، ولكل حسب

---

(١) نقلا عن نفس المصدر (ص ١٤٩).

(٢) بتصرف عن المادة ٥، ٦، ٧ من دستور الاتحاد السوفياتى نقلا عن نفس المصدر (ص ١٢٠ - ١٢١).

(٣) نفس المصدر (ص ١٢١).

حاجته " يجب ان يصل المجتمع الى انتاج كمية كافية من وسائل الاستهلاك كما يجب ان تسد حاجة المجتمع الى وسائل الانتاج قبل ان تسد حاجات المجتمع من الاستهلاك الفردى .

ولاجل الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية لابد من توفر ثلاثة شروط هى :

(أ) الشرط الاول فيما يتعلق بزيادة الانتاج الجماعى ، لان قانون الاشتراكية الاساسى هو زيادة الانتاج وسد حاجات المجتمع المادية والثقافية لجميع افراده الى اقصى حد ، وزيادة نمو انتاج وسائل الانتاج .

والنضال فى هذه المرحلة يجرى ضمن حدود الطبيعة ، اذ يجب تحويل الطبيعة للتمهيد للشيوعية ، بواسطة المشاريع الضخمة التى تقيمها الدولة الاشتراكية لصالح المجتمع ، والنضال فى الاشتراكية لا يجرى ضمن حدود علاقات الانتاج ، او ضمن حدود النضال بين القديم والحديث ، انما يتجه نحو الطبيعة لاستغلالها والافادة منها فى تطوير المجتمع .

(ب) الشرط الثانى يتعلق بالاساس الاقتصادى ونظام الملكية .

يقول ستالين : " لهذا من المهم ان نرتفع بالملكية الكولخوزية الى مستوى الملكية القومية ، وذلك على مراحل تدريجية ، مع توفير الربح للكولخوز اى لجميع المجتمع ، وان نستعيض عن تداول السلع بنظام لتبادل المنتوجات على مراحل تدريجية ايضا ، حتى تستطيع السلطة المركزية ، او اى مركز اجتماعى اقتصادى آخر التصرف بجميع منتوجات الانتاج الاجتماعى لمصلحة المجتمع"[1] .

" ويمهد اذن تجميع الملكية الكولخوزية بواسطة دمج الكولخوزات - اى بدون سحب ملكيتها - لزوال الفارق الاساسى بين الصناعة والزراعة - وهو فرق يتعلق بطريقة الملكية الاجتماعية - ويبشر بميلاد المجتمع الخالى من الطبقات حيث لن يسيطر بعد الان سوى الملكية الاشتراكية للشعب باكمله ، كما ان دائرة تداول السلع - بعد ان ضاقت بالتدريج - قد حل محلها نظام لتبادل المنتوجات ، غير انه يجب - كى نصل الى هذه المرحلة - انتصار وعى جديد على الوعى القديم"[2] .

---

(١) عن نفس المصدر (ص ١٦٢) .

(٢) نفس المصدر (ص ١٦٣) .

(جـ) الشرط الثالث ويتعلق بالثقافة .

يقول الماديون : لا يمكن للشيوعية ان توجد الا اذا اصبح العمل حاجة حياتية واصبحت القواعد الاساسية للمجتمع عادات .

ولا بد من توفير الثقافة للجميع، ليعمل الانسان على نمو المجتمع ويستطيع اختيار مهنة له بحرية، حتى لا يضطر بسبب تقسيم العمل الى ممارسة مهنة واحدة طوال حياته .

واذا لم يصبح الانسان عاملا نشيطا واعيا للنمو وحرا فى اختيار عمله، فان الملكية الجماعية لن تصبح قط عادة، ولن يصبح العمل حاجة .

وللوصول الى هذه النتيجة لا بد من :

اولا : تخفيض ساعات العمل اليومى الى ٦ ساعات على الاقل، مما يسمح لكل فرد ان يكون لديه متسع من الوقت، لتلقى ثقافة شاملة .

ثانيا : جعل الثقافة البوليتكنيكية جبرية، اذ يجب على كل فرد ان يعرف بصورة علمية مبادىء فروع التقنية الصناعية التقدمية، الكبرى وافضل ما فى الحضارة الشاملة .

ثالثا : تحسين ظروف السكن .

رابعا : مضاعفة اجر العمال الحقيقى وربما زيادة فوق ذلك، وتخفيض سعر السلع الكثيرة للاستهلاك مما يمهد للرخاء الشيوعى[1] .

---

(١) انظر نفس المصدر (ص ١٦٠ - ١٦٤) .

الفصل الخامس

التفسير المادى للتاريخ والديـــن

تمهيـــد :

اهتم الماديون اهتماما كبيرا بالقضاء على الدين ونشر الالحاد مكانـــه ولم يقتصر هجومهم على دين دون دين ، بل حاربوا جميع الاديان الارضيـــة والسماوية باستثناء اليهودية التي دعمت سرا ، لان الاديان عندهم مـــن مخلفات القديم يجب القضاء عليها ، لذلك استخدموا شتى وسائل التأثير الفكرى وشتى وسائل الضغوط المادية والمعنوية لتحقيق هذا الهدف .

" ان الدين لا يتولد من القاعدة فى الظروف الاشتراكية ، وانما يوجد كجزء من مخلفات القديم ، كبقية من البنيان الفوقى للتشكيلات السابقة سوف يتم القضاء عليها فى عملية بناء الشيوعية / ويتضمن البرنامج الجديد للحزب الشيوعى فـــى الاتحاد السوفييتى تأكيدا على ضرورة استخدام مختلف وسائل التأثير الفكـــرى للقضاء على الخرافات الدينية ، ومن اجل نشر تربية علمية"(١).

نشأة الدين عند الماديين .

يعتبر انجلز ان الدين تخيل وهمى للقوى الخارجية فى الطبيعة ، يجعل الانسان يعبدها ويقدسها .

يقول انجلز : " ومهما يكن من شيء فليس الدين الا الانعكاس الوهمـــى فى اذهان البشر لتلك القوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية ، وهـــو انعكاس تتخذ فيه القوى الارضية شكل قوى فوق طبيعية"(٢).

والدين عندهم نشأ من الجهل والعجز ، والجهل عدو للعلم ، والرجـــل المتدين يحارب العلم لانه حريص على الاوهام والخرافات ، والانسان عاجز امـــام قوى الطبيعة وامام الظواهر الاجتماعية المتعلقة بالاضطهاد الطبقى وضعـــف الوعى الاجتماعى . لذلك يضع تفسيرات روحية وفلسفية تعبر عن هذا العجـــز

---

(١) المادية التاريخية (ص ٨٠) .
(٢) آنتى دوهرنغ (ص ٣٨١) .

:

تأخذ صورة معتقدات دينية . يقول اصحاب اصول الفلسفة الماركسية : " ان الصور البدائية للديانة وكذلك المراسيم السحرية والتفسير المثالي البدائي للظواهر الاجتماعية ، وكذلك اسمى صور الديانة التي تقوم على نظريات فلسفية واخلاقية ومراسيم سحرية " روحانية " كالصلاة والاضحيات التصوفية تعبر جميعا عن معطى معين حقيقي عن الفعل الانساني الا وهو عجزه النسبي الكبير في مطلع الانسانية وهو عجز امام الطبيعة ذلك العجز الذي يتعلق بنمو الانتاج الضعيف ، وهو عجز ايضا امام الظواهر الاجتماعية الذي يتعلق بالاضطهاد الطبقي وفقدان الامل وضعف الوعي الاجتماعي .

" يجب مع ذلك ان نقدر اهمية عامل آخر في دراستنا للدين ، ذلك لان الديانة لما كانت تتولد من الجهل فانها تحل محل التفسيرات العلمية تفسيرات خيالية فتعمل بذلك على ستر الوقائع واسدال الستار على التفسير الموضوعي للظواهر . ولهذا كان الرجل المتدين مناوئا لمبادىء العلم التي هي عمل الشيطان لانه حريص على اوهامه "(١) .

ولكي يبرهنوا على صحة ما ذهبوا اليه من ان التفسيرات الدينية تحل محل التفسيرات العلمية تفسيرات خيالية ، مثلوا بطريقة تجنب الصاعقة عند المتدينين ، وعند الماديين ، وقالوا ان المتدين يتجنب الصاعقة بواسطة ايقاد الشموع وترتيل الصلوات ، والمادي يستخدم وسائل العلم الحديثة ، ونتيجة لاستخدام المعارف البشرية الحديثة في الناحية العلمية واستغلالها يفقد الاثر الديني خاصيته في جذب الناس وتقل التراتيل وايقاد الشموع في مواجهة الصاعقة .

" يمكن تجنب الصاعقة بواسطة طريقتين : اما باستخدام القضيب المضاد لها ، او باستعمال شمعة والتوسل الى السماء " .

وتعتمد الطريقة الاولى على الفكرة القائلة بان الصاعقة ظاهرة مادية لها اسبابها المادية المعينة ، ويمكن تفادي نتائجها بواسطة الوسائل التي تمدنا بها المعرفة العلمية وآلاتها . واما الطريقة الثانية فهي تعتمد على الفكرة

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية (١ : ٢٠٦ - ٢٠٧) .

القائلة بان الصاعقة هي قبل كل شيء مظهر من مظاهر غضب الله وقوته ، ولها اسبابها الخارقة ، ولهذا يمكن تفاديها بوسائل سحرية خاصة كالشمعة او الصلاة عن طريق تأثير الروح الانساني في الروح الالهي ، وهكذا تؤدي طريقة تصور اسباب الظواهر الى طريقة تصور الوسائل العلمية المختلفة ، وهي وسائل مادية في الحالة الاولى ، روحية في الحالة الثانية ، وكذلك تصور النتائج العلمية المختلفة . " ولهذا التعارض النظري نتائج اخرى عملية ، اذ ليس من الصعب ان ندرك انه كلما انتشر استعمال القضيب المضاد للصاعقة ، كلما قل اشعال الشموع وترتيل الصلوات ، ولهذا كانت الكنيسة التي رأت زوال نفوذها غير راضية عن تقدم العلوم ، وزوال سرعة التصديق الساذج " .[1]

والدين عند الماديين من صنع الانسان ، وضعه بعض الناس من عند انفسهم لاستغلال الناس استغلالا بشعا ، فحين احس الناس بالاستغلال وبدأوا يثورون ضد الاوضاع القائمة ، ماكان من الطبقة المستغلة الا ان اخترعت لهم الدين الذي اغرتهم بتعاليمه ووعدتهم بالجنة التي لا شقاء فيها ان هم صبروا على البلاء والالم . فما هذه الحياة الدنيا الا دار اختبار وابتلاء ، ونتيجة لايمانهم بهذا النعيم الموعود ، فانهم يزدرون الدنيا ويصبرون على الضيم والاذى طمعا بما عند الله .

فالدين استغل في تخدير الشعوب وتمكن مستغلوه من قيادة الشعوب وامتصاص خيراتها .

" وتستخدم الطبقات المستغلة هذه الخاصية لاهتمامها باخفاء استغلالها عن اعين الطبقات الكادحة . فهي بحاجة الى سلبية هذه الطبقات وجمودها كي يستمر اضطهادها ، كما انها بحاجة لخضوعها وايمانها بالقضاء المحتوم هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية - يجب توجيه امل الجماهير بالسعادة نحو العالم الاخر ، وهكذا يعرض الامل والعزاء بدخول الجنة على انهما تعويض عما

---

(١) نفس المصدر (ص ١٧٩ - ١٨٠) .

بذلته الطبقات الشعبية من تضحيات على الارض[١].

ويقول ماركس : " الانسان يصنع الدين ، وليس الدين يصنع الانسان . . . . ان البؤس الديني لهو التعبير عن البؤس الواقعي ، والاحتجاج على هذا البؤس الواقعي في وقت ما ، الدين زفرة الكائن المثقل بالالم ، وروح عالم لم يبق فيه روح ، وفكر عالم لم يبق فيه فكر . . انه افيون الشعوب[٢].

والدين شكل من اشكال الوعي الاجتماعي ، يشوه نظرة الانسان الى العالم - كما يزعمون - ويشوه مشاعر الانسان تجاه الواقع ، ويوجهه الى القيام باعمال مشوهة .

يقول اصحاب كتاب النظرية الماركسية اللينينية : " الدين هو شكل من اشكال الوعي الاجتماعي ، الا ان النظرية الماركسية لا تقف عند هذا الحد فهي تقول بخاصية الانعكاس الديني للعالم .

" فالدين لا يكتفي بتشويه نظرة الانسان العامة الى العالم ، بل يشوه كذلك مشاعر الانسان وموقفه العاطفي من الواقع .

" ان مايلازم الدين كشكل من اشكال الوعي من نظرة مشوهة الى العالم واحساس مشوه به ، يوجه الانسان للقيام باعمال على نفس القدر من التشويه . .

" وهكذا يبدو لنا الدين ظاهرة اجتماعية في منتهى التعقيد ، ظاهرة نرى فيها مستويات معينة تخص الوعي البشري ، ومستويات اخرى تخص النشاط البشري ، وهذه المستويات وتلك هي حصيلة الانعكاس الخيالي المشوه للواقع وفهمه بصورة مشوهة ايضا[٣].

وبناء على نظريتهم الجدلية حول اسبقية المادة في الوجود على الفكر وان الفكر انعكاس للمادة الراقية ، هذه المادة التي هي منبع الاحاسيس والمشاعر

---

(١) نفس المصدر (ص ٢٠٨) .

(٢) كارل ماركس (ص ١٦ - ١٧) .

(٣) النظرية الماركسية اللينينية (ص ٤٤٦ - ٤٤٨) .

ومن بين هذه المشاعر الدين ، فالدين على هذا الرأى انعكاس الواقع المادى لان وجود الناس هو الذى يحدد مشاعرهم .

يقول انجلز : " من الازمنة الموغلة فى القدم - اذ وصل الفكر بالناس - وهم بعد فى جهل تام ، ببنياتهم الجسدية الخاصة ، وتحت تأثير احلامهم - الى القول بان افكارهم واحاسيسهم ليست من فعل اجسادهم ذاتها ، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة الموت ، منذ ذلك الحين اضطروا لان يصطنعوا لانفسهم افكارا عن علاقات هذه الروح مع العالم الخارجى .

" وعلى هذا النحو تماما - عن طريق تشخيص القوى الطبيعية - ولدت الالهة الاولى التى اتخذت خلال التطور اللاحق شكلا غير ارضى اكثر فأكثر الى ان حدث اخيرا عملية تجريد . . تنشأ على نحو طبيعى خلال التطور العقلى ان تولدت فى عقل الناس من الالهة المتعددين ذوى السلطة الضعيفة والمقيدة بعضهم حيال بعض فكرة الاله الواحد المنفرد فى الديانات التوحيدية "[١] .

ونجد ان انجلز يستنتج ان مطالب الجسد هى منشأ الاعتقادات الفكرية وان الدين ماهو الا الانعكاس الخيالى للاشياء البشرية فى دماغ الانسان "[٢] .

ومادام ان الوضع الاقتصادى هو الذى يفسر ويحدد مطالب الجسد فالنتيجة ان الدين ناشىء عن الوضع الاقتصادى .

الدين فى عهد الشيوعية البدائية .

يقول الماديون : كان الانسان البدائى يعيش فى جو من الخرافات نتيجة للرعب والجهل ، فلم يكن تطور قوى الانتاج قويا بحيث يساعد الانسان على اكتشاف الاسباب الحقيقية للظواهر الاجتماعية ، لذلك نشأت لدى الانسان تصورات خاطئة عن الطبيعة ، وعن تكوين الانسان نفسه وعن الارواح ، هذه التصورات الخاطئة نابعة من الاساس الاقتصادى السلبى فى ذلك الوقت .

---

(١) نصوص مختارة (ص ٦١) ، وانظر انتى دوهرنغ (ص ٣٨٢) .
(٢) انظر نصوص مختارة (ص ١٣٣) .

يقول انجلز : " ان الدين يولد من نظريات الانسان المحدودة ، وهذه النظريات محدودة بعجز الناس البدائيين المطلق تقريبا امام الطبيعة المعادية التى كانوا لا يفهمونها ، وهى محدودة من ناحية ثانية بتعلقهم الاعمى بالمجتمع الذى لا يفهمونه ، والذى كان يبدو لهم انه تعبير عن ارادة سامية ، وهكذا كانت الالهة ، وهى الكائنات المهمة الجبارة المسيطرة على الطبيعة والمجتمع انعكاسا ذاتيا لعجز الناس الموضوعى امام الطبيعة والمجتمع ، وكان على تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية ان يظهر طابع المعتقدات الوهمى ، الاعتقاد بوجود آلهة متعددة ، ثم الاعتقاد بوجود اله واحد "[1].

وافهم من كلامهم ان التدين بدأ بالاعتقاد بوجود آلهة متعددة وعبادتهم ثم تدرجت العبادة حتى وصلت الى عبادة الله الواحد .

ويقول انجلز فى موضع آخر : " اما المجالات الايديولوجية التى تحوم اعلى فى الفضاء كالدين والفلسفة . . الخ فانها مؤلفة من بقية - تعود الى ماقبل التاريخ ، وقد وجدها العهد التاريخى امامه فالتقطها - لما قد نسميه اليوم غباء ، ان هذه التصورات المختلفة الخاطئة عن الطبيعة ، وعن تكوين الانسان ذاته وعن الارواح ، وعن القوى السحرية ، ليس لها فى الغالب غير اساس اقتصادى سلبى فالتطور الاقتصادى الضعيف لعهد ماقبل التاريخ تكون فيه كتكملة ، ولكن كذلك على نحو جزئى كشرط او حتى كسبب ، تصورات خاطئة عن الطبيعة "[2].

الدين فى عهدى الرق والاقطاع .

يقول الماديون : نتيجة لظهور الملكية الخاصة ، وانقسام المجتمع الى طبقات اصبح الانسان يستغل اخاه الانسان ، ومادام الاستغلال موجودا فان الظروف الموضوعية التى تحمل على الاعتقاد بوجود كائن علوى يوزع السعادة والشقاء بين الناس ، تستمر فى اداء دورها فى تبرير هذا الاستغلال ، لذلك

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية (١ : ٢٩٦ - ٢٩٧) .
(٢) نصوص مختارة (ص ١٨٧ - ١٨٨) .

لابد من افكار دينية تخدر الطبقات المظلومة، وتعدها بالنعيم الاخروى ان هى صبرت على الاضطهاد والاستغلال، وفعلا حملت الكنيسة راية هذه المهمة ونشرتها بين الناس كعقيدة دينية، من ايام بولس الاولى .

" لم تحرم الكنيسة الكاثوليكية الرق، ولذلك وجد رقيق فى اوربا فى القرن الوسيط . . " ولقد علمت الكنيسة الارقاء ان يطيعوا سيدهم، واضطرت الاسياد المحاربين حقا، الى احترام " هدنة الله " وهددتهم بالنار الابدية ولكنها بهذا الاجراء قد انقذت قبل كل شئ المزروعات الضرورية لحياة المجتمع، كما حفظت الانتاج وامنت تفشى المجاعة واندلاع نار الثورة . وهكذا تحمى فى النهاية الاقطاعية ضد تصرفات الاقطاعيين المغالية[1] .

وفى عهد الاقطاع كان للكنيسة مكانة هائلة من الناحيتين الروحية والمادية، ففى الناحية الروحية كانت هى المسيطرة على العقيدة، والفلسفة والاداب والفنون - وفى الناحية المادية كانت تملك جانبا كبيرا من الارض، وكانت فى ذلك الوقت تعتبر اكبر اقطاعية موجودة . لذلك كانت الكنيسة تحارب الهرطقات الدينية حين شعرت بالخطر على وجودها الاجتماعى وعلى ممتلكاتها الاقطاعية، وذلك للخطر الاجتماعى الكامن خلف كل هرطقة دينية .

يقول موريس كورنفورث : " وفى اوج الاقطاع فى اوربا الغربية كانت للكنيسة الكاثوليكية مكانة هائلة، وسادت العقيدة الكاثوليكية الفلسفة والادب والفنون ولقيت هذه العقيدة مساندة السلطة الزمنية - مساندة الحكام الاقطاعيين ودولهم والقوانين، ولا يمكن تفسير الحماس القاسى الذى كانت الكنيسة تلاحق به الهراطقة وتلقى فيه مساندة الحكام بمجرد الهوس الدينى، فلماذا وجد مثل هذا الهوس ؟ لقد استقرت العقيدة الكاثوليكية كجزء اساسى من النظام الاجتماعى، واحست الكنيسة عن حق - كمالك كبير للارض الى جانب كبار ملاك الارض الاخرين، بخطر التمزق الاجتماعى الكامن خلف كل هرطقة[2] .

---

(١) اصول الفلسفة الماركسية (٢ : ١٠٦ - ١٠٧) .

(٢) مدخل الى المادية التاريخية (ص ١١٧ - ١١٨) .

وعلى هذا الاساس فانهم يعتبرون كل الحروب الدينية ، والهرطقات التي ثارت على الكنيسة نابعة من الاساس الاقتصادى ، وعلى هذا الاساس ايضا ينطلقون فى تفسير الفتوحات الاسلامية ويقولون ان وراءها دوافع اقتصادية وانها ردة بدوية ضد فلاحى المدن المتحضرين .

يقول انجلز : " ان مايسمى بالحروب الدينية .. كانت تتضمن مصالح طبقية مادية ايجابية ، فقد كانت هذه الحروب حروبا طبقية تماما .. ورغم ان الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية ، ورغم ان مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف ستار دينى ، فلم يبدل هذا شيئا من الامر ، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الايام " [1] .

ويقول انجلز عن الاسلام : " فى عصر محمد كان الطريق التجارى بين اوربا وآسيا قد تبدل تبدلا كبيرا ، وكانت مدن جزيرة العرب التى شغلت قبل ذلك قسطا كبيرا من التجارة مع الهند وغيرها كانت فى حالة من الانحطاط التجارى الامر الذى اعطى دفعا كبيرا ، ولكن انجلز يتشكك فى هذا الحكم ويتراجع قائلا :

" وسأدرس فى الايام القليلة القادمة تاريخ محمد نفسه ، الا انه يبدو لى ان الامر يحمل طابع ردة بدوية ، ضد فلاحى المدن المتحضرين " [2] .

الدين فى عهد البرجوازية الرأسمالية .

كان الدين فى عهد الاقطاع هو المسيطر على قلوب الناس ومشاعرهم ولكن الدين الصحيح المنزل من عند الله لم يحكم حياتهم ، وقد مارست الكنيسة شتى وسائل الضغوط المادية والمعنوية على الناس باسم الدين ، فكره الناس فى اوربا والكنيسة ، وقاوموا سلطانها ، وانتهى الصراع بين الناس والكنيسة الى

---

(١) حرب الفلاحين فى المانيا وانظر المادية التاريخية (ص ١٦٩-١٧٠) .
(٢) حول الدين مقتطفات من مراسلات ماركس وانجلز (ص ٩٥ ، ٩٧) .

الثورة العارمة على الدين نفسه ، واقصى الدين من واقع الحياة الاوربية .

ولكن هذا التخلى عن الدين لم يكن دفعة واحدة ، وانما تم على مراحل .

بدأ بعصر النهضة التى قامت على اسس غير دينية تستمد ثقافتها وفكرها من الحضارة اليونانية والرومانية الوثنية .

فقد قامت فى بداية الامر بعد عصر النهضة ، والثورة على الاقطاع والكنيسة دعوة فى اوربا الى عبادة الطبيعة ، التى استغلها العلماء والمفكرون فى الهروب من اله الكنيسة الذى يستعبد الناس باسمه وتفرض عليهم الاتاوات والعشور والخدمة المجانية فى ارضها . هذه الطبيعة التى صارت الها جديدا لا كنيسة له ولا فرائض ولا التزامات ولا ذل ولا ضرائب . كانت الها يستجيب لرغبة الفطرة فى التوجه الى الله ، واستجابة لرغبة كثير من الناس فى اوربا فى التخلص من سلطان الدين الذى مارسته الكنيسة بحماقة وبشاعة وفظاظة وفى الوقت الذى كانت الطبيعة تعبد فيه على هذا النحو ، كان الله مايزال موجودا فى ضمائر الاوربيين ، يتوجهون له بالوجدان ويعبدونه داخل الكنيسة وله اثر على بعض اخلاقهم وتقاليدهم ، وتدرجت اوربا فى الحادها ، وحل الانسان محل الله فى قلوب الاوربيين انهار الاقطاع ، وجاء عصر الالة الصناعية فقد كان اهل الريف يتطلعون بعواطفهم ووجداناتهم الى الله فى انبات الحب والزرع ، وحفظ الارض من الصقيع والافات ، واصبح اهل المدن الصناعية لا يرتبطون بالله ذلك الارتباط ، لان الانسان هو الذى يقوم بعملية الانتاج فى المدينة ، وليس الله ، الانسان هو الذى عرف خواص المادة حين تعلم ، واخترع الالة التى تنتج ، والانسان هو الذى يدير الالة ويوقفها متى شاء ، وهو الذى يضع فى الالة المادة الخام فتخرج مصنعة ، لذلك يجب ان يعبد الانسان الصانع ، وصار كثير من الناس فى اوربا يعتبرون عبادة الله ، وعبادة قوة غيبية لا تدركها الحواس والاخذ من هذه القوة الغيبية التى لم يروها – ولن يروها – اخلاقهم وافكارهم وعقيدتهم ومشاعرهم – عيبا يقلل من شأنهم فى المجتمع المتحضر . هذه الصورة التى كانت تعيشها اوربا فى بداية ظهور الرأسمالية .

اضف الى ذلك تأثير القوى الهدامة على زلزلة العقيدة وتحطيم الاخلاق وباحتكار الصناعة عن طريق القروض الربوية[(١)] .

يقول جورج سول : " فاذا كانت المصادر القديمة قد اخطأت فى نظراتها الى العالم الطبيعى اما كانت كذلك مخطئة فى نظراتها الى السلوك البشرى ؟ اصبح كل شئ موضع التساؤل والشك وعلى ذلك سمى العلم فلسفة ، ولم يعد هناك تمييز بين الميادين التى عنى كل منهما بفحصه ، واخذ الكتاب والمتفلسفون يعيدون البحث فى النظم البشرية تماما كما كانوا يفعلون بالنسبة الى الاشياء غير البشرية . وهم فى تصرفهم هذا كانوا يسلمون بان الانسان جزء من الطبيعة وليس كائنا منفصلا عن بقية المخلوقات اوجدته العناية الالهية وتولت رعايته .

" واصبح البحث ينصب على تفسير النتائج والاسباب بالنسبة الى السلوك البشرى سواء اكان مرغوبا فيها ام غير مرغوب من طريق قوانين الطبيعة بدلا من البحث عنها فى ارادة الله ، كما قالت الكتب المقدسة او المذاهب الكنسية ، ومعنى هذا - بتعبير آخر - ان علينا ان نسترشد فى اعمالنا وتصرفاتنا بالعقل دون سلطة القدامى .

" وصار لزاما على الذين نبذوا الايمان بالله كلية ، ان يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه فى الطبيعة ، اما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان - وان لم يكن فى الواقع كما هو اغلبهم - فقد اعتقدوا ان الله يعبر عن ارادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة ، وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شئ له وجود فحسب وانما هو شئ ينبغى ان يطاع وصارت مخالفتها دليلا على نقص فى التقوى والاخلاق"[(٢)] .

وفى ظل النظام البرجوازى الجديد ، برزت افكار دينية وفلسفية جديدة تنتقد الافكار الدينية الاقطاعية وتدحضها ، وتركز على ضمير الفرد وعلاقته المباشرة بالله ، وبدأت السلطة البرجوازية الجديدة تسخر الدين لخدمة

---

(١) انظر جاهلية القرن العشرين (ص ٥٦) .
(٢) المذاهب الاقتصادية الكبرى (ص ٤٩ - ٥١) .

مصالحها فى استغلال الجماهير الكادحة .

يقول انجلز : " فقد ازاحت فئة رجال القانون التى نشأت حديثا رجـال الدين من عدد من المراكز المؤثرة التى كانوا يشغلونها وبدأ رجال الديـن يفقدون اهميتهم واعترفوا هم انفسهم بهذا الوضع بتزايد خمولهم وجهالتهم "[1] .

ويقول فى موضع آخر : " وفيما عدا ذلك وقفت معارضة التجار واصحـاب الحرف بحماس ضد رجال الكنيسة الذين كانت ابهتهم الفارغة واخلاقياتهـم المهلهلة تثير الازدراء المثير ، وكانت تطالب باتخاذ اجراءات لوقف هذه الحيـاة الفاضحة لهؤلاء السادة . والغاء المحاكم الخاصة برجال الكنيسة وعدم اعفائهـم من الضرائب ، كما كانت تطالب خاصة بتخفيض عدد الرهبان "[2] .

وازاء هذه النقمة العارمة على الكنيسة بدأت تتملق السلطة البرجوازيـة الجديدة وتدافع عن تصرفاتها ، فقد كانت الكنيسة بالامس تدعو الى وجود اسياد وارقاء فى المجتمع ، واصبحت اليوم تنادى بضرورة وجود رأسماليين وعمال فيـه ايضـا .

" يضاف الى ذلك ان الكنيسة حاولت بواسطة النشرات التى اصدرتهـا فى نهاية القرن التاسع عشر ، ان تحمى الرأسمالية من مغالات الرأسماليين .

" كانت فى الماضى تدعو الى ضرورة وجود الاسياد والارقاء فى المجتمـع فاصبحت اليوم تنادى بضرورة وجود الرأسماليين والبرولتاريا "[3] .

ويقول كورنفورث : " ومع ظهور البرجوازية برزت افكار دينية وفلسفيـة جديدة ، ففى مجال الدين بدأ التأكيد على ضمير الفرد وعلاقة الفرد المباشـرة بالله ، ودعا الفلاسفة الى سيادة العلم والعقل ، ومن هذه الزاوية اخضعـوا الافكار الاقطاعية القديمة للنقد المدمر ، ودرسوا من جديد اسس المعرفـة وحاولوا ان يبينوا كيف يمكن توسيع المعرفة ، ووضع الانسانية فى طريق التقـدم

---

(١) حرب الفلاحين فى المانيا (ص ٣٤) .
(٢) نفس المصدر (ص ٣٩) .
(٣) اصول الفلسفة الماركسية (٢ : ١٠٧) .

وكانوا فى ذلك يخدمون البرجوازية الجديدة فى التخلص من الاقطاع ودعم الرأسمالية[1] .

وحين شعرت البرجوازية التى نبذت الدين بالخطر يجتاحها ، عادت فاحتضنت الدين من جديد لخدمة مصالحها .

" ولهذا رأينا البرجوازية حينما شعرت بالتهديد ، اعادت الدين عن قصد وتبنته ، بعد ان سخرته لخدمة حاجاتها ، فقوته ودعمته وجعلته جزءاً لا يتجزأ من البناء الفوقى الرأسمالى ، ثم اعلنت ان التعليم الدينى والتعليم العلمانى يتمم كل منهما الاخر"[2] .

هذا ويجب ان لا يغيب عن بالنا ان الكنيسة بعد الثورة الفرنسية العلمانية اصبحت تابعة للدولة ، والكهنة والقساوسة يتم تعيينهم عن طريقها وكانت املاك الكنيسة خاضعة للضرائب وتشرف عليها الحكومة كذلك ، بعد ان كانت الكنيسة قوة كبيرة تتبعها الدول وتخشى سلطانها المادى والروحى حيث كانت تملك جيشا كبيرا ومالا وفيرا ، اضف الى ذلك السلطان الروحى الذى كانت تستذل الناس وتستعبدهم بأسمه .

الدين فى عهد الشيوعية .

يعتبر الشيوعيون الدين من المخلفات القديمة التى نشأت من الوهم والخيال ، والتى انعكست عن الوضع الاقتصادى ، او وضعتها الطبقة الاستغلالية لتخدير الجماهير الكادحة عن المطالبة بحقوقها ، هذه الجماهير الكادحة المخدرة التى ارهقها الفقر ، وفقدت كل امل لها بالمستقبل استسلمت للارادة الالهية ، وهيمنت عليها الافكار الرجعية التقليدية ، فما عادت تثأر لكرامتها ولا تقاوم مستغليها ، بل صبرت على الاذى والاستغلال احتسابا لله تعالى وطمعا بما عنده من جنة ونعيم كما وعدتهم الديانات ورجال الكنيسة ، الذين

---

(١) مدخل الى المادية التاريخية (ص ١١٨) .
(٢) اصول الفلسفة الماركسية (٢ : ١٠٧ - ١٠٨) .

كان لهم نصيب هائل من الاراضى الاقطاعية .

والثورة الشيوعية التى قامت على اسس علمية - كما يزعمون - سيطرت على قوى الانتاج فى الطبيعة ، واوجدت الظروف التى تنمحى فيها الافكار الدينية من وعى الناس ، وابطلت مفهوم " الناس فى التفكير والله فى التدبير " ، واصبح مكانه " الناس فى التفكير والتدبير ايضا " فلاعجب اذا ماقطعت الثورة الشيوعية كلا علاقة لها بالمعتقدات الدينية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالملكية التقليدية لهذا فان الشيوعية تتبنى رسميا محاربة الاديان ، وتدرس المادية والالحاد فى مدارسها على انها عقيدة علمية ، كما يدرس المؤمنون دينهم ، وتستعمل شتى الوسائل للدعاية والاعلان لتنفير الناس من الدين واستئصال جذوره من المجتمع ، والانسان الشريف المناضل عندهم هو الذى يسهم فى هدم الدين وبث الوعى الالحادى مكانه ، فى صفوف العمال .

يقول انجلز : " وانه لصحيح بعد اننا نحن فى التفكير والله فى التدبير (والله يعنى السيطرة الغريبة لا سلوب الانتاج الرأسمالى)[١] .

" وبالتالى حين لا يعود الانسان فى التفكير فحسب ، بل فى التدبير ايضا . عندئذ فقط تتلاشى القوة الاخيرة التى لا تبرح منعكسة فى الدين ويتلاشى معها ايضا الانعكاس الدينى نفسه ، وذلك لهذا السبب البسيط ، الا وهو انه لم يبق وقتذاك شىء ينعكس "[٢] .

ويقول اصحاب اصول الفلسفة الماركسية : " ولهذا كان الفلاح فى روسيا القديمة وقد ارهقه الفقر وفقد كل امل بالمستقبل يستسلم للارادة الالهية ولقد جاءت الثورة الاشتراكية فوضعت فى يد المجتمع السيطرة على قوى الانتاج ومكنته فى نفس الوقت من ادارة المجتمع بصورة علمية ، كما زادت فى سيطرته على الطبيعة . فوجدت عندئذ الظروف الموضوعية لتتمحى من وعى الناس الافكار

---

(١) اى فى الفترة التى كان يعيش فيها انجلز وهى سابقة على الثورة الشيوعية .

(٢) آنتى دوهرنغ (ص ٣٨٣) .

الدينية التى ولدتها ظروف موضوعية اخرى"[1].

ويقول ماركس : " ان الثورة الشيوعية تقطع من الاساس كل رابطة مع علاقات الملكية التقليدية ، فلا عجب اذن ان هى قطعت بحزم ايضا ، اثناء تطورها ، كل رابطة مع الافكار والاراء التقليدية"[2].

وتتميز النظرية الشيوعية الى الدين عن غيرها بالمفهوم الذى اتخذته لنفسها عن الالحاد ، فهى تصور ان لها الحادها الخاص بها وهو فى نظرها الحاد ايجابى . يقول روجيه غارودى : " اما الالحاد الماركسى " فهو فى جوهره انسى منطلقة ليس رفضا بل هو تأكيد ، تأكيد استقلال الانسان ، اما نتيجته فهى رفض كل محاولة لحرمان الانسان من قدرته المبدعة والمبدعة لذاتها"[3].

ويمضى قائلا : " ان مايميز الالحاد الماركسى هو انه على خلاف سابقيه لم يكتف باعتبار الدين خديعة فحسب ، اصطنعها المستبدون او مجرد وهم ولده الجهل ، بل ان ماركس وانجلز قد بحثا عن الحاجات الانسانية التى تلبيها الاديان بهذه الصورة المخادعة ، فوصلا - كما يقول ماركس - الى ان الاديان هى فى وقت واحد : انعكاس لشقاء فعلى ، واحتجاج على هذا الشقاء .

" اما الدين بوصفه انعكاسا لشقاء الانسان وضعفه ، فهو يبدو كعقيدة تفسير للنظام القائم وتبرير له معا . وهو اذ ذاك ، وبصورة دائمة تقريبا يستخدم كسلاح للسلطان يسمح بتعليم الجماهير ان النظام القائم نظام اراده الله وان الخير اذن هو ان يستسلم المرء وينقاد اليه فى طواعية واختيار .

فناموس الخطيئة الاصلية ، مثلا استخدم لمثل هذه الغايات . يقول القديس اوغسطين (فى ملكوت الله) : " ان الله قد ادخل الرق فى العالم

---

(1) اصول الفلسفة الماركسية (١ : ٢٩٧) .

(٢) البيان الشيوعى (ص ٦٥) .

(٣) ماركسية القرن العشرين (ص ١٤٤ - ١٤٥) .

كعقاب على الخطيئة، وسيكون تمردا على ارادته أن يحاول الغاء هذا الـــرق" .
ولقد كانت الكنيسة دائما تبارك وتنسب الى الله كل صور التحكم الطبقي ، مـــن
رق وقنانة واجارة"[1] .

---

(١) نفس امصدر (ص ١٤٥ -١٤٦) .

الفصل السادس

التفسير المادي للتاريخ والاخلاق

تمهيـــد :

يقول الماديون : الاخلاق اقدم شكل للوعى الاجتماعى ، ولم يعثر علـــى شعب واحد تنعدم لديه ابسط مبادىء الاخلاق . والاخلاق متغيرة علـــى الدوام ، وتحمل طابعا طبقيا فى المجتمع الطبقى ، لان اخلاق الطبقة المسيطـــرة هى السائدة فى المجتمع ، فالاخلاق اما ان تبرر سيطرة الطبقة الحاكمـــة ومصالحها ، واما ان تعبر عن تذمر الطبقة المضطهدة حين تصبح قوية بدرجـــة كافيـــة .

يقول انجلز : " ومادام المجتمع قد تطور حتى الوقت الحاضـــر ضمـــن التضادات الطبقية ، فان الاخلاق قد كانت على الدوام اخلاقا طبقية ، فهـــى اما ان تبرر سلطة الطبقة الحاكمة ومصالحها ، واما ان تمثل ، حالما تحوز الطبقـــة المضطهدة مايكفى من القوة ، التمرد على تلك العقيدة ومصالح المضطهديـــن المقبلة فى الوقت نفسه "(١) .

يقول الماديون : وهذه الاخلاق ليست مفروضة على المجتمع من الخـــارج وليس لها مبادئها الدائمة ، فهى نتاج للوضع الاقتصادى السائد .

يقول انجلز : " وهكذا فاننا نرفض كل محاولة لالزامنا باية عقيدة اخلاقيـــة مهما كانت على اعتبارها شريعة اخلاقية ابدية ، نهائية ، وثابتة ابدا ، بحجـــة ان للعالم الاخلاقى ايضا مبادئه الدائمة التى تنهض فوق التاريخ وفوق الفـــوارق بين الامم . " اننا ننادى على النقيض من ذلك بان سائر النظريات الاخلاقيـــة قد كانت حتى هذا التاريخ ، فى آخر تحليل ، نتاجا لاوضاع المجتمع الاقتصاديـــة السائدة فى زمنها "(٢) .

---

(١) آنتى دوهرنغ (ص ١١٥) .

(٢) نفس المصدر (ص ١١٤ - ١١٥) .

الاخلاق فى عهد المشاعية البدائية .

يقول الماديون : فى المجتمع الشيوعى الاول ولدت عادات وتقاليد واخلاق جماعية ، نتيجة لعلاقات الانتاج الجماعية السائدة ، ولان الانسان كان لا يستطيع ان يعيش ويكافح منفردا ، ولانه كان يستمد قوته من الجماعة ، لذلك كانت الضرورة القاسية هى التى ترغمه على مراعاة قواعد الحياة التى كانت تظهر تحت شكل مطالب اخلاقية . ونتيجة لتطور قوى الانتاج وظهور الملكية الشخصية تغيرت آراء الناس ، واصبحت الملكية الشخصية امرا مستساغا بعد ان كانت سابقا تعتبر غير اخلاقية وغير طبيعية ، وتتعارض مع المصلحة العامة . يقول اصحاب كتاب النظرية الماركسية اللينينية : " لقد ولدت علاقات الانتاج الجماعية فى النظام المشاعى البدائى عادات وتقاليد جماعية ، واخلاقا جماعية لدى الناس البدائيين ، وعندما واجه الناس فى مجرى تطور القوى المنتجة علاقات اصبح فيها التمتع الشخصى ببعض الاشياء اكثر سهولة لعملية الانتاج تغيرت آراء الناس ايضا . واصبحت الملكية الشخصية لبعض الاشياء ، وهى الملكية التى كانت تعتبر فى المراحل السابقة لا اخلاقية او غير طبيعية وغير معتادة ، على اقل تقدير ، امرا لا ضير فيه ولا يتعارض مع المصلحة العامة " (١) .

الاخلاق فى عهد الرق .

يقول الماديون : حين انهار نظام المشاعية البدائية ، وظهرت الطبقات الى حيز الوجود ، اصبحت الاخلاق تحمل طابعا طبقيا ، وكان مجتمع عهد الرق اول شكل للاخلاق الطبقية ، وكانت اخلاق الاسياد هى السائدة ، لانها قامت على اساس العلاقات الاقتصادية للنظام الرقى . وكانت تعكس العلاقات القائمة بين الارقاء ومالكيهم . حيث ان الارقاء كانوا يعاملون معاملة وحشية سيئة وكانت الاخلاق تسمح بظلم الرقيق وجلده وقتله . وتبرر هذه التصرفات القاسية

(١) النظرية الماركسية اللينينية (ص ٤٣٩) .

التى كانت تعتبر فى ذلك الوقت تصرفات اخلاقية . يقول اصحاب كتاب المادية التاريخية : " ان اخلاق مجتمع عهد الرق هى اول شكل للاخلاق الطبقية فقد كانت اخلاق مالكى الارقاء هى السائدة فى ذلك المجتمع، وهى اذ نشأت على اساس العلاقات الاقتصادية للنظام الرقى ، كانت تعكس العلاقات القائمة بين الارقاء ومالكيهم بالدرجة الاولى . ان الخاصة المميزة لهذه الاخلاق هى انها كانت لا تعترف بالعلاقة الانسانية الا بين الاحرار من الناس . لقد كان الرقيق خارج الاخلاق ، وهو سلعة وشىء ، واداة ناطقة ، ولهذا فقد كانت الاخلاق تسمح بظلمه وجلده وقتله ، ولم تكن تلك المعاملة الوحشية للرقيق لتوقظ اى " تأنيب ضمير " لدى مالكه ، كانت الاخلاق تبررها ، لكن هذا التبرير لم لكن الا ضرورة اقتصادية املتها العلاقات الرقية لذلك العصر "[1].

الاخلاق فى عهد الاقطاع .

يقول الماديون : وحين انهار نظام الرق وسيطر النظام الاقطاعى على المجتمع . صارت الاخلاق الاقطاعية هى السائدة . وكانت هذه الاخلاق تخفى ظلم الاقطاعيين القاسى للفلاحين ، وكان الدين الكنسى فى هذا الوقت يفسر الاخلاق السائدة ويضع لها الاسس التى تعتمد عليها فى تبرير مصالح المستغلين كاوامر ربانية لا يجوز مخالفتها . وقد ساعدت هذه الاخلاق المرتكزة على الدين الطبقة المستغلة فى تخدير الجماهير الكادحة ، والاجهاز على كل ثورة تحررية تقوم بها الجماهير المغلوبة لنيل حقوقها .

" ومع الانتقال الى الاقطاعية ، صارت الاخلاق الاقطاعية هى السائدة فهى لا تنظر الى القن كشىء وانما كانسان من الدرك الاسفل " العظم الاسود " بينما كانت تنظر الى ممثلى الطبقة السائدة كبشر من الصنف الممتاز " العظم الابيض " . والى جانب هذا فقد كانت الاخلاق الاقطاعية تخفى ظلم

---

(١) المادية التاريخية (ص ٤٥٧) .

الاقطاعيين الوحشى للفلاحين ، وتقنع الشكل الاقطاعى للاستغلال . ولقد كانت تصور بنفاق كبير، علاقة السيد بفلاحيه ، كعلاقة الاب ببنيه ، يوجههم ويرعاهم ويتحمل المسئولية عنهم .

" ان دين المجتمع الاقطاعى قام بتفسير الاخلاق السائدة وبوضع الاسس لها ، اذ صور مطالبها وحدودها التى تعبر فى الواقع عن مصالح المستغلين كأوامر الهية ، والاخلاق الاقطاعية التى ارتكزت على الدين ساعدت على كبح جماح جماهير الفلاحين المسحوقة السوداء[1] " .

الاخلاق فى عهد الرأسمالية .

يقول الماديون : انتصرت الرأسمالية على الاقطاع حين طرحت شعار المساواة والحرية والنضال ضد الامتيازات الاقطاعية . واحرز التقدم الاجتماعى خطوة الى الامام على صعيد الاخلاق . وبرز كتاب يناضلون ضد الايديولوجية والاخلاق الاقطاعية ، فى سبيل حرية الفكر والنشاط ، ومن اجل تحرير الفرد من كل القيود الاقطاعية . ولكن الرأسمالية مع انتصارها بدأت تظهر ماكانت تخفيه من جشع واستغلال للناس ، فالمساواة التى اطلقتها وتبنتها فى بداية امرها شكلية لا حقيقية . فانتقل الانسان من عبودية متخلفة الى عبودية بشكل ارقى ، وان كان يظن نفسه حرا طليقا من الالتزامات الاقطاعية ، انتقل الانسان الى عبودية صاحب رأس المال وصاحب الالة والمصنع ، واصبح الحال بالنسبة اليه ، اما ان يبيع قوةعمله ، واما ان يموت جوعا . واصبحت العلاقات بين الناس علاقات نقدية ، تقوم على اساس المصلحة والجرى وراء الربح .

" ومع هذا فقد احرز التقدم الاجتماعى خطوة الى الامام على صعيد الاخلاق ، فالايديولوجيون البرجوازيون ، اذ يناضلون ضد الايديولوجية والاخلاق الاقطاعيتين ، ناضلوا فى سبيل حرية الفكر ، وحرية النشاط ومن اجل تحرير

---

(١) نفس المصدر (ص ٤٥٧ - ٤٥٨) .

الفرد من كل القيود الاقطاعية الممكنة . » ولكنه مع انتصار الرأسمالية يتكشف المضمون الحقيقى لافكار الحرية والمساواة والانسانية البرجوازية ، فالمساواة البرجوازية شكلية ، وهى تخفى تبعية العامل للرأسمالى ، والاستغلال الشديد الوطأة للمنتج المباشر ، المفيد اقتصاديا ، من قبل الرأسماليين ، بقيود اقوى من اية قيود حديدية اخرى . ان الحرية البرجوازية هى تمتع الرأسماليين بحرية نشاط المؤسسة وفى الاستيلاء على عمل الاخرين ، وهى بالنسبة للبرولتارى بيع قوة عمله او الموت جوعا . والانسانية البرجوازية ايضا هى انسانية مجردة فالرأسمالية فى الواقع لا تخلق الشروط الواقعية لتطور وازدهار الشخصية ، واكثر من ذلك فهى تحول كرامة الانسان الى قيمة تبادلية ، والعلاقات بين الناس الى علاقات نقدية ، قاضية على اى نوع من الصلات بين الناس الا صلة المصلحة المكشوفة صلة الدفع الخالى من العلاقات الانسانية »[1] .

يقول الماديون : نتيجة للركض وراء الربح يصطدم الرأسماليون بعضهم ببعض فى صراع تزاحمى عنيف ، وتولد السيطرة على الانتاج والمزاحمة العداء المتبادل ، ويهتم الرأسمالى بمصالحه الخاصة وينظر الى الاخرين كوسيلة لتحقيق مطامعه الشخصية ، ويكون رفاه بعض الناس على حساب شقاء الاخرين .

من هذه الظروف نشأ المبدأ الاساسى للاخلاق البرجوازية وهو الفردية البرجوازية ، المتغلغل فى جميع نواحى الحياة فى علاقات الانتاج والسياسة والاسرة . . . الخ ، والبرجوازى يسعى لتبرير انانيته وفرديته فى الوعى الاخلاقى فالرأسمالى يصور سعيه لتحقيق اهدافه على انه اهتمام بمصلحة الجماعة واستثمار العمال وانتاج السلع من اجل الحصول على الارباح بانه تأمين المواد الضرورية للمجتمع .

« ان اعظم مايعنى به البرجوازى هو السعى وراء الربح . وهذا المذهب الفردى البرجوازى يتغلغل فى جميع نواحى الحياة البرجوازية فى علاقات الانتاج وفى السياسة وفى الاسرة . . . الخ

---

(١) نفس المصدر (ص ٤٥٨) .

"ان مبدأ الفردية هو السائد فى سلوك البرجوازى ، الا انه ليس من مصلحة البرجوازية ان تعلن عن مصالحها الجشعة بصورة ساخرة ومكشوفة . ان البرجوازى يسعى لتبرير انانيته وفرديته فى الوعى الاخلاقى اذ يصور السعى لبلوغ اهدافه الجشعة كاهتمام بالمصلحة العامة . وهنا تتجلى الفردية الحيوانية "كحرية الفرد" ويتجلى استعمار العمال "كانقاذ للمحرومين من الجوع" وكتقديم الخبز للجائعين . ويتجلى انتاج السلع من اجل الحصول على الارباح كتأمين المواد الضرورية للمجتمع ، ويتبدى استعباد الشعوب الاخرى كعملية "تمدين" لها .

" ولهذا فان مايميز الاخلاق البرجوازية هو طابعها المنافق عندما تتقنع شريعة الغاب فى عالم الملكية الخاصة ، بستار من تعاليم الايديولوجيين البرجوازيين" (١) .

الاخلاق فى عهد الشيوعية .

يقول الماديون : ان الاخلاق الشيوعية تختلف اختلافا كبيرا عن اخلاق المستغلين ، لان الشيوعيين يحمون الملكية الجماعية ويقدسونها ، فى حين ان المستغلين يقدسون الملكية الخاصة ويحمونها ويدافعون عنها بشتى الوسائل المادية والفكرية . " والاخلاق الشيوعية خلافا لاخلاق المستغلين تعلن ان الملكية الجماعية هى المقدسة وتجب حمايتها ، هذه الملكية التى تؤمن رفاه المجتمع كله وجميع الكادحين" (٢) .

والاخلاق الشيوعية تربى فى الانسان الشيوعى الاخلاص للشيوعية والحب للوطن الاشتراكى والبلدان الاشتراكية ، لانها تنطلق من قاعدة "الفرد من اجل الجميع والجميع من اجل الفرد" (٣) ، الذى لا تظهر حريته الا داخل

---

(١) نفس المصدر (ص ٤٥٩) .
(٢) نفس المصدر (ص ٤٦٤) .
(٣) نفس المصدر (ص ٤٧٤) .

الجماعة . يقول ماركس: " فى الجماعة فقط يحصل الفرد على الوسائل التى تمنحه امكانية التطوير الشامل لمواهبه ، وبالتالى فان حرية الفرد لا توجد الا فى الجماعة "[1] .

والماركسية تعترف بقيام الاشتراكية على اساس غير اخلاقى ، وتنكر على المفكرين وعلماء الاجتماع البرجوازى الذين يقولون بان الاشتراكية قائمة على اساس الاخلاق المجردة ، كالعدالة الخالدة والحق المطلق مثلا ، دون ان ينطلقوا فى حكمهم هذا من القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى . فهى على هذا المعنى لا تملك مثقال ذرة من اخلاق على حد تعبير لينين . وهى لا تحتاج فى بنائها الى الاساس الاخلاقى ، وانما تحتاج الى الاساس العلمى والماركسية لا تعترف بان الظلم شىء اساسى ، وانما هو نتيجة للرأسمالية واهم المبادىء فى الاخلاق الشيوعية التى تدين المهملين والمتقاعسين كما يقولون هى النظر الى العلاقة نحو العمل على انه ابداع ، وانه اسمى واجب للفرد الشيوعى تجاه المجتمع ، لان ارادة العيش على حساب الاخرين تتناقض مع اخلاق المجتمع الاشتراكى .

" ان الماركسية تنتقد دونما تحفظ محاولات علماء الاجتماع البرجوازيين والبرجوازيين الصغار ، لجعل الاشتراكية قائمة على " اساس اخلاقى " اى بناء نظرية الاشتراكية على اساس المبادىء الخلقية المجردة كالعدالة الخالدة والحق المطلق وغيرهما ، دون ان ينطلقوا من القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى . وبهذا المعنى فى الواقع ليس فى الماركسية ، مثقال ذرة من الاخلاق كما يقول لينين .

" ان الظلم وغيره من وجهة النظر الماركسية ليس اساسيا ، وانما هو نتيجة للرأسمالية ، والاشتراكية لا تحتاج الى اساس اخلاقى وانما الى اساس علمى "[2] .

ويقولون ايضا : " ان اهم مبادىء الاخلاق الشيوعية هى العلاقة

---

(١) المؤلفات (٣ : ٧٥) نقلا عن نفس المصدر (ص ٤٧٥) .
(٢) نفس المصدر (ص ٤٧١ - ٤٧٢) .

الشيوعية نحو العمل ، والاهتمام برعاية وزيادة الاموال الاجتماعية ، وفي العلاقة نحو العمل بالذات وقبل كل شيء ، يتجلى الاطار الروحي الجديد للناس الذين تربوا في المجتمع الاشتراكي . وتتلاءم مع الاخلاق الشيوعية تلك العلاقة الشريفة الطيبة نحو العمل . العلاقة نحو العمل كابداع ، وكأسمى واجب للفرد تجاه المجتمع .

" ان الاخلاق الشيوعية تدين المهملين ، والمتقاعسين ، والطفيليين . ان ارادة العيش على حساب الاخرين تتناقض مع اساس المجتمع الاشتراكي ، ومع اخلاقه "[١] .

والشيوعيون على أتم الاستعداد لارتكاب اى عمل مناف للاخلاق من اجل تحقيق مكاسبهم وطموحاتهم ، وهم بهذا ينطلقون من نظرية مكيافللي التي تقول بان الغاية تبرر الوسيلة .

يقول انجلز : " أن الاخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدي الى انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافيا للاخلاق المعمول بها "[٢] .

ويقول لينين : " يجب على المناضل الشيوعي الحق ان يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل ، فالكفاح من اجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية "[٣] .

ويقول ايضا : " اذا لم يكن المناضل الشيوعي قادرا على ان يغير اخلاقه وسلوكه وفقا للظروف مهما تطلب ذلك من كذب وتضليل وخداع فانه لن يكون مناضلا ثوريا حقيقيا "[٤] .

وعلى هذا الاساس فانهم يرون ان الكذب والتضليل والخداع والخيانة والظلم وعدم الشرف ، وفقدان الكرامة . اذا كانت هذه الاشياء كلها تؤدي الى

---

(١) نفس المصدر (ص ٤٧٥ - ٤٧٦) .
(٢) اشتراكيتهم واسلامنا (ص ٣٦) .
(٣) عن نفس المصدر (ص ٣٧) .
(٤) عن نفس المصدر (ص ٣٧) .

تحقيق الشيوعية فلا مانع من فعلها ،ولا مانع من ان يكون المناضل الشيوعي كاذبا ظالما فاجرا مخادعا اوغير ذلك مادام الهدف هو انتصار الشيوعية .

" وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون " [1] .

---

(١) سورة الزخرف : ٣٧ .

الفصل السابع

التفسير المادى للتاريخ

والشخصيات البارزة فى التاريخ

لا يعترف الماديون بنشاط الشخصيات البارزة فى دفع عجلة التاريخ الى الامام ، وذلك لان اسلوب الانتاج هو القوة المحددة للتطور الاجتماعى والجماهير الكادحة هى القوة الحاسمة فى الانتاج ، وبالتالى فهى التى تقوم بالدور الحاسم فى صنع التاريخ ، لان التاريخ من صنع الجماهير ، وليس من صنع الافراد . فالافراد البارزون لا يعملون لذاتهم ، وانما يعملون مرتبطين بنضال الجماهير فاى فكرة لا تعتنقها الجماهير لا يمكن لها ان تلقى نجاحا مهما كانت عظيمة ، وارادة هؤلاء الافراد اصغر من ان تغير مسار التاريخ .

وهم اذ يلغون دور الافراد البارزين فى التاريخ انما يقصدون اولا وقبل كل شىء الغاء دور الانبياء ، والدعاة المصلحين ، والقادة المحنكين فى اصلاح البشرية ، وفق شريعة الله وهديه . ودور الشخصية البارزة عندهم ماهو الا كالشرارة التى ان لقيت فى طريقها مادة قابلة للاشتعال احدثت الشىء الكثير ، والا تجد تنطفىء ويذهب اثرها . والجماهير هى القوة الحاسمة فى السياسة ايضا ، لان كلمة الجماهير فى اللحظات الحرجة هى الحاسمة فى انعطاف حركة التاريخ .

والماديون يعترفون بدور الشخصيات البارزة فى التاريخ ، وان لهم اثرا فعالا فى دفع حركة التاريخ الى الامام ، شريطة ان تكون ارادة وافكار هذه الشخصيات معبرة عن مشاعر الجماهير ومنسجمة مع اراداتها . ودور الشعب فى اى مجال من المجالات الاجتماعية هو الحاسم بصورة مباشرة او غير مباشرة لان الشعب هو صانع التاريخ ، يصنعه وفقا للشروط المادية التى يتعلق بها اتجاه حركة الجماهير ونشاطها .

يقول اصحاب كتاب المادية التاريخية : " والواقع اذا كان اسلوب الانتاج هو القوة المحددة للتطور الاجتماعى ، فان الجماهير الكادحة المنتجة للخيرات المادية هى التى تقوم بالدور الحاسم فى صنع التاريخ باعتبارها القوة الحاسمة فى الانتاج . فالتاريخ ليس من صنع شخصيات معينة ، وانما هو من صنع الجماهير ..

" فالشعوب هى التى تقوم بجميع الثورات العظيمة، وان رغبة الجماهير واتجاهها وتأييدها لهذا او ذاك تؤلف العامل الحاكم للنجاح فى المجال السياسى ... " ولهذا فان ارادة شخصية ما ، مهما بلغت من العظمة، ومهما كان تأثيرها كبيرا ليست الا " عظمة" اصغر من ان تعطف التاريخ وتسيره حسب مشيئتها ، لكنه اذا كانت هذه الشخصية معبرة عن مشاعر الجماهير واهتماماتها " اذا كانت ارادة وتفكير الفرد ينسجم مع ارادة وتفكير الملايين فان الشخصية آنذاك تترك اثرها الواضح فى التاريخ .

" وهكذا ، فلو تناولنا اى مجال من مجالات الحياة الاجتماعية لوجدنا ان الشعب يقوم بالدور الحاسم فيه بصورة مباشرة او غير مباشرة . ان نشاط الجماهير الشعبية يدفع التاريخ الى الامام، وان الشعب هو صانع التاريخ ، لكنه يصنعه وفقا للشروط المادية التى يتعلق بها اتجاه حركة الجماهير وطابع نشاطها .

ويقولون فى موضع آخر : " وهكذا فالمادية التاريخية تعترف بان الشخصيات البارزة يمكن ان يكون لها تأثير كبير على سير التاريخ . وان دور الشخصية عظيم، ولا سيما فى المجال السياسى حيث يمكن ان يكون لفهم الوضع والقدرة على النفاذ الى جوهر العمليات، وللمبادرة الخلاقة، والطاقة الخاصة والامكانيات التنظيمية للشخصيات القائدة ، تأثير كبير على عملية التطور، وتساهم فى انجاح نضال الجماهير . لكن هؤلاء الافراد لا يعملون بذاتهم، ولذاتهم وانما هم يعملون مرتبطين بنشاط ونضال الجماهير والا فلن يتمكنوا من التأثير على سير التاريخ " .(١)

---

(١) المادية التاريخية مقتطفات من (ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢) .

الفصل الثامـــن

التفسير المادى للتاريخ والاسـرة

تمهيــد :

يقول الماديون : شهدت الاسرة تغيرات كثيرة وتبدلات عديدة عبر القرون ، وقد جاء هذا التغيير فى كيان الاسرة ونظامها نتيجة لتطور الوضع الاقتصادى .

وقد كان الزواج الجماعى فى المرحلة الوحشية هو النظام السائد ، وكان الابناء ينتسبون الى الام ، ولم يكن هناك حائل يحول بين زواج الاخ من اخته او الولد من امه ، او الوالد من ابنته . وقد كان الرجال يحيون حياة تعدد الزوجات ، والزوجات يعشن حياة تعدد الازواج . اما الغيرة على المرأة من قبل الرجل فهى عاطفة نشأت فى عهد متأخر ، لان الغيرة فى عرفهم تذيب كل صلة اجتماعية تقوم على الزواج الجماعى . والمحارم فى نظرهم عبارة عن اختراع ثمين ، لانه قبل هذا الاختراع الثمين لم يكن الوصال الجنسى بين الاولاد والاباء والاخوة والاخوات يثير الاشمئزاز . وقد كان الوصال الجنسى يتم بين الرجال والنساء بلا قيد ، حيث ان القيود الحاضرة لم تكن موجودة من قبل .

يقول جان فريفيل : " لا تشكل الاسرة كيانا اجتماعيا خالدا ، ولقد طرأت عليها تبدلات عديدة عبر القرون ، وهذا التطور يتحدد فى التحليل الاخير بالعامل الاقتصادى " (١) .

ويقول انجلز : " ولئن كان ثمة امر اكيد فهو ان الغيرة عاطفة نشأت فى عهد متأخر نسبيا ، وهذا يصدق على مفهوم " المحرم " . لان الاخ والاخت لم يكونا وحدهما يعيشان فى الاصل كما يعيش الزوج والزوجة فحسب ، بل ان العلاقات الجنسية بين الاباء والاولاد مسموح بها ايضا لدى شعوب عديدة حتى اليوم . . وقبل اختراع المحارم (لان المحارم اختراع حقا بل اختراع ثمين جدا) لم يكن الوصال الجنسى بين الاباء والاولاد ليثير من الاشمئزاز اكثر

---

(١) المرأة والاشتراكية (ص ١٧) .

مما يثيره الوصال بين اشخاص من اجيال مختلفة - كذلك الذى يحدث فعلا اليوم حتى فى اكثر البلاد تظاهرا بالتزمت من دون ان يثير النفرة الشديدة".[1]

ويقول انجلز فى موضع آخر : " فالمفهوم التقليدى لا يعرف الا الزيجة الوحدانية فقط، مع تعدد الزوجات للرجل الواحد، ومع تعدد الازواج للمرأة الواحدة . اذا توخينا الدقة، ويتغاضى - على طريقة المتزمتين المتحجرين من دعاة الاخلاق السذج - عن ان هذه الحواجز المفروضة من قبل المجتمع الرسمى تخرق عند التطبيق بصمت لكن بلا حياء - لكن دراسة المجتمع البدائى ، على عكس ذلك تطلعنا على احوال يحيا فيها الرجال حياة تعدد الزوجات، وتحيا زوجاتهم فى الوقت ذاته حياة تعدد الازواج ، وتعتبر الاولاد المشتركون تبعا لذلك، اولادا مشتركين لهم جميعا".[2]

انواع الاسر

اولا : اسرة الاقرباء بالدم، او اسرة الجيل .

يقول الماديون : تعتبر هذه الاسرة هى المرحلة الاولى للاسرة البشرية وفى هذه المرحلة تصنف المجموعات الزوجية تبعا للاجيال ، فالجد والجدة فى المجموعة الاولى ، ثم الابناء والبنات ازواج لبعضهم فى مجموعة ثانية ، ثم اولادهم وبناتهم ازواج يضمون فى مجموعة ثالثة، والمجموعة الرابعة تضم احفاد اولاد الاجداد والجدات . اما المحرم فهو الزواج بين السلف والخلف اى الاباء والبنات . اما الاخوة والاخوات فمسموح لهم بالزواج فيما بينهم .

ومع ذلك فان الماديين يعترفون بان اسرة الجيل قد انقرضت وان اخشن الشعوب التى يتحدث عنها التاريخ لا تمدهم بامثلة على هذا الشكل من

---

(١) اصل الاسرة (ص ٥٣ - ٥٤) .
(٢) نفس المصدر (ص ٤٦) .

الاســـــرة .

يقول انجلز : " فى هذه المرحلة تصنف المجموعات الزواجية تبعـــــا للاجيال ، جميع الاجداد والجدات ضمن حدود الاسرة هم ازواج وزوجــــات بالتبادل ، وكذلك الامر مع اولادهم ، الاباء والامهات ، كما ان اولاد هــــؤلاء يؤلفون هم ايضا حلقة ثالثة من الازواج والزوجات المشتركين ويؤلـــــــف اولاد هؤلاء ، اعنى اولاد الاحفاد للاجداد والجدات حلقة رابعة . وهكـــذا فى هذا الشكل من الاسرة ، يحرم السلف والخلف فقط ، الاباء والاولاد ، مـــــن حقوق وواجبات زواج احدهم بالاخر .

" فى هذه المرحلة تتضمن علاقة الاخ باخته ان يمارس احدهما مـــــع الاخر الوصال الجنسى بصورة طبيعية . . ان اسرة الجيل قد انقرضت . وحـــتى اخشن الشعوب التى يتحدث عنها التاريخ لا تمدنا بامثلة على هذا الشكـــــل يمكن التثبت منها "(١) .

يقول ماركس : " فى الازمنة البدائية كانت الاخت هى الزوجة ، وكان ذلـك يتمشى مع الاخلاق "(٢) .

ثانيا : اسرة الشركاء .

يقول الماديون : كان التقدم الاول فى التنظيم هو حرمان الابـــــاء والاولاد من العلاقة الجنسية المتبادلة ، ثم تقدم هذا التنظيم الى حرمـــــان الاخوة والاخوات من العلاقة الجنسية فيما بينهم ايضا . وقد حدثت هـــــذه الخطوة بالتدريج ، مبتدئة بحرمان الاخوة والاخوات الطبيعيين من جهـــــة الام من العلاقات الجنسية ، حيث كان النسب يعرف من جهة الام ، وانتهت هذه الخطوة بحرمان الزواج بين الاخوة والاخوات الاباعد (اى بين اولاد الاعمـــام والعمات والاخوال والخالات من الدرجة الاولى والثانية والثالثة) . وعلـــى

---

(١) نفس المصدر (ص ٥٦ - ٥٧) .
(٢) نقلا عن حاشية نفس المصدر (ص ٥٦) .

حد تعبير مورغان ان هذا التقدم " يقدم مثالا جيدا للطريقة التى يعمل بها مبدأ الانتخاب الطبيعى "(١) .

وبناء على هذا المبدأ عندهم ، فان القبائل التى قيدت نفسها بهذا التحريم للزواج بين الاقرباء تطورت سريعا اكثر بكثير من القبائل التى مازال هذا النظام سارى المفعول فيها . ويرجح الماديون ظهور اسرة العشيرة من هذا الشكل من الاسرة .

كما انهم يؤكدون على ان معرفة والد الولد فى جميع اشكال الاسرة الجماعية غير ممكنة ، وانما تعرف امه معرفة اكيدة .

يقول انجلز : "اذا كان التقدم الاول يتألف من حرمان الاباء والاولاد من العلاقات الجنسية المتبادلة ، فان التقدم الثانى يتألف من حرمان الاخوة والاخوات منها . . . وقد حدثت هذه الخطوة بالتدريج ، مبتدئة فى اقرب الاحتمالات ، بحرمان الاخوة والاخوات الطبيعيين (اى من جهة الام) من العلاقات الجنسية ، وذلك فى حالات متفردة فى اول الامر ، ثم اصبح حرمانهم بالتدريج هو القاعدة . وتنتهى هذه الخطوة بتحريم الزواج حتى بين الاخوة والاخوات الاباعد . . .

" فى جميع اشكال الاسرة الجماعية لا يعرف من هو والد الولد معرفة اكيدة ، اما والدته فتعرف معرفة اكيدة .

" وفى اغلبية الحالات ، يبدو ان مؤسسة العشيرة قد انبثقت مباشرة من اسرة الشركاء "(٢) .

ثالثا : الاسرة الزوجية .

يقول الماديون : ان التعقيد المتزايد فى محرمات الزواج كان سببا فى جعل الزواج الجماعى مستحيلا شيئا فشيئا ، وفى هذه المرحلة يعيش الرجل

---

(١) عن نفس المصدر (ص ٥٨) .

(٢) نفس المصدر ، مقتطفات (ص ٥٨ ، ٦٣) .

مع زوجة واحدة . ولكن تعدد الزوجات وخيانة الزوجة يظلان من امتيـــازات الرجل ، وقد كانت المرأة تطالب بالاخلاص التام طوال فترة العشرة الزوجيـــة وان زنت فعقوبتها قاسية ، وقد كان رباط الزوجية ضعيفا بحيث يمكن حلـــه من قبل احد الطرفين ، ويرجع الاولاد الى امهم فى النسب .

وفى هذه المرحلة الاسرية اصبحت النساء نادرات ومرغوبات ، ونتيجـــة لذلك ظهرت عملية اختطاف النساء وبيعهن حتى يتمكن الرجل من الحصـــول على زوجة له .

يقول انجلز : " فى هذه المرحلة يعيش الرجل الواحد مع امرأة واحـــدة لكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية يظلان من امتيازات الرجال . وان لـــم يكن تعدد الزوجات يمارس الا نادرا لاسباب اقتصادية فقط ، وفى الوقت ذاتـــه يطلب من المرأة الاخلاص التام طوال فترة المعيشة المشتركة ، فاذا زنت عوقبـــت بقسوة . . غير ان رباط الزيجة يمكن حله من قبل اى من الطرفين ، فيرجـــع الاولاد الى امهم فقط كما كان الامر فى السابق "[1] .

ويقول ايضا : " فبينما كان الرجال لا تعوزهم النساء فى ظل الاشكـــال السابقة للاسرة ، وكانوا على النقيض ، يملكون منهن عددا فوق الكفايـــة اذا بالنساء الان يصبحن نادرات ومطلوبات ، ونتيجة لذلك ، بدأ بظهور الزيجة الزوجية اختطاف النساء وبيعهن "[2] .

يقول الماديون : ونتيجة لتطور الظروف الاقتصادية فقدت العلاقـــات الجنسية التقليدية طابعها البدائى ، واصبحت هذه العلاقات تبدو شائنـــة بالنسبة للنساء اللواتى اشتد طموحهن الى الحق فى العفة والزواج برجـــل واحد . ولم يكن هذا التقدم ليصدر عن الرجال الذين لم يخطر ببالهـــم ان ينبذوا مسرات الزيجة الجماعية القائمة ، وقد تم الانتقال الى هذا الشكـــل من الزيجة الوحدانية بفضل النساء .

---

(١) نفس المصدر (ص ٧٢ ، ٧٣) .
(٢) نفس المصدر (ص ٧٢ ، ٧٣) .

يقول انجلز : " لانه كلما فقدت العلاقات الجنسية التقليدية القديمة طابعها الغابى البدائى الساذج ، نتيجة لتطور الظروف الاقتصادية للحياة اى مع القضاء على المشاعية القديمة وازدياد كثافة السكان ، كان لابد لهذه العلاقات ان تبدو اكثر فاكثر شائنة ، ومزعجة للنساء اللواتى كان يشتد باستمرار طموحهن الى الحق فى العفة ، الى الحق فى الزواج المؤقت او الدائم برجل واحد كسبيل للخلاص ، ولم يكن بالوسع صدور هذا التقدم عن الرجال ، وذلك على الاقل ، لانهم لم يخطر ببالهم قط - حتى ايامنا هذه - ان ينبذوا مسرات الزيجة الجماعية القائمة . ولم يستطع الرجال ادخال الزيجة الوحدانية الصارمة الا بعد ان تم الانتقال بفضل النساء الى الزيجة الزوجية ، لكن هذه الزيجة الزوجية الوحدانية الصارمة هى طبعا وحدانية للنساء فقط" [1] .

يقول الماديون : ونتيجة لازدياد الثروة زادت مكانة الرجل فى الاسرة وتولد فى نفس الرجل الميل لاستغلال هذه المكانة الجديدة فى القضاء على نظام الوراثة التقليدى السابق لمصلحة اولاده ، حيث كان الوارث من جهة الام فقط ، وانتصر الرجل اخيرا على المرأة ، واصبحت خاضعة له ، واصبح يدير الامور العامة للاسرة ، وانتقل نظام الميراث اليه ، واصبح الاولاد ينسبون الى ابيهم ويرثون ماله . وصارت المرأة عبدا لشهوة الرجل ، فانحطت مكانتها واستهين بكرامتها . وغدت مجرد اداة لانتاج الاولاد . والماديون يعترفون بانهم لا يعرفون كيف حدثت الثورة التى اقصت المرأة عن عرش الميراث منها والنسب اليها ، وعن استلام الرجل لزمام الامور ، ولا يعرفون ايضا متى حدثت هذه الثورة الحاسمة على حد تعبيرهم .

يقول انجلز : " واذن فقد كانت الثروات كلما ازدادت تهب الرجل من جهة اخرى ، مكانة فى الاسرة اهم من مكانة المرأة ، وتولد فيه ، من جهة اخرى الميل الى استغلال هذه المكانة المعززة للاطاحة بنظام الوراثة التقليدى فى مصلحة اولاده . بيد ان هذا كان مستحيلا مادام النسب حسب حق الامومة

---

(١) نفس المصدر (ص ٨١) .

سائدا . واذن كان لابد من القضاء على هذا ،وقد قضى عليه ،ولم يكن هذا العمل صعبا كما يظهر لنا الان . لان هذه الثورة - وهى من اهم الثورات الحاسمة التى خبرتها البشرية على مر الدهور - لم تكن محتاجة لازعاج اى فرد من افراد العشيرة الاحياء ،لان جميع افراد العشيرة كانوا يستطيعون البقاء فى العشيرة بعد هذه الثورة على ماكانوا عليه قبلها . كان يكفى ان يقرر فقط ان ذرية الاعضاء الذكور فى المستقبل يجب ان يبقوا فى العشيرة . واما ذرية الاناث فيجب اقصاؤهم عن العشيرة ،ونقلهم الى عشيرة ابيهم ،وبهذا تم القضاء على حساب النسب فى خط الاناث ،وعلى حق الوراثة من طريق الام .. وتأسس النسب الى الذكور وحق الوراثة من الاب .

" اما كيف حدثت هذه الثورة ومتى حدثت لدى الشعوب المتحضرة فذلك مالا نعلم عنه شيئا ،لانها تقع كلها فى ازمنة ماقبل التاريخ ".[1]

ويقول فى موضع آخر : " كان القضاء على حق الامومة الهزيمة التاريخية العظيمة لجنس الاناث ،لان الرجل تسلم دفة الامور حتى فى البيت ،واصبحت المرأة منحطة المكانة ،مستهانة ،عبدا لشهوة الرجل ،مجرد اداة لانتاج الاولاد ".[2]

رابعا : الاسرة الوحدانية .

يقول الماديون : هذه الاسرة مبنية على سيطرة الرجل ،ومن ميزاتها انها تهدف الى انتاج اولاد لا يشك فى صحة نسبتهم الى ابيهم حتى يتسنى للولد ان يرث اباه . ومن الملاحظ ان هذه الاسرة كما يزعمون لم تظهر على مسرح التاريخ بصورة وفاق بين الرجل والمرأة ،وانما ظهرت بصورة اخضاع احد الجنسين للاخر ،وقد امتازت هذه الاسرة عن الاسرة الزوجية بان اصبح رباط الزواج متينا جدا ،واصبح حله بيد الرجل فقط .

ويعتبر الماديون ان اول تقسيم للعمل هو تقسيم العمل بين الرجل

---

(١) نفس المصدر (ص ٨٦) .
(٢) نفس المصدر (ص ٨٧ - ٨٨) .

والمرأة ، وان اول تضاد طبقى ظهر فى التاريخ يشابه نشأة التضاد بين الرجل والمرأة ، وان اول اضطهاد طبقى يطابق اضطهاد الرجال للنساء فى الزيجة الوحدانية . ويعتبر الماديون أن الزيجة الوحدانية تقدم تاريخى ولكنها بالاشتراك مع نظام الرق والملكية الخاصة رسخت اساس الاستغلال القائم الى اليوم ، حيث يدرك الناس مصلحتهم على شقاء الاخرين واضطهادهم .

يقول انجلز : " ان الاسرة الوحدانية مبنية على سيطرة الرجل ، وهدفها الصريح انتاج اولاد لا يشك فى صحة ابوتهم ، هذه الابوة التى لا بد منها ، لكى يرث الاولاد فى يوم ما ، ثروة ابيهم بوصفهم ورثته الطبيعيين ، وتختلف الاسرة الوحدانية عن الاسرة الزوجية فى ان رباط الزواج امتن جدا منها ، ولا يعود حله الان رهنا برضا اى من الطرفين ، بل يصبح الرجل كقاعدة عامة هو وحده الذى يستطيع الان حل هذا الرباط وتسريح زوجته "(١) .

ويقول فى موضع آخر : " ان اول تقسيم للعمل هو تقسيم العمل بين الرجل والمرأة من اجل انجاب الاطفال ، واليوم استطيع ان اضيف : ان اول تضاد طبقى ظهر فى التاريخ يشابه التضاد بين الرجل والمرأة فى الزيجة الوحدانية . واول اضطهاد طبقى يطابق اضطهاد جنس الاناث من قبل جنس الذكور .

" كانت الزيجة الوحدانية تقدما تاريخيا عظيما ، لكنها فى الوقت ذاته دشنت هى والرق والثروة الخاصة ، ذلك العهد القائم الى اليوم الذى يكون فيه كل تقدم تقهقرا نسبيا ايضا ، العهد الذى يدرك فيه بعض الناس مصلحتهم وتطورهم بشقاء الناس الاخرين واضطهادهم "(٢) .

وقد قامت الاسرة الوحدانية على اساس الاحوال الاقتصادية ، ولم تكن قائمة على اساس طبيعى ، فقد قامت على اساس ظهور الملكية الخاصة ، وانتصارها على الملكية العامة .

---

(١) نفس المصدر (ص ٩٥ ، ١٠٢) .
(٢) نفس المصدر (ص ٩٥ ، ١٠٢) .

يقول انجلز : " كانت الزيجة الوحدانية اول شكل للاسرة مبنى لا على احوال طبيعية ، بل على احوال اقتصادية ، اى على انتصار الملكية الخاصة على الملكية العامة البدائية الطبيعية النشأة "[1] .

موقف الشيوعيين من الاسرة .

ويشبه الماديون الرجل فى الاسرة بالبرجوازى فى المجتمع ، والمرأة بالبرولتارى ، وعندهم ان الزيجة الوحدانية قد قامت على الاساس الاقتصادى وذلك بتركيز الثروة بيد الرجل ، ولكن السؤال الذى يطرح هو لما كانت الزيجة الوحدانية قد ظهرت من اسباب اقتصادية فهل تختفى باختفاء هذه الاسباب .

يجيب انجلز : " انها ، بدلا من ان تختفى سوف تأخذ بالتحقق تحققا تاما ، لانه بتحويل وسائل الانتاج الى ملكية اجتماعية سيزول ايضا العمل المأجور ، البرولتاريا ، وستزول ايضا تبعا لذلك ، الضرورة التى تضطر عددا[2] من النساء - يمكن حسابه بواسطة الاحصاء - الى الاستسلام من اجل المال " .

ويقول الماديون : ان البغاء سيختفى من المجتمع ، وتصبح الزيجة الوحدانية حقيقة للرجل ، وحين تنتقل وسائل الانتاج وتصبح ملكية عامة للجماهير ، فان الاسرة الفردية لا تظل هى الوحدة الاقتصادية للمجتمع لان الاقتصاد البيتى الخاص ينقلب الى صناعة جماعية ، وتصبح تربية الاطفال والعناية بهم من الشئون العامة ، لان المجتمع سيعنى عناية تامة ومتساوية بجميع الاطفال الشرعيين وغير الشرعيين ، ونتيجة لذلك يختفى القلق الذى يستحوذ على قلب الفتاة من جراء العواقب التى تعتبر اهم حافز اجتماعى اقتصادى وخلقى يمنعها من تقديم نفسها لمن تحب .

يقول انجلز : " فبانتقال وسائل الانتاج الى ملكية عامة لا تبقى الاسرة الفردية هى الوحدة الاقتصادية للمجتمع ، وينقلب الاقتصاد البيتى الخاص الى

---

(١) نفس المصدر (ص ١٠١) .
(٢) نفس المصدر (ص ١١٧) .

صناعة اجتماعية ، وتصبح العناية بالاطفال وتربيتهم من الشئون العامة . فيعنى المجتمع عناية متساوية بجميع الاطفال سواء اكانوا شرعيين ام طبيعيين ، وبذلك يختفي القلق الذى يستحوذ على قلب الفتاة ، من جراء " العواقب " التى هى فى زماننا اهم حافز اجتماعى ـ اقتصادى وخلقى ـ يعوقها عن تقديم نفسها بلا حرج لمن تحب . افلن يكون هذا سببا كافيا لازدياد حرية الوصال الجنسى شيئا فشيئا ، ومن ثم لنشوء رأى عام اكثر تساهلا فيما يتعلق بشرف العذارى وعار النساء ؟ "(١) .

يقول الماديون : منذ ان سيطر الرجل على المرأة اقتصاديا اصبحت المرأة اداة عمل وانجاب ، وصارت سلعة يقايض بها الرجل مقابل ماشية او اسلحة وقد اكدت الاديان والتشريعات البدائية تبعية المرأة للرجل ، وقضت عليها بألا يكون لها من مهمة غير الانجاب ، فالتوراة تأمر بهجر المرأة العقيمة ، وكتب الهند المقدسة تحرم المرأة من الحق فى الحرية وامتلاك الثروة . ولم يعترف الرومان بحقوق المرأة ، ومعظم المفكرين الاغريق كانوا يعادونها .

اما الكنيسة فقد زادت الطين بلة ، فقد عاملت المرأة على انها عدو ، وانها مفسدة الانسان لانها من حبائل الشيطان ، وزاد دنس المرأة والعلاقة معها ما ابتدعته الكنيسة من الرهبنة ، وفى عصور الاقطاع كان من حق الرجل ان يضرب زوجته وان يبيعها وان يورثها لمن يشاء ، اما زوجة القن فلم تكن اكثر من دابة ركوب ، بائسة محتقرة مهانة جاهلة . هذا الظلم المرير الذى قاسته المرأة على مر العصور انما مرده فى التحليل الاخير ، الى سيطرة الرجل اقتصاديا .

يقول فريفل : " واستقرت الهيمنة للرجل الذى صار ينظر الى المرأة على انها اداة عمل وانجاب ، وبدلا من ان تكون تابعة لدائرة ابيها ، اصبحت تابعة لدائرة زوجها ، وصارت تقايض مقابل ماشية واسلحة . ومذ ذاك لم تكف المرأة عبر الانظمة العبودية والاقطاعية والرأسمالية عن معاناة واضطهاد مزدوج : اضطهاد ضمن اطار المجتمع ، واضطهاد ضمن اطار الاسرة .

---

(١) نفس المصدر (ص ١١٨) .

" وقد كرست الاديان والتشريعات البدائية تبعية المرأة هذه ، وقضت عليها بألا يكون لها من مهمة غير الانسال .

" ولم يعاملها الاغريق بافضل مما عاملتها شعوب الشرق - وكان من حق الزوج ان يضايقها او يهبها .

" ولم تعترف الحقوق الرومانية البدائية للمرأة بارادة مستقلة ، واخضعتها لوصاية الاب .

" ولقد عاملها آباء الكنيسة وجهابذتها على انها عدوة ، ورأوا فيها مفسدة الانسان ، وفخ الشيطان وهلاك الروح .

" ومما زاد فى (دنس) المرأة و " قذارة " العلاقة بين الجنسين حالة العزوبية التى فرضت على الكهنة .

" وفى العصور الوسطى كانت المرأة تعتبر ملكا للرجل - وكانت جزءا من الاقطاعية ومصيرها بيد صاحب الاقطاعية ، وكان من حق " الفارس " ان يسيء معاملة زوجته وان يضربها وان يعاقبها عقابا " معقولا " وان يهبها ويورثها لغيره . وحتى ان يبيعها ، وضمانا لوفائها كان يحبسها فى " حزام العفة " اذا ما اضطر للسفر .

" هذا عن وضع المرأة فى الطبقة السائدة . اما زوجة القن فلم تكن اكثر من دابة ركوب بائسة محتقرة جاهلة ، مسحوقة تحت وطأة الاقطاع " [١] .

ويعيب الماديون على التقاليد والاديان ، التى تفصل فصلا كاملا بين تربية الاولاد والبنات ، والى تكييف البنات بصورة لا يكون لهن من هدف معها غير الحصول على زوج لا غير .

يقول جان بابى : " وخلاصة القول ان التقاليد والاراء المسبقة ، تدفع بالاسر بمساندة المؤسسات الاجتماعية ولا سيما الدينية ، الى الفصل فصلا كاملا بين تربية البنات والصبيان ، والى ابقائهم فى جهل متبادل ، والى تكييف البنات بصورة لا يكون لهن من هدف معها غير الحصول على زوج " [٢] .

---

(١) المرأة والاشتراكية مقتطفات (ص ١٩ - ٢٠) .

(٢) نفس المصدر (ص ١٢٥) .

اما عن مدى تأثير الشيوعية على الاسرة فلننظر ما يقولون .

انهم يهدفون الى تهديم ركنى الاسرة الاساسيين ،الزواج وتربية الاولاد ،وفى نظرهم ان العلاقة بين الجنسين لن تصبح علاقة خاصة تهم طرفى الزواج فقط دون تدخل من احد الا بالغاء الملكية الخاصة ،وبفضل تربية الاولاد على نفقة المجتمع .

يقول انجلز : "ان العلاقات بين الجنسين ستصبح مسألة خاصة لا تعنى الا الاشخاص المعنيين والمجتمع لن يتدخل فيها ،وهذا سيكون ممكنا بفضل الغاء الملكية الخاصة ،وبفضل تربية الاولاد على نفقة المجتمع ،وبنتيجة ذلك يكون اساسا الزواج الراهنان قد الغيا ،فالمرأة لن تعود تابعة لزوجها ولا الاولاد لاهلهم ،هذه التبعية ماتزال موجودة بفضل الملكية الخاصة ".(١)

ويضحك الشيوعيون من ذعر البرجوازيين حول اشاعة النساء لان شيوعية النساء فى نظرهم تقريبا كانت دائما موجودة . والبرجوازيون يجدون لذة فى اغواء بعضهم لنساء بعض، فهم لا يكتفون بالبغاء الرسمى ،ولا يكتفون بأن تكون نساء وبنات البرولتاريين تحت تصرفهم ،والزواج البرجوازى هو اشاعة النساء المتزوجات ،والشيوعيون يقبلون التهمة الموجهة اليهم من تفكيك الاسرة وهدم العلاقة العائلية ،والاهم من ذلك انهم سيحولون اشاعة النساء المستترة بالرياء كما يزعمون الى شيوعية علنية رسمية .

ومع ذلك نجدهم يقولون ان شيوعية النساء ستزول بزوال علاقات الانتاج الحالية .

يقول ماركس وانجلز : " ليست بالشيوعيين حاجة الى ادخال اشاعة النساء فهى تقريبا كانت دائما موجودة ،ولا يكتفى البرجوازيون بان تكون تحت تصرفهم نساء البرولتاريين وبناتهم - هذا عدا البغاء الرسمى - بل يجدون لذة خاصة فى اغواء بعضهم لنساء بعض .

---

(١) نفس المصدر (ص ٥١) .

" ليس الزواج البرجوازي في الحقيقة والواقع سوى اشاعة النساء المتزوجات، فقصارى ما يمكن ان يتهم به الشيوعيون اذن هو انهم يريدون كما يزعم، الاستعاضة عن اشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداجاة باشاعة صريحة رسمية .

" ولكن من البديهي الواضح ان محو علاقات الانتاج الحالية يؤدي بطبيعة الحال، الى محو اشاعة النساء التي تنتج منها . اي ان البغاء سواء اكان رسميا ام غير رسمي، يزول ويضمحل" (١) .

---

(١) البيان الشيوعي (ص ٦٢ - ٦٣) .

البــاب الثانــى : مناقشــة النظريــــــة

الفصل الاول : هل المادة أزليـــة ابديـــــة

تمهيد عام

من خلال عرضي لنظرية تفسير المادى للتاريخ ، اثبت من اقوالهم الصلة القوية بين المادية الديالكتيكية والتفسير المادى للتاريخ ، وانهما وحدة متماسكة لا يمكن فهم احداهما دون فهم الاخرى ، وان التفسير المادى للتاريخ قد بني على اساس من المادية الديالكتيكية ، وهو ثمرة من ثمراتها ، طبقوه على حياة المجتمع البشرى .

وذكرت أن الأساس الذى ساروا عليه وانطلقوا منه هو القول بأزلية المادة وأبديتها – وقد ترد المادة والطبيعة عندهم بنفس المعنى وبخاصة عند حديثهم عن عملية الخلق – فهم يقولون : ان المادة وجدت منذ الأزل ، ولم تنشأ فى أى وقت من الأوقات ، فهى لم تخلق لأنه لا يمكن افناؤها ، وعلى هذا الأساس فهى أبدية كذلك . والمادة عندهم هى الخالق ، والانسان المفكر أحد مخلوقاتها (١) .

وعندما يوجه اليهم السؤال الذى يقوم عليه التحدى حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو من خلق المادة ؟ فانهم يجيبون ان العلم أثبت أنها وجدت دائما ومنذ الأزل ؟ والذى يهمنى فى هذا البحث هو أن أعرض أقوالهم التى زعموا أن العلم يدعمها على شريحة النقد العلمى . لأرى هل العلم حقا يدعمها أم ينقضها من أساسها ؟

أولا : هل المادة أزلية أبدية ؟

قبل البحث فى هذه النقطة لا بد من طرح سؤالين وهما :

أولا : انكم تقولون ان العلم أثبت أن المادة وجدت دائما ومنذ الأزل . فأين الدليل العلمى القاطع الذى يثبت صدق دعواكم أن المادة وجدت منذ الأزل ؟ ((قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين))(٢) .

---

(١) انظر عرض النظرية من وجهة نظر أصحابها الفصل الأول المادة سابقة فى الوجود على الفكر .

(٢) البقرة ١١١ .

ثانيا : انكم تطلبون من المؤمنين بوجود الله سبحانه وتعالى الدليل على وجوده مع أن اثارة واضحة ومشاهدة تثبت بشكل قاطع لا يحتمل أدنى شك وجوده سبحانه وتعالى . فما هو الدليل العلمى عندكم على عدم وجوده سبحانه وتعالى : ((فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة)) (١) .

مخالفة الماركسية للمنهج العلمى

ذكرت سابقا أن الماركسيين يزعمون أن فلسفتهم المادية هى الفلسفة العلمية الوحيدة التى تتفق وسائر العلوم . ومن شأن المنهج العلمى الطبيعى ـ كما هو معروف ـ الاقتصار على الكون المادى وعدم تجاوزه الى ما وراءه ،لأن وسائله التى يعتمدها هى الملاحظة والتجربة ،وهذه الوسائل قاصرة عن ادراك ما وراء الكون المادى . فهى لا تملك ازاءه أية وسيلة للنفى أو الاثبات .

وكان على الفلسفة الماركسية التى اختارت هذا المنهج العلمى الطبيعى واعلان نفسها فلسفة علمية أن تلتزم بموضوع هذا المنهج ولا تتجاوزه الى غيره ،فتركزهما على دراسة الكون المادى ولا تتعداه الى غيره ،ولكنها أقحمت نفسها بشيء خارج عن المجال الذى خطته لنفسها ،فتقحمت عالم الغيب . وأنكرت وجود الله سبحانه ،وزعمت أن العالم المحيط بنا لم يخلقه اله ،وأن المادة موجودة وجودا أزليا . ((وهى تفسر العالم منطلقة من العالم ذاته دون اللجوء الى الاعتماد على قوى خارقة للطبيعة يزعم وجودها خارج العالم)) (٢) .

---

(١) البقرة ٢٤

(٢) انظر المادية الديالكتيكية مجموعة من العلماء السوفيات ص ٣ .

ولكي أبين الأخطاء التي وقعت فيها الماركسية حين زعمت بأزلية المادة وأبديتها ، لا بد لي من بيان خصائص الأزلي .

ما هي خصائص الأزلي ؟

أن الأزلي كما هو مجمع عليه عند العقلاء لا بد أن تتوفر فيه الشروط التالية :

(١) أن يكون وجوده من ذاته ومتوقفا على ذاته ، ومن ثم فانه يكون مستغنيا في وجوده وفي بقاء هذا الوجود واستمراره عن غيره ، ولا يستطيع غيره أن يؤثر عليه في أيجاد أو تحويل أو اعدام .

(٢) أن يكون قديما لا بداية له ، لأنه لو كانت له بداية لكان محدثا من العدم فلا يكون أزليا .

(٣) أن يكون باقيا لا نهاية له ، لأنه لو كانت له نهاية لكان هناك من يستطيع أفناءه . والماديون عموما يسلمون بهذه الشروط الواجب توافرها فيما هو أزلي ، ولكنهم يحاولون تطبيقها على المادة ويزعمون انها أزلية . فهل المادة كذلك ؟ (١) .

---

(١) أنظر الماركسية في مواجهة الدين ص ٢٥ — ٢٦ .

أدلّة حدوث العالم من القرآن الكريم

جاءت الأدلة القرآنية بدلائل واضحة تؤكد أن هذا الكون وما فيه مخلوق لله الحكيم العليم ،وقد وجه القرآن الكريم فكر الانسان الى التطلع الى هذه المخلوقات العظيمة العجيبة ،التى تدل على حكمة وابداع ،وان تنظمها بهذه الدقة المتناهية لا يصدر الا عن القدير الخبير ،لذلك تكرر فى القرآن الكريم الحديث عن الانسان نفسه ،وعن الكون ومشاهده على أنها طريق للوصول الى ما وراءهما .

يقول الشيخ محمد المبارك : ((ان الكون المعروف فى القرآن عام شامل فهو لا يقتصر على وصف البلاد الصحراوية التى لا تعرف الأنهار، و لا على بلاد بعينها ،بل يشمل الارض كلها ثم يتجاوزها الى النجوم والكواكب والى الشمس والقمر ،ويشمل ما يبصره الانسان وما لا يبصره وما خلق وما سيخلق)) (١)

يقول شيخنا الاستاذ عبد الرحمن الميدانى حفظه الله : ((أما البرهان على أن هذا الكون حادث وليس بأزلى فتقدمه لنا الأدلة العقلية الفلسفية القديمة ، والقوانين العلمية الحديثة . فالأدلة العقلية الفلسفية تثبت لنا حدوث العالم من ظاهرة التغير الملازمة لكل شيء فيه ،وذلك لأن التغير نوع من الحدوث للصورة والهيئة والصفات ،وهذا الحدوث لا بد له من علة، وتسلسلاً مع العلل للمتغيرات الأولى .سنصل حتما الى نقطة بدء نقرر فيها أن هذا الكون له بداية فى صفاته وأعراضه وفى ذاته ومادته الأولى . و حيناً نصل الى هذه الحقيقة لا بد أن نقرر أن خالقا أزليا لا يمكن أن يتصف بصفات تقتضى حدوثه ،وهذا الخالق هو الذى خلق هذا الكون وأوجده بالصفات التى هو عليها)) (٢) .

---

(١) نظام الاسلام العقيدة والعبادة ص ٢٨ .
(٢) صراع مع الملاحدة ص ١٠٥ ــ ١٠٦

دليل الالتزام العقلي بين الوجود والعدم

معلوم عند العقلاء أن العدم هو النفي العام لكل ما يخطر بالبال ونفي صفاته فلا ذات ولا قوة ولا ارادة ولا علم ولا حياة ولا أي شيء .

فلو كان العدم هو الأصل فكيف استطاع أن يتحول الى الوجود ؟ وكيف يأتي من هذا العدم العام ذوات وصفات وقوى تنطلق بنفسها منه الى الوجود ، وانطلاقها هذا لا يكون الا بقوة ، والمفروض أن تكون من العدم .

انه من المستحيل بداهة أن يتحول العدم بنفسه الى الوجود أو أن يوجد العدم أي شيء . والى هذا المعنى جاءت الاشارة في القرآن الكريم .

قال الله تعالى : ((أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون)) (١) .

أي : هل انتقلوا من العدم الى الوجود من غير خالق ؟ أم هل كانوا هم الخالقين لأنفسهم في هذا الانتقال ؟ وكلاهما من الأمور المستحيلة بداهة وما دام قد ثبت لنا أن العدم لا يمكن أن يكون هو الأصل ، فلا بد أن يكون الوجود هو الأصل لأنه نقيض العدم . ولذلك يستحيل عقلا أن يطرأ العدم على وجود علمنا أنه هو الأصل والى هذه الحقيقة جاءت الأشارة في القرآن الكريم في قوله تعالى " وتوكل على الحي الذي لا يموت " (٢) .

ولو نظرنا الى الموجودات التي تقع تحت مجال ادراكنا الحسي في هذا الكون العظيم ، لوجدنا أن هذه الموجودات ومنها الانسان لم تكن ثم كانت . قال تعالى "لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم " (٣) .

وأن أشكال كثيرة كانت معدومة في أشكالها وصورها ثم وجدت كما هو مشاهد لنا باستمرار ، كما تبدو لنا صورة التغيرات الكثيرة الدائمة في كل جزء من أجزاء هذه المواد الكونية التي نشاهدها ، أو نحس بها أو

---

(١) الطور ٣٥

(٢) الفرقان ٥٨

(٣) التين ٤

أو ندرك قواها وخصائصها . فمن موت الى حياة ،ومن حياة الى موت ومن تغيرات فى الاشكال والصور الى تغييرات فى الصفات والقوى ،وكل ذلك لا يحلل فى عقولنا وفق قوانين هذا الكون الثابتة التى استفدناها من الكون نفسه الا بالأسباب المؤثرة التى تحطى سر هذه التغيرات الكثيرة المتعاقبة فى كل شيء من هذا الكون على اختلاف جواهره وصفاته سواء منها المتناهى فى الصغر أو المتناهى فى الكبر . وهنا نقول : لو كان الأصل فى هذه الموجودات المعروفة على حواسنا هو الوجود لم تكن عرضة للتحول والتغير والزيادة والنقص والبناء والفناء ،ولم تحتج صور وجوداتها وتغيراتها الى أسباب ومؤثرات . وبما أنها عرضة للتغيير والتحويل وبما أن قوانينها تفرض احتياجاتها الى الأسباب والمؤثرات ،لزم عقلا أن لا يكون الأصل فيها الوجود ،وانما يجب عقلا أن يكون الأصل فيها هو العدم ،ولا بدّ لها من سبب أوجدها من العدم وهو الله سبحانه وتعالى (١) .

دليل الامكان فى الكون

بملاحظتنا لكل شيء فى الكون ،سواء كان من الأشياء المادية التى يمكن أن ندركها ببعض حواسنا كالأرض والكواكب والنجوم ،أو صفة من الصفات القائمة فى الأشياء المادية التى نستنبط وجودها بعقولنا كالجاذبية الخاصة الموجودة فى حجر المغناطيس ،و كخواص المركبات المادية التى لا حصر لها فى الكون سواء فى ذلك الظواهر الكيمائية أو الفيزيائية . من خلال ملاحظتنا لجميع هذه الأشياء الكونية ،ندرك بداهة فى كل واحد منها أنه كان من الممكن عقلا أن يتخذ صورة و حالة غير ما هو عليه الآن . فما المانع من أن يكون العقل فى البهائم والنطق فى العجماوات ،و ما المانع من أن تكون الأرض أدنى الى الشمس والقمر من الوضع الذى هو

---

(١) العقيدة الاسلامية و أسسها بتصرف ص ١٢٥ — ١٣٠

عليه ،أو غير ذلك من أشياء كثيرة . فان قيل : ان الحكمة تقتضى أن تكون ... هذه الأشياء كما هى عليه الآن ،والا لاختل النظام وفسدت النتائج المرجوة من هذا الكون ،قلنا ان الحكمة هى صفة الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى . وما دام أن كل شيء فى هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذى هو عليه ،فان العقول لا بد أن تحكم بداهة بأن ما كان كذلك فلا بد له من مخصص قد خصصه باحتمال موافق للحكمة والابداع والاتقان من جملة احتمالات كثيرة ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح أو القول بأن موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريقة التصادف ،وكلاهما مستحيل عقلا .،وحيث ثبت لدينا أن جميع هذه الممكنات محتاجة الى المخصص الحكيم فان عقولنا تحكم بشكل قاطع أن هذا المخصص يجب أن لا تكون ذاته أو صفاته محلا لأى احتمال من الاحتمالات الممكنة التى تعرض لها الاشياء الكونية فى نظر العقل . وانما يجب أن يكون على وضع ثابت واجب عقلا لا يقبل العقل بحال من الأحوال أن تحتمل ذاته أو صفاته وضعا آخر . وقد أشار القرآن الكريم الى دليل الامكان فى عدة آيات كريمة منها قوله تعالى : ((ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا)) (١) . وقوله تعالى ((ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد)) (٢) .وقوله تعالى :((قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين)) (٣) وغيرها من الآيات الكريمة .

فقد بين سبحانه وتعالى فى هذه الآيات و أمثالها من القرآن الكريم أن الصور والأنظمة والأوضاع التى تشاهدونها فى الكون من الممكن أن تتخلف و تتغير ،وأن تتحول من وجود الى عدم ،ومن وضع الى وضع،

---

(١) الفرقان ٤٥ .

(٢) ابراهيم ١٩ .

(٣) الملك ٣٠ .

وذلك بقدرة الله تعالى . فاذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يسلب هذه النظم الحكيمة القائمة فى الكون ، وينجم عن ذلك الأضرار بحياة الناس فى الأرض فهل يستطيع أحد غير الله أن يثبتها على أوضاعها ؟ (١) .

دليل الاتقان فى الكون

من أعظم ما يدهشنا فى أنفسنا وفى الكون من حولنا ذلك الاتقان العجيب فى التركيب والصنع ، فما نصادف من شيء فى الأرض و لا فى السماء الا وهو فى غاية الاتقان مركب أحكم تركيب يؤدى به الى غايته التى خلق من أجلها .

أليس من الاتقان هندسة الكون العجيبة ، فى مخطط كواكبه ونجومه ، بحيث أن أى تغيير فيه يؤدى به الى الخلل والنقص ، أو الخراب والفناء ، وكذلك أليس من الاتقان المدهش هذا الانسان فى خلقه وتكوينه وكذلك هذه الحيوانات المدهشة فى تكوينهتا . نعم فى كل شيء نرى فيه الاتقان المدهش الذى لا يصدر الا عن الله سبحانه وتعالى الذى أتقن كل شيء صنعا (٢) .

وقد أشار القرآن الكريم الى دليل الاتقان فى الكون المادى . ((وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء انه خبير بما تفعلون))(٣) . وقوله تعالى : ((تبارك الذى جعل فى السماء بروجا و جعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا))(٤) .

---

(١) نفس المصدر ١٣١ — ١٣٤

(٢) انظر نفس المصدر ص ١٤٦ — ١٤٧

(٣) النمل ٨٨

(٤) الفرقان ٦١ — ٦٢

و غيرها من الآيات الكريمة التى تتحدث عن الاتقان فى الكون المادى .

خاتمــــة البحــــث

بعــد هذه الأدلة القرآنية التى أثبتت بشكل علمى عقلى أن الكون و ما فيه مخلوق حادث لله سبحانه وتعالى ،حيث لم يكن ثم كان بقدرته سبحانه وتعالى ،وذلك لأنه مخلوق من العدم ،والعدم لا يمكن عقليا وعلميا أن يكون هو الأصل فى الوجود ،ولا بد له من سبب أوجده يتصف بصفات الكمال والأزلية . ثم ان كل شيء فى هذا الكون ممكن أن يكون على غير الوضع الموجود عليه وقد ثبت من خلال البحث ان جميع الممكنات محتاجة الى المخصص الحكيم . كما أن الاتقان المدهش فى هذا الكون ،لا بد أن يصدر عن اله عظيم .

يقول الاستاذ محمد المبارك ((لا يقف الاسلام فى نظرته الى الوجود عند حدود عالم الشهادة والحس فى نطاق الكون المشاهد المتغير السائر وفقا لسنن كما يقف الماديون . فوجود الكون نفسه يحتاج الى تعليل ،و حركته وارتباط أجزائه واقتران أسبابه بمسبباته وانتظام قوانينه وسننه تحتاج الى تفسير .

((ان القرآن يدفعنا الى التفكير فى أكبر قضية ،والى البحث عن أكبر حقيقة وذلك حين يدعونا الى الاجابة عن أسئلة تدور كلها حول (الخلق) أى الايجاد من العدم))(١) .

وقد تحدث القرآن عن خلق النشأة الأولى ،وعن خلق السماوات

---

(١) نظام الاسلام العقيدة والعبادة ص ٣٤

والأرض و عن تسخير المنافع المادية للانسان . كما تحدث عن سنن الله سبحانه و تعالى هو خالق هذا الكون ،وهو المقدر لسننه وقوانينه ،وما دام هو الخالق المتصرف فى هذا الكون ،والقادر على توسيعه وزيادته كما قال تعالى : ((والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون)) (١) . فهو القادر على ابادته وافنائه ،ومـا دام سبحانه هو الموجد لسنن هذا الكون فهـو الحاكم ببقائه واستمراره والغائه وتبديله ،((ألا له الخلق والأمر)) (٢) .

من هذا كله يتبين لنا أن الكون مخلوق لله ،فالمادة على هذا الأساس محتاجة فى وجودها الى غيرها ،لأن المخلوق عاجز عن الخلـق لاحتياجه لغيره ،وقد أثبت أن الكون لا بد له من اله عظيم عليم قـدير يدبر أمره وسننه . وبهذه الأدلة التى عرضتها ثبت بشكل قاطع أن المادة مخلوقة لله عز و جل لأنها وجدت من العدم ،فهى حادثة ،والحادث لا بد له من محدث ،وبهذه يبطل قول الماديين بأزلية المادة ،كما أنهـا فى حالة حدوث وتغير دائمين ،فحدوثها وتغيرها دليل على أن لهـا بداية ،وهذا الدليل نفسه يقودنا الى أن للمادة نهاية محتومة لا بد أن تصير اليها ،لأن كل شيء له بداية فلا بد أن يكون له نهاية . قـال الله تعالى : ((كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)) (٣) .

و حين لا يسلم بهذه الادلة المنطقية العقلية التى عرضهـا القرآن الكريم عن حدوث الكون وبدايته ونهايته طائفة من المفتونين بالعلوم الحديثة وقوانينها ومنجزاتها ،فانى أعرض لهـم أدلـة مـن هـذه العلـوم وقوانينها تثبت حدوث الكون وأنه لا بد له من موجد أوجده من العدم ،كما أن له نهاية محتومة سيصير اليها .

---

(١) الذاريات ٤٧

(٢) الأعـراف ٥٤

(٣) الرحمـن ٢٦

الأدلــــة العلمية على حدوث المادة

****

أيـدت الكشوف العلمية في العصر الحديث أن للمادة بدايـــة حيث لاحظ العلماء أن حركة المادة في الكون كله حركة دائرية . فكـــل ذرة من ذرات الكون مؤلفة من جزئ كهربي موجب ويسمى البروتون ،وجزئ كهربي سالب ويسمى الالكترون ،وبعض الذرات تحتوى على جزئ ثالث معتدل يسمى النيترون ،هذا ويشكل البروتون والنيترون في حالة وجوده كتلـــة النواة (١) .

((أما الالكترون فهو يدور بسرعة دائرية هائلة (٢) ،ولولا هـــــذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الالكترون ولم يكن هناك امتداد لأى مادة على الاطلاق بل لولا هذا الدوران لكانت الأرض كلها ــ كما يقال ــ في حجم البيضـــة)) (٣) .

(هذا الدوران هو سنة الله في الطبيعة . فالقمر يدور حـــول الارض ،والأرض تدور حول الشمس . وهكذا كل ذرة تدور في هذا الكون والذى نريده هو أن الشيء الدائر لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية ابتدأ منها)(٤) .

---

(١) انظر الذرة و منافعها السلمية ص ١٤

(٢) انظر المادة وضد المادة ص ١٧

(٣) الله جل جلاله ص ٢٣

(٤) الماركسـية في مواجهة الدين ص ٣٦

يقول ادوارد لوثر كيسيل، فى معرض رده على القائلين بأزلية الكون : ((ولكن القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية [1] يثبت خطأ هذا الرأى الأخير ، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا ، فهنالك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة الى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الاجسام الباردة الى الاجسام الحارة . ومعنى ذلك أن الكون يتجه الى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الاجسام وينضب فيها معين الطاقة . ويومئذ لن تكون هنالك عمليات كيموية أو طبيعية ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون . ولما كانت الحياة لاتزال قائمة ، ولا تزال العمليات الكيموية والطبيعية تسير فى طريقها ، فاننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا والا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد ، وتوقف كل نشاط فى الوجود . ((وهكذا توصلت العلوم دون قصد — الى أن لهذا الكون بداية ، وهى بذلك تثبت وجود الله ، لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ، ولا بد له من مبدئ ، أو من محرك أول ، أو من خالق هو الاله . ((ولا يقتصر ما قدمته العلوم على اثبات أن لهذا الكون بداية ، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة)) [2] . ويقول جون كليفلاند كوثران : ((وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة. وعلى ذلك فان المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أنها ليست أزلية ، اذ أن لها بداية ، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة ، أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد ، وعلى ذلك فان هذا العالم المادى لا بد أن يكون مخلوقا ، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين كونية محدودة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان)) [3] .

---

(١) الديناميكا الحرارية ص ١٧٣ . من المستحيل على آلة مكتفية بنفسها غير مستعينة بأى عامل خارجى أن تنقل الحرارة من جسم الى آخر أعلى منه فى درجة الحرارة .

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٧

(٣) نفس المصدر ص ٢٥

أما عالم الطبيعة فرانك ألن فقد أرجع سبب وجود الكون الى أربعة احتمالات :

الاحتمال الأول : ان هذا الكون مجرد وهم و خيال .
الاحتمال الثانى : ان هذا الكون نشأ من تلقاء نفسه من العدم .
الاحتمال الثالث : ان هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية .
الاحتمال الرابع : ان هذا الكون له خالق أبدى .

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والاحساس ،فهو يعنى أن احساسنا بهذا الكون وادراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة ،وقد عاد الى هذا الرأى فى العلوم الطبيعية أخيرا سير جيمس جينز الذى يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلى ،وأنه مجرد صورة فى أذهاننا . وتبعا لهذا الرأى نستطيع أن نقول اننا نعيش فى عالم من الأوهام . فمثلا هذه القطارات التى نركبها ونلمسها ليست الا خيالات ،نبها ركاب وهميون وتعبر أنهارا لا وجود لها وتسير فوق جسور غير مادية ... ألخ ،وهو رأى وهمى لا يحتاج الى مناقشة أو جدال .

أما الرأى الثانى ،القائل ان هذا العالم بما فيه من مادة و طاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم فهو لا يقل عن سابقه سخفا و حماقة ،ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعا للنظر أو المناقشة .

والرأى الثالث الذى يذهب الى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية انما يشترك مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون ،وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية . واذن فنحن اما أن ننسب صفة الأزلية الى عالم ميت واما أن ننسبها الى اله حى يخلق ،وليس هنالك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما فى الآخر .

((ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا وأنها سائرة حتما الى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ،ويومئذ تنعدم الطاقة،وتستحيل الحياة . ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام الى الصفر المطلق بمضى الوقت)) .

((أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ،فهو اذن حدث من الأحداث ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ،عليم محيط بكل شيء قوى ليس لقدرته حدود ،ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه)) (1) .

أما عالم الطبيعة جورج ايرل دافيز فيقول فى معرض حديثه عن الطريق التى نصل بها الى معرفة الله،حيث وصل الى نتيجة هى أن الشيء المادى لا يستطيع خلق نفسه .

((ولا يمكننا أن نثبت وجود الله عن طريق الالتجاء الى الطرق المادية وحدها . اذ لم يقل أحد بأن الله مادة حتى نستطيع أن نصل اليه بالطرق المادية ،ولكننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله باستخدام العقل والاستنباط مما نتعلمه ونراه فالمنطق الذى نستطيع أن نأخذ به، والذى لا يمكن أن يتطرق اليه الشك ،هو أنه ليس هنالك شيء مادى يستطيع أن يخلق نفسه .

((واذا أسلمنا بقدرة الكون على خلق نفسه ،فاننا بذلك نصف الكون بالألوهية . ومعنى ذلك أن نعترف بوجود اله ،ولكننا نعتبره الها ماديا وروحيا فى نفس الوقت . وأنا أفضل أن أومن باله غير مادى خالق

---

(1) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٥ — ٦

لهذا الكون تظهر فيه آياته وتتجلى فيه آياديه دون أن يكون هذا الكون كفوا له)) (١) .

الطبيعـة لا تصلح أن تكون خالقـا

)))))))))))(+)(+)(+)(+))))))))

بعد أن بينت الأدلة التى تثبت حدوث العالم وان للكون بداية كما أن له نهاية سيصير اليها حتما ،كما قرر القرآن الكريم ،والاكتشافات العلمية الحديثة ،لأن لكل حادث محدثا ،فهذا الكون حادث خلقه الله سبحانه وتعالى بارادته ــ أناقش شبهة يرددها كثير من الناس الذيــن يدعون العلم والثقافة ،دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص حتى يصلوا الى الحق المبين ،هذه الشبهة هى شبهة الطبيعة التى ينسبون عملية الخلق اليها زورا وبهتانا . ولقد عرفنا فى التمهيد الأسباب التـى جعلت أوربا تعبد الطبيعة من دون الله ،الطبيعة التى لا كنيسة لهـا ولا التزامات ،تلك الظروف القاسية التى عملت النصرانية المحرفة والكنيسـة المضللة على ايجادها ،حيث استغلها أهل الافساد ،ومعهم اليهـــود فكرهوا أوربا من الدين ورجاله و كنيسته ،فهربوا الى عبادة الطبيعـــة هروبا وجدانيا ليتخلصوا من ظلم الكنيسة وسفاهتها .

ان كانت هذه ظروف أوربا ــ فنحن المسلمين ولله الحمـــد ليس فى ديننا تحريف ولا تبديل ،لأن الله تكفل بحفظ دينه ثم ان الظروف القاسية التى وجدت فى أوربا ليس لها وجود فى مجتمعاتنا ،فلسنا بحاجة الى الهروب الوجدانى الذى هربته أوربا من دينها .

ولكن المفتونين بحضارة الغرب هم الذين يريدون من أبنائنا أن يخرجوا عن دينهم تقليدا للغرب الذى نبذ دينه وخالقه بحجة أن العلم

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠ ــ ٤١

والمدنية فى أوربا سببهما تخليها عن دينها و كنيستها ،ونحن اذا أردنا أن نصبح مثلهم فلنترك ديننا ونأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرهـا .

هكذا يزرع المغفلون الجاحدون لنعمة الله في نفوس ابنائنـا وعقولهم ،ومن هذه اللوثات الحاد الناس وذلك بانكارهم وجود الله تعالى واعتقادهم أن الطبيعة هى الخالق من دونه ((. ... تعالى عمّـا يشـركون)) ((١)) .

ولنضع هذه القضية على شريحة النقد العلمى . ان الانسـان حين يسأل أحد الطبيعيين من خلق السماوات والأرض والجبال والأنهـار والحيوان والنبات ومن خلق الانسان يقول لك الطبيعة . فما هى الطبيعة وما هى مفاهيمها وما هى حقيقة تأثيرها ؟ يقول الدكتور حسن هويدى : ((الطبيعة فى اللغة ... السجية ،والخلق ،غير أن للطبيعة اليوم فـى عقول الناس ـ حسب تفاوتهم ـ مفهومين : المفهوم الأول : أنها عبارة عن الأشياء بذاتها ،فالجماد والنبات والحيوان ،كل هذه الكائنات هـى الطبيعة وهو مفهوم غير دقيق وحكم غير سديد كما سيتبين لك .

المفهوم الثانى : أنها عبارة عن صفات الأشياء و خصائصهـا، فهذه الصفات : من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة ،وملاسة وخشونة وهـذه القابليات : من حركة وسكون ونمو واغتذاء وتزاوج وتوالد ،كل هذه الصفات والقابليات هى : الطبيعة وسواء أكان القول الأول أو القول الثانـى هو المعبر عن الطبيعة بحق ، فما نصيب هذا القـــول مـــن الحـــق ؟ بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء .

أما القول الاول فلايخرج بالطبيعة
فالأرض خلقت الأرض والسماء خلقت السماء ،والأصناف صنعت نفسها والاشياء أوجدت ذاتها فهى الحادث والمحدث وهى المخلوق والخالق فى الوقـت ذاته . وبطلان هذا القول بين فهو : اما ادعاء بأن الشيء وجد بذاته من غير سبب . واما ازدواج الخالق والمخلوق فى كائن واحد ،فالسـبب عين المسبب وهو مستحيل . بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج الى الوقوف والشرح .

---

(١) النحل ٣

أما القول الثانى : وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها فى التكوين ، فنقول فيه : الحقيقة أن الذين يعزون الخلق الى تلك القابليات والخصائص ، لا يعدون عن كونهم وصافين لتلك الظواهر ، لا يعرفون كنهها ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها ، ولو فعلوا ذلك لوجدوا أن القابلية التى اعتمدوا عليها فى خلق الشيء سراب خادع يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا . ((ولايضاح ذلك بالطريق العلمى نضرب المثال التالى : نضع حبة فى التراب ونسقيها بالماء فتنتفخ وتنطلق فيظهر منها الرشيم ، ويندفع منه الجذر الى الاسفل ، والساق الى الأعلى وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار . وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلا ، فالقابلية التى كانت فى الحبة هى الانتفاخ والانفلاق وظهور الرشيم ... ولولا هذه القابليات المتوالية لما اطردت تلك الظواهر الحيوية ولما نشأت عنها الثمرة .)) فلنأت الى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شيء ، فمن الذى نفخها وفلقها ؟ .. لو كان للحبة عقل و تدبير ! لقلنا ان عقلها هو الذى هيأ لها ذلك ولولا ان الماء هو الذى نفخها وفلقها لأمكن للماء ان ينفخ فى الحديد و يفلقه ، اذن فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر واذا كانت الحبة بذاتها — جدلا — انتفخت وانفلقت فلماذا لم تجمد وتضمر بدلا من أن تنتفخ وتنمو ؟ ولكى يحصل التكاثر والبقاء يحتاج الأمر الى عقل وادراك ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة ، والبذرة لا تملك شيئا من ذلك ، فكيف حصلت اذن ثمرة بعينها ؟ بل كيف حصلت ثمار كثيرة متنوعة ؟! وكيف كمنت الغاية المعنية والصفات المقصودة فى صميم كل بذرة منها ؟! والحقيقة أن من أنعم النظر فى تعبير الطبيعيين المستندين الى القابلية حينما يقولون طبع النبات على ذلك ، انتفخت الحبة وانفلقت ، وتوالدت الخلايا ، تميل الحبة الى الانقسام ، يجد أنها جميعها أفعال مبنية للمجهول لجهلهم أو تجاهلهم الفاعل الحقيقى))(١) .

وهكذا نجد أن الطبيعة لا تصلح أن تكون خالقا ، حيث رأينا

---

(١) الوجود الحق ص ٥٤ — ٥٨

أن الطبيعة بالنسبة للموجودات ليست سوى صفاتها وقابلياتها وقوانينها التى تسير عليها ،وكل هذه الأشياء لا تصلح أن تكون خالقا ،ولابد لها من خالق عظيم عليم هو الله سبحانه وتعالى الذى خلقها فأحسن صنعها. ((صنع الله الذى أتقن كل شيء)) (١) .

مبدأ السببية

ان الانسان الذى أنعم الله عز وجل عليه بالعقل ،منذ أن أشرقت أشعة عقله على الوجود ،بدأ يتساءل ،ولا يزال وسيبقى يتساءل عن بداية نشأته وأين سينتهى مصيره . ويتساءل عن هذه الموجودات ، والكائنات ،فكيف وجدت ؟ ومن أوجدها ؟ وما هى الأسباب الكامنة وراءها ؟ لهذا كان مبدأ السببية من المبادىء الثابتة التى لم تتغير على مدى التاريخ ،وهو محل اتفاق بين المؤمنين والملحدين ،فالتطلع الى الأسباب والمسببات نتيجة طبيعية لميزة الادراك والعقل اللذين خصّ الله بهما الانسان دون سواه من المخلوقات .

وقانون السببية من المبادىء العلمية الضرورية التى لا مناص للانسان من الرجوع اليها فى جميع ما يصادفه فى حياته .

مبدأ السببية عند الشيوعيين

ذكرت أن مبدأ السببية قانون عام ،وهو من المبادىء الثابتة على مدار التاريخ ،وأنه محل اتفاق بين المؤمنين والماديين الملحدين ، وهو ضرورة انسانية ومن المبادىء العلمية التى لا غنى لمفكر عنها .

(١) النمل ٨٨

يقول سبركين وياخوت : ((نواجه دائما في نشاطنا سؤالا عن علل هذه الظواهر أو تلك . وهو أحد الأسئلة التي تساعدنا على تبيّن الطبيعة الداخلية للظواهر التي تجرى حولنا والتوصل الى جوهرها . لم يكن عبثا أن كتب الفيلسوف اليوناني القديم ديموقريطس يقول :((لأفضل أن أجد السبب الحقيقي ولو لظاهرة واحدة من أن أصبح قيصرا على بلاد فارس)).

((فاذن ماذا تعني مقولتا ((السبب)) و ((النتيجة)) ؟

نعرف من الخبرة أنه من لا شيء لا ينتج شيء ،وكل ظاهرة لها ما يولدها ،وهو الذى يسمونه ((السبب)) .
((السبب هو ما يخلق وينتج ويولد ظاهرة أخرى . وما ينتج تحت تأثير السبب يسمى نتيجة أو فعلا)) [1].

هذا وقد جعل الماديون من هذا القانون مبدأ عاما يصدق على كل شيء في العالم المادى . لذلك أخضعوا جميع الظواهر الكونية لهذا المبدأ لأن كل شيء له سببه الخاص به . فلا توجد ظاهرة لاتخضع لهذا القانون .

يقول سبركين وياخوت : ((والسمة التالية للسببية تنحصر في أنها تحمل طابعا عاما ،وقانون السببية قانون عام للعالم المادى .

((وهذا يعني أنه لا توجد ظاهرة واحدة لا تخضع لهذا القانون ،أو تظهر رغم قانون السببية ،وألا يكون لها المصدر المادى المناسب ،ومن خبرتنا الشخصية نعرف أن قانون السببية ليس له استثناءات فاذا حدث شيء فابحث عن السبب ،وبدونه لا ينشأ شيء في العالم . وليس صدفة المثل الشعبي الذى يقول : ((لا دخان بلا نار)) [2].

---

(١) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٨٥ — ٨٦
(٢) نفس المصدر ص ٨٨

" فى الحياة العملية نبحث دائما عن سبب الحوادث التى تحدث "(١) .

ولكن هذا المبدأ العام الذى أخذ به الماديون من الناحية النظرية هل طبقوه من الناحية العملية ؟ . ولا بد من طرح سؤال وهو مثار خلاف جذرى بين المؤمنين من جهة وبين الماديين للملحدين من جهة أخرى وهو : ما هو السبب الكامن وراء هذا الوجود من أرض وسماوات ، ونبات وحيوانات وأنسان وغيره من المخلوقات ؟ هذا السؤال نجد الاجابة جاهزة وميسورة ومتوفرة عند الماديين ، وهى أن هذا من ألامور الميتافيزيقية التى لا تهمنا بحال من الاحوال ، ولا نشغل عقولنا بها لأنها أمور تافهة والبحث عنها مضيعة للوقت ، فكل شئ يخالف نظريتهم ولو كان صحيحا لا يأخذون به ويصمونه بوصمة عار عندهم وهى ارجاعه الى الميتافيزيقيه أو الى المثالية التى هى فى عرفهم عدوة للعلم ، فهم لا يعرفون الا العالم المادى ، هذا العالم وجد ولا خالق له ، وبالتالى فليس له سبب أول أوجده .

وقد كتب لينين بصدد المفهوم المادى عند فيلسوف العهد القديم هيراكليت يقول فى ترجمة حرفيه : " العالم ، وحدة الكل ، لم يخلقه أى اله ولا أى انسان ، ولكنه كان وهو سيبقى نارا حيه أزليا تشتعل وتنطفئ بموجب قوانين ... هذا عرض جيد جدا لمبادئ المادية الجدلية " (٢) .

فى هذا النص نرى أن لينين نفى السبب الأول فى ايجاد العالم المادى ، وهذا نفى صريح للقانون الذى قرروه هم أنفسهم ، حين وقفوا فى تفسيرة عند حدود معينة لم يتجاوزها . لان تجاوز هذه الحدود يؤدى بهم الى الاعتراف بخالق الكون ، ومن ثم الاعتراف بالاديان وهذا يخالف أساس مذهبهم القائم على محاربة الاديان وابادتها من الوجود .

وقد بينت أن العلماء أثبتوا حدوث الكون وقدروا له عمرا معينا منذ نشأته وأن له نهاية لابد أن يصير اليها .

وما دام الماديون لا يعترفون بخالق هذا الكون ، والمادة أو

---

(١) نفس المصدر ص ٨٨

(٢) الدفاتر الفلسفية ص ١٢٨ — ١٢٩ .

الطبيعة عندهم هى الخالق ، فلا بد من القول ان المادة الحادثة التى قطع العلم بحدوثها لا تصلح أن تكون خالقا ، والطبيعة لا تستطيع أن تخلق شيئا وانما هى مخلوقة لرب السماوات والأرض وعلى هذا فان الماديين لم يحققوا مبدأ السببية فى ميدان الواقع كما قرروه فى النظرية لأنهم لو طبقوا هذا القانون حسب قواعده لأدى بهم الى الاعتراف بخالق عظيم وراء هذا الكون كما ذكرت سابقا .

مبدأ السببية فى مفهوم الدين

ان الذى فهم مبدأ السببية حق الفهم هم علماء الدين ومن وافقهم من العلماء والفلاسفة ، حيث لم يقفوا بالسببية عند حدود معينة — كما رأينا عند الغائيين — بل ساروا بها حتى النهاية ، الى آخر ما تقرره من أحكام . يقول الدكتور حسن هويدى :

" منذ امتياز هذا الانسان بالادراك واشراقلا أشعة عقله على الوجود ، تساءل ، ولا يزال ، عن مبدئه ومنتهاه ، فهو يتساءل من أين أتى ؟ والى أين يصير ؟ وهو اذ ينصرف فكره الى أن وروده المباشر الى هذا العالم انما كان من رحم أمه ، أو من نطفة أبيه ، لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة ، دون النظر الى المبدأ الأول والبحث عن السبب الأساسى الذى ترجع اليه جميع الأسباب ".

ولهذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية ، والذى ولد معها وما زال يلازمها ، كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل ، فنشأت أحكام مختلفة ونظريات متباينة ، وكان منهم مخطئ ومصيب . غير أننا اذا نظرنا الى ما بين أيدينا من السماء والأرض ، نرى أن المطر ينهمر من سحاب ، وأن التمر يحصل من شجر ، وأن الشجر ينبت من الماء والتراب ، وأن الماء ينشأ من عنصرى (الأوكسيجين والهيدروجين) . ولم يشاهد الانسان منذ فتح عينيه على ، أن حادثا حدث من غير سبب أو

أن شيئا وجد من غير موجد ، حتى أضحى هذا المعنى بحكم الواقع القاهر لا يتصور العقل خلافه ، ولا يطمئن الى غيره . ولا يأبى الاقرار به الا عقل مريض شأن المتوهين ، أو عقل قاصر شأن الطفل الذى يكسر الاناء ثم يقول : انه انكسر بنفسه " . . .

ولذلك وجدنا ذلك العربى قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية فنادى نداءه المشهور : " البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على على المسير ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا تدل على الصانع الخبير ؟ "

اذن فقولنا : " لا بد لكل حادث من محدث " أمر يقيني مسلم به ولا يقبل العقل غيره ، وبالتالى : محال على حادث أن يحدث بذاته ، وعلى شيء بأن يوجد بغير موجد ، واليه الاشارة فى القرآن الكريم " أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون " (١) .

نقول بناء على هذه القاعدة : ان عالمنا هذا من أرض وجبال وبحار وأنهار وشجر ودواب ، وشموس وأقمار ، لا بد له من محدث . وان هذه الحوادث الفرعية مندفعة عن أسباب أخرى أقل من الأولى ، ولا بد أن نصل بالنتيجة الى سبب لجميع هذه المسببات ، ومحدث لجميع هذه الحادثات ، لأننا كلما رجعنا الى الأصل الذى اندفعت عنه المسببات ، قلت العوامل الدافعة حتى نصل أخيرا الى مسبب واحد " . . .

" اذن فانكار محدث للحوادث ، وموجد للوجود تناقض مع العقل واقامة على الخطأ " (٢) .

---

(١) الطور ٣٥

(٢) الوجود الحق ص ٢٥ — ٢٨

مسـألة قـدم العالـــم

. أثار الفلاسفة الالهيون مسألة قدم العالم ،مع اعترافهـــم بالله سبحانه وتعالى ،وأن تقدم الله على العالم ،كتقدم المقدمة علـــى النتيجة ،والتقدم انما هو بالذات وليس بالزمان ،لهذا لم يكن ماركـــس هو أول من قال بقدم العالم وأزليته ،وانما سبقه كثيرون . وقد فنـــد العلماء المسلمون شبه الفلاسفة وأثبتوا أن العالم حادث .

فهذا الغزالى رحمه الله يرد على الفلاسفة ،ويثبت حدوث الكون بناء على ملاحظة الحركة والسكون :

" ان دورة من الفلك اما أن تكون شفعا أو وترا ،فان كانـت شفعا فقد أتمت عددا فرديا ،وان كانت وترا فقد أتمت عددا زوجيا . اذن فالعدد السابق على كلا الحالتين محدود . ولما كان محدودا فهو حادث قطعا ،ولو استمر الناقد فقـال : ان أصل العالم (هيولاه) قديم ،والحركة طارئة ،قلنا له : من أين طرأت الحركة ؟ فهو اذن اقرار منه صريح بوجود مرجح آخر أثر على العالم بايجاد الحركة . بل هو استمجال فاصل للاقرار بوجود خالق للعالم ،فالناقد بين أمرين : اما أن يرجع الى قولنا بالحدوث فيعترف بالخالق ،أو ان يقر بوجود المرجح وهو اعتراف بالخالق ،اذن فنقد الناقد لم يصل القرار ولـــم يثبت للنقـــد "(١) .

ويأتى العيب على الماديين من نسبتهم الخلق للطبيعة واعطائها خصائص الله (سبحانه عمّا يشركون)(٢) . فالطبيعة أو المادة غير مخلوقة لأنه لا يمكن افناؤها . ويستدلون على أبدية المادة ونسبة الخلق اليهـا بآثارها الواضحة الملموسة لديهم ،فى نفس الوقت الذى نراهم فيه يصبيون

---

(١) نقلا عن نفس المصدر ص ٢٩ ــ ٣٠

(٢) التوبـــة ٣١

على غيرهم الايمان باله حى قادر خالق ، مع أن آثاره التى تدل عليه سبحانه موجودة واضحة ملموسة .

ونسبة الخلق الى الطبيعة أو المادة لم يقل بها العلماء فى أوربا عموما وماركس وشيعته خصوصا ، استنادا الى الحقائق العلمية ، وذلك لأن العلم يخالف هذه النظرة ولا يمدهم بأدنى دليل ، ولكنهم قالوها هروبا من الكنيسة واله الكنيسة . الكنيسة التى حاربت العلماء وكرهتهم فى الدين ، فهم أرادوا خالقا ومعبودا وربا بلا كنيسة ولا رجال دين ولا التزامات ولا قيود .

فنسبة الخلق الى الطبيعة وهم لم يقم عليه دليل علمى ، وسيبقى التحدى الذى تحدى به القرآن الكريم قائما حتى يرث الله الأرض ومن عليها " أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون "(1) .

واذا كان الماديون باعترافهم هم أنفسهم يقرون بأن أصل الحياة لا يزال غامضا ، وأن العلماء لم يتوصلوا الى معرفته ، فكيف يطلبون من الناس أن يقبلوا فكرتهم التى ترد الخلق الى الطبيعة وتطرد الاله من الوجود على حد تعبيرهم ؟

كيف نقبل فكرتهم ، وقد أثبتت الآيات القرآنية الكريمة ، ووافقها العلم الحديث ، أن الكون حادث والمادة مخلوقة ، والطبيعة لا تقوى على الخلق ؟ . وكيف يستطيع المخلوق المحتاج الى غيره فى ايجاده أن يخلق من هو أعلى منه درجة وهو الانسان الواعى ؟ الذى يسيطر على الطبيعة ويحيط بقوانينها ؟ والمعروف أن المصنوع لا يحيط بصانعه .

بعد هذا أقول : ما دام قد ثبت لنا أن للمادة بداية كما أن لها نهاية فهى حادثة ، والحادث لا بد له من محدث ، والحادث لا يستطيع أن يخلق . وعلى هذا الأساس فان التفسير المادى للتاريخ قد شيد بناؤه على أساس باطل ، وهو أزلية المادة وأبديتها . فأول حكم

---

(1) الطور ٣٥

يهدم من أحكام الماديين الأساسية الحادهم بالخالق حيث نسبوا الأزلية والأبدية والخلق للمادة . وما دام قد ثبت أن المادة مخلوقة فانه تنشأ أحكام أخرى تهدم أحكامها الفرعية دون أن يكون النقد موجها الى الفروع مباشرة ،لأن ظهور الباطل في النظريات لا بد أن يهدم الأباطيل الناشئة عنه في جميع الفروع بصورة تلقائية ،كابناء الشامخ يتداعى جملة واحدة بنقض أساسه . ولقد صورت الآية الكريمة هذا المعنى بصورة واضحة محسوسة . يقول الله تعالى :

" أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين "(١) .

بعد هدم هذا الأساس الذى بنى الماديون عليه صرح نظريتهم وهو قولهم بأزلية المادة وأبديتها . وقد ثبت لنا من خلال البحث أنها مخلوقة ومصيرها الى الفناء . نأتى لمناقشة الماديين في مسألة أسبقية المادة في الوجود على الفكر . لنرى قيمة هذه الدعوى من الصحة والبطلان على شريحة البحث .

وعلى الرغم من ثبوت أن المادة حادثة فما تزال النظرية الباطلة القائلة إن المادة لا تفنى ولا تستحدث تدرس في المدارس الإسلامية إلى اليوم .

---

(١) سورة التوبة ١٠٩

((الفصل الثانـــى))

هل المادة سابقة فى الوجود على الفكـــر ؟

بينت فى عرض النظرية من وجهة نظر اصحابها ان الماديين يقولون .: ان المادة سابقة فى الوجود على الفكر ، لان الفكر انعكاس للمادة الواقعة على الدماغ ، والمادة هى العنصر الاول لانها منبع الاحساسات والتصور والادراك .

والادراك عنصر ثان مشتق لانه انعكاس المادة وان الفكر هو نتاج المادة لما بلغت فى تطورها درجة عالية من الكمال .

كما بينت انهم يقولون انه لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة لان هذه المادة هى جوهر التغيرات التى تحدث .

ماهى المادة ؟

نشأت الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر فى ظل التعريف السطحى للمادة " بانها كل ماتقع عليه الحواس " . ونجح الاتباع والتلاميذ فى مطلع القرن العشرين فى اعطاء الماركسية قدرا من مصل الحياة بعد ان توالت الاكتشافات العلمية وتجاوزت ماتقع عليه الحواس الى عالم الذرة .. فاعادوا صياغة التعريف بان المادة : هى الوجود الموضوعى خارج الذهن . واليوم يقف ٣٩ عالما سوفياتيا اشتركوا فى تاليف " اسس الماركسية اللينينية " حائرين بعد ان افلتت جميع التعريفات من ايديهم ، وفقدت المسلمات النظرية حقيقتها امام الممارسة العلمية من جانب والتقدم العلمى من جانب آخر " . (١)

ولابد لى من مرور سريع على تعرف المادة منذ القرن التاسع عشر حتى نهاية القرن العشرين .

ان تفجير الذرة فى القرن العشرين قد فتح الباب امام تعريفات جديدة للمادة ومحاولات اعمق فى مهمتها .

يقول استوالد : " المادة صورة من الطاقة فحسب " .

وقال ليبون : " المادة صور مختلفة من الطاقة " .

ويقول ايضا : " ان عناصر الذرات التى تشغل تفنى تماما فهى تفقد كل صفة للمادة

---

(١) حوار مع الشيوعيين ص١٠١

بما فى ذلك الثقل وهو اكثر صفاتها اساسيا ذلك ان الميزان يعجز عن وزنها ولا شىء يستطيع أن يعيدها الى حالة المادة فقد اختفت فى عظمة الاثير • والحرارة والكهرباء والضوء تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها فى الاثير • "

ولكن الاثير ماهو؟ •• لا احد يعرف •

يقول الاستاذ ادنجتون احدث حجة فى هذا الموضوع : (ليس الاثير نوعا من المادة فهو لامادى ". (١)

ويقول الاستاذ العقاد : " وحدثت فى السنوات الخمس الاخيرة من القرن التاسع عشر حوادث علمية غيرت كل صورة من صور المادة عرفها الاقدمون " • فقد عرف الكيميون قبل ذلك ان عناصر المادة اكثر من اربعة وانها ليست محصورة فى النار والتراب والهواء والماء • وعرفوا ان ذرة الهيدروجين اخف العناصر ليست هى اصغر جسم من اجسام المادة ينتهى اليه التقدير •

عرفوا الكهرب الذى تحسب ذرة الهيدروجين جبلا ضخما بالقياس اليه ثم تقدموا فى معرفة الكهرب والذرة حتى افلتت المادة كلها من بين ايديهم ولم يبق منها غير حسبة رياضية •

حسبة رياضية كانوا يحسبونها مثلا فى الدقة والضبط والعصمة من الخلل • فاذا هى فى النهاية حسبة لا يضبطها الحساب الا على وجه التقريب • افلت من المادة كل شىء ثابت او كانوا يحسبونه مضرب المثل فى الثبوت والحقيقة •

" وتقدم العلم بالكهرب والذرة مرة اخرى • فاذا المادة كلها كهارب وذرات • واذا بالذرات تتفلق فتنطلق شعاعا كشعاع النور • هل هذا الشعاع موجات ؟ هل هو جزئيات ؟ قل هذا او قل ذاك • وهذا وذاك فى ميدان التجربة سواء • وعاد العلماء التجريبيون الى القوانين الطبيعية التى تحكم الحركة والضوء وكل ما فى عالم المادة من كهارب وذرات فوجدوا لها قانونا واحدا وهو الخطأ والاحتمال • " (٢)

بعد هذه الجولة السريعة فى تعريفات المادة اعود لمناقشة اسبقية المادة فى الوجود على الفكر •

---

(١) هذه التعريفات نقلا عن كتاب حوار مع الشيوعيين داخل اقبية السجون ص١٠٠ ــ ١٠٢
(٢) عقائد المفكرين ص ٥٦ ــ ٥٨ وانظر مصير الانسان ص ١٦ •

أولا : المغالطة المفتعلة في أسبقية المادة على الفكر :

تعمد الماديون الماركسيون افتعال المغالطة التالية وهي : جعل الفكر الانساني موضوعا للقضية التي يريدون اثباتها ، وهي أن المادة سابقة في الوجود على الفكر . حتى يصلوا الى النتيجة التي يريدونها وهي : مادامت المادة هي سابقة في الوجود على الفكر . فان ادراك الناس لا يحدد حياتهم بل ان الحياة المادية هي التي تحدد ادراكهم وبالتالي فان الاديان والاخلاق نابعة من الاصل المادي .

ووجه المغالطة انهم جعلوا الفكر الانساني موضوع القضية بينما الموضوع هو العلم الكلي الذي اخضع الكون وهندسة واتقنه غاية الاتقان . فهم ارادوا بهذه المغالطة المكشوفة ان ينتقلوا من الفكر الانساني وتقرير اسبقية المادة عليه الى انكار العلم الرباني الذي دبر امر هذا الكون ونظمه . وهذه المغالطة اشبه ماتكون برجل راى برج (ايفل) في فرنسا فحكم بان هذا البرج موجود قبل الفكر . لكن هذا البرج اليس هو ثمرة عمل ذاتي . او ثمرة فكر اخر خطط له وفكر في صنعه حتى وصل الى هذا المستوى الرفيع من البناء ؟ فهل الناظر الى برج (ايفل) بعد ان بنى حجة على الحقيقة وهي انه وجد بعد خطة تنظيمية ؟ هل يستطيع هذا الانسان ان يلغي فكرة المهندس والبناء من الوجود ؟

ان الجواب العلمي بلا شك هو لا .. فكيف بهذا الكون العظيم الذي هو غاية في الاتقان - والانسان المفكر من جملة مخلوقات الله سبحانه وتعالى الموجودة في هذا الكون العظيم - هل يستطيع احد ان ينكر ان وراءه خالقا عليما نظمه وفق سنن يسير عليها ؟ اذن فالمغالطة تكمن في موضوع القضية وهو الفكر الانساني الذي هو جزء من مخلوقات الله الكثيرة في الكون المادي .

ولو انهم انصفوا في البحث العلمي — وهم يزعمون انهم علميون — لجعلوا موضوع القضية العلم الكلي الذي سبق تنظيم الكون . ولكنهم لا يريدون هذا الامر لانهم لا يستطيعون ولا يملكون اي دليل يخدمهم في زعمهم ان المادة سابقة في الوجود على علم الله وارادته . لان المادة مخلوقة من مخلوقات الله تعالى خلقها بارادته . والله

سبحانه وتعالى ازلى وصفاته ازلية وذاته سبحانه تعالى ليست كالذوات وصفاته ليست كالصفات " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " (١)

فارادة الله تعالى سبقت وجود المادة وهى التى نظمت هذا الكون واتقنت صنعه .

وان كان لديهم الدليل العلمى المقنع على اسبقية المادة فى الوجود على علم الله وارادته فليأتونا به ان كانوا صادقين .

ثانيا : الفكر الانسانى يصل الى مجردات ذهنية لاتمت الى الواقع الموضوعى بصلة .

ان الانسان الذى ميزه الله سبحانه وتعالى عن سائر المخلوقات بالعقل منحه الله سبحانه وتعالى القدرة على الوصول الى مجردات ذهنية لاتمت الى الواقع الموضوعى بصلة . وهى القدرة على التفكير التصويرى . فالعقل يحكم بثبوت شيء وتقريره بلا اشارة له من واقع موضوعى . وهو المعقول فى نفسه لا المدرك من المواد . ذلك ان للعقل فطرة خاصة يتمكن بقوتها من اصدار احكام انشائية جديدة لا يكون منشوء هنا الحس ولا يمكن ادراكها من المواد وهى المعارف العقلية الضرورية والاوليات البديهية كالواحد نصف الاثنين والكل اكبر من الجزء والحادث لابد له من محدث .(٢)

ثالثا : المصنوع لايحيط بصانعه :

ولو سلمنا جدلا ان المادة ازلية ــ وقد ثبت انها حادثة ــ فان هذا لا يفيد الماركسيين فى دعواهم بان الانسان من صنع المادة وفكره نتاج للمادة وذلك لان العقل الانسانى " انتهت به رؤيته للمادة الى حافة الاثير عند ماخرج عن كل صفة معروفة من صفات المادة ولم يبق الا حسبة رياضية لها دلالة كبرى وهى ان الانسان ليس من صنع المادة . لان المصنع لايحيط بصانعه . والانسان قد احاط بكل صور المادة وخرج بها الى دائرة اوسع منها هى دائرة الاثير . بل الى عمليات رياضية فكرية فى قدرة الانسان ان يحتويها . وهذا لا يتاتى الا اذا كان فى طبيعة الانسان شيء يعلو على مكونات المادة . شيء مفارق لكل خصائصها المعروفة . واذا تحولت المادة الى حسبة

---

(١) سورة الشورى اية (١١)
(٢) انظر قصة الايمان ص٨٧ .

رياضية يحتويها الفكر ، فان ذلك يجعل المنطق القائل بان المادة أسبق في الوجود من الفكر في مأزق على شديد التناقض مع معطيات العلم الجديد وفي مأزق أشد حرجا مع مسلمات الماركسية التي قامت على اساس صحة هذا الافتراض . وما ارتبط به بعد ذلك من مصالح سياسية كبرى وما اشد محنة العالم حين يقف حائرا بين دواعي السياسة وامانة العلم " (١)

وعلى هذا الاساس فان في الانسان جوهرا في ذاتيته اكمل من المادة وبهذا الجوهر تميز الانسان وتميزت خصائصه عن خصائص المادة . فهذا الكون العظيم لا يوجد فيه شيء غير مسبوق بخطة تنظيمية . فالعمارة لابد لها من فكرة مهندس والعمارة في صنعها اقل تعقيدا من اى خلية حيوانية في الانسان . اضف الى ذلك أن وجود الحياة في المادة لم يقترن باي دليل تجريبي يثبت تحول المادة الميتة الى مادة حية ، عن طريق التولد الذاتي رغم كل التجارب العلمية التي قامت في عالم البحث العلمي حتى الان . (٢)

كما أن دقة صنع هذا الكون واتقانه قد سبقتا بخطة تنظيمية نظمها الحكيم العليم .

تراجع الماديين عن القول بأسبقية المادة في الوجود على الفكر

وحسبنا لفساد هذه النظرية ان اصحابها تراجعوا في اخر الامر عن القول باسبقية المادة في الوجود على الفكر .

يقول اصحاب كتاب اسس الماركسية اللينينية : " ان النشاط الذهني او الفكر خاصة مميزة للمادة ولكنها ليست شكلا من اشكال المادة وفي المسألة الاساسية في الفلسفة يطرح الفكر كضد للمادة والروح كضد للطبيعة . فالمادة هي اى شيء يوجد خارج العقل ولا يتوقف عليه . وبالتالي يكون من الخطأ الجسيم اعتبار الفكر جزءا من المادة وفي الوقت الحالي يعتبر التوحيد بين الفكر والمادة من مفاهيم المادية المنحطة "

اذن لقد وصف العلماء السوفيات انفسهم الفكر المادي للقرن التاسع عشر الذي قامت الماركسية على اساسه والذي يسوي بين المادة والفكر ويعتبر الفكر شكلا متطورا من اشكال المادة يعكس الوسط المادي . وصفوا هذا القول بانه مفاهيم مادية

---

(١) حوار مع الشيوعيين ص ١٠٤ ـ ١٠٥
(٢) انظر صراع مع الملاحدة ص ١١٦

منحطة . فهل معنى ذلك انهم يقولون بانفصال الفكر عن المادة ؟

نجدهم يتناقضون ويحاذرون من هذه النتيجة ايضا ، اذ يقول موءلفو (اسس) الماركسية اللينينية " . " ان الجدلية المادية ترفض اى فصل بين الفكر والمادة اذ ان هذا الفصل يعنى فى جوهره العودة الى وجهات النظر الجاهلة البدائية عن تاريخ الانسان .. عندما كانت كل ظواهر الحياة تفسر بانها راجعة الى الروح التى كان يفترض انها تدخل الجسد " .

اذن فهما متصلان منفصلان . وتلك مشكلة جاء حلها فى نفس هذا الكتاب على الوجه التالى : " ان حل المشكلة السيكوفسيولوجية اى مشكلة العلاقة بين النشاط العقلى وجهازه اى المخ (وهو عضو مادى فسيولوجى) يجب أن ننظر فيه الى كل من الاختلاف والاتصال بينهما . انه لمن المهم ان نحى الخلاف بينهما لان الوحدة بين المادة والفكر تؤدى الى الغموض ، غير انه من ناحية اخرى ينبغى فصل الوعى عن المخ لان الوعى وظيفة المخ " .

كل هذا العنف والجهد هو فى مجال البحث عن العلاقة المتبادلة بين الفكر والمادة وهل الفكر مجرد انعكاس ام يعمل بطريقة فيها تميز . اما مشكلة ايهما وجد اولا المادة ام الفكر .. فقد صرف مو لفو (اسس) الماركسية اللينينية النظر عن القطع فى هذه القضية وذلك فى قولهم : " ابتدع ماركس وانجلز الجدلية المادية خلال صراعهما ضد النظرية الميتافيزيقية التى تنكر التطور غير ان الوضع قد تغير بعد هذا . ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر انتشرت فكرة التطور (بفضل نظرية داروين) . وفى الوقت الحالى يقوم الصراع بين الجدلية والميتافيزيقية بصفة رئيسية حول معرفة كيف نفهم التطور وليس حول ما اذا كان هناك تطور "(١) .

ونسوا بذلك انتنازلهم عن الاصرار على ان المادة اولا سيفقدهم القدرة على ان المادة هى الموءثر الحاسم فى عملية التطور وان ذلك مقدمة لمزيد من التراجع " .

ثم يستمر التراجع ولكن فى خجل شديد ليعطى العقل حقا اخر هو حق التميز عن المادة حيث يقول مؤلفو هذا الكتاب : " ان الادراك لا يتعلق دائما بالفرد

---

(١) حوار مع الشيوعيين ص ١٠٥ ـ ١٠٦

وبالوقائع العملية وبالاوجه الخارجية للظواهر وهو يعكس كل هذا بدرجة كبيرة أو قليلة من الدقة . والادراك المجرد ايضا انعكاس للحقيقة يحتوى حقيقة موضوعية ولكن الادراك المجرد يعكس الاعمال الداخلية للحقيقة لانه لا يتبع الوجه الخارجي المحسوس للظواهر ولكنه يميز الصلات والعلاقات الجوهرية الموجودة عند جذورها .. ان قوة الفكر تتمثل فى مقدرته على تجاوز اللحظة وادراك تطور الماضى وتطور المستقبل بواسطة القوانين الموضوعية التى اكتشفها . وان الفكر عملية نشطة وهى عملية خلق الافكار والتفاعل معها . غير ان الفكر وناتجه (الادراك) متصل بالعالم الموضوعى ، ليس اتصالا مباشرا ولكنه اتصال غير مباشر خلال نشاط الادراك الحسى وفائدة الادراك الفكرى انه غير مقيد بالوقائع المحسوسة غير متوقف عليها نسبيا ولهذا فهو قادر على الدراسة النظرية وتحليل الظواهر على تقريب غير محدود للحقيقة المجردة وانعكاس اكثر واكثر دقة للعالم .[1] " وهكذا تراجع وراء تراجع .

* هل الروح والفكر والاحساس ثمرة من ثمرات المادة ؟

قبل مناقشة هذه المسألة لابد من طرح سؤال هو : ماهو الدليل العلمى على أن الروح والفكر والاحساس ثمرة من ثمرات المادة .. ؟

ان أدق ماقدمته الماركسية من برهان على هذه الدعوة الى الان هو ان الحياة تنشأ عن الحرارة والحرارة بدورها تنشأ من الحركة .[2] اى ان الحركة + حرارة = حياة ونحن نلجأ الى نفس الاسلوب الذى تسير عليه الماركسية لضبط سلامة معارفنا وهو التطبيق العملى لنرى هل الحركة + الحرارة = الحياة . ؟

ولنتساءل من الذى جمع هاتين الظاهرتين الى بعضهما (بجهد من تطبيقه الخاص) بهذه البساطة او بما شاء من التعقيد الكيميائى فاستخرج منها حقيقة الحياة ؟ .. وهنا لابد ان اعيد الى الاذهان خبر المؤتمر الذى عقده ستة من علماء الحياة فى كل من الشرق والغرب فى نيويورك عام ١٩٥٩ م وكان فيهم العالم الروسى (اوبارين) استاذ

---

(١) :. اسس الماركسية اللينينية ص ١٠٢ ــ ١٠٣ نقلا عن مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية والاسلام ص ٤٨

(٢) انظر المادية والمذهب التجريبى النقدى ص ٢٤ .

الكيمياء الحيوية في اكاديمية العلوم السوفياتية املا في فهم شيء عن اصل الحياة ومنشأها على ظهر الارض والى معرفة مدى امكان ايجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي لقد قرر المجتمعون في نهاية بحوثهم بالاجماع ان امر الحياة لايزال مجهولا ولا مطمع في ان يصل اليه العلم يوما ما . وان هذا السر ابعد من ان يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة . " (١)

يقول الدكتور محمد سعيد البوطي : " لو صح ان المادة هي ينبوع الروح وما يتفرع عنها لقضى العقل بحكم البديهة ان يكون الانسان اسبق الى فهم الروح وعناصرها واسرارها منه الى فهم المادة وذراتها وجزئيات تلك الذرات وكهاربها . ذلك ، لان العقل اذا ادرك اصل الشيء وحقيقته فهو احرى ان يدرك ثمراته وفروعه بجهد اقل وطريقة اقصر .

" ... اذ هي حال هؤلاء الماديين انفسهم ... يقولون ان الروح وما تستتبعه من احساس وفكر من ثمرات المادة ومعطياتها ، فيجب بمقتضى ذلك ان يدركوا من الروح قدر الذي ادركوه من المادة وذراتها على اقل تقدير .

وهذا مالا يرتاب فيه عاقل .. ولكنهم يعترفون بأنهم الى هذه الساعة التي هم فيها لا يعلمون شيئا عن الروح . بل يزيدون الامر تأكيدا فيقررون ان العلم ذاته لا يستطيع ان يقول شيئا عن الروح " .(٢)

يقول انجلز : " انه – يقصد العلم الطبيعي – لم ينجح بعد في انتاج الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات اخرى . وفي الحقيقة انه لم ينجح بعد في انتاج الهيولى البسيطة او الاجسام الآحينية الاخرى من العناصر الكيمائية وبالتالي فانه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن ان يؤكد شيئا بخصوص اصل الحياة " (٣)

ولكن انجلز يتراجع بعد هذا الاقرار فيقول : " سوى ان هذه الحياة يجب ان تكون نتيجة بعض التفاعلات الكيمائية ومهما يكن من امر فلعل فلسفة الواقع تستطيع ان تقدم بعض المعونة في هذا الشأن " (٤)

---

(٢) انظر كبرى اليقينيات الكونية ص ٩٥
(٣) نقض اوهام المادية الجدلية ص ٩٧ / ٩٨
(٤) انتي دوهرنغ ص ٩٠
(٤) نفس المصدر ص ٩٠

والسؤال الذى يطرح كيف يمكن التوفيق بين هذين الشطرين من كلام انجلز " ليس فى مكنة العلم الطبيعى حتى الوقت الحاضر ان يؤكد شيئا بخصوص اصل الحياة .. سوى انها يجب أن تكون نتيجة لبعض التفاعلات الكيمائية " ؟ وعلى اى شىء اعتمد انجلز فى كون الحياة جاءت نتيجة لبعض التفاعلات الكيميائية ؟ مادام العلم الحديث ليس فى مكنته ان يقرر شيئا بخصوص أصل الحياة ؟

ليس من برهان علمى هناك على هذه الدعوى .. اللهم الا الرغبة الشخصية لانجلز فى تقرير مايريد !!

لذلك مادام العلم لم يقرر شيئا بخصوص اصل الحياة فانه يتحتم علينا ان نقرر بان العلم الانسانى لم يتوصل بعد الى معرفة شىء عن الروح والحياة . ومقتضى ذلك كان القول بان الحياة والروح ثمرة من ثمرات المادة ومعطياتها من اسخف الاوهام التى يلفظها العلم والمنطق السليم .

قال تعالى : " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا " (١) .

وأختتم هذا الفصل بنص جميل للدكتور احمد العسال :

" ولكن ماركس حتى يحمل المقدمة الاولى وهى اسبقية المادة . نزع فكرة القوانين العلوية هذه واعادها الى المادة ومنحها القدرة على الحركة والتاثير وجعل الانسان تابعا لها . وبذلك اصبحت المادة ماكنة جبارة هائلة تدير هذا الكون وما الانسان الا صامولة " صغيرة فيها ، عليه ان ينزل عند امرها ويصير فى كنفها ، فهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا .. ولا مشيئة ولا تفكيرا .

" والعجيب ان اعطاء المادة وقوانينها قدرة التوجيه والتحرك بذاتها زعم لا يثبت عند التجربة والبرهان ، وهو ضرب من الغوغائية التى ينبغى ان يتنزه عنها التفكير الانسانى فى القرن العشرين . فقد اصبحت المادة طاقة متحركة واضحى استخدامها واستعمالها وتغييرها وتبديلها ونقلها حسب قوانينها شيئا بديهيا فمن اين ياتيها

---

(١) الاسراء ٨٥

الازل وناتيها الارادة المستقلة ؟ .. ثم ان البرهان على خلقها وتسخيرها وتذليلهـا اصبح شيئا لايحتاج الى كثير جدل او حوار وذلك انها بفعل مافطرت عليه خاضعـة للانسان تابعة له فى الدائرة التى ينالها تفكيره وسيطرته اما فى غير دائرته فلاسبيـل له اليها . ولا سبيل لها على نفسها (فكل فى فلك يسبحون) . واذا فافتراض انهـا تعمل خارج الارادة البشرية وبمعزل عنها ضرب من العبث والاستهتار بالعقـل الانسانى .

" ولاشك ان النظرة التى تضع الاشياء المادية فى مكانها بين المخلوقات الاخـرى وتصفها بانها مخلوقة مفطورة حسب قوانين معينة فطرها عليها خالقها وموجدها هـى النظرة العلمية الصحيحة اذ ليس فيها اعتساف ولا افتراض لاننا نرى الاشياء الماديـة تفنى بالتحول والتغيير ونرى انها تتشكل وتصنع وتحمل قوانين فنائها وانها لاتملـك لنفسها ضرا ولا نفعا ولاتستطيع بالتالى ان تجلب السعادة ليائس ولا الصحة لمريض . وان الانسان الذى يملك الارادة والتفكير تحكمه قوانين لا يستطيع الخروج عنها . فهـو لا يستطيع تخليد نفسه . فكيف بالجمادات والمخلوقات الاخرى من حوله ؟ !! " (1)

ـ . ـ

(١) الاسلام وبناء المجتمع ص ٤٢ ـ ٤٣

الفصل الثالث

مناقشة قوانين المادة

تمهيـــــد :

ذكرت في عرض النظرية أن الماديين يخضعون المادة لقوانين عامة اربعة هـــى : الترابط ، والحركة والتطور والتناقض .

وقد عرضت وجهة نظرهم في هذه القوانين وكيف اخضعوا لها حياة المجتمـــع البشري.وفي هذا البحث سوف اناقش هذه القوانين وكيف طبقت على الطبيعة لنرى هـــل هذه القوانين صحيحة في ذاتها ؟ وهل استخدمها الماديون على الوجه الصحيـــح وطبقوها تطبيقا سليما على الطبيعة . ثم هل تنطبق هذه القوانين على حياة الانسان ؟

— هل هذه القوانين نابعة من المادة ؟

أول مسألة اناقشها في هذا الفصل هي : هل هذه القوانين نابعة مـــن المادة ام انها مفروضة عليها من خارجها ؟

يقول ستالين : " تسير مادية ماركس الفلسفية من المبدأ القائل ان العالم بطبيعتـه مادي وان حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة ، وان العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكييف بعضها بعضا بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة . وان العالم يتطور تبعا لقوانين حركة المـــادة وهو ليس بحاجة لاي (عقل كلي) " . (١)

وعلى هذا الاساس فان قوانين حركة المادة هي التي تؤثر في العالم وانه يتطـــور تبعا لقوانين حركة المادة عندهم .

وهذا هو موضع انكاري . لذلك يجب البحث بادئ ذي بدء في قوانين المادة وليست في تطور العالم . فاذا ثبت ان هذه القوانين لم تات من المادة نفسها ولا هـــى خاصة من خواصها ، وانما هي مفروضة على المادة من غيرها ومن خارجها ، فتكون المـــادة متأثرة بقوة خارجة عنها ، لا بقوانين ذاتية ناشئة من ذات المادة ، فتبطل نظريتهـــم في هذا الشأن ولا يكون العالم سائرا تبعا لقوانين تلقائية نابعة من حركة المادة ، بـــل سائرا بارادة من اوجد له هذه القوانين وفرضها عليه واجبره ان يسير عليها .

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص٢٨

قد اثبت فيما سبق حدوث المادة . (١) ومادامت المادة حادثة فهي لاتستطيع ان تضع لنفسها قوانين تسير عليها بل لابد ان يكون الله سبحانه وتعالى خالق المادة هو الذى وضع للمادة القوانين التى تحكمها هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان العلم اثبت أن القوانين لم تات من المادة نفسها . ولنقرأ شهادة العلماء حول هذه القضية .

يقول جون كليفلاند كوثران : " وعلى ذلك فان الكون المادى الذى يسوده النظام وليس الفوضى وتحكمه القوانين وليس المصادفة او التخبط، فهل يتصور عاقل او يفكر او يعتقد ان المادة المجردة من العقل والحكمة قد اوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة أو أنها هى التى أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها! لاشك ان الجواب سوف يكون سلبيا، بل ان المادة عندما تتحول الى طاقة او تتحول الطاقة الى مادة فان كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة المعروفة التى وجدت قبلها.. فاذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن ان يخلق نفسه اويحدد القوانين التى يخضع لها فلابد ان يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى " . (٢)

ويقول ادوارد لوثر كيسيل : " والواقع أن الكون لا يزال فى عملية انتشار تبدأ من مركز نشأته واليوم لابد لمن يؤمنون بنتائج العلوم ان يؤمنوا بفكرة الخلق ايضا وهى فكرة تستشرف على سنن الطبيعة لان هذه السنن انما هى ثمرة الخلق ولابد لهم ان يسلموا بفكرة الخالق الذى وضع قوانين هذا الكون لان هذه القوانين ذاتها مخلوقة وليس من المعقول ان يكون هناك خلق دون خالق : هو الله " (٣) .

ومادام قد ثبت أن المادة مخلوقة . وأن القوانين التى تسير بحسبها مفروضة عليها من خارجها اى من قبل الله سبحانه وتعالى، فلا حجة بعدئذ للماديين فيما ذهبوا اليه من ان المادة ازلية ابدية، وأنها تضع قوانينها بنفسها وكل حكم بناه الماديون على هذا الاساس فهو باطل غير صحيح، لان ما بنى على الباطل فهو باطل .

---

(١) انظر فصل هل المادة ازلية ابدية .
(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٤ ـ ٢٥
(٣) نفس المصدر ص ٢٧ ـ ٢٨

قال الله تعالى " وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا " (١)

بعد أن أثبت أن قوانين المادة مفروضة عليها من قبل الله سبحانه وتعالى أناقش هذه القوانين على ضوء فهم الماديين لها • وتطبيقها على الكون المادي من وجهة نظرهم لأرى مدى صحة نظريتهم والعلمية التي يزعمونها لانفسهم ويحرمون منها غيرهم •

— وأول هذه القوانين هو قانون الترابط :

ذكرت سابقا : ان الماديين يقولون . ان كل حوادث الطبيعة متماسكة وغير منفصلة بعضها عن بعض للترابط التام بينها كما لا يمكن فهم اي حادث بعينه اذا نظر اليه منفردا بمعزل عن الحوادث التي تحيط به •

أقول : ان أي انسان لا يمكن أن يفهم حوادث الكون واشياءه منفصلة بعضها عن بعض ومنقطعة عن اسبابها ، لان الترابط بين هذه الاشياء قضية مسلمة وليست من مبتكرات الفكر الماركسي الجدلي ، بل هو مما ادركه الانسان قديما منذ نظر الى الكون ونفسه ووجد أن غذاءه مرتبط بالارض وان نبات الارض مرتبط بالشمس وان الكواكب والنجوم مترابطة، والاديان الربانية ارشدت بنصوصها الى هذه الحقيقة • وفكرة الترابط في الكون وما يشتمل عليه هذا الترابط من اسباب ومسببات وعلل ومعلولات قد هدى اهل الفكر الحصيف والنظر الثاقب الى ادراك السبب الاول في وجود هذه الكائنات الحادثة وهو الرب الخالق سبحانه وتعالى •

يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى : " وتتمثل خاصية الشمول التي يتسم بها هذا التصور في صور شتى احدى هذه الصور واكبرها هذا الوجود كله •• بنشأته ابتداء ، وحركته بعد نشأته وكل انبثاقة فيه وكل تحور وكل تطور والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه •• الى ارادة الذات الالهية السرمدية الازلية الابدية المطلقة • هذه الذات المريدة القادرة ، المطلقة المشيئة المبدعة لهذا الكون وكل شيء فيه ولكل حركة وكل انبثاقة وكل تحور ، وكل تطور بقدر خاص •• ومجرد توجه الارادة •

---

(١) الاسراء ٨١

فالله سبحانه هو الذى أنشأ الكون ابتداء وهوالذى يحدث فيه بمشيئته كل تغيير جديد ، وكل انبثاق وليد ، وهذه هى حقيقة (التوحيد) الكبيرة التى هى المقوم الاول للتصور الاسلامى ".(١)

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الخاصية :

قال الله تعالى : " اناكل شىء خلقناه بقدر " (٢) . وقال سبحانه وتعالى " الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى " (٣) . وقال ايضا : " انما قولنا لشىء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون ". (٤) .وقال ايضا : " وجعلنا من الماء كل شىء حى ".(٥)

هذا وقد ورد السؤال عن السبب فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة : منها سؤال الله سبحانه وتعالى للكافرين عن خلق السموات والارض . يقول سبحانه : " ولئن سالتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله ". (٦) ويقول سبحانه : " أفرأيتم ماتحرثون . أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون " (٧) . وغيرهذا كثير فى القران لامجال لبحثه . ومن هنا نرى ان الاعتقاد بترابط اجزاء الكون المادى واعتباره كلا متصلا ليس وقفا على المفهوم المادى للكون بل ان هذا الفهم من البدهيات فى الاديان الصحيحة وخاصة فى الدين الاسلامى . اما عن تفاصيل الترابط بين اجزاء الكون المادى فهذا امر يعود الى المكتشفات العلمية والاسلام يدعو الى تاييد العلم وكشوفاته الحقيقية لان الكون المادى سخره الله تعالى للانسان ، وعقله لايتعدى فى الاكتشافات حدود الكون المادى ، لان البحث خارج حدود هذا الكون ليست من اختصاص العقل الانسانى ، وانما هو من اختصاص الروح التى تهتدى بهدى الله

---

(١) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ١١٠ ـ ١١١
(٢) القمر ٤٩
(٣) طه ٥٠
(٤) النحل ٤٠
(٥) الانبياء ٣٠
(٦) سورة لقمان ٢٥
(٧) الواقعة ٦٣ ـ ٦٤ .

وتسير على نهجه وهنا يرد سوءال : اين الكشف العلمي للماديين في عالم الكون المادى ؟ ولقانون الترابط العام فيه ؟

— مناقشة قانون الحركة :

قلت سابقا ان الماديين يقولون ان الحركة صفة ملازمة للمادة . ولا يمكن فصل الحركة عنها . ويعيبون على غيرهم اذا وجهوا اليهم سؤالا مفاده من الذى اكسب المادة خاصية الحركة ؟ وذلك لان الحركة موجودة منذ الازل ، وهى ملازمة للمادة لاتنفك عنها ، لهذه الاسباب لا يجوز طرح مثل هذا السوءال .

والحركة عندهم شاملة لكل شيء حيث لا يوجد في العالم ظاهرة واحدة لم تكن نتيجة لحركة المادة وتطورها . ولا يوجد شيء غير المادة المتحركة المتطورة وما يتولد عنها ومن هنا حصروا الوجود فقط بالعالم المادى ، لانه لا يوجد في نظرهم غير عالم مادى واحد وان وحدته تنحصر في ماديته . واصدر الماديون حكما على هذا الاساس بان جميع الاديان بلا استثناء وخاصة الميتافيزيقا الاوربية تناقض العلم وتاتى بنتائج خاطئة ، حيث قالت الميتافيزيقا الاوربية : ان الطبيعة ساكنة جامدة والعلم اثبت التغير في الكون المادى والطبيعة في حركة وتغير دائمين على راى الماديين وهى في حالة تجدد وتطور لا ينقطعان . ففيها دائما شيء يولد ويتطور وشيء ينحل ويضمحل . والطبيعة عندهم بجميع صورها عبارة عن حركة لان الحركة هى الصورة التى توجد عليها المادة .

ومن خلال البحث في النظرية وجدت ان الماديين يعتبرون الحركة صفة من صفات المادة . وهى ملازمة لها وهى ازلية كالمادة كما يزعمون . هذا الدليل الذى ظنوا انه يخدمهم في نظريتهم هو حجة عليهم ، وذلك لان العالم متغير كما هو مشاهد . وتغيره دليل على حدوثه . والحركة تعنى التغير ، فكيف يمكن التوفيق بين الازلية والتغير ؟ وكما هو معلوم ان المتغير لابد له من بداية . وعلى هذا الاساس فان الحركة الازلية عندهم تتناقض مع المادة الازلية لانه لا يمكن التوفيق بين الازلى والمتغير . لان الصفة ملازمة للموصوف . وما دامت الصفة حادثة فالموصوف حادث وقد اثبت حدوث المادة في فصل سابق وان قوانينها مفروضة عليها من الله سبحانه وتعالى .

وعلى هذا الاساس فان الله سبحانه وتعالى هو الذى أكسب المادة خاصية الحركة . وما دامت المادة حادثة فان الحركة حادثة وليست ازلية ابدية كما يزعمون، وثمة نقطة اخرى يجب ملاحظتها وهى أن الماديين عمموا حكمهم على جميع الاديان بما فيها الاسلام . وذلك حين قالوا ان الاديان تقول ان الكون المادى ثابت . والعلم اثبت التغيير في الكون المادى ، اذن فالاديان على هذا الاساس تخالف العلم ولو أن الماديين كانوا علميين كما يزعمون ، لما عمموا حكمهم على جميع الاديان وخاصة الاسلام ، ولاكتفوا باصدار حكمهم على الميتافيزيقا الاوربية والاديان المحرفة لان اوربا كانت تتصور الثبات فى كل شىء بوحى من دينها المحرف .

أما تعميم الحكم على جميع الاديان . وعلى وجه الخصوص منها الدين الاسلامى لا يتفق مع المنهج العلمى السليم وذلك لان من اصول المنهج العلمى السليم أن يقرأوا تعاليم الاديان كلها قبل اصدار حكمهم بانها تخالف العلم لانها تقول بثبات الكون المادى وسكونه . والذى ينقض هذا الحكم الباطل من اصوله هو الدين الاسلامى الحنيف . الذى لم ينكر الحركة فى الكون المادى . بل ان العلماء المسلمين اتخذوا من الحركة دليلا على حدوث السكون ، وردوا امر الحركة الى الله سبحانه وتعالى . الذى اودع فى هذا الكون خصائص الحركة والتغيير والقادر على تغييره بأى صورة متى شاء سبحانه ، ومع ذلك فان علمهم هذا لم يقدهم الى انكار الله سبحانه وتعالى وذلك لان الايمان بالله سبحانه وتعالى فى حس العالم المسلم لا يقوده الى نتائج خاطئة ، وانما ياتى الخطأ من قصور معلومات الانسان . ويجب الالتفات الى ناحية مهمة وهى ان الاسلام شجع العلم والعلماء وحثهم على التعرف على حقائق الكون . ويكفى ان اول القرآن نزولا كان فى العلم . قال سبحانه وتعالى " اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم " . (١)

وعلى هذا الاساس فالمغالطة واضحة . فهى اما ان تكون متعمدة ، واما انها عن جهل بالاسلام . وعلى كلا الحالين اقول : اين العلمية فى نظريتكم التى احتكرتموها لانفسكم ازاء هذه الحقيقة ؟ واين صدق دعواكم بان الاديان والميتافيزيقا عامة تخالف العلم ؟

---

(١) سورة العلق ١ـ٥ .

كما يجب علينا ان نلاحظ أيضا ان الماديين يسمحون لانفسهم ان يصفوا المادة بالازلية والابدية . وانها ذات قوانين ثابتة لاتتغير ولاتتحول بغير دليل علمي ثم يرفضون من المؤمنين بالله سبحانه وتعالى ان يصفوه بالازلية والابدية وعدم التغير والتحول ويطالبونهم بالدليل ! ثم يرفضون كذلك ان يتساءل واحد من الناس عن كيفية وجود المادة ومن اعطاها خصائصها لانها - في زعمهم - موجودة منذ الازل على صورتها تلك بينما لايتقبلون من المؤمنين بالله تعالى ان يقولوا هذا القول ذاته بالنسبة لخالقهم .

أليس كلامهم هذا واعتقادهم هذا هو الغيب بعينه الذي صبوا جام غضبهم عليه وحاربوه حربا لاهوادة فيها ؟ فكيف يعيبون على غيرهم ان يؤمنوا بالغيب وهم غارقون فيه ؟ " ان هذا لشيء عجيب ".(١)

مناقشة قانون التطور :

ذكرت في مجمل عرضي لنظرية التفسير المادي للتاريخ ان الماديين يقولون ان حركة التطور في الطبيعة هي : تطور ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية الى تغيرات كيفية ظاهرة واساسية وتحدث هذه التغيرات الكيفية في الطبيعة والمجتمع من حالة الى اخرى فجأة وعن طريق القفزات فالانتقال من الطبيعة الميتة الى الطبيعة الحية وكل تطور العالم الحيواني من نوع معين الى آخر يتم ايضا بطريق القفزات وكذلك تتم تحولات متشابهة في المجتمع البشري .

هذه التغيرات الكيفية التي تتم عن طريق القفزات حتمية وضرورية لان الديالكتيك الماركسي يرى حتمية الانهيار في كل شيء ولا شيء مقدس او مطلق او نهائي في نظره لانه لا يوجد شيء يستطيع الصمود في وجه الديالكتيك الماركسي سوى المجرى المستمر للنشوء والزوال والصعود من ادنى الى اعلى . ويصر انجلز على عدم حاجته الى بحث قضية انسجام طريقة الديالكتيك المنهجية في الفهم - على حد زعمه - والتي

---

(١) سورة ص ٥ .

لطابعها الثوري المطلق . يقول انجلز : " وهي نفسها ليست سوى انعكاس بسيط لهذا المجرى في الدماغ المفكر . ولها ايضا في الحقيقة جانبها المحافظ فهي تبرر كل مرحلة من مراحل تطور المعرفة والعلاقات الاجتماعية في زمانها وظرفها . لا اكثر فالصفة المحافظة لهذه الطريقة — في الفهم نسبية وطابعها الثوري هو مطلق — وهذا هو الشيء الوحيد المطلق الذي تتقبله الفلسفة ".(١)

يصر انجلز على عدم حاجته الى بحث انسجام طريقة الديالكتيك مع الوضع الحاضر للعلوم الطبيعية التي تتنبأ بنهاية ممكنة لوجود الارض نفسها ونهاية اكيدة نسبيا للحياة عليها ونحن نقول بل اكد القرآن الكريم نهاية الارض وما عليها من حياة وجاءت الدلائل العلمية موافقة لما أكده القرآن الكريم من نهاية الارض والحياة عليها كما ذكرت ذلك في مناقشة ازلية المادة وابديتها .

فانجلز وشيعته ليسوا على استعداد لبحث هذه القضية لانهم لو بحثوها جديا وامنوا بفناء المادة ونهاية الحياة على الارض لقادهم هذا الايمان الى الاعتراف بخالق الكون وهذا مالا يريده انجلز واصحابه لان دعوتهم ماقامت الا على اساس انكار خالق هذا الكون ومحاربة دينه وجنده في الارض . فانجلز وصاحبه وان اثبتت العلوم الطبيعية نهاية الارض والحياة عليها وان التاريخ الانساني لن يكون حركة صاعدة كما يريدان أن تكون وتبقى — بل سيكون حركة نازلة ايضا . ليسا على استعداد لقبول هذه الفكرة لانه لو قبلاها لانهارت نظريتهما في التطور وعلى وجه الخصوص القول بالتطور من الأدنى الى الاعلى ومن الاسوأ الى الاحسن وعلى هذا فلا يصبح هناك معنى لقولهم ان الاشتراكية افضل واحسن من الراسمالية وان الشيوعية افضل مرحلة على الاطلاق في تاريخ البشرية وذلك لان حركة التطور تصاعدية من الادنى الى الاعلى ومن الاسوأ الى الاحسن. ونحن نقول : ان الاشتراكية والراسمالية سواء في ميزان الله تعالى كلتاهما على باطل وضلال وكلتاهما تصدان عن سبيل الله تعالى . ويعلل انجلز عدم حاجته لبحث هذه القضية النسبية في الفهم وانسجامها مع العلوم الطبيعية بانه واشياعه مازالوا بعيدين جدا عن المنعطف الذي يبدأ

---

(١) لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ١٠

التاريخ الانساني فيه حركته النازلة • ونحن نقول : ان الذى اعطاه الله قليلا من الذكاء والعلم يدرك تفاهة هذه الحياة الواهية التى يتعلل بها انجلز ومن ناصره • لان من آمن بأن الحياة فانية - وان مصيرها الى الفناء - وقد ثبت ذلك بالادلة القاطعة من القرآن الكريم وموافقة العلم الحديث له - مهما طالت المدة الزمنية - لان المدة الزمنية مهما طالت فهى محدودة - لا يصدر حكما حتميا كالذى اعلنه انجلز ان التطور فى حركة مستمرة وصعود الى أعلى وانتقال الى الاحسن •

كان الاولى بانجلز ان يتوقف عن نبوءته بان حركة التاريخ متطورة الى اعلى • وهو يقر بأن العلوم بدأت " تتنبأ بنهاية ممكنة لوجود الارض نفسها ونهاية اكيدة نسبيا للحياة عليها " • (١)

كان الاولى بانجلز وشيعته ان يتراجعوا مادامت العلوم الطبيعية قد اثبتت غير ماكانوا يعتقدون وما بنوا نظرياتهم عليه من ازلية المادة وابديتها ولكنهم على عادتهم يضعون النتيجة سلفا ويطلبون من الناس الايمان بها • ولو كانت مخالفة للعلم الذى احتكروه لانفسهم •

" لسنا بحاجة هنا الى بحث قضيتما اذ اكانت هذه الطريقة للفهم تنسجم كليا مع الوضع الحاضر للعلوم الطبيعية • هذه العلوم التى تتنبأ بنهاية ممكنة لوجود الارض نفسها ونهاية اكيدة نسبيا للحياة عليها • وتعلن على هذا الاساس ان تاريخ الانسانية لن يكون حركة صاعدة وحسب بل ايضا حركة نازلة ولكننا على كل حال مازلنا بعيدين جدا عن المنعطف الذى يبدأ منه تاريخ المجتمع حركته النازلة " • (٢)

وعند الماديين ان حركة التطور يجب فهمها على اساس انها حركة تقدمية وصاعدة فهى ليست حركة دائرية اوتكرارا بسيطا منذ ات النوع والطبيعة عندهم تعمل بصورة ديالكتيكية لا بصورة ميتافيزيقية ويشيدون بداروين الذى اثبت على حد تعبيرهم - ان العالم العضوى باسره كما هو موجود اليوم النباتات والحيوانات والانسان كله نتاج تطور يجرى منذ ملايين السنين •

---

(١) نفس المصدر ص ١٠

(٢) نفس المصدر ص ١٠

ان هدف الماديين من بحثهم فى قوانين المادة وتطبيقها على الطبيعة هو ايجاد تبرير على يستندون به نظريتهم العلمية كما يزعمون حين يطبقون هذه القوانين على حياة الانسان ٠ ولكن غاب عنهم او تعاموا عن هذه الحقيقة وهى ان الانسان كائن متفرد لا ينطبق عليه ما ينطبق على المادة وقوانينها لانه ذو حرية وارادة وهبها الله سبحانه وتعالى له وكرمه بها على بقية المخلوقات وسوف اتعرض لهذه القضية فى فصل خاص باذن الله تعالى ٠

ثم ان التغير او التطور الذى يحصل فى الاشياء ليس تغيرا او تطورا من ادنى الى اعلى ومن شىء الى احسن بل هو تغير فحسب فقد يكون التغير الى حال أحسن وقد يكون الى حال أسوأ ٠ واليكم الامثلة على ذلك ٠ تعفن الخبز مثلا انتقال من حال حسنة الى حال سيئة وانتقال الانسان من الشباب الى الهرم انتقال من حال حسنة الى حال سيئة ٠ فالتغير موجود فى الكائنات الحية وغيرها ولكنه مجرد انتقال من حال الى حال بغض النظر عن الانتقال الى الحسن او الى السىء ٠ فقولهم ان الشىء يتطور بمعنى ينتقل الى حال احسن كلام باطل بالمشاهدة لان الذى يحدث هو مجرد تغير اما الى حال احسن واما الى أسوأ ٠ ثم ان الانتقال يجعل الحالة التى جرى الانتقال منها قديمة والحال التى جرى الانتقال اليها جديدة ٠ واذا كان الذى يحصل فى الاشياء تطورا اى انتقالا الى حال احسن فان الجديد يكون دائما خيرا من القديم - على حد زعمهم - وقد ثبت بالمشاهدة بطلان هذا الزعم ٠ وان الذى يحدث فى الاشياء انما هو مجرد تغير قد يكون الى احسن وقد يكون الى اسوأ ٠ ودليل الماء الذى ساقه انجلز (1) للتدليل على هذه النظرية يكذبها ٠ لان الماء عندما يتحول الى بخار يمكن ان يكثف ويبرد وبذلك يرجع الى كيفيته الاولى اى الى الماء وهذا ليس تغيرا صاعدا ولا الى احسن بل رجوع الى الصورة الاصلية ٠ وعلى هذا

---

(١) " كما هى الحال مثلا فى الماء المسخن او المبرد ٠ فان نقطة الغليان ونقطة التجمد فيه هما العقدتان اللتان تتم فيهما تحت الضغط العادى القفزة الى حالة جديدة من التجانس اى تتحول بها الكمية الى كيفية " ٠ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٢١ - ٢٢ ٠

فالجديد لا يكون دائما حسنا كما انه ليس دائما سيئا وليس القديم دائما سيئــــا كما انه ليس دائما حسنا . فالهرم مثلا جديد في حياة الانسان والحالة السابقة عليـــه هي الشباب . والعفن في الخبز جديد يجيء بعد السلامة والسلامة فيه هي القديـــم وهكذا ملايين الاشياء المتغيرة ليست جميعها حركة صاعدة ولا حركة نازلة بل قد تكـــون صاعدة كالماء يتحول الى بخار، والطفل يصبح شابا، والغرسة تصبح شجرة، والعجيـــن يصبح خبزا، وشريط الجلاتين يصبح مضيئا، وهاشا كل ذلك، وقد يكون تغير الاشيــاء حركة نازلة كالبخار حين يتحول الى ماء والشباب حين يصبح هرما وماشا كل ذلـــك . فالصعود والنزول ليس خاصية للحركة ولا للتغير . لذلك كان القول بان التغيـــر يكون دائما صاعدا قولا خاطئا ومخالفا لواقع الحركة ولواقع التغير ." (١)

وهم من خلال تطبيق قوانين المادة على حياة المجتمع يريدون ان يصلوا الـــى نتيجة وهي : انه مادامت حركة التطور صاعدة من الأدنى الى الأعلى ومن الاســـوأ الى الاحسن فان الجديد افضل من القديم واحسن منه . وعلى هذا الاســـاس فان الشيوعية بزعمهم افضل من الاطوار السابقة . وهم يقفون بهذا القانون عنـــد حدود الشيوعية ولا يتجاوزونها . وهم اما ان يعترفوا بشمول هذا القانـــون فيشمل الشيوعية والطور الذي سياتي بعدها . وعلى ذلك تكون الشيوعية ــ على فرض تحقيقها ــ مجرد طور من اطوار الحياة البشرية ياتي طور بعدها احسن منهـــا فتصبح قديمة وتعاليمها قديمة . وهذا اطبعا مالا يريدونه . لانهم يقفون بالقوانيـــن العلمية عن العمل عند حدود الشيوعية لتحقيق مصالحهم الشخصية ومآربهم الذاتية ويزعمون انهم علميون وان نظريتهم هي النظرية العلمية الوحيدة !

واما ان لا يكون شاملا حيث تخرج الشيوعية من نطاقه ، وعندئذ لا يصبح قانونـــا صالحا للحكم على شيء على الاطلاق، ويصبح تطبيقه على المراحل السابقـــة غير قائم على اساس علمي صحيح، لان القانون اما ان يطرد تطبيقه فيصبح صالحا للحكم بـــه واما ان يضطرب تطبيقه فلا يعود مقياسا صالحا للحكم . ومن ثم لا تصبح الشيوعيـــة افضل مرحلة على الاطلاق .

---

(١) انظر نقض الاشتراكية الماركسية ص ٨٩ ــ ٩١

ولابد من توجيه السؤال التالي اليهم : اين العلمية المزعومة في نظريتكم اذا كانت قوانين المادة التي تستندون اليها في تأييدكم ضد خصومكم — اهل الاديان والمثاليين — وبخاصة قانون التطور لاتنطبق على مجتمعكم وشريعتكم اللهم الا اذا كانت قوانين المادة طوع بنانكم تأتمر بأمركم وتعمل حسب مشيئتكم وهي ملك لكم وحولكم دون غيركم !!

" ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب " .(١)

وحسبنا لبيان فساد هذا الذي يسمونه قانونا ان نعقد مقارنة بين جيل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ابناء الجيل الحاضر الذين يفترض فيهم — حسب هذا القانون الباطل — انهم افضل اجيال البشرية ..

مقارنة بين

جيل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيل الاوربي المعاصر

أولا : جيل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

تربى ذلك الجيل الكريم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان لهذه التربية النبوية الكريمة اثر كبير في توجيه سلوكهم ، كما كان للعقيدة الربانية اثر كبير في توجيه النفوس المؤمنة نحو الخير والفضيلة . ولم يعد الاسلام — وهو عقيدة وتصور — " نظريات مجردة ولا مجموعة ارشادات ومواعظ — وانما عاد نماذج انسانية تعيش ووقائع عملية تتحقق وسلوكا وتصرفات تشهد بالعين وتسمع بالاذن وتترك اثارها في واقع الحياة " .(٢)

ان عظمة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت من ايمانهم بالله وتوحيده في اسمائه وصفاته واتباعهم لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واعتزازهم

---

(١) الحج ٧٣

(٢) العدالة الاجتماعية ص ١٦٤

بدين الله وتوكلهم على ربهم مع الاخذ بالاسباب والمسببات •

من هنا سطروا اروع الامثلة فى السياسة والعدل وفى الاخلاق والمعاملات فى الخوف من الله والتوكل عليه • فى علاقة الرجل مع اهلة وخدمه ومع المجتمع الذى يعيش فيه • ضربوا اروع الامثلة فى شتى مجالات الحياة • لان الايمان بالله اذا وقر فى نفس الانسان فانه يسعى الى عمل كل مايرضى ربه ومولاه ويبتعد عن كل مايخالف اوامر الذى خلقه فسواه • واليكم الامثلة على ذلك :

١ ــ هذا ابوبكر الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استلم الخلافة لم يعلن انه حاكم مستبد يفرض رايه ويرفض المناقشة والحوار ولكنه جاء يؤكد للناس جميعا انه عبد من عبيد الله وانه واحد منهم لا يمتاز عنهم او يفضلهم الا بمقدار مايقدم لهم الخدمة ويرعى لهم الحق • (١)

" امابعد ايها الناس • فانى وليت عليكم ولست بخيركم • فاذا احسنت فاعينونى وان أسأت فقومونى • الصدق امانة والكذب خيانة والضعيف منكم قوى عندى حتى اريح (٢) عليه حقه ان شاء الله تعالى • والقوى فيكم ضعيف عندى حتى اخذ الحق منه ان شاء الله تعالى • لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله الا ضربهم بالذل ولاتشيع الفاحشة فى قوم قط الا عمهم الله بالبلاء • اطيعونى ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ". (٣)

هذا الخليفة الذى حدد نهجه فى السياسة الملتزمة بطاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجده مثالا للتواضع فى معاملة الناس •

" كان ابوبكر يحلب للحى اغنامهم فلما بويع قالت جارية من الحى الان من يحلب لنا منائح دارنا ؟ فسمعها فقال لاحلبنها لكم • وارجو الا يغيرنى مادخلت فيه عن خلق كنت فيه • فكان يحلب لهم رحمه الله ". (٤)

---

(١) المنهزمون ص ٣١
(٢) اريح ــ ارد
(٣) الرياض النضرة فى مناقب العشرة جـ١ ص ٢٩٤
(٤) نفس المصدر ص ٢٤٥

ان ابابكر الصديق رضى الله عنه لم يغتر بمنصبه . وقد كان بامكانه ان يستغل هذا المنصب ولكن الايمان اعظم شئ فى هذه الحياة يضحى الانسان فى سبيله بكل ما يملك .

وجاء بعد ابى بكر تلميذ آخر من تلاميذ النبوة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه فصنع نماذج من السلوك الرفيع فى الحكم توقف كل البشر اقزاما فى رحاب عمر رضى الله عنه . لقد اصابت المسلمين ايام من القحط لم يسلم منه بيت عمر رضى الله عنه وقد كان عمر رضى الله عنه قادرا لو تخلى عن تقوى الله — اسمى قيمة من قيم الحضارة الاسلامية — ان يوفر الطعام لاهله والناس جياع . وان يغمرهم برغد العيش والامة فى ضيق وحرج ، ولكنه عامل الجميع على حد سواء حتى بلغ الجوع والهزال ابناءه واحفاده .(1)

" عن الحسن قال : بينما عمر يمشى فى سكة من سكك المدينة . اذا هو بصبية تطيش على وجه الارض تقوم مرة وتقع اخرى فقال عمر : ياويحها ياباوس لها من يعرف هذه منكم ؟ فقال عبد الله بن عمر : اوما تعرفها يا امير المؤمنين . قال لا ومن هى ؟ قال : هذه احدى بناتك . قال واى بناتى هذه ؟ قال هذه فلانة بنت عبد الله بن عمر قال : ويحك ؟ ما يصيرها الى ما ارى ؟ قال منعك ما عندك . قال ومنعى ما عنده منعك ان تطلب لبناتك ما يطلب القوم لبناتهم انه والله مالك عندى غير سهمك فى المسلمين وسعك اوعجز عنك . هذا كتاب الله بينى وبينكم " .(2)

وعمر العادل يفسح صدره لغير السادة من قريش . انه يستمع الى سلمان الفارسى رضى الله عنه دون ان يجد حرجا فى مناقشته او ضيقا مما يوجهه اليه "بعث الى عمر — رحمه الله — بحلل فقسمها فاصاب كل رجل ثوب ثم صعد المنبر وعليه حلة والحلة ثوبان . فقال ايها الناس الا تسمعون . فقال سلمان : لا نسمع فقال عمر ولم يا ابا عبد الله ؟ قال انك قسمت علينا ثوبا وعليك حلة . فقال : لاتعجل يا ابا عبد الله . ثم نادى عبد الله فلم يجبه احد . فقال ياعبد الله بن عمر . فقال :

(1) انظر المنهزمون ص٣٦

(2) تاريخ عمر بن الخطاب ص١٢٦

لبيك يا امير المؤمنين • فقال ناشدتك الله الثوب الذى ائتزرت به اهو ثوبك ؟ قال اللهم نعم •فقال سلمان : الان فقل نسمع "• (١)

ويفسح التاريخ الامين فى صدره الرحيب لرجل فذ من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم • ويعلن للملأ أن مدرسة القرآن الكريم تربى رجالا يندر ان يجود بمثلهم الزمان • انه عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى ضرب اروع الامثلة بحسن اخلاقه وكرمه •

انه مثال التاجر الامين الذى لا يستغل حاجة الضعفاء والمساكين فى وقت كان باستطاعته ان يستغل ساعة عسرة المسلمين •

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " قحط الناس فى زمان ابى بكر فقال ابوبكر لاتمسون حتى يفرج الله عنكم • فلماكان من الغد جاء البشير اليه فقال : قدمت لعثمان الف راحلة برا وطعاما • قال : فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج اليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه فقال لهم : ماتريدون ؟ قالوا قد بلغنا انه قدم اليك الف راحلة برا وطعاما • بعنا حتى نوسع به على فقراء المدينة • فقال لهم عثمان : ادخلوا : فدخلوا • فاذا الف وقر• (٢) قد صب فى دار عثمان •فقال لهم : كم تربحونى على شرائى من الشام ؟ قالوا العشرة اثنى عشر •قال قد زادونى • قالوا العشرة اربعة عشر • قال قد زادونى • قالوا العشرة خمسة عشر • قال قد زادونى •قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة قال زادنى (٣) بكل درهم عشرة • عندكم زيادة ؟ قالوا لا • !! قال فاشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة •" (٤) • ماذا كان عليه ـ حتى وهو يريد البر بالمسلمين ـ أن يأخذ على الاقل رأسماله بدون ربح • ويكون فى ذلك نبيلا مشكورا •

وهذا صحابى اخر تربى فى بيت النبوة منذ صغره • انه على بن ابى طالب كرم الله وجهه الذى تقف الدنيا وملوكها يلهثون على الطريق الطويل الساحق فلا يبلغون موضع اقدام على رضى الله عنه وهو يمر بسوق الكوفة يعرض سيفا من اسيافه

---

(١) نفس المصدر صد ١٦٩
(٢) حمل
(٣) اى الله تبارك وتعالى يعنى قوله " من جاء بالحسنة فله عشر امثالها " الانعام ١٦٠
(٤) الرياض النضرة فى مناقب العشرة جـ٣ ص ٥٥ ـ ٥٦

التى طالما سلها فى سبيل الخير واعلاء كلمة الله تعالى " من يشترى سيفى هذا ؟ فوالله لو كان معى ثمن ازار مابعته " . واذن فامير المؤمنين وامام المسلمين وحاكم الامة باسم الدين لايستغل نفوذه ولا يفرض جبروته على الرغم من وفرة المال عنده . بل انه ليحيا دون مايحيا الناس الذين يجدون لقمة العيش هانئة ميسورة " (١)

ولم يقتصر الامر على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بل ان الايمان الذى وقر فى نفوس اتباع هذا الدين اخرج منهم رجالا كانوا مثالا فى العظمة وعزة النفس ، اقاموا العدل فى ربوع الارض ، وجعلوا حياتهم كلها لله رب العالمين . فهذا عمر بن عبد العزيز يضرب اروع الامثلة بعدله وتقواه . رد المظالم الى اهلها وحاسب نفسه قبل ان يحاسبه ربه . وهذا خالد بن الوليد الذى لم ينهزم فى معركة قط . . يعزله عمر بن الخطاب وهو فى معمعان المعركة ولكن النفس التى رباها القرآن لم تحقد بل سلم الامر الى الله . وقال حين قال الناس له انها الفتنة . اما وابن الخطاب حى فلا . اننى لم اقاتل من اجل عمر ولكن من اجل رب عمر . واستمر فى القتال حتى منّ الله بالنظر على أعداء الله " . (٢)

ولم يكن الخلفاء ولا ابطال الحرب وحدهم هم الذين يبلغون تلك القمم العالية من النظافة النفسية المتطوعة . فهذا رجل من عامة المسلمين وهو محمد بن المنكدر . فقد روى ان غلامه باع لاعرابى فى غيبته شقة من الخمسيات بعشرة . فلم يزل يطلب ذلك الاعرابى طول النهار حتى وجده فقال له ان الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة . فقال ياهذا قد رضيت . فقال وان رضيت فانا لا نرضى لك الا مانرضاه لانفسنا ورد عليه خمسة . تلك اخلاق تمكنت الدعوة المحمدية من نفسه . (٣)

---

(١) انظر المنهزمون ص ٤٦

(٢) انظر الانسان بين المادية والاسلام ١٣٠ ـ ١٣١ وكتاب الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ص ١٠٤

(٣) الرسالة الخالدة ص ٦٥ ـ ٦٦ .

والذى أحب أن ألفت الانتباه اليه أن الجريمة كانت شبه معدومة فى الجيل الاول من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم • فعلى سبيل المثال لم تثبت جريمة واحدة من جرائم الزنا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه عن طريق الشهادة بل ان الجرائم المعدودة ثبتت عن طريق الاقرار • ويعود سبب قلة الجريمة فى المجتمعات الاولى الى الايمان العظيم الذى يردع النفس عن المنكر قبل ان تردعها هيبة القانون • وهناك نماذج كثيرة حواها تاريخ الاسلام عن البطولات النادرة فى الشجاعة والكرم والعفاف والتواضع وحسن الاخلاق والعدل بين الناس • انه الاسلام العظيم الذى خرج اجيالا عظيمة حين كان الحكم له لا للطواغيت •

يقول الاستاذ يوسف العظم حفظه الله : " واذا كان الحاكم بالاسلام عدلا وتقوى * لا يتمتع برغد العيش ولا ابهة الحكم ولا يطغى او يتجبر فما الذى من اجله يحكم وفى سبيل ماذا يتسلم السلطة ؟ !

انه رضوان الله الذى يبحث عنه المؤمن خاتمة المطاف وغاية الغايات • ان الواقع الملحوظ والحقيقة الملموسة ان القمم الشوامخ من رجال العدل المطبقين لاساليب الحكم العف • انما تقوم حين يحكم الاسلام وتوضع الشريعة موضع التنفيذ •

أما حين يغيب الاسلام عن الساحة – وتهجر شريعة الله فى الارض ويعذب السلطان فقهاء الامة وعلماء الشريعة • فان كل التناقضات تطفو على السطح وكل التفاهات تتحكم فى مصير الامة تدفعها دفعا نحو هاوية من التمزق والضياع ليس لها قرار • والاسلام ليس مسئولا عن انحرافات المنحرفين وظلم الظالمين حين يغيب او يحال بينه وبين حكم عباد الله بشريعة الله ".[1]

بعد عرض هذه النماذج الرائعة التى رباها الايمان بالله عز وجل اعرض نماذج مختلفة عن النفوس التى نبذت الايمان بالله عز وجل/عن الجيل الاوربى الضائع

---

(١) المنهزمون ص ٥٢

لنرى حقيقة دعوى الشيوعيون التى تزعم بناء على قانون التطور ان كل جيل جديد افضل من الجيل السابق عليه • فهل هذا الجيل الضائع الحائر ارقى نفسيا واحسن حالا من جيل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين رأينا كيف رباهم الايمان وصقل نفوسهم ؟

ثانياً : الجيل الاوربى المعاصر :

لابد لى وانا فى مجال المقارنة بين حياة الناس الذين رباهم الايمان وبين الجيل الذى نبذ الايمان كلية من عرض نماذج مختلفة لحياة هذا الجيل المعاصر ، ومن اجل انصاف الحقيقة التى يسعى اليها كل باحث ونحن المسلمين اولى الناس بالسعى اليها • اترك معظم الحديث عن حياة الجيل الاوربى المعاصر للكتاب الاوربيين •

يقول الكاتب الاميركى (منكن) : " ان حكومة الولايات المتحدة بسلاحيها التشريعى والتنفيذى غير كفء وفاسدة تثير الاشمئزاز فى النفس •

" فوزارة العدل فى الجمهورية مغفلة غاشمة تعمل ضد كل ماهو معقول وعدل • السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى اسلوبها العادى فى التداول مع الامم الاخرى سواء كانت صديقة اوعدو وهى سياسة رياء ونفاق ومراوغة ماكرة مخجلة •

" وانى لاجد فى بلدى هنا اكثر مما اريا واسمع فى اى بلد اخر من جنون خاص وهام • ارى موكبا لانهاية له من اعمال السلب والاحتيال الحكومية واللصوصية التجارية و شنق الاعناق والمجون اللاهوتى وقلة الذوق والاختلاس والزنا الشرعى واعمال الاحتيال المتفوعة والدناءة والبلاهة والسخرية والاسراف• انه موكب ضخم غير معقول يجرى باعظم قوة يمكن ادراكها وتنفذ بها اعظم جرأة ــ وشذوذ بعيدين عن التصديق • " (١)

ــ الفساد الاخلاقى :

أما عن الفساد الاخلاقى وانتشار الفواحش ماظهر منها وما بطن فهى كثيرة

---

(١) تطور المجتمع الامريكى ٢٦١ ــ ٢٦٧ •

وفيرة . فجرائم الزنا الكثيرة المرتفعة .. والشذوذ الجنسي بين الرجال لا يحصيه عد بل طالبت بعض البرلمانات الاوربية كما في بريطانيا والولايات المتحدة والدول الاسكندنافية بجعل اللواط امرا مشروعا ". (١)

ـ الامراض العصبية والعقلية :

ونسبة هذه الامراض مرتفعة وتزداد كل يوم .فقد جاء في تقرير لمنظمة الصحة العالمية اعدته لاجتماعها السنوي في جنيف لسنة ١٩٧٨ م " يعاني حوالي ٤٠ مليون شخص من امراض عقلية اكيدة في العالم . وهناك اكثر من ٨٠ مليون ممن يعانون تخلفا خطيرا من جراء الافراط في تعاطي الادوية والمخدرات والمشروبات بالاضافة الى مائتي مليون شخص يعانون من اضطرابات عقلية اقل خطرا ولكنها تعرضهم للتخلف العقلي ايضا ." (٢)

أضف الى ذلك حوادث الانتحار الكثيرة التي تزداد كل يوم حتى في ارقى دول العالم وجرائم الاطفال الجانحين تسجل ارتفاعا ملحوظا في فرنسا وامريكا . (٣)

اما المجتمع الشيوعي فجرائمه اكثر من ان تحصى او تعد .فالحزب الشيوعي الذي يتحكم في اقوات الناس ويملك اكبر فرصة للتحكم في اخلاقهم ، ويتعمد لن يصوغ البشر في قوالب معينة نتيجتها افساد الانسانية وتحطيمها .

" ويشترك سكان الشقة في دورة مياه واحدة .بالاضافة الى ان دورات المياه العامة قد تكون بنيت بلا ابواب منذ انشائها .

وحيث ان الغرفة لاتحتوي الاعلى سرير واحد فردي فان الابوين ينامان عليه في حين ينام الابناء ذكورا واناثا حتى من البالغين على المنضدة متلاصقين وهي المنضدة التي يستعملونها للطبخ بالنهار ". (٤)

اما الجرائم السياسية وتقتيل الابرياء بالملايين من اجل تطبيق مذهب ماركس

---

(١) انظر مجلة المجتمع العدد ٣٥٠ ومجلة الدعوة المصرية العدد ٢٦
(٢) جريدة الندوة العدد ٥٧٤٨ لعام ١٣٩٨
(٣) انظر الطفولة الجانحة ص ٨ ـ ١٣
(٤) الديمقراطية والشيوعية ٢٦٤ .

فان الكتب المختصة [1] قد كتبت مافيه الكفاية • والواقع المعاصر اكبر شاهد على الجرائم التي ترتكبها الشيوعية ضد البشرية وبخاصة ضد المسلمين •

ان الذي ذكرته من حياة الجيل الاوربي المعاصر قليلة انها غيض من فيض وتحتاج الى موءلف كامل • يبين اسباب فساد الحياة الاوربية ونماذج منها • وفي نظري أن كثرة هذه الجرائم — السياسية والاقتصادية والخلقية والانهيار العصبي والنفسي — التي تعاني منها الدول الاوربية كما صرح بذلك علماؤها وكما هو مشاهد وملاحظ • ان سبب هذه الجرائم كلها هو بعد الناس عن العقيدة الايمانية السليمة التي تمنع الناس من الوقوع في الرذائل والمعاصي والجرائم • ان الجيل الذي تربى على العقيدة الالهية الصحيحة ضرب اروع الامثلة في تاريخ البشرية في اخلاقياته ومعاملته للناس • وكانت الجرائم قليلة لاتذكر وكان العدل يرفرف على ربوع الارض لان الحكام لم يشرعوا لانفسهم لانهم لايملكون التشريع • انما التشريع لله عز وجل • كان الناس يحاسبون انفسهم قبل الاقدام على منكر يغضب الله تعالى •

اما الجيل الاوربي المعاصر الذي شرع لنفسه وترك خالقه واتجه الى المادة في العبادة فقد اصبح في حالة من الفوضى والضياع يرثى لها لانه لايملك الرادع القوي الذي يمنعه من ارتكاب المنكرات والتفنن في ابتكار وسائل الاجرام والاعتداء على الاموال والاعراض • لجأ الى السكر والمخدرات لعله يجد فيها راحة من عناء الهموم والمشاغل والمتاعب • ولكن هيهات أن يجد الراحة النفسية التي يريد وهو بعيد عن الله • لذلك من السهل عليه أن يلجأ الى العنف والانتحار وان يصاب بالامراض النفسية والعصبية وهو يعيش في مجتمع تقتل فيه الحرية باسم الحرية • فلا يستطيع ان يعترض على الظلم الذي يراه في كل وقت وحين •

بعد هذا كله هل يصح لمن يزعم انه علمي في بحثه وان نظريته لا ياتيها

---

(١) راجع الكتب التالية: الصنم الذي هوى ، عائد من الجحيم ، الديمقراطية والشيوعية • الاسلام في وجه الزحف الاحمر •

الباطل من بين يديها ولا من خلفها ـ ان يقول ان الجيل الاوربى المعاصر ارقى واحسن حالا واهنأ عيشا من جيل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيل الذى رباه الايمان ؟ هل يمكن لمنصف ان يقول ان الحياة المظلمة للجيل الاوربى المعاصر التى نراها ونسمع عنها هى افضل من الحياة المشرقة الوضاءة فى تاريخ البشرية التى عاشها اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

نعم .. انها خرافة التطور التى تقول ان كل طور جديد ارقى من الطور القديم هذه الخرافة التى لا تنظر الى الانسان الا بالمنظار المادى الضيق . التى تتعامى عن الايمان بالله واثره فى النفوس . فلا ترى الا التقدم المادى والعمرانى وتتعامى وتتجاهل الواقع الاجتماعى والسياسى والاخلاقى السىء الذى تعيشه الامم المعاصرة . وتزعم بعد ذلك أنها نظرية علمية ؟!

" لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون " (١)

ـ.ـ

---

(١) الزخرف ٧٨

مناقشة قانون التناقـــــــض

ذكرت في باب عرض النظرية من وجهة نظر اصحابها • أنهم يقولون ان كل اشيـــاء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية لان فيها جميعها عناصر تضمحل وتتطور ، وان لها كذلك جانبا سلبيا واخر ايجابيا، ولها ماض وحاضر، فنضال هذه المتضادات هـــو المحتوى الداخلي لحركة التطور. ويعتبر الماديون ان الواقع حركة ناشئة عن التناقـــض والنضال بين المتضادات ، وهما داخليان لانهما جوهر الحركة •

والظروف الخارجية لها دور ثانوي في عملية التناقض والاساس فيه انما هـــــو للتناقض الداخلي لان الظروف الخارجية تفقد تاثيرها اذا لم يوجد التناقض الداخلـــي ، وقد ذكرت ان ماركس اخذ الجدلية عن هيغل ولكنه قلبها راسا على عقب ، لان الجدلية هي عبارة عن دعوى ومقابل الدعوى ثم اخيرا جامع الدعوى ومقابلها •

بعد هذا العرض السريع ابدا في دراسة التناقض في ضوء علم المنطـــــق وكيف فهم الماركسيون التناقض، وهل فهموه الفهم السليم ؟ ثم ادرس التناقض علـــى ضوء الابحاث العلمية لارى هل التناقض وصراع المتناقضات موجود في الكون المـــادي فعلا ؛ ان الموجود شيء اخر غير التناقض ؟ وقبل الدخول في مناقشة الماديين لابـــد من معرفة التناقض والتضاد وعدم التناقض وكيف فهم الماديون التناقض •

* ماهو التناقـــض ؟ • :

" التناقض هو : اختلاف القضيتين بالايجاب والسلب على وجه يقتضي لذاتـــه ان تكون احداهما صادقة والاخرى كاذبة " • (١)

— شروط التناقض :

هذا وللتناقض شروط يتحقق بها فاذا اختل شرط منها لم يعد هناك تناقضـــا بل يكون الترديد بين النفي والاثبات صحيحا ويشترط في التناقض اربعة شروط هي :

---

(١) ضوابط المعرفة واصول الاستدلال والمناظرة ص ١٦٥ •

أولا : اختلاف القضيتين فى الكيف ، بان تكون احداهما موجبة والاخرى سالبة
مثال : كل حديد معدن نقيضها ليس بعض الحديد معدن ٠

ثانيا : اختلاف القضيتين فى الكم فيما عدا الشخصية ٠ (١) فالاختلاف فيها فى الكيف
مثاله : بعض الانسان فرس ٠ لاشيء من الانسان بفرس ٠

ثالثا : اختلاف القضيتين فى الجهة ان كانتا موجبتين فنقيض الضرورية الممكنة ونقيض الدائمة المطلقة ٠ والعكس بالعكس ٠ كل انسان جسم بالضرورة ونقيضها بعض الانسان ليس جسما بالامكان (كاذبة) ٠ الثانية كل كاتب متحرك الاصابع دائما كاتبا نقيضها : ليس بعض الكاتب متحرك الاصابع بالفعل (كاذبة) ٠

رابعا : يشترط الاتحاد فيما عدا ذلك / وقد حصر المتقدمون من المناطقة ما يجب فيه الاتحاد فى ثمانية : فقالوا يجب الاتحاد فى الموضوع وفى المحمول وفى المكان وفى الزمان وفى الشرط وفى الاضافة وفى الجزء وفى الكل وفى القوة والفعل ٠(٢)

اما الاتحاد فى الموضوع : فهو ان يتناول النفى والاثبات او الايجاب والسلب موضوعا واحدا ٠ وعلى ذلك فلا تناقض فى قولنا : ان المربع ذو اربعة اضلاع وان المثلث ليس له اربعة اضلاع ، وذلك لاختلاف الموضوعين اللذين تناولهما السلب والايجاب ٠ اما اتحاد المحمول فهو ان يكون المحمول او المحكوم به فى كلا القضيتين واحد ٠ وعليه فلا تناقض فى قولنا محمد رسول الله ومحمد ليس بشاعر وذلك لاختلاف المحمول فى القضيتين ٠

واما اتحاد الزمان : فهو ان يكون النفى والاثبات قد تناولا الموضوع فى زمن واحد وعلى ذلك فلا تناقض بين الانسان لا يشعر بغريزة الجنس فى دور الطفولة والانسان يشعر بها فى دور الشباب ، وذلك لاختلاف العهد بين الطفولة والشباب ٠

واما الاتحاد فى المكان : فهو ان يتناول النفى والاثبات الموضوع فى مكان واحد لا يتعداه وعليه فلا تناقض بين محمد موجود فى المدرسة ومحمد ليس موجودا فى البيت لاختلاف المكان ٠

---

(١) القضية الشخصية ماكان موضوعها مشخصا مثل محمد فاهم ٠
(٢) القوة عبارة عن امكان الشيء والفعل عبارة عن وجوده حقيقة ٠

والاتحاد في الشرط هو ان يكون المشروط واحد ، فاذا اختلف المشروط فلا تناقض بين النفي والاثبات . مثاله الجسم مفرق للبصر بشرط كونه ابيضا والجسم ليس مفرقا للبصر بشرط كونه اسود ا . والاتحاد في الاضافة ، وعلى ذلك فلاتناقض بين محمد أب ، اي لبكر ومحمد ليس ابا ، اي لخالد . والاتحاد في الجزء والكل وعليه فلا تناقض بين المصريون يتكلمون الانجليزية (اي بعضهم .) والمصريون لا يتكلمون الانجليزية (اي كلهم) ، والاتحاد في القوة والفعل وعليه فلاتناقض بين الطفل لا يعقل (اي بالفعل) والطفل يعقل (اي بالقوة) .

والتحقيق انه لا حصر في هذه الثمانية بل لابد من توافر شروط اخرى فلابد من اتحاد المفعول فلاتناقض بين / محمد يذاكر (اي الانجليزية) ومحمد لا يذاكر (اي البلاغة) ولابد من اتحاد الالة فلاتناقض بين : خالد يقطع الخشب (اي بالسكين) وخالد لا يقطع الخشب (بالمنشار) ولابد من اتحاد الحال . فلاتناقض بين : حضر بكر الى الكلية (اي راكبا) ولم يحضر بكر الى الكلية (اي ماشيا) وغير ذلك ".(١)

فان توفرت هذه الشروط في قضيتين كانتا متناقضتين حقيقة . وحكم النفي والاثبات فيهما انهما لا يجتمعان ولا يرتفعان بل لابد من ثبوت احدهما ونفي الاخر ، وعلى ذلك فان القضيتين المتناقضتين لا يجوز ان تصدقا معا بل لابد من صدق احداهما وكذب الاخرى . والا لزم اجتماع النقيضين وهو باطل . ولا يجوز ان يكذبا معا والا لزم ارتفاع النقيضين . وهو باطل فبقي ان احداهما صادقة والاخرى كاذبة واذا لم يتوفر احد هذه الشروط في قضيتين ما لم يعد هناك تناقض ومن يدعي وجود التناقض الحقيقي في الطبيعة بمعنى اجتماع النقيضين بشروطه المذكورة انفا . فاننا نطالبه بمثال واحد تتوفر فيه شروط التناقض هذه كي يثبت دعواه . والا فما دون ذلك سفسطة وهزل ".(٢)

---

(١) بتصرف عن المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم ص ١١٧ ـ ١١٨ وانظر ضوابط المعرفة ص ١٥٥ ـ ١٦٧ .

(٢) الدين والفلسفة المادية الجدلية ص ٥٧ .

* ماهو التضـــاد ؟

اما التضاد فهو : " التقابل بين القضيتين الكليتين المختلفتين في الكيف فقـــط ومعنى التضاد في القضايا ان صدق احدى القضيتين يقتضي كذب الاخرى حتما ولكـــــن كذب احدى القضيتين لا يقتضي صدق الاخرى حتما لاحتمال ان يكون الواقع على خلافهمـــا جميعا . فتكونا عندئذ كاذبتين " (١)

وحكم القضيتين المتضادتين ان تصدق احداهما وتكذب الاخرى في كل قضيـــــة يكون موضوعها اخص من محمولها . كما في المثال التالي : كل فاكهة برتقال ولا شـــــيء من البرتقال بفاكهة . اما اذا كان موضوعها اعم من محمولها فانهما يكذبان معا مثـــل : كل فاكهة برتقال ، ولا شيء من الفاكهة ببرتقال ، فانهما كاذبتان معا . وعلى هـــذا فان القضيتين المتضادتين لا تصدقان معا ، ولكنهما قد تكذبان معا " . (٢)

ماهو مبدأ عدم التناقض :

يقول الاستاذ محمد باقر الصدر : " ان مبدأ عدم التناقض هو المبدأ القائل بــأن التناقض مستحيل ، فلا يمكن ان يتفق النفي والاثبات في حال من الاحوال ، وهـــذا واضح ، ولكن ماهو هذا التناقض الذي يرفضه هذا المبدأ ولا يمكن للعقل قبولـــه ؟ فهل هو كل نفي واثبات ؟ كلا ، فان كل نفي لا يناقض اي اثبات وكل اثبات لا يتعـــارض مع كل نفي ، وانما يتناقض الاثبات مع نفيه بالذات لا مع نفي اثبات اخر . ووجـــود الشيء يتعارض بصورة اساسية مع عدم ذلك الشيء لا مع عدم شيء اخر ، ومعـــنى تعارضهما انهما لا يمكن ان يتوحدا اويجتمعا " . (٣)

---

(١) المرشد السليم ص ١٢٥ ،
ضوابط المعرفة ص ١٦٩

(٢) انظر المرشد السليم ص ١٢٥

(٣) فلسفتنا ص ٢٣٨ .

- كيف فهم الماديون التناقض؟ :

قبل البحث في هذه المسألة لابد من التفريق بين أمرين هامين وهما : "أحدهما الصراع بين اضداد ونقائض خارجية والاخر الصراع بين اضداد ونقائض مجتمعة في وحدة معينة . فالثاني هو الذي يتناقض مع مبدأ عدم التناقض اما الاول فلا علاقة له بالتناقض لانه لا يعني اجتماع النقيضين او الضدين بل مرده الى وجود كل منهما بصورة مستقلة . وقيام كفاح بينهما يؤدي الى نتيجة معينة ". (١)

فالصراع بين الاضداد والنقائض الخارجية ليس كشفا للماديين الماركسيين في عالم الطبيعة والفكر بل هو مقرر في الفكر البشري منذ فجر التاريخ الى يومنا هذا .

فأرسطو مثلا اقام فلسفته على اساس مبدأ عدم التناقض وهو يؤمن بالصراع بين الاضداد الخارجية " (٢) .

أما ان اراد الماديون من التناقض مفهومه الحقيقي - الذي يجعل للحركة رصيدا للمادة نفسها بفضل مبدأ التناقض فهذا شيء لا يستطيعونه ولا يستطيعون ان يبرهنوا عليه ولا بدليل واحد يثبت هذا التناقض الذي يزعمون ، ونحن نطالبهم بالدليل الذي يثبت هذا التناقض الداخلي الذي يزعمون . وقد ثبت من خلال البحث ان الحركة صفة للمادة والحركة دليل على التغير والانتقال من حال الى حال وهذا يتنافى مع الازلية فهو دليل استخدمه الماديون للبرهان على ازلية المادة ولكنه في الواقع دليل ضدهم .

لان كل متغير حادث ، والمادة حادثة ، كما تبين من خلال البحث السابق والحادث لا يستطيع ان يضع لنفسه قوانين يسير عليها فلا بد اذا من محدث يضع له القوانين التي يسير بحسبها وهو الله سبحانه وتعالى .

- تمثيلهم للتناقض :

ساورد هنا ثلاثة امثلة من الامثلة التي استدل بها الماديون على دعوى التناقض لكي نعرف مدى الصلة بين هذه الامثلة وبين مبدأ التناقض في فلسفتهم للكون . وقد

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤٠

(٢) انظر نفس المصدر ص ٢٤١

وقد مثلوا لذلك بامثلة ، احدهما في الجسم الحي والثاني بمقدرة الانسان على المعرفة والثالث بالحركة .

اما المثال الاول ففي الجسم الحي يقول انجلز : " وبالطريقة نفسها فان كل كائن عضوي هو في كل برهة ذاته وغير ذاته فهو يتمثل في كل برهة المادة التي يتزود بها من الخارج ، ويتخلص من مواد اخرى . كما ان بعض خلايا بدنه تموت في كل برهة ، وخلايا اخرى تتكون من جديد ، وان مادة بدنه لتجدد كليا خلال فترة زمنية تطول او تقصر ، وتحل محلها ذرات اخرى من المادة بحيث ان كل كائن عضوي يظل هو نفسه بصورة دائمة ومع ذلك فهو كائن اخر . " (١)

والسؤال الذي يطرح اين التناقض بين هاتين العمليتين ــ الموت والحياة ــ في الكائن الحي ؟ وحين نحلل هاتين العمليتين ــ الموت والحياة ــ في الكائن الحي نجدهما غير متفقتين في موضوع واحد . واتفاق الموضوع هو احد شروط التناقض . فالكائن الحي في كل يوم يودع خلايا ميتة ويستقبل خلايا جديدة ، ولكن الخلية التي توجد في لحظة غير الخلية الميتة البالية . وبناء على ذلك فالكائن قائم ومستمر بذلك بالخلايا المتجددة .

ان التناقض يحصل حين يستوعب الموت والحياة في لحظة واحدة ، جميع خلايا الكائن الحي وهذا لا تعرفه طبيعة الاشياء او واحد من البشر . فالكائن الحي لا يحمل في كينونته الا امكان الموت . وامكان الموت لا يناقض الحياة لاختلاف الزمان الذي هو من شروط التناقض ، وانما الذي يناقض الحياة هو الموت نفسه ، وهذا لا يتحقق بحال من الاحوال الا في موضوع واحد كما عرفنا سابقا . (٢)

المثال الثاني : في مقدرة الانسان على المعرفة . يقول انجلز : " وكما راينا بان التناقض مثلا بين قدرة الانسان على المعرفة مقدرة متاصلة ولا محدودة وبين تحقيق هذه القدرة تحقيقا فعليا في البشر الذين هم مقيدون بظروفهم الخارجية في التقدم اللامتناهي . وبالنسبة لنا على الاقل وحسب وجهة النظر العلمية ". (٣)

---

(١) انتي دوهرنغ ص ٢٨
(٢) انظر الدين والفلسفة المادية الجدلية ص ٦٢ ــ ٦٣
(٣) نفس المصدر ص ٦٣

في هذا النص نجد أن الماديين لا يفهمون مبدأ عدم التناقض، ولا يخدمهم في التدليل على التناقض. فاذا صح ان البشرية قادرة على اكتساب المعرفة الكاملة وان كل فرد لا يستطيع لنفسه ذلك فهذا ليس دليلا على التناقض وليس هذا ظاهرة شاذة عن المفهوم البشرى العادى كذلك.

فالتناقض كما عرفنا انما يقوم بين النفي والاثبات فيما اذا تناولا موضوعا واحدا في وقت وزمان واحد، اما اذا تناول الاثبات الانسانية كاملة والنفي انسانا واحدا بعينه فهذا ليس تناقضا نظرا لاختلاف الموضوع، وليس كما ظهر انجلز انه تناقض حقيقى.(١)

المثال الثالث: تناقض الحركة: يقول ماوتسى تونغ: " لقضية عموم التناقض او الوجود المطلق للتناقض معنى مزدوج. الاول: هو ان التناقض قائم في عملية تطور كافة الاشياء. والثانى هو انه في عملية تطور كل شيء تقوم حركة الاضداد من البداية حتى النهاية. يقول انجلز ان الحركة نفسها تناقض "(٢)

والرد على هذا الزعم هو ان كل حركة وكل درجة من درجات التطور تنطوى على جانبين اثبات بالفعل ونفي بالقوة (انهما غير متناقضتين لاختلاف الزمان كما مر سابقا). فالرجل مثلا يمر باطوار كثيرة من نطفة الى علقة الى جنين الى طفل الى مراهق شاب وهكذا.. فهو في كل مرحلة من مراحل تطوره يتصف بامرين هما الفعل والقوة او الامكان. فهو في حال تكونه جنينا فهو جنين بالفعل وطفل بالقوة والامكان، اى يمكن ان يكون طفلا، والطفل هو طفل بالفعل ومراهق بالقوة والامكان وهكذا دواليك الى اخر مراحل التطور. وعلى ذلك فقد اجتمع في الطفل صفة الجنين وامكان الطفولة لا صفة الجنين والطفولة معا.

وهنا يرد سؤال على الماديين هو اذا كان عندكم دليل على تناقض الحركة يخالف مبدأ عدم التناقض، فقدموا الينا مثالا واحدا توجد فيه حركة ولا توجد، بمعنى اخر يصح فيه النفي والاثبات لذات واحدة في زمن ومكان واحد كمثال للتطور.؟

---

(١) انظر نفس المصدر ص ٦٣

(٢) حول التناقض ص ١٣ نقلا عن نفس المصدر السابق ص ٦٤.

فان كان الشيء الواحد يتطور ولا يتطور بان واحد في عالم الطبيعة ، ان كان هذا حاصلا فعلا كما يزعمون . فليدللوا على ذلك بشاهد واحد من الطبيعة يثبت ذلك " ؛ (١)

بعد بيان المفهوم العلمي الصحيح للتناقض والتضاد ومبدأ عدم التناقض كما قرر علماء المنطق وكيف اخطأ الماركسيون في فهم التناقض ، اناقش هذا القانون من وجهة النظر العلمية لارى هل التناقض وصراع المتناقضات موجود فعلا في الكون المادي ام ان الموجود شيء اخر غير التناقض ؟ .

مناقشة قانون التناقض من وجهة النظر العلمية

ان القول بقانون التناقض وصراع الاضداد خطأ من وجهة النظر العلمية وذلك لان ظواهر الوجود قائمة على التوازن الناتج من الحركة حول محور ثابت . فالتوازن هو الاصل ويحدث الصراع عند الاخلال بهذا التوازن . وحين وضع ماركس جدلية المادية اي حين طبق قوانين هيجل في الجدل على المادة منذ قرن ، لم تكن المادة معروفة وقتها تماما ، اذ كان العلماء القدامى على عهد هيجل وماركس وانجلز يعتقدون ان الطبيعة مركبة من ٩٢ عنصرا وان كل عنصر مكون من جزئيات هي "الذرات" . وكانت الذرة معتبرة وحدة الكون كله . وان كانت غير معروفة الا بخواصها فكان لديهم ٩٢ نوعا من الذرات مختلفة "كيفا" اي مختلفة في الخواص ، وسمح هذا التعدد واختلاف تاثير المواد بعضها ببعض بان يقال ان ثمة تناقضا في الطبيعة او المادة .

وفي هذا العصر فان طلاب المرحلة الثانوية يدركون ما لم يدركه ماركس وشيعته الاولى من ان الذرة مركبة من نواة يحيط بها عدد من الالكترونات وهي كهارب ذات شحنة سالبة تتحرك بسرعة هائلة ، وان النواة تتكون من بروتونات ونيوترونات ، والبروتونات كهارب ذات شحنة موجبة ، والنيوترونات متعادلة وقوام النيوترون هو بروتون والكترون ملتصقان .

---

(١) انظر نفس المصدر ص ٦٤ ــ ٦٥

وعرفنا ان الاختلاف في الظواهر التي نراها في المادة وتركيباتها راجع الى خلاف في عدد ترتيب الالكترونات في ذرات تلك المواد . فالذرة التي تحوى الكترونا واحدا مادتها هي : ايدروجين ، واذا كانت تحوى ٩٢ فهي يورانيوم ، واذا كانت تحوى ٣٦ فهي حديد . (١) وثمة حقيقة لم يكن يعرفها ماركس ، وهي : ان عدد الالكترونات في اية ذرة يساوي تماما عدد البروتونات اي ان الشحنة السالبة في اية ذرة تتساوى تماما مع الشحنة الموجبة . " (٢)

ولذلك فالذرة من اية مادة في حالتها العادية وحدة متزنة ، خالية من التناقض الداخلي والصراع . وقد كان المفهوم السائد عن الشحنات الكهربائية انها تتجاذب اذ كانت من انواع مختلفة ، وتتنافر ان كانت من نوع واحد . فمثلا الشحنة السالبة مع الموجبة تتجاذب والشحنة الموجبة مع الموجبة والسالبة مع السالبة تتنافر ، الى ان اثبت العلم في القرن الحاضر ان هناك مسافة يبطل عندها هذا القانون وهي جزء من ثلاثين مليون من السنتيمتر وهو يعادل $\frac{1}{8}$ قطر اكبر ذرة ، وبذلك ثبت ان ليس داخل الذرة تناقض .

يقول موريس وكين : " ولقد سادت الذرات والحتمية طوال القرن التاسع عشر كله مجال العلم .. لقد حسبنا الاعداد المنتسبة للعناصر وحصلنا على تفسير لخواص الغازات بافتراض تكوينها من جسيمات دائبة الحركة تامة المرونة ورغم وصولنا الى تقدير قطر الذرة (١٠/٨ سم ") لم نحاول بناء نموذج لها " (٣) . ويقول في موضع اخر : " في المركز شحنة موجبة يتركز فيها مجموع الكتلة تقريبا انها النواة . لقد امكن تقدير نصف قطرها من التجارب السابقة فوجد انه يبلغ ١٠/٨ سم . وعلى ذلك تكون النواة التي تتمركز فيها كل الشحنة الموجبة للذرة اصغر ١٠٠٠٠٠ مرة من الذرة . وهذا الفضاء الضخم الذي يخلف النواة يحتوي على الشحنات السالبة ، تلك الالكترونات الكوكبية التي تدور حول النواة بسرعات كبيرة نوعا ما والتي يكون عددها بحيث يجعل النواة متعادلة كهربائيا " . (٤)

---

(١) و (٢) انظر الذرة ومنافعها السلمية ص ١٤ ، ١٦ . والمادة ضد المادة ص ١٧ .
(٣) المادة ضد المادة ص ١٤
(٤) نفس المصدر ص ١٧ .

والماديون كانوا يستندون ضمنا الى قانون نيوتن الذى جعل من القصور الذاتى نقيضا متصارعا مع الجاذبية ، فاخذ الماديون هذه الناحية واعتبروا ان كل شيء فيه قوة جذب وقوة طرد . وبذلك يجمع فى باطنه نقيضين . ولكن قوانين نيوتن قد تعدلت بنظرية آينشتين النسبية حين اثبتنا ان الجاذبية ليست قوة والفكرة التى تقول ان كل جسمين ماديين يتجاذبان نوع من الخداع مخالف للحقيقة فى تصوير الحركة لان الجاذبية لم تعد نقيض القصور لانهما وحدة واحدة .

وكان العلماء يعتقدون ان الطبيعة قائمة على عنصرين هامين هما : الطاقة والمادة واعتبروا المادة شيئا جامدا محسوسا سموه الكتلة واعتبروا الطاقة شيئا نشيطا بدون كتلة . وبذلك اصبح السكون نقيض الحركة والمادة نقيض الطاقة . ثم اثبت العلم فى العصر الحاضر وحدة الطاقة والمادة وانها ليست الا طاقة مركزة وان الطاقة عبارة عن مادة تسير بسرعة الضوء .

وبذلك زال ماكنا نتصوره على انه تناقض باكتشاف نظرية آنشتين فى الطاقة والتى تقول : " الطاقة تتساوى الكتلة ضرب مربع سرعة الضوء " . وقد كانت المادة الخفيفة تعتبر نقيض المادة الثقيلة ، والسائل يعتبر نقيض الجامد والابيض يعتبر نقيض الاسود والحار نقيض البارد ، ومايطفىء النار نقيض ما يذكيها ، ثم جاء العلم واثبت ان المادة تتحول من السائل الى الجامد وبالعكس ، وان كل نوع من المادة يتحول الى نوع ثان ولا يتطلب هذا اكثر من تعديل وترتيب عدد مكونات الذرة من الكترونات وبروتونات وقد امكن بالفعل تحويل ذرات بعض العناصر الى ذرات عناصر اخرى .

يقول موريس دوكين : " ولقد كان اهم نجاح تحقق فى محاولة استكشاف النواة هو دون شك ماقام به رذفورد عام ١٩١٩ حيث قام باول تحويل ذرى ".[1] ومادام العلم قد اثبت ان الذرة خالية من التناقض الداخلى فلم يعد من الممكن القول بان حركة المادة جدلية ، ويكون هذا التصور الجدلى للمادة وهما لا اساس له من الحقيقة ، ولم نعد بحاجة الى الجدلية لتفسير تحول المادة من نوع الى اخر لان العلم اثبت ان تحول المادة الى تركيبات مختلفة يتم عن طريق اندماج الذرات ، ويتطلب ذلك

---

(١) نفس المصدر ص ٧١

وجود ذرتين تكون درجة تشبعهما مختلفة لتندمجا فتصبح الذرتان ذرة واحدة من نوع ثالث . ولابد من هذا التاثير الخارجي ، اى تاثير ذرة على اخرى لتتم عملية التحول . وهذا لا يتفق مع قانون الجدل الذى يقوم على اساس التحول من الداخل ويقولون ان الكون ملىء بالقوانين المتباينة التى تحكم كل نوع ، وان الانواع قد اختلفت وتباعدت خصائصها وبدت غريبة بعضها عن بعض الى حد ان انجلز قال فى كتابه جدلية الطبيعة : ـ ان ثمة اشعة ضوء سوداء تكون نقيضا لاشعة الضوء البيضاء " . (١)

لم يعتمد القول بان فى كل شىء صراعا داخليا وان كل شىء جدلى ويذهب الى بناء فلسفات على اساس غير علمى ، ونسى فى ذلك كله ان نقطة الانطلاق وهى الذرة التى هى وحدة الطبيعة ليس فيها تناقض ولا صراع داخليان ، وان كل الانواع قد تكونت نتيجة اندماج الذرات وتأثرها وتاثيرها فى حركتها الدائمة ، وان ناتج هذا التاثير المتبادل هو التغاير .

وحسبنا انهم تراجعوا فى اخر رأى لهم حين قالوا : " يجب الا يفهم هذا الامر فهما مهالغا فى بساطته ، ان الصراع بين الاضداد بمعناه الحر فى المباشر يحدث بصفة رئيسية فى المجتمعات الانسانية ، ولا يمكن على اى وجه ان نتحدث دائما عن الصراع بمعناه الحرفى بالنسبة الى العالم العضوى ، اما بالنسبة الى الطبيعة غير العضوية فيجب ان يفهم هذا التعبير على وجه اقل حرفية . وهذا هو السبب الذى وضع من اجله " لينين " ذلك التعبير بين قوسين . ان هذا التمييز لازم لفهم الصراع للاضداد فهما سليما " (٢) .

مما سبق بيانه هل يمكن القول بان ما هو موجود فى الظواهر هو متناقضات اولا ؟ . وانها فى حالة صراع ثانيا ؟ بهدف ان يقضى كل نقيض على نقيضه " هل يستقيم هذا الكلام مع المنطق العلمى اليوم ؟

---

(١) انظر حوار مع الشيوعيون داخل اقبية السجون ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ، ونظرية الثورة العربية الاسس جـ ٥ ص ١٢٠ ـ ١٢٢

(٢) اسس الماركسية اللينينية ص ١٠٢ ـ ١٠٣ نقلا عن مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية الاسلام ص ٤٠

يقول الدكتور عصمت سيف الدولة : " لقد قامت الجدلية المادية على فرضيـــة لفظية هي : " ان الطبيعة جدلية " . وليس معنى ذلك أنه قد ثبت ذلك علميا ، ولكنها ضرورة لتفسير حركة المادة غير المعروفة ، أو لعل هذا وضع تبرير تطبيق القوانين الهجلية على المادة . ولست ارى مبررا للتمسك بقانون الجدل ــ القانون الرابع ــ وارغام المادة على قبوله بعد ان فسر العلم حركة المادة ــ " لقد كان ماركس وانجلز معذورين عندما قالا ان المادة جدلية ، فقد كان الجهل بالحركة الداخلية للذرة يسمح لهما بهذا الافتراض الذي يسهل لهما تبنى القوانين التي وضعها هيجل .. اما ان يقول واحد فهو امر لا يدل الا على انه كان نائما وقد آن الاوان ليستيقظ النيام ولو حتى على هدير الصواريخ في عهد الذرة ..

ثم يقول : " لقد جاءنا دليل اليقظة من بلد الذرة والصواريخ ولننظر ما يقول مؤلفو أسس الماركسية ــ اللينينية ــ ما ياتي :

١ ــ انهم قالوا : ان المادة في عالم المرئيات وعالم غير المرئيات ــ الذرى لا يحركها ولا يحدد مستقبلها التناقض الجدلي في ذاتها . أي ان المادة في العالمين غير جدلية . قالوا ذلك في الطبعة الاولى باللغة الانجليزية من كتاب ــ اسس الماركسية اللينينية التي لا تحمل تاريخ نشر ص ٨١ ــ ٨٢ تحت عنوان الحتمية والعلم الحديث .

٢ ــ اما الطبعة الثانية من الكتاب سنة ١٩٦٣ م وما تلاها من طبعات سنة ١٩٦٤ فقد جاء الحديث تحت نفس العنوان خلوا من العبارات التي وجدت في الطبعة الاولى او من بديل لها في ص ٦٩ ــ ٧٠ .

واليكم نص عبارات الطبعة الاولى عن : أ ــ عالم المرئيات (الماكروكوزم) .
ب ــ عالم غير المرئيات . أ : كان علم الطبيعة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ــ اي على عهد ماركس وانجلز ــ المقصور على دراسة عالم المرئيات اي عالم الاجسام الكبيرة نسبيا وجزئياتها والمؤسس بشكل رئيسي على ميكانيكا نيوتن تسوده الحتمية الميكانيكية ، وكان مميزه الذي هو في الوقت ذاته عيبه . انه يجعل من كل سبب سببا ميكانيكيا . ومثال علاقة السببية الميكانيكية حركة كرة البليارد و

عند دفعها بالعصا .. فقوة الاندفاع فى الكرة مساويةللقوة المنقولة اليها من العصا والقول بالاشىء فى الاثر يتجاوز السبب يمثل نموذجا للحتمية الميكانيكية .

" وترتب على هذا أننا اذا عرفنا حالة جسم او - مجموعة - من الاجسام فى اى وقت امكننا عن طريق قوانين الميكانيكا التقليدية (ميكانيكا نيوتن) ان نحدد مقدما حالتها فى اى وقت فى المستقبل وقد تايد هذا المبدأ او تاكد بدراسة الحركة والتاثير الميكانيكى المتبادل فى الاجرام السماوية وكذلك فى الاجسام المرئية فى الارض والجزئيات ، ففى عالم المرئيات تتميز حالة الجسم المتحرك بموقعه فى المكان وسرعته فى وقت معين ويمكن تحديد هذه الخصائص تحديدا دقيقا وبمجرد معرفتها نستطيع ان نحدد بدون اى لبس فى أى وقت فى المستقبل على اساس قوانين الميكانيكا الكلاسيكية .

ب - " أما فى العالم غير المرئى (الميكروكوزم) نظرا للميزات الخاصة لظواهره نجد أن حركة المادة فيه اكثر تعقيدا .ويبدو هذا على وجه خاص من اننا نستطيع ان نحدد بايقدر جعطلوبة من الدقة ، اما وضع الجسم واما سرعته ،ولكن قوانين الميكانيكا الكلاسيكية غير كافية عند تطبيقها فى العالم غير المرئى ،اذ لا نستطيع بها أن نحدد مقدما كلا من موضع وسرعة جسم غير مرئى .. ومع ذلك فبمعرفة قوانين الميكانيكية الكوانطية : " اى قواعد الميكانيكا الخاصة بحركة غير المترئيات) يمكن تحديد وضعها المحتمل فى اى وقت فى المستقبل " .

" بهاتين الفقرتين كان مؤلفو اسس الماركسية اللينينية وعددهم ٣٩ عالما قد استبعدوا الحركة على اساس قانون التناقض الجدلى من عالم المادة مرئية اوغير مرئية ، وانتهوا الى أن حركة المادة يمكن تحديدها مقدما على وجه الدقة فى عالم المرئيات طبقا لقواعد الميكانيكا التقليدية ،ويمكن تحديدها على وجه الاحتمال فى عالم الذرة طبقا لقواعد الميكانيكا الكوانطية .. وبهذا وضعوا النهاية الحاسمة للادعاء بان المادة جدلية . ولكن هاتين الفقرتين حذفتا من الطبعة الثانية سنة ١٩٦٣ وماتلاها من طبعات . وكل ما نرجوه الا يكون وراء الحذف قصة اضطهاد للعلماء كالتى حدثت لكبار علماء

الوراثة سنة ١٩٣٢ حيث المؤتمر العام للعلماء الروس فى تلك السنة : [1] " ان علم التناسلات وتربية النبات يجب ان يطابق المادية الماركسية ". [2]

وعلى هذا رفضت تجارب مندل فى الوراثة لفترة طويلة لانها تخالف قاعدة التفسير الشامل ولم يقتصر الامر على مجرد الرفض بل وصل الامر الى اعدام عدد من كبار العلماء وهروب قسم اخر منهم " [3] .

وقد عقب الدكتور عصمت سيف الدولة فى كتابه نظرية الثورة العربية الاسس على قضايا المادية وعلى تمسك الماديين بها بقوله : " لو قبل الجدليون الماديون هذا لفقدوا التعصب لنظريتهم ، والتعصب كان لازما لخدمة اغراض ثورية تقتضى انفعال الجماهير بها الى اقصى حد ممكن . لذلك ركز الجدليون الماديون على النظرية عن طريق المطاعن القاتلة التى وجهوها للمثالية .. وعندما يقال ان ليس ثمة غير نظريتين المادية والمثالية ، ثم تنهار المثالية فان المادية تكون قد انتصرت دون ان تتعرض هى ذاتها للاختبار ، وهى طريقة يفسرها السباب والشتائم المجردة من الموضوعية التى يكيلها بعض الماديين لغيرهم ، واول سبة ان يتهموهم بانهم مثاليون اي ينسبونهم الى نظرية لا يمكن الدفاع عنها ، غير انه من الواضح أن أسلوبا مثل هذا لا يجدى ، فلكى نستطيع ان نقتنع بالمادية لا يكفى ان نكفر بالمثالية بل على الماديين انفسهم ان تصل الى افكارنا عن طريق الاقناع المنطقى والعلمى ". [4]

بعد أن بينت أن الموجود فى الكون المادى هو التزاوج وليس التناقض كما نقلت ذلك عن العلماء اهل الاختصاص . وكيف تراجع الماركسيون فى نهاية الامر عن الاصرار على القول بان التناقض موجود فى الكون المادى فى كل شيء فيه ، وكيف ان هذا القانون الباطل مخالف لعلم المنطق وللعلوم الطبيعية بعد بيان هذا كله ابين كيف ان الماركسيين يقفون بهذا القانون الباطل عن العمل عند تطبيق الشيوعية .

---

(١) نظرية الثورة العربية الاسس ج ١ ص ١٢٥ ـ ١٢٨

(٢) الشيوعية والانسانية ص ٢٨٩

(٣) راجع حول هذا الامر كتاب المقاد الشيوعية والانسانية ص ٢٨٨ ـ ٢٩٣

(٤) نظرية الثورة العربية الاسس ج ١ ص ٩٥

قانون التناقض يقف عن العمل عند حدود الشيوعية :

ذكرت سابقا في عرض النظرية أن الماديين يقولون : ان قانون التناقض هو قانون الحياة الرئيسي ، وان التناقض سيزول بحلول الشيوعية لانه ليس هناك ثمة تناقض في المجتمع الواحد وسوف يحل التعارض — الذي هو في عرفهم قانون ثانوي — محل القانون الرئيسي في الحياة وهو التناقض على حد زعمهم .[1] هذا القانون الذي ظنوا انه يخدمهم في نظريتهم خذلهم في هذه الناحية ، وهدم النظرية من اساسها وذلك " لان مبدأ النقيض لا يقف بتحول الشيء الى مقابله فقط . بل سيتحول الشيء ومقابله الى جامع لهما . ثم هذا الجامع بدوره يصير الى شيء ليتحول هو ايضا الى مقابله ثم الى جامع .. وهكذا . مع أن منطق هذا المبدأ هو الاستمرار في التحول فالماركسية تقف تترقب تحول المجتمع الراسمالي الى النقيض والمقابل له وهو المجتمع الشيوعي، عند حد هذا المجتمع — ولا تذكر — فضلا عن ان تترقب — توقع انهيار المجتمع الشيوعي وسقوطه وهدم نفسه في مجتمع مقابل له بناء على ان كل شيء يتضمن نقيض نفسه وان فيه عامل الهدم لنفسه " .[2]

ولكن الماركسيين يقفون بقانونهم عند هواهم فلا يعملونه الا فيما قبل قيام الشيوعية ثم يبطلونه بعد ان يبلغون مرادهم منه ويزعمون بعد ذلك انهم علميون !

والقانون العلمي حتى يكون مقبولا يجب ان يكون جامعا مانعا ، اي ان يطبق على الجميع دون استثناء ، والا فلا يسمى حينئذ قانونا علميا . وهذا ما حدث بالنسبة للشيوعيين حيث قالوا ان التناقض هو قانون الحياة الرئيسي ، وطبقوه على المجتمعات السابقة للشيوعية ، ثم نجدهم يقفون بالديالكتيك عن العمل عند الشيوعية لانه على حد زعمهم لا توجد في المجتمع الشيوعي تناقضات .

والسؤال الذي يفرض نفسه هو : كيف يتفق هذا الزعم مع قانون الديالكتيك ؟ هل سيبطل الديالكتيك عن العمل فلا تقدم ولا ازدهار ؟ ام سيبقى الديالكتيك مستمرا في العمل وعلى هذا الاساس فما هو الطور الذي سياتي بعد الشيوعية على حسب قانون التناقض.

---

(١) انظر عرض النظرية الفصل الثاني قانون التناقض.
(٢) الفكر الاسلامي الحديث ص ٣٥٥ .

ثم أين العلمية المزعومة في نظريتكم وقانون التناقض لا يشمل الشيوعية ؟ كيف سمحتم لقانون التناقض بالعمل في المجتمعات السابقة على الشيوعية • واوقفتموه عن العمل عندها ؟ هل قانون التناقض على فرض صحته ـ ملك لكم تتحكمون فيه يعمل متى شئتم ويتوقف عن العمل متى أردتم ؟ •

ـ•ـ

((الفصل الرابـــع))

قوانين المـــادة لاتنطبق على حيـاة الانسان

بعد أن انتهيت من مناقشة الماديين فى قوانين المادة، وبينت انهم ليسوا أول من اكتشف قانونى الترابط والحركة فى الكون المادى، وأن فهم الماديين لقانونى التطور والتناقض غير سليم من وجهة النظر العلمية، حيث اثبت ان التطور لا يكون من الادنى الى الاعلى، ومن السىء الى الحسن، وليس كل طور جديد افضل من الطور القديم .

كما اثبت أن المادة لا تحتوى على النقائض الداخلية ، اقول : حتى لو صحت هذه القوانين كما فهمها وطبقها الماديون على الكون ، فهى لا تصلح للتطبيق على حياة الانسان لانه كائن حى ، بل حى فى اعلى درجة من درجات التخصص والتعقيد فى تركيبه . يقول الاستاذ وحيد الدين خان فى معرض حديثه عن دين العصر الحاضر ومناقشة افكار الدكتور كاريل عن الانسان : " ثالثا لقد تجاهل الدكتور كاريل تجاهلا تاما ان الانسان مخلوق ابرز صفاته انه ذو ارادة . وهذه الصفة تميزه عن جميع الكائنات المادية . ونحن اذا استخلصنا نتيجة ما من دراسة شىء مادى فانه يحق لنا ان نعتقد ان جميع الاشياء المادية سوف تعطينا النتيجة نفسها اذا كانت فى ظروف مماثلة لذلك الشىء المادى الذى اجرينا عليه الدراسة ، ولكن قضية الانسان تختلف ، فالانسان يستطيع ان يغير نفسه فى اية لحظة يريد لانه صاحب ارادة حرة .

وكما يعترف الدكتور كاريل نفسه : " هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة .. فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة تقوم على اراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة باللغة الحسابية .. وقد انشأت هذه العلوم عالما متناسقا كتناسق اثار اليونان القديمة .. انها تنسج حول هذا العالم نسيجا رائعا من الاحصاءات والنظريات انها تبحث عن الحقيقة فيما وراء مملكة تمتد من الفكر الشائع الى المعنويات غير المنطوقة التى تتكون من المعادلات الجبرية والرموز فقط .. بيد ان موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف . حتى ليبدو وكأن اولئك الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم فى غاب متشابك الاشجار او انهم فى قلب دغل سحرى لا تكف اشجاره التى لا اعداد لها عن تغيير اماكنها واحجامها . فهم يرزحون تحت عبء اكداس من

الحقائق التى يستطيعون ان يصفوها ولكنهم يعجزون عن تعرفها او تحديدها في معادلات جهرية " (١)

ويمضى السيد وحيد الدين خان فى تعليقه قائلا : " ولهذا اقول : ان محاولة تقديم تفسير للعلم الانسان بحيث ينطبق على كل انسان ضرب من المستحيل وجرى وراء السراب ، والحقيقة انه لاحل لمشكلات الانسان الا بالسيطرة على ارادة الانسان حتى يفعل الانسان بمحض ارادته مانريده منه .

" ان مجرد الضغط على زر معين فى "محطة " الكهرباء يكفى لانارة شوارع مدينة كاملة . لكن ليس هناك قانون واحد ينطبق على كل انسان . فالانسان يغير نفسه بارادته الذاتية وليس هناك عامل خارجي يمكنه اداء هذه الوظيفة وهذا الجانب يجب الا يفوت الباحثين فى علم الانسان " . (٢)

يقول الكونت دى نوى : " عندما نلاحظ تجريبيا ان بعض الظروف المحددة يعقبها دائما بعض الظاهرات المرتبط بها ارتباط المعلول بالعلة ، فاننا نعبر عن هذه الملاحظة بطريقة تمكننا كلما وجدت الشروط نفسها من التكهن بالوقائع كميا او كيفيا . مثلا كلما سقط فى الفضاء على سطح الارض حجر او اى جسم صلد اخر فانه يقطع مهما كان وزنه المسافة ذاتها فى الثانية الاولى من سقوطه . وهذا ما يعرف بقانون سقوط الاجسام ..

" ان قوانيننا العلمية هى ابدا نتيجة الاستدلال تحكمها الحوادث التى يجب ان تخضع لها . وهى نسبية الى الانسان . الالة المفكرة . المسجلة . وتعبر فقط عن نسبة او سلسلة نسب بينه وبين العلة الخارجية " . (٣)

ويقول فى مكان اخر : " ان الحجر الذى نقذفه فى الفضاء يحسب نفسه حرا غير اننا نحن البشر نعلم انه خاضع لقانون الجاذبية ، ولا يمكن والحالة هذه اعتباره حرا ، وكذلك الانسان فقد يمكن ان يحسب نفسه حرا لكن شعوره بهذه الحرية ليس بحقيقى فى نظر المراقب الاعمق فى تفهم حقيقة الامور ، إن هو الا مجرد انفعال ذاتى

---

(١) الانسان ذلك المجهول ص ١٥
(٢) الدين فى مواجهة العلم ص ٦٠ ـ ٦١
(٣) مصير الانسان ص ٣٧ ـ ٣٨

وهى يرتكز على عجز الانسان عن الوصول الى اعماق الواقع الموضوعى •

" علينا ان نلاحظ ان هذا البرهان الحالى يعود الى عهد كانت فيه نظرية لابلاس الحتمية لاتزال مقبولة • ونحن نعلم ان ثمة حتمية احصائية حلت محلها حوالى عام ١٩٠٠ م اصبحت فيها المصادفة وحدها المحرك الاول واصبحت تسلم بامكان نظرى لوجود تقلبات تستطيع مضادة القانون • فتصور امكان عدم سقوط الحجر ممكن اذن ، غير انه فى الواقع لا يحصل مطلقا • وفوق ذلك فانه من الواضح ان القياس فى الحقل الفلسفى هو خدعة كاذبة ، ولا يمكن من الوجهة المنطقية مقارنة الحالتين لان احداهما ، وهى سقوط الحجر موحدة الاتجاه ، والثانية وهى عمل الانسان متعددة الاتجاه ، وانما نعنى بذلك ان الحجر ، مهما كان "تفكيره" فاننا نعلم بالاختبار - نحن المراقبين من الخارج - انه ليس للحجز اختيار لاننا لم نر قط حجرا لا يخضع لقانون الجاذبية •

ولو أننا سلمنا جدلا بان الحجر يستطيع "التفكير" فانه يصل الى هذه النتيجة وهى انه يختار دائما السقوط على الارض ، ولا فرق بين ان نسمى هذا الاختيار او نسميه طاعة لان الامر الاساسى هو انه لا يختار العصيان ابدا ، وليس ثمة امامه الا امكان واحد فالظاهرة موحدة الاتجاه •

" لننظر الان الى الانسان • ان كل شىء بنظره ووفقا لقياس ملاحظته يجرى كما لو انه حر فى ان يتبع اما غرائزه ، وهذا يعطيه كثيرا من اللذة المادية ، واما ان يحتقر هذه اللذة ويتصور غاية اخرى ، وهى اقتناء ما يسمونه بالقيم الانسانية الروحية الرفيعة • نحن نعلم أن السعى وراء هذه الغاية يفرض عراكا ضد الانسان الحيوانى • وان هذا العراك لايكون فى اكثر الاحيان دون عذاب حتى ولو كان فى النتيجة يوء من افراحا لاتقدر ، ومن المؤكد ان هاتين الطريقتين لاتوجدان الا عند الانسان • " (١)

هذا ما قاله العلماء عن الفارق بين الانسان وبين المادة •

---

(١) نفس المصدر ص ٨٣ ــ ٨٥ •

وانه لا يمكن ان يخضع للقوانين التى تخضع لها المادة ، لان له قوانينه الخاصة بـه. والكون المادى محكوم بالقوانين والسنن الربانية لا يخرج عنها الا بمشيئة الله فلا حرية له ولا ارادة . وهنا محل الخلاف بين الانسان والمادة ، فالانسان ذو حرية وارادة ، والكون المادى لا حرية له ولا ارادة ، والمادة تتصرف تصرفا واحدا في الظروف الواحد بينما الانسان يتصرف تصرفات مختلفة فى ظرف واحد .

اذن فمن الخطأ من وجهة النظر العلمية القول بان قوانين المادة تنطبق على حياة الانسان . وكل بناء اقيم على هذا الاساس الفاسد لا يمكن ان يكون مقبولا علميا لان تطبيق قوانين المادة على حياة الانسان فاسد من وجهة النظر العلمية للخلاف الكبير بين المادة وقوانينها والانسان وقوانينه .

وفى ختام هذا البحث لابد من تقرير النتائج التالية :

١ ــ المادة مخلوقة وليست خالقة لانها حادثة ومصيرها الى الفناء كما اثبت ذلك بالايات القرانية الواضحة واقوال العلماء فهى بالتالى ليست ازلية أبدية .

٢ ــ المخلوق لا يستطيع ان يصنع لنفسه قوانين يسير عليها ومادامت المادة مخلوقة فان الله الخالق سبحانه وتعالى هو الذى اوجد لها القوانين التى تسير عليها .

٣ ــ الخلق ناشئ عن ارادة الله سبحانه وتعالى ، وهذه الارادة سبقت وجود المادة . وعلى هذا فالعلم الالهى سابق فى الوجود على المادة ، والانسان لا يفكر فى العالم المادى فقط ، وانما يصل الى تجريدات ذهنية غير مادية وخاصية التفكير فى الانسان ناشئة عن ارادة الله تعالى ، وليست مجرد نتيجة تلقائية لانعكاس حركة المادة على المخ . والروح خلقها الله سبحانه وتعالى وهى مجهولة لا يستطيع احد اكتشافها لانها من امر الله واختصاصه .

٤ ــ قوانين المادة ولو سلمنا جدلا بصحتها كما فهمها الماديون فانها لا تنطبق على الانسان لانه كائن ذو حرية وارادة له قوانينه الخاصة التى سيره الله بحسبها والكون المادى لا حرية له ولا ارادة وله قوانينه الخاصة التى يسيره الله عليها .

٥ ـ من خلال مناقشة الماديين فى المادة وقوانينها تبين لى ان الماديين بنوا نظريتهم الجدلية على اسس فاسدة وهى ازلية المادة وابديتها وان المادة خالقة وان قوانين المادة تنطبق على الانسان •

وقد بينت بطلان هذه الاسس وعلى هذا فان كل بناء بنوه على هذه الاسس فاسد غير صحيح من وجهة النظر العلمية لان مابنى على الفاسد فهو فاسد • وقد اثبت الصلة القوية بين المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ من وجهة نظرهم وحسب اعترافهم • وانهما وحدة واحدة لاتنفصل • واذا تطرق فساد لواحدة منهما انهارت النظرية الثانية • وعلى هذا الاساس فان التفسير المادى للتاريخ قائم على اساس فاسد من الوجهة العلمية من جهة ازلية المادة وابديتها وخالقيتها ومن جهة فهم الماديين الخاطىء لقوانين المادة ومن جهة انطباق قوانين المادة على حياة الانسان •

وفى الختام أسأل الماديين : أين العلمية المزعومة فى تفسيرهم المادى للتاريخ ؟ واين تفردهم بالعلمية وحصرها فى نظريتهم وحرمان سائر البشر منها ؟ بعد انهيار اساساتها • " وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا " (١)

ـ•ـ

(١) المجادلة (٢)

((الفصل الخامس))

مناقشة أثر نظرية دارون على التفسير المادى للتاريخ

تمهيـــد :

أثبت من خلال عرض نظرية التفسير المادى للتاريخ الصلة القوية بينها وبين نظرية دارون ، حيث اعتمد الماديون فى تفسيرهم المادى لتاريخ البشرية على نظرية دارون ، وكان أشد ما تاثروا به فى هذه النظرية مايلى :

أولا : ارجاع عملية الخلق للطبيعة بدلا من الله سبحانه وتعالى .

ثانيا : القول بأن الكائنات الحية تتبع فى تطورها خطا حتميا ناشئا عن ضغط البيئة المادية الخارجية عليها ، دون ان يكون لهذه الكائنات ارادة وقصد

ثالثا : النظرة المادية الحيوانية للانسان والتى تنفى عنه الجوانب الروحية وتؤمن بعالم الجسد وحده ، وبالواقع الذى تدركه الحواس . فقد نسبوا عملية التطور الى عوامل طبيعية عمياء آلية جبارة واستبعدوا القدرة الالهية فى عملية الخلق وخاصة الانسان ، ونفوا الغاية والقصد من خلقه . وقد استغلت نظرية دارون من قبل الماديين استغلالا بشعا فى هدم عقائد الناس واخلاقهم فهم لايعترفون بشىء ثابت ، لان كل شىء فى نظرهم يتطور . فالعقيدة الالهية تتطور والاخلاق تتطور والقيم تتطور والتقاليد تتطور وكل شىء يتطور حيث لايوجد فى نظرهم شىء ثابت ، لا الجوهر ولا الصورة .

والذى يهمنى فى هذا البحث هو مناقشة النظرية فى الامور التالية :

أولا : فكرة التطور . وهذه الفكرة لم تثبت علميا عندهم . فهى ليست حقيقة علمية بشهادة العلماء انفسهم لانها لاتملك ادلة اثبات يقينية فيما يتعلق بتاريخ الانسان ، وانما هى مجرد فروض ومزاعم . والتشابه الموجود بين الحيوانات الذى خدع به دارون لايعنى النسب فيما بينها . والسؤال الذى يطرح فى هذا المقام هو : هل باستطاعة العلم المادى الحديث ان يقدم ادلة يقينية قاطعة تثبت مازعموه حول نشأة الانسان الاولى وتاريخه ؟ ان مايقولونه هو مجرد احتمال افتراضى لو لم يقولوا به لما وجدوا امامهم الا مايقرره الدين من قضية الخلق الربانى .(1) وهذا ماهرب منه الماديون

---

(1) انظر صراع مع الملاحدة ص ٢٩٧

الملحدون من غير دليل علمي ، نتيجة للظروف المحلية القاسية في أوربا .(١)

يقول سيرآرثر كيث : " ان نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل الى اثباتها بالبرهان ونحن لانؤمن بها الا لان الخيار الوحيد بعد ذلك هو الايمان بالخلق الخاص المباشر وهذا مالا يمكن التفكير فيه "(٢) ويقول سير جيمس جنز : " ان في عقولنا تعصبا يرجح التفسير المادي للحقائق "(٣)

ثانيا : كون التطور ذاتيا : وهذه قضية ساقطة من اساسها بالادلة الايمانية التي أثبتت حدوث المادة ، وانها مخلوقة لله سبحانه وتعالى . والمخلوق لايستطيع ان يتطور دون ارادة من خلقه (٤) .

ثالثا : كون الانسان بالذات نتيجة سلسلة متطورة عن الحيوانات . قضية مرفوضة من اساسها وذلك لان الله سبحانه وتعالى ابان لنا خلق الانسان بالذات وانه قبضة من طين الارض ونفخة من روح الله . فالانسان بامر الله وارادته خلق وكان لخلقه مقصدا عظيم ليكون خليفة في الارض ليقيم شرع الله ويحقق العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى . قال الله تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون "(٥) .

وهذه القضية بالنسبة للانسان فقط تتنافى مع نظرية التطور نهائيا . ولما كانت فكرة التطور بالذات اساسا لم تجد دليلا علميا عند القائلين بها فادعاؤها بالنسبة للانسان ادعاء ساقط علميا ولا يقوى بحال من الاحوال على معارضة ماجاء في النصوص القرآنية عن خلق الانسان خلقا مباشرا .

---

(١) انظر التمهيد : الظروف التي مهدت لانتشار التفكير المادي في اوربا .

(٢) عن الاسلام يتحدى ص ٤٠

(٣) عن نفس المصدر ص ٣٩

(٤) انظر فصل مناقشة ازلية المادة وابديتها .

(٥) سورة الذاريات ــ ٥٦ .

قال الله تعالى : " الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سوّيه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون " (١)

رابعا : اضف الى ماسبق كله البحوث العلمية التى ذكرها العلماء من اهل الاختصاص فى علوم الحياة والتى دلت على تفرد الانسان فى كثير من ظواهر الخلق والصفات عن الحيوانات ، والتى تهدم اهم قضيتين فى النظرية وهما : القول بمادية الانسان اى حصره بنطاق ماتدركه الحواس فهو لايتعدى حدود الكون المادى ، لانه لايوجد فى حسهم غير العالم المادى فحسب وماعداه وهم وهراء . ثم حصره بحدود مطالب الحيوان فى الاكل والشرب والجنس ، وهذا ما اعنيه حين اقول حيوانية الانسان التى استمدها ماركس من نظرية دارون ، واترك مناقشة هاتين القضيتين للعلماء المختصين فى هذا الموضوع .

ويبدأ المناقشة جوليان هكسلى وهو عالم داروينى ملحد . لا يعترف بالله سبحانه وتعالى ، ويرجع عملية التطور الى عوامل طبيعية عمياء . يقول هكسلى فى كتابه الانسان فى العالم الحديث :

" وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا . وفى حالات كثيرة لامثيل له وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد وماهذا المقال الا محاولة لعرض مركزه الحالى .

" واولى خواص الانسان الفذة واعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصويرى ولقد كان لهذه الخاصة الاساسية فى الانسان نتائج كثيرة وكان اهمها نمو التقاليد المتزايدة .. ومن اهم نتائج تزايد التقاليد او اذا شئت من اهم مظاهره الحقيقية – مايقوم به الانسان من تحسين فيما لديه من عدد والات .. وان التقاليد والعدد لهى الخواص التى هيأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية . وهذه السيادة البيولوجية – فى الوقت الحاضر – خاصية اخرى من خواص الانسان الفذة .

---

(١) سورة السجدة آية ٧–٩ .

وهكذا يضع علم الحياة الانسان فى مركز مماثل لما أنعم عليه كسيد المخلوقات كما تقول الاديان ، ومع ذلك هنا لأفروق وفروق هامة بعض الشيء بالنسبة لنظريتنا العامة ، فمن وجهة النظر البيولوجية لم تخلق الحيوانات الاخرى لخدمة الانسان ، ولكن الانسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الانواع المنافسة ومن استعباد انواع اخرى بالاستئناس ومن تعديل الاحوال الطبيعية والبيولوجية فى معظم اجزاء اليابس من الكرة الارضية ، ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة فى تفاصيلها او فى كثير مما تضمنته ولكن كان لها اساس جيولوجي متين . (1)

" .. وللانسان خاصية اخرى بيولوجية ، وهى تفرد تاريخ تطوره . وهذه الخواص التى امتاز بها الانسان والتى يمكن تسميتها نفسية اكثر منها بيولوجية تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الاتية :

" الاولى قدرته على التفكير الخاص والعام . الثانية التوحيد النسبى لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان . الثالثة وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والامة والحزب والعقيدة وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

" .. وقد يكون لتفرد الانسان ثانوية اخرى لم تستغل بعد .. وان التجارب كتلك التى اجراها " بين بريل " فى الحدس دون استخدام الحواس وتلك التى قام بها " جلبرت مراى " فى نقل الافكار وكثرة الكتابة من وقت لاخر عن قراءة الافكار والتنبوء بالمستقبل لتوحى بان لبعض الناس القدرة على المعرفة عن غير الطريق المادى للادراك عن طرق الحواس .

---

(1) يعلق شيخنا الاستاذ محمد قطب على هذا المعنى بقوله : " لايطيق جوليان وهو ملحد — ان يسلم تسليما كاملا بان وجهة النظر الدينية صحيحة . ويحرص على القول بانها كانت تشتمل على اخطاء . ومع ذلك فقد اضطر كارها ان يقول انها كانت تستند الى اساس جيولوجي متين اى انها صحيحة . وقد حرصنا على اى حال — على ان ننقل رايه هنا كاملا دون ان نحذف منه مالا نوافقه عليه . وعلى الرغم من التواءاته فهو واضح الدلالة) .

معركة التقاليد ص ٦١ .

" ثم ان التخاطب والالعاب المنظمة والتعليم والعمل باجر وفلاحة البساتين والمسرح والضمير والواجب والخطيئة والذلة والرذيلة والندم كلها نتائج ثانوية " ألخصائصه الاصلية " والصعوبة فى الواقع هى ايجاد نشاط للانسان لايكون فريدا بل ان الصفات الاساسية البيولوجية مثل الاكل والنوم والاختلاط الجنسى زينها الانسان بكل المحسنات الفريدة .

" وبذلك قد يكون الانسان فريدا فى احواله اكثر مما نظن الان " . (١)

ويقول جون لويس : " واذا كان الاعتراف بحقيقة تطور العضويات الشديدة التعقيد مثل الثديات من ابسط اشكال وحيدات الخلية قد تطلب انقلابا فى وعى الناس فان حقيقة ارتقاء الانسان نفسه وهو الكائن المفكر القادر على اختراع ادوات معقدة وابداع نتاجات فنية وحضارات كاملة . الكائن القادر على القيام بالمآثر الاخلاقية والدناءات الاخلاقية قد تطلب اعادة نظر فى جميع تصوراتنا على نطاق واسع لامجال لمقارنته " (٢) . ويقول فى موضع آخر :

" ليس للحيوانات تاريخ ذاتى " اذ ان بداية ونهاية نشاط كل واحد منها ينحصران فى حدود حياته الفردية . فالحيوانات لا تغتنى بمعارف الحياة الماضية ولا تستشف المستقبل كما انها لاتجمع المعارف التكنولوجية ولاتطرح على نفسها السؤال عن معنى الحياة " . (٣)

ويقول جوردن البورت : " فالانسان يتكلم ويضحك ويمل وينمى ثقافته ويتعبد ويدرس علوم الدين ولديه معرفة سابقة فى الموت ، ويكافح فى سبيل تحسين شخصيته ولاتوجد مثل هذه العمليات ونواتجها بوضوح فى الكائنات الفريزية . ولهذا السبب ينبغى ان نكون على حذر حين نحاول تعميم فروض العلوم الطبيعية والبيولوجية وطرقها ومفاهيمها على الانسان . وينبغى ان نرفض بوجه خاص معنى العلوم الاخرى

---

(١) مقتطفات من كتاب الانسان فى العالم الحديث : " تاليف جوليان هكسلى) ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر من ص ١ ـ ٣٦ نقلا عن كتابى معركة التقاليد ص ٥٩ ـ ٦٣ . ودراسات فى النفس الانسانية ص ٣٤ ـ ٣٨ .

(٢) الانسان والارتقاء ص ١٠

(٣) نفس المصدر ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

فى عدم الاهتمام بمشكلة الفردية ".(١) ويقول كونت دى نوى : " أن نكران حرية الارادة ونكران التبعية الخلقية واعتبار الانسان مجرد وحدة فيزيائية كيماوية وجزء من مادة حية قبل ان تتميز عن الحيوانات ، كل هذا يؤدى حتما الى موت الانسان الخلقى وخنق كل روحانية وكل امل فيه . ويؤدى الى ذلك الشعور الرهيب الموهن بالبطلان الكامل .

والواقع ان ما يميز الانسان كانسان هو وجود الفكر المجردة والخلقية الروحية فيه وهو ان فخر فانما يفخر بها . وحقيقة وجودها لاتقل عن حقيقة وجود الجسد . وهى التى تعطى الجسد قيمة لايحصل عليها بدونها " (٢). ويمضى قائلا : " وهنا تظهر بوضوح تلك الهوة التى تجعل الانتقال التدريجى من ذكاء الحيوانات الى ذكاء الانسان بعيد الاحتمال . فالانسان قادر على ان يخلق عالما وهميا يستمد عناصره من ذاته لا من محيطه ومن اختباره ..

" وهو يبتكر وراء الحوادث التى تدركها حواسه ووراء العالم الحسى عالما فكريا ، يصبح ضروريا لتفكيره ولتفسير اختباره وللوصول الى اضبط السيطرة على العالم الاول ....

" وهذا هو الحقل الانسانى الصافى . حقل الفكر المجردة والاخلاق والفكر الروحية والفكر الجمالية . وهذا الانسان الذى اراده الله والذى خلع عليه قسما من التبعة فى تقدم التطور حين وهبه الوجدان والحرية ليتمتع ضمن وسائله بالقدرة على تقليد الخالق بابداعه عالما وهميا ، محرما على الحيوانات يكرس له وحده بعد ابداعه مصلحته ومجهوده .. " (٣) .

ويقول الفيلسوف رينيه دوبو : " واكثر السلوك فى الحيوانات بما فيها الحيوانات العليا غريزى لاصلة له بالعقل والحجى . ومن النادر ـ ان لم يكن من المستحيل ـ ان تجد هذا السلوك متوجها نحو المستقبل البعيد الذى يحاول الحيوان التكهن به والسعى لايجاده وبالمقابل فان ردود فعل الانسان لاكثر الاشارات المحيطية

---

(١) نمو الشخصية ص ٢٩

(٢) مصير الانسان ص ١٦ ـ ١٧

(٣) نفس المصدر مقتطفات من ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦ .

تتأثر بعمق بتكهناته عن المستقبل سواء كانت هذه التكهنات مبنية على الخوف او الحقائق المعلومة او الرغبة فى الانجاز ، او فقط على الامال الحالمة . والحقيقة ان ميل الانسان لتخيل الاشياء التى لم توجد بعد او التى لن تقع بدون ارادة وعمل حر يقوم به هى الناحية البارزة التى تميزه بوضوح تام عن الحيوان . وهى التى تسهم كثيرا فى تعقيد بنيته النفسية التى اعيت الاطباء .

" ومن ابرز النواحى المميزة للانسان هى ميله للسمو على الدوافع البيولوجية البسيطة ، نعنده الاستعداد لتحويل العمليات العادية فى وجوده الى اعمال واغراض ومطامح ليس لها ضرورات بيولوجية وربما تكون متعارضة مع استمرار حياته . اكثر من ذلك ان الانسان يميل ليرمز لكل شىء يحدث له ثم يتفاعل مع هذه الرموز كما لو انها اثارات محيطية حقيقية ، فرد فعل شخص معين على عامل محيطى مشروط فيزيولوجيا ونفسيا بتجاربه الذاتية الماضية . " (١)

ويقول فى موضع آخر : " ويتمتع الانسان بقدر كبير من الحرية فى الاختيار والتقرير فهو المتميز فى كونه قادرا على الاختيار والتمحيص والتنظيم .. ومن هذه يأتى الابداع " . (٢)

ويقول فى موضع اخر يهدم فيه الحتمية الداروينية : " ومن المعروف ان كل مظاهر الحياة مشروطة بالوراثة وتجارب الماضى وعوامل الهيئة ، الا انه من المعروف ايضا ان الارادة الحرة تمكن البشر من السمو على ضوابط (التحديدية) البيولوجية فالقدرة على الاختيار بين الافكار واساليب الافعال المختلفة يمكن ان تكون اهم صفات الانسان : لقد كانت فى الغالب - ولا تزال - محددا هاما فى تطور الانسان . واكثر ما يستنكر فى علوم الحياة كما تدرس الان هى انها تجاهلت متعمدة اهم ظاهرة فى حياة الانسان .. الا وهى الحرية " (٣)

---

(١) انسانية الانسان ص ١٣٨ - ١٣٩ .
(٢) نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٣) نفس المصدر ص ١٦٤ .

ويقول في موضع اخر : " حرية الانسان تعني — من ضمن ماتعنيه — قدرته على التعبير عن امكانياته الكامنة وقدرته على الاختيار واستعداده لقبول المسؤوليات. كل هذه وامثالها من النشاطات التي تضم الاختيار والتقرير لتسمو على التحديدية الجبرية التي تتسم عمليات الآلة " (١)

ويستمر د وبو في اعترافاته وهو العالم الذي يدرس الانسان من خلال واقعه العضوي الذي تدركه الحواس . " ويدرك البشر العالم بحواسهم ومن التناقض ان كثيرا مايقدرونه في العالم من حولهم لا يعتمد على هذا الادراك الحسي . والواقع ان كثيرا من بني الانسان ضحوا بوجودهم المادي على مذبح قيم غير مادية تدركها الروح ولا يحسها جسم اللحم والدم " . (٢)

يقول د وبو كل هذا ولا يستطيع له تعليلا ماديا .. وهكذا تتهاوى الداروينية ونظرياتها المادية للانسان بين يديه دون ان يستطيع انقاذها . (٣)

وهكذا ينسف هؤلاء العلماء اهم اسس الداروينية وهي القول بحيوانية الانسان ومادية حيث اثبتوا ان الانسان كائن متفرد لا مثيل له بين المخلوقات وانه يتميز بكثير من الخصائص التي لاتوجد الا عنده وحده . وان هذا الانسان غير محصور في عالم ماتدركه الحواس في عالم المادة . بل انه يستطيع ان يصل الى الافكار المجردة وان يضحي بوجوده المادي في سبيل القيم الروحية التي لا يحسها جسم اللحم والدم . ومن هنا يتبين لي أن القول بتفرد الانسان ليس وقفا على المؤمنين بالله ورسله ودينه بل ان العلم الحديث قد اهتدى على يد العلماء المنصفين وحتى الملحدين الى ان النظرة الداروينية للانسان التي افسدت عقول الكثيرين من ابناء اوربا والعالم الاسلامي ، كما افسدت اخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم لم تكن صوابا حتى لو كانت تستند الى بعض الحقائق العلمية . ذلك لان الحقائق العلمية البحتة شيء وطريقة فهمها او طريقة توجيهها والتاثر بها شيء اخر قد يكون منفصلا تمام الانفصال .

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٢

(٣) نفس المصدر ص ١٦ من مقدمة المترجم .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب فى معرض تعليقه على جوليان هكسلى : " ان تطبيق نظرية النشوء والارتقاء هو ذاته يوحى بان يكون للانسان مقاييس خاصة غير مقياس الحيوان ففى عالم الحيوان تجد مقاييس جديدة للحيوان كلما ارتقى فى سلم التطور . فالحيوان الذى له عينان لا ينطبق عليه ماكان ينطبق على حيوان سابق ليست له عينان والحيوان الذى يرضع صغاره له فى حياته مقاييس غير مقاييس الطيور التى تبيض وتحتضن البيض . او الحشرات التى تبيض وتترك البيض للظروف .. افلا يكون الانسان الذى ارتقى عن الحيوان فى كذا وكذا مقاييس خاصة غير مقاييس الحيوان .. حتى (جوليان هكسلى) الذى لا يؤمن بالله ولا يؤمن بان لله قصدا فى خلق الكون وخلق الانسان . ولا يؤمن (بروحانية) (الانسان) ولم يورد ذكر الروحانية قط فى حديثه .. حتى جوليان هذا يقول ان الانسان انسان وانه متفرد فى انسانيته الحمد لله والشكر والثناء " . (١)

وعلى هذا الاساس وبناء على النصوص السابقة التى نقلتها عن العلماء وتوسعت فى نقلها لتكون عند القارىء حصيلة كبيرة من اقوال العلماء الذين هدموا اهم ركنين فى الداروينية وهما حيوانية الانسان أى حصره فى حدود مطالب الجسد من أكل وشرب وجنس ، وماديته أى حصره بنطاق ماتدركه حواسه . اقول ان الانسان كائن متفرد له قوانينه الخاصة التى سيره الله عليها وميزه عن سائر المخلوقات تكريما له لتحقيق مقصد عظيم وهو تحقيق العبودية الكاملة لله فى الارض .

فمادام ان له قوانينه الخاصة التى تحكم حياته وانه كائن متفرد فان ماينطبق على الحيوانات وما يجرى فى عالمها لا ينطبق على الانسان وكل بناء قام على هذا الاساس الباطل فهو باطل وكل نظرية انطلقت من مفهوم حيوانية الانسان ـ بالمعنى الذى اراده دارون وطبقه ماركس ـ وماديته باطلة لان مابنى على الباطل فهو باطل ، حيث ابطل العلماء النظرة المادية الحيوانية للانسان والمستمدة من نظرية دارون ، واثبتوا انه كائن متفرد يتميز بكثير من الخصائص عن عالم الحيوان . فالانسان كائن متفرد فى الخلق لا يشبهه شىء فى تفرده ولا يشاركه فى التفرد كائن من المخلوقات .

---

(١) معركة التقاليد ص ٦٥

هو قبضة من طين الارض ، ونفخة من روح الله ، قد اعطاه الله سبحانه وتعالى كيانا متفردا عن بقية المخلوقات فى امرين عظيمين :

الامر الاول انه بالنفخة الالهية التى تشتمل عليها روحه قد صار مدركا لنفسه وما حوله، والامر الثانى انه بهذه النفخة ذاتها قد صار فريدا لما يقوم به من اعمال وتصرفات • وهذان العنصران : الادراك والارادة المستمدان من النفخة الالهية هما فى الانسان محدودان بحدود • وهذه الحدود قد قدرها الله سبحانه وتعالى بما يناسب المهمة التى خلق لها الانسان وهى الخلافة فى الارض •

بهاتين الصفتين تختلف كل اعمال الانسان عن اعمال المخلوقات الاخرى • فى أنها اعمال تصدر عن وعى من الانسان وهو يدرك غاياتها واهدافها وانها تصدر عن ارادة يريدها ويقصدها • (١)

ثم ان نسبة الخلق الى الطبيعة ـ التى قال بها داروين ـ بدلا من الله سبحانه وتعالى جاءت نتيجة لظروف محلية فى اوربا ـ شرحناها سابقا فى التمهيد الذى عقدناه لبيان الظروف التى مهدت لانتشار التفكير المادى فى اوربا ـ وقلنا انها بالاضافة الى الظروف المحلية فى اوربا جاءت نتيجة لحماقة الكنيسة وتصرفاتها السيئة التى كرهت الناس الدين، اضف الى ذلك ان اوربا لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله، انما عرفت دينا محرفا، وقد صمت آذانها عن البشير النذير والخير الكبير القادم اليها من بلاد المسلمين فصدت دعوة الله وحرمت ابناءها من الايمان والهداية على الطريقة القويمة • وارتدت القهقرى الى الوثنية اليونانية والرومانية ، تنهل من منابعها الملوثة • لتروى ظمأ دفينا فى اعماق كثير من ابنائها ولكن الداء سرى فى نفوسهم فما عاد يقر لهم قرار ولم يعرفوا طمأنينة او استقرار نتيجة لبعدهم عن دين الله الصحيح •

بعد هذا كله اقول : ان التفسير المادى للتاريخ انطلق فى تفسيره لتاريخ البشرية من هذه النظرة المادية الحيوانية المستمدة من نظرية داروين • انطلق من

---

(١) انظر دراسات فى النفس الانسانية ص٢١٣ ـ ٢١٤

هذا الاساس الفاسد • ويزعم اصحابه انه التفسير العلمى الصحيح لاول مرة فى تاريخ البشرية •!!

وعلى هذا الاساس فكل بناء أسسوه على هذا المفهوم المادى الحيوانى باطل من وجهة النظر العلمية حيث ثبت من خلال البحث ان فكرة التطور لم يقم عليها دليل علمى للآن وكل ماقالوه هو مجرد فروض واحتمالات • ثم ان الانسان خلق بارادة الله تعالى • كما ان فكرة التطور الذاتى باطلة من وجهة النظر العلمية حيث اثبت العلماء ان المادة مخلوقة من مخلوقات الله ومصيرها الى الفناء • كما اثبت العلماء ايضا ان الانسان كائن متفرد لا يشبهه شيء فى خلقه ، ولا فى تركيبه • وانه غير محصور فى العالم المادى وانما يتعداه الى عالم اخر هو عالم الغيب الذى هو من اختصاص الروح • كما ان له قوانين ثابتة سيره الله عليها فما ينطق على الانسان لاينطبق على الحيوان وذلك لان الانسان كائن متفرد من بين سائر المخلوقات الربانية •

والسؤال الذى يرد على الماديين فى هذا المقام هو : اين العلمية المزعومة التى احتكرتموها لانفسكم وحرمتم منها غيركم حين زعمتم ان تفسيركم المادى للتاريخ هو النظرية العلمية الوحيدة التى تتفق وتعاليم العلم ، بعد ان هدمت هذه العلوم الاساس الفاسد الذى انطلقتم منه وهو الاعتماد على نظرية دارون فى تفسيركم المادى للانسان وتاريخه ، وحين طبقتم قوانين الحيوانات على الانسان المكرم من الله سبحانه وتعالى وحصرتموه فى نطاق ماتدركه الحواس فى العالم المادى فقط ؟

" ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم " (١)

" يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون " (٢)

" ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الا ساء مايزرون • " (٣) •

وعلى الرغم من ان النظرية لم تثبت علميا فانها ماتزال تدرس فى مدارس وجامعات الدول الاسلامية الى اليوم ؟

---

(١) سورة الجاثية ـ ٧ ـ ٨

(٢) النحل ٨٣

(٣) النحل ٢٥ •

الفصـــل الســـادس

مناقشة مراحل التطور فى التاريخ البشـرى وحياتـه

تمهيد :

من خلال عرضى لادلة الماديين فى تفسيرهم المادى للتاريخ ، فى فصل مراحل التطور فى التاريخ البشرى وحتمياته ، وجدتهم يعتبرون ان تاريخ الانسان يبدأ من وقت بحثه عن الطعام والشراب ، لان الشرط الاساسى للتاريخ بكامله هو انتاج الحاجات المادية الضرورية كالمأكل والمشرب والملبس والمسكن ،
وهذه الحاجات الضرورية لابد من انتاجها ، ولابد لانتاجها من ادوات للانتاج والافراد يلعبون الدور الرئيسى فى الانتاج ، لان العمل هو اساس الحياة البشرية ، وهو مصدر كل ثروة وهو الذى خلق [1] الانسان على حد تعبير انجلز .

ووسائل الانتاج هى القوة الكبرى التى تصنع تاريخ الناس وتطورهم وتنظمهم لان أساس العلاقات بين الناس قائم على ملكيتها ، لانها ان كانت مملوكة للمجتمع يترتب عليها قيام علاقة عادلة ومتوازنة بين الافراد على اساس المساعدة والتعاون ، وان كانت مملوكة لبعض الافراد اى ملكية خاصة يترتب عليها الظلم والاستغلال وتظهر حتما علاقة السيد بالمسود . وعلاقات الانتاج توجد بصورة لاترتبط بارادة الناس لانها تنبعث من تلقاء نفسها ، والناس لايفكرون الا فى مصالحهم اليومية فهم لايدركون النتائج الاجتماعية التى يجب ان تؤدى اليها هذه التحسينات لان اسلوب الانتاج هو المحدد لجميع جوانب الحياة الاخرى ، وهو شرط لوجودها لانها نابعة منه . وعندما تتغير قوى الانتاج يغير الناس نوع الانتاج ، وعند تغيير نوع الانتاج يغيرون علاقاتهم الاجتماعية ، وينتجون المبادىء والافكار التى تتطابق مع علاقات الانتاج الجديدة . والدين والقيم والاخلاق والافكار وجميع الظواهر الاجتماعية متطورة لارتباطها باسلوب الانتاج، فهى تتغير بتغيره وتتطور بتطوره .

وقبل أن أناقش القضية الاولى التى انطلقوا منها فى تفسيرهم المادى للتاريخ ، وهى أن الانسان منذ وجد وهو يبحث عن الطعام والشراب وان الوضع الاقتصادى

(١) كثيرا مايستعمل هذا اللفظ بمعنى الخلق الذى هو من خصائص الله سبحانه وتعالى فلا يجوز اطلاق الخلق الا على الله ولو كان ذلك على سبيل المجاز، ولكن انجلز يستعمله على سبيل الحقيقة .

هو القوة الكبرى التى تصنع تاريخ الانسان • أريد أن ابين قيمة المستند الذى استندوا اليه من وجهة النظر العلمية •

قيمة الوثيقة التى يتمسك بها الماديون فى تاريخ الانسان من وجهة النظر العلمية :

ان التفسير العلمى لاى ظاهرة حتى يصل الى درجة اليقين القطعى لابد أن يبرهن على بطلان ماسواه من تفاسير وان ينفى امكان أى تفسير اخر للظاهرة موضوع البحث فمالم يقم الدليل العلمى على ذلك لايصل التفسير المفترض الى درجة اليقين العلمى ولايوجد مبرر لقبوله ، دون سواه من الافتراضات • وعلى هذا الاساس نعرض التفسير المادى للتاريخ على شريحة البحث •

فاقول : ما القيمة العلمية للوثيقة التى يتمسك بها الماديون والتى تتمثل فى تاريخ الانسان القديم ، والتى يلحون على أن أحكامهم التى يقيمونها على أساس هذه الوثيقة احكام قطعية وحتمية ولابد من تحقيق مقتضياتها على سير المجتمع الانسانى كله على الرغم من اعترافهم بانه لا يمكن الاستناد اليها • ؟

يقول انجلز : " ان الحقائق الابدية تعانى مأزقا اشد حراجة من ذلك فى المجموعة الثالثة من العلوم وهى المجموعة التاريخية •• وهكذا فان معرفتنا فى مجال التاريخ الانسانى لاشد تخلفا أيضا منها فى ميدان علم الحياة •• وبالتالى فان المعرفة هنا نسبية جوهريا • وذلك بقدر ماتقتصر على استقصاء الروابط الداخلية والعواقب الخاصة ، ببعض اشكال المجتمع والدولة التى لاتوجد الا فى عصر معين ، وبين شعوب معينة • وهى انتقالية بفعل طبيعتها بالذات وهكذا فان كل امرىء ينطلق هنا ليتصيد حقائق اخيرة ونهائية حقائق صريحة ثابتة بصورة مطلقة لن يؤوب الا بصيد قليل • " (١)

والباحث التاريخى والباحث الفيزيائى على الرغم من التقائهما عند نقطة واحدة وهى ان كلا منهما يتناول مجموعة من الظواهر •• ظواهر المجتمع البشرى كالدولة والافكار والملكية وظواهر الكون كالحرارة والصوت والنور ، فهما يختلفان فى

---

(١) انتى دوهرنغ ص ١٠٩

موقفهما العلمى من تلك الظواهر موضوع الدرس ويعود الخلاف الى ثلاثة أسباب :

السبب الاول : ان المادة تتصرف تصرفا واحدا فى الظرف الواحد ، اى اذا اتحدت الظروف اتحد السلوك . بينما الانسان يتصرف تصرفات مختلفة فى ظرف واحد . اى اذا اتحدت الظروف لايتحد فيها السلوك الانسانى .

السبب الثانى : ان الباحث التاريخى لايستطيع ان يتبين الظواهر الاجتماعية التاريخية بصورة مباشرة بل هو مضطر الى تكوين فكرة عنها تعتمد على النقل والرواية ، بخلاف العالم الطبيعى الذى يدرس الظواهر الفيزيائية فى مختبره الخاص . وعلى سبيل المثال فان انجلز فى كتابه اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ــ بصفته باحثا تاريخيا حاول تفسير الظواهر الاجتماعية علميا ــ قد اعتمد على روايات ومزاعم المؤرخ الاميركى مورغان .

والسبب الثالث : هو نوع الدليل الذى يستخدمه كلا منهما . فالباحث التاريخى حين يحصل على مجموعة من الظواهر والاحداث التاريخية لايملك تجاهها تلك الامكانات التى يملكها العالم الفيزيائى تجاه الذرة وظواهرها مثلا . فهو يستطيع أن يجرى تجاربه المختلفة على المادة التى يعالجها ويستبعد منها مايشاء ويضم اليها مايشاء بخلاف الباحث التاريخى فهو مضطر لاخذ الظواهر والاحداث التاريخية كما هى .

ولنمثل بالحرارة بصفتها ظاهرة طبيعية وبالدولة بصفتها ظاهرة تاريخية ، فالباحث الطبيعى لكى يثبت صحة ان الحركة هى سبب الحرارة اذا ادرك اقترانهما فى حالات عديدة يقوم بعدة تجارب يحاول فى كل واحدة منها ان يبعد شيئا من الاشياء التى تقترن بالحركة ليتأكد ان الحرارة توجد بدونه او انه ليس سببا لها . او يقوم بتجربة اخرى وهى فصل الحركة عن الحرارة ليرى هل يمكن ان توجد حرارة بدون حركة فاذا كشفت التجربة ان الحرارة توجد متى ماوجدت الحركة مهما كانت الظروف والاحداث الاخرى ، وانها تختفى فى الحالات التى لاتوجد فيها حركة ثبت علميا أن الحركة هى سبب الحرارة .

أما الباحث التاريخي حين يتناول الدولة بصفتها ظاهرة تاريخية في حياة الانسان فهو قد يفترض انها نتاج مصلحة اقتصادية لفئة معينة من المجتمع ولكنه لا يستطيع ان يبطل الافتراضات الاخرى بالتجربة . فلا يستطيع أن يبرهن تجريبيا على أن الدولة ليست نتاجا كنزعة سياسية في نفس الانسان لان غاية ما يتاح لهذا الباحث ان يضع اصبعه على عدد من الاحداث التاريخية التي اقترن فيها ظهور الدولة بمصلحة اقتصادية ويحشد عددا من الامثلة التي وجد فيها الدولة والمصلحة الاقتصادية معا . وتسمى هذه الطريقة في المنهج التجريبي بطريقة التعداد البسيط.

يقول الاستاذ محمد باقر الصدر : " ومن الواضح ان طريقة التعداد البسيط هذه لا تبرهن علميا على ان المصلحة الاقتصادية الطبقية هي السبب الاساسي الوحيد لظهور الدولة اذ من الجائز ان يكون للعوامل الاخرى اثرها الخاص في تكوين الدولة .

" وحيث ان الباحث لا يستطيع ان يغير الواقع التاريخي - كما يغير الفيزيائي الظواهر الطبيعية بتجاربه - فهو لا يتمكن من افراز وعزل سائر العوامل الاخرى عن واقع المجتمع ليدرس نتيجة هذا العزل ويتبين ما اذا كانت الدولة - كظاهرة اجتماعية - ستزول بعزل تلك العوامل أو لا ؟

وعلى هذا الاساس نعرف : أن الماركسية لم تكن تملك - حين وضعت مفهومها الخاص عن التاريخ - سندا علميا لها سوى الملاحظة التي رأتها الماركسية كافية للتدليل على وجهة نظرها المعينة الى التاريخ واكثر من هذا انها زعمت ان الملاحظة المحدودة في نطاق تاريخي ضيق تكفي وحدها لاستكشاف قوانين التاريخ كلها واليقين العلمي بها " . (١)

ولكن انجلز يتجاهل هذه الحقيقة فهو يقول مثلا : " ولكن اذا كانت دراسة هذه الاسباب المحركة للتاريخ في جميع المراحل السابقة غير ممكنة تقريبا لان العلاقات بين هذه الاسباب ونتائجها كانت مشوشة ومستورة ، فان عصرنا قد بسط هذه العلاقات ، حتى ان حل اللغز اصبح ممكنا في اخر الامر . ومنذ قيام الصناعة الكبيرة اي على الاقل منذ الصلح الاوربي عام ١٨١٥ م ، لم يكن خافيا على احد في انجلترا ان مركز الثقل في كامل

(١) اقتصادنا - ص ٦٥

النضال السياسى فى هذه البلاد ، كان السعى الى السيطرة من جانب الطبقتين : الارستقراطية من جهة والبرجوازية من جهة اخرى " . (١)

ويرتب على هذا أن ملاحظة الوضع الاجتماعى فى فترة معينة من حياة أوربا كانت كافية فى رأيه لليقين العلمى بان العامل الاقتصادى والتناقض الطبقى هو العامل الاساسى فى التاريخ البشرى كله ، على الرغم من اعترافه ان فترات التاريخ الاخرى لاتكشف عن ذلك لانها كانت مشوشة ومستورة .

فمشهد واحد فى نظر انجلز من مشاهد التاريخ فى القرن الثامن عشر او التاسع عشر يستنبط منه — والماركسيون معه — ان القوى المحركة للتاريخ عبر عشرات الالاف من السنين راجعه الى العامل الاقتصادى .

ويجب أن نلاحظ ان سيطرة عامل معين على مجتمع معين فى فترة خاصة لاتكفى للتدليل على سيطرة هذا العامل فى كل ادوار التاريخ وفى جميع المجتمعات ، لانه من المحتمل ان يكون لهذه السيطرة نفسها اسبابها وعواملها الخاصة .

— تطور القوى المنتجة والتفسير المادى للتاريخ —

نعلم من عقيدة الشيوعية انها تجعل من الانتاج قاعدة رئيسية للمجتمع يقوم على اساسها الوضع الاقتصادى ، وعلى هذا الاساس ذاته تبنى كل الاوضاع الاخرى .

ولكن لم يكلفوا انفسهم ان يقفوا عند الانتاج نفسه ليفسروا لنا كيف وجد الانتاج فى حياة الانسان . فاذا كان الانتاج يصلح لتفسير نشوء المجتمع وكل علاقاته وظواهره ، افليس للانتاج نفسه شروط تصلح لتفسير وجوده ونشأته ؟

وقبل الجواب على هذا ، اعود الى تعريف الانتاج عندهم حيث يعرفونه بقولهم " هو نشاط الناس الواعى الهادف الفعال الموجه لتكييف الطبيعة متطلبات الانسان " (٢)

---

(١) لودفيغ نورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ٥٣ .
(٢) المادية التاريخية ص ٤٩ .

فالانتاج اذن عملية يقوم بها عدد من الناس ، لتكييف الطبيعة وتغييرها وجعلها بالشكل الذى يوافق حاجاتهم ويشبع رغباتهم ، هذه العملية التى يقوم بها عدد من الناس لا يمكن ان توجد تاريخيا مالم تسبقها شروط معينة منها :

١ ــ الفكر : ان الانسان لا يستطيع ان يغير من شكل الكون المادى بقصد اشباع حاجاته فيجعل القمح دقيقا والدقيق خبزا ، مالم يملك فكرا عن الشكل الذى سوف يمنحه للكون المادى . فعملية التغير لا يمكن ان تنفصل بحال عن التفكير فيما ستتمخض عنه العملية من اشكال واوضاع للكون المادى لا تزال فى ابتداء العمل غيبية . لذلك لم يكن من الممكن للحيوان، ان يقوم بعملية انتاج، عملية تغيير حاسم للكون المادى .

٢ ــ اللغة التى بواسطتها يتفاهم المشتركون فى عملية الانتاج ويتخذون موقفا موحدا خلال العملية الانتاجية .

يقول الاستاذ محمد باقر : " وهكذا نجد ان الفكر بوضوح ــ باى درجة كان ــ يجب أن يسبق عملية الانتاج . وان اللغة ليست نابعة من عملية الانتاج ، كما تنبع كل العلاقات والظواهر الاجتماعية فى زعم الماركسية .. وانما تنبع من الحاجة الى تبادل الافكار بوصفها المظهر المادى للفكر . فلم تنشأ اللغة اذن من القاعدة الرئيسية المزعومة من عملية الانتاج . وبالرغم من[1] انها اهم ظاهرة اجتماعية على الاطلاق ، وانما كانت الشرط الضرورى تاريخيا فى وجود هذه القاعدة المزعومة .

" واكبر دليل يمكننا ان نقدمه على ذلك هو استقلال اللغة فى تطورها عن الانتاج وقواه ، فلو كانت اللغة وليدة الانتاج وليدة القاعدة المزعومة لتطورت وتغيرت تبعا لتطور اشكال الانتاج وتغيرها . كما تتغير تبعا لذلك جميع الظواهر والعلاقات الاجتماعية . " (٢)

وبناء على ذلك فانه لا يستطيع اى شيوعى أن يقول ان اللغة الروسية تغيرت بعد الثورة الاشتراكية . وتبدلت الى لغة جديدة ، او ان اللغة الانجليزية قد تغيرت بعد حلول الالة البخارية التى غيرت القاعدة الاساسية للمجتمع ، واحدثت ثورة كبرى فى اسلوب الانتاج . والتاريخ يؤكد على ان اللغة مستقلة عن الانتاج فى استمراريتها

~~(١) والصواب على الرغم~~

(٢) اقتصادنا ــ ص ٨١ .

وتطورها وذلك لانها لم تنبع من هذا الشكل او ذاك من اشكال الانتاج . وانما نبعت عن فكر وحاجة هما اعمق واسبق من كل ممارسة للانتاج الاجتماعي مهماكان شكله واذا تساءلنا عن قوى الانتاج أليس ثمة سبب دعا الى اقبال الناس عليها وتآزرهم بها ؟ .. اجاب ماركس بقوله : " ان الناس يدخلون فى الانتاج المادى لحياتهم ضمن علاقات محددة ضرورية مستقلة عن اراداتهم " (١)

اى انها الطبيعة . طبيعة الانسان ذى الحاجات العضوية المعينة اذ يرى نفسه موجودا فى بيئة جغرافية معينة . وهذا نص واضح ان الانسان لم يكن يملك من دوافع الخطوة الاولى فى حياته السلوكية العامة الا الدافع الاقتصادى . وليس امامنا مجال الا ان نرد عليهم بنفس اسلوبهم الذى قرروا فيه الدافع الوحيد فى فجر الحياة الانسانية وهو الواقع التاريخى البعيد .

لو صح ان الانسان عندما فتح عينيه على هذه الحياة لم يكن فى نفسه من دافع سوى البحث عن الطعام والشراب والملبس والمسكن، ولم تكن هناك دوافع اخرى تستأثر بفكره واهتمامه لكان طابع حياته هو طابع حياة البهائم لا يعلو عليها ، اى فما كان ينبغى ان ينزع الى دين يدين به ، ولا ان يتأثر بقيمة جمالية تسيطر على قلبه ، ولا ان يدع الفن استجابة لدعوة وجدانه . كان يجب على هذه الظواهر ان تكون معدومة من حياته كلها ، وعلى اقل تقدير من الطور الاول فى حياته على حد تقسيم الماديين . فاذا فسر الماديون هذه الظواهر على انها اسلحة نفسية تستعمل فى ساحة الصراع الطبقى فاننا لا نستطيع تاويلها على هذا المعنى ، عندما تكون متجلية فى الطور الاول من حياة الانسان .

يقول الدكتور البوطى : " اذا ثبت ان كلا من ظاهرة التدين والمشاعر الجمالية المختلفة عن حياة الانسان ، ما انفك عن حياة الانسان فى طورها البدائى القديم حسب دلالة الاثار والوثائق التاريخية . فقد ثبت بطلان ما تصوره الماركسيون من أن الانتاج المادى هو وحده العامل الفعال الاول فى نفس الانسان . وانه كان منساقا اليه

(١) انظر القضايا الاساسية فى الماركسية ص ٤١ .

بشعور قسرى غير ارادى . وان كل ما اكتسبه الانسان بعد ذلك من افكار ولغات وقيم .. انما انبثق عن علاقات الانتاج التى هى اولى ثمرات قوى الانتاج ، التى هى المهيج والمحرك السابق الاوحد فى كيان الانسان " (١) .

تطور أدوات الانتاج واساليبه تحقيق للفطرة وليس تغييرا لها

يقول الماديون ان تطور ادوات الانتاج هو المحرك الاول ، والموثر الفعال فى تطور الحياة البشرية وتكييف سلوك الناس فى شتى ادوارها . والانسان لو لم يكتشف النار لما تمكن من طهو الطعام ، ولو لم يكتشف السكين والالة الحادة ، لما قطع اللحم الى قطع صغيرة ، ولو لم يكتشف الملعقة لما اكل بها ، ولو لم يكتشف جذوع الاشجار وصلاحيتها لحمل سقف عليها لما امكنه ان يبنى بيتا عليها ، ولو لم يكتشف الالة لما تمكن من الحصول على راسمال ، وان يستغل الاخرين ويستعمرهم . وهكذا ثم يقولون : ان استخدام الادوات يحدث تغييرا حتميا فى المشاعر والافكار والقيم والمبادىء . فالانسان حين اكتشف النار فكر ان يطهو الطعام ، وحين اكتشف الجذوع القوية الصالحة للبناء عليها فكر فى بناء المسكن ، وحين اخترع المغزل فكر ان ينسج الاقمشة وينصع الثياب ويتانق فى تفصيلها وصنعها حيث لم يكن يخطر بباله شىء لولا اختراع الة النسيج ، وحين اكتشف الزراعة فكر فى تملك الارض والاغارة على أرض الاخرين ، واسر الاسرى واسترقاقهم . وهكذا نشأت نتائج اقتصادية واجتماعية واخلاقية حتمية نتيجة اكتشاف الادوات واختراع المخترعات .

والقضية بهذه الصورة براقة وخادعة تغرى كثيرا من الناس بهذا المظهر البراق الخادع ولكن الحقيقة بعيدة عن هذه المساحيق العلمية المزعومة التى اراد الماديون طلاء وجه تفسيرهم المادى للتاريخ بها .

فللحقيقة وجه اخر بعيد عن الاغراء والبريق الخادع الذى تقدمه العلوم والدراسات العلمية فى القرن الحاضر .

---

(١) نقض اوهام المادية الجدلية ص ٢٣١ .

ولابد للباحث من رصد الاسئلة التالية :

أولا : ماذا صنع الانسان بالنار حين اكتشفها ؟ ولماذا استخدمها فى تحسين الطعام بطهوه عليها ؟ .

ثانيا : لماذا لم يقف عند حد طهو الطعام وراح يتفنن فى طهو طعامه درجة بعد درجة ؟ .

ثالثا : وحين لان له الحديد والنحاس والذهب والفضة ، لماذا اتخذ الملاعق والشوك والسكاكين وهى ليست داخلة فى عملية الطعام ذاته كضرورة بيولوجية ؟ اى دافع حتى دفعه أن يتخذ من ادوات الطعام ادوات للزينة يتفنن فى نقشها وتجميلها ، ثم ماعلاقة هذا كله بالقيم التى أتخذها الانسان حول طعامه سواء فى التمييز بين الخبيث والطيب والحلال والحرام ، على غير المستوى الحسى الذى تقرره المعدة ، او فى طريقة تقسيمه بين الناس ، او فى رسم قواعد وتقاليد خاصة بالطعام ؟ ولماذا اخترع ادوات الغزل والنسيج ؟ ولماذا استخدمها حين اخترعها فى نسج القماش ثم بتحسينه ؟ لماذا لم يقف عند حد استخدامها فى النسيج وراح يتفنن فى الملبس فيما وراء الضروريات ؟ ثم اى علاقة بين هذا التحسين الذى انتجته الادوات وبين القيم التى اتخذها الانسان حول الملابس سواء فى ربطها بالقيم الدينية اوالخلقية او فى توزيعها بين الناس او فى رسم قواعد لها وتقاليد ؟

وحين اخترع الاداة المسنونة ـ لماذا اخترعها ابتداء ؟ ولماذا استخدمها فى القتال ؟ ولماذا لم يقف عند هذا الحد الذى وصلته اليه فراح يبحث عن وسائل جديدة للقتال حتى وصل الى القنبلة الذرية والهيدروجينية وقنابل الجراثيم وماهى العلاقة بين هذه الادوات كلها وبين القيمة التى ربطها الانسان بالحرب سواء فى تحليلها او تحريمها او وضع قواعد لها وتقاليد ؟ والسوءال الذى يطرح هو : الا توجد وراء ذلك دلالة واضحة ؟ هل الآلة هى التى وجهت الانسان ام الانسان هو الذى وجه الآلة ؟ (١)

---

(١) انظر حول هذا الموضوع كتاب التطور والثبات ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

لو نظرنا الى الحيوان الذى يشترك مع الانسان فى سكنى الارض وزميله ـ فى رأى داروين ـ فى كثير من الخصائص والاصل المشترك، لم نجد عنده اكتشافا ولا اختراعا ولم نجد عنده حضارة ولا ثقافة ولا علما ، فهو على حالته منذ وجد على هذه الارض لم يتغير عليه شىء ، ومن هنا نرى ان الاكتشاف والاختراع مزية بشرية موجودة فى صميم فطرة الانسان التى فطره الله سبحانه وتعالى عليها .

ولنعد الى شهادة جوليان هكسلى مرة اخرى وهو يحكى عن تفرد الانسان [1] حيث يقول : " واولى خصائص الانسان الفذة واعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصويرى ولقد كان لهذه الخاصية الاساسية فى الانسان نتائج كثيرة وكان اهمها نمو التقاليد المتزايدة .. ومن اهم نتائج تزايد التقاليد او اذا شئت من اهم مظاهره الحقيقية ـ ما يقوم به الانسان من تحسين فيما لديه من عدد والات .. وان التقاليد والعدد لهى الخواص التى هيأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية . وهذه السيادة البيولوجية فى الوقت الحاضر ـ خاصية اخرى من خواص الانسان الفذة " [2] هذا العالم الذى ذكرت عنه سابقا انه ملحد لا يؤمن بالله ولا ينسب شيئا من عملية الخلق اليه تعالى يثبت للانسان هذه المزايا التى انفرد بها عن الحيوان ، وهى قدرته على التفكير التصورى ، وقدرته على استخدام العدد والالات وتحسينها واقامة التقاليد وتنميتها ويسميها الخواص البيولوجية للانسان . ان هذه الميزة لم تنتجها الالة او استخدام العدد والالات او وسائل الانتاج ، بل هى التى انتجت الالة ووسائل الانتاج واستخدمت العدد والالات فى الاسلوب الذى تراه مناسبا .

ان الله سبحانه وتعالى الذى خلق الانسان ليكون خليفة فى الارض ، هو الذى وهبه خاصية التفكير التصورى لانها وسيلة من وسائل الخلافة وادواتها ، كما اودع سبحانه فى فطرة الانسان الالتفات الى ظواهر الكون المادى وتصوره والافادة منه .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب : " واذن فقد اودعت الفطرة الانسانية القدرة على التصور ومن ثم القدرة على الاكتشاف والاختراع ، ومن ثم القدرة على استخدام الالات ..

---

(١) وقد فصلت الكلام عن تفرد الانسان فى فصل مناقشة اثر نظرية داروين على التفسير المادى للتاريخ .

(٢) الانسان فى العالم الحديث من ص ٣ ـ ٥ .

والقدرة على تحسين الالات .. كما أودعت في الوقت ذاته ما يسميه هكسلي " بالتقاليد " ونسميه نحن (القيم) والقدرة على ربط الاعمال - بما فيها استخدام الالات - بقيم نفسية واقتصادية واجتماعية وخلقية ودينية . " (١)

وعلى هذا اقول : ان اكتشاف أدوات الانتاج كحادثة مادية لا يفسر شيئا مما يريده اصحاب التفسير المادى للتاريخ .

ان الانسان لم يكن قادرا على اكتشاف النار لولم يودع الله سبحانه وتعالى فى فطرته القدرة على التفكير التصورى . وكان من الممكن ان لا يستخدم النار حين اكتشفها فى طهو طعامه . اذ ما الدافع الحتمى الذى يدفعه الى ذلك ؟ وكان من الممكن ايضا ان يقف حين استخدمها فى طهو طعامه عند هذا الحد ولا يتفنن فى الطعام ولا يصوغ حوله قيما وآدابا وتقاليد . والمسلم يقول : ان ذلك كله لم يكن ممكنا لدى الانسان لولا الرغبة الفطرية الكامنة فى طبيعته والسابقة فى وجودها على النار ، وهى القدرة الفطرية على التفكير التصورى التى منحها الله للانسان ، والتى بواسطتها تمكن بتوفيق الله له من اكتشاف النار ، ثم الرغبة الفطرية فى تحسين وتجميل مالديه من اكتشافات على مدار التاريخ . وهذا هو الفارق بيننا وبين اصحاب التفسير المادى للتاريخ الذين يعتبرون تطور أدوات الانتاج هو المحرك الاول والمؤثر الفعال فى تطور الحياة البشرية وتكييف سلوك الناس فى شتى ادوارها .

ان تاثير الحياة المادية على الانسان امر لا ينكره عاقل ولم يكن من اكتشاف اصحاب التفسير المادى للتاريخ .

ان اختراع الالة اثر تاثيرا كبيرا فى حياة الانسان ولا ينكر هذه الحقيقة الا من حاد عن طريق الصواب . وما من شك انه قد حدث تطور هائل فى الحياة الانسانية بعد اختراع الالات والادوات ، ولكن الشيء الذى انكره على الماديين هو ان اختراع الالة أنشأ جديدا فى كيان الانسان ، بل الحق الذى لا مرية فيه ان اختراع الالة حقق رغبات كانت كامنة فى فطرة الانسان .

---

(١) التطور والثبات ص ١٠٢

فلو أن النار اعطت للطعام طعما لا يستسيغه الانسان هل كان يقبل عليه . ؟ ولو لا الرغبة الدفينة فى تحسين الطعام هل كان يستخدم النار فى هذا السبيل ؟ ان النار قد اعطت الانسان — بقدرة الله تعالى — امكانيات جديدة حافلة لتحقيق رغبات كامنة فى فطرته تنتظر الفرصة المناسبة للتحقيق وقد لا تكون الفطرة واعية لتلك الرغبات فى كل حالة . ومن هنا جاءت الخديعة الاولى التى خدع بها الماديون فى فهم الموضوع ، فان عدم الوعى بوجود شىء معين لا يدل بذاته على عدم وجود هذا الشىء فى الحقيقة . اما الخديعة الثانية التى خدعوا بها فهى : اتساع فطرة الانسان . حتى خيل للكثير من الناس أن فطرة الانسان لا حدود لها وبالتالى فلا قيمة حقيقية لوجودها مادامت تتسع لكل شىء ،

ونحن نقول : ان اتساعها لا يلغى حقيقتها ولا يلغى دلالتها . نعم أنها تتسع لاشياء كثيرة ولكنها لا تتسع لكل شىء لان لها فى النهاية خطوطها الاخيرة التى ترفض الاشياء ولا تتقبلها لعدم وجود الاستعداد الفطرى لتقبلها .

والخديعة الثالثة : ناشئة من مرونة الفطرة الانسانية .

ان فطرة الانسان مرنة ونظرا لمرونتها الشديدة فانها تتحمل ضغوطا عليها من خارجها . ولكنها فى النهاية لا تحتمل كل شىء ولا تحتمله الى الابد . فهى تحتمل بعض الاشياء بعض الوقت ، ولكنها فى النهاية تثور على كل مالا تسيغه ولا تستريح اليه وتعبر عن رفضها للضغوط الواقعة عليها بطريقتين :

الطريقة الاولى : هى الثورة على الضغوط الواقعة عليها ، لقد ثارت على الدكتاتوريات التى تكبت الوجود الفردى ، كما بدأت تنفر من الحرية اللامحدودة عندما شعرت بقلقها وضياعها كما هو الحال فى امريكا واوربا .

والطريقة الثانية : ان الفطرة حين لا تستطيع دفع الظلم وتحطيمه ، تعبر عن رفضها له بما يظهر عليها من امراض نفسية وعصبية كما هو الملاحظ فى اوربا وامريكا وروسيا حيث نرى ارتفاع نسبة حوادث الانتحار والشذوذ والانهيار الاخلاقى وزيادة المصابين بالامراض النفسية والعصبية .

ان أصحاب التفسير المادى للتاريخ قد رصدوا التاريخ من جانب خطه السلبى الخانع ولم يرصدوه من جانبه الايجابى المتحرك . وعلى المنصف الذى يتحرى العلمية

الحقيقية في دراسته للتاريخ ان يرصده من جانبيه الايجابي والسلبي لانها موجودات في فطرة الانسان .

وهنا اضرب بعض الامثلة للتوضيح والتوكيد . لنأخذ اختراع الطائرة مثلا ، لم يكن اختراع الطائرة هو الرغبة في السفر السريع والتنقل بين جهات العالم ، وانما الرغبة الكامنة في فطرة الانسان هي التي اوحت باختراع الطائرة ، حين تيسرت الامكانيات العلمية التي هيأت الفرصة للتحقيق العلمي لهذه الرغبة . وقد كان الانسان ولا يزال يزيد سرعته في السفر بمختلف الوسائل لانه يرغب في ذلك . وكان يحلم حين يعجز عن التنفيذ العلمي ـ بوسائل خاطفة تنقله في لحظات من مكان الى مكان . فالطائرة اذن تحقيق لحلم بشرى قديم كانت تحلم به البشرية منذ زمن سحيق مرت بتجارب ومراحل كثيرة حتى وصلت الى الشكل الذي نراه ". (١)

وعلى هذا الاساس فان الرغبة العامة تسبق كل اختراع ايا كان هذا الاختراع . لان المخترع لا يقول سأعمل اختراعا دون ان يحدد هذا الاختراع ، ثم ابحث عن وسيلة للاستفادة من ذلك الاختراع ، وانما يقول أريد ان أضع الشكل كذا للاستفادة منها في مجال كذا ، ثم يجمع المواد الاولية اللازمة لاختراعها . اذن ففي عملية الاختراع عدة مراحل الرغبة اولا . ثم الهدف ثانيا ثم وسائل تحقيق الهدف والرغبة ثالثا ثم النتيجة رابعا .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب : "وحين يفتح الكشف او الاختراع الجديد افاقا لم تخطر بتفصيلها في بال الانسان من قبل ، فانه على الدوام يسعى لتحقيق رغبة عامة من رغبات الفطرة كالرغبة في القوة والرغبة في السيطرة والرغبة في الخلود ... الخ . هذه الرغبات .. ولكنها لا تستجد فكرة ولا شعورا لا يقع تحت واحدة من هذه الرغبات العامة الموجودة في الفطرة من قبل . (المقدورة من لدن خالقها حين خلقها ووهبها امكانيتها) . ومن ثم فالتطور الذي يحدثه الاختراع او الاكتشاف الجديد في نفس الانسان هو التنمية الدائمة للرغبات الفطرية الموجودة من قبل في حالة كامنة باعطائها فرصة التحقق الدائم على نطاق اوسع واشمل وادق . وليس هو انشاء الرغبات الفطرية من حيث لا تكون . والتنمية شيء والانشاء شيء آخر ". (٢)

---

(١) كان عباس بن فرناس اول من حاول الطيران بنفسه من مكان مرتفع ولكنه لم يفلح في ذلك .
(٢) التطور والثبات ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

من خلال هذه المناقشة اصل الى مجموعة من الحقائق اجملها فيما يلى :

" ان الفطرة هى الاصل فى تصرفات الانسان .

ان الادوات والالات المستحدثة هى فى ذاتها تعبير عن الفطرة (من حيث القدرة على التفكير التصورى والرغبة فى التحسين) . وانها ـ وهى تعبير فى الاصل عن الفطرة ـ تسير على هدى الفطرة فى تطبيقاتها العملية (من حيث تحقيقها لرغبات الانسان) .

وانها ـ وهى تعبير فى الاصل عن الفطرة ـ تسير على هدى الفطرة فى تطبيقاتها العملية (من حيث تحقيقها لرغبات الانسان) .

وانها فى تطبيقاتها العملية ـ لاتنشىء جديدا فى كيان الانسان . وانما تحقق ماكان كامنا من قبل فى ذلك الكيان .

وانها تغير صور الحياة تغييرا شاملا .. ولكن التغير ذاته يحدث استجابة لمطالب الفطرة . ويقع فى حدودها لا يتعداها " (١) .

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٦ ـ ١٠٧ وراجع الفصل بكامله فى هذا الكتاب .

تاريخ الانسان لا يقتصر على البحث عن الطعام والشراب :

أثبت فى مناقشتى لاثر نظرية دارون على التفسير المادى للتاريخ أن الانسان كائن متفرد ، فضله الله على سائر المخلوقات ، وجعل له قوانين خاصة تحكم حياته . وقد استشهدت بكلام أهل العلم والاختصاص حول تفرد الانسان عن الحيوان ورتبت على ذلك نتيجة وهى أن ما ينطبق على الحيوان لا ينطبق على الانسان .

ولكن الماديين ابوا الا نفورا ، فطبقوا ما يجرى على الحيوان من قوانين على حياة الانسان فقالوا ان تاريخ الانسان يبدأ من وقت بحثه عن الطعام والشراب . ولكنهم غفلوا عن الحقيقة الانسانية الاصيلة ، وهى أن الانسان حين يبحث عن الطعام والشراب يبحث عنه كانسان بكيانه كله الشامل للاهداف والقيم والاحساس بالجمال وغيرها . فهو يواجه الحياة وينشىء فيها النظم والحضارات والتشريعات ويؤثر فيها ويتاثر بها كانسان ، ومع ذلك فان تاريخ الانسان لم يقتصر على البحث عن الطعام والشراب وانما تعداه الى امور اخرى كثيرة فالاهتداء الى الله سبحانه وتعالى والعقيدة والقيم والمثل العليا والاختراعات وسبحات الروح واحلام البطولة كل هذا يثبت ان تاريخ الانسان لم يقتصر على البحث عن الطعام والشراب . يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب : " أن الانسان لاوسع من هذه الحدود الضيقة التى يريد الماديون ان يحبسوه فى داخلها ، وأن كل ما وجد على ظهر الارض فى الميدان المادى والفكرى والشعورى لهو انتاج انسانى اصيل وتعبير عن حاجات نفسية اصيلة " . الفن والعقيدة والمثل العليا واحلام البطولة ، وسبحات الروح والسيارة الفاخرة والطائرة المنطلقة فى الفضاء والمدفع والمصنع وانتاج الغذاء والكساء .. كلها سواء وليس اختراع الالة والوصول الى الانتاج الكبير اعظم فى طبيعته ودلالته من الوصول الى العقيدة والاهتداء الى الله . كل منهما دليل على عظمة المخلوق البشرى وارتفاعه عن مستوى الحيوان بل الاهتداء الى الله اعظم فى دلالته على رفعة الانسان واشراق روحه واتساع افاقه ان تنحصر كالحيوان فى عالم المادة او مدركات الحواس " (١) .

---

(١) الانسان بين المادية والاسلام ص ٧٤ .

يقول برفسور اليكساندر غرى : " هنالك حقيقة لا ينكرها الا القليلون وهى ان التاريخ اذا اريد له ان يكون شاملا يجب ان يسجل فى صفحاته كل شىء عن مخزن حفظ الاطعمة فى المطبخ، ولكن هنالك ايضا شيئا كثيرا فى التاريخ غير العامل الاقتصادى . فالانسان لا يقصر حياته على ان يحبو على بطنه، فهنالك كل اشكال الحماس والولاء والايحاء والالهام التى تحفز الانسان للعمل، والتى هى رغم ذلك غير اقتصادية ـ باتاتا ـ ولكنها فى نفس الوقت تؤثر على الظروف الاقتصادية . وفوق كل ذلك فان تاثير الذهن مع نتائج هذا التاثير الهيدة، وهو من اعظم انواع التاثير فى العالم يستعصى على التفسير الاقتصادى . " أن الاصوب عند تفسير التاريخ ان يتواضع المرء وربما ان يعتقد بعدم كفاية عقله لادراك الغيبيات ذلك انه يدرك ان تاريخ الانسان انما تكونه عوامل كثيرة ليس الاقتصاد الا عاملا واحدا منها ربما لم يكن اكثرها اهمية . " (١)

وعلى هذا فان تاريخ الانسان لا يقتصر على البحث عن الطعام والشراب وان كان البحث عن الطعام والشراب جزءا من حياة الانسان وان العمل وحده لا يجعل من الانسان انسانا جديدا ولا يخلقه كما يريد انجلز ـ لان الخلق من اختصاص الله تعالى ، هذا من جهة . ومن جهة ثانية فان العمل لا يساوى شيئا فى حياة الانسان اذا لم يشارك الانسان فيه بكيانه الانسانى المتفرد . ثم ان الانسان فى وضعه الطبيعى يتمتع بقسط من الحرية ان شاء عمل، وان شاء امتنع عن القيام بالعمل، وان شاء عمل بقدر معين وهو فى جميع حالاته انسان .

ولا أنكر كما قلت سابقا ان الانسان منذ ان وجد وهو يبحث عن الطعام والشراب، لانه لا ينكر هذه الحقيقة عاقل وانما لم يكن هو البحث الوحيد الذى اقتصر عليه الانسان، وعلى فرض صحة هذا الزعم من ان تاريخ الانسان يبدأ من وقت بحثه عن الطعام والشراب ـ وهو ليس بصحيح ـ فان الانسان يبحث عن الطعام والشراب بطريقته الخاصة التى يختلف بها عن الحيوان . واليكم الامثلة على ذلك .

١ ـ حفظ الذات هدف لكل كائن حى : يؤديه بدافع الغرائز ، ولكن الانسان يؤديه بطريقة مختلفة عن الحيوان من حيث الهدف والاسلوب ، فهو يضيف الى دوافع الغرائز الوعى والادراك .

---

(١) تفسير التاريخ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

والحيوان يأكل ويشرب ويبحث عن الغذاء والمسكن ويقاتل ويحب الغلبة والبروز ، والحيوان تدفعه لذعة الجوع فياكل انواعا معينة من الطعام لا يغيرها ، وياكل بطريقة واحدة لا يغيرها كذلك ، ولكن الانسان يختلف من الهداية من الحيوان ، والاختلاف الاول يكمن فى سعة المجال الذى يختار منه الانسان طعامه وقابليته لهذا التنوع فى الطعام . قال تعالى : " وكلا منها رغدا حيث شئتما " . (١)

والاختلاف الثانى : ان الانسان هو الذى يحدد لنفسه حد الاكتفاء ، والاختلاف الثالث : انه صنّع الطعام بعد ان اكتشف النار ، واصبح للاكل عنده فنون وعادات وتقاليد ، ونوّع الاطعمة التى ياكلها ، وعمله هذا استجابة لما فى فطرته من التنوع والتجدد .

والاختلاف الرابع انه لم يتخذ سلوكا واحدا نحو الطعام ، فليس الاختلاف بين فرد وفرد فى سلوكهما نحو الطعام ، وانما يختلف الفرد الواحد مابين مرة ومرة وبين حالة وحالة . فهو تارة معجل ياكل طعامه نهشا ، وتارة اخرى على مهل ورويه ، ومرة ياكل بادوات انيقة .. الخ . حتى يصبح ذلك فنا تكتب فيه المؤلفات ليتعلمها الناس .

والاختلاف الخامس : ان الانسان جعل لطعامه هدفا ثم لم يجعله هدفا واحدا ، فبعض الناس ياكل للضرورة لحفظ الحياة ، ياكل ليعيش ، وبعضهم يجعله هدفا فى ذاته ، يعيش لياكل ، وبعضهم لسد جوعه ، وبعضهم ياكل للتلذذ باصناف الاطعمة ، وقد ينتقل الفرد من حالة الى حالة ، فهو ياكل لحفظ الحياة ويتلذذ بما ياكل ، ثم يختلف الهدف مرة اخرى : هل هو اللذة الفردية فياكل وحده ويبخل بالطعام على الناس ؟

ام هى اللذة الجماعية فياكل مع الناس ويجود بما لديه عليهم ؟ ثم يختلف الهدف مرة اخرى هل يتحرى فيه النظافة الحسية والمعنوية فلا ياكل الا الحلال النظيف ، ام لا يبالى بالنظافة الحسية والمعنوية فياكل القذر ويسرق وينهب وياكل الحرام ؟

---

(١) سورة البقرة اية ٣٥ .

والاختلاف السادس : انه لا يحس بالقهر الكامل ازاء الطعام،فهو قد يمتنع عن الاكل اياما معدودة،فهو يملك ان يستجيب للذعة الجوع فى الحال بارادته، او يستجيب بعد فترة من الوقت حيث اودع الله تعالى فيه حرية الاختيار النسبية، لان حرية الاختيار المطلق هى لله سبحانه وتعالى . ويستطيع الانسان ان ينظم مواعيد طعامه،وان يمتنع عن انواع من الاطعمة،وان يصوم فترة من الوقت اذا اراد . يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب : " ان التفسير المادى للتاريخ الذى يزعم ان تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام تفسير جاهل او مغالط .. يرى الحقائق ثم يغضى عنها لشهوة مذهبية تريد ان تلوى الحقائق ليا لتؤدى الى هدف معين موضوع قبل المقدمات .

" فعلى فرض ان البحث عن الطعام هو تاريخ البشرية (وهذه مغالطة مكشوفة لانها – بصرف النظر عن (القيم كلها – تغفل دافع الجنس ومدى تدخله فى تاريخ البشرية على الاقل بانتاج نسل يتكون منه (المجتمع) . وما يقتضيه هذا المجتمع من تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وروحية .. الخ) . فقد دخلت فى هذا البحث عناصر اخرى لم تجعله بحثا خالصا عن الطعام .. انما جعلته – الى جانب ذلك – بحثا عن القيم .

هل يتعاون الناس فى البحث عن الطعام أم يتقاتلون ويتنازعون ؟ هل ياخذ كل انسان كفايته وحدها أم يتاح له ان يخزن مايزيد على حاجته ؟ هل يملك الطعام ملكية فردية ام ملكية جماعية ؟ وهل يوزع بالتساوى ام بحسب الحاجة ؟ ومقياس الحاجة ؟ .

" كل هذه قيم .. اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية وروحية – نشأت فى اثناء هذا البحث عن الطعام – على فرض زعم انه البحث الاوحد الذى قام به الانسان (وليس ذلك حقيقة) . ومن ثم لم يعد البحث عن الطعام هو وحده الذى يكتب تاريخ البشرية (حتى لو كان هذا الدافع الاوحد) وانما صارت هذه القيم كلها مجتمعة هى التى تكتب تاريخ البشرية . وكان هذا نتيجة طبيعية – وحتمية – لتعدد جوانب الانسان وتداخل مساربه وطاقاته ومكوناته ، وعدم انفراد اى جانب منها

أو طاقة بالعمل في لحظة من اللحظات .. ومن ثم يصبح (الانسان) بكامله هو الذى يكتب تاريخ الانسان وتلك بديهية لم يكن ينبغى ان (يتعب) فى فهمها هواة التفسير المادى للتاريخ "(١) .

مناقشة مرحلة الشيوعية البدائية

ذكرت ان الماديين يقسمون التاريخ الى خمسة اشكال اجتماعية هى : الشيوعية البدائية ، والرق ، والاقطاع والراسمالية ، واخيرا الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية الممهدة للشيوعية .

ويدعى الماديون أن ماركس وانجلز قد برهنا على ان المشاعية البدائية كانت الشكل الاول للمجتمع ثم جاء من بعدهما مورغان الامريكى بثلاثين سنة ووصل الى نفس النتيجة التى وصل اليها ماركس وانجلز بصورة مستقلة عن ابحاثهما . وحجتهم التى استخدموها فى البرهنة على ان المشاعية البدائية نقطة البدء فى تطور الشعوب هى : وجود بقايا المشاعية البدائية لدى بعض الشعوب المعاصرة لهما ، ويشددون النكير على من ينكر وجود المشاعية البدائية . ويدعى بان الملكية الخاصة ملازمة لفطرة الانسان ، لان انكار المشاعية البدائية يؤدى الى خدمة البرجوازية القائمة على الاستغلال والظلم ثم تخيلوا علاقة الناس فى ذلك العهد وصوروها بانها قائمة على التعاون والمساعدة فلا جشع ولا طمع ولا ملكية خاصة لادوات الانتاج وكان الغذاء مشتركا بينهم ولقلة الموارد الغذائية لم يكن هناك استغلال لان الاستغلال لا يوجد الا اذا استطاع الانسان ان ينتج مايكفيه ويكفى الاخرين . ولكن المجتمع المشاعى البدائى لم يكن ينتج افراده الا الضرورى من الاشياء التى يحتاجون اليها فى يومهم ولم يكن التعاون وعدم الاستغلال مبنيا على وعيهم وارادتهم انما تشكل بصورة طبيعية .

والاسئلة التى تفرض نفسها فى هذا المقام هى : ماهو الدليل العلمى على أن البشرية مرت بمرحلة الشيوعية البدائية ؟

---

(١) دراسات فى النفس الانسانية ص ١٨٥ ـ ١٨٦ وانظر بتوسع فصل الدوافع والضوابط معا فى هذا الكتاب .

. ثم كيف يمكن الحصول على هذا الدليل العلمي مادمنا نتكلم عن الانسانية قبل عصور التاريخ ؟ وهل تصلح ملاحظاتهم لعدة مجتمعات بدائية معاصرة دليلا علميا على ان الشيوعية البدائية هي نقطة البدء في تطور الشعوب ؟ ثم ماهو الدليل العلمي على ان نزعة التملك الخاص ليست فطرية وان الملكية الخاصة لم تكن موجودة ؟

أقول وبالله التوفيق : أن أصحاب التفسير المادي انفسهم يعترفون صراحة ان حوادث التاريخ قبل عام ١٨١٥ كانت مشوشة وغائمة كما ذكرنا عن انجلز سابقا . وعلى هذا الاساس عندهم فان حوادث التاريخ قبل القرن التاسع عشر غير قاطعة الدلالة . ثم ان الماركسيين حين اخذوا معلوماتهم عن المجتمعات البدائية المعاصرة عن طريق الافراد الذين اتفق لهم الذهاب الى هناك لم ياخذوا بعين الاعتبار الا المعلومات التي تتفق مع نظرياتهم العامة ، واتهموا كل المعلومات التي تتعارض معها بالتزوير والتحريف . ومن هنا نجدهم يحكمون نظريتهم في تقدير قيمة المعلومات والاخبار التي تقدم عن تلك المجتمعات بدلا من تحكيم المعلومات في نظريتهم .

يقول انجلز : " فما أكثر تناقض الروايات التي في حوزتنا حتى عن القبائل البشرية المتوحشة وما احوجها الى الفحص الدقيق والغربلة " (١) .

ويقول في موضع اخر : " لا يستطيع القارئ ان يميز بوجه عام في البحث الذي اعرضه فيما يلي بين ما اخذته عن مورغان وما اضفته اليه .. فيما يتعلق باحوال الجرمن لم يكن لديه ـ عدا مادونه تاسيت ـ الا معلومات المستر (فريمان) الرديئة المزيفة بلا حرج " . (٢)

ومن هنا فان الماديين اعتمدوا على اساس غير علمي في بناء نظريتهم عن الشيوعية البدائية ، وذلك لعدم توفر المعلومات التاريخية الصحيحة التي تجزم بوجود الشيوعية البدائية كما اعترفوا هم انفسهم على لسان انجلز ، ولعدم تمكنهم

---

(١) اصل الاسرة ص ٥٠
(٢) نفس المصدر ص ١٠

من دحض الافتراضات الاخرى بادلة علمية مقنعة، واصحاب التفسير المادى للتاريخ يصرون على ان الملكية الفردية ليست نزعة فطرية ، لان المجتمع الاول كانت تسوده الشيوعية البدائية . ولم يكن هناك ملك خاص لاحد ، وانما كان كل شيء ملكا للجميع ، وكانت تسودهم روح المحبة والتعاون . اما قولهم ان الملكية الفردية ليست نزعة فطرية فان اقل مايقال فيه انه غير قاطع وذلك لانهم لا يملكون الدليل العلمى على دعواهم . ثم على فرض صحة وجود الحالة الملائكية فى المجتمع الاول المزعوم ، حالة عدم الجشع والاستقلال والمحبة والمساواة فانه لم يكن هناك شيء يمتلك حتى يتقاتل الناس عليه وهم يعترفون انهم كانوا لا يستطيعون تخزين الصيد لانه ينتن . ثم ان المواد الغذائية كانت قليلة لاتكفى للناس الموجودين، فعدم التنازع فى ذلك الوقت لايقطع بعدم وجود نزعة الملكية الفردية ، وذلك لعدم وجود شيء يتنازع عليه . بدليل انه منذ اكتشاف الزراعة بدأ الصراع ، وتحركت النزعة الكامنة التى لم تجد من قبل دافعا للتحرك . ثم ان الثقات من خبراء علم الانسان لم يذكروا لنا مجتمعا من المجتمعات البدائية خلا من الملكية الخاصة لوسيلة من وسائل الانتاج .

يقول سمنر فى مبحثه عن ارض الصيد بين قبائل الشمال الشرقى الحمراء : " ان ارض الصيد هنا محدودة بحدودها الصريحة . يرثها الابن عن ابيه وتنتقل الزوجة الى سكن زوجها الخاص وللاخوة فى بعض الاحوال حقوق فى المزايا الاقتصادية " (1)

ويقول الرحالون الذين عاشوا بين قبائل الكاى فى غانة الجديدة . ان الارض بينهما مشاعة على العموم . ولكن اللص الذى يضبط فى ارض يقوم على زرعها احد غيره ـ يجوز قتله ولا يحق لاهله ان يثأروا له او يطلبوا الدية من قاتله وانهم ربما سمحوا بغرس شجرة مثمرة فى ارض الغريب، ولكنهم لا يسمحون ببناء كوخ او خص عليها، وان الرجل منهم يملك أسنان الخنزير البرى، او اسنان الكلب لانها ذات قيمة سحرية او خفية، ويحق له ان يقتل من يسرقها او يحاول اغتصابها وان ثمرات الاشجار عندهم حق لغارس الشجرة فى حقل يزرعه وان الصائد الذى لمح الصيد لاول مرة صاحب حق فيه لانزاع عليه . " (٢)

---

(١) نقلا عن الشيوعية والاسلام ص ١٤٦ ــ ١٤٧

(٢) نقلا عن نفس المصدر ص ١٤٧ .

ومعلوم ان الزعيم فى هذه القبائل يتميز عن افراد الاسرة ولو بريشة يضعها فى رأسه ، ومهما كانت الريشة تافهة فانها تدل على نزعة التملك ، فضلا عن دلالتها على نزعة البروز والسلطة . ثم ان ماركس وانجلز يعترفان بان القبائل القوية كانت تغير على القبائل الضعيفة . والسؤال الذى نطرحه فى هذا المقام : لماذا كان القتال يدور بين القبائل البدائية ؟ قد يكون صحيحا ان المشاعية البدائية موجودة عند كل قبيلة بمفردها ، ولكن غير صحيح ان المشاعية البدائية كانت عامة بين القبائل ، بدليل ان القبائل كانت تغير بعضها على بعض وتنهب ممتلكاتها .

وبناء على ماتقدم اقول : ان الملكية الخاصة نزعة فطرية قد تكون كامنة فى بعض الاحيان ككثير من النوازع الاخرى التى تتحقق عندما ياتى وقتها المناسب ، فنزعة الجنس عند الطفل مثلا لانستطيع ان نقول انها غير فطرية لانها لاتتحقق ممارستها فى مرحلة مبكرة بل ، هى تترقب الفرصة المواتية لتحقيقها . ونلمس التناقض العجيب عند الماديين وهم يتحدثون عن علاقات الملكية فى الشيوعية البدائية وكيفية توزيع المنتجات بين افراد المجتمع البدائى وبين اخلاق الناس فى ذلك المجتمع .

يقول احمد محمد غنيم " ويقوم التوزيع بين افراد المجتمع على اساس المساواة بسبب من ظروف الانتاج ايضا لان المستوى الشديد الانخفاض للقوى المنتجة فرض تقسيم الغذاء الضئيل والسلع البسيطة المنتجة الى اجزاء متساوية ، وكان من المستحيل قيام اى طريقة اخرى للتقسيم لان حصول احد الافراد على نصيب الاخرين يعنى ان يموت شخص آخر جوعا " (١) .

يقولون هذا فى نفس الوقت الذى يتحدثون فيه عن اخلاق المجتمع البدائى ويمجدون فضائله حيث ينقلون عن " جيمس اديرز " الذى درس حياة هنود امريكا فى القرن الماضى : ان تلك الجماعات البدائية كانت تعتبر عدم تقديم المعونة لمن يحتاجها جريمة كبرى يحتقر مرتكبها . وينقلون عن الباحث (كاتلين) : ان كل فرد فى القرية الهندية رجلا كان او امرأة او طفلا كان له الحق ان يدخل الى اى مسكن من المساكن

---

(١) تطور الملكية الفردية ص ١٤ .

وياكل ان كان جائعا . بل ان اولئك الذين كانوا يعجزون عن العمل او يقعد بهم مجرد الكسل عن الصيد كانوا يستطيعون رغم ذلك ان يدخلوا الى اى منزل يشاءون ، ويقتسمون الطعام مع من فيه . وبذلك كان الفرد فى تلك المجتمعات يحصل على الطعام مهما تهرب من التزاماته فى انتاج هذا الطعام ، ودون ان يترتب على تهربه الا احساسه بفقدان ملحوظ لهيبته " (١) .

والماديون حين يتحفوننا بهذه المعلومات عن اخلاق المجتمع البدائى ، يثبتون أن الانتاج لم يكن منخفضا الى درجة تعنى ان زيادة نصيب فرد تؤدى الى ان يموت اخر جوعا . بل كانت هناك وفرة فى الانتاج ياكل منها الضعيف والمتكاسل . والسؤال الذى نطرحه : لماذا كانت المساواة فى التوزيع هى الطريقة الوحيدة الممكنة ؟ وكيف لم يخطر على ذهن احد فكرة الاستغلال والتلاعب فى التوزيع مادام فى الانتاج وفرة يمكن استغلالها ؟ ثم اذا كانت قوى الانتاج تسمح بقيام الاستغلال فى تلك المجتمعات فيجب ان نجد سبب عدم ظهوره فيها ، ماثلا فى وجود وعى لدى الانسان البدائى ، وقيم اخلاقية لتمنع هذا الاستغلال (نستطيع نحن من وجهة نظرنا الاسلامية ان نردها الى وحى سماوى) .

وعلى هذا فليس صحيحا مازعموه ان التعاون وعدم الاستغلال لم يكن مبنيا على وعى من الناس وارادتهم .

---

(١) نفس المصدر ص ١٨ .

مناقشة صراع الطبقات

ذكرت سابقا ان الماديين يعتبرون أن التاريخ البشرى بكامله كان مسرحا لصراع الطبقات على أثر تفسخ المشاعية البدائية وظهور الملكية الخاصة . ويعتبرون المصالح الاقتصادية هى الاساس فى التعامل بين البشر التى تحدد جميع المصالح السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية والاخلاقية . وتشكلت الطبقات الاجتماعية من تلك الاسر التى كانت تقوم بالوظائف الاجتماعية ، وتستخدم سلطاتها من اجل تجميع الثروة بين ايديها ،وكان اول و تقسيم للمجتمع هو تقسيمه الى فئتين : فئة الارقاء وفئة الاسياد . والطبقة التى تملك الوسائل المادية ووسائل الانتاج هى التى تحكم لان الذى يملك هو الذى يحكم، وافكارها هى المسيطرة على المجتمع ويكون الصراع حتما سياسيا فى المجتمع القائم على التقسيم الطبقى ، لان العلاقات السياسية تنشأ من خلال وعى الناس . بخلاف العلاقات الاقتصادية التى لاتنشأ من خلال وعى الناس وانما تنشأ بصورة تلقائية .

وان السمة الاساسية لكل مجتمع قائم على اساس الصراع الطبقى هى وجود طبقة مظلومة داخل هذا المجتمع . وقبل الدخول فى مناقشة الماديين فى هذا الموضوع لابد من طرح السؤال التالى عن الانقسامة الفاصلة فى حياة البشر التى قسمت المجتمع الى طبقتين . سادة وعبيد : كيف اعطيت فيها السيادة لاولئك وكتب على هؤلاء الرق، ولماذا لم يقم السادة بدور العبيد ، والعبيد بدور السادة ؟ يجيب الماركسيون على هذا السؤال بان كلا من السادة والرقيق قد مثل الدور المحتوم الذى يفرضه العامل الاقتصادى، لان الجماعة التى مثلت دور الاسياد كانت على قدر كبير من الثروة ،وكانت تملك القدرة على ربط الاخرين بها برباط العبودية . ومن المعلوم ان الثروة لم تهبط على الاسياد من السماء ، فكيف حصل عليها هؤلاء دون غيرهم واستطاعوا ان يفرضوا سلطانهم على غيرهم مع انهم كانوا يعيشون فى مجتمع شيوعى واحد ؟ ونجد الجواب جاهزا على هذه المسألة ايضا . اولا ان الرؤساء والقادة الحربيين ورجال الدين فى المجتمع الشيوعى البدائى اخذوا يستغلون مراكزهم لكى يحصلوا على الثروة فامتلكوا جزءا من الملكية الشائعة . ثم اخذوا ينفصلون شيئا فشيئا عن جماعتهم ، ليكونوا ارستقراطية

جديدة ، بينما كان أعضاء الجماعة يسقطون شيئا فشيئا تحت تبعتهم الاقتصادية. (١)
وهذا الجواب لا يخدم الماديين في تفسيرهم للتاريخ، لانهم باعترافهم هذا يعتبرون العامل السياسي عاملا اساسيا، والعمل الاقتصادي عاملا ثانويا منبثقا منه، حيث يفترض ان المكانة السياسية التي كان يتمتع بها القواد والرؤساء ورجال الدين هي التي مهدت لهم الطريق الى الاثراء . وقد يجيبون على تلك الاسئلة بجواب آخر وهو ان الجماعة التي حولت اسرى الحرب الى عبيد صارت تربح الناتج الفائض عن حاجاتهم الضرورية حتى اثرت . ولكن هذا الجواب لا يحل المشكلة وهي : لماذا هيأت الفرص لاولئك السادة بالذات استرقاق الاسرى دون غيرهم من اعضاء القبيلة؟ وهذا لا يمكن للماديين تفسيره على اساس القوى المنتجة ، وانما يمكن تفسيره تفسيرا انسانيا على اساس الفوارق والكفاءات البدنية والفكرية والعسكرية .

وحين يقول الماركسيون ان تاريخ المجتمع البشرى بكامله كان مسرحا للصراع الطبقي بعد ان تلاشت الملكية الخاصة يناقضون انفسهم ، وذلك للامور التالية :
اولا : انهم يعترفون بان الانسان قد وصل الى زراعة النبات وتدجين الحيوان قبل أن تظهر فيه طبقة تستغل الطبقة الاخرى ، وقد تم هذا التدجين على خطوات اولاها : صيد الحيوان للانتفاع بلحومه وجلوده في الطعام والكساء، ثم صيده والاحتفاظ به للانتفاع بألبانه واصوافه، ثم اخيرا صيده للانتفاع به في الزرع وحمل الاثقال . فاذا كانت هذه الاطوار نشأت قبل ظهور الطبقة فليس من المحتم ان تكون الطبقة هي التفسير الوحيد للاطوار السابقة والاطوار التي نشأت بعدها .

ثانيا : ثم ان حوادث التاريخ قبل عام ١٨١٥م باعتراف انجلز كانت مستورة ومشوشة . فكيف يقولون بلهجة اليقين ان تاريخ البشرية كان مسرحا للصراع الطبقي بعد ان تلاشت الملكية الخاصة .

ثالثا : ثم ان انجلز يعترف بان الصراع السياسي كله في بريطانيا كان يدور على تنازع السيادة بين طبقتين : طبقة الملوك والنبلاء، والطبقة الوسطى ، ولم يكن الصراع على استغلال احداهما للاخرى، واخيرا يظهر عيب هذه النظرية في انها عممت تاريخ

---

(١) انظر تطور الملكية الفردية ص ٣٢ وانظر اقتصادنا ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

تاريخ البشرية كله بانه كان مسرحا للصراع الطبقى . وهذا التعميم خاطىء من وجهة النظر العلمية وذلك للامور التالية :

أولا : ان الماديين نظروا الى تاريخ اوربا والحالة الطبقية السائدة فيها فى فترة محدودة واعطوا حكما عاما على التاريخ البشرى . ولو انهم اكتفوا بالحكم على تاريخ أوربا دون ان يعمموا على تاريخ الامم الاخرى وبخاصة الامة الاسلامية لكان ماقالوه صحيحا الى حد كبير ، لان الصراع الطبقى ونظام الطبقات كان موجودا فى اوربا منذ امد بعيد . ثم انهم لم يدرسوا تاريخ البشرية كله ، بل درسوا تاريخ اوربا فى فترة معينة واصدروا حكمهم . والباحث العلمى المنصف يجب عليه حتى تكون نظريته علمية مقبولة ان يدرس تاريخ جميع الامم ليصدر حكما قاطعا . بل انساهل قليلا معه فاقول : يدرس تاريخ الامم المعلومة وتاريخ الاسلام لا يجهله احد .. فكيف يصدرون حكما قاطعا ويزعمون انهم علميون ونظريتهم قائمة على اسس علمية وهم يغفلون تاريخ الاسلام ؟ اللهم لان تاريخ الاسلام يهدم نظريتهم فى صراع الطبقات من أساسها .

وقبل الحديث عن موقف الاسلام من الطبقات ، لابد من الحديث عن مفهوم الشيوعية للطبقة . ثم بيان وضع الطبقات فى المجتمعات الاوربية وعرضها على الاسلام لنرى هل اقر الاسلام النظام الطبقى ، ام دمره من أساسه ؟ .

مفهوم الطبقية عند الماركسيين

يرى اصحاب التفسير المادى للتاريخ ان الاساس الواقعى للتركيب الطبقى ولظهور اى طبقة فى المجتمع هو العامل الاقتصادى . لان انقسام المجتمع الى طبقتين طبقة تملك كل وسائل الانتاج واخرى لاتملك منها شيئا ، هو السبب التاريخى لوجود الطبقات فى المجتمعات البشرية باشكال متنوعتها لنوعية الاستغلال الذى تمارسه الطبقة الحاكمة على الطبقة المحكومة . والنتيجة التى تترتب على هذا التقسيم الطبقى القائم على الاساس الاقتصادى هى : أن النشاط فى ميادين العمل هو الاسلوب الوحيد لكسب المقام الاجتماعى . والسوءال الذى يطرح فى هذا المقام هو : متى

كان النشاط فى ميادين العمل هوالطريق الاساسى لتكوين الطبقة الحاكمة فى المجتمع ؟ على اساس ان الذى يملك هوالذى يحكم ؟ واذا كانت هذه النتيجة تنطبق على الراسمالية كما يريد الماركسيون فانها لاتنطبق على المراحل التاريخية السابقة !

ويحق لى أن أتساءل : كيف نفسر الحدود الفاصلة التى كانت توضع فى المجتمع الرومانى بين طبقة الاشراف ومجموع العامة بما فيهم طبقة رجال الاعمال الذين كانوا يداينون النبلاء فى ثرواتهم ويتمتعون بملكيات لاتقل عن ملكيات اولئك النبلاء على الرغم من التفاوت الكبير بين مقاميهما الاجتماعى ؟ ثم كيف نفسر قيام الطبقة الاقطاعية فى اوربا الغربية نتيجة للفتح الجرمانى اذا لم نفسره تفسيرا عسكريا وسياسيا وحتى انجلز اعترف بأن القواد الفاتحين الذين تكونت منهم تلك الطبقة لم يكن مقامهم الاجتماعى ناتجا عن الملكية الاقطاعية وانما تكونت ملكيتهم الاقطاعية هذه تبعا لمركزهم الاجتماعية وامتيازاتهم العسكرية والسياسية الخاصة بوصفهم غزاة فاتحين دخلوا ارضا واسعة فتقاسموها فكانت الملكية اثرا ولم تكن هى العامل المؤثر .

قد يحاول الماركسيون ان يدافعوا عن مفهومهم للطبقية عن طريق القول بالعلاقة المتبادلة بين العامل الاقتصادى وشتى العوامل الاجتماعية الاخرى ، الامر الذى يجعله يتاثر بها وتتاثر به . ولكن هذه المحاولة تكفى لنسف التفسير المادى للتاريخ من اساسه ، والقضاء على مجده العلمى الشامخ فى عالم الماركسية ، لانه لايختلف عندئذ عن التفاسير الاخرى للتاريخ الا فى التاكيد على اهمية العامل الاقتصادى نسبيا مع الاعتراف بالعوامل الاخرى الاصيلة التى تساهم فى صنع التاريخ . (١)

نظام الطبقات فى أوربا

اذا استعرضنا تاريخ اوربا فى العصور الوسطى مثلا وجدنا طبقات النبلاء ورجال الدين والشعب طبقات متميزة يختلف بعضها عن بعض .

---

(١) انظر اقتصادنا ص ١١١ ـ ١١٣ .

وكان رجال الدين يتميزون بلباسهم الخاص ، كما كانت لهم اموال طائلة من الاوقاف التى وقفها عليهم المتدينون ، ومن الاتاوات التى يفرضونها هم على الناس ، بل انه كانت للكنيسة جيوش كبيرة فى بعض الاحيان .

أما النبلاء فكانوا طبقة تتوارث الشرف بعضها عن بعض بحيث يولد الطفل فاذا هو شريف منذ مولده . ويظل على هذه الصفة حتى الموت .

وقد كانت لهم امتيازات كثيرة . فقد كانوا هم السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية وكانت اهواؤهم هى القانون الذى ينفذ على الشعب البائس، وكانت الكنيسة لاتحكم حياة الناس بشرع الله، لذلك جاءت التشريعات التى سنوها بقوانين تهدف الى حماية مصالحهم والحفاظ على امتيازاتهم .

اما الشعب فقد كان محروما من الحقوق والامتيازات فى الوقت الذى كان مكلفا فيه بالقيام بجميع الواجبات . وكان يتوارث الذل والفقر والعبودية جيلا بعد جيل .

وفى العصر الحديث قامت البرجوازية مقام الاشراف ولكن من وراء ستار مع بعض التعديلات التى اقتضاها التطور الاقتصادى، ولكن الجوهر لم يتغير . فهى طبقة تملك المال والسلطان والقوة التى تسير دفة الحكم .

هذا هو نظام الطبقات عرضته بشكل مبسط، ويتلخص فى حقيقة اساسية هى : ان الذى يملك هو الذى يحكم . فالطبقة المالكة للمال هى الطبقة الحاكمة التى تملك وسائل التشريع بطريقة مباشرة او غير مباشرة فتشرع لحماية نفسها من المعارضين، وتفرض سيطرتها على الشعب حتى يظل خاضعا لسلطانها محروما من كثير من حقوقه ارضاء لشهواتها .

هذا هو وضع الطبقات الذى استمد منه ماركس اصول نظريته فى الصراع الطبقى . ولو انه اكتفى بالحكم على هذا الوضع السىء فى اوربا الناشىء عن غياب شرع الله عن التطبيق لكان ماقاله صحيحا الى حد ما . ولكنه يزعم العلمية لنفسه وان نظريته فى التفسير المادى للتاريخ هى النظرية العلمية الوحيدة التى فسرت تاريخ البشرية لاول مرة فى الحياة ! ومع ذلك يصدر حكما قاطعا بان تاريخ البشرية كله كان مسرحا

للصراع الطبقي . ولبيان فساد هذا الزعم اعرض نظام الطبقات على المفاهيم الاسلامية .

نظرة الاسلام الى الطبقات

ان الاسلام الذى ارتضاه الله للبشرية عامة دينا لا يقر نظام الطبقات، لانه لا يوجد في اصوله وتعاليمه مزايا تؤخذ بالميراث كما كان الحال في طبقة الاشراف . بل ان الشريف في ميزان الاسلام هو التقي مهما كان نوعه ومهما كان جنسه ولونه (ان اكرمكم عند الله أتقاكم) (١) .

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط ايام التشريق فقال : " يا ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد الا لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي ولا لاسود على احمر ولا احمر على اسود الا بالتقوى . ابلغت ؟ قالوا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٢)

هذا هو الاساس العام الذى انطلق منه الاسلام في دعوته . والخروج على هذا النظام هو خروج عن تعاليم الاسلام ، لا يصح ان ينسب اليه بحال من الاحوال، والطبقات التى وجدت في تاريخ المسلمين هى طبقات خارجة عن تعاليم الاسلام بهذا الشأن، ولا يقرها على تصرفاتها مسلم، وهى ليست حجة على الاسلام لان اصوله ثابتة ومحفوظة . فالخطأ في تطبيقها انما يعود لفهم الناس الخاطىء، وليس للدين ذاته ولله الحمد والمنة .

وليس في الاسلام قوانين تحتفظ بالثروة في يد قوم معينين وقاعدته في المال معروفة وهى : " كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم " (٣)

كما وضع قوانين الميراث التى تفتت الثروة بصفة دائمة واعادة توزيعها في المجتمع بنسب جديدة على الدوام .

واهم شيء في الاسلام هو ان الحكم منزوع من البشر الاغنياء منهم والفقراء على حد سواء. فهم لا يضعون شرعا من عند انفسهم ليحكموا به غيرهم . وذلك لان الحكم والتشريع لله سبحانه وتعالى والبشر منفذون لحكم الله وشرعه لا غير، ولا فرق بين كون الحاكم المنفذ

---

(١) الحجرات ١٣

(٢) مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٤١١

(٣) الحشر ٧ .

لشرع الله فقيرا أو غنيا . لان المقياس هو التقوى والمسلمون هم الذين يختـــارون حاكمهم .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب : " ولا يملك احد أن يشرع على مزاجه فى الدولـة الاسلامية ، لان الشريعة السماوية المنزلة هى التى تحكم الجميع بلا محاباة لاحد ولا ظلـم لاحد . ومن هنا ينتفى بتاتا وجود طبقات فى الاسلام لان وجود الطبقات مرتبـط ارتباطا لاينفصم بمزية التشريع . فاذا بطلت هذه المزية ولم يكن فى وسع احـد أن يضع لنفسه قانونا يحمى به مصالحه على حساب شخص اخر . فماذا بقـى من نظام الطبقـات ؟ " (١)

وقبل ان انهى حديثى عن هذا الموضوع انقل راى الكاتب الماركسى سدنـى هوك حيث يقول : " اذا تطرق الشك الى نظرية صراع الطبقات فان فسادهـا فان صرح النظريات الماركسية ينهار من اساسه " (٢)

اقول ان فساد نظرية صراع الطبقات قد ظهر خلال البحث من عدة زوايـا ، وبناء على هذا فان كل حكم حتمى اصدروه على اساس الصراع الطبقى باطـل ، لان مابنى على الباطل فهو باطل . والسؤال الذى يطرح على الماديين هـو : اين العلمية التى تزعمونها فى تفسيركم للطبقات ، والاسلام يكذبها حيث لا يسمـح بوجود الطبقات والصراع الطبقى ؟ واين العلمية كذلك وهى لم تبن على دليل علمـى قاطع ، لان حوادث التاريخ عندكم مشوشة ومستورة قبل عام ١٨١٥ ؟ واين هـى كذلك والاساس الاقتصادى الذى قررتم ان الطبقات قامت على اساسه . لا يخدمكـم فى علميتكم المزعومة ، لانه لا ينطبق على مراحل ماقبل الراسمالية حيث وجدت طبقـات لم تقم على اساس اقتصادى ؟ واين العلمية كذلك والانسان قد وصل الى تدجيـن الحيوانات وزراعة الارض قبل ظهور الطبقات ؟

" ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد " . (٣)

---

(١) شبهات حول الاسلام ص ١٠١ ــ ١٠٢ وانظر الفصل بكامله فى هذا الكتاب.
(٢) كتب غيرت وجه العالم ص ١٦٤
(٣) سورة ق آية ٣٧ .

الرق والاقطاع

من خلال عرض وجهة نظر الماديين لمراحل التطور في التاريخ البشري وحتمياته ، تبين لي ان الاساس الذى يقوم عليه بناؤهم هو : أن البشرية لابد أن تمر بخمس مراحل حتمية الوقوع وراجعة الى اسباب اقتصادية .

ومن بين هذه المراحل نظام الرق الذى ظهر على أثر انهيار نظام الملكية الجماعية ، نتيجة لتطور القوى المنتجة ، وظهور الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وكانت الطريقة التي يتم الحصول بها على الرقيق هي الغزوات المتكررة بين القبائل، فكانت القبيلة المنتصرة تستعبد افراد القبيلة المهزومة . ثم ازدادت الحاجة الى الرقيق نتيجة لاكتشاف الزراعة ، وتوسعت دائرة الرق فاصبحت تشمل المدينين نتيجة لظهور الاقراض الربوى وعجز المدين عن السداد ، وكان الرقيق يعامل معاملة قاسية لاكرامة له ولاحرية يقتله سيده متى شاء ويضربه بلا ذنب، وقد تمرد العبيد كثيرا على المعاملة القاسية التى كانوا يعاملون بها وكان اشهر حركاتهم ثورة اسبارطاكوس سنة ٧٣ ـ ٧١ ق.م، التى هزت اركان الدولة الرومانية .

ثم انهار نظام الرق واصبح الرقيق عالة على اسيادهم ، حين اصبح هذا النظام مناقضا لطابع قوى الانتاج، ولاجل بناء اقتصاد جديد لابد من علاقات انتاجية جديدة . ونتيجة للعلاقات الانتاجية جاء النظام الاقطاعي ، وحل محل نظام الرق . ويوجد بين النظامين تشابه من حيث كونهما يعتمدان على ادوات انتاج ضعيفة .

ويتميز النظام الاقطاعي بان علاقات الانتاج فيه قائمة على ملكية الاقطاعي للارض كوسيلة رئيسية للانتاج ، وقيام ارتباط الفلاحين بالاقطاعيين داخل حدود معينة . وكانت معاملة الفلاح قاسية جدا فقد كان محروما من الحقوق السياسية وكان مجبرا على العمل مجانا معظم ايام الاسبوع . وكان لا يستطيع ترك السيادة الاقطاعية ، وكثيرا ماتمرد الفلاحون على الوضع السيء . ولكن محاولاتهم باءت بالفشل لقوة الاقطاعي ، ولعدم تنظيم الفلاحين وتحديد اهداف سياسية واضحة لهم .

وكانت الطبقة المسيطرة هى طبقة الملاك ورجال الدين ، فقد كانت الكنيسة في ذلك الوقت أكبر الاقطاعيين ، تستغل الناس باسم الدين .

مناقشة مرحلة الرق

هذه هى الصورة التى رسمها الماديون لوضع الرقيق والفلاح فى اوربا ، وكانوا صادقين الى حد كبير فى بيان هذا الوضع السىء الذى كان عليه الناس فى ذلك الوقت وفى تلك البلاد . ولكنهم اخطأوا فى علاج القضية حين اعتبروا ان هذه المعاملة السيئة ناشئة عن الملكية الخاصة، ولم يردوها الى طبيعة الانسان التى تحتوى على الخير والشر والتى يغلب عليها الشر حين لا تلتزم بشرع الله .

والذى يهمنى فى هذا البحث هو ان الماديين درسوا حالة الرق والاقطاع فى حياة اوربا ثم اصدروا حكما قاطعا يفيد بان جميع البشر مروا بهاتين المرحلتين نتيجة لحتمية التطور التى تعود الى الاسباب الاقتصادية . ولو أنهم وقفوا عند حدود اوربا لكان ماقالوه صحيحا نسبيا وذلك لان اوربا لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله ولم تحكم بشرعه فى حياتها وسنة الله التى لا تتبدل وهى : انه حين يغيب شرع الله عن التطبيق يصبح المجال مفتوحا امام اهواء البشر ليشرعوا للناس مايريدون ويستغلوهم كما يشاءون . ولو كانوا علميين كما يزعمون لما عمموا حكمهم على جميع الناس وجعلوه شاملا يشمل فيما يشمله تاريخ الاسلام .

يقول الاستاذ سيد قطب : " ولكن الماركسية ـ المذهب العلمى ـ تريح نفسها من متاعب (الدراسة العلمية) لكل عوامل التاريخ ولكل دوافع الانسان ـ فهى تختار عنصرا واحدا من عناصر الحياة ـ عنصر الاقتصاد ـ وتعتبره ـ كما قلنا ـ الهـا لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه ولا حيلة للانسان فى حتمية مايراه .

" غير انها لا تدرس آثار قدرة هذا الاله فى تاريخ العالم .. انما تدرسه فى تاريخ اوربا ثم تعمم حتمية ارادته على الارض كلها . وهذه كذلك احدى تخريفات (المذهب العلمى) القائم على الاستقصاء .

" ومن ثم يعتبر الماركسيون ان تاريخ اوربا هو تاريخ العالم، وان اله الاقتصاد الذى حكم تاريخ اوربا هو الذى يحكم تاريخ العالم . ويقررون حتمية تلك الاطوار فى تاريخ العالم استنادا الى ما وقع فى تاريخ اوربا من وجهة نظرهم، التى تنحى كل العوامل فى تاريخ البشر لتقرر وحدانية اله الاقتصاد بالعمل !

" وهم طبعا ـ لا يمكن ان يخطر على بالهم انه على فرض ان هذا التاريخ صحيح، وعلى فرض انه تاريخ العالم لا تاريخ اوربا . فان هذه الاقوال تارجحت هكذا بين طرفى الغلو دائما، ولم يعتدل بها الميزان ابدا، ووجدت فيها المتناقضات المتصارعة، ونظرا الى أنها قامت على مناهج من صنع الانسان الجاهل بنفسه وحاجاته الحقيقية، المثقل فى احكامه وتصرفاته واختياراته باثار هذا الجهل، وبالضعف البشرى، والهوى المتقلب، والشهوات العمياء، وانه فى الوقت ذاته لم يستغن بمنهج الله ليضبط هذه الشهوات، وهذا الهوى وهذا الضعف، وهذا الجهل بضابط ثابت يخفف على الاقل من هذه الاندفاعات البشرية على غير هدى فى كل اتجاه !

" لا يمكن طبعا ان يخطر هذا على بالهم وهم يقيمون فلسفتهم الاقتصادية ابتداء على اساس المذهب المادى الذى ينكر ان يكون لهذا الكون اله . وهم يسخرون اشد السخرية ممن يعتقدون بوجود اله " . (١)

وحتى يظهر زيف نظريتهم فى تطور التاريخ البشرى لابد من عرض لمحة من تاريخ الاسلام تلغى هذه " الحتمية " الغاء كاملا وتبطلها من الاساس . شرع الاسلام العتق ولم يشرع الرق اذ كان الرق مشروعا قبل الاسلام فى القوانين الوضعية والدينية بجميع انواعه . رق الاسر فى الحرب . ورق السبى فى غارات القبائل بعضها على بعض ورق البيع والشراء ومنه رق الاستدانة او الوفاء بالديون .. وكانت اليهودية تبيحه ونشأت النصرانية وهو مباح فلم تحرمه بل امرت العبيد بطاعة اسيادهم كما يطيعون المسيح كما جاء على لسان بولس فى رسالته الى اهل افسس . (٢) والتى جاء فيها :

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٩١ / ٩٢

(٢) انظر حقائق الاسلام واباطيل خصومه . ص ٠٠٢

" ايها العبيد اطيعوا سادتكم حسب الجسد .بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح لابخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد للمسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس " (١)

اما الاسلام فقد جفف منابع الرق كلها ولم يبق الا منبعا واحدا وهو رق الحرب معاملة بالمثل لانه ليس من مصلحة المسلمين أن يسترق ابناؤهم دون ان يردوا على أعدائهم بالمثل .

معاملة الاسلام للرقيق

منح الاسلام الرقيق مجموعة من الامتيازات اذكر بعضها فيما يلى :

١ ــ قرر وحدة الاصل والمصير .قال تعالى : " يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير " .(٢) وفى حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة فقال : يا ايها الناس ان الله قد اذهب عنكم عبية (٣) الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برتقى كريم على الله وفاجرشقى هين على الله . والناس بنو ادم وخلق الله ادم من تراب قال الله يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير " .(٤)

٢ ــ رد لهم انسانيتهم المسلوبة وقرر انه لافضل لسيد على عبده لمجرد ان هذا سيد وهذا عبد . قال الله تعالى : " فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض " (٥) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى وسط ايام التشريق : " يا ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد الا لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا لاحمر على اسود

---

(١) افسس ٦ : ٥ــ٧
(٢) الحجرات ١٣
(٣) نخوة الجاهلية وفخرها وكبرها
(٤) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الاحوذى ج ٩ص ١٨٦
(٥) آل عمران ١٩٥ .

ولا لاسود على احمر الا بالتقوى . ابلغت . قالوا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم " (١)

٤ ـ لم يعد الرقيق " شيئا " وانما صار بشرا له روح كروح السادة . فقد كانت الامم الماضية تعتبره جنسا اخر غير جنس السادة لاتتاثم من قتله وتعذيبه ولكن الاسلام رفعه الى مستوى الاخوة الكريمة وضرب الامثلة الرائعة في حسن معاملته لان حسن المعاملة يعيد للنفس توازنها ويرد اليها اعتبارها فتشعر بكيانها الانساني وكرامتها الذاتية .

وصلت معاملة الاسلام الحسنة للرقيق الى درجة عجيبة ، ضربت امثلة سابقة من قبل في ايات كتاب الله واحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واسرد هنا امثلة من التطبيق العملي .

ـ آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين بعض الموالي وبين بعض اصحابه . فقد آخى بين بلال بن رباح وخالد بن رويحة الخثعمي، وبين مولاه زيد بن حارثة وعمه حمزة بن عبد المطلب ، وبين خارجة بن زيد وابي بكر الصديق رضي الله عنهم اجمعين، كما زوج صلى الله عليه وسلم ابنة عمته زينب بنت جحش الهاشمية القرشية من مولاه زيد بن حارثة، كما أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه زيد بن حارثة على راس الجيش المسلم الذي ذهب لمحاربة الروم في موتة ثم انه صلى الله عليه وسلم أمّر أسامة بن زيد على راس جيش اخر ليحارب الروم، وكان من بين جنده ابوبكر وعمر رضي الله عنهم .

فالاسلام لم يعط العبد حق المساواة الانسانية فحسب، بل اعطاه حق القيادة والسياسة والرئاسة على الاحرار . عن انس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا واطيعوا وان استعمل عليكم حبشي كأن راسه زبيبة ". (٢)

---

(١) مسند الامام احمد ج ٥ ص ٤١١

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٤

كما ان الاسلام اعتبر الرقيق كائنا انسانيا له كرامة يحميها الشرع فلايجوز الاعتداء عليها بالقول ولا بالفعل . اما القول فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم السادة عن تذكير الارقاء بانهم ارقاء . عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقل احدكم لعبده عبدى ، ولكن ليقل فتاى، ولا يقل العبد لسيده ربى ولكن ليقل سيدى " . [1] وعن المعرور بن سويد قال دخلت على ابى ذر بالربذة فاذا عليه برد وعلى غلامه مثله . فقلت يا ابا ذر لو اخذت برد غلامك الى بردك فكانت حلة وكسوته ثوبا غيره قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اخوانكم جعلهم الله تحت ايديكم فمن كان اخوه تحت يديه فليطعمه مما ياكل وليكسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه . فان كلفه ما يغلبه فليعنه " . [2] اما الاعتداء الجسدى فعقوبته صريحة وهى المعاملة بالمثل " . [3] عن سمرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه " . [4]

والاسلام شجع بكل الوسائل على تحرير العبيد فهو بعد ان حرر العبد من الداخل ورد له كرامته الانسانية طلب من الناس ان يقدموا على الخطوة الثانية وهى تحريره من الخارج . وسلك الاسلام سبيلين فى تحرير الرقيق . الطريق الاول : العتق وهو التطوع من جانب السادة بتحرير من فى يدهم من الرقيق، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الاولى فى ذلك اذ اعتق من كان عنده من الارقاء ، وتلاه اصحابه رضى الله عنهم . فقد كان ابوبكر الصديق رضى الله عنه ينفق اموالا كثيرة فى سبيل الله تعالى لتحرير الرقيق، وقد حرر رضى الله عنه بلالا الحبشى رضى الله عنه .

وكان بيت مال المسلمين يشترى العبيد من اصحابهم ويحررهم كلما بقيت لديه فضلة من المال، حتى انه فى عهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الذى اغنى الناس بعدله حين امتنع الناس عن اخذ الصدقة لانه لم يكن هناك من ياخذها - اشترى باموال الزكاة عبيدا واعتقهم .

---

(١) نفس المصدر ج٢ ص٤٤٤
(٢) سنن ابى داود ج ٥ ص٣٦٠
(٣) موضع خلاف فقهى بين العلماء
(٤) نفس المصدر ج ٤ ص٦٥٢ــ٦٥٣

حدث يحى بن سعيد قال : " بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقيـــــة فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من ياخذها ، قـــد أغنى عمر الناس فاشتريت رقابا فاعتقتهم وولائهم للمسلمين " (١) .

وجعل الاسلام العتق من كفارات بعض الذنوب كالقتل الخطأ وكفارة الايمـــان وانتهاك حرمة رمضان وغيرها .

الطريق الثانى : وهو طريق المكاتبة :

والمكاتبة هى : " منح الحرية للرقيق متى طلبها بنفسه مقابل مبلغ من المـــال يتفق عليه السيد والرقيق. والعتق هنا اجبارى لا يملك السيد رفضه ولا تأجيلـــه بعد اداء المبلغ المتفق عليه ، والا تدخلت الدولة " القاضى او الحاكم " لتنفيـــذ العتق بالقوة ومنح الحرية لطالبها . وتقرير المكاتبة فتح فى الواقع باب التحريـــر فى الاسلام لمن احس فى داخل نفسه برغبة التحرر ولم ينتظر ان يتطوع سيد بتحريـــره فى فرصة قد تسنح اولا تسنح على مر الايام . " (٢)

بعد هذا اقول للماديين : اين الحتمية الاقتصادية التى جعلت الاسلام يجفـــف منابع الرق ويلغيه من الوجود ويسبق الامم بسبعة قرون ؟ واين العلمية فى قولكم ان البشرية مرت بهذه الاطوار الحتمية ؟ وان كل نظام ــ بما فيه الاسلام ــ ان هو الا انعكـــاس للتطور الاقتصادى القائم وقت ظهوره ؟ وهذا الاسلام لم يعمل بوحى النظم الاقتصادية القائمة فى العالم كله . حين جفف منابع الرق ، بل كان هذا تفضلا من الله سبحانـــه وتعالى وامرا منه باقامة العدل فى الارض .

ـــ.ـــ

---

(١) الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ص ٢٢٢

(٢) شبهات حول الاسلام ص ٤١ــ٤٢ . وانظر بالتفصيل حول هذا الموضوع نفس المصدر فصل الاسلام والرق وظلال القران ج٢ ص ١٧٠ــ١٧١ وكتاب حقائق الاســلام واباطيل خصومه وكتاب لا رق فى الاسلام ص ٣١ــ٣٥ وكتاب اجنحة المكر الثلاثـــة ص ٤٧٤ ــ ٤٩٢ .

مناقشة الاقطاع

يحسن بي قبل مناقشة المرحلة الاقطاعية ان أعرض صورة الاقطاع التي كانت قائمة في اوربا ليرى القارئ كيف ان ماركس اعتمد على هذه الصورة المظلمة فاصدر حكما حتميا قطعيا وهو أن البشرية كاملة مرت بمرحلة الاقطاع لانه طور حتمي لاخيار لامة من الامم في تجاوزه •

كان النظام المسيطر على الحياة الاوربية في القرن الخامس عشر هو النظام الاقطاعي الذي عاصر النصرانية في عنفوان شبابها، والسمة البارزة لهذا النظام وكل نظام جاهلي هو عدم الحكم بما أنزل الله • وقد عرفنا ان الكنيسة حرفت دين الله فلم تحكم حياة الناس بشرع الله • انما كان الحكم للطاغوت الذي شرع للناس على هواه •

وكان مبدأ الكنيسة هو فصل الدين عن الدولة الذي اعطى للطاغية شرعية في ان يحكم حياة الناس • والنتيجة المنطقية التي لاتتغير هي: انه حين لاتحكم شريعة الله حياة الناس يسود الظلم والفساد وينتشر العدوان وياكل القوي حقوق الضعفاء وهذه هي الصورة التي كانت تسيطر على النظام الاقطاعي — وكل نظام لا يحكم بشرع الله والتي تعاني البشرية منها عناء شديدا • كان الانسان في ظل هذا النظام الجاهلي المنحرف مسلوب الارادة مهدر الكرامة • وقد كانت الدول الاوربية التي تتكون منها القارة الاوربية عبارة عن مجموعة من الاقطاعيات تخضع لملك او امبراطور مركزي كل همه ان يحصل على الجنود والضرائب من السيد ـ مالك الاقطاعية ـ اما داخل الاقطاعية فكانت تبرز الصورة البشعة لنظام الاقطاع • وعلى الرغم من اختلاف اشكال الاقطاع باختلاف العصور والاقاليم، فان ملامحه العامة وجوهره الموحد يمكن ان يحصرا في تقسيم المجتمع الى طبقتين: الطبقة العليا التي كانت تشمل السادة الملاك ورجال الكنيسة وهذه الطبقة في قمة الترف والبذخ، والطبقة السفلى وتشمل العبيد ورقيق الارض، وصغار القساوسة والزهاد من رجال الكنيسة •

أما حقوق وواجبات كل فرد من هذه الطبقات فكانت كما يلي :

١ ـ السيد المالك وقد كان هو المسيطر الفعلي وصاحب النفوذ القوي، وكان يملك حقوقا لاحصر لها في حين ليس عليه اي واجب، وكان من حقه ان يضرب رقيق ارضه او يقتلهم في بعض الاحيان دون ان يخشى عقابا وكانت له في املاكه كل السلطات العسكرية والقضائية، وكان في وسعه ان يمتلك اكثر من

يرى الدكتور البوطي ان هذه الفترة لاتشمل الا اوربا وأنه نظام الاقطاع لم يكن نتيجة حتمية للمرحلة الجماعية وان امما كثيرة لا ينطبق عليها هذا القانون

اقطاعية وان يبنى فى كل واحدة قصرا حصينا .[1]

وكان الشريف يظل شريفا فى ظل النظام الاقطاعى حتى الموت . والعبد يولد عبدا ويظل عبدا حتى الموت، حيث يقوم توزيع اعضاء المجتمع الاقطاعى على العامل الوراثى وحده الا اذا حدث تبدل فجائى كامل على الحياة فينقطع ولكنه يعود الى الحكم من جديد بعد ان تستقر الاوضاع .

٢- رجال الدين : يقول انجلز : " وكانت هناك فئتان متمايزتان بين رجال الدين فكانت المراتب العليا الاقطاعية من رجال الكنيسة هى الطبقة الارستقراطية : الاساقفة ورؤساء الاساقفة ورؤساء الاديرة والمطارنة وغيرهم من كبار رجال الكنيسة، وكانت هذه الشخصيات الكنسية الكبيرة نفسها اما امراء امبراطوريين واما يعدون سلطانهم كالامراء الاقطاعيين على مساحات شاسعة من الارض تشمل عديدا من الاقنان والعبيد فى ظل سيادة غيرهم من الامراء . ولم يكونوا يستغلون تابعيهم بلا شفقة كالفرسان والامراء بل كانوا ابعد شأوا منهم . فالى جانب استخدامهم للقوة الغاشمة كانوا يستخدمون كافة اساليب استغلال الدين والى جانب الخوف من السوط كان هناك الخوف من الحرمان ورفض التوبة .

" وكانوا يستخدمون كافة مؤامرات الاعتراف لكى يسحبوا اخر قرش من رعاياهم او ليزيدوا نصيب الكنيسة وكان تزوير الوثائق وسيلة شائعة ومحببة للاحتيال عند هؤلاء الافاضل .

" ورغم انهم كانوا يتلقون العشور من رعاياهم بالاضافة الى الواجبات الاقطاعية وريع الارض، فقد كانت حاجتهم الى المال لاحد لها، وكانوا يلجأون الى تلفيق الصور المقدسة والتمائم صانعة المعجزات ويقيمون بيوت الصلاة المقدسة ويتاجرون فى صكوك الغفران ، كل هذا لكى يعتصروا اكثر مايمكن من المال من الشعب . ولقد صادفوا فى هذا السبيل نجاحا لمدة طويلة من الزمن .

" ومع انتشار مطاردة الزنادقة السياسيين والدينيين تركزت كراهية الشعب

---

(١) انظر بتصرف قصة الحضارة ١٤ ، ١٨ ، ٤١ ، ٤٢٤

بل والنبلاء على كبار رجال الكنيسة هؤلاء وجيشهم من الرهبان الذين كان يتزايد باستمرار . اذ كانوا يقفون عائقا في وجه الامراء لكونهم خاضعين مباشرة للامبراطور .

" وكانت حياة اللذة والترف التي يحياها الاساقفة ورؤساء الاديرة وجيشهم من الرهبان تثير حسد النبلاء وغضب الشعب الذي كان عليه ان يتحمل نفقتها، وكلما ازداد غضب الشعب ازداد التناقض بين عظات رجال الدين وافعالهم " (١)

أما صغار القساوسة والزهاد من رجال الكنيسة فقد كانوا يعيشون بحالة لا يحسدون عليها : يقول انجلز : " اما القسم الثاني من عامة رجال الكنيسة فقد كان يتالف من وعاظ القرى والمدن، وكان هؤلاء يقفون خارج دائرة السلم الاجتماعي الاقطاعي كما لم يكن لهم نصيب في ثرواتها ". (٢)

٣ ـ رقيق الارض : واترك الكلام لانجلز يصور واقعهم السيء المرير .

" فقد كان الفلاحون هم الذين يعولون بقية فئات المجتمع .

الامراء، الموظفون ، النبلاء ، رجال الكنيسة ، الاشراف واصحاب الحرف والتجار، واياً كان السيد الذي يستعبد الفلاح اميرا او بارونا او اسقفا ديرا او مدينة فقد كان الجميع يعاملونه باعتباره شيئا حيوانا لحمل الاثقال أو أقل .

" فاذا كان رقيقا كان تحت رحمة سيده تماما . واذا كان قنا فان الالتزامات القانونية المسجلة في الاتفاق كانت كافية لسحقه ورغم ذلك فقد كانت تلك الالتزامات تزداد يوما بعد يوم . فكان عليه ان يعمل في اقطاعية سيده معظم وقته ، وما كان يكسبه في الساعات القليلة الحرة كان عليه ان يدفع العشور والجمارك والايجار والضرائب للطرق وضرائب (الحروب) والضرائب الامبراطورية والمحلية ولم يكن يستطيع ان يتزوج او يموت دون ان يدفع لسيده .

والى جانب العمل الملتزم به قانونا كان عليه ان يجمع النفايات ويقطف التوت ويلتقط المحار ويسوق الكلاب عند الصيد ويقطع الاخشاب .. الخ لسيده . وكان حق صيد البر والبحر من حقوق السيد فقط وكان الفلاح ينزوي جانبا

---

(١) حرب الفلاحين في المانيا فريدريك انجلز تعريب محمد ابوخضور ص ٣٤ ـ ٣٥ ـ دار دمشق للطباعة والنشر . وفصلت هذا القول في " الطغيان السياسي والمالي الكنسي ـ التمهيد ـ

(٢) نفس المصدر ص ٣٥

فى هدوء ويرقب محصوله يدمر اثناء الصيد ، وكان السادة يغتصبون مراعى وغابات الفلاحين العامة فى كل مكان ، وكان السيد يفرض تحكمه على شخص الفلاح وعلى زوجته وبناته تماما كما يتحكم فى ممتلكاته ، وكان له حق الليلة الاولى ، وكان يلقى بالفلاح فى سجن قلعته عندما يرى ذلك مناسبا ، وكانت آلات التعذيب تنتظر الفلاح هناك تماما كما ينتظر المحقق المقبوض عليهم فى ايامنا هذه . وكان يقتله او يقطع رقبته عندما يروق له ذلك . ولم يكن هناك فصل واحد من الفصول الملهمة فى "الكارولينا" [1] حول "قطع الاذن" و "جدع الانف" و "خرق العين" و "قطع الاصابع والايدى" و "حز الرأس" و "الشد على عجلة التعذيب" و "الحرق" و "اسياخ الحديد المحمى" و "التربيع" اى قطع الجسم ٤ أجزاء ... الخ لم يستعمله السيد الرحيم عندما يريد .. ومن يدافع عن الفلاح ؟ لقد كان يجلس فى المحاكم القسس أو الاشراف أو القضاة الذين يعرفون جيدا لماذا يتقاضون اجورهم . لقد كانت كل الطبقات الرسمية فى الامبراطورية تعيش على ذبح الفلاح " [2] .

وفى الختام . نلخص الواجبات التى كان يقوم بها رقيق الارض للمالك عدا خضوعه المطلق لسلطته وارتباطه المحكم باقطاعيته . وهذه الواجبات هى :

١ ـ يدفع الفلاح ثلاث ضرائب نقدية فى السنة .

٢ ـ يعمل سخرة معظم ايام السنة .

٣ ـ ضريبة على كل سلعة يبيعها فى السوق .

٤ ـ يفتدى سيده اذا أسر .

٥ ـ يدفع جزءاً من محصوله وماشيته

٦ ـ يدفع اجراً على استعمال ادوات المالك فى طعامه وشرابه .

٧ ـ يدفع اجراً للسماح بصيد الحيوان البرى او البحرى .

٨ ـ يدفع رسماً اذا رفع قضية امام محاكم المالك .

٩ ـ ينضم الى فيالق المالك اذا نشبت حرب .

---

(١) كتاب حول التعذيب

(٢) نفس المصدر ص ٤٢ ـ ٤٣

١٠ــ يقدم الهدايا لابن المالك اذا رقى لمرتبة الفارس .

١١ــ لايبيع سلعة الا بعد بيع سلعة المالك نفسها باسبوعين .

١٢ــ يشترى بعض بضائع سيده وجوبا .

١٣ــ يدفع غرامة اذا ارسل ابنه ليتعلم او وهبه للكنيسة .

١٤ــ يدفع ضريبة مع اذن المالك اذا تزوج هو او احد ابنائه من خارج الضيعة .

١٥ــ حق الليلة الاولى . وهى ان يقضى السيد مع عروس رقيقه الليلة الاولى . وكان يسمح له احيانا ان يفتديها باجر .

١٦ــ وراثة تركته بعد موته تكون لسيد الارض

١٧ــ يدفع ضريبة سنوية للكنيسة وضريبة للقائد الذى يدافع عن المقاطعة . " (١)

هذه هى الصورة القاتمة التى كانت ترزح تحت نير ظلمها الطبقات الفقيرة فى اوربا نتيجة لغياب شرع الله عن التطبيق . ولو ان ماركس ورفاقه اكتفوا بتصوير حالة اوربا ولم يعمموا حكمهم على تاريخ العالم كله ـ ومنه تاريخ الاسلام ـ لكان حكمهم صحيحا نسبيا بالنسبة للجاهلية الاوربية ، ولكن العيب جاء الى نظريتهم من انهم درسوا فترة ظالمة فى حياة أمة من الامم وهى اوربا ، واصدروا حكما قاطعا بان البشرية مرت حتما بالظروف التى مرت بها اوربا ولابد لهذه الامم من التطور الى مرحلة ارقى من المرحلة السابقة التى كانت تحياها .

موقف الاسلام من الاقطاع

والذى يكشف زيف هذه النظرية هو تاريخ الاسلام . ولنناقش المقومات الاساسية للاقطاع فى ضوء ماحدث فى الاسلام .

١ ــ التبعية الدائمة : وهذه مسألة لم يعرفها الاسلام قط فى خارج دائرة الرق وقد ذكرت سابقا ان الاسلام شرع العتق وجفف منابع الرق التى كانت موجودة قبله وابقى الباب مفتوحا لرق الحرب رغم انه فتح الابواب التى بواسطتها يتمكن الارقاء من العتق . وأرقاء الارض كانوا لايملكون تركها ولا التحرر من الالتزامات الملقاة على عاتقهم لاصحابها . وهذه هى التبعية المقصودة فى نظام الاقطاع . هذا اللون من التبعية لم يوجد فى الاسلام لان الاسلام لا يعترف

---

(١) مقتطفات منقولة عن قصة الحضارة ١٤ / ٣٠٤ــ ٤٤٧ فصل الاقطاع وعن انجلز حرب الفلاحين ٢٦ــ ٤٤ .

بعبودية أحد لأحد إلا العبودية لله سبحانه وتعالى . واساس البنيان الاقتصادى فى الاسلام لا يقوم على هذه التبعية ، انما يقوم على حرية العمل والتعاون بين الجميع فيما عدا حالة الرق ـ وقد سعى الاسلام بكل الوسائل لتحرير الرقيق من الداخل والخارج . وقد كان بيت مال المسلمين يعول من تقصر به موارده عن الحياة الكريمة ، أو يعجز عن العمل لاى سبب من الاسباب ، ثم ان نظام التكافل بين الاقارب كان يكفي المعوزين منهم . واعم من ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم شدد النكير على الحي الذى يبيت فيه جائع . عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من احتكر طعاما اربعين ليلة فقد برئ من الله تعالى وبرئ منه الله تعالى وايما اهل عرصة اصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى ".(١)

" ومادامت كفالة الدولة موجودة فليس هناك ما يدفع احدا الى استرقاق نفسه لا صحاب الارض وهو يملك الحرية والكرامة ومطالب الحياة الاساسية عن غير هذا الطريق .

" فمن الوجهة الروحية والوجهة الاقتصادية معا منع الاسلام الاقطاع بصورته المعروفة وادرك الناس قبل ان يصبحوا رقيقا للارض فحررهم من وبال الاقطاع ". (٢)

أما الالتزامات التى يلتزم بها الفلاح لسيده صاحب الارض فلم يعرفها الاسلام بل ان فى الاسلام ما يخالف هذه الالتزامات التى كان يقوم بها الفلاح فى اوربا ولنعرضها على ميزان الاسلام .

١ ـ كان الجميع فى ميزان الاسلام الغنى والفقير جنودا لدين الله سبحانه وتعالى وكان الاغنياء يجهزون الفقراء بالسلاح كما فعل عثمان رضى الله عنه فى تجهيز جيش العسرة فى غزوة تبوك ، وكثير من الصحابة الاغنياء رضى الله عنهم ، كذلك .

٢ ـ لم يكن فى نظام الاسلام ما يجبر الفلاح على افتداء صاحب الارض اذا اسر لانتفاء التبعية بينهما ولان الفلاح غير ملزم بالعمل عند صاحب هذه الارض او ذاك

---

(١) مسند الامام احمد بن حنبل جـ ٢ ص ٣٣
(٢) شبهات حول الاسلام ص ٦٨ ـ ٦٩ .

انما الخيار للفلاح فهو يعمل عند صاحب الارض اذا وافقته شروط العمل سواء كان العمل ايجارا او مزارعة، ويترك متى شاء اذا انتهى عقد العمل، لان من اسس الاسلام الوفاء بالعقود، ثم ان فداء الاسرى تقوم به الدولة اولا ٠ فان كان هناك عجز في بيت مال المسلمين وموارده لاتكفي لسد نفقات الدولة فان فداء الاسرى يجمع من الاغنياء اذا لم يستطع الاسير ان يفتدى نفسه بماله الخاص ٠

٣ـ أما الضرائب فلم تفرض في الاسلام على الفقراء بل ان الفقراء يعطون من مال الزكاة وكذلك يعطى الارقاء لمساعدتهم في الحصول على الحرية عن طريق المكاتبة ٠ ولم يعرف الاسلام كثرة الضرائب، بل فتح باب الصدقات امام الناس ورتب عليه الاجر من الله تعالى ، وجعل لولي الامر الحق في ان ياخذ من اموال الاغنياء اذا اقتضت الضرورة ذلك ٠

٤ ـ اما ان يدفع الفلاح لصاحب الارض جزءا من محصوله وماشيته زيادة على نصيبه فهذا امر لا يقره الاسلام، بل ان العكس من ذلك هو الصحيح حيث كان الاغنياء من اصحاب الاراضي هم الذين يعطون الفلاحين جزءا من محصولهم وماشيتهم طيبة بها نفوسهم يتقربون بها لله عزوجل، وكذلك الهدايا كان يقدمها الاغنياء للفقراء حتى في وقت بعد الناس عن تطبيق الاسلام كاملا ٠

٥ ـ اما الالتزامات عن طريق السخرة فهي لم توجد في نظام الاسلام ٠ فلا سخرة ولا خدمة بلا ثمن، وانما هو التزام بين الطرفين متكافئين، فالفلاح حر في اختيار الارض وحر في العمل، فان وجدها صفقة رابحة عمل وان وجدها خاسرة امتنع عن العمل وليس للمالك ان يلزمه بشيء كما ذكرت سابقا ٠

٦ ـ ثم انه كان يبيع سلعة في اي وقت يشاء ٠ وقد حرم الاسلام الاحتكار على الفلاح وصاحب الارض سواء بسواء وفتح باب التجارة للجميع، فليس في نظام الاسلام ان يحبس الفلاح بضاعته حتى تنفق بضاعة صاحب الارض انما التجارة للجميع والذكاء والخبرة في فنون البيع والشراء هي صاحبة الحظ السعيد بعد توفيق الله عز وجل ٠ وكان من نعم تطبيق الاسلام على الجميع انه لم يكن هناك فرق بين امير المؤمنين ورعيته في التجارة والقضاء وغيرها ٠ وهذا امير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب نموذجا رائعا ، يدمر اساس المعاملة الاقطاعية بالنسبة لتاخير الفلاح بيع سلعته حتى يبيع السيد سلعته . عن ابن عمر رضى الله عنه قال : اشتريت ابلا وارتجعتها الى الحمى فلما سمنت قدمت بها . قال : فدخل عمر السوق فراى ابلا سمانا فقال : لمن هذه فقيل لعبد الله بن عمر فجعل يقول ياعبد الله بخ بخ ابن امير المؤمنين . قال فجئته اسعى فقلت : مالك يا امير المؤمنين ؟ قال ماهذه الابل ؟ فقلت ابلا أنضاء [1] اشتريتها وبعثتها الحمى ابتغى مايبتغى المسلمون . قال: فقال ارعوا ابل ابن امير المؤمنين . اسقوا ابل ابن امير المؤمنين . ياعبد الله ابن عمر . اغد على راس مالك واجعل باقية فى بيت مال المسلمين [2] هذه الصورة الرائعة التى سجلها عمر رضى الله عنه الذى عمر الايمان قلبه والذى ابت نفسه عليه ان يستغل اسم امير المؤمنين فى حرمان الرعية فقد فطن الى قول الناس هذه ابل ابن امير المؤمنين ، اخلوا لها الطريق الى الماء والرعى . ولذلك رد الى بيت المال للمسلمين الارباح لانه اعتبر الابل سمنت على حساب المسلمين ، وعلى هذا الاساس فالمسلمون احق بالارباح من ولده عبد الله .

٧ ـ اما الصيد فقد اباحه الله عز وجل فى الاسلام للجميع قال الله تعالى : "احل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما واتقوا الله الذى اليه تحشرون " [3] فلم يكن الصيد حكرا على الاغنياء فى الاسلام دون الفقراء . بل هو مباح للجميع . وفى وقت الاحرام بالحج او فى ارض الحرم يحرم الصيد على الجميع . قال الله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وانتم حرم " [4]

٨ ـ اما التعليم فكان مفروضا للصغير والكبير ، للذكر وللانثى ، للحر والعبد فليس هناك ضريبة على التعليم فى الاسلام .

---

(١) هزال

(٢) الرياض النضرة ج ٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٨

(٣) سورة المائدة اية ٩٦

(٤) سورة المائدة اية ٩٥ .

٩ ـ اما الزواج فقد شرعه الله للجميع ، لا فرق فيه بين الحر والعبد اذا كانا قادرين على الزواج ، بل حث الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين وخاصة الشباب على الزواج المبكر حفظا للاعراض والاخلاق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء " .(١)

١٠ـ اما حق الليلة الاولى لصاحب الارض فلم يعرفها الاسلام . ولم يقرها لانها زنى يقام الحد على مرتكبها . والحد في الاسلام لاتجوز فيها الشفاعة ولاتفرق بين شريف وفقير . عن عائشة رضى الله عنها قالت: ان قريشا اهمهم شأن المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم فيها ؟ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا ومن يجرىء الا اسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلمه اسامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله . ثم قام فاختطب فقال : انما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " .(٢)

١١ـ اما وراثة تركة الفلاح من قبل صاحب الارض فهذا امر لم يقره الاسلام بل جعل نظام الارث محصورا فى الارحام قال الله تعالى "واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله " (٣) . وهذا من فضل الله على الناس " ولكن اكثر الناس لا يشكرون " (٤) .

١٢ـ والاهم من ذلك كله ان شرع الله هو الحاكم وان الناس سواسية امام شرع الله لا فرق بينهم بين فقير وغنى الا بالتقوى . والحاكم فى الاسلام يقوم على تنفيذ شرع الله والناس يطيعون الحاكم لا لشخصه وانما لانه ينفذ شرع الله فان خرج عن شرع الله فلا طاعة للحاكم على رعيته .

---

(١) سنن الدارمى ج٢ ص١٣٢ ، سنن ابى داود ج٢ ص٥٣٨ـ٥٣٩ ، صحيح البخارى ج ٣ ص٢٣٨
(٢) سنن ابى داود ج٤ ص٥٣٧ ـ ٥٣٨ ، صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣١٥
(٣) الانفال ٧٥
(٤) يوسف ٣٨

ثم ان العلماء في الاسلام ليس لهم سلطة روحية كالسلطة الدينية الهشمة التي مارستها الكنيسة لا لتحكم الناس بشرع الله وانما لمآرب شخصية ، بل ان العلماء والامراء والاغنياء والفقراء كلهم سواء في ميزان الله ، وافضلهم عند الله اكثرهم تقوى . والمسلمون كلهم رجال لدين الله ، فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس وقفا على العلماء وانما هو مفروض على جميع الناس . ووظيفة العلماء في الاسلام ان يبينوا للناس امور دينهم . لذلك لم يعرف الاسلام النظام الهشم الذي مارسته الكنيسة على الناس واستغلتهم باسم الدين . فلم تكن هناك عداوة بين الناس والعلماء بل على العكس من ذلك ان الناس كانوا وما زالوا يحتقرون العالم الذي يتاجر بدين الله . وينافق بدينه للحكام وغيرهم ثم ان هذا العالم المنافق معذب عند الله قبل المشركين — والعالم بعلمه لم يعملن . معذب من قبل عباد الوثن . لذلك لم تكن للعلماء امتيازات طبقية لان الاسلام لا يعرف الطبقات ولا يقر وجودها .

وقد كان كثير من العلماء المسلمين يرفضون هدايا الحكام خوفا من الله عز وجل ، ويرضون بمعيشة الكفاف على اكل اموال المسلمين لانهم كانوا يعتبرون هذه الاعطيات من بيت مال المسلمين . وان الحاكم تصرف بها دون استشارة المسلمين او على كره منهم .

اما انحراف بعض العلماء فامر لا يقره الاسلام ، وليس من اساس الاسلام ونحن نتحاكم لا على تصرفات الناس وانما على الاصول التي سار عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه — فالانحراف ليس من طبيعة الدين الاسلامي وانما هو من طبيعة الافراد الذين لا يحكمونه كما انزله الله سبحانه وتعالى .

ويعلق الاستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى على نظام الاقطاع بقوله " ظلت اوربا ترزح تحت وطأة هذا النظام الفظيع حتى نساحت جموع الصليبيين في الشرق واحتكوا بالمجتمع الاسلامي وعرفوا من كثب اوضاع حياة الناس فيه ورأوا نظاما اخر غير ذلك النظام الفظيع .

" رأوا شريعة يتحاكم اليها الناس جميعا . حاكمهم ومحكومهم . غنيهم وفقيرهم ، مالكهم ومعدمهم صاحب الارض والعامل فيها على السواء . شريعة ليست هي ارادة السيد صاحب الارض وليست هي ارادة الامير كذلك . ولا السلطان انما هي شريعة تجيئهم

تجيئهم جميعا من عند الله ويتولى الحكم بها قضاة طالما وقفوا بها في وجه الامـــراء والسلاطين • عندما كان احدهم يبهم بظلم الرعية افرادا أو جماعات • وقد ظهـــر في هذه الفترة بالذات ائمة اقوياء وقفوا مرات في وجه سلاطين المماليك • وكان لوقفاتهم صداها الذى تتناقله الجماهير في الوطن الاسلامي • وتعرفها جموع الصليبيين الذين يحتكون بهذا المجتمع خلال قرنين من الزمان •

" رأوا الناس احرارا لا في الانتقال من مزرعة الى مزرعة ولا في الانتقال من مدينـــة الى مدينة بل في الانتقال خلال الاقطار الاسلامية في اطراف الارض •• اذ كانـــت كلها وطنا اسلاميا واحدا متصلا لاتقوم فيه الحواجز دون افراد المسلمين حـــتى لو تعدد الامراء والسلاطين •

" ورأوا الناس احرارا في اختيار المهن حسب مزاجهم ورغبتهم واختيارهم لايحد مـــن حريتهم في هذا قيد ما •

" وراوا اصحاب الحرف يتجمعون فيما يشبه النقابات حيث يكون لكل حرفة (ريـــس) وتقوم العلاقة بين اصحاب الحرفة الواحدة على التعاون والمودة • وكل هـــذه الظواهر لم يكن لها بعد وجود في المجتمع الاوربي الذى جاء منه الصليبيون •

" نعم انه ربما وجدت بعض الملكيات الكبيرة في المجتمع الاسلامي حينذاك ولكنهـــا لم تكن تنشىء نظام اقطاع كالذى عرفته اوربا لانه لا (شريف) ولا (اقنان " ولاتبعيـــة للارض تلصق " الاقنان " بها • ولا ارادة للسيد هي القانون ! بل القانون شريعـــة من عند الله • " (١)

خاتمة البحـــث

وفي نهاية هذا البحث نستطيع ان نستخلص جملة حقائق منها :

١ـ ان اوربا حين وقعت في الاقطاع لم تقع فيه لانه طور اقتصادى طبيعي لابد ان تمـــر البشرية فيه حتما ارادت ام لم ترد • بل ان السبب الذى جعلها تنحدر اليـــه

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة ص٩٥ ـ ٩٦ •

هو أنها ماعرفت الا دينا محرفا على يد الكنيسة الاقطاعية التي باركت الظلـــم وجدته، ولم يحكم حياة الناس شرع الله الصحيح .

٢ ـ ان الملكية في ذاتها لاتنشىء الاقطاع بصورة حتمية لا ارادة للانسان فيهـــا وانما الذى أنشأ الاقطاع هو طبيعة التملك والعلاقة بين الملاك وغير المـــلاك التي لاتحكمها شريعة الله . فالملكية الفردية وجدت في العالم الاسلامي ولـــم يوجد نظام الاقطاع وذلك لان الاسلام بنظرياته وتطبيقها على حياة النـــاس ينشىء بين الناس علاقات لاتسمح بقيام الاقطاع .

٣ ـ ان الاطوار الاقتصادية التي يرسمها التفسير المادى للتاريخ على انها تاريـــخ عام للبشرية وهي الشيوعية والرق والاقطاع والراسمالية لاتمثل في الواقـــع الا تاريخ اوربا ، ولا تتقيد بها الا اوربا .

واخيرا نسأل الماديين : اين العلمية المزعومة في نظريتكم .. وتاريـــخ الاسلام لا تنطبق عليه حتمياتكم ؟ .

ـــ.ـــ

مناقشة مرحلـــــة الرأسماليـــة

من خلال عرض مراحل التطور في التاريخ البشرى وعند الحديث عن الراسماليـــة رأيته ان الماديين يرجعون اسباب ظهور المرحلة الراسمالية الى النزاع الناشىء بيـــن نمو قوى الانتاج القائمة في النظام الاقطاعي حين اصبح هذا النظام عائقا امـــام تطور القوى الانتاجية الجديدة .

ويصور الماديون المرحلة الراسمالية على انها في بداية ظهورها كانت خيرا عميمـــا للبشرية انطلاقا من نظريتهم في تطور المجتمعات والتي تقول ان الطور الجديد افضـــل وارقى من الطور القديم، ولكن الراسمالية اخذت تستغل العمال والفلاحين لحســـاب مصالحها الشخصية ، حيث تكدست الثروة في ايدى اصحاب رؤوس الاموال وصـــار العامل الذى انتقل من عبودية الاقطاعي الى عبودية صاحب راس المال مضطرا لبيـــع قوة عمله الى البورجوازى كي لا يموت جوعا .

ونتيجة لجرى الراسمالي وراء الربح فانه يسعى الى تحسين ادوات الانتـــاج ليزيد انتاجه، فيزداد الانتاج ويحتاج الى سوق واسعة لتصريف المنتجات، لذلـــك أنشأت الراسمالية لاول مرة نظاما اقتصاديا عالميا وسوقا عالمية واحدة.ويفيـــض الانتاج فيسبب هذا الفيض ازمات اقتصادية سببها ان الانتاج الراسمالي قابل للتوسع السريع ولكنه يصطدم بقوة الجماهير الشرائية المنخفضة والسوق الضيقة لذلك تكسد السلع ويتدهور الانتاج وتنمو البطالة . ولاجل تصريف المنتجات المتكدســـة يبحث الراسمالي عن سوق جديدة لتصريف بضائعه ومن هنا نشأ الاستعمار .

وانا مع الماديين في ان الراسمالية نظام جائر يستغل الافراد ويمتص دمـــاء الفقراء ويثير الفتن . انا معهم في كل سوء صوروا به الراسمالية .

ولكنى اخالفهم في اسباب هذا الظلم الفاحش . فالماديون يرجعون هـــذا الاستغلال الراسمالي الى الملكية الفردية وصراع الطبقات وحتمية التطور لان الظلم عندهم مصاحـــب للملكية الفردية منذ ظهورها .

وانا ارد هذا الظلم الى غياب منهج الله عن التطبيق .

عرفنا فيما سبق ان نظام الطبقات يقوم على اساس ان المالك هو الحاكم والمشرع وطبيعي ان الناس حين يشرعون لانفسهم ينظرون الى مصالحهم الشخصية ومآربهم الذاتية ولا يلتفتون الى مصالح غيرهم . ومن هنا ينشأ الظلم . فالبشر معرضون للخطأ والصواب ، كما ان الهوى الشخصي له أثره الفعال من جانب آخر .

أما حين يحكم شرع الله فان الله سبحانه وتعالى لا يحابى احدا على احد ولا يشرع لطبقة على حساب طبقة اخرى انما الناس جميعا سواسية فى ميزانه هذا هو الفارق بيننا وبين الماديين .

وموضوع المناقشة فى هذا الموضوع هو فى قول الماديين ان مرحلة الراسمالية طور حتمى لابد للبشرية ان تمر فيه طبقا للقانون الديالكتيك العام الذى يقول ان النقيض مولد للنقيض .

والسؤال الذى يوجه للماديين هو : هل كانت الراسمالية ستصل حتما الى ماوصلت اليه من السوء والفساد لو كان شرع الله يحكم حياة اوربا ؟ وهل كانت ستصل حتما الى ماوصلت اليه من الجشع والاستغلال لو ان اليهود المرابين لم يمولوا الراسمالية ؟

دور اليهود فى نشوء الرأسمالية

والباحث المنصف يجب عليه ان يعيد الحق الى نصابه . وان يقف قليلا وهو يدرس تاريخ اوربا حين ظهرت فيها الراسمالية الربوية عند اليهود ليرى اثرهم العميق فى حياة الناس المادية والاخلاقية والدينية وكيف كانت معاولهم تضرب بشدة فى جذور الدين والخير والفضيلة لتقتلعها من اساسها وتزرع مكانها بذور الشر والفساد .

يقول الاستاذ محمد قطب حفظه الله " حين ولدت الالة احتاجت الى المال لادارتها ولم يكن من السهل فى بادىء الامر ان يتحول ملاك الارض الى راسماليين صناعيين لان الالف والعادة لهما حكمهما على النفس البشرية . ولقد كان اصحاب الاقطاع مطمئنين الى الطريقة التى يحوزون بها المال والسلطان ولهم فى ذلك خبرة قرون متوالية والتقاليد صنعها طاغوت الاقطاع وطبقها مئات السنين فصارت عرفا ساريا لابحتمية ذاتية لكن بانصياع الناس له .. بعيدا عن منهج الله .

" وكان لابد من الحصول على المال من طريق اخر غير طريق ملاك الارض ..
وهنا تقدم المرابون ـ اليهود ـ لاقراض العمليات الراسمالية الناشئة . ولم يكن قيام المرابين بالاقراض عملية جديدة أنشأتها الراسمالية . فاليهود هذه صناعتهم منذ فجر التاريخ تجرى فى عروقهم مجرى الدم وقد نهاهم الله عن ذلك فى التوراة فلم ينتهوا وانتشروا فى الارض ينشرون معهم الجاهلية الربوية فى كل مكان ..

" وكان لابد للمرابى اليهودى المقرض ان يضمن دينه ورباه .. كما كان للمقترض لابد له ان يضمن الربح الذى يكفل رد الدين والربا وبقاء قسط من الربح الشخصى بعد ذلك . ومن هنا اتسمت الرأسمالية منذ البدء برغبة الحصول على الربح الفاحش . ومن اهون سبيل ولم يكن ذلك حتمية تاريخية ولا اقتصادية .

" فلم يكن هناك اى مانع يمنع من قيام الراسمالية على تعاون المولين وكان التجار يومئذ فى المجتمع الاوربى يملكون المال السائل الذى يدير الصناعة ـ لو شاء الناس .. لو اهتدوا بمنهج الله الذى يحرم الربا ويفتح الطريق للتعاون النظيف فهى ليست الحتمية .. وانما الانحراف .. انحراف الجاهلية التى لا تعبد الله " (١)

ويقول وليام كار فى كتابه احجار على رقعة الشطرنج فى معرض حديثه عن الحملات الصليبية واعمال المؤتمر المسكونى الرابع المنعقد عام ١٢١٥ م " واصدروا كذلك المراسيم والقرارات للحد من الربا الفاحش الذى كان اليهود يمارسونه بغية تجميع الثروات الواسعة عن طريق الممارسات غير المشروعة وغير الاخلاقية التى كانت تعطيهم امتيازا اقتصاديا على منافسيهم من غير اليهود .

" كما حظرت القوانين على اليهود استخدام المسيحيات فى منازلهم او مؤسساتهم فقد كانوا يغوون تلك الفتيات ويحولوهن الى عاهرات ليستعملوهن فى الحصول على المال والنفوذ . ومنعت قوانين اخرى بعد ذلك اليهود من ممارسة بعض العمليات التجارية . ولكن الكنيسة بكل سلطانها مدعومة بزعماء الدول لم تستطع ان تخضع سادة المال للقوانين . وساهمت تلك القوانين فى اذكاء نار حقد النورانيين على كنيسة

---

(١) جاهلية القرن العشرين ص ١١٠ـ١١١

المسيح وشرعوا فى التخطيط لاضعاف الكنيسة وفصلها عن الدولة • وللوصول الى هذا الهدف اخذ النورانيون يبثون بين العامة فكرة العلمانية واللادينية" (١) •

ويقول فى معرض حديثه عن اعدام الملك شارل الاول عام ١٦٤٩ " لم يكن الانتقام كما يتبادر الى الذهن الهدف الوحيد للمرابين اليهود فى قضية ازالة الملك شارل بل كان هدفهم الاصيل والذى اثبتته احداث التاريخ فيمابعد السيطرة على اقتصاديات انكلترا وعلى مقاليد الامور فيها •

" وكانوا يخططون لتوريط انكلترا فى حروبمع الدول الاوربية ، ذلك ان الحروب تتطلب مبالغ ضخمة من المال مما يضطر الحكام الاوربيين للاستقراض من المرابين اليهود ويستتبع ذلك ازدياد سريع فى القروض الوطنية للدولة الاوربية •

" واذا ماتتبعنا تسلسل الاحداث من مقتل شارل عام ١٦٤٩ الى انشاء مصرف انكلترا عام ١٦٩٤ لوجدنا كيف ان الديون الوطنية كانت فى ازدياد دائم • وتمكن الصيارفة العالميون من جعل المسيحيين ينقضون على بعضهم البعض" (٢) •

وقد ذكر هذا الكاتب الشىء الكثير عن مخططات اليهود التى تمكنوا بواسطتها من الاستيلاء على ثروات العالم وخاصة على اقتصاديات انكلترا وفرنسا وامريكا •

وتعترف البروتوكولات بدورها الفعال فى التخطيط للسيطرة على اقتصاديات العالم " وعلم الاقتصاد السياسى الذى محصه علماؤنا الفطاحل قد برهن على ان قوة راس المال اعظم من مكانة التاج •

" ويجب الحصول على احتكار مطلق للصناعة والتجارة ليكون لراس المال مجال حر وهذا ماتسعى لاستكماله فعلا يد خفية فى جميع انحاء العالم ومثل هذه الحرية ستمنح التجارة قوة سياسية ، وهؤلاء التجار سيظلمون الجماهير بانتهاز الفرص" (٣)

" سنبدأ سريعا بتنظيم احتكارات عظيمة هى صهاريج للثروة الضخمة لنستغرق خلالها دائما الثروات الواسعة للاميين (غير اليهود) الى حد انها ستهبط جميعها

---

(١) احجار على رقعة الشطرنج ص ٥٦ـ٥٧
(٢) نفس المصدر ص ٦٧
(٣) بروتوكولات حكماء صهيون ـ البروتوكول الخامس ص ١١٦ـ١١٧ •

وتهبط معها الثقة بحكومتها يوم تقع الازمة السياسية "(١)

" لقد انتهت ارستقراطية الاممين كقوة سياسية فلاحاجة لنا بعد ذلك الى ان ننظر اليها من هذا الجانب • لكن الاستقراطيين من حيث هم ملاك ارض مايزالون خطرا علينا لان معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بموارد هم ولذلك يجب علينا وجوبا ان نجرد الارستقراطيين من اراضيهم بكل الاثمان • وافضل الطرق لبلوغ هذا الغرض هو فرض الاجور والضرائب •

" ان هذه الطرق ستبقى منافع الارض فى احط مستوى ممكن وسرعان ماسينهار الارستقراطيين من الاممين لانهم ـ بما لهم من اذ واق موروثة ـ غير قادرين على القناعة بالقليل •

" وفى الوقت نفسه يجب ان نفرض كل سيطرة ممكنة على الصناعة والتجارة وعلى المضاربة بخاصة فان الدور الرئيسى لها ان تعمل كمعادن للصناعة • وبدون المضاربة ستزيد الصناعة رؤوس الاموال الخاصة وستتجه الى انهاض الزراعة بتحرير الارض من الربون والرهون العقارية التى تقدمها البنوك الزراعية • وضرورى ان تستنزف الصناعة من الارض كل خيراتها وان تحول المضاربات كل ثروة العالم المستفادة على هذا النحو الى ايدينا •

" وبهذه الوسيلة سوف يقذف بجميع الاممين (غير اليهود) الى مراتب العمال الصعاليك وعندئذ يخر الاممون امامنا ساجدين ليظفروا بحق البقاء •

" ولكى نخرب صناعة الاممين ونساعد المضاربات ـ سنشجع حسب الترف المطلق الذى نشرناه من قبل وسنزيد الاجور التى لن تساعد العمال كما اننا فى الوقت نفسه سنرفع اثمان الضروريات الاولية متخذين سوء المحصولات الزراعية عذرا عن ذلك • كما سننسف بمهارة ايضا اسس الانتاج ببذر بذور الفوضى بين العمال وتشجيعهم على ادمان المسكرات " • (٢)

---

(١) نفس المصدر ـ البروتوكول السادس ص ١١٩
(٢) " " البروتوكل السادس ص ١١٩ ـ ١٢١

مناقشة الشيوعية الثائية

من خلال عرض مراحل التطور فى التاريخ البشرى رايت أن الماديين يقولون ان ملكية وسائل الانتاج الجماعية تؤلف اساس علاقات الانتاج ، وان توزيع المنتجات يتم وفق العمل الذى يقدمه كل انسان ، ويتم تحقيق الملكية الجماعية لوسائل الانتاج بواسطة الثورة الاشتراكية وقيام دكتاتورية البرولتاريا .

وينجم عن ملكية وسائل الانتاج الجماعية مايلى :

اولا : القضاء على الاجور ، لان فائض القيمة يعود الى المجتمع بكامله ، ويوزع بين أعضائه حسب عمل كل عضو .

ثانيا : القضاء على كل امكانية لنشوء الازمات الاقتصادية ، وبالتالى يزول استبداد الرأسمالية لزوال المضاربة بين المنتجين ، وحينئذ يمكن القضاء على الاستعمار وأسباب الحروب .

وتهدف الاشتراكية الى ازالة العقبة الوحيدة التى تعترض طريقها وهى علاقات الانتاج الرأسمالى .

وحتى تقوم الشيوعية لابد لها من المرور بالمراحل التالية :

١ ـ مرحلة الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ثم الى الشيوعية ، وتحتاج الثورة الاشتراكية الى فترة زمنية حتى تتمكن من القضاء على الطبقات المستغلة وتاكيد سيطرة العلاقات الشيوعية .

٢ ـ مرحلة الاشتراكية : وفيها يؤدى المرء حسب طاقاته وياخذ حسب عمله . ولكن اذا لم يصبح العمل بالنسبة للانسان حاجة طبيعية كحاجته للمشى والتنفس فانه ياخذ حسب نوع العمل الذى يؤديه . والفرد لا ياخذ نتيجة عمله كاملا فى الاشتراكية وذلك للاحتفاظ بقسم منها من اجل تنمية الانتاج وتجديد الالات البالية . والمساواة بين الافراد معدومة فى الاشتراكية وذلك لانهم يعترفون بأن نزعة المساواة التى تقوم على قياس الناس بنفس المقياس مستحيلة اجتماعيا لان هناك تفاوتا طبيعيا بين الناس سببه كفاءاتهم البيولوجية والنفسية . اما التفاوت الذى يسعى الشيوعيون لازالته فهو التفاوت الذى ينشأ

من وجود الطبقات ، والعمل سيد الجميع والانسان ياخذ حسب العمل الذى يؤديه لذلك لا يوجد هناك محظوظون ولا مستغلون .

وفى الوقت الذى يقر فيه الشيوعيون بوجود شيء من التفاوت فى الممتلكات فانهم ينفون وجود البطالة واستغلال القوميات واضطهادها .

وتسمح الدولة الاشتراكية بامتلاك قطعة ارض صغيرة وبعض وسائل الزراعة وتسمح بوراثة الملكية الشخصية كالسيارة واغراض البيت .

٣ ـ والانتقال الى الشيوعية يتم عن طريق زيادة الانتاج واذابة الملكيات الكولخوزية فى الملكية العامة وتعميم الثقافة . وحينئذ تطبق القاعدة من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته .

وبعدها يسدلون الستار ولا يحدثوننا عن شيء آخر من النبوءات الغيبية عن الاحداث التى تجرى بعد الشيوعية حيث يقف قانون التناقض عن العمل ويحل محله قانون التعارض .

وقبل الدخول فى المناقشة التفصيلية لمرحلة الانتقال الى الشيوعية لابد من طرح التساؤلات التالية :

ماهو الدليل العلمى على ان البديل الوحيد للخروج من تناقضات الرأسمالية وسياستها الاستغلالية هو الانتقال الى المرحلة الاشتراكية ؟ ثم ماهو الدليل العلمى على ان الانتقال من المرحلة الراسمالية الى المرحلة الاشتراكية حتمى الوقوع ؟

كيف تقررون هذه الحتميات الباطلة وتاريخكم الحديث يكذبها حيث ان روسيا والصين مهد الاشتراكية فى العصر الحديث انتقلتا من مرحلة الاقطاع الى الاشتراكية دون المرور بمرحلة الراسمالية .

ثم ان هذا التفسير المادى الجاهلى للتاريخ لا يفسر تاريخ العالم تفسيرا علميا صحيحا فضلا عن تفسير تاريخ الجاهليات الاوربية . فهذه المانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا

هذه الدول الرأسمالية التى تنبأ ماركس بقيام الشيوعية فيها لاتزال فى مرحلة الرأسمالية • فدعواكم ان الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية حتمى الوقوع منقوض بهاتين الحقيقتين وهما : انتقال روسيا والصين الى الاشتراكية دون المرور بمرحلة الراسمالية ، وعدم انتقال الدول الراسمالية التى تنبأ ماركس بقيام الشيوعية فيها الى الاشتراكية حتى هذه الساعة •

ثم ان الواقع الحاضر يبرهن على ان كثيرا من الناس فى الدول الراسمالية لا يرغبون فى الاشتراكية ، لانها مصدر شقاوة وفساد للبشرية • فالاعدامات البشرية الهائلة وسفك الدماء البريئة من الناس وبخاصة المسلمين(1) فى البلاد الواقعة تحت سيطرتهم وارهاق العمال واذلالهم اذ لالا بشعا اكثر هولا وفظاعة من عصر الرقيق •

ان الجاهلية التى لاتحكم بشرع الله ولاتسير على هديه لاتبالى ان كان الحكم للراسمالية او الشيوعية • لان كلا النظامين طاغوت وليس فى النظامين اى شيء جديد سوى تنوع طريقة الظلم والاضطهاد •

ولما كانت سنة الله لاتتبدل ، وهى: أن الناس حين لايحكم شرع الله حياتهم فان الطاغوت هو الذى يحكم • ولافرق بين ان يكون الطاغوت شيوعيا أو راسمالية • والواقع المعاصر اكبر شاهد على الظلم المرير الذى تمارسه هذه الانظمة الكافرة الراسمالية منها والشيوعية ضد البشرية جمعاء •

نعم سيكون البديل من الرأسمالية والشيوعية دين الله الاسلام حين يعود اتباعه الى منهج الله وتحكيم شرعه فى امورهم كلها ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله(2)

---

(1) وانا اكتب هذا البحث سمعت بالمدوان الشيوعى الاثيم على افغانستان المسلمة ، وتقتيل وتشريد كثير من ابناء هذه البلاد من المسلمين المجاهدين فى سبيل الله ومع ذلك فانهم يزعمون انهم انصار الشعوب التى ترغب فى التحرر والاستقلال. انهم يكذبون لأن اهدافهم واضحة واهمها القضاء على الاسلام عدوهم الاكبر فى الارض • (يريدون أن يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره) التوبة ٣٢

(2) الروم ٤-٥

نعم ان الاسلام هو البديل حين تتعرف البشرية على ربها ، لان الاسلام دين الفطرة الذى يوازن بين متطلبات الفرد ومتطلبات الجماعة ، فلا يطغى فيه جانب على جانب آخر .

الاسلام الذى يأخذ الفرد بمجموعه الكامل ، قبضة من طين الارض ونفخة من روح الله تبارك وتعالى . الاسلام الذى لا يحصر الانسان فى حدود المادية الضيقة فى حدود ماتدركه الحواس . الاسلام الذى يؤمن للفرد متطلبات الحياة من اكل وشرب ولبس وسكن وغيرها ، ويؤمن له اشواق الروح ، ويعتنى بعقل الانسان ويطلق العنان له فى ان يسرح ويمرح فى حدود الكون المادى ضمن المنهج الربانى .

نعم انه لا خلاص للامم من الشقاء الذى تعيشه الا بالرجوع الى كتاب الله تعالى - القرآن الكريم تستمد منه دستور حياتها ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فهمها اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وطبقوها على حياتهم .

-.-

مناقشة العامل الاقتصادي

من خلال البحث تبين لي أن الماديين يركزون على العامل الاقتصادي ، ويعتبرونه العامل المحدد لجميع الاوضاع الدينية والسياسية والفكرية والاخلاقية ، وان جميع هذه الاشياء نابعة من الاساس الاقتصادي ، فهي متأثرة به ، تتغير بتغيره وتتطور بتطوره .

يقول الاستاذ عبد الحميد صديقي : " اننا نتأثر بالهيئة المادية التي تعيش فيها الا ان فكرنا هو الذي يعلمنا ان نغير هذه الهيئة المادية لكي تلائم اغراضنا المختلفة . ان العالم المادي لا يقرر وعينا وانما وعينا هو الذي يقرر الوجه الذي سنستخدم فيه مواردنا المادية . فكل شيء يجب[1] ان يكون موجودا في الفكر قبل ان يمكن وجوده في العمل ، لذا فقوى الانتاج لا تصنع نفسها وانما يصنعها عقل الانسان . فبالرغم من أن الانسان يتأثر بالحياة المادية المحيطة به لا يمكن اعتباره مجرد عجينة لا شكل لها تصب في قوالب الهيئات المادية ، اذ انه يستطيع أن يغير بيئته " [2] . ويرفض بروفيسور جي دي أيج كول ـ الذي يعد من اشد الناس احتراما لماركس ـ أن يعترف بالعامل الاقتصادي على انه العامل الوحيد الذي يقرر الكيان الاجتماعي لاية امة . فهو يقول في كتابه : (معنى الماركسية) :
" من السهل ان نتتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية التي تبنى عليها انواع المجتمعات المختلفة وتنظيمها السياسي واجهزتها الاجتماعية ، وان نرى كيف تغيرت الهياكل السياسية والاجتماعية في الماضي وفقا لتغير الظروف الاقتصادية الاساسية . الا ان من الخطر ان نؤكد على هذا الى حد مفرط في البعد . وليست الحال قط ان المجتمعات التي في مستوى واحد من ناحية اسلوب الانتاج يجب ان يكون لها حتما نفس الانظمة او نفس الاشكال الاجتماعية المماثلة والعلاقات الاجتماعية والمنظمات السياسية والدينية ، او الافكار الخاصة بالقيم والاخلاق . فلقد اظهرت بحوث علم الانسان اشكالا حضارية مختلفة جدا لا يمكن قط ان تفسر تفسيرا اقتصاديا محضا

---

(١) يقصد من هذا التعميم بقوله فكل شيء : انه يريد كل شيء . من انتاج الانسان ، اما ما ليس من انتاج الانسان فهو حتما يخضع للمقادير الربانية .

(٢) تفسير التاريخ ص ١٠١

ان أقصى مايثبته هذا التشابه الذى يتبين لنا وجوده انما هو مجرد الاقتناع بأن الانظمة الاجتماعية تتاثر بالظروف الاقتصادية - لأنها تتعين بها وحدها - ان الاساس الاقتصادى للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة حتى ولو كان اهم عامل " . (١)

" وهنالك ايضا ناحية مهمة اخرى فى النظرة المادية للتاريخ التى جاء بها ماركس . فهو يعتقد ان افكار واتجاهات عصر ما انما هى نتاج مرحلة التطور الاقتصادى التى تم الوصول اليها . ولذلك لا يوجد قانون مطلق او اخلاق مطلقة فى هذا العالم وانما هذه كلها انعكاسات لاسلوب الانتاج . ولكن فى هذه النظرية تناقضا خطيرا فهو من ناحية لا يرى شيئا ابديا ، ومن ناحية اخرى يعرض فكرته عن التاريخ على انها مطلقة " ، وهذا تناقض لم يستطع أحد من تلامذة ماركس ان يزيله ، فنحن اذ نعتقد ان فلسفة عصر ما ناتجة عن البيئة المادية له فهذا ينطبق على الماركسية نفسها لانها هى ايضا انعكاس للعصر الذى عاش فيه . فلابد انه قد كان فى ذهنه ظروف المجتمع فى ذلك العصر ، وكل ما جاء به ربما كان ملائما لزمنه هو ولا يمكن بعد زمانه ذاك ان يكون صالحا للعصور التى تلته . فمع تغير الزمان لابد لفلسفته ان تتغير . ولكن لا يوجد ماركسى مستعد لان يقبل هذا فهم يعتقدون أن نظراته صحيحة فى كل الازمان اى انها قيم دائمة للمجتمع الانسانى لاتتغير " (٢) .

ويقول جون نيف : " منذ أن بدأت ابحاثى التاريخية قبل خمسة وثلاثين سنة وانا معنى باصول (العالم الصناعى) الذى نراه اليوم وكنت واقعا تحت تاثير النظرة السائدة عندئذ فى الدوائر الجامعية - والتى لا تزال سائدة بشكل ربما كان اقوى منذى قبل - وفحواها ان التاليف التاريخى يجب ان يقوم على اساس من الاختصاص ، فبحثت عن هذه الاصول كما فعل كثيرون غيرى فى ميدان التاريخ الاقتصادى فبحثت عنها فيما كان - من احدى النواحى - فرعا ضيقا من ذلك الميدان وهو نشوء (صناعة الفحم البريطانية) ومضى الزمن ادركت ان محاولتى كمختص

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤ نقلا عن معنى الماركسية ص ٥٧
(٢) نفس المصدر ص ١٢٢

بل ومعالجتى كلها لمسألة الاصول بالنظر فى التاريخ الاقتصادى كانت جزئية ،
ثم ادركت ان الالمام بالتاريخ العام لابد منه ان يغير نظرة الانسان الى التاريخ
الاقتصادى . فالتاريخ الاقتصادى كما يعرضه المؤرخون المختصون امثال ارنولد
توينبى الاكبر (اول من شرح فكرة الثورة الصناعية شرحا منظما) بل وكما
يعرضه ايضا كارل ماركس (الذى يعتبر من فلاسفة التاريخ وفيلسوفا مثلما هو مشرع
مذهب) - هذا التاريخ ليس فحسب تفسيرا ناقصا للحضارة الصناعية بل
هو لا يعد تفسيرا جزئيا مرضيا .. " (١)

تراجع الماركسيين عن اهمية العامل الاقتصادى

انه مما لاشك فيه انه لا يوجد سبب مستقل منفصل وفاعل يولد النتائج والظواهر
الثانوية، وانما هناك عدة عوامل مختلفة تؤثر فى بعضها تاثيرات متقابلة وان العامل
الجوهرى اليوم يمكن ان يكون عاملا ثانويا غدا " (٢)

وقد كان موقف الماركسية من العامل الاقتصادى بالذات موقفا منحازا لاعلميا
حيث قدم اصحابها تحليلات لفترات انتقائية من التاريخ فى بيئة ما ، وظنوا
انها كافية للحكم على تاريخ البشرية من خلالها . كما انهم عجزوا عن تفسير
التاريخ كله فى كل البيئات . والتحدى الذى نتحدى به حتى يرث الله الارض ومن
عليها . هذا التحدى الذى يهدم التفسير المادى للتاريخ من اساسه . وهو :
اذا كان العامل الاقتصادى هو الذى يتحكم فى تطور المجتمع فكيف نفسر
ظهور الاسلام ؟ وتاريخ الاسلام لا ينكره عاقل ، لانه لا ينكره الا جاهل او حاقد
مكابر .

وسوف اتعرض لهذا البحث بالتفصيل باذن الله تعالى فى فصل مناقشة موقف
التفسير المادى للتاريخ من الدين . كما سابين ان شاء الله تعالى ان الاسلام
لم ينكر اهمية العامل الاقتصادى فى الحياة البشرية ، وانه ليس العامل الوحيد

---

(١) التاريخ الاسلامى والمذهب المادى فى التفسير ص ٢٣ - ٢٤ . نقلا عن الاسس الثقافية للحضارة الصناعية ترجمة محمود زايد ص ٩

(٢) انظر الماركسية والاسلام ص ١٦ .

الفعال في الحياة البشرية .

ونتيجة لضغط الحقيقة والواقع بدأت المراجعة النظرية فقط من قبل اصحاب التفسير المادي للتاريخ .

يقول انجلز في رسالته الى جوزيف بلوخ في ٢٢ أيلول ١٨٩٠ م :

" ينبغي علينا ، ماركس وانا ، أن نتحمل جزئيا مسئولية كون بعض الشبان يعلقون في بعض الاحيان وزنا اكبر مما ينبغي على الناحية الاقتصادية . فقد كان علينا ازاء خصومنا ان نؤكد المبدأ الاساسي الذي كانوا ينكرونه وفي هذه الحال لم نكن نجد لا الوقت ولا المكان ولا المناسبة لتحديد مكانة العوامل الاخرى التي تساهم في الفعل المتبادل .

" ان العامل المحدد في التاريخ هو في التحليل الاخير وفي منظور التفسير المادي عن التاريخ انتاج الحياة الواقعية واعادة انتاجها ، ولم نؤكد قط لا ماركس ولا انا اكثر من هذا . واذا ما شوه احدهم هذا الموقف وصرفه بمعنى ان العامل الاقتصادي هو وحده العامل المحدد فانه يكون بذلك قد حوله الى جملة فارغة مجردة لاغية .

" ان الوضع الاقتصادي هو الاساس ، ولكن مختلف عناصر البنية الفوقية الاشكال السياسية للصراع الطبقي ونتائجه والاشكال الحقوقية ، بل حتى انعكاسات هذه الصراعات الواقعية في دماغ المساهمين فيها من نظريات سياسية وحقوقية وفلسفية ودينية ـ تمارس ايضا تاثيرها على مجرى الصراعات التاريخية وتحدد في الكثير من الحالات وبصورة قاطعة شكلها " (١) .

أدوات الانتاج ليست هي السبب في تغيير النظام

ومن المؤاخذات الكبيرة على الماديين انهم يرجعون الاسباب التي تؤدي الى تغيير الانظمة الى ادوات الانتاج . والسؤال الذي يطرح في هذا المقام هو

---

(١) الماركسية والايدلوجيا ص ٩٣ نقلا عن المؤلفات المختارة م٢ ص٥٣٥ـ٥٣٧ .

اذا كانت أدوات الانتاج هي السبب في تغيير الانظمة .

فلماذا نجد الانظمة مختلفة في دول اوربا الاسكندنافية عن الدول الراسمالية وعن الدول الشيوعية مع ان ادوات الانتاج واحدة في جميع هذه البلدان ؟ ثم لماذا نجد المانيا البلد الواحد منقسمة الى معسكرين شرقي وغربي ؟ المانيا الشرقية صارت اشتراكية بمجرد استيلاء روسيا عليها ، والمانيا الغربية ماتزال راسمالية مع انها بلد واحد ؟ وهي ــ اى المانيا ــ كلها بلد راسمالي صناعي ..
ثم ان دول اوربا الشرقية حين تطورت من الراسمالية الى الاشتراكية هل تطورت بتطور أدوات الانتاج ام باستيلاء روسيا الشيوعية عليها ؟ ثم في روسيا هل تطورت أدوات الانتاج اولا ثم تطورت العلاقات الاجتماعية والنظام القائم فيها ، ام ان الحزب الشيوعي تسلم الحكم فغير ادوات الانتاج ؟

ان الاوضاع الدولية القائمة في وقتنا الحاضر هي اكبر دليل على فساد هذه القضية لان الملاحظ والمشاهد من واقع الدول وانظمتها ان ادوات الانتاج لاتغير النظام بل ان النظام هو الذي يغير ادوات الانتاج ، مع العلم ان ادوات الانتاج واحدة في جميع الدول التي تسير على انظمة مختلفة .

يقول كاريوهنت : " والعلاقات الاجتماعية التي تؤلف مادة التاريخ في الواقع معقدة الى حد لا يمكن معه ان تكون راجعة لسبب واحد . ولم تشرح لنا المادية التاريخية كيف ان الشعوب التي تعيش في احوال متشابهة من الانتاج تصل الى حضارات تختلف بعضها عن بعض اختلافات بينة ، ولم تشرح لنا كيف ان الدين المسيحي ارتضته أجناس مختلفة بعضها عن البعض الاخر ، كاختلاف الرومان المتحضرين عن السلاف الشبيهين بالبرابرة والايرلنديين . كما لم تشرح لنا أن مذاهب متباينة تجد من بين معتنقيها اناسا تتشابه ثقافاتهم ، حتى ان مؤسسي الاشتراكية وبينهم ماركس وانجلز واغلب زعماء الحركة العمالية في القرن التاسع عشر كان يجب ان يكونوا منتمين للبرجوازية " (١) .

---

(١) الشيوعية نظريا وعمليا ص ٦١ .

ويقول الاستاذ عبد الحميد صديقي : " ولكن اذا كانت اساليب الانتاج تعتبر حقا القواعد الحقيقية التي تقرر كل البنيان الذي يشاد عليها ، والدين جزء من هذا البنيان ، فسنضطر الى أن نصل الى أن أسلوب الانتاج نفسه يجب أن ينتج النوع نفسه من الحركات الروحية ، ونفس النوع من الانظمة ، ولكن الامور في العالم تختلف تماما ، فنحن نجد أن مائة دين ودين تعيش كلها متجاورة في نفس الظروف الاقتصادية ، فاذا كان الدين مجرد انعكاس للظروف المادية التي يعيش فيها الناس فلا مجال لاكثر من دين واحد في وقت واحد . ولكننا نجد ان الاسلام والمسيحية والهندوكية وعشرات الاديان الاخرى تسيطر على عقول ناس يعيشون في نفس الظروف الاقتصادية ونفس النوع من اساليب الانتاج مئات السنين، ولكن هذه القوى رغم كل قوتها اخفقت في ان تصهر هذه الطوائف في كتلة واحدة ، فهم اليوم يختلفون اختلافا كبيرا في الدين كما كانوا يختلفون قبل الاف السنين " (١) .

فساد فكرة الحتمية

يقول ماريت ستانلي كونجدن — وهو عالم امريكي معاصر — في مقال له بعنوان " درس من شجيرة الورد " : " ان العلوم حقائق مختبرة ، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الانسان واوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته واوصافه واستنتاجاته ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود ، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبوء . وهي تبدا بالاحتمالات كذلك وليس باليقين . ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للاخطاء المحتملة في القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية قابلة للتعديل والحذف وليست نهائية . واننا لنرى ان العالم عندما يصل الى قانون او نظرية يقول ان هذا هو ما وصلنا اليه حتى الان ويترك الباب مفتوحا لما قد يستجد من التعديلات "(٢) .

---

(١) تفسير التاريخ ص ١١٠ — ١١١

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص ١٨ .

هذا مايقوله العلم على لسان احد العلماء ٠العلم كله احتمالات لا يقين فيهـا مهما اوتى من دقة التجربة ودقة الالات ٠

والتفسير المادى : رسم خطا حتميا للبشرية لا يمكن ان تتجاوزه وهو ان الناس قد مروا بمراحلة الشيوعية البدائية ثم الرق ثم الاقطاع ثم الراسمالية واخيـرا لابد ان يصيروا الى الشيوعية ٠والاسئلة التى توجه الى اصحابه هى :

ماهو الدليل العلمى على هذه الحتميات ؟ وقد لاحظنا ان تاريخ الاسـلام لم يمر بمرحلة الرق والاقطاع ٠ ثم ان الراسمالية لم تكن حتما ستصل الى ما وصلـت اليه من سوء لولا تدخل اليهود فى الصناعة الراسمالية واحتكارها بواسطـة القروض الربوية ٠ ثم ان العلم الحديث قال بنظرية الاحتمالات ٠ والدليل اذا تطرق اليه الاحتمال سقط به الاستدلال ٠ ان هدف الماديين من الحتميات هو اغفـال قدرة الله وارادته فى تدبير الكون والحياة والانسان ٠

ثم على فرض ان تفسير اطوار البشرية كما فسرها اصحاب التفسير المادى للتاريـخ كلها صحيحة ــ وهى ليست بصحيحة ــ فكيف تكون هذه الاطوار مستقلة عـن ارادة الانسان ؟ اليس الانسان هو الذى امتلك الارض وادوات الانتاج بعـد اذ لم يكن يملك من قبل ؟ هل الارض هى التى فرضت عليه ملك نفسها ؟ ام هـو الذى امتلكها برغبته فى الامتلاك ؟ ومن الذى اخترع الالة ؟ اليس هو الانسان ؟ ولماذا اخترعها بارادته ؟ ام فرضت هى نفسها عليه فرضا وامسكته من خناقه وهزته وقالت لـه اخترعنى ؟ اوليست رغبته هو فى تحسين انتاجه ــ الرغبة الفطرية الكامنة فيـه ــ هى التى جعلته يتعلم ويبحث وينقب حتى اخترع الالة ٠ فعلى فرض ان هذه الالـة هى التى تكتب تاريخ البشرية اليس فيها ارادة الانسان ؟ فكيف تكون الاطوار اذن خارجة عن ارادة الانسان ومستقلة عنها ؟ ٠٠

" ثم من الذى فرض هذه الحتميات على خط سير البشرية ؟ اهى الصورة الوحيدة الممكنة للحياة ؟ او لم يكن من الممكن ان يظل الانسان فى طور الشيوعية الاولـى ابدا ؟ اولم يكن من الممكن ان يظل فى الرق ابدا ؟ وفى الاقطاع ابدا ؟ وفـى

الراسمالية ابدا ؟ اختراع الالة ينقل خطو الانسان خلال التاريخ .. نعم مؤقتا فهل اختراع الالة حتم على البشرية ؟ ومن الذى حتمه ؟ وماهذه العماية عن ذكر الله ؟ ..

" ثم اوليس الله هو الذى خلق الكون ؟ ولم يكن مضطرا ان يخلقه .. سبحانه ... اوليس هو الذى خلق الارض وخلق الانسان وكان من الممكن الا يخلقهما او يخلق الظروف الملائمة لحياة وظهور الانسان ؟ .

ثم .. اذا كان هذا قدر الله .. الذى خلق .. فكيف نقف فى مرحلة معينة ونقول لهذا القدر : لا لست انت !! وانما هى الحتمية التاريخية او الحتمية الاقتصادية او الحتمية الاجتماعية اوغيرها من الالهة المدعاة .

" .. لقد انحرف الناس فى الجاهلية الاوربية الحديثة فى تصورهم للكون وعلاقته بالانسان . ضلوا ضلالات شتى . فمرة يؤمنون بحتمية قوانين الطبيعة لينكروا قدرة الله على المعجزات .. ومرة يقولون ان هذا الكون موجود بلا غاية وكذلك الانسان .. ولاتختلف هذه الحتمية (العلمية) التى تسمى قوانين الطبيعة [1] عن غيرها من الحتميات كلها تضل عن الحتمية الحقيقية الوحيدة فى هذا الكون وهى مشيئة الله .

"وهذه المشيئة المطلقة لا يمكن ان تكون مقيدة .. حتى بمشيئتها فكل قيد مفروض على ارادة الله فهو باطل . فمن الذى يملك ان يفرض ارادته على الله سبحانه الخالق المريد ؟" وارادة الله لا يقيدها الا هو سبحانه وتعالى مستندا الى حكمته قال تعالى " كتب ربكم على نفسه الرحمة " [٢] .

" انما جاءت الفتنة من ثبات السنة الالهية التى جعلها الله لهذا الكون ودوامها مدى الزمان .. ولكن هذا الثبات الذى اوجدته المشيئة الالهية مختارة غير مقيدة وكان رحمة بالكون ورحمة بالانسان .. انه لا يقيد ارادة الله ولا يعجزه سبحانه عن التصرف فى امر الكون . كيف يعجز وهو الخالق المنشىء المريد ؟ .

---

(١) اثبتت فى فصل مستقل ان قوانين المادة لاتنطبق على الانسان . كما أثبت تفرد الانسان عن الحيوان وان للانسان قوانين خاصة به تختلف عن قوانين الحيوان ، وهذان دليلان هامان يهدمان الحتمية الماركسية .

(٢) الانعام ٥٤

لقد قضت مشيئة الله الطليقة سبحانه ٠٠ ان يجرى الكون على سنة ثابتة هى التى سمتها الجاهلية الحديثة " قوانين الطبيعة " نفوراً من ان تسميها باسمها الحقيقى (سنة الله) ٠ ولكن حين يريد سبحانه ان يخالف هذه السنة الثابتة بامره فمن ذا الذى يملك ان يقول له لا ! ان قوانين الطبيعة لا تسمح بالتغير ؟ !

ومن ثم تقع المعجزة مخالفة للسنة الظاهرة الثابتة ٠ وتكون جزءاً من سنة الله كذلك التى هى الحتمية الوحيدة فى هذا الكون ٠ والايمان بالمعجزة لم يمنع كما فهم الجاهلون - من قيام العلم بقوانينه الثابتة ولا من قيام العلم فى ظل العقيدة ، وتقدمه فى كل ميدان فلا تعارض على الاطلاق بين هذا وذاك ٠٠

" لقد قام العلم الاسلامى كله - وهو تراث يشهد للمسلمين بالبروز والتمكن ذلك العلم الذى تولدت عنه كل النهضة العلمية الحديثة فى اوربا وخاصة المنهج التجريبى الذى تقوم عليه كل العلوم الحديثة ٠ قام هذا العلم فى ظلال العقيدة فى ظلال الايمان بالمعجزة بلا تعارض فى قلوب المسلمين وتفكيرهم بالايمان بحدوث المعجزة والايمان بثبوت سنة الله فى الكون - التى يترتب عليها امكان قيام البحث العلمى وتتبع نتائج المشاهدات - لان هذه حقيقة وهذه حقيقة والحق لا يتعارض بعضه مع بعض الا فى العقول الضيقة التى تعجز عن الشمول " (١)

---

(١) مقتطفات من كتاب جاهلية القرن العشرين ص ٦٥ - ٦٩ ٠

الملكية الفردية في ذاتها ليست هي منشأ الظلم

يقول الماديون ان الملكية الفردية قد صاحبها الظلم على مدار التاريخ ، الذى اصبح بعد ظهورها مسرحا لصراع الطبقات ، وظهرت فيه حتما علاقة السيد بالمسود[1] .

والحق الذى لا مرية فيه ان الظلم لم ينشأ عن الملكية الخاصة وانما نشأ عن سوء استخدامها . وذلك انه حين يشرع الافراد لانفسهم ـ حين لا يؤمنون بشرع الله فضلا عن الالتزام باحكامه ـ فانهم يشرعون لمصالحهم الخاصة على حساب الاخرين لان الطبقة المالكة هى الطبقة الحاكمة . وقد بينت فساد هذه القضية فى مناقشة نظام الطبقات ، وركزت على ان الاسلام ليس فيه تشريع لطبقة على حساب طبقة ، وان المالك والحاكم هو الله سبحانه وتعالى ، والناس منفذون لشرع الله بغض النظر عن كون الحاكم فقيرا او غنيا لانه ليس له حق فى التشريع . ومن هنا يبطل الظلم لان الله لا يحابى احدا على حساب الاخرين . فالظلم ناتج عن غياب شرع الله وعن سوء تصرف الناس واستغلالهم للاخرين . وليس نتيجة لظهور الملكية الخاصة . ثم ان الملكية الفردية قد وجدت ولم يصحبها الظلم وذلك فى تاريخ الاسلام . حيث ان التشريع الاسلامى لم يسمح بقيام الاقطاع الذى عرفته اوربا ، كما ان الاسلام حرم الربا الذى هو اساس بناء الراسمالية والذى هو سبب الظلم الذى تعانى منه البشرية اليوم .

يقول الاستاذ محمد قطب : " والاسلام لا يسوء ظنه بالطبيعة البشرية الى الحد الذى يسلم فيه بان الملكية دائما تعنى الظلم والاستبداد . وقد بلغ فى تربيته للنفس الانسانية حدا رفيعا جعل بعض الناس يملكون ومع ذلك " ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة " [2] فيشركون

---

(١) انظر فصل مراحل التطور فى التاريخ البشرى وحتمياته . علاقات الانتاج

(٢) سورة الحشر اية ٩

معهم غيرهم في كل مايملكونه دون ثمن ولا مقابل ولا انتظار لشيء الا رجاء عفو الله ومثوبته " (١) .

يقول الماديون حتى تحقق العدل الشامل ويبطل الصراع لابد من الغاء الملكية الخاصة وتاميم وسائل الانتاج ، لان الغاء الملكية الخاصة عندهم هو السبيل الوحيد للتسوية بين البشر وابطال النزعة الى السيطرة والسلطان . وارد عليهم متسائلا : لماذا كان الغاء الملكية الخاصة هو الوسيلة الوحيدة للخروج من تناقضات الراسمالية ولم يكن مخرجا للمهود يتاً والاقطاع ؟

كما ان السؤال الثاني الذى يطرح هو : هل امكن في الواقع العملي القضاء على الشر ومحوه من الوجود . ؟ هذه روسيا الشيوعية التي الغت الملكية الفردية واممت وسائل الانتاج لتبطل الصراع - الذى لامنشأ له في زعمهم الا التملك الخاص لوسائل الانتاج . - هل استطاعت ان تلغي الصراع . ؟ في مجتمعها الخاص ؟ هذه الشيوعية تتهم (بريا) وتقدمه بتهمة السعي الى السلطان . وهذا (ستالين) يتهم بالدكتاتورية والانحراف عن مبادئ الشيوعية والاثارة والانانية وارتكاب الجرائم بلا وازع ولاضمير . مامعنى ذلك . ؟ معناه ان ابطال الملكية الفردية لم يبطل نوازع الشر في النفوس وان هذه النوازع - في بعض النفوس على الاقل - اعمق كثيرا من وسائل الانتاج .(٢)

الاسلام يتمشى مع الفطرة في قضية الصراع

ان الصراع هو ضرورة بشرية وعلى هذا النحو نفهم قول الله تعالى : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض " (٣) اى لغلب الشر واصبح هو المسيطر على الارض . نعم ان الصراع ضرورة بشرية مادام البشر هم البشر وحياتهم هي هذه الحياة . والخالق سبحانه - قد زود مخلوقاته بضروراتها - ومادام الصراع ضرورة للبشر فقد زود البشر بالقدرة على الصراع ، زودهم بها في اجسامهم وعقولهم وارواحهم وكيانهم كله .

(١) شبهات حول الاسلام ص ٩٢
(٢) انظر في النفس والمجتمع ص ٤٨
(٣) البقرة ٢٥١

فهو اذ اعطاهم اجساما تشتهى وعقولا تفكر وارواحا تحلق ساعية الى النور زودهم كذلك بالقدرة على التوفيق بين هذه جميعا . ولن يقوم التوفيق بينها الا بشيء من الصراع ، شيء من التدافع . حتى لنستطيع ان نقول : انه لولا دفع هذه القوى بعضها ببعض لفسدت النفس . " (١)

وحكمة الخالق سبحانه وتعالى قد اختصت التوفيق بين المخلوقات وضروراتها فجعلت بذرة الصراع موجودة فى داخل الكيان النفسى ما دامت ضرورية لواقع الحياة . وبناء على هذا الامر فان الاسلام يقر فكرة الصراع على اساس انه ضرورة حتمية لازمة لمنع الفساد عن الارض ولايجاد التوازن فى الحياة البشرية . وانه لهذا السبب موجود فى بيئة النفس الانسانية . والفكرة الاسلامية فكرة متوازنة فهى لاتشتط الى اقصى اليمين المتمثل بالغرب الذى تقوم حضارته على الصراع الخالص ، الصراع الدائر بين الافراد الذى لاتحكمه الا الضرورة والصراع بين الامم الذى لا تحكمه الا غلبة الاسلحة .

كما أن الفكرة الاسلامية عن الصراع لاتشتط الى اقصى اليسار المتمثل بالشيوعية التى تزعم ان الصراع ذاته ينشىء الاضطرابات فى المجتمعات البشرية ، لذلك لابد من القضاء عليه حتى تستريح البشرية من ويلاته .

ان الاسلام لا يعتبر الصراع هدفا فى ذاته ولا يقر كذلك انه هو بذاته الذى ينشىء القلق والاضطراب فى حياة البشر . الاسلام يفهم الصراع على انه وسيلة للتوفيق بين المتناقضات ، ووسيلة بعد ذلك لرفع الكائن البشرى عن عالم الضرورة وعن وهدة الشر الى حيث يستطيع ان يحلق سويا متوازنا فى عالم النور . فهو لهذا يوازن الصراع داخل النفس . يوازنه بعنصر الحب . الذى يستطيع ان يوازن عنصر الصراع داخل النفس فيكبح من جماحه ويخفف من حدته او يستانسه فلا يهيج الا حيث ينبغى له ان ينطلق لتحطيم الشر والعناصر التى تقف فى طريق الحب وتمنع البشرية ان تستمتع بظلاله . كما ان الاسلام يوازن مكان الصراع من الكيان النفسى والطاقات البشرية فيعمل على توجيه الصراع بقدر الى الداخل والخارج

---

(١) نفس المصدر ص ٤٨

على السواء في الحدود المعقولة . ان توجيه طاقة الصراع كلها او معظمها الى الداخل ينظف النفس حقا من شهواتها ، ولكنه يقتل نشاطها وينشيء فيها سلبية معيبة تجاه الحياة، سلبية لاتنتج ولاتقاوم الشر حين يقع، ولا تضيف شيئا الى رصيد الحياة الدائم. وكذلك العكس توجيه الصراع الى الخارج ينشيء قوة تنتج وتنشيء جديدا كل يوم، وتتفتح وتتوسع ولكنها تقضي على نفسها بحماقة في نهاية الامر لانها تهمل تنظيف داخل النفس ولا تتعرض لتهذيب الشهوات .(١)

خطأ التفسير المادي للتاريخ في نشوء الاستعمار

يقول الماديون : ونتيجة لزيادة الصناعة وتكدس الانتاج اصبح لابد من تصريف فائض الانتاج . ومن هنا سعت الدول الراسمالية الى الاستعمار لتصريف منتوجاتها ، وفي نظر اصحاب التفسير المادي للتاريخ ان مسألة نشوء الاستعمار مسالة حتمية تاريخية اقتصادية . وهنا تكمن المغالطة . لان الاستعمار لم ينشأ من الراسمالية وفائض الانتاج . والا فما تفسير الاستعمار الروماني الشهير في التاريخ ؟

ان الاستعمار شهوة منحرفة للمجتمع الفاسد المغرور الذي يجد في يده القوة والسلطان . وقد خيل الى الشيوعيين ان الملكية الفردية هي سبب الفساد في الارض ، فنزعت الملكية من الجميع، ولم تفطن الى ان الذي كان قد فسد هو الانسان الذي يجب اصلاحه ، هو الانسان الذي لا يصلح حتى يستقيم على امر الله وشرعه .

ان الماديين يظنون ان العامل الاقتصادي هو الذي يصنع الانسان ، وانه اذا صلح العامل الاقتصادي صلح الانسان من تلقاء نفسه ، ولم يعد الامر في حاجة الى التدخل لان الحتمية الالية التي تسير الحياة بمقتضاها ــ وقد بينت فساد الحتمية ــ سترتب النتائج الحتمية بصورة آلية ويصلح الكون كله ، حين تنزع الملكية من الناس . ويقولون ان هذا علما ، ولكنه حماقة ليس بعدها حماقة .(٢) ان الاستعمار الاوربي سوء ظالم

---

(١) انظر بتوسع حول هذا الموضوع كتاب في النفس المجتمع فصل الصراع

(٢) انظر جاهلية القرن العشرين ص ١١٢ ــ ١١٣ .

ولا نقره بحال من الاحوال . ولكن وجه الخلاف بيننا وبين الماديين يدور حول اسباب نشأته . فهم يردونه الى طبيعة راس المال والملكية الخاصة ، ونحن نرده الى غياب شرع الله عن التطبيق وتشريع الناس لانفسهم على حساب الاخرين . يقول الاستاذ محمد باقر الصدر : " ولكن الواقع ان الاستعمار ليس تعبيرا اقتصاديا عن المرحلة المتاخرة عن الراسمالية وانما هو التعبير العملي بصورة اعمق عن العقلية المادية بمقاييسها الخلقية ومفاهيمها عن الحياة واهدافها وغاياتها . فان هذه العقلية هي التي جعلت الحصول على اكبر ربح مادي ممكن هو الهدف الاعلى بقطع النظر عن نوعية الوسائل وطابعها الخلقي ونتائجها في المدى البعيد . والدليل على هذا من الواقع ان الاستعمار بدأ منذ بدأت الراسمالية وجودها في التاريخ وفي المجتمعات الاوربية بعقليتها ومقاييسها ولم تنتظر حتى تصل الراسمالية الى مرحلتها العليا ليكون تعبيرا عن ضرورة اقتصادية خالصة . فقد اقتسمت الدول الاوربية البلاد الضعيفة في مطلع الراسمالية بكل وقاحة واستهتار . " فالسبب الاصيل والاسبق للاستعمار يكمن في الواقع الروحي والمزاج الخلقي للمجتمع لا في مجرد السماح بالملكية الخاصة لوسيلة الانتاج . فاذا سمح بهذه الملكية في مجتمع يتمتع بواقع روحي وخلق سياسي يختلف عن الواقع الراسمالي ... فليس الاستعمار بمفهومه الراسمالي قانونا حتميا له . "(١)

كما ان فائض الانتاج من جهة اخرى ليس الطريق الوحيد الحتمي لتصريفه هو الاستعمار لان التجارة الطبيعية مثلا كفيلة بتصريفه ، والكف عن انتاجه اصلا كفيل بعدم وجود الفائض الذي يحتاج الى تصريف . ان هذه الحتميات ونتائجها التي اصبحت حتمية في ظل الراسمالية المنحرفة التي لا يقومها ولا يمنعها شيء عن المزيد من الطغيان والظلم والافساد نتيجة لعدم تحكيم شرع الله في الارض ، كان من الممكن جدا ان لا تؤدي الى هذه النتائج الحتمية السيئة لو اراد الناس غير ما ارادوا واتبعوا منهج الله . يقول الله تعالى : " ولو ان اهل القرى امنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ، ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون "(٢)

---

(١) اقتصادنا ص ١٨٦ ـ ١٨٧

(٢) سورة الاعراف اية ٩٦ .

خطأ التفسير المادي للتاريخ في تفسير نشوء الامم

ذكرت في عرض مراحل التطور وحتمياته عند الحديث عن مرحلة الراسمالية ان الماديين يعتبرون الراسمالية هي عصر نشوء الامم ، وان الامة لم توجد قبل الراسمالية ، وذلك لان الشروط الاقتصادية اللازمة لنشوئها كانت ولاتزال معدومة • كما يقولون ان ليس ضروريا ان تتالف الامة من شعب واحد ، فكل الامم الحديثة نشات نتيجة لاتحاد الشعوب المختلفة • والامة نشات عن متطلبات الانتاج الراسمالي وتنشأ على اساسه وهي تنشأ لانها ضرورية من اجل تطور الانتاج الراسمالي •(1)

والسؤال الذي يطرح هو : اذا كانت القاعدة الراسمالية هي التي تنشيء الامم ، اذن فلماذا لاتكون بريطانيا وفرنسا والدول الراسمالية في الوقت الحاضر امة واحدة؟ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لماذا لاتكون الولايات المتحدة الامريكية امة واحدة ؟ ثم ان الباحث في طريقة الماديين في تقسيمهم لاجتماعيات الناس يلاحظ انهم يعتبرون الشيوعية الاولى هي عصر القبائل • ثم تتحد القبائل في اجتماعية واحدة وتتكون الشعوب ونتيجة لظهور الملكية الخاصة وانتقال السلطة الى الاب ، وازدياد عدد السكان وحلول الدولة محل التنظيم الاجتماعي للنظام العشائري •(2)

اذن فطبقا لحتمية التطور لابد للامم ان تتطور من مرحلة القبيلة الى مرحلة الاسرة الى مرحلة الشعوب الى مرحلة الامة •

ولكن الماديين يخرقون هذه الحتمية بانفسهم : " والان وبفضل مساعدة الشعب الروسي والشعوب السوفيتية الاخرى نشات العلاقات الاشتراكية كاملة هناك وقد نفض عنهم الناس في تلك المناطق النائية غبار التخلف الاقتصادي والسياسي • ولقد انقذت السلطات السوفيتية كثيرا من تلك القبائل من الانقراض وهكذا • فان التاريخ ! يثبت امكانية الانتقال من النظام القبلي مباشرة الى الاشتراكية دون المرور عبر المجتمع الطبقي

---

(1) انظر المادية التاريخية ص ٣٤١ ـ ٣٤٢
(2) انظر نفس المصدر ص ٣٢٩

(وبالطبع لا يكون هذا الا عن طريق المساعدة الاخوية للشعوب الاشتراكية)(١)

هكذا يخربون حتمياتهم بايديهم ، ومع ذلك يبررون هذا التخريب بان التاريخ المحتوم عليهمن قبلهم يثبت لهم مايريدون !!

وعلى فرض صحة كلامهم حول نشوء الامم وتكون الشعوب ، فلماذا استمر النظام القبلي ، وماتزال بعض القبائل قائمة الى الان بعد انتقال السلطة الى الاب ؟ .

واخيرا فان تاريخ الاسلام يكشف زيف دعواهم حيث تكونت الامة الاسلامية وشملت معظم الاجناس البشرية تحت راية التوحيد قبل الرأسمالية بما يزيد على احد عشر قرنا . والامة الاسلامية شملت في بداية الامر العرب ثم من دخل في الاسلام من غير العرب . قال تعالى : " ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون "(٢) ، ثم كيف يفسر نشوء الامم تفسيرا اقتصاديا والامة الاسلامية لم تنشأ الا على اساس عقيدة التوحيد ؟ .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩

(٢) سورة الانبياء اية ٩٢ .

خرافة من كل حسب عمله ولكل حسب حاجته

يزعم الماديون انهم باستيلاء الدولة الشيوعية على وسائل الانتاج سيتقدم المجتمع حتى يتحقق التوفير الكامل لكل السلع . ولن يتحقق (مبدأ من كل حسب عمله ولكل حسب حاجته) . الا اذا اصبح العمل بالنسبة للانسان حاجة طبيعية كحاجته للمشي والتنفس . واذا لم يتحقق هذا الشرط فان الانسان سيظل ياخذ حسب نوع العمل الذى يقوم به . وحين يتحقق (مبدأ من كل حسب عمله ولكل حسب حاجته) ستزول الدولة وتتلاشى من الوجود ، ويحفظ جهازها فى متحف الاثار على حد تعبير انجلز .

والسؤال الذى يوجه الى الماديين هو: ماهى الاسس التى بنيتم عليها تصور قيام الانسان بعمله تلقائيا ؟ هل عندكم تجربة من التاريخ الماضى تؤيد دعواكم ؟ ام عندكم من الدراسة النفسية الموضوعية مايثبت ذلك ؟

والحق ان البديهة التى يدركها الانسان هى ان العمل فيه تعب وارهاق للجسم والشيوعيون يرددون دائما انهم سيقصرون يوم العمل ويخففون العبء عن العامل بتخفيض ساعات العمل الى ست ساعات فى اليوم .[1] والانسان يركن الى الكسل ويخلد الى الراحة مالم يدفعه دافع قوى من دين وايمان ، او حافز ذاتى من المصلحة او المنفعة او ضغط مستمر بالحديد والنار ، والاخير لا يستمر طويلا . لان الفطرة الانسانية تثور على الظلم وتلفظه فى النهاية .

" وقد مارس الشيوعيون شتى الضغوط على العمال حين ارادوا ان يسووا بين الناس فى الاجور ، ولكنهم لم يفلحوا رغم الدماء الهائلة التى سفحت من اجل تحقيق النبوءات الماركسية ، ولم تثبت بعد ذلك نبوءة من تلك النبوءات.[2] بل ثبت بما لا يقبل الشك انها مستحيلة على التطبيق " .[3]

---

(١) انظر عرض النظرية فصل مراحل التطور فى التاريخ البشرى .

(٢) سوف اتعرض لنقد نبوءات ماركس بعد قليل

(٣) الشيوعية ولا انسانية ص١٥

لم يستطيعوا ان يسووا بين الناس في الاجور، وتراجعوا الى اباحة الملكية الفردية لاثارة الدوافع الاصلية في النفس الانسانية للانتاج والعمل • ثم اعترفوا ان المساواة بين الناس في الاجور مستحيلة لان بين الناس تفاوتا طبيعيا مرده الى الكفاءات البيولوجية (١)

أما ماتوهم ان العمل سيكون ضرورة كالاكل والشرب فانه خرافة لا يملكون دليلا علميا واحدا عليها، ولولا ان روسيا قد عادت الى تمييز الدخول والسماح بدرجة من التملك لما استطاعت ان تخطو خطوة واحدة • وعلى الرغم من ان الدوافع الفطرية من التمييز والتملك التي تقدمها روسيا لشعبها وهي غير كافية فانها تدعم هذه الدوافع بوسيلتين •

الوسيلة الاولى : استخدام النظام البوليسي والقوة الغاشمة التي لاتعرف معنى الرحمة مع العمال •

الوسيلة الثانية : اثارة التنافس القومي لوجود امريكا بالذات امامها في مجال التنافس وبدرجة أكثر تقدما • لان روسيا تحاول تقليد امريكا •(٢)

يقول الاستاذ محمد باقر الصدر في معرض حديثه عن محو الملكية الخاصة في كل المجالات : " ونحن لا نعرف فرضية اكثر امعانا في الخيال وتجنيحا في افاقه البعيدة من هذه الفرضية التي تعتبر ان كل انسان في المجتمع الشيوعي قادر على اشباع جميع رغباته وحاجاته اشباعا كليا • كما يشبع حاجاته من الهواء والماء • فلاتبقى ندرة ولا تزاحم على السلع ولاحاجة الى الاختصاص بشيء •

" ويبدو من هذا ان الشيوعية كما تصنع المعجزات في الشخصية الانسانية فتحول الناس الى عمالقة في الانتاج بالرغم من انطفاء الدوافع الذاتية في ظل التاميم ـ كذلك تصنع المعجزة مع الطبيعة نفسها وتجردها عن الشح والتقتير وتمنحها روحا كريمة تسخو دائما بكل ما يتطلبه الانتاج الهائل من موارد ومعادن وانهار • ومن سوء الحظ ان قادة التجربة الماركسية حاولوا أن يخلقوا الجنة الموعودة على الارض ففشلوا وظلت التجربة تتارجح بين الاشتراكية والشيوعية حتى اعلنت بصراحة عجزها عن تحقيق الشيوعية بالفعل

---

(١) انظر نفس الفصل السابق •

(٢) انظر مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية والاسلام ص٥٦ ـ ٥٧

كما تعجز كل تجربة تحاول اتجاها خياليا يتناقض مع طبيعة الانسان • فقد اتجهت الثورة الاشتراكية في بادىء الامر اتجاها شيوعيا خالصا اذ حاول لينين ان يكون كل شيء شائعا بين المجموع ، فانتزع الارض من اصحابها وجرد الفلاحين من وسائل انتاجهم الفردية فتمرد الفلاحون واعلنوا اضرابهم عن العمل والانتاج ، فنشأت المجاعة الهائلة التي زعزعت كيان البلاد وارغمت السلطة على العدول عن تصميمها فردت للفلاح حق التملك واستعادت البلاد حالتها الطبيعية الى ان جاءت سنة (٢٨ـ٣٠) فحدث انقلاب اخر اريد به تحريم الملكية من جديد • فاستأنف الفلاحون ثورتهم واضرابهم وامعنت الحكومة في الناس قتلا وتشريدا وغصت السجون بالمعتقلين وبلغت الضحايا على ماقيل ـ مائة الف قتيل ـ باعتراف التقارير الشيوعية واضعاف هذا العدد في تقارير اعدائها • وراح ضحية المجاعة الناجمة عن الاضراب والقلق سنة (١٩٣٢م) ستة ملايين نسمة باعتراف الحكومة نفسها • فاضطرت السلطة الى التراجع وقررت منح الفلاح شيئا من الارض وكوخا وبعض الحيوانات للاستفادة منها على ان تبقى الملكية الاساسية للدولة وينضم الى جمعية (الكلخوز الزراعية الاشتراكية) التي تتعهدها الدولة وتستطيع ان تطرد اى عضو منها متى شاءت »(١)

وعلى فرض تحقيق هذه الخرافة (من كل حسب عمله ولكل حسب حاجته) ما الذى سيحدث ؟ هنا سوف تفاجأ الشيوعية بالحقيقة الكبرى يوم تحقق حلمها الاكبر حين يزداد الانتاج وتوزعه بين الناس بالتساوى • سوف تفاجأ بجوعة الروح بعد ان تشبع الاجساد وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه وهي ان جوعة الروح تبدا بعد اكتفاء الجسد ان لم تبدأ قبل ذلك ».(٢)

مناقشة فكرة زوال الدولة

ان الشيوعية التي وعدت اتباعها بتحقيق الحلم الكبير الذى تخدر به الناس وهو تحقيق (مبدأ من كل حسب عمله ولكل حسب حاجته) وتستغلهم بهذا التخدير في سبيل تحقيق مطامعها الشخصية ، تخدرهم بافيون اخر وهو زوال الدولة

---

(١) اقتصادنا ص ٢١٠ـ٢١١

(٢) انظر في النفس والمجتمع ص ١٨٠

من الوجود ونقل جهازها الى متحف الآثار .

والملاحظة الاولى ان هذه الوعود غيبيات فكيف تسمح الشيوعية لنفسها الايمان بالغيبيات وتحرمه على غيرها وتصف المؤمنين بالغيب بالجمود والرجعية والتخلف ؟

والملاحظة الثانية وعلى فرض ان حلمهم الاكبر قد تحقق بتحول الناس من الاشتراكية الى الشيوعية . والتساؤلات التى تفرض نفسها فى هذا الامر هى : كيف يتم التحول الاجتماعى الذى ينقل الناس من مجتمع الدولة الى المجتمع المتحرر منها اى من الاشتراكية الى الشيوعية ؟ ثم ماهى الطريقة التى يحصل بها هذا التحول الاجتماعى الخطير ؟ اولا : هل هو طريقة ثورية وانقلابية حاسمة كالطريقة التى حدثت فى الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ؟

فان كان التحول يتم عن هذا الطريق الثورى فما هى الطبقة الثائرة على حكومة البرولتاريا ؟ وكما هو معلوم ان الطبقة الثائرة على الحكومة عند الماديين لا تمثلها تلك الحكومة، وانما هى طبقة اخرى غير طبقة الحكومة القائمة . وعلى هذا الاساس فان الطبقة التى سيتم التحول الثورى على يديها الى الشيوعية ليست طبقة البرولتاريا التى تمثل الحكومة الاشتراكية . فهل يريد الشيوعيون ان يقولوا ان الثورة الشيوعية تحصل على ايدى برجوازيين مثلا ؟

ثانيا : ام ان التحول يتم بطريقة تدريجية فتذبل الدولة وتتقلص حتى تضمحل وتتلاشى ؟ فان كان التحول يتم بهذه الطريقة فهذا يخالف قوانين الديالكتيك، لان قانون الكمية والكيفية فى الديالكتيك يؤكد ان التغيرات الكيفية ليست تدريجية بل تحصل بصورة فجائية وتحدث بقفزة من حالة الى اخرى . وعلى هذا الاساس آمن الشيوعيون بان الثورة ضرورية فى مطلع كل مرحلة تاريخية ، بوصفها تحولا انيا . فكيف يعطل هذا القانون عن العمل عند تحول المجتمع من الاشتراكية الى الشيوعية ؟

ثم ان التحول التدريجى كما انه يخالف قانون الديالكتيك الماركسى فانه يخالف طبيعة الاشياء، اذ كيف يمكن ان نتخيل ان الحكومة الاشتراكية تتنازل فى التدريج عن السلطة وتقلص ظلها حتى تقضى بنفسها على نفسها، فى حين ان كل حكومة سابقة فى المراحل الاجتماعية السابقة على الاشتراكية على وجه الارض كانت تتمسك بمركزها وسيادتها الى اخر لحظة من حياتها ؟ !

ثم انا عرفنا ان من ضرورات المرحلة الاشتراكية قيام دكتاتورية الحكومة البرولتارية المطلقة السلطان ٠ فكيف تصبح هذه الدكتاتورية المطلقة مقدمة لتلاشي الحكومة واضمحلالها ؟ وكيف يمهد استفحال السلطة واستبدادها الى زوالها واختفائها ؟

ثم على فرض تحقيق حلم الشيوعية الكبير وهو قيام المجتمع الشيوعي وتحقيق مبدأ (من كل حسب عمله ولكل حسب حاجته) افلا يحتاج هذا المجتمع الى سلطة تحدد هذه الحاجة وتوفق بين الحاجات المتناقضة فيما اذا تزاحمت على سلطة واحدة وتنظم العمل وتوزعه على فروع الانتاج "(١)

يقول الدكتور محمد فتحي الشنيطي في مقال له بعنوان الشيوعية والفلسفة :
" والماركسية حين تتنبأ بالمستقبل تنبوءا مستندا الى اساس علمي تفترض نوعا من الانتاج مختلفا عن الانتاج القائم اليوم، وتفترض انسانا اخر مختلفا عن الانسان الذي نعرفه اليوم ويدعونا هذا الى التساؤل : اذا كان من الممكن تحقيق تقدم اخلاقي بتوجيه الناس الى اكبر قدر من التعاون بتدريب الشباب في ظل النظام الجديد على الابتعاد عن الفردية والاستغراق في العمل الجماعي، فهل في وسعنا ان نسلم بان الانسان الجديد انسان متحرر تماما من النزعات الانانية ؟ الا نتوقع في مجتمع الغد مجتمع الحرية انحرافا والتواء عند انسان يعيش برغبته والثروة العامة بين يديه؟ واذا كان ثمة التواء او انحراف فهنالك امكانية لاستفحال الخطر وتضاعف الضرر بحيث تبرز من جديد العوامل التي تؤدي الى الصراع " (٢)

كذب تنبوءات ماركس

يزعم ماركس وشيعته ان تنبوءاته قائمة على اسس علمية ، ولكن الواقع المشاهد عصف بهذه العلمية المزعومة ، فجاءت وقائع التاريخ مخالفة لتنبوءات ماركس٠ واليكم الامثلة على ذلك :

---

(١) انظر اقتصادنا ص ٢١١ ــ ٢١٢
(٢) الشيوعية اليوم وغدا ص ٧٥ ــ ٧٦

(١) يقول ماركس : " ان انتباه الشيوعيين يتوجه بصورة خاصة نحو المانيا لانها على اعتاب ثورة برجوازية • ولانها ستقوم بهذه الثورة في ظروف تكون فيها المدنية الاوربية اكثر تقدما ورقيا • ومع بروليتاريا متقدمة ناحية اكثر مما كانت عليه في انكلترا في القرن السابع عشر وفي فرنسا في القرن الثامن عشر • فالثورة البرجوازية الالمانية لاتكون بالتالي سوى بداية وتمهيد مباشر لثورة بروليتارية " (١).

واترك الرد على هذه النبوءة الكاذبة لاصحاب كتاب المادية التاريخية " ولقد راى ماركس وانجلس ان الثورة البروليتارية يمكن ان تنتصر فقط عن طريق توحيد جهود البروليتاريا في البلدان الراسمالية المتطورة جميعها في الوقت ذاته، وان انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد يستحيل في مثل تلك الظروف • هكذا كتب انجلس في مبادىء الشيوعية : " ان الثورة الشيوعية لن تكون على الصعيد القومي وحسب وانما ستقوم في كل البلدان المتطورة في ان واحد اي في انكلترا واميركا وفرنسا والمانيا على الاقل " ولقد اكد ماركس وانجلس ان الثورة ليست عملا قصير الاجل وانما هي عصر كامل من المعارك العالمية التي تقوم بها البروليتاريا ضد اعدائها الطبقيين • لقد كانت هذه الموضوعة القائلة انه من أجل انتصار الثورة الاشتراكية ينبغي ان تقوم الثورة في كل البلدان الراسمالية المتطورة في زمن واحد • كانت موضوعة صحيحة بالنسبة لفترة راسمالية ماقبل الاحتكار وتنسجم مع الشروط التاريخية لذلك العصر • لكن الظروف تغيرت في عصر الامبريالية " (٢) •اذن فعلى حد تعبيرهم ان نبوءة ماركس وانجلز عن قيام الثورة الاشتراكية في كل البلدان الراسمالية المتطورة في زمن واحد كانت صحيحة بالنسبة لفترة راسمالية ماقبل الاحتكار • ثم حين شاء الله تعالى ان يخيب ظنهم برأسمالية الاحتكار اصبحت نظريتهم كاذبة ولغاية الان لم تتحول هذه الدول الى الشيوعية • والسؤال الذي يرد عليهم هو : اين العلمية المزعومة في نبوءاتكم العلمية وتغير الظروف يكذبها ؟ ثم هل يصح ان تتنبأوا على امر مجهول غيبي بصيغة الحتمية وانتم لاتملكون منع الظروف من التغير

---

(١) البيان الشيوعي ص ٨٥ـ ٨٦
(٢) المادية التاريخية ص ٣٠٧

كما حدث في مرحلة الامبريالية الراسمالية ؟

وثمة امر اخر وهو : ان روسيا انتقلت الى المرحلة الاشتراكية دون المرور بالمرحلة الراسمالية؟ والمانيا البلد الواحد اصبحت تخضع لنظامين بعد تقسيمها احدهما راسمالي وتمثله المانيا الغربية واشتراكي وتمثله المانيا الشرقية . فلماذا انتقلت روسيا الى الاشتراكية دون المرور بمرحلة الراسمالية ؟، ومرحلة الراسمالية مرحلة حتمية في تاريخ البشر لابد ان يمروا بها على حد تعبيركم.! ثم لماذا بقيت الدول الراسمالية كما هى ولم تنتقل الى الاشتراكية ؟ بل ان المشاهد انها بدأت تتجه الى تحسين مستوى دخل العمال .

(٢) وادعى ماركس ان الثورة تاتي بعد تركيز الصناعات الكبرى في يد قلة من الراسماليين فتصارع القوى الراسمالية القليلة مع الطبقات الفقيرة المحرومة فتندلع الثورة وتتسلم البروليتاريا الحكم ووسائل الانتاج . وقامت الثورة في روسيا لاعن تركيز اقتصادى ولا عن وجود صناعات كبرى في يد قلة من اصحاب المال بل كانت نتاجا مباشرا لنتائج الحرب الروسية اليابانية، يقول كول : لقد كانت الحرب اولا ثم هزيمة ثانيا هما ما اثار لفترة ما جميع السكان تقريبا باستثناء سادة الاراضي والموظفين والمخلصين من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الى المطالبة باصرار بتغيير جذرى . ولكن لم يكن معروفا ماهو التغيير المطلوب .. " (١)

(٣) ومن نبوءات ماركس الزائفة قوله ان العالم يسير في الصناعة والتجارة نحو الاحتكار بحيث ياكل الاقوياء ضعاف الملاك ، وان هذا الاحتكار يستمر ويطرد في جميع الصناعات وينتهى ذلك الى الغاء الملكية الفردية ، ومن العجيب ان روسيا سمحت بالملكية الفردية في بعض الاشياء كالسيارة والبيت وادخار بعض المال في البنك . كما تنبأ بازدياد تمركز رؤوس الاموال عن طريق الاحتكارات . ولكن الذى حدث كان اتجاها الى تفتيت رؤوس الاموال عن طريق الشركات المساهمة وتفتيت الملكيات الزراعية من تلقاء نفسها عن طريق الميراث. (٢)

---

(١) الدولية الثانية ص٦٠ نقلا عن التضليل الماركسي ص١٠٨

(٢) انظر هزيمة الشيوعية في عالم الاسلام ص ٥٨ ــ ٥٩ والماركسية والاسلام ص١٢ ــ ١٣

(٤) تنبأ ماركس باتساع شقة الخلاف بين البرجوازية والبروليتاريا في الدول الراسمالية بشكل مضطرد الى ان يتفاقم الوضع الى ثورة تقلب النظام الراسمالي كله ٠ ولكن الذي حدث في المجتمعات الراسمالية كان العكس وهو مزيد من التقارب بين الطبقات نتيجة لقيام الدول الراسمالية بسلسلة من الاصلاحات والانشطة النقابية في حين انطلق الصراع وتفاقم من دول العالم الاشتراكي نفسه كما حدث بين روسيا والصين ورومانيا ويوغوسلافيا والمانيا والمجر وبولندا (١)

بعد هذا أسأل اين العلمية المزعومة في تفسيركم المادى للتاريخ وقد كذبت تنبؤات ماركس التي تزعم انها مبنية على اساس علمي ؟ " بل هو كذاب أشر " . (٢)

—٠—

---

(١) انظر الماركسية والاسلام ص١٢

(٢) القمر ــ ٢٥

التراجع والترميم

من الملاحظات الهامة التي ينبغي على الكاتب أن يأخذها بعين الاعتبار هي التراجعات والترميمات التي توالت على الفكر الماركسي ليرى قيمة هذا الفكر من الناحية العلمية .

في حين يزعم ماركس ان العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد المحدد لجميع الاوضاع السياسية والقانونية والدينية والاخلاقية نجد ان انجلز يزعم نظريا انه هو وماركس لم يؤكدا الى على اهمية العامل الاقتصادي ولم ينكرا دور الافكار وتاثيرها على مجرى الاحداث التاريخية .(١)

يقول جورج طرابيشي : " بيد أن مؤسسا الاشتراكية العلمية فوجئا في اواخر حياتهما بان الماركسية نفسها مهددة بان تتحول الى ايدلوجيا بان تنحط الى مذهب يزعم المعرفة المطلقة ويحل نفسه محل الواقع . ومن هنا ارتفع صوتهما بالتحذير . قال ماركس بعبارته المشهورة : " كل ما أعرفه هو انني لست ماركسيا " . وندد انجلز بـ " التلاميذ " الذين اذلوا الماركسية الى اورثوذكسية متشنجة ينبغي على العمال ان يتجرعوها وكأنها عقيدة دينية .. " وبلا كلل ، راح انجلز ومن بعده لينين يردد : " ان نظريتنا ليست عقيدة .. عقيدة ينبغي حفظها وترديدها ميكانيكيا . انها دليل للعمل .. ونظرية للتطور ".(٢)

وما دام ان ماركس وانجلز قد خشيا على نظريتهما ان تنقلب الى مذهب يزعم المعرفة المطلقة، فلماذا انكرا وجود الله تعالى وهما يزعمان انهما لا يملكان المعرفة المطلقة ؟ ولماذا قالا بحتمية التطور وصراع الطبقات كذلك ... ؟ .

يقول جورج طرابيشي : " بيد أن هذه التحذيرات "(٣) ذهبت الى حد كبير ادراج الرياح .فقد عرفت الماركسية انحطاطها الايدولوجي الاول على ايدي (الماركسيين الارثوذكسيين " من فرسان الاممية الثانية وخلفائهم من الاشتراكيين ـ الديمقراطيين

---

(١) انظر الماركسية والايدولوجيا ص٩٣

(٢) نفس المصدر ص١٥٠ نقلا عن كوستاس باباپانو (الايدولوجيا البارية) منشورات ج ٠ج بوفير هولندا ١٩٦٧م ص ٢٦

(٣) يقصد بتحذيرات ماركس وانجلز ولينين السابقة .

ثم عرفت ـ بعد حقبة من التطوير اللينيني المهدم ـ انحطاطها الايديولوجي الثاني على ايدى الستالينيين .. ولكن ماذا نعني بالانحطاط الايديولوجي للماركسية " ؟

" ان ماركس ايستمان الذى كان في يوم من الايام ماركسيا يجيب على جزء من هذا السؤال فيقول : " لقد تحولت الماركسية التي تزعم العلمية الى لاهوت بيزنطي تفرغ معها ونشأ حول كتب ماركس وانجلز ولينين وبليخانوف المقدسة .(١)

أما جان بول سارتر فقد حاول ان يفصل قليلا في الاجابة فقال :

لقد اصيبت الماركسية منذ أن تحولت الى عقيدة رسمية بتصلب في الشرايين، بتيبس توقفت كفت عن أن تعرف شيئا جديدا تكاسلت صار همها لا الوصول الى معلومات ومعارف بل تاسيس نفسها قبليا على انها مطلق ، علم مطلق يعرف سلفا النتائج التي سيفضى اليها التحليل . " (٢)

" ان التباشير الاولى لانحطاط الماركسية الى ايديولوجيا بالمعنى المرذول ظهرت في ايام لينين بالذات عندما حاول لوناتشارسكي كبير مثقفي الحزب ان يؤسس الاشتراكية دينا جديدا للبشرية ، وان يحول " أبانا الذى في السموات " (٣) الى صلاة شيوعية : " ليتقدس اسمك ايتها البروليتاريا لتكن مشيئتك ، ليكن ملكوتك .. "

" وظهرت ايضا عقب وفاة لينين عندما اسست عبادة شخصه ونصبت له الاصنام وحنطت جثته على نحو ما كان يفعل الفراعنة .

" بيد ان خطر الانحطاط بات يبعث على القلق حقا من اللحظة التي اصبحت فيها مؤلفات ماركس وانجلز ولينين بالذات عرضة لمقص الرقابة . فقد صدرت الاوامر بوقف العمل بمشروع ريازانوف لطبع المؤلفات الكاملة لماركس وانجلز وصدرت اوامر مماثلة بتقليص حجم (المؤلفات الكاملة) للينين فجاءت الطبعات الاولى والثانية والثالثة مشوهة ناقصة محرفة ، مليئة بالحواشي المغرضة .

---

(١) نقلا عن نديم البيطار الايديولوجيا الانقلابية ـ المؤسسة الاهلية ـ بيروت ١٩٦١ ص ١٠٦

(٢) سارتر: مسالة منهج في نقد العقل الجدلي ـ غاليمار ـ باريس ١٩٦٠ ص ٢٥ ـ ٢٩

(٣) اصطلاح للنصارى وليس للمسلمين .

" ويقدر معهد ماركس ـ انجلز ـ لينين ـ التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي عدد النصوص اللينينية التي اسقطت من الطبعتين الثانية والثالثة بـ ٥٠٠ نص وبالرغم[1] من ان المعهد المذكور قد وعد بان تكون الطبعة الرابعة (اكمل طبعة للتراث الادبي الذي خلفه لينين)[2] قد اعلن بعد انجاز الطبعة الرابعة في خمسة وثلاثين مجلدا ان المؤلفات الكاملة ماتزال غير كاملة ، وان هناك نصوصا وردت في الطبعة الثالثة واسقطت من الطبعة الرابعة بالذات وانه من الضروري اضافة مجلدات خمسة بكاملها "[3] .

" وحتى مؤلفات مؤسس الاشتراكية العلمية لم تخل من مثل هذا التحريف ـ فمعهد ماركس ـ انجلز ـ لينين ـ ستالين لم يجد رادعا من ضمير علمي في ان يسقط من مؤلفات ماركس وانجلز كل مايمكن ان يتعارض مع الماركسية بعد انحطاطها الى لاهوت وايديولوجيا ـ فمادامت الاسطورة المنحطة للماركسية تزعم ان هذه الاخيرة هي علم القوانين الموضوعية لتطور الطبيعة والمجتمع معا ، فان المعهد المذكور لايجد حرجا في ان يحذف من طبعة الايديولوجيا الالمانية على سبيل المثال يعلن فيه ماركس وانجلز بكل وضوح " نحن لانعرف سوى علم واحد هو علم التاريخ "[4] (٥٥٤)

---

(١) والصواب على الرغم .

(٢) مقدمة الطبعة الرابعة من المؤلفات الكاملة للينين المجلد ١ ص٧

(٣) مقدمة المجلد ٣٦ من المؤلفات الكاملة ص٧

(٤) وتتمة الكلام المحذوف: " اننا نعرف علما واحدا فقط الا وهو علم التاريخ . ويستطيع المرء ان ينظر الى التاريخ من طرفين وان يقسمه الى تاريخ الطبيعة وتاريخ البشر وعلى كل حال فالطرفان غير منفصلين : فتاريخ الطبيعة وتاريخ البشر يشرطان بعضهما بعضا ما وجد البشر وان تاريخ الطبيعة المسمى العلوم الطبيعية لايعنينا هنا . لكنه لابد لنا ان ندرس تاريخ البشر مادامت الايديولوجية بكاملها على وجه التقريب ترتد اما الى تفسير خاطىء للتاريخ واما تؤدي الى تعليقه كلية . فليست الايديولوجية بالذات الا مظهرا ـ واحدا من مظاهر التاريخ " الايديولوجية الالمانية جـ١ ص ٢٢

(٥) الماركسية والايديولوجية . مقتطفات من ١٥٠ ـ ١٥٤ .

ويقول كاريوهنت : " قد ادت الشيوعية الحربية في الفترة بين ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ م الى انهاك قوى روسيا الى حد اضطر معه لينين الى العودة الى أساليبه الخاصة واطلق عليها (السياسة الاقتصادية الجديدة) وهى وسيلة استنكرها كثيرون من أتباعه ووصفوها بانها (رجعية) وقد بررها هو بسبب واحد هو الضرورة القصوى .

" ولكن الماركسيين اليوم يرون ان تلك الاعتراضات التى قامت في ذلك الوقت كشفت عن القصور عن فهم الجدلية ، وان السياسة الاقتصادية الجدلية كانت النقيض الجدلى للشيوعية الحربية . وتعتبر سياسة ستالين منذ عام ١٩٢٤ ومابعده بمثابة تآلف النقيضين . وهكذا تتحول هزائم الشيوعية الى انتصارات "(١) .

(٢) ثم ان الماركسيين الذين أقاموا نظريتهم على اساس الغاء الملكية الفردية تراجعوا عن هذا القرار وسمحوا بنوع من الملكية الخاصة حين اشتدت مقاومة الفلاحين لهم والتى ذهب ضحية هذه المقاومة مايزيد عن ستة ملايين شخص وخاصة من المسلمين ".(٢)

(٣) وحين راى الماركسيون ان الانتاج بدأ يضعف ـ الى حد جعل روسيا تستورد المواد الغذائية وخاصة القمح من الدول الراسمالية ـ نتيجة لقتل الحافز الشخصى . تراجعوا في نهاية الامر وشجعوا الحافز الفردى .

(٤) وحين اشتد الضغط على روسيا في الحرب العالمية الثانية لجأت الى اثارة نعرة القوميات وتشجيع الاديان المحرمة في دستورهم وهى الاسلام على وجه الخصوص والنصرانية . ثم عادت الى محاربتها من جديد .

(٥) ونلمس التراجع الواضح عن السياسة الماركسية الثورية العنيفة بنظرية التعايش السلمى المصطنعة التى تزعمها الشيوعية لنفسها . " ان العمليات الداخلية في البلدان الراسمالية ستؤدى حتما الى قلب النظام الراسمالى واستبداله بالنظام الاشتراكى ومن أجل هذا ليس ثمة داع للحرب . ان كل شعب حر في أن يختار (٣) هذا النظام او ذاك وفقا لارادته ومع تطور النظام الاشتراكى ستنمو

---

(١) الشيوعية نظريا وعمليا ص ٣٢ـ٣٣

(٢) راجع كتاب الاسلام في وجه الزحف الاحمر وكتاب الصنم الذى هوى

(٣) اين الحرية التى تركها الغزو السوفياتى لشعب افغانستان المسلم في اختيار النظام الذى يريده ؟

الرغبة لدى كل الشعوب [1] من أجل اقامة النظام الاشتراكي .. لكن الامر هـو أن بناء الشيوعية بحاجة الى السلم حاجة الانسان الى الهواء . وانه يمكن للشيوعية أن تنتصر في العالم اجمع بدون الحرب " [2] .

هذه جملة من المبادئ والافكار التي تراجع الشيوعيون عنها تهدم العلمية المزعومة في التفسير المادي للتاريخ من اساسها ومن اراد التوسع فليراجع الكتب التالية : الصنم الذي هوى . الشيوعية والانسانية . منعطف الاشتراكية الكبير بديل الهديل الماركسية والايديولوجيا .

---

(١) بخلاف المسلمين الذين تنمو الرغبة عندهم كل يوم الى اقامة حكم الله في الارض . ولكن الطغاة يضعون العراقيل في طريقهم .

(٢) المادية التاريخية ص ٢٥٢ .

الفصل السابع

مناقشة موقف التفسير المادى للتاريخ من الدين

****

محاربة الشيوعية للاديان

تسعى الشيوعية جاهدة بكل الوسائل العملية والفكرية للقضاء على الاديان ـ وبخاصة الاسلام ـ فقد شنت الشيوعية حربا لا هوادة فيها ضد الاديان ـ ماعدا الدين اليهودى ـ فى البلاد التى وضعت اقدامها فيها ، ومارست شتى وسائل الضغوط الفكرية والمادية لتحقيق اهدافها ، فاغلقت المساجد والكنائس ، واعدمت العلماء المسلمين ورجال الدين النصرانى . وقتلت الملايين من المسلمين وغيرهم ، وشتت الملايين من ديارهم واهلهم ، ونفت كثيرا منهم الى مجاهل سيبيريا[١] . وفى هذه الايام نرى ونسمع عن الغزو الشيوعى الوحشى لافغانستان المسلمة ، وبتقتيل المجاهدين المسلمين لانهم يدافعون عن عقيدتهم وارضهم .

كما فرضت روسيا الشيوعية الالحاد على شعبها ، وعلى الشعوب التى تسير فى فلكها ، ومنعت تدريس الدين فى المدارس ، وفرضت عقوبات السجن على كل من ينشر تعاليم الدين بين من هم دون سن البلوغ .

وتنص المادة (١٢٢) من الجنايات المذكور على تحريم تلقين الاطفال الاحداث العقائد الدينية سواء فى مدارس الحكومة او المدارس الخاصة او المعاهد التعليمية المختلفة ، وجعلت كل مخالفة فى هذا الشأن جريمة تستوجب الحبس الاصلاحى مع الاشغال مدة لا تزيد على سنة " .

ويقول الاستاذ محمد سامى عاشور : " ان هذا الاضطهاد قائم رغم ماجاء فى الدستور السوفييتى بشأن الحرية الدينية ، لان هدف الشيوعيين الذى لا يحيدون عنه ان يحرموا الدين من اسباب الحياة ، وان يدعوه يذبل وينتهى وكأنه مات ميتة طبيعية "[٢] .

---

(١) انظر الاسلام فى وجه الزحف الاحمر فصل المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (ص ١٠٧) ومابعدها ، وكتاب هزيمة الشيوعية فى عالم الاسلام (ص ١٤ - ١٦) ، الهلال الشهيد (ص ٥٣) ، وكتاب الافعى اليهودية فى معاقل الاسلام (ص ١١٠ - ١٢٠) .

(٢) نفس المصدر الاول (ص ٢٦) .

اسباب محاربة الشيوعية للدين

(١) يؤكد الباحثون ان معارضة الشيوعية للدين وحربها القاسية التى شنتها عليه، تعود الى النفسية اليهودية التى تسعى جاهدة الى تحقيق استعلاء شعب الله المختار، ولا عجب اذا كانت الشيوعية نتاج يهودى ومعظم زعمائها من اليهود .

يقول البروتوكول الثالث : " اننا نقصد ان نظفر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين، ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين باننا نساعد العمال طوعا لمبدأ الاخوة والمصلحة العامة للانسانية، وهذا ماتبشر به الماسونية الاجتماعية"[(١)] .

واليهود قوم معروفون بالحقد والكراهية للاديان الاخرى ومجبولون على الطمع والجشع وحب المال والفساد، فهم ينتهزون كل فرصة لافساد الناس وابعادهم عن الدين القويم، حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الرامية الى هدم عقائد الناس وافساد اخلاقهم، وبالتالى يسوسون الناس كما يريدون . والشيوعية من اهم الاسلحة التى استخدمها اليهود فى مخططاتهم[(٢)] .

(٢) والشيوعية جاءت بوصفها عقيدة او دينا - يحل محل الاديان القديمة ويحتقرها، ويناهضها بالدعوة الى الالحاد والمادية التى تنكر الله تعالى ورسله .

هذه الحرب العملية التى شنتها، وماتزال تشنها الشيوعية على الاديان لا سبيل الى مقاومتها الا بعودة الشعوب، وبخاصة الاسلامية الى

---

(١) بروتوكولات حكما صهيون (ص ٢٣) .

(٢) ومن اراد التوسع فى معرفة صلة اليهود بالشيوعية فليراجع كتاب بروتوكولات حكماء صهيون، والشيوعية وليدة الصهيونية المعطار، وهزيمة الشيوعية فى عالم الاسلام، والافعى اليهودية فى معاقل الاسلام .

دينها ، فتحكمه فى واقع حياتها ، وترفع راية الجهاد فى سبيل الله .

وقد شنت الشيوعية حملة فكرية على الاديان - فقد وصفوا الدين بأنه مخدر ، وانه وهم وخرافة ، وان المتدين رجعى متخلف جاهل ، والملحد تقدمى متحرر - حتى تبرر حربها العملية على الاديان واتباعها . واليكم طائفة من مفتريات الشيوعية على الدين ومناقشتها .

اولا : هل الدين مخترع بشرى ؟

يحتل الدين جزءاً بارزا من تفكير الانسان ، وقد لعب لاجل هذا دورا فعالة فى تكوين العقلية الانسانية وبلورتها ، فلابد لاصحاب التفسير المادى للتاريخ - وقد استبعدوا عن تصميمهم المذهبى كل حقائق الدين الموضوعية من وجود الله وقدرته والوحى والنبوة ، ان يصطنعوا للدين وتطوراته تفسيرا ماديا وبالفعل فقد فسروا الدين تفسيرا ماديا ، فقالوا ان الدين نشأ نتيجة لعجز الانسان القديم واحساسه بالضعف بين يدى الطبيعة وقواها المرعبة ، وجهله باسرارها وقوانينها(١) . ولكنهم وجدوا ان هذا القول يشذ عن قاعدتهم الاساسية التى انطلقوا منها ، وهى ربط الدين بالعامل الاقتصادى القائم على اساس الانتاج الذى يجب ان يكون هو المفسر والسبب الوحيد لكل مايحتاج الى تفسير وسبب ، فاخذوا يفتشون عن السبب الاصيل لنشوء الدين من خلال الوضع الاقتصادى للمجتمع ، حتى وصلوا الى ضالتهم المنشودة فى التركيب الطبقى للمجتمع ، وعلى الرغم من اتفاق الماركسيين على نقطة واحدة هى ان الدين حصيلة التناقض الطبقى فى المجتمع ، لكنهم يختلفون فى الطريقة التى نشأ فيها الدين عن هذا التناقض . لذلك اجدهم يقولون ان الواقع السيء الذى تعيشه الطبقات المضطهدة فجر فى ذهنيتها البائسة الافكار الدينية ومنها تستمد سلوتها عن البؤس الذى تحياه(٢) ، وعلى هذا الاساس فالطبقات

---

(١) انظر الفصل الخامس - التفسير المادى للتاريخ والدين .

(٢) انظر نفس الفصل .

المضطهدة البائسة هى التى اخترعت الدين لنفسها - على حد زعمهم - ومرة اخرى اجدهم يقولون : ان الدين هو الافيون الذى تسقيه الطبقة الحاكمة المستغلة، للطبقات المظلومة المضطهدة، كى تنسى مطالبها ودورها السياسى وتستسلم الى واقعها السىء . وعلى هذا الاساس فالطبقات الحاكمة هى التى اخترعت الدين .

وتكمن المغالطة الشيوعية فى قولهم ان الدين مخترع بشرى ، ولا يقدمون اى دليل علمى على هذه الدعوى ، وحسبى لبيان فسادها ان ابين مايلى :

(١) برهنت مناقشة ازلية المادة وابديتها ان المادة مخلوقة من مخلوقات الله تعالى ، وانها حادثة بارادته ، والكون ومافيه مخلوق له سبحانه وتعالى ، خلقه بحكمته وارادته . وكان من مقتضى حكمته سبحانه وتعالى ان لا يترك خلقه هملا دون رعاية وعناية ، فغرس فى نفوسهم التدين والتوجه اليه بالعبادة ، لانه خلقهم لعبادته ، ثم ارسل اليهم الرسل ليوجهوا انحراف فطرهم .

(٢) فطرية التدين :

ان فكرة التدين من حيث هى غريزة واصيلة فى فطرة الانسان ، وان علماء الاديان قد اتفقوا - الا من شذ منهم - على ان التدين امر طبيعى فى النفوس، وانه امر جبلى مركوز فى نفوس الناس . وليس هناك من دليل واحد يثبت انها تأخرت عن ظهور الانسان على هذه الارض . وان التدين بمعنى الخضوع والتذلل لكائن اعلى ، او الخوف من كائن ما ، ومحاولة ارضاء هذا الكائن بالخضوع والتذلل له امر غريزى ، او امر يكاد ان يكون متفقا عليه بين علماء الاديان .

يقول معجم لاروس للقرن العشرين : " ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الاجناس البشرية ، حتى اشدها همجية ، واقربها الى الحيوانية .. وان الاهتمام بالمعنى الالهى وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية " . ويقول هنرى برجسون : " لقد وجدت وتوجد جماعات

انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة"[1].

وبناء على هذا فان التدين امر فطرى ، غرسه الله فى نفوس البشر ، كما غرس فى فطرتهم حب الحياة وحب الشهوات ، وعلى هذا الاساس فان قول الماديين ان الدين مخترع بشرى لا يستند الى دليل علمى . كما ان الماديين لا يقدرون ان ينفوا ان الانسان مفطور على التدين ، بغض النظر عن طريقة التدين ، فهى تكون ضالة حين لا تلتزم بشرع الله ، وتكون مهتدية حين تسير على هدى الله .

يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب : " ان الفطرة البشرية تتجه الى الله من تلقاء ذاتها بغير كتاب منزل ولا رسول .. فلقد اودع الله فيها هذا التوجيه بطريقة لا نعلمها " واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا "[2].

كيف اشهدهم ؟ لا نعرف ، ولكنا نرى فى عالم الواقع ان البشر يتجهون توجها فطريا الى الخالق ، ولو لم يدلهم عليه احد . ويتوجهون - فطرة - الى عبادته ، ولو لم يأمرهم بذلك احد او يوجههم اليه ، ولكنهم كثيرا ما يضلون فى تصورهم للخالق سبحانه ، فيتصورونه على غير حقيقته ، ويتصورون وجود آلهة اخرى معه ، ثم يعبدونه على هوى انفسهم بغير ما تعبدهم به ، ويشركون معه فى العبادة تلك الالهة المتوهمة ليقربوهم اليه زلفى كما يزعمون " والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى "[3]. او يعبدون تلك الالهة المزعومة وحدها - فى الواقع - من دون الله . " وعندئذ ينزل الله الكتاب ويرسل الرسول ليصحح للناس عقيدتهم لا لينشئها - فهى موجودة باصل الفطرة - وليقول لهم : لا اله الا الله (اعبدوا الله مالكم من اله غيره)[4]. ولقد يخيل الينا احيانا ان الجاهلية المعاصرة استثناء من

---

(١) نقلا عن الدين (ص ٨٤ - ٨٥) .

(٢) الاعراف : ١٧٢ .

(٣) الزمر : ٣ .

(٤) هود : ٥٠ .

هذه القاعدة، لان فيها شعوبا باسرها لا تعرف الله البتة، ولا تعبده البتة بل تدرس الالحاد فى المدارس، وتخرج ملحدين لا يعرفون الله ولا يؤمنون بوجوده .

" اما الشيوعيون فليسوا - برغم الحادهم - استثناء من القاعدة . انما الالحاد مفروضا عليهم فرضا بالحديد والنار كالنظام الشيوعى ذاته . ولو خلى بينهم وبين انفسهم لكان ضلالهم فى امر العقيدة كضلال بقية الضالين من البشرية .. يعرفون الله ولكن على غير حقيقته، ويعبدونه ولكن على هوى انفسهم .

" وان اصرار الدولة على تدريس الالحاد فى المدارس لهو ذاته دليل على خشيتهم من العقيدة المفطورة فى الفطرة وان ضلت - وكثيرا ما تضل - فهم يلاحقونها دائما بالتوجيه المضاد فى برامج الدراسة، خشية ان تظهر تلقائيا فتفسد - برغم كونها ضالة - اصلا هاما من اصول مذهبهم الشرير المخطط لافساد البشرية .

" وتكفى هذه الحادثة لتثبت ان الشيوعيين ليسوا استثناء من القاعدة فجاجارين رائد الفضاء الاول شاب ربى فى الشيوعية والالحاد منذ مولده الى يوم انطلاقه الى الفضاء فى داخل الصاروخ . ومع ذلك فقد اهتزت فطرته حين نظر الى الكون من خلال الصاروخ . لانه رأى صورة لم يشهدها من قبل، وكان اول تصريح له حين هبط الى الارض : " حين صعدت الى الفضاء اخذتنى روعة الكون فمضيت ابحث عن الله " تلك هى استجابة الفطرة التلقائية ازاء الكون الهائل الذى خلقه الله . لم تستطع كل الشيوعية التى تفرضها الدولة، وكل الالحاد الذى تبثه فى الدروس، ان تحول دون انطلاقها حين هزتها روعة الكون . ومن الطريف ان " الدولة " غضبت من هذا التصريح، لانه يهدم كل ما انشأته خلال خمسين عاما من الالحاد .. لذلك امرت " جاجارين " بتصحيح ذلك التصريح الخطير، فاضاف اليه فى القراءة الثانية : " ... اخذتنى روعة الكون فمضيت ابحث عن الله فلم

اجده".. ونشرت وكالات الانباء هاتين القراءتين المختلفتين للتصريح الواحد .. بغير تعليق "[1].

فطرية التوحيد .

انه مما لا شك فيه ان الله سبحانه وتعالى الذى خلق الكون والانسان بحكمته ، والذى اودع فى فطرة الانسان التدين والتوجه اليه بالعبادة . لم يترك خلقه يعتمدون على انفسهم ، فكان من حكمته ارسال الرسل لتصحيح العبادة للناس، وقد ذهب كثير من العلماء - وبخاصة جمهور اهل السنة من المسلمين والعقلاء من علماء اوربا الى ان عقيدة التوحيد فطرية فى النفوس، وان الانسان الاول عرف الاله الواحد ، وتعلق به وعبده ، وان الشرك والوثنية امور عرضت للعقيدة وانحرافات طرأت عليها ، ومن جملة من يؤيد هذا الرأى من العلماء الغربيين " لانج " الذى اثبت عقيدة الاله الاكبر عند القبائل الهمجية فى استراليا وافريقيا وامريكا ، ومنهم " شريدر " الذى اثبتها عند الاجناس الآرية القديمة ، وبروكلمان الذى اثبتها عند الساميين قبل الاسلام"[2].

وهذه الحقيقة المشاهدة فى الواقع البشرى من اتجاه الناس جميعا الى الايمان ، وعبادة الله الواحد القهار، قد بينها القرآن الكريم بقوله تعالى : " فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون "[3].

وقد علل القرآن الكريم وجود الفطرة الدينية تعليلا غيبيا ، موصولا بالنشأة الذرية ، وهذا امر لا سبيل لمعرفته عن طريق العلم الانسانى ، فنأخذ به بالتسليم الدينى ، وذلك مانلاحظه فى قول الله تعالى : " واذ اخذ ربك من

---

(١) دراسات قرآنية (ص ٢٦ - ٢٨) .
(٢) انظر الدين (ص ١١٢ - ١١٣) .
(٣) الروم : ٣٠ .

بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ قالوا شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين "[1]. ويذهب كثير من العلماء على ان الله سبحانه وتعالى اخذ ذرية آدم من ظهره ، واشهدهم على انفسهم انه ربهم وخالقهم . واعترفوا لله بالوحدانية وذلك فى عالم الذر ، ومن هنا كان الاعتراف بالوحدانية الله تعالى امرا مقررا ومعترفا به لدى الناس جميعا منذ خلقهم الله تعالى ، اما الشرك والوثنية والكفر والبعد عن هذه العقيدة السليمة فامور عرضت للانسانية بعد ذلك[2].

ولما كان الدين فطريا فى النفوس ، كان لابد ان يظهر فى واقع حال الانسان الاول ، وهذا مايتفق تماما مع الايات القرآنية التى تثبت تماما ان الناس فى اول امرهم كانوا مؤمنين بالله الواحد ، ثم دخل بعد ذلك الانحراف فى عقائدهم بالشرك والوثنيات بعوامل مختلفة ، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى " كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه "[3].

وجاء فى الحديث القدسى عن عياض بن حماد عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى انه قال : " خلقت عبادى حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما احللت لهم وامرتهم ان يشركوا بى مالم انزل به سلطانا "[4]. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء "[5].

---

(١) الاعراف : ١٧٢ .

(٢) انظر تفسير الخازن (٢ : ٢٠٩) .

(٣) البقرة : ٢١٣ .

(٤) مسند الامام احمد (٤ : ١٦٢) .

(٥) متفق عليه ـ البخارى (١ : ٢٤٠) ، مسلم (٤ : ٢٠٤٨) .

الاسلام دين الانبياء جميعا .

ان توحيد الله سبحانه وتعالى وافراده بالعبودية ، هو دعوة الانبياء جميعا ، فكل نبى جاء الى قومه بدعوة التوحيد ، توحيد الله سبحانه وتعالى فى ذاته واسمائه وصفاته ، والتحاكم الى شريعته ، ولكن الناس حرفوا دينهم وسلكوا سبيلا غير سبيله ـ الا من هدى الله منهم ، فكان كل نبى يقول لقومه " ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره "(١).

وكان من رحمة الله انه كلما انحرفت فطرة البشر عن توحيده وطاعته فى اوامره ، ان يرسل لهم رسولا يقوم انحرافهم ويردهم الى الطريق المستقيم ؛ حتى ختم الله الرسالة والنبوة باشرف المرسلين وسيد الخلق اجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برسالة الاسلام ، الدعوة العالمية للناس كافة ، فلم تقتصر على قوم دون قوم ، ولا على جنس دون جنس ، انما للناس عامة بشيرا ونذيرا ، رحمة من الله للعالمين .

قال تعالى : " وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون "(٢).

وقال تعالى : " قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا "(٣).

وقال تعالى : " وما ارسلناك الا رحمة للعالمين "(٤).

ثانيا : نقض فكرة تطور الاديان .

يزعم كثير من الكتاب الغربيين ـ ومنهم سبنسر وفريزر ودوركايم ـ وبعض من وقع من الكتاب المسلمين كالعقاد فى كتابه (الله) ، وطه الهاشمى فى

---

(١) هود : ٥٠ .
(٢) سبأ : ٢٨ .
(٣) الاعراف : ١٥٨ .
(٤) الانبياء : ١٠٧ .

كتابه (تاريخ الاديان وفلسفتها) ان التدين بدأ بالخرافة والاوهام ثم تطور الى عبادة الله الواحد الاحد ، ومن هذه الفكرة الخبيثة استمد ماركس نظريته القائلة بان الاديان تتطور تبعا لتطور العوامل الاقتصادية والغرض من فكرة تطور الاديان هو انكار الله الواحد الاحد الذى اودع فى فطرة الانسان التدين ، وبالتالى انكار الوحى والرسل . وتنطوى هذه الفكرة على ايحاء خبيث هو : مادام الدين قد تطور من الخرافة الى عبادة الله الواحد ، والانسان هو الذى طور الدين ، فعلى هذا الاساس يكون الدين مخترعا بشريا[1] .

ان القول بتطور الاديان خرافة لا تستند الى دليل علمى قاطع وذلك لان العلم لم يقطع على وجه اليقين بنوعية التدين عند الشعوب البدائية ، وكل المعلومات التى عند العلماء ماهى الا مجموعة من الفروض والتخمينات ، وان مايجهله العلماء عن احوال الامم السابقة ودياناتها اكثر مما يعلمونه عنهـا .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز فى معرض حديثه عن تطور الاديان : " اما من حيث الغاية التى يهدف اليها البحث ، وهى تحديد الاصل الاصيل للعقيدة والمظهر الذى ظهرت به فى اول الازمنة باطلاق ، فلان هذه البدائية المحضة قد اعتبرها العلم شقا حراما على نفسه ، واعلن فى صراحة كاملة خروجه عن حدود عمله ، فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف وتستر بثوب مستعار ، وكل حكم يصدر تحت هذا الاسم يكون صادرا عن قاض معزول فاقد للركن الاول من سلطته الشرعية . ومؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بان الاثار الخاصة بديانة العصر الحجرى وماقبله لا تزال مجهولة لنا جهلا تاما ، فلا سبيل للخوض فيها الا بضرب من التكهن والرجم بالغيب "[2] .

---

(١) بينت فساد فكرة (الدين مخترع بشرى) فيما سبق (ص٣٩٥ - ٤٠١) .
(٢) الدين (ص ١١٣) .

وبما ان الله سبحانه وتعالى قد خلق الناس ليبلوهم ، فلابد ان يعرفهم مادة ابتلائهم ، وذلك بانزال احكام الدين لهم ، فالفكر الصحيح يقضي بأن يتدارك الله سبحانه وتعالى الانسان الاول بانزال التعاليم الدينية عليه وكلما ضاعت هذه التعاليم فى الواقع البشرى ، فالحكمة الالهية تقضى بتجديد انزال بيانات وارسال رسل تذكرهم مانسوا ، وتعلمهم ماجهلوا من امور دينهم ، هذه النظرات الفكرية المجردة جاء بيانها وايضاحها فى كتاب الله عز وجل اذ ابانت لنا هذه النصوص أن الانسان الاول قد انزل الله سبحانه وتعالى عليه شريعة . قال تعالى : " فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى "(١) . وقال تعالى : " وان من امة الا خلا فيها نذير "(٢) .

وآدم وذريته امة ، وقد كان آدم هو نذيرهم ، ومبلغهم شريعة ربهم ، ثم تتابعت الرسل كما هو معلوم فى تاريخ الرسالات الربانية .

وبما ان العلم لم يقطع بنوعية الديانة الاولى لدى الانسان الاول كذلك ، فلا مناص من الاعتماد على الرواية الحقة الصادقة التى بينت اصل الديانة الاولى ، وهى طريق الوحى ، والوحى الصادق يتمثل فى القرآن الكريم الذى لم يدخله التحريف والتبديل ، لان الله تكفل بحفظه . قال تعالى " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون "(٣) .

وعلى هذا الاساس فالقول بتطور الاديان غير ثابت علميا ، بل ان الحق الذى لا شك فيه ان التوحيد هو الاصل فى التدين ، والشرك طارئ عليه .

ثالثا : هل الدين من انتاج الطبقات ؟

ان الشيوعيين حين يقولون ان الدين من نتاج الظواهر الفكرية

---

(١) طه : ١٢٣ .
(٢) فاطر : ٢٤ .
(٣) الحجر : ٩ .

للمجتمعات الطبقية فحسب، يغفلون دين المجتمعات البدائية الاولى - فى عهد الشيوعية البدائية كما يزعمون - وقد ثبت من خلال البحث ان المجتمعات البدائية الاولى التى يزعم الماديون انها كانت تعيش فى شيوعية تامة لا حقد فيها ولا صراع طبقى، ولا ملكية خاصة ولا استغلال - لها دين تدين به، لان الدين فطرى فى النفوس. كما ان بعض الماركسيين قد اعترف بوجود الدين فى المجتمعات البدائية. يقول بليخانوف: "ان دين القبائل البدائية لم يدرس بعد الدراسة الكافية، ولكن مانعرفه من قبل يؤكد تماما صحة الاطروحة المختصرة التى وضعها ماركس عن فيورباخ، وهى ان الدين لم يصنع الانسان، بل الانسان هو الذى صنع الدين".[1]

والذى يهمنى فى كلامه هو قوله: ان دين القبائل لم يدرس بعد دراسة كافية. اذن فقد كان فى ذلك الحين دين، وعلى هذا الاساس فالدين ليس من نتاج الظواهر الفكرية للمجتمعات الطبقية. لان الشيوعية البدائية ليس فيها طبقات، فكيف يفسر الدين بانه نتاج المجتمع الطبقى / وقد ثبت ان الدين موجود قبل وجود المجتمع الطبقى؟ وكيف يمكن بعد هذا ان يكون الوضع الاقتصادى والتركيب الطبقى اساسا لتفسير الدين؟

رابعا: مناقشة الماديين فى الطبقة التى اخترعت الدين.

بعد بيان فساد فكرة ان الدين من انتاج الطبقات. اناقش تناقضهم العجيب الذى وقعوا فيه عند تفسيرهم للطبقة التى اخترعت الدين. فمرة يزعمون ان الطبقات الضعيفة هى التى اخترعت الدين لنفسها حتى تنسى همومها ومشاكلها والظلم الذى تمارسه الطبقات الحاكمة عليها.

ومرة اخرى يزعمون ان الطبقات الحاكمة هى التى اخترعت الدين

---

(١) نقلا عن نقض اوهام المادية الجدلية (ص ٢٢٧).

للفقراء ، تخدرهم بتعاليمه حتى ينسوا مطالبهم ، ويغضوا ابصارهم عن الاستغلال الذى تمارسه ضدهم .

(١) اما قولهم ان الطبقات الضعيفة هى التى اخترعت الدين فباطل بالادلة القاطعة التى اثبتت ان الدين ليس وقفا على طبقة معينة بل وجد الدين قبل وجود الطبقات .

ثم اذا كانت الطبقات الضعيفة هى التى اخترعت الدين النابع من واقعها السئ ، وظروفها الاقتصادية السيئة ، فكيف يمكن ان نفسر وجود العقيدة الدينية منفصلة عن الواقع السئ وظروف الاضطهاد الاقتصادى ؟ وكيف امكن لغير المضطهدين ان يتقبلوا من الطبقة المضطهدة الدين الذى تبشر به كالاسلام الذى يحارب الربا ، والاحتكار ، والاستغلال ويوجب الصدقات والنفقات على الاغنياء القادرين ؟ ويوجب المساواة بين البشر ولا فضل لاحد على الاخر الا بالتقوى . . ؟

ان الماديين لا يمكن ان ينكروا وجود العقيدة الدينية ، عند اشخاص لا يمتون الى ظروف الاضطهاد الاقتصادى بصلة ، وصلابة العقيدة فى نفوس بعضهم الى درجة تدفعهم الى التضحية بنفوسهم واموالهم فى سبيلها مثل امرأة فرعون ، وعثمان بن عفان ، وعبدالرحمن بن عوف ، وكثير من الاغنياء المسلمين الذين لم يكن لهم هدف مادى من وراء دخولهم فى الاسلام ، بل كان هدفهم مرضاة الله سبحانه وتعالى .

وهذا يبرهن بوضوح على ان المتدين لا يستوحى دينه من واقعه الاقتصادى ، لان الفكر الدينى عند اولئك الاشخاص ، لم يكن تعبيرا عن بؤسهم وتنفيسا عن شقائهم ، وبالتالى لم يكن انعكاسا لظروفهم الاقتصادية ، وانما كانت عقيدة تجاوبت مع شروطهم النفسية والعقلية ، فآمنوا بها على اساس فكرى .(١)

(٢) اما قولهم : ان الطبقات الحاكمة هى التى اخترعت الاديان للطبقة الكادحة المستغلة كى تنسى مطالبها ودورها السياسى وتستسلم

---

(١) انظر اقتصادنا (ص ٨٤ - ٨٥) .

الى واقعها السيء، فباطل ايضا وذلك لان اكثر اتباع الاديان السماوية كانوا من الفقراء والمضطهدين .

هذا من جهة، ومن جهة اخرى اتساءل : هل كان من مصلحة الطبقة الحاكمة ان تجعل من الدين اداة فعالة فى القضاء على الرأسمال الربوى الذى كان يدر عليها ارباحا طائلة، قبل ان يحرمه الاسلام تحريما باتا ؟ او هل كان من مصلحتها ان تتنازل عن مركزها الاجتماعى والطبقى فتسخر الدين الى المساواة بين الناس فى الكرامة الانسانية، والاستهانة بالاغنياء الفجرة المترفين ؟

ثم اذا كان الاغنياء والاقطاعيون قد اغروا العمال والفلاحين بالخضوع للدين وما يعدهم من الفردوس فى الاخرة ليسكتوا عن حقوقهم، فان الانسب لهم لتحقيق هدفهم هذا الا يتخذوا الدين وسيلة لهذا الاغراء، وذلك لانه ما من دين حق يغرى اتباعه بترك الحق والاستكانة للمخلوقين، وما من دين حق كذلك الا وهو قوة ايجابية تدفع المتدين الى قوة الروح والعمل على اخذ العقول والنقمة على الطغاة العصاة حتى يؤمنوا[1] .

خامسا : مناقشة تفسير الدين تفسيرا اقتصاديا .

يزعم الماديون بناء على فكرة التطور ان الاديان تتطور تبعا لتطور العامل الاقتصادى، وتتغير بتغيره، لانها نابعة منه، ومشروطة به فالعامل الاقتصادى هو المحدد للاوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والاخلاقية .

هذا الزعم الباطل ليس عليه دليل علمى، بل ان العلم ينقضه من اساسه .

اولا : ابطلت فى مناقشتى للماديين فهمهم لقانون التطور، وبينت ان التطور انما هو تغير فحسب، وانه لا يشترط فيه ان يكون الطور الجديد

---

(١) انظر نفس المصدر (ص ٨٥) ، الماركسية فى مواجهة الدين (ص ٤٩) .

افضل من القديم بل قد يكون القديم حسنا ، والجديد سيئا والعكس بالعكس[1] وابطلته من جهة ان قوانين المادة لا تنطبق على حياة الانسان[2] ، وابطلته من زاوية تفرد الانسان عن الحيوان ، وان قوانين الحيوان لا تنطبق على الانسان[3] .

ثانيا : ابطلت هذه النظرية باثبات ان عقيدة التوحيد هي الاصل وان الشرك طارئ عليها ، وان تطور الاديان خرافة لا يقوم عليها دليل علمي ، وهي تهدف الى انكار الله وانكار الوحي والرسل[4] .

ثالثا : كما برهنت على ان العامل الاقتصادي واحد من العوامل المؤثرة في كيان الانسان ، يعمل بجانب عوامل اخرى لا تقل عنه اهمية كالعامل الديني والفكري ، وليس هو العامل الوحيد الفعال في حياة الانسان[5] .

اهتمام الاسلام بالعامل الاقتصادي .

اعتنى الاسلام عناية تامة بالعامل الاقتصادي لما له من اهمية كبرى في حياة الناس . وقد جاءت التشريعات الاسلامية الاقتصادية فريدة من نوعها لانها منزلة من عند الله الحكيم الذي لا يشرع لطبقة على حساب الآخرين .

ومن اهم هذه التشريعات مايلي :

(١) اهتم الاسلام بالعمل والعمال ، وحث العمال على العمل ، ونهاهم عن الاخلاد الى الارض والكسل ، وعلى ولي امر المسلمين ان ييسر فرص العمل ويفتح ابوابه للعمال ، وشجع التجارة وحرم الربا والغش والاحتكار والاستغلال .

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الفقر والكسل

---

(١) انظر الفصل الثالث مناقشة قانون التطور .
(٢) انظر الفصل الرابع . قوانين المادة لا تنطبق على الانسان .
(٣) انظر مناقشة اثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ .
(٤) انظر فطرية التوحيد .
(٥) انظر الفصل السادس ـ مناقشة العامل الاقتصادي في الشيوعية .

والصفات الذميمة . عن عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : " اللهم انى اعوذ بك من الكسل والهرم ، والمأثم والمغرم ، ومن فتنة القبر ، وعذاب القبر ، ومن فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر فتنة الغنى واعوذ بك من فتنة الفقر ، واعوذ بك من فتنة المسيح الدجال "[(١)] .

وجاء فى حديث آخر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : " ما اكل احد طعاما قط خيرا من ان يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده "[(٢)] .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم ايضا انه قال : " لان يأخذ احدكم احبله خير له من ان يسأل الناس "[(٣)] . وفى حديث آخر ايضا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : " مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم "[(٤)] .

ففى الاحاديث السابقة رأينا كيف ان تعاليم الاسلام لا تحبذ الفقر ولا تشجعه ، كما انها تربى فى المسلم الشعور بالعزة وكرامة النفس ، فالعامل الذى يأكل من عمل يده ، افضل من الذى يعتمد على صدقات الناس .

والفارق الكبير بين الاسلام والشيوعية هو ان الاسلام فتح باب العمل للجميع ، وترك للعامل حرية اختيار العمل الذى يناسبه دون ان يتعرض لضغط من الدولة ، مادام يعمل ضمن ما اباح له الشرع ، ولا يستطيع الحاكم ان يمنع الانسان عن القيام بالعمل والتجارة ، مادام العامل ملتزما بما احل الله ، ومجتنبا ماحرم الله .

اما الشيوعية فانها وفرت فرص العمل للعمال ، ولكنها استعبدتهم واذلتهم من اجل الحصول على لقمة الخبز . فالعامل ذليل محتقر مهان تستطيع الدولة ان تقتله جوعا اذا سحبت بطاقة التموين منه ، ولا يستطيع احد ان

---

(١) البخارى (٤ : ١٠٨) .
(٢) نفس المصدر (٢ : ٦) .
(٣) متفق عليه البخارى (٢ : ٦) ، مسلم (٢ : ٧٢١) .
(٤) متفق عليه البخارى (١ : ٢٥٧) ، مسلم (٢ : ٧٢٠) .

يقدم له العون والمساعدة ولو كان ابنا او اخا او ابا او زوجة لان من يساعده يعتبر في نظرهم خائنا للدولة والحزب .

واما العامل فى الاسلام فان الحاكم المسلم لا يستطيع ان يقتله جوعا ولو كان كافرا . وان ارتكب محظورا شرعيا فى العمل ، كأن اكل الربا أو احتكر او غش، فان الحاكم يوقع عليه عقوبات مادية لا تصل فى مجموعها الى الموت ولا مصادرة ماله كله . وهذا عمر بن الخطاب يوصى عماله بالمسلمين خيرا ومن جملة وصيته لهم قوله : " الا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم "(١) .

كما نهى الاسلام عن اكل اموال الناس بالباطل ، قال تعالى : "ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل "(٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اكل اجر العامل حيث يقول صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة رجل اعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فاكل ثمنه ، ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يعطه اجره "(٣) .

(٢) اهتم الاسلام باصل المال ، فلابد ان يكون مصدر المال معلوما وان تكون طريقة الحصول على المال مباحة شرعا ، كالتملك والارث والوصية والبيع والشراء والهبة والصدقة ان كان يستحقها ، وغيرها من طرق التملك المشروع .

كما اهتم الاسلام فى الوجوه التي يستغل فيها المال ، فلا يستغل فى تجارة محرمة ، ولا بيع محرم كبيع الخمر والخنازير ، كما لا يجوز ان يتعامل بالربا ، وان يحتكر اقوات المسلمين ، وان يغش فى بيعه .

قال الله تعالى " واحل الله البيع وحرم الربا "(٤) وقال صلى الله عليه وسلم " من احتكر فهو خاطئ "(٥) .

---

(١) راجع الخطبة كاملة فى مسند الامام احمد (١ : ٤١) ، تاريخ عمر بن الخطاب (ص ١١٤ - ١١٥) .
(٢) البقرة : ١٨٨ .
(٣) البخارى (٢ : ٣٤) .
(٤) البقرة : ٢٧٥ .
(٥) مسلم (٣ : ١٢٢٧) .

كما اهتم الاسلام بالوجوه التى يجب ان ينفق فيها المال . فلا ينفق فى خمر ولا ميسر ولا بغاء ، ولا ترف ولا اسراف ولا معصية .

(٣) سن الاسلام نظام التكافل الاجتماعى بين الاقرباء، وبين الاغنياء والفقراء ، وبين الدولة المسلمة ، ورعاياها . فقد فتح باب الزكاة والصدقات وأوجب على الدولة الاسلامية ان توفر لرعاياها الاشياء الضرورية لحياتهم وهى الاكل والشرب واللبس، التى اقام ماركس ضجته من اجلها كما يزعمون .

(٤) سن الاسلام نظام الارث بين الاقرباء لتفتيت الثروات ، حتى لا يكون المال دولة بين الاغنياء فقط[1] .

وغير هذه من التشريعات الاقتصادية التى يفاخر بها الاسلام على مدار التاريخ .

بعد هذا اسأل : ماهو التفسير الاقتصادى الذى ادى الى ظهور الاسلام وانتشاره بسرعة مذهلة فى اقطار الدنيا ؟

ماهو الدافع الاقتصادى الذى جعل الاسلام يحرر الرق قبل اوربا بسبعة قرون ؟

ثم ماهو الدافع الاقتصادى الذى جعل الاسلام يحرم الربا الذى كان يدر اموالا طائلة على الاغنياء من قريش ؟

ثم ماهو الدافع الاقتصادى الذى جعل الاسلام يعطى المرأة حقوقا وامتيازات ليس لها مثيل فى التاريخ ، كالتملك والارث ، والهبة والوصية والبيع والشراء ، والنفقة على الزوج ، والتعليم ، والامر بحسن معاملتها ، هذه التشريعات التى ماتزال نساء القرن العشرين يعملن المؤتمرات ، ويعقدن المظاهرات ، ويظهرن الاحتجاجات حتى يصلن الى بعض منها ، وللآن لم يصلن الى حقوقهن كاملة اللهم الا فى قضية واحدة عند كثير من الدول ، وهى

---

(١) انظر نظرية الملكية فى الشريعة الاسلامية ـ د . عبدالسلام العبادى
العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، وشبهات حول الاسلام .

تحررها من دينها وخلقها وشرفها ..

(ان هذا لشيء عجاب)[١] .

ثم ماهو الدافع الاقتصادى الذى جعل الاسلام دينا عالميا لا يقتصر على أمة دون امة ، ولا على لون دون لون ، بل للناس كافة ؟

ثم ماهو الدافع الاقتصادى الذى جعل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم من الاغنياء كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وصهيب الرومى وغيرهم رضى الله عنهم اجمعين يتركون اموالهم فى مكة ويهاجرون فى سبيل الله فرارا بدينهم . اضف الى ذلك المعاملة الحسنة التى كان يسلكها جنود اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقادة الاسلام فى معاملاتهم لغيرهم وبخاصة فى الحروب . فهذا ابو عبيدة رضى الله عنه يعيد الجزية لاهل حمص حين شعر انه لا يستطيع حمايتهم[٢] .

ان ظهور الاسلام ينسف التفسير المادى للتاريخ من اساسه ، لانه لا يمكن ان يفسر تفسيرا اقتصاديا . بل هو رحمة من الله للعالمين .

سادسا : هل اخترع الانسان الدين لخوفه من الطبيعة وجهله باسرارها ؟

يزعم الماديون ان الانسان اخترع الدين لخوفه من الطبيعة ، وجهله باسرارها . وقد بينت فساد فكرة اختراع الدين من قبل البشر ، كما بينت بطلان فكرة التطور كما فهمها الماديون . وهم يقصدون من هذه الفكرة الخبيثة بناء على فكرة التطور ان الانسان الذى اخترع الدين لخوفه من الطبيعة وجهله باسرارها ليس بحاجة الى التدين فى هذه الايام ، وذلك لان الانسان اصبح مسيطرا على الطبيعة ، فهو لا يخاف منها ، واصبح عالما باسرارها فهو غير جاهل بها كذلك . وعلى هذا الاساس فان التدين الذى نشأ عن الجهل والخوف قد زال فى هذه الايام من تفكير الانسان ومخيلته ، فلم يبق

---

(١) سورة ص : ٥ .

(٢) انظر كتاب الدعوة الى الاسلام ـ ت . و . ارنولد . ترجمة حسن ابراهيم (ص ٥٨) .

شيء يدين له بالعبادة والطاعة . وبناء على هذه النظرية الكاذبة فان الانسان المتعلم يجب ان يكون ملحدا - والعياذ بالله تعالى - . لكن تفسير التاريخ نفسه ينبئ بعكس ماتوهمه واراده ماركس ومن سار في طريقه، اذ انه كلما ازدادت الكشوف العلمية ازداد ايمان المؤمنين ، وقوى سلطان الدين حتى في نفوس الذين دخلوا في مجال البحوث والاكتشافات العلمية، لان حقائق العلم تبطل كل شك في ان لهذا الكون خالقا حكيما عالما مدبرا ، يقول البرت ماكومب ونشستر : "ليس من شك ان العلوم تزيد الانسان تبصرا بقدرة الله وجلاله، وكلما اكتشف الانسان جديدا في دائرة بحثه ودراسته زاد ايمانه بالله"[1] .

سابعا : هل الدين السماوى الصحيح مخدر ؟

يزعم الماديون ان الدين مخدر ، ابتدعه الطغاة ليعتمدوا عليه في تحقيق سيطرتهم على الضعفاء والفقراء والمحرومين . ومن شأن هذا الدين على اساس نظريتهم ان يعجز اتباعه من كل عمل منتج ، وان يقعد بهم عن المطالبة بحقوقهم وانصاف انفسهم من المستغلين .

والدارس لكتبهم وفكرهم يلاحظ انهم يعتبرون جميع الاديان - الا اليهودية مخدرة ، لان الشيوعية وسيلة من وسائل اليهود التي يستخدمونها في سبيل القضاء على الاديان والاخلاق ، وافساد المجتمعات وزعزعة اقتصادياتها حتى يحقق اليهود حلمهم الاكبر يوم تصبح البشرية خاضعة ذليلة لهم ، تخدم شعبهم المختار ، ولكن الله لهم بالمرصاد .

مخالفتهم للمنهج العلمي .

ان المنهج العلمي هنا يحتم لاطلاق حكم عام كهذا الحكم - وهو القول بأن الدين مخدر - ان يستقرئ الباحث جميع الاديان حتى يتسنى له اطلاق

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم (ص ١٠٤ - ١٠٥) .

حكم كلي عليها فى ضوء مبادئ كل دين على حده ، واثر هذه المبادئ فى الواقع .

والاحتمالات الواردة فى هذا الصدد هى :

(١) اما ان ماركس استقرأ فعلا جميع الاديان ـ كلا ، على حده ـ كما يشترط المنطق وفهم مبادئها وواقعها التاريخى ، ورصد آثار المبادئ فى تاريخ الاديان واهلها وخرج من دراسته تلك بانها كانت مخدرا للشعوب المتدينة وصارفا لها عن الحركة التقدمية ، فان كان حقا درس تاريخ الاديان كلها وخرج من هذه الدراسة بهذا الحكم الشامل فهو اما مخطئ واما مغالط ، وذلك لان ثمرة الاديان السماوية الصحيحة السليمة من التحريف وآثارها على النفوس البشرية ، ودفعها اتباعها الى الثورة على الظلم ، ومقاومتها للفساد الروحى والمادى لا تخفى على طالب الحقيقة والدارس العلمى المخلص ، فضلا عن فيلسوف يزعم لنفسه الفكر المعصوم ـ فضلا عن تسفيه فكر غيره ، من مذاهب المفكرين فى الارض ، ورسالات الرسل المنزلة من عند الله .

وهذا يجعلنى اعتقد ان ماركس كان مغالطا فى تصويره للاديان حين زعم انه ملتزم بالمنهج العلمى فى هذا التصوير ، ولشهوة الهدم اليهودية الحاقدة على الاديان والمتأصلة فى نفسه منذ الصغر .

(٢) واما انه لم يستقرئ جميع الاديان ، ولم يدرس مبادئها وتاريخها وانما اكتفى بدراسة دين واحد او دينين فى فترة معينة ، ثم اطلق الحكم عليها جميعا بانها كانت مخدرا . ويبدو ان الذى حدث هو هذا الاحتمال ، فمعظم كتابات الماديين تقع فى خطأ التعميم فى مسألة الدين وغيرها من المسائل[1] .

والذى يبدو لى ان الحالة الوحيدة التى اقتصر عليها ماركس فى دراسته

---

(١) انظر مناقشة قانون الحركة ، ومناقشة مرحلة الرق والاقطاع .

للدين هى حالة العصور الوسطى فى اوربا ، حين امتزجت العقيدة النصرانية بعد التحريف بافكار الافلاطونية الحديثة على يد اساتذة مدرسة الاسكندرية.(١)

هذه الفترة الظالمة من حياة النصرانية المحرفة كانت فى نظر ماركس كافية لاصدار حكم قاطع يزعم فيه ان الدين افيون . وهنا يكمن العيب فى نظرية ماركس المادية . فلو انه اكتفى بالحكم على هذا الدين المحرف فى هذه الفترة المظلمة لكان معظم ماقاله صحيحا ، اما ان يعم حكمه على الاديان الصحيحة ، ومنها الاسلام على وجه الخصوص على الرغم من اعترافهم انهم لم يدرسوا تاريخ الاسلام الدراسة الكافية،(٢) فهذا امر لا يتفق والمنهج العلمى السليم الذى احتكروه لانفسهم . .

الاديان السماوية الصحيحة تهدم نظرية افيون الشعوب.

وحتى يظهر للقارئ عيب هذه الدعوى الفاسدة ، لابد من عرض نماذج مختلفة من اصول الديانات السماوية تهدم هذه الدعوى من اساسها .

وحسبنا فى الديانة النصرانية ماقرره" انجلز " و " لينين" فى كتبهما من اثر الدين النصرانى على النصارى ودفعهم الى الثورة واستخلاص حقوقهم من الاباطرة الرومان . يقول روجيه غارودى : " ولقد قدم انجلز مثالين مختلفين عن الدور التاريخى للايمان . فهو فى دراساته حول المسيحية الاولى يوضح كيف أن هذا الايمان الدينى (قبل ان يأخذ شكل عقيدة ومؤسسة محافظة فى يد السلطة ابتداء من عهد قسطنطين) كان احتجاجا ولكنه احتجاج عاجز ، وهو يرينا كيف كانت الجماعات المسيحية الاولى تحلم برؤيا (يوحنا) اى - عمليا - تحلم بتهديم السلطان الرومانى الذى كان يسحقها . وهو يتحدث عن هذه المسيحية الاولى بوصفها "عنصرا ثوريا" (وهذا واضح ، اذ ان السلطات العامة كانت من خشيته بحيث نظمت

---

(١) انظر التمهيد ، اثر مدرسة الاسكندرية على الديانة النصرانية .
(٢) انظر حول الدين مراسلات ماركس وانجلز (ص ٩٧) .

اضطهادا وحشيا ،اضطهادا لا يرجع الى اسباب دينية فحسب . بدليل ان العبادات الاجنبية الاخرى كانت كثيرة ومسكوتا عنها "[١].

ويقول انجلز فى موضع آخر : " اما الهرطقة التى عبرت مباشرة عن مطالب الفلاحين والتى ارتبطت غالبا بالعصيان فى كل مكان فكانت ذات طبيعة مختلفة تماما ، ورغم انها كانت تشترك مع الهرطقة البرجوازية فى كافة المطالب المتعلقة برجال الكنيسة والبابوية واحياء دستور الكنيسة المسيحية الا انها هدفت الى ابعد من ذلك ، فطالبت بعودة المساواة المسيحية الاولى بين اعضاء الجماعة والاعتراف بهذه المساواة كقاعدة من قواعد العالم البرجوازى واعتمدت على (المساواة بين ابناء الرب) لتصل الى المساواة فى الحقوق المدنية بل والى المساواة فى الملكية بشكل جزئى "[٢].

ويقول روجيه غارودى " وتحليل انجلز هذا فى خطوطه الجوهرية ايدته البحوث والاكتشافات التى حققت تقدما هاما بشأن اصول المسيحية ولا سيما منذ اكتشاف مخطوطات البحر الميت عام ١٩٤٧م "[٣].

اما لينين فيتحدث فى كتابه (الدولة والثورة) عن الروح الثورية الديمقراطية لدى الجماعات المسيحية الاولى ، وان اثر المسيحية الاولى لم يتحول الى كونه افيونا الا بعد ان اختلطت بالافلاطونية الحديثة وبعد ان ضعفت هذه الجماعات عن مقاومة الامبراطور الرومانى "[٤].

وبناء على كلام انجلز ولينين وتحليل غارودى لموقف كل من الرجلين لا تكون النصرانية فى كل عهودها افيونا . فاذا كان موقف الماديين من النصرانية هذا الموقف من الضعف ، فانهم بازاء الاسلام اكثر ضعفا وتهافتا لان مبادىء الاسلام وواقعه التاريخى يرفض اى اتهام له بأنه كان فى اى مرحلة

---

(١) ماركسية القرن العشرين (ص ١٤٧) .
(٢) حرب الفلاحين (ص ٥٠) .
(٣) ماركسية القرن العشرين (ص ١٤٨) .
(٤) انظر نفس المصدر (ص ١٤٧) .

من مراحله افيونا للمسلمين . واليكم نماذج من اصول الاسلام وتاريخه تنسف خرافة الافيون من اساسها .

(١) ارسل الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم برسالة الاسلام وقد لقيت هذه الدعوة فى بداية امرها مقاومة عنيفة من الكفار والمشركين ، ولكن المسلمين الذين حملوا علم الدعوة فى بداية الامر صبروا وصابروا وقتلوا وقتلوا فى سبيل الله حتى تحقق لهم النصر ودخل الناس فى دين الله افواجا ، فأين الافيون فى الاسلام الذى رفض من اتباعه من اول يوم ان يخلدوا للراحة والكسل ، كما رفض ان يصبروا على الشرك والكفر والمنكر والاذى ؟ بل طلب منهم ان ينشروا دعوة الله بين الناس ، بعزيمة صادقة ، ونية مخلصة لله عز وجل .

(٢) واين الافيون فى الاسلام الذى طلب من المسلم ان لا ينسى نصيبه من الدنيا وان يأخذ من طيباتها ، ولا يقبل منه ان يكون ذليلا فى يوم من الايام لاحد الا لله رب العالمين . . اين الافيون فى الاسلام وقد توعد بالعذاب من لا يدفع عن نفسه وعن دينه وامته الظلم والاضطهاد وهو يستطيع ذلك ولا يفعل ؟ قال تعالى " وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا "(١) وقال تعالى " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين "(٢) وقال تعالى " ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا "(٣) .

(٣) واين الافيون فى الاسلام وتشريعاته الاقتصادية ـ التى تلائم فطرة

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) المنافقون : ٨ .

(٣) النساء : ٩٧ .

الانسان - لم يسبق اليها ، لانها من الله العزيز الحكيم ، هذه التشريعات التى حرمت الربا اساس اقتصاد الرأسمالية المعاصرة والاحتكار والغش والاستغلال ، وكل ضروب الجشع والطمع والسلب والنهب ، على الرغم من انها كانت تدر ارباحا طائلة على كثير من الاغنياء والمرابين فى مكة وغيرها وصار هذا التحريم قانونا عاما صالحا للتطبيق فى كل زمان ومكان حتى يرث الله الارض ومن عليها .

(٤) وابن الافيون فى الاسلام ، وقد حرم الترف على الاغنياء والفقراء وعلى الاشراف والارقاء ، وقد كانت التفرقة فى الحدود بين الناس من اشد ما حظره رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذر منه ، كما جاء فى حديث المخزومية التى سرقت ؟

ويكفى لدحض هذه الشبهة ان اشير الى ان جميع حركات التحرر من نير الاستعمار فى الشرق الاسلامى كانت من وحى الدين . فحركة الشعب المصرى ضد الاحتلال الفرنسى كانت بقيادة علماء الدين ، وحركة عمر مكرم على عائلة محمد على كانت دينية ، وثورة المهدى على الانجليز فى السودان كانت دينية ، وثورة الشعب الليبى على ايطاليا كانت دينية ، وثورة المغاربة على فرنسا واسبانيا كانت دينية وثورة الجزائر كانت دينية ، وثورة افغانستان الحالية على الشيوعية نفسها دينية وثورة الشعب الايرانى على النظام الامبراطورى دينية . وهكذا الاسلام يدفع ابناءه للجهاد فى سبيل الله ، ولا يقبل منهم بحال من الاحوال ان يصبروا على الظلم .

ان الاسلام ليس فيه مخدر ، انما جاء المخدر للمنتسبين اليه بحفيظة النفوس حين تخلوا عنه ولم يحكموه فى حياتهم ، حين اصبحوا عالة على فتات موائد الغرب تارة والشرق مرة اخرى .

ولو ان ماركس كان علميا - كما يزعم - لاكتفى بالحالة المظلمة التى كانت تعيشها اوربا نتيجة للعقيدة المحرفة التى اعتنقتها ، ولحماقة وسفاهة الكنيسة التى حكمتها اما ان يعمم حكمه على جميع الاديان - ومنها الاسلام على وجه الخصوص - ما عدا اليهودية فهذا خروج على المنهج العلمى الذى احتكره ماركس لنفسه ، ومع ذلك فانى اتحدى الماركسيين ومن سار على ضلالتهم ان يأتوا بدليل واحد يثبتوا فيه ان الاسلام دين مخدر لاتباعه ؟

ثامنا : هل الدين الصحيح يشوه نظرة الانسان الى العالم ؟

انه مما لا شك فيه ان الدين المحرف يشوه نظرة الانسان الى العالم لان التحريف تدخل فيه الاهواء الشخصية، والاطماع الذاتية، وهذا ما حدث فعلا فى اوربا حين شوهت الكنيسة الحياة الدنيوية، وكرهت الناس بها وفرضت عليهم انظمة وبدعا تخالف الفطرة البشرية، وحاربت العلم واحرقت العلماء وكانت الجهالة هى السلاح الذى تسيطر به على الناس.(١)

من هذه الفترة الظالمة فى حياة اوربا استمد ماركس نظريته - واصدر حكمه على الاديان بانها تشوه نظرة الانسان للعالم، وهذا الحكم الباطل ينقضه تاريخ الاسلام وتعاليمه، وذلك لان الاسلام - ولله الحمد - لم يعرف التبديل والتحريف بل ان اصوله ثابتة محفوظة بحفظ الله لها، وهو يترقب اليوم الذى يستيقظ فيه ابناؤه من غفلتهم ويعودون الى تعاليمه يحكمونها فى شئون حياتهم كلها .

(٢) شجع الاسلام العلم والعلماء بكل الوسائل المادية والمعنوية وطلب من المسلمين ان يتفكروا فى هذا الكون وما فيه من مخلوقات ليؤمنوا بالله عز وجل عن قناعة وتدبر . قال تعالى : "ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض. ربنا

---

(١) انظر التمهيد - الظروف التى مهدت لانتشار التفكير المادى فى اوربا - طغيان الكنيسة .

ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار"[1].

وهذا الكون وما فيه سخره الله سبحانه وتعالى للانسان . قال تعالى " وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون"[2].

(٣) حث الاسلام اتباعه على التوكل على الله فى امورهم كلها مع الاخذ بالاسباب والمسببات ، وحارب التواكل ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الاخلاق الذميمة كالجبن والكسل والبخل .

اما المثال الذى استشهدوا به ـ وهو طريقة تجنب الصاعقة عند المتدينين بايقاد الشموع والتراتيل ـ على ان الدين يشوه نظرة الانسان الى العالم[3] . . فهذا المثال ينطبق على اوربا ودينها المحرف ، ولا ينطبق بحال من الاحوال على تعاليم الاسلام ، وذلك لان الاسلام طلب من اتباعه ان يؤمنوا بان القادر على دفع الضرر والاذى هو الله ، وان الله تعالى هو الذى ارشدهم الى الاخذ بالاسباب التى تدفع الضرر والاذى . فان كان مرضا يعالج بالدواء وان كان امرا يحتاج الى الوسائل العلمية اخترعت له الوسائل العلمية .

ويكفى ان نقول ان الاكتشافات العلمية وبخاصة المنهج التجريبى الذى قامت عليه نهضة اوربا العلمية قامت تحت راية هذا الدين العظيم وبتشجيع من تعاليمه ، وبدعم من الحاكمين به .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) الجاثية : ١٣ .

(٣) انظر الفصل الخامس ـ التفسير المادى للتاريخ والدين .

(٤) كما ان الاسلام لا يحتقر شيئا من مطالب الفطرة البشرية، فلا يحتقر مطالب الجسد من اكل وشرب ولباس، ولا يحتقر مطالب الجنس، ولا مطالب العقل والروح انما وجهها الوجهة السليمة، فلا افراط ولا تفريط .

فهل يصح بعد هذا ان يقال ان الدين ومنه الاسلام يشوه نظرة الانسان الى العالم ؟

ان ماذكرت عن نظرة الاسلام الى الحياة الدنيا يحتاج الى بحث واسع ولا يتسع المقام هنا لذكر المزيد عن هذا الموضوع . وانما يراجع حول هذا الموضوع فى الكتب التى تعرضت لهذه المسألة بشكل واسع، ففى كتب الشيخ محمد الغزالى، والاستاذ محمد قطب، والشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى والاستاذ المودودى رحمه الله تعالى، وغيرهم من الكتاب المسلمين كفاية لمن اراد التوسع . كما ان الاستاذ عبدالرحمن الميدانى وبعض الكتاب الغربيين كتبوا فى اثر الحضارة الاسلامية على الحضارة الغربية .

واختم هذا الفصل بتعليق للاستاذ عباس العقاد، وآخر للدكتور محمد البهى يكشفان فيه تهافت النظرة الشيوعية للدين .

يقول الاستاذ العقاد فى معرض تعليقه على كلام ماركس وقولته (الدين افيون الشعوب) : "اما الدين فلو كان ل (كارل ماركس) نصيب من خيال التشبيه لما خطر له ان يشبهه بشيء من المخدرات اوالمسكرات، واذا كانت الاديان جميعا تقوم على الايمان بالجزاء والثواب والعقاب، وتعلم المتدين ان يحاسب نفسه على تبعات اعماله لانه محاسب عليها فى السر وفى العلانية، وتغرس فى نفسه عادة الاحترام والتقديس وتحذره القحة وسوء

الادب . وهذه العقائد كلها هى وحالة السكر نقيضان لا يجتمعان ، واول ما يسقطه السكر عن المخمور او المخدر شعوره بالتبعة وشعوره بالاحترام ، فلا يبالى عاقبة عمله ويتطاول على العظماء فى ذاره . وتكاد تكون الكلمة الاولى على لسان كل سكران : انا لا يهمنى شئ . . انا لا ابالى بانسان .

ومن عجز الخيال ان يختار (ماركس) للدين تشبيها لا يصدق على عقيدة قط كما يصدق على عقيدة الشيوعية ، لان الشيوعية تروج بين الذين يسقطون التبعة عن انفسهم ويلقون اوزار الجرائم والرذائل على المجتمع ، وتمهد العذر للسراق والجناة والمنافقين بما تتهم به المجتمع من الرياء والظلم وسوء التصريف والتدبير ، وتعطى كل من يشتهى التطاول حجة التطاول على المحسودين او للتطاول على ما يشاء من الحريات والمقدسات . وما من سبب يغرى بتعاطى المخدرات والمسكرات الا كان من المغريات بالشيوعية على حد سواء ، فحيث توجد الاسباب للاقبال على السكر توجد الاسباب للايمان بالشيوعية على السواء .

" . . . وقد منيت عقيدة العقائد بالتحريف والتزييف بين اناس يكفرون برأس المال كما يكفرون بالاستغلال ، ولم ينقض من الابد الطويل الذى سنطبق عليه فلسفة الماركسيين اكثر من عشر سنين عند ابتداء ذلك التحريف والتزييف فاذا تواضعنا بالابد الابيد فهبطنا به الى مليون سنة ، فالى اين ينتهى التغيير بالعقيدة الراسخة الخالدة التى لا تقبل التغيير فى المدى الطويل بله المدى القصير . .

" وجاء الامتحان الاول للعقيدة الراسخة ايام الحرب العالمية الثانية فنادى الكفار بالوطنية وبالدين انها حرب الغيرة الوطنية ، وان المجاهدين احرار فى العقيدة الدينية التى يسرونها او يعلنونها .. ولم يكن جيل القيصرية هو الذى الجأهم الى التصبح بالوطنية او بالحمية الدينية فيقال انه قديم شبوا عليه وشابوا فلا مندوحة عنه فى ابان المحنة الداهمة ، بل كان الجنود المقاتلون فى الصدمة الاولى من جيل بين العشرين والاربعين اكبرهم لم يزد على الثالثة عشرة عند قيام الدولة الشيوعية ، وتسعة اعشارهم على الاقل لم يتعلموا حرفا واحدا فى غير مدارسها ولم يستمعوا الكلمة من غير دعاتها ، ولا تفسير لاستفزازهم بنخوة الوطن وحمية الدين الا انه افلاس للمذهب المادى فى تكوين المجتمع وغرس الاخلاق فى نفوس لم يزاحمه عليها مزاحم من المهد الى مقتبل الشباب" .(١)

ويقول الدكتور محمد البهى : " ان ماركس ولينين يعيبان التمسك بالدين ويصفان التمسك به بانه " رجعية " - اى رجوع الى الخلف والوراء - مع ان صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ولا بمشاكل لا تتكرر ، اذ هو للطبيعة بما لها من خصائص اينما وجدت ، وفى اى وقت كانت ، وهدفه ان يحول دون الانحراف فى السلوك سواء فى المال او فى العلاقات البشرية بينما الماركسية قد ارتبطت بمشاكل اقتصادية معينة واوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف خاصة ليس لها طابع الاستمرار ، وهى ظروف القرن التاسع عشر

---

(١) الشيوعية والانسانية مقتطفات من (ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٨ ، ٣١٩) .

والثورة الصناعية التى تبدلت تماما فى القرن العشرين .

" افلا يوصف ذلك الذى ينادى بالماركسية اللينينية ـ وقد اختلفت الاوضاع والظروف الان وذهبت تلك الاخوى التى حملت على الفكر الفلسفى الماركسى ـ بانه رجعى ، وانه يريد ان تعيد عجلة تاريخ القرن العشرين الى القرن التاسع عشر .

ان الماركسى " التقدمى " . . يعيش فى صورة الامس بعد ان حجب عينيه بالتعصب البغيض لاتجاه فلسفى انتهى اعتباره عن رؤية التغيير الذى يحدد صورة اليوم والذى سيحدد صورة الغد ".[1]

وهكذا تتهاوى هذه الخرافات والاكاذيب التى نسجت حول الدين المنزل من عند الله امام الادلة العلمية ، وحقائق الدين والايمان .

" ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون ".[2]

---

(١) تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظر والتطبيق (ص ٣٦) .

(٢) التوبة : ٣٢ .

الفصل الثامن

مناقشة موقف التفسير المادى للتاريـــخ

من الاخــــلاق

****

تمهيد .

من خلال عرضى لموقف الماديين من الاخلاق ، تبين لى انهم يقولون ان الاخلاق متطورة على الدوام تبعا لتطور العامل الاقتصادى - الذى هو فى نظرهم العامل الوحيد المحدد لجميع الاوضاع السياسية والدينية والخلقية والفكرية فهى غير ثابتة ، وبالتالى فهى غير فطرية فى النفس البشرية .

اما سبب الظلم فراجع الى الرأسمالية والملكية الفردية ، كما يعترف الماديون ان الاشتراكية قائمة على اساس غير اخلاقى ، وينكرون المبادئ الخلقية المجردة كالعدالة الخالدة والحق المطلق ، وهم لا يحتاجون الى الاساس الاخلاقى ، بل يحتاجون الى الاساس العلمى .

وينطلق الماديون من نظرية ميكافيلى التى تقول ان الغاية تبرر الوسيلة ، ولا يجدون ادنى حرج فى عمل كل ماينافى الاخلاق من اجل تحقيق مصالحهم الشخصية .

واهم الاعتراضات التى توجه اليهم فى هذا الموضوع هى :

القيم الذاتية للاخلاق .

من المعلوم ان الماديين ينكرون وجود خالق عظيم وراء هذه الموجودات لان المادة عندهم هى الخالقة ، فهم لا يعترفون بان الانسان مخلوق من مخلوقات الله تعالى . ونتيجة لهذا الايمان انكروا ان الله فطر الانسان على التدين وارسل للناس الرسل ليقوموا انحرافهم كلما ضلوا عن الطريق المستقيم بل اعتبروا الدين من اختراع البشر يطورونه ويغيرونه كما يريدون تبعا لتغير الظروف الاقتصادية (١) . واعادوا نفس الكرة بالنسبة للاخلاق ، وقالوا ان الاخلاق مخترعة من الواقع المادى ، وتتغير تبعا لتغير الظروف الاقتصادية وعلى هذا الاساس المادى لا توجد قيم ثابتة ولا اخلاق ثابتة ولا دين ثابت .

---

(١) بينت تفاهة هذه الخرافة فى الفصل السابق .

وقد اثبت ان المادة مخلوقة من مخلوقات الله ، وان الله هو الـذى فرض على المادة قوانينها ، وان الانسان مخلوق متميز عن المادة وعن الحيوان ، ولا ينحصر تفكيره فى حدود العالم المادى ، بل يتعداه الى عالم آخر .

لقد اودع الله سبحانه وتعالى فى مدارك العقول ، وفى مشاعر الوجدان الفطرية ما تدرك به مكارم الاخلاق ورذائلها ، وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح العمل القبيح وينفرون منه ، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون اليه وبذلك يمدحون فاعل الخير ، ويذمون فاعل الشر وقد ارشدت النصوص الاسلامية من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الى وجود هذا الحس الاخلاقى فى الضمائر الانسانية ، واحالت المسلم المؤمن الى استفتاء قلبه فى حكم السلوك الذى قد تميل نفسه الى ممارسته .

يقول الله تبارك وتعالى " ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها "[1] . فالنفس الانسانية منذ تكوينها وتسويتها الهمت فى فطرتها ادراك طريق فجورها وطريق تقواها وهذا هو الحس الفطرى الذى تدرك به الخير والشر ، ولذلك كان على الانسان ان يزكى نفسه ويطهرها من الاثم حتى يظفر بالفلاح ، والا خاب سعيه قال تعالى " بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره "[2] . فالانسان لديه بصيرة يستطيع بها ان يحاسب نفسه محاسبة اخلاقية على اعماله ومقاصده منها ، ولو حاول فى الجدل اللسانى الدفاع عن نفسه والقاء المعاذير . ويقول الله تبارك وتعالى " لقد خلقنا الانسان فى كبد ايحسب ان لن يقدر عليه احد يقول اهلكت مالا لبدا ايحسب ان لم يره احد ، الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين "[3] .

---

(١) الشمس : ٧ - ١٠ .
(٢) القيامة : ١٤ - ١٥ .
(٣) البلد : ٤ - ١٠ .

فالانسان كما لديه ادوات الحس الظاهر، لديه حس باطن يدرك به طريقى الخير والشر، وهما النجدان الممتدان فى ارض حياته الدنيا يختار منها لسلوكه مايشاء، وعليه بعد ذلك ان يتحمل نتائج عمله . وهذا الحس الباطن يشمل ماتدركه العقول بموازينها التى فطرها الله عليها ويشمل ماتحس به الضمائر بمشاعرها الوجدانية التى فطرها خالقها عليها ومن ذلك يتكون فى الانسان حسه الاخلاقى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البر حسن الخلق والاثم ماحاك فى نفسك وكرهت ان يطلع عليه الناس "(١) .

فهذا الحديث يدل على أن فى النفس البشرية حسا خلقيا بالاثم ولذلك يكره فاعل الاثم أن يطلع عليه الناس . لانه يعلم انهم يشعرون بمثل مايشعر وذلك بحس اخلاقى موجود فى اعماق نفوسهم، وهذا ماسماه الفلاسفة الاخلاقيون بالضمير . وقد جمع صلى الله عليه وسلم فضائل الاخلاق تحت عنوان " البر"، ورذائل الاخلاق تحت عنوان " الاثم "(٢) .

وظهرت فى الضمير ثلاث نظريات :

(١) نظرية تصور الضمير على انه حاسة اخلاقية ممثلة فى الغرائز وخليط من الانفعالات والعواطف اى الوجدانات، وهو فى قلب الانسان وليس فى رأسه، وظيفتها ادراك خيرية الافعال وشريتها، واصدار احكام تقيم هذه الافعال . وهى قوة باطنية تولد مع الانسان دون الحيوان وهى تشبه حاسة الجمال وقوة التفكير .

(٢) ونظرية ثانية تصور الضمير على انه ملكة عقلية مستقلة عن غيرها من ملكات الانسان، وهى عند اصحابها ذات قداسة خاصة فى نوعها وطبيعتها وتميزها عن غيرها من الملكات، ولها سلطة مطلقة ترتفع فوق كل جدل، ومنزهة فى احكامها عن الخطأ والهوى .

---

(١) مسلم ج٤ ص ١٩٨٠

(٢) انظر الثقافة الاسلامية ـ المستوى الاول (ص ٢٠١ - ٢٠٣) .

(٣) ونظرية كانت الذى استبدل بفكرة الخير مبدأ الواجب وعبر عن الضمير بالعقل العملى الذى تنشأ احكامه لا من مقارنة افعال الانسان بعضها ببعض بل بمقارنة فعل او مجموعة من الافعال بمبدأ عام يكشفه الضمير . هذا المبدأ فطرى فى طبائع البشر لا يتغير ندركه حدسيا عن طريق الضمير المنزه عن الخطأ[1] . وهو لا يجىء كسبا فلا نعلم العقل العملى كيف يدرك الحق الواضح بذاته[2] .

" ونواة الضمير فيما يبدو فطرية يشارك فيها كل كائن ناطق ، وهى تظهر عند الانسان قبل ان يتمكن من تقدير نتائج افعاله وآثارها ، لان الميل الى الخير والنفور من الشر متأصل فى طبيعة الانسان ، وبغير هذا يتعذر علينا ان نفسر طبيعة السلطة الخلقية او نفهم الشعور بالحياء الذى يعقب اقتراف الاثم "[3] .

صلة الاخلاق بالدين :

ان الضمير وحده لا يستطيع ان يحقق طبيعة الخير والشر دون ان يربى عليهما . فالضمير طاقة خام تدفع الى الرقابة ، وحافز هام على عمل الخير ولكنها لا تستطيع ان تصدر حكمها الا اذا عرفت الخير من الشر ، ودربت على مقاييس الاخلاق الوسط ، فتكونت لديها قدرة على معرفة الخير والامر به فاننا كثيرا ما نحكم على شىء بالخير او الشر قبل ان نشعر به او نحس بعاطفة نحوه . ثم ان اختلاف الناس فى تقدير القيمة الاخلاقية لبعض الاعمال يدل دلالة واضحة على عدم اتحاد الادراك الاخلاقى[4] .

---

(١) لا ينزه عن الخطأ الا المعصوم صلى الله عليه وسلم .
(٢) انظر الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها (ص ١٦١ - ١٦٢) .
(٣) نفس المصدر (ص ٣٦٥) .
(٤) مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية والاسلام (ص ٢٠٨) .

يقول الاستاذ فلوجل : " انه لا توجد علاقة مباشرة بين المعرفة والذكاء من جهة وبين السلوك الخلقى من جهة اخرى فالعلاقة بينهما غير مباشرة ان المعرفة والذكاء يعينان كثيرا فى اقرار المبادىء وفهمها وهذا امر هام جدا فى معرفة الواجبات كما رأينا ، على ان اداء الواجبات يعتمد على عناصر وجدانية نزوعية قد تكون موجهة الى هذه الغاية او لا تكون ، ولا يكفى لكفالة السلوك الخير مجرد معرفة الشخص لما هو صواب او حتى مجرد القبول العقلى لصحته ، ومع ذلك فثمة علاقة ايجابية بسيطة بين المعرفة والذكاء من جهة ، وبين السلوك الخلقى من جهة اخرى ، ولعل السبب فى ذلك ان المعرفة والذكاء يسهلان التنبؤ بالنتائج الكاملة للتصرفات ، واصطناع بعد النظر الذى يهدى الى ان حسن الخلق تبرره عموما نتائجه الطيبة "(1).

ولكن هذه العناصر تمثل الاستعداد والادراك ولا تصل الى القدرة على وضع المبادىء الاخلاقية الثابتة لانه لا بد أن تكون المبادىء الاخلاقية التى يتكون منها السلوك الخلقى مبنية من مصدر عليم بالزمان كله والكون باكمله ، فالاخلاق ماهى الا منهج حياة تتصل بالماضى والمستقبل وترتبط بحركة الكون كله ، والانسان محدود العلم والطاقة ، والمحدود الناقص لا يستطيع ان يحدد منهجا اخلاقيا يلائم الناس جميعا فى زمان معين ، وفى كل زمان على مدار العصور والايام .

نعم ان الله العليم الحكيم الذى خلق الانسان وفطره على التمييز بين الخير والشر ، لا يمكن ان يترك هذا المخلوق يعتمد على نفسه فى رسم قواعد الاخلاق ، وذلك لان فكر الانسان بعجزه الواضح وقصوره الادراكى ينظر الى الموضوع من زاوية واحدة فيظنها كل شىء وينحرف بذلك عن الحق والخير .

لذلك ارسل الله سبحانه وتعالى الانبياء والرسل بقواعد الاخلاق الثابتة التى لم تتغير على مدار التاريخ ، وكلما انحرف الناس عنها ذكرهم

---

(1) الانسان والاخلاق والمجتمع (ص ٤٠ - ٤١) .

الرسل بها ودعوهم من جديد الى الالتزام بقواعدها .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز : (. . . فالناس محتاجون على وجه التحديد الى قاعدة صالحة للتطبيق على فطرتهم . ويستطيع كل منهم في الحالات السهلة ان يجد تلك القاعدة مسجلة بصورما في ضميره . اى ان الشخص لا يحتاج الى ذلك الكيان الشكلي المجرد ، وهو ان احتاج اليه فان هذه الفكرة الفارغة لا تفيدنا شيئا محددا .

" لابد اذن من ان نتوجه وجهة اخرى ، فاين نفتش عن ذلك النور البديع لنهدى ضمائرنا ، عندما لا تجد حيثما توجهت غير الظلام . . واين نجد المخلص الذى تعلقت به انفسنا وقد تقاذفتها الشكوك .

ليس لدينا امام هذه الاسئلة سوى اجابة واحدة تفرض نفسها ، اذ لا احد يعرف جوهر النفس ، وشريعة سعادتها وكمالها ، مع الصلاحية الكاملة والبصيرة النافذة ـ غير خالق وجودها ذاته " الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير "(١) .

. . . فاذا ماقيل لنا اننا نحن الذين نشرع لانفسنا ، بوصفنا اعضاء فى عالم عقلى ، وجب علينا ان نتفق على ذلك الاستقلال الذى خص به العقل ماذا تعنى فى الواقع هذه المقولة : (العقل يمنح نفسه قانونه) ؟ هل يبدع العقل القانون ؟ او انه يتلقاه محددا على انه جزء من كيانه ، كيما يفرضه على الارادة . . ذلك لانه اذا كان العقل مبدع القانون فانه سوف يصبح السيد المطلق فيبقى عليه ، او يبطله ، تبعا لمشيئته ، فاذا لم يستطع ذلك فلانه قانون سبق فى وضعه وجود العقل ، وان صانع العقل قد طبعه فيه كفكرة فطرية ، لا يمكن الفكاك منها .

" وحينئذ يكون معنى : ان يستنصح المرء عقله : انه يقرأ فى كتاب فطرته النقية والانسانية بصفة نوعية ـ ماسبق ان فطرها الله عليه . وبعبارة اخرى : عندما يرجع اشد الناس الحادا الى سلطة العقل فانه لا يفعل فى الواقع سوى الانصات الى ذلكم الصوت الالهى ، الذى يتكلم فى داخل كل منا

---

(١) الملك : ١٤ .

دون ان يذكر اسمه ، وهو ينطق به صراحة عندما يتحدث الى المؤمن .

ولكن اذا كان النوران : الفطرى والوحى - ينبثقان من مصدر واحد فحسب ، فيجب ان نخرج اخيرا بان الله سبحانه هو الذى يرشدنا دائما الى واجبنا ماظهر منه ومابطن[1] .

وعلى هذا الاساس فان تعاليم الاخلاق مستمدة من الدين ، ولا يجوز بحال من الاحوال فصل الاخلاق من منبعها الاصيل وهو الدين .

اساس الاخلاق :

لدى التحليل تبين لى ان اسس الاخلاق عقلية وفطرية: وجدانية ودينية تدعو الى الاخذ بها القاعدة الايمانية فى الاسلام ، لكل ذلك فهى ربانية لان الله سبحانه وتعالى هو الذى منح العقول موازين ادراكاتها ، واودع فى الفطر الوجدانية احاسيسها ومشاعرها ، وهو الذى انزل على رسله قواعد الايمان واحكام التشريع .

اما كون الاخلاق عقلية فلان مكارم الاخلاق يؤيدها العقل ويستحسنها ويحث عليها ، ويوجب مايوجب منها . ولان رذائل الاخلاق يؤيد العقل اجتنابها ويستقبحها ، ويحث على البعد منها .

اما كونها فطرية وجدانية فلان فى فطر الناس الوجدانية ميلا الى مكارم الاخلاق ، ورغبة داخلية بالتزامها وممارسة كل سلوك تدفع اليه ، كما ان فى فطر الناس نفورا من رذائل الاخلاق ، ورغبة داخلية باجتنابها .

اما كونها دينية فلان القاعدة الايمانية فى الاسلام تلزم بطاعة الله عز وجل فى اوامره واجتناب نواهيه . وقد اشتملت اوامره سبحانه وتعالى ونواهيه ووصاياه على العمل بمكارم الاخلاق ، والبعد عن رذائلها وقرنت ذلك بالثواب لمن اطاع ، والوعيد بالعقاب لمن عصى[2] .

---

(١) دستور الاخلاق فى القرآن ، مقتطفات من (ص ٣٣ - ٣٦) .
(٢) الثقافة الاسلامية (ص ١٩٩ - ٢٠٠) .

ثبات الاخلاق .

ومادامت الاخلاق فطرية فى النفوس، ومصدرها واحد وهو الله عز وجل ذلك لان القيم الاخلاقية العليا ثابتة ثبات فطرة الانسان وكيانه ووجوده وان تغير البيئات والعصور لا يغير منها ، فلا يمكن ان يكون العدل ظلما او الحق باطلا او الفضيلة رذيلة، فقد اعطى الانسان الفطرة التى تميز الخير من الشر، والعدل من الظلم ، والتقوى من الفجور، وستظل هذه القيم قائمة مادامت الحياة .

اما قول الماديين ان الاخلاق تتطور تبعا لتطور العامل الاقتصادى وان الاخلاق من اختراع الطبقات فباطل للوجوه التالية :

(١) فساد فكرة حتمية التطور كما فهمها الماديون .

(٢) العامل الاقتصادى ليس هو العامل الوحيد الفعال فى كيان الانسان .

نعم ان الاخلاق تتطور تبعا لتطور العامل الاقتصادى حين يغيب شرع الله عن التطبيق ، ويصبح التشريع بيد الافراد . فالطاغوت الذى يضع قواعد الاقتصاد ـ لصالح طبقة معينة على حساب الاخرين ـ هو ذاته الذى يضع قواعد الاخلاق لصالح نفس الطبقة على حساب الناس الاخرين كذلك . والخطأ الذى وقع فيه الماديون هو : انهم نظروا الى الارتباط بين الاخلاق والاقتصاد من زاوية السبب والنتيجة . ولم ينظروا اليهما من زاوية المصدر .

وحقيقة الامر ان الارتباط بين الاخلاق والاقتصاد هو توحد المصدر الذى صدرتا عنه وهو اما ان يكون الله سبحانه وتعالى . واما ان يكون الطاغوت ومن هنا فان قول الماديين ان الطبقة الحاكمة هى التى تشرع الاخلاق قول صحيح نسبيا بالنسبة للجاهلية التى لا تلتزم بشرع الله عز وجل ولا تحكمه فى شئون حياتها . اما حين يحكم شرع الله ودينه الصحيح واقع الناس، فان الاخلاق تكون واحدة لجميع الناس، لان الله يشرع للجميع . وعلى فرض صحة كلام الماديين ان الاخلاق غير فطرية ـ وهو ليس بصحيح ـ فما هى مصلحة الطبقة الحاكمة فى الاخلاق والصدق والعفة ؟ لانه كما هو معلوم ان الطبقة

الحاكمة التى لا تلتزم بشرع الله من مصلحتها انتشار الفساد حتى تتمكن من فرض سيطرتها على الناس . اذن فالاخلاق ثابتة وخالدة من الاصل من تقرير الله سبحانه وتعالى لها .

وحتى تتكون لدى القارئ صورة واضحة عن فساد النظرة المادية للاخلاق ، لابد من عرض موجز للاخلاق الاوربية وللظروف التى احاطت بها حتى وصلت الى ماوصلت اليه من الانهيار والانحطاط فى ايامنا المعاصرة ، ولنرى كيف استمد ماركس من هذه الظروف نظريته واصدر حكما حتميا على الاخلاق بانها اخلاق طبقية تتبع العامل الاقتصادى بتطوره وتغيره .

كيف انحرفت اوربا عن الاخلاق ؟

كانت الاخلاق الاوربية فى يوم من الايام مستمدة كلها من الدين وليس هناك مصدر للاخلاق فى الحقيقة سوى الدين ، وانحرف الناس عن الدين وعن عقيدتهم وانحرفت اخلاقهم ، ولكن انحراف الاخلاق بطئ جدا ، قد لا يتم فى جيل واحد او جيلين .

كانت الاخلاق الاوربية ذات يوم مستمدة كلها من المعين الذى لا معين غيره للاخلاق . . معين الدين . وكان هناك مصدران لهذا الرصيد الخلقى فى اوربا : احدهما الديانة النصرانية والثانى هو الاسلام . اما الديانة النصرانية منذ ادخلها الامبراطور قسطنطين فى اوربا - فقد صبغت الحياة بمثل اخلاقية معينة . رغم مادخل العقيدة النصرانية من تحريف على يد قسطنطين . ثم احتك العالم الاوربى بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية ورأوا الاخلاق الاسلامية على حقيقتها ، رأوا الامانة والصدق والوفاء بالمواثيق والتعاون بين الناس .

ولكن النهضة - لظروف بينتها من قبل[1] - قد انحرفت عن عبادة الله وعادت وثنية يونانية ورمانية لا يردها عن الوثنية شئ ، وان بقية العقيدة

---

(١) انظر التمهيد - الظروف التى مهدت لانتشار التفكير المادى للتاريخ .

رصيدا باهتا فى الضمير، وهنا اضيف الى حصيلة الاخلاق فى النفس رصيد ثالث هو رصيد الفلسفة الهلينية . وبدأ الانحراف فى الاخلاق منذ ذلك الحين .

لقد كان من اثر دخول الفلسفة اليونانية فى حصيلة الاخلاق الاوربية انهم تصوروا انه من الممكن - ومن المستساغ - ان تقوم المثل الاخلاقية فى الفضاء . بينما السلوك الواقعى يسير فى خط آخر محكوم بالضرورات . وهذه التفرقة بين النظرية والتطبيق رصيد اودى بحث انتجته الجاهلية الاوربية الحديثة بوجه خاص، وصبغت به اخلاقيات العالم كله، فى كل مجال، فصار من المستساغ عند الناس ان يتحدثوا عن النظرية الاخلاقية ويستمتعوا بها فى ذاتها - فى عالم المثل - ثم لا يتوقعوا تطبيقها فى واقع الارض وانما يسيرون فى هذا الواقع، بحسب ما تقتضيه الظروف .

وفى ظل هذه الجاهلية فى التصور ولدت " الميكافلية" التى تتسم بطابعها السلوك الغربى كله، فى كل مجال تجد فى اوربا ان " المثل" لا تسعفها بالفائدة المطلوبة . وبدأت الغاية تبرر الوسيلة تعمل عملها فى السياسة . فكل وسيلة مهما كانت قذارتها وبشاعتها مستساغة مادامت توصل الى الهدف المطلوب .

وفى الداخل والخارج طبعت الميكافلية سياسة اوربا بطابعها .

الملوك، والاشراف، ورجال الكنيسة يتبعون اخس الوسائل للحفاظ على مالهم من سلطان ومال . وكذلك الرأسمالية من بعدهم ترثهم . وتزيد عليهم بشاعة زائدة فى التواء السلوك لتحقيق المصالح غير المشروعة التى تعيش عليها . اما فى الخارج فحدث عن الاستعمار وبشاعته ولا حرج . كان المستعمرون يتوسلون بكل سفالات الارض ودناءاتها ليوطدوا سلطانهم ويمتصوا دماء الناس، ولا يرون فى ذلك انحرافا .

واخذ الاقتصاد من بعد السياسة فى الانفصال عن الاخلاق .

والحق ان النظام الاقتصادى فى اوربا كان قائما منذ البدء على

اساس غير اخلاقى فقد كان النظام الاقطاعى قائما بكل شناعته من قبل النصرانية ولم تستطع النصرانية الكنسية المحرفة ان تخضع الوضع الاقتصادى فى الامبراطورية الرومانية لقواعد الاخلاق المستمدة من الدين . وزاد الطين بلة ان الكنيسة نفسها انقلبت الى مؤسسة اقطاعية كبيرة، ولكنها على الرغم من كل الانحرافات استطاعت ان تجعل التعامل بالربا امرا مستبشعا لا يلجأ الناس اليه فى معاملاتهم الاقتصادية الا كارهين . فلما جاء الانقلاب الصناعى والرأسمالية كان الناس قد بعدوا اشواطا كثيرة من العقيدة والاخلاق، ومن ثم لم تجد الرأسمالية حرجا فى انتهاك كل ما رغبت فى انتهاكه من مبادىء الاخلاق فاستحلت الربا والاستغلال الشنيع للعمال والاطفال والنساء . وافساد الاخلاق بالجملة لاتاحة فرص الربح المجنون للرأسمالية، الملاهى، الملذات وادوات الزينة .

" وكان نهب المواد الخامة من البلاد المستعمرة لتحصل الرأسمالية على الربح الفاحش وتترك الملايين الاصليين فى الفقر والتأخر والجهل والمرض والعجز .. مع تصدير المفاسد الخلقية لتربح الرأسمالية عن طريقها مزيدا من الارباح .

وكان شراء الذمم والضمائر - فى السياسة الداخلية - لضمان تسيير السياسة حسب اهواء الرأسمالية الحاكمة، وفى السياسة الخارجية للابقاء على مصالح الرأسمالية والاستعمار . وسخرت الرأسمالية ايما سخرية من الذين يواجهونها بالدعوة الخلقية والرجوع الى مبادىء الاخلاق . وظهرت نظريات (علمية) تقول ان الاقتصاد له قوانينه الخاصة - قوانينه الحتمية التى لا علاقة لها بالاخلاق . بل لا علاقة له بالناس على الاطلاق " (1) .

ثم اخذ الجنس بالانفصال عن الاخلاق، وقد كان واضحا للناس فى اوربا ان هذا فساد فى الاخلاق . ولكنهم رويدا رويدا نسوا هذه الحقيقة

---

(1) جاهلية القرن العشرين (ص ١٤٢) .

او انستهم اياها شياطين النظريات الحيوانية من اليهود مثل ماركس وفرويد ، ودوركايم .

لقد غرق الناس فى حمأة الجنس بتأثير مبادىء اليهود الهدامة ثم نسوا انهم بذلك ينحرفون عن الاخلاق ، فراحوا يقولون : ان الجنس عطية بيولوجية بحتة لا علاقة لها بالاخلاق .

ومضت العجلة خطوة اخرى فى طريق الانحدار ، لقد بقى رصيد من الفضائل الانسانية الخليقة بالاعجاب . الصدق والامانة والاستقامة والجلد على العمل والاخلاص فيه . وهى جزء من الرصيد الاصلى للاخلاق الذى استمدته اوربا من الدين ـ النصرانى والاسلامى ـ ولكن الاخلاق الرومانية الانانية النفعية افسدت ماتبقى من هذا الرصيد الخلقى .

ان الصدق والاخلاص والامانة والاستقامة . . . الخ فضائل . ولكنها يمكن ان تتم على مستويات مختلفة . على مستوى انسانى وهو الخليق بها وهذه صورتها الحقيقية الاصلية التى تستمدها من وحى الدين . او على مستوى قومى . اى انها لا تطبق الا فى حدود القومية فاذا ماخرجت عن الحدود القومية الضيقة برزت الانانية على اشدها . فلا تبالى من السرقة والغش والنهب والاستغلال والخداع ، ولا تبالى ان تصنع ذلك كله ولا تتأثم من فعله ، حتى على المستوى القومى فانها تتم على اساس ما تجلبه من النفع لحاملها ، فهى تتبع بمقدار هذا النفع ـ وتبطل اذا بطلت المنفعة القريبة او البعيدة [١].

هذه النتيجة السيئة التى وصلت اليها اوربا بسبب انحراف الاخلاق عن الدين . وبالتالى انحراف الناس عن الاخلاق [٢] . . هذه الحالة السيئة هى

---

(١) انظر نفس المصدر (ص ١٤٢ - ١٤٦) .

(٢) ومن اراد التوسع فى معرفة فساد الاخلاق فى اوربا فليراجع الكتب التالية : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الافعى اليهودية فى معاقل الاسلام ، جاهلية القرن العشرين ، جذور البلاء .

التى جعلت ماركس ـ الذى انكر وجود الله سبحانه وتعالى ، وانكر ماوراء المادة ـ يقول ان الاخلاق غير فطرية وهى متطورة تبعا لتطور العوامل الاقتصادية ، وعمم حكمه على جميع الاخلاق .

وقد جاءت النظرية الشيوعية منسجمة مع الاخلاق النفعية الاوربية فاعلنت صراحة انها لا تحتاج الى الاساس الاخلاقى . كيف تؤمن بالاخلاق وهى تنكر مصدر الاخلاق وهو الدين وتحاربه ؟ وكيف تؤمن بالاخلاق وهى لا ترى حقيقة الاخلاق الصحيحة فى المجتمعات ؟ وكيف تؤمن بالاخلاق وهى الدعوة التى ماقامت الا من اجل افساد الاخلاق ؟ وهذا ماحدث فعلا فى المجتمعات الشيوعية . لم يتركوا طريقا لافساد الاخلاق الا سلكوه . فاحلوا ماحرم الله ، وحرموا ما احل الله ، اباحوا الزنا ، وحرموا الزواج ودعوا الى اشاعة النساء . وهدموا الاسرة . واستعملوا كل وسائل الكذب والخداع والتضليل كما جاء فى اعترافهم . ومارسوا شتى الوان الاضطهاد والتعذيب والقتل الوحشى للافراد والجماعات . ولم يردعهم فى ذلك وازع من ضمير .

ان الاخلاق التى يدعون اليها هى فقط فى العلاقة نحو العمل ونحو الملكية الجماعية . ولكن هل تحققت الاخلاق الشيوعية نحو العمل والملكية الجماعية ؟ الم يسرقوا من ملك البرولتاريا باسم السلطة وهذا ستالين اكبر سفاح ومجرم فى نظرهم .. نهب اموال الشعب واسرف فى ملذاته وشهواته الخاصة .

وهل احب العامل عمله والعمال من حوله ؟ وهذه ادوات التعذيب شاهدة على كره العمال لعملهم . وثورات الفلاحين التى اخمدت بالحديد والنار تنسف دعواهم من اصولها .

انهم صادقون فيما وصفوا انفسهم حين قالوا : (ان الماركسية تنتقد دونما تحفظ ـ محاولات علماء الاجتماع البرجوازيين ، والبرجوازيين الصغار لجعل الاشتراكية قائمة على اساس اخلاقى .. اى بناء نظرية الاشتراكية على اساس المبادىء الخلقية المجردة كالعدالة الخالدة ، والحق المطلق وغيرهما ، دون ان ينطلقوا من القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى ، وبهذا

المعنى في الواقع ليس في الماركسية مثقال ذرة من الاخلاق كما يقول لينين) .[1]

هذه الحياة البهيمية التي تريد الشيوعية والرأسمالية للبشرية ان تحياها حين حاربت شرع الله ، وصدت الناس عن الدين والاخلاق القويمة من اجل تحقيق اكبر قدر ممكن من الارباح المادية على حساب الشعوب وامتصاص دمائها وخيراتها .

ان البشرية لن تسلم من عاقبة الفساد الا بالعودة الى دين الله الصحيح . الى الاسلام تحكمه في شئون حياتها ، وتتخلق باخلاقيات هذا الدين الحنيف في حياتها العامة والخاصة .

الاخلاق في الاسلام .

للاسلام نظرة خاصة بالنسبة للاخلاق . هذه النظرة مستمدة من عند الله الذى انزل للناس دستورا خالدا يحكم حياتهم ويربي مكارم الاخلاق في نفوسهم . ومن هنا فان الاخلاق الاسلامية شاملة لجميع نواحي الحياة فللفكر اخلاق ، وللاعتقاد اخلاق ، وللقلب اخلاق ، وللنفس اخلاق ، وللسلوك الظاهر اخلاق .

فمن فضائل الاخلاق الفكرية ، تحرى الحقيقة بانصاف وتجرد وحياد والصبر على التفكير والتأمل والتدبر ، والبحث من كل نافع مفيد من الافكار والمعارف والعلوم . لقد سخر الاسلام العلم لخدمة البشرية وتحقيق الخير والسعادة للناس يوم كانوا سادة العلم حين كانوا يحكمون بوحي من دينهم في يوم كانوا يستطيعون فيه ان يستغلوا العلم لمطالحهم الخاصة ، والتحكم في الشعوب الجاهلة . ولكن الدين الذى انزله الله رحمة للعالمين ربى في نفوسهم ان يسخروا العلم لخدمة دين الله ، ولتحقيق العدل والرخاء للناس كافة . بخلاف العلوم الاوربية الحالية التي تستغل في افساد الاخلاق

---

(١) المادية التاريخية (ص ٤٧١ - ٤٧٢) .

(كحبوب منع الحمل مثلا) التى اخترعت من اجل النساء اللواتى يتضررون من الحمل ، ولكنها اخيرا استعملت فى افساد اخلاق الشباب والشابات .

ومن فضائل الاخلاق فى الاعتقاد ان لا يسمح الانسان لنفسه ان يتتبع الاوهام والظنون الضعيفة فى مراكز اعتقاده الثابتة الراسخة ، وان لا يجعل مركز عقائده فريسة للتقليد الاعمى والضلالات الشائعة ، او فريسة لما تطلبه الاهواء والشهوات من افكار ومذاهب ، او مايمليه القادة المضلون والشياطون الموسوسون من الانس والجن . وعلى الانسان ان يجتنب النقائض والرذائل حتى يظفر بالارتقاء فى سلم الكمال الخلقى .

ومن فضائل اخلاق القلب حب الحق وحب الخير وكراهة الباطل والشر وعدم تحمل الاحقاد والضغائن . ومن اخلاق النفس الصبر والعفة ومجانبة الحسد والترفع عن سفاسف الامور ، وعلو الهمة ، وجود النفس وعفوها عن اساءة المسىء الى غير ذلك من امور كثيرة .

اما فضائل اخلاق السلوك الظاهر فكثيرة ، وهى فى حقيقتها تعبير عما فى داخل النفس الانسانية من اخلاق ..[1] وتتناول الاخلاق الاسلامية جانب السلوك الفردى والجماعى ، ومن الاخلاق التى تتناول جانب السلوك الفردى القناعة الذاتية والزهد والصبر والنظام والحزم والتفاؤل . اما الاخلاق التى تتناول السلوك الجماعى فهى الحلم ، والصبر والصدق والامانة والعفو والتسامح ، وحب العطاء والشجاعة والكرم والتواضع ولين الجانب والوفاء .

يقول شيخنا الاستاذ عبدالرحمن الميدانى حفظه الله : (وقاعدة الاخلاق الاجتماعية الكبرى تتلخص بأن يعامل الانسان الاخرين بما يحب ان يعاملوه به ، انه يحب ان يعاملوه بالعفو اذا اساء فليكن عفوا عن اساءاتهم ويحب ان يكونوا معه امناء فليكن معهم امينا . ويحب ان يصدقوه ولا يكذبوه فليصدقهم ولا يكذبهم ، ويحب منهم العفة عن محارمه فليكن عفيفا عن محارمهم

---

(١) انظر الثقافة الاسلامية (ص ٢١٣ - ٢١٤) .

وهكذا .. ويكره منهم اضداد هذه الامور فلا يعاملهم بما يكره ان يعاملوه به . وقد بلغت الاخلاق الاجتماعية فى الاسلام مبلغا من الرقى العظيم جعلها فى مركز القمة، بما اشتملت عليه من تفصيلات موثقة للروابط الاجتماعية بين الافراد، ومؤثرة تأثيرا عميقا فى تغذية وحدة الجماعة الاسلامية وتنمية روابط المودة والاخاء بين المسلمين .

" وحسبنا ان نذكر فى هذا المقام فضائل العفو، والاحسان، والتعاون والتضحية، والايثار، واكرام الضيف، واكرام الجار، والتواضع، ولين الجانب، وحسن المعاشرة، والتزاور فى الله، وعيادة المرضى، والتهادى، والقرض الحسن ونحو ذلك"[1].

هذه هى الاخلاق الاسلامية التى ندعو اليها، لان فيها الخير العظيم والرخاء العميم للبشرية . فقد جربتها البشرية مرة فى تاريخ حياتها يوم كان الحكم لله فكانت نتائجها طيبة على اهلها خاصة . وعلى البشرية عامة، حتى ان الكتاب المنصفين يصفون كيف كان الناس يعيشون فى حالة نفسية هادئة نتيجة للاستقرار وروح الامن والاخلاق . حتى ان شعوبا كثيرة اعتنقت الاسلام نتيجة للاخلاق الاسلامية التى كان يتمثل بها الدعاة المسلمون من تجار وعلماء وغيرهم .

تقسيم الاخلاق الاسلامية باعتبار علاقاتها .

لدى تصنيف مفردات الاخلاق باعتبار علاقاتها نلاحظ انها تنقسم الى اربعة اقسام هى :

(١) علاقة الانسان بخالقه . ومكارم الاخلاق فى هذا المقام تفرض على الانسان الايمان بالله لانه حق، وبتنزيهه عن كل مالا يليق به، وان يصفه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، وان ينفى مانفى الله عن نفسه ومانفاه

---

(١) نفس المصدر (ص ٢١٥) .

عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل . وان يطيع اوامره ويجتنب نواهيه .

(٢) علاقة الانسان مع الناس الاخرين . وتتمثل فى الصدق والامانة والعدل والكرم ، والعفة والعفو، وحسن المعاشرة واداء الواجب والاعتراف لكل ذى حق بحقه .

(٣) علاقة الانسان مع نفسه . وتتمثل فى الصبر على المصائب، والنظام والاتقان فى العمل والاخلاص، وهكذا .

(٤) علاقة الانسان مع الاحياء غير العاقلة . وتتمثل فى الرفق بها ومعاملتها والرحمة بها ، وتأدية حقوقها من اكل وشرب، وحرمانها من حقوقها يعتبر من قبائح الاخلاق[1] .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لاهى اطعمتها وسقتها اذ حبستها ولاهى تركتها تأكل من خشاش[2] الارض "[3] . كما طلب الاسلام من المسلم ان يريح ذبيحته ويحد شفرته ، كما نهى عن ضرب الحيوان بقسوة وتحميله فوق طاقته .

ضرورة مكارم الاخلاق للمجتمعات الانسانية .

يقول شيخنا الاستاذ عبدالرحمن الميدانى : " ان اى مجتمع من المجتمعات الانسانية لا يستطيع افراده ان يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء مالم ترتبط بينهم روابط متينة من الاخلاق الكريمة . ان مكارم الاخلاق ضرورة اجتماعية ، لا يستغنى عنها مجتمع من المجتمعات ، ومتى فقدت الاخلاق التى هى الوسط الذى لابد منه لانسجام الانسان مع اخيه الانسان ، تفكك افراد المجتمع وتصارعوا ، وتناهبوا مصالحهم ، ثم ادى بهم الى الانهيار ثم الى الدمار .

---

(١) انظر نفس المصدر (ص ٢١٧ - ٢١٨) .
(٢) خشاش الارض : هوامها وحشراتها .
(٣) متفق عليه . البخارى ج ٢ ص ٢٦٣ ، مسلم ج ٤ ص ١٧٦٠

يرى فضيلة الشيخ الغزالي ان اتحدث عن الجانب الاقتصادي الاسلامي في موضوع الاخلاق

كيف تكون الثقة بالعلوم والمعارف والاخبار وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق ؟ كيف يكون التعايش بين الناس في امن واستقرار لولا فضيلة الامانة ؟

" ... كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجد عظيم لولا فضيلة الشجاعة في رد عدوان المعتدين وظلم الظالمين ، ولولا فضائل العدل والرحمة والاحسان والدفع بالتي هي احسن ؟

" ... لقد دلت التجربات الانسانية ، والاحداث التاريخية ، ان ارتقاء القوى المعنوية للامم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الاخلاق الفاضلة وتتناسب معه ، وان انهيار القوى المعنوية للامم والشعوب ملازم لانهيار اخلاقها وتتناسب معه . فبين القوى المعنوية والاخلاق تناسب طردي دائما صاعدين وهابطين " (١) .

حرص الاسلام على تقويم الاخلاق .

حرص الاسلام اشد الحرص على العناية بتزكية النفس وتربيتها على الاخلاق الفاضلة . وللاخلاق مكانة عظيمة في الاسلام ، وذلك لان حسن الخلق عبادة لله عز وجل اذا قصد المسلم ابتغاء مرضاة الله تعالى . وفيه فوائد شخصية واجتماعية كثيرة . لذلك يتحقق بحسن الخلق من رضوان الله عز وجل اكثر مما يتحقق بالاستكثار من نوافل العبادات المحضة كالصلاة والصيام والاذكار ، والادلة على قيمة حسن الاخلاق كثيرة وفيرة . ومن اراد التوسع في ذلك فليرجع الى الكتب التالية :

خلق المسلم ، ودستور الاخلاق في القرآن .

---

(١) نفس المصدر (ص ٢١٨ - ٢١٩) .

الفصل التاسع

مناقشة موقف التفسير المادى للتاريخ من الشخصيات البـــارزة

****

لا يعترف الماديون بدور الافراد البارزين فى دفع عجلة التاريخ الى الامام ، وذلك لان اسلوب الانتاج هو القوة المحددة للتطور الاجتماعى . والجماهير الكادحة هى التى تقوم بالدور الحاسم فى صنع التاريخ ، وهم يعترفون احيانا بدور الشخصيات البارزة فى التاريخ ، لكنهم ينكرون ان يكون تأثير هذه الشخصيات مستقلا عن ارادة ووعى الجماهير . ومهما كان الفرد عظيما فانه لا يستطيع ان يعطف مسار التاريخ ، الا اذا كان معبرا عن مشاعر الجماهير وارادتها [1] .

وهدفهم من انكار دور الافراد البارزين هو : انهم بعد ان انكروا وجود الله سبحانه وتعالى ، انكروا دور الرسل عليهم السلام . وانكروا اثرهم فى دفع عجلة التاريخ الى الخير والعدالة والفضيلة ، وتغيير مسارها عن طريق الفساد والضلال .

صلة الفرد بالمجتمع

توجد بين الفرد والمجتمع صلة قوية ، لذلك لا يمكن الفصل بينهما ، لان الفرد لا يمكن ان يكون فردا خالصا ذا كيان مستقل مقابل لوجود المجتمع ، ان الواقع المحسوس هو ان كل فرد هو فى ذات الوقت كائن مستقل وعضو فى جماعة ، ولا تكاد توجد لحظة واحدة ولا فكرة واحدة ولا عمل يمكن ان يزاوله الفرد باحدى صفتيه دون الاخرى . وقد كان امرا طبيعيا ان يكون المجتمع الاول فى اضيق نطاق ممكن وابسط صورة ممكنة : اسرة وزوج وزوجة وابناء وتلك اول مجموعة يمكن ان تتغلب فيها نزعة الاجتماع على النزعات الفردية المستقلة . ثم ظل المجتمع يرتقى ويكبر كلما تلاقت مصالح البشر فغلبوها على نوازعهم الفطرية حيث يجدون ان ذلك يحقق لهم قدرا من النفع المشترك اكثر مما يحققه الفرد وحده ، او الاسرة وحدها . وتكونت القبائل والعشائر ثم الامم والشعوب .

---

(١) انظر الباب الاول ـ الفصل السابع .

والمهم ان هذا الارتقاء الذى وصل اليه الناس فى اجتماعياتهم لم يكن مفروضا عليهم من خارج انفسهم ، وانما كان استجابة لتلك النزعة القوية المتأصلة فى نفوسهم . وهى التى تدفع الانسان الى الالتقاء باخيه الانسان .

ولكن الواقع ان الانسان مجموعة من الرغبات المتضاربة التى لا يمكن تحقيقها فى وقت واحد ، والرغبة فى الاجتماع عند الانسان اخضعت النوازع الفردية فيه لسلطانها ، وعملت على تهذيبها بالتدريج ، ولكنها لم تنتزعها من نفس الفرد ، فالنوازع الفردية موجودة فى نفس الانسان جنبا الى جنب مع الرغبة الجماعية الملحة ، كما يوجد فيها الحب والكره والخير والشر ، والرغبة فى الصعود مع الرغبة فى الهبوط . فالانسان مخلوق متقلب . فمرة نجده يستجيب لنوازعه الفردية ويسير معها الى آخر المدى ، ويشعر ان وجود الاخرين يضايقه ، ويتمنى ان تكون له السيطرة المطلقة عليهم ، وتارة اخرى نجده يستجيب لنزعات الاجتماع ، فيضيق بنفسه فردا ، ويسعى الى الالتقاء بالاخرين ، وقد يصل فى هذا التبرم الى آخر مدى فيذوب فى كيان الاخرين . وهو فى حالته السوية دائم التقلب من وضع الى وضع . ولا ضير فى ذلك فتلك فطرته وهو مستطيع - مادام لا يسرف ولا يتطرف - ان يحقق بفطرته اقصى الخير لنفسه وللمجتمع . ولكن الخطر ينشأ من الاسراف والتطرف فى كلا الاتجاهين الفردى او الجماعى وقد وقعت اوربا بقسميها الشرقى والغربى فى هذا الخطر . فالشيوعية فى شرق اوربا اسرفت فى تقدير المجتمع واهملت شأن الافراد واهميتهم والرأسمالية فى غرب اوربا وامريكا ركزت على الفرد واهملت شأن المجتمع .

فى حين نجد ان الدول الرأسمالية التى ركزت على الفرد واطلاق الحرية له كاملة بدأت تشكو من الجرائم والويلات التى جرتها عليهم النزعة الانانية الفردية . ففى امريكا تزداد حوادث اختطاف البنات يوما عن يوم على الرغم من الحرية الجنسية الكاملة المباحة للجميع بلا حرج ، وفرنسا بدأت فيها المسألة بالحرية الجنسية واخذت الحرية النفسية تتدرج من

مجال الى آخر حتى شملت السياسة والاقتصاد وكل شئون الحياة . وقد ادى هذا كله الى قلة الانتاج والدسائس ، وضعف الجيش لعدم الرغبة في التجنيد لان الافراد احسوا ان الدولة معسكر آخر منفصل عنهم ، لا ينبغي له ان يتدخل في شئونهم او يفرض عليهم قيدا من القيود .

فلما دخلت فرنسا الحرب خرت ذليلة امام الالمان وذلك لضعف الروح المعنوية عند شعبها . ان اوربا تعاني من الامراض العصبية والنفسية والخلقية والسلوكية عناء شديدا ، وفي كل يوم نسمع عن جرائم جديدة ، كما نسمع من المفكرين والعلماء والادباء صيحات جديدة تحذر الشعوب الغارقة في وحل الجريمة والحرية الجنسية غير المحدودة والانانية الفردية من عاقبة امرها . ان هذه الانحرافات التي اصابت المجتمعات الاوربية هي نتيجة لتهاونهم في رد الافراد الذين بالغوا في الاحساس بفرديتهم الى صوابهم .

اما حين يكون الاعتداء موجها من المجتمع الى افراده ، فان الصورة تكون ابشع وافظع . حين يتسلم الامر مجموعة الافراد المستبدين - كما هي الصورة القائمة في المجتمعات الشيوعية - فانهم يخضعون بقية افراد المجتمع لسلطانهم الجائر ، ويفرضون عليه نظاما معينا تضيع فيه شخصية الفرد المستقلة حيث يتجه دائما حيث يراد له ، لا حيث هو يريد . ولا يسمح للفرد في هذه المجتمعات الدكتاتورية ان يفكر على طريقته الخاصة ، او يكون له رأى في امور بلاده او امور الدنيا عامة غير الرأى الذى تريده دولته . ولكى تحقق السلطة خضوع الافراد التام لها ، فانها تلجأ الى سلوك الاساليب التالية :

(١) تشرف الدولة اشرافا تاما على تربية الاطفال في محاضنهم ايام الطفولة المبكرة ، ثم في المدرسة والجامعة ، بل تظل تشرف عليهم وتراقبهم في حياتهم العملية .

(٢) وحين تستلم الدولة الاطفال تعمل على ان تبذر في نفوسهم الغضة الطرية الطيعة ان النظام القائم خير نظام موجود على ظهر الارض ، وان كل ما سواه من الانظمة منحط وجائر ، فيخرج الى الحياة العامة وقد انطبع لا شعوريا على حقائق معينة لا يناقشها ، ولا يفكر في

مناقشتها حين ينضج فكره وتبذل الدولة كل ماتستطيع من اجل ان تتوصل الى الربط الكامل بين ذاتية الفرد وبين النظام الذى يعيش فيه . بحيث لا يحس ان له وجودا - او يمكن ان يكون له وجود - الا فى داخل هذا النطاق المرسوم ، وانه لو خرج عنه تهددته الكوارث . وعلى الرغم من كل هذه الجهود الجبارة فى التربية على مبادىء الشيوعية فانها تلجأ الى الجاسوسية التى تشكك الفرد بابيه واخيه وصاحبته وبنيه . فضلا عن زملاء العمل فى المصانع والمتاجر . والويل لمن يعارض او يثور (١) .

دور الافراد البارزين فى التاريخ

الفرد الممتاز عضو من المجتمع دون شك ، فهو متأثر بتياراته ، ومتفاعل معها ، ولكنه ممتاز عنه فى طريقة تكوينه ، ففى بنيته قدر من الطاقة الحيوية اكبر من المعتاد وهو اقدر على تفهم تلك التيارات المتفاعلة فى المجتمع واقدر على سلخ نفسه منها والنظر اليها كأنما ينظر من خارجها ، فيراها بعين النقد والتمحيص ، وتلك درجة من الامتياز ، ولكنها ليست كل درجاته فهناك مرحلة اخرى هى السخط على مايراه خطأ فى سير المجتمع . واعلان هذا السخط ، ومرحلة اخرى : هى الدعوة الى اصلاح هذا الفساد ، والعمل على هذا الاصلاح ، ولكن الدرجة القصوى هى التصدى للاصلاح بايمان كامل يستولى على نفس صاحبه ، فيصبح شغلها الشاغل لا تملك ان تتخلى عنه يصاحب هذا الايمان مقدرة على العمل فى سبيله ، ثم موهبة التأثير فى الاخرين .

ان المجتمع فى بداية الامر يقاوم دعوة الخير والاصلاح . وذلك لان الشر الخالص غير موجود ، وكل شىء مزيج من الخير والشر ، ولولا هذه

---

(١) انظر الانسان بين المادية والاسلام (ص ١٣٦ - ١٥٦) .

المقاومة من المجتمع لاصبح الامر فوضى ، ولكان كل مأفون تقوم فى رأسه فكرة يتمكن من الوصول بها الى اقصى الغايات فى لحظات .

ان مقاومة المجتمع لداعى الاصلاح تستمر الى آخر جهد ، ثم تنهار تدريجيا ، ولكنه عند ذلك يندفع فى التيار الجديد اندفاعا حماسيا حارا .

ان انكار دور الفرد الممتاز فى القيادة والتوجيه جريمة مزدوجة وذلك لانه يبدد طاقة بشرية من نوع ممتاز ، كان يمكن ان يستفيد بها المجموع لو اتيحت لها الفرصة المناسبة ، كما انه يظلم هذا الفرد حين يعامله معاملة الافراد العاديين بدعوى المساواة المطلقة بين الجميع . ان دعوى المساواة المطلقة خرافة حمقاء ، لان الناس مختلفون فى طاقاتهم الفردية واستعداداتهم الجسمية والفكرية والنفسية . كما يختلف هذا الكون بين القوة والضعف ، والعظمة والضآلة . ويكذب الشيوعيون حين يزعمون ان مكانة الفرد الممتاز عندهم محفوظة ، والواقع انهم ينكرون ان هناك فردا ممتازا لان الفرد هو نتاج المجتمع الذى يعيش فيه ، واقصى ما يمكن ان يتميز به الفرد عن غيره هو ان يكون مزودا بقدرة اكثر من غيره على فهم الامور على وضعها الصحيح ، اما الذاتية المتميزة ، التى تقدر على القيادة[1] والتى تتفوق على المجتمع وتؤثر فيه اكثر مما تتأثر به ، وتدفعه الى تغيير عقائده ونظم حياته بمقدرتها الفذة على التأثير والتوجيه ، فتلك كلها خرافة لا وجود لها الا فى نفوس المتدينين الرجعيين - على حد تعبيرهم - .

والذى يهدم هذه الخرافة من اساسها هو تاريخ الانبياء والرسل عليهم السلام وعلى وجه الخصوص سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استطاع ان يغير مسار التاريخ بما

---

(١) انظر بتوسع نفس المصدر فصل الفرد والمجتمع (ص ١٣٦ - ١٧٦) ، وكتاب فى النفس والمجتمع (ص ١٤٥ - ١٥٢) .

اوحى اليه من عند الله وبطريقته الذاتية فى تنفيذ ما اوحى اليه ، تلك الطريقة التى تعكس شخصيته صلى الله عليه وسلم الفذة العميقة ، التى ترتفع فى قوتها وتوازنها مع تعدد جوانبها ، الى قمة البشرية فى تاريخها الطويل وكذلك شخصية ابى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، اللذين اقاما دولة الاسلام على منهج الله وهديه ، واشرفا على اقامة مثل عليا فى سياسة الحكم وتنظيم المجتمع المسلم .

كما ان الناحية العملية فى احتقار دور الفرد الممتاز عند الشيوعيين هى ان كل فرد تسول له نفسه وامتيازه ان ينتقد شيئا من النظام الشيوعى فان ثلوج سيبيريا الباردة ، ومعسكرات الاعتقال فى انتظاره .

اما الاسلام فلا ينكر دور الفرد الممتاز ، بل من الفرد المتوازن ينشأ المجتمع المتوازن وفى المجتمع الصالح ينشأ الفرد الصالح ، لان الاسلام لا يغفل الفرد ، ولا يغفل المجتمع ، ولا يبالغ فى تقدير واحد منهما على حساب الاخر .

من الفرد الواحد وهو محمد بن عبدالله رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ المجتمع الاسلامى ، وانتقلت الفكرة منه صلى الله عليه وسلم الى اصحابه رضوان الله عليهم ، فانطلقوا بهذا الدين ينشرونه فى كل مكان ووقفت قوى البغى ممثلة بالمشركين من اهل مكة ومن حولها ، واليهود والمنافقين فى وجه الدعوة الجديدة ، ومكن الله للفئة المؤمنة فى الارض ونصرهم على عدوهم ، والامر الهام الذى يجب ان نلحظه هو ان الوضع الاقتصادى والمادى للعرب فى الجزيرة العربية ، بل العالم اجمع حينذاك لم يكن يؤدى بطريقة ذاتية الى ظهور هذا الدين من جديد .

ان الله هو الذى ارسل رسوله لهداية الناس ، رحمة بهم ومنقذا لهم من ظلمات الشرك والظلم والجور ، الى نور الايمان بالله وتحقيق العدل والامن فى الارض .

ان الاسلام يعتنى عناية تامة بالفرد المسلم على حدة ، لانه الوحدة التى ينشأ المجتمع من اجتماعها بغيرها من الوحدات ، واللبنة التى يقوم

عليها البناء . فعناية الاسلام بالاطفال والاولاد والشباب والنساء والكهول لا مثيل لها وان كانت تشبه عناية بعض الدول الجماعية، ولكن الوسيلة مختلفة ففى الدول الشيوعية تشرف الدولة بنفسها على تنشئة الاطفال بوسائلها الخاصة، وتراقبهم فى اثناء قيامهم بواجبهم، رقابة علنية حينا وسرية على الدوام . ذلك لانها لا تثق بهم، ولا تستطيع ان تكلهم لضمائرهم، وذلك لانها لا تعتنى بتربية ضمائرهم، والرباط المقدس الذى تربط به المشاعر والافكار وتنشأ عليه الاجيال هو الدولة لا العقيدة، لان العقيدة الدينية من اهم الاشياء التى تسعى الشيوعية الى ازالتها من الوجود .

اما الاسلام، فلا يحتاج الى ذلك كله، لان ايمان اهله به، هذا الايمان الذى يصلهم بالله عز وجل دون وساطة دولة او حزب، يجعلهم يتطوعون بتربية اولادهم على خلق الاسلام وهديه، لا يرجون من وراء عملهم الا رضاء الله سبحانه عنهم .

ان الاباء والامهات فى الاسلام حين يربون ابنائهم على الاسلام لا ينتظرون من احد ان يوجههم اليه لانه البديهية الاولى فى حياة الاسرة وهم لا يكبتون رغباتهم واشواقهم لان الكبت مناف لطبيعة الاسلام، بل يضبطون نزعاتهم الفطرية وينظمونها، ويربون فى نفوسهم تلك الارادة الضابطة التى تتحكم فى تصريف الطاقة الحيوية، فلا هى تستأصلها من منبتها ولا هى تطلقها بدون حدود، وبذلك يسلم الاطفال من الاضطرابات النفسية والعصبية، كما يبذرون فى نفوسهم بذور الاخلاق التى ترتفع بمشاعرهم عن الانانية والبغضاء . كما يبذرون فى نفوسهم ضميرا حيا يراقب اعمالهم ويحاسبهم عليها، فيطيعون دافع الخير ويبتعدون عن دافع الشر خوفا من الله لا من الناس .

كما يربون فيهم العزة التى لا تخضع لارادة اى انسان كان على ظهر الارض اذا خالف امر الله ونهيه، والتى لا تقبل ظلم يقع عليها من مخلوق .

ان الامتياز موجود ، لانه السنة الطبيعية مادام الافراد مختلفين في استعدادهم وميولهم ، ومواهبهم ، ولكن هذا الامتياز في الاسلام لا يبيح لاحد حقا انسانيا اكثر من غيره من الافراد . فالناس كلهم سواسية امام شرع الله ، لا فرق بينهم الا بالتقوى .

وقد شرع الاسلام انظمة وقوانين ، راعى فيها مصلحة الفرد ، ومصلحة المجتمع دون ان يطغى فيها جانب على آخر ، وكان من اهمها التشريع الاقتصادى ، والتكافل الاجتماعى ، وقوانين العقوبات ، وقوانين الاسرة . كما حث على مكارم الاخلاق ، وحرم الترف وكل وسائل الفساد . وحث على طلب العلم وشجعه ، وفتح الباب امام ذوى الذكاء ، ولم يحجر على عقولهم ان تبحث وتكتشف كل ما هو نافع ومفيد في حدود طاعة الله .

الفصل العاشر

مناقشة موقف التفسير المادى للتاريخ من الاسرة

****

تمهيـــد .

من خلال عرض موقف الماديين من الاسرة بينت انهم يقولون : ان الاسرة متطورة ومتغيرة على الدوام تبعا لتطور العامل الاقتصادى وتغيره ، وقد كـان الزواج الجماعى هو النظام السائد فى المرحلة الوحشية ، والغيرة على المـرأة عاطفة نشأت متأخرة ، والمحرم اختراع ثمين ، لانه قبل هذا الاختراع الثمـين لم يكن الوصال الجنسى بين الاولاد والامهات والاباء والبنات والاخـوة والاخوات يثير الاشمئزاز ، وقد كان الوصل الجنسى يتم بين الرجال والنسـاء بلا قيد . ونظرا لازدياد الثروة زادت مكانة الرجل فى الاسرة ، واخيرا تمكـن من السيطرة على زمام الامور ، اصبح الاولاد ينسبون اليه ويرثون مالـه واصبحت المرأة خاضعة له ، وان اول تقسيم للعمل هو تقسيم العمل بـين الرجل والمرأة ، ويشبهون الرجل بالبرجوازى والمرأة بالبرولتارى . ويقـول الماديون : ان البغاء سيختفى من المجتمع ، وتصبح الزيجة الوحدانية حقيقـة للرجل ، وان الاسرة الفردية لن تظل هى الوحدة الاقتصادية للمجتمـع لان الاقتصاد البيتى الخاص ينقلب الى صناعة جماعية ، وتصبح تربيـة الاولاد والعناية بهم من الشئون العامة ، لان المجتمع سيعنى عناية تامـة بالاولاد الشرعيين وغير الشرعيين ، ونتيجة لذلك يختفى القلق الذى يستحـوذ على قلب الفتاة من جراء العواقب التى تعتبر اهم حافز اجتماعى اقتصـادى وخلقى يمنعها من تقديم نفسها لمن تحب .

ويعيب الماديون على الاديان التى تفصل فصلا كاملا بين تربيـة الاولاد والبنات والى تكييف البنات بصورة لا يكون لهن من هدف معهـا غير الحصول على زوج لا غير ، كما يهدف الشيوعيون الى تهديم ركنى الاسـرة الاساسيين ، الزواج وتربية الاولاد ، ووسيلتهم فى تحقيق هذا الهدف هـى الغاء الملكية الخاصة ، وتربية الاولاد على نفقة المجتمع ، والمرأة لن تعود تابعـة لزوجها ، ولا الاولاد لاهلهم ، لان هذه التبعية ماتزال موجودة بفضل الملكيـة الخاصـة .

ويضحك الشيوعيون من ذعر البرجوازيين من اشاعة النساء ، وذلك لان شيوعية النساء فى نظرهم تقريبا كانت دائما موجودة ، والزواج البرجوازى هو اشاعة النساء المتزوجات ، كما انهم سيحولون اشاعة النساء المستترة بالرياء الى شيوعيةعلنية رسمية ، وان البغاء الرسمى وغير الرسمى سيزول من المجتمع نتيجة لزوال الملكية الفردية[1] .

مناقشة فكرة شيوعية النساء البدائية .

قبل الدخول فى مناقشة هذه القضية لا بد ان اطرح السؤال التالى :

ماهو الدليل العلمى على أن الشيوعية المطلقة فى علاقة الرجال بالنساء كانت هى النظام السائد فى المجتمعات البشرية الاولى ؟

ان العلوم البشرية الحالية لا تمدنا بدليل علمى قاطع عن احوال المجتمعات البشرية الاولى ، وكل ماتقدمه لنا من تلك المجتمعات ليس الا مجرد ظنون وتخمينات ، حتى ان انجلز نفسهاعترف صراحة ان حوادث التاريخ قبلعام ١٨١٥م تعتبر غائمة ومشوشة ، كما اعترف وهو يتحدث عن انقراض اسرة الجيل بقوله : " ان اسرة الجيل قد انقرضت ، وحتى اخشن الشعوب التى يتحدث عنها التاريخ لا تمدنا بامثلة على هذا الشكل يمكن التثبت منها "[2] .

وعلى الرغم من هذه الاعترافات الصريحة منهم التى تقول ان حوادث التاريخ فى المراحل البشرية الاولى ، لا يمكن التثبت منها ، فانهم يصدرون احكاما قطعية تفيد بان البشرية كانت تعيش فى حالة شيوعية جنسية كاملة ويزعمون انهم علميون ؟

يقول الدكتور على عبدالواحد وافى : " نظام الشيوعية المطلقة لم

---

(١) انظر الباب الاول ـ الفصل الثامن .

(٢) اصل الاسرة (ص ٥٧) .

نعثر عليه فى اى مجتمع من المجتمعات الانسانية سواء فى ذلك البدائى منها والمتحضر، فليس من بين المجتمعات الحاضرة والغابرة التى وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها او ملاحظة ما خلفته من آثار، او عن طريق ماكتبه المؤرخون او الرحالة، او علماء الانتوجرافيا او القانون .. ليس من بين هذه المجتمعات اى مجتمع اخذ بنظام الشيوعية المطلقة فى علاقة الرجال بالنساء، فكان جميع نسائه حقا مشاعا لجميع رجاله"[١].

وما دام ان نظام الشيوعية المطلقة لم يقم عليه دليل علمى قاطع لان فلابد من الالتزام بما قرره الله عز وجل من ان نظام الاسرة فطرى وان آدم وحواء عليهما السلام كانا اول زوجين من البشر .

قال تعالى " ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون"[٢].

وقال تعالى " والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة"[٣]. وقال تعالى " وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين"[٤].

اما الاستشهاد بان النظام الامى دليل على المشاعية الجنسية قديما فهو استشهاد خاطئ، لان النظام الامى يتصل اتصالا مباشرا بتحديد القرابة لا العلاقة الجنسية . ولقد لوحظ ذلك فى العشائر الاسترالية التى تسير على النظام الامى، فلم يشاهد الباحثون فيها اى اثر للشيوعية الجنسية، او صعوبة تعيين الاباء[٥].

وان الدارس لتاريخ الزواج منذ القدم يجد ان المشاعية الجنسية

---

(١) الاسرة والمجتمع (ص ٩٢) ، وانظر الاجتماع الدينى (ص ١٠٦-١٠٧) .
(٢) الروم : ٢١ .
(٣) النحل : ٧٢ .
(٤) البقرة : ٣٥ .
(٥) انظر الاسرة والمجتمع (ص ٩٥) .

لا نستطيع ان نطلقها على نظام يوجد به زواج ، لان الشعب لا يعد سائرا على نظام المشاعية المطلقة الا اذا لم يكن فيه زواج ، وكان نساؤه مشاعا لجميع رجاله . اما الاستشهاد باباحة العلاقات الجنسية بين غير المتزوجين من الرجال والنساء فى بعض الشعوب البدائية ، او وجود نظام من البغاء تقره الشعائر او التقاليد فان هذا انحراف واستثناء لا يهز القاعدة الاصلية وهى احترام العلاقات الجنسية وتقييدها عن طريق الزواج (1) .

وتكمن المغالطة فى نظريتهم فى قولهم ان الاسرة شهدت تبدلات عديدة ، وتطورت عبر مختلف القرون تبعا لتطور العامل الاقتصادى ، ويردون سبب الظلم الاجتماعى الذى تعانيه المرأة الى الاسباب الاقتصادية .

ان العامل الاقتصادى له اثر كبير على الاسرة ، ولكنه ليس العامل الوحيد الفعال فى حياة الانسان ، فكل ماتصنعه الحياة المادية والظروف الاقتصادية هو ان تكيف الصورة التى يحيا بها الانسان ، ولكنها لا تنشئ جديدا فى حياته فهم يقولون : ان الاسرة كانت قائمة فى اول عهدها على اساس سيطرة الام ، وكان الميراث ينتقل من الرجل الى اخوته واخواته لا الى اولاده ، فلما سيطر الرجل على الناحية الاقتصادية وامتلك وسائل الانتاج حول الاسرة الى نظام سيطرة الاب ، حتى يتمكن من نقل مايملكه الى اولاده ، والسؤال الذى يطرح هو : لماذا حدث ذلك ؟ هل ملكية وسائل الانتاج هى التى غيرت مشاعر الاب فجعلته يحب اولاده ويؤثرهم بالخير ؟ هل كان الرجل لا يحب ابناءه من قبل ، فلما سيطر اقتصاديا صار يحبهم ؟ ام ان هذا الحب للابناء سابق فى وجوده على التطور الاقتصادى وكان ينتظر الفرصة المناسبة لتحقيق اهدافه ؟ ان الانسان يولد وفيه اصلان كبيران على الاقل هما حب الحياة ثم الرغبة الجنسية حين يجئ موعدها المحدد ، هاتان الرغبتان لا تنشآن من الحالة الاقتصادية ظالمة

---

(1) انظر نفس المصدر (ص ٩٨ - ٩٩) .

كانت او غير ظالمة .

والماديون بعد ان انكروا وجود الله ، وانكروا الرسالات السماوية وقالوا ان الدين مخترع بشري [1] يقولون ان الغيرة عاطفة نشأت متأخرة والمحرم اختراع ثمين اخترعه الانسان .

ان الغيرة على المرأة عاطفة متأصلة فى نفس الرجل ، وتأخر تحققها ليس دليلا على انها ليست فطرية فى نفسه فقد تكون عقبات تحول بين الرجل وبين اظهار غيرته على المرأة .

اما قولهم ان المحرم اختراع ثمين اخترعه الانسان فغير مسلم به ، وذلك لان مقتضى الايمان بان الله هو الخالق ، يستلزم الايمان بان ما جاء من عنده هو الحق ، وشاءت ارادة الله ان يكون نظام تحريم الزواج من المحرمين والمحرمات سارى المفعول فى الوقت المناسب ، والله سبحانه وتعالى لا يشرع الا الحق والخير ، ولا يشرع للناس الا ما يناسب فطرهم وفيه مصلحتهم ، ومن مصلحة الناس وجود المحارم ، والا اصبحت الحياة الانسانية فوضى واشبه بحياة الحيوان . فتحريم الزواج من المحارم شرع ربانى ، وليس اختراعا انسانيا ، وقد بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة المحرمين من الرجال على النساء والمحرمات من النساء على الرجال .

والخرافة الكبرى فى نظرية الماديين للاسرة هى ان المجتمع كله فى نظرهم وبدون استثناء مجتمع بغى وفساد ، وان جميع الناس زناة وبغاة ـ والعياذ بالله ـ ولهذا يريدون هدم الاسرة هدما كاملا وان يجعلوا المرأة مشاعا بين الجميع ، كما تخيلوها فى المرحلة البدائية الاولى . ويقولون ان سبب ظلم المرأة وخوفها على عرضها وشرفها ناشىء من الوضع الاقتصادى ، وبناء على خرافة التطور فان هذه القيم التى يزعمون انها ناشئة عن الاوضاع الاقتصادية ستزول حين تتحرر المرأة اقتصاديا ، فلن تصبح خاضعة للرجل

---

(١) انظر الفصل السابع من الباب الثانى .

ولا ذليلة للقمة العيش، ولن تخاف على شرفها وعرضها ، لانه لا يوجد شيء تخاف منه . ونظرا لان الشيوعية تريد افساد اخلاق الناس فانهم يطمئنون المرأة ويقولون لها ان الدولة ستعتنى بالاولاد الشرعيين وغير الشرعيين وفرص العمل متاحة لك ، فما عليك من حرج فى تقديم نفسك لمن تحبين من الرجال .

والخرافة الثانية فى هذه النظرية هى ان ماركس يفترض ان اشاعة النساء البرولتاريات والبرجوازيات موجودة عند الجميع، وينسى انه بهذه التهمة يطعن البرولتاريين - الذين جند نفسه لخدمتهم والدفاع من حقوقهم - كما يطعن البرجوازيين سواء بسواء ، والمعروف لدى معظم شعوب الارض ان القلة النادرة من نساء الارض هى التى تحرر نفسها من الروابط الدينية والاجتماعية والاخلاقية ، فمن الظلم الكبير لكل الطبقات - وبخاصة البرولتاريا - ان يتهمها ماركس بانها تضع نساءها وبناتها تحت تصرف البرجوازيين ويكمن العيب فى نظريتهم ايضا حين يقول ماركس : " ليس الزواج البرجوازى فى الحقيقة والواقع سوى اشاعة النساء المتزوجات "[1] واقر التهمة الموجهة اليه حول اشاعة النساء ، وقال " فقصارى مايمكن ان يتهم به الشيوعيون اذن هو انهم يريدون كما يزعم ، الاستعاضة من اشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداجاة باشاعة صريحة رسمية "[2] .

ولكن هل الحقيقة ان زواج جميع البرجوازيين اشاعة للنساء المتزوجات ؟ وهل الخير للبشرية ان تمارس اشاعة النساء المستترة - ان كانت فعلا موجودة وعامة كما يزعم الشيوعيون - علانية ، وعلى مرأى من الناس وعلم منهم دون الالتفات الى التعاليم الدينية والاخلاقية والاجتماعية ؟ وهل حقيقة ان جميع البرولتاريين يضعون نساءهم وبناتهم تحت تصرف البرجوازيين ؟

---

(١) البيان الشيوعى (ص ٦٢) .
(٢) نفس المصدر (ص ٦٢) .

وهل تحقق فى الواقع زعمهم حين قالوا ان البغاء سيزول ويختفى حين تزول الملكية الفردية وتتحرر المرأة من سلطة الرجل ؟ فالدول الشيوعية التى الغت الملكية الفردية، وحررت المرأة من كل السلطات الدينية والاخلاقية والاجتماعية، ومنعت الزواج، ومارست شيوعية النساء العلنية هل زالت الشيوعية النسائية والبغاء منها كما قال ماركس : " ولكن من البديهى الواضح ان محو علاقات الانتاج الحالية يؤدى بطبيعة الحال الى محو اشاعة النساء التى تنتج منها، اى ان البغاء سواء اكان رسميا ام غير رسمى يزول ويضمحل"، وهل تحقق هذا الالغاء فى الواقع فعلا ؟

المرأة فى حضارة الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى .

تأرجحت النظرة الى المرأة بين اعتبارها كائنا منحطا لا قيمة له، الى اعتبارها شيطانا رجيما يوسوس بالشر والخطيئة، الى اعتبارها سيدة المجتمع والحاكمة فى اقداره واقدار حاكميه، الى اعتبارها عاطلة عليها ان تكافح وتشقى وتتعب لتعيش، ثم تحمل وتنجب وتربى .

كما تأرجحت العلاقة بين الجنسين باعتبارها علاقة حيوان بحيوان الى اعتبارها دنسا ورجسا من عمل الشيطان، الى اعتبارها علاقة حيوان بحيوان مرة اخرى . هذه هى النظرة الاوربية القديمة للمرأة والعلاقة بين الجنسين .

اما النظرة الى المرأة من زاوية انها شطر النفس الانسانية، وانها صانعة الجنس البشرى، وانها حارسة العش الذى تدرج فيه الطفولة .. وانها الامينة على انفس عناصر هذا الوجود وهو الانسان، وان عملها فى اتقان هذا العنصر لا يعدله عملها فى اتقان اى عنصر آخر او اى جهاز .. الى آخر هذه الاعتبارات الفطرية الانسانية . فهذه النظرة لم تعرفها الجاهلية الاوربية القديمة .

واما ان العلاقة بين الجنسين اداة لخدمة النوع الانسانى، بانشاء

المحضن الامين النظيف الواعي المتخصص لانتاج صناعة البشر ـ التي هي اثمن واغلى صناعة فى هذه الارض ـ واعتبار الواجب ـ لا اللذة ـ هو عماد هذه العلاقة، لتعلق مستقبل البشرية كله بها، وقيام التمدن البشرى عليها .. اما هذا الاعتبار فلم يعتدل به الميزان كذلك فى مناهج الجاهلية الاوربية القديمة والحديثة . وقد مضت الجاهلية الاغريقية القديمة على هذا النمط (١).

كانت المرأة فى المجتمع اليونانى والرومانى، محتقرة، جاهلة، لا تسهم فى الحياة العامة بقليل ولا كثير، حتى سموها رجسا من عمل الشيطان، وقد كانت مسلوبة الحرية والكرامة والمكانة، وليس لها حق فى الميراث، وقد كانت تشترى وتباع فى الاسواق، وكان لزوجها الحق التام فى التصرف بها كما يريد، يستطيع ان يزوجها لمن يريد، ويستطيع قتلها وبيعها والتصرف فى اموالها .

يقول الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله " وفى اوج حضارة اليونان تبذلت المرأة واختلطت بالرجال فى الاندية والمجتمعات، فشاعت الفاحشة حتى اصبح الزنى امرا غير منكر، وحتى غدت دور البغايا مراكز للسياسة والادب، ثم اخذوا التماثيل العارية باسم الادب والفن، ثم اعترفت ديانتهم بالعلاقة الاثمة بين الرجل والمرأة (٢).

اما فى روما فقد شاعت الفاحشة وانتشرت بشكل كبير، حتى صار الزنا شيئا عاديا، ونادى المفكرون الرومان باطلاق الحرية للشباب، وعدم تقييدهم باغلال الاخلاق الثقيلة، واخيرا انهارت الحضارة اليونانية والرومانية وشاءت ارادة الله ان يرسل المسيح عليه السلام بدعوة التوحيد، ويخرج الناس فى ذلك العصر من الظلمات الى النور، ومن دنس الرذيلة الى ذروة المجد والفضيلة، ولكن النصارى حرفوا كلام الله عن موضعه، فابتدعوا الرهبانية، وفرضت الكنيسة العزوبة على رجالها، ونظر النصارى الى المرأة

---

(١) انظر الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٦٩ ـ ٧٠
(٢) المرأة بين الفقه والقانون (ص ٤١) .

نظرة ازدراء واحتقار، وقالوا ان المرأة هى ينبوع المعاصى ، وهى اصل السيئة والفجور، وهى للرجل باب من ابواب جهنم ، من حيث هى مصدر تحريكه وحمله على الاثام ، ومنها انبجست عيون المصائب الانسانية جمعاء ، فبحسبها ندامة وخجلا انها امرأة ، وينبغى لها ان تستحى من جمالها . اما نظرتهم الى العلاقة بين الرجل والمرأة فهى نجس فى نفسها يجب ان تجتنب - ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمى - حتى صارت حياة العزوبة مقياسا لسمو الاخلاق ، وهى من امارات التقوى والورع وذكاء الاخلاق . ونتيجة لهذه النظرة الى المرأة انحطت مكانتها فى المجتمع فى كل ناحية من نواحى الحياة .[1]

من تلك الاباحية اليونانية الرومانية المطلقة ، نقلت الكنيسة الحمقاء اوربا الى الكبت القاتل ، والنظرة السيئة للمرأة ، والاشمئزاز من العلاقة بين الجنسين ولو كانت على وفق شرع الله وهديه .

ومضت الكنيسة فى حماقتها ، وزاد الطين بله ان رجال الكنيسة - من رهبان وراهبات - كانوا يمارسون الجنس فيما بينهم بشكل محتقر ومهان وكانوا يفجرون ويعبثون داخل الاديرة والكنائس بشكل يثير الاشمئزاز وكانوا ينصحون الناس خارجها بالزهادة والورع والتقوى[2].

ويقول ليكى : " كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الاقصى ، وان المدن التى ظهر فيها اكبر الزهاد كانت اسبق المدن فى الخلاعة والفجور - وقد اجتمع فى هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الانسان وكرامته "[3] .

ويمضى الكاتب فى تصوير فكرة " الجنس " وما حولها من علاقات - فى

---

(١) انظر الحجاب (ص ٢٥ - ٢٨) ، المرأة بين الفقه والقانون (ص ٢٠ - ٢١) .

(٢) انظر التمهيد - الظروف التى مهدت لانتشار التفكير المادى فى اوربا .

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص ١٨٨) .

ظل الرهبانية - فيقول : " وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون ان مصادفتهن في الطريق والتحدث اليهن - ولو كن امهات او ازواجا وشقيقات - تحبط اعمالهم وجهودهم الروحية "(١) .

من هذه النظرة الجاهلية التي لم يأمر بها الدين الصحيح المنزل على عيسى عليه السلام . حدث رد فعل عنيف في الاتجاه الاخر ، فالفساد المروع الذي حدث داخل الكنائس ذاتها ، حاويا لكل الفساد الجنسي مابين الرهبان والراهبات ، كان احدى الصدمات التي خلخلت القيم الرهبانية من جذورها ، وصرفت الناس عن الترفع الرهباني وانحدر الناس يبحثون عن الشهوات .

لقد قامت النهضة الاوربية على اساس غير ديني ، وذلك لان ايدى المصلحين الدينيين لم تتناول بالاصلاح عقائد الكنيسة ونظمها المخالفة لدين الله والفطرة الانسانية ، ولم يفسح المجال للدعوة الاسلامية ان تنتشر في اوساط الشعوب الاوربية ، ولم تستفد هذه الشعوب من تعاليم هذا الدين العظيم على الرغم من الاحتكاك بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية والشمال الافريقي والاندلس .

وظهر في ذلك الوقت كتاب ومفكرون حاربوا الدين والقيم والاخلاق ودعوا الى هدمها واقتلاعها من جذورها ، واحتلت قضية المرأة مكانا بارزا في القضايا التي طرحوها وبدأت المرأة تقع في الرذيلة من جديد ، وتجد انصارا يبررون لها عملها السيء ويدافعون عنه ، بل ويزينونه لها وللاخرين بعد ان يهيئوا لها المجال الذي يدفعها الى الوقوع في المعصية .

وظهرت الثورة الصناعية ، واحدثت تفككا في الاسرة ، وانتقل الشباب من الريف الى المدن ، ولم يستطيعوا نتيجة لقلة الاجور من تكوين اسر ، واتاحت البغاء للشباب ويسرته لهم ، وظهرت على المسرح قضية زيادة الاجور واضراب العمال ، وبرزت قضية تشغيل النساء اولا ، باجر اقل من اجر الرجل ، ثم

---

(١) نفس المصدر (١٨٦) .

بدأت تطالب بمساواة الرجل فى كل شىء حتى فى الفجور .

والمهم فى الامر ان يد اليهود كان لها اثر كبير فى افساد المرأة فقد مولوا الثورة الصناعية بالاموال الربوية ، وخططوا لافساد العمال بحرمانهم من الاجور العادلة ، واتجهت المرأة للمعامل والمصانع تزاحم الرجال ولو كان على حساب دينها وعرضها - وان كانت المرأة فى بداية الامر لا تقبل على العمل الا للضرورة - وبالتدريج ألفت الاختلاط مع الرجال وزاحمتهم على العمل .

وقد ادى العلماء اليهود مهمتهم فى تلويث البشرية ، تنفيذا لمخططات اليهود الرامية الى افساد الاديان واخلاق الناس المستمدة منها تقول تعاليم الماسونية السرية : " ان الامر الجوهرى فى استمالة الناس الى جماعتنا انما هو افراد الرجل عن عائلته وافساد اخلاقه ، فاجتذبوه واسحبوه واذا ما فصلتموه عن امرأته واولاده وجسمتم له مشاق الواجبات الاهلية ومصاعب المعيشة البيتية ، رغبوا اليه المعيشة الحرة وانفثوا فى قلبه السأم من الديانة "(١) .

وشجع اليهود الزواج المدنى ، ليبعدوا الناس عن تعاليم الدين وانشأوا محافل ماسونية مختلطة لاجتذاب المرأة لتحريرها والقائها فى مهاوى الفساد والرذيلة ، وقد استغل اليهود نظرية دارون فى التطور واستخدموها سلاحا فتاكا يشهرونه فى وجه الملتزمين بالدين والاخلاق فى كل حين ، يتهمون من يخالف التطور بالجمود والرجعية ، استخدموا هذه النظرية فى افساد المرأة ، واستمد ماركس ودوركايم وفرويد نظرياتهم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية منها .

وقد ركزت هذه النظريات على هدم الاديان والاخلاق ، وقالت ان الاسرة ليست شيئا من طبائع البشر ، ولا اصلا من الاصول الانسانية ، انما هى

---

(١) جذور البلاء (ص ١٢٢) نقلا عن لويس شيخو الكراس الثالث (ص ٢٩) .

شيء تحت تصرف المجتمع اذا شاء ابقاها واذا شاء محاها من الوجود ، دون ان يكون لاحد حق فى الاعتراض ، او ان يقول ان المجتمع اخطأ او انحرف السبيل ، فاذا ما اراد المجتمع الحديث ان يعود للفوضى الجنسية فلا حرج عليه . كما قالت ان الاسرة بوضعها الذى استقرت عليه فترة طويلة من التاريخ كانت ضرورة اقتصادية ..

والرجل لانه اصبح يملك وسائل الانتاج هو الذى شرع اخلاقا تحيط الاسرة بالقداسة الكاذبة . وجاء الدين الذى هو من اختراع البشر - عند ماركس وشيعته - فزاد فى تلك القداسة الكاذبة التى تحبس المرأة فى نطاق رجل واحد ، ولا تبيح لها الخروج على هذا النطاق .

ولكن الوضع قد تغير ، وخرجت المرأة نهائيا من اسر الرجل لانها صارت تعمل ، واصبحت حرة طليقة ، تهب نفسها لمن تشاء ، لا لرجل معين كما كانت تفعل من قبل تحت ضغط الضرورة الاقتصادية . هكذا نفثت شياطين اليهود فى روع المرأة وفى افكار الناس ، واصبحت نظرياتهم فى نظر المفتونين بها حقائق علمية لا تقبل النقاش .

لقد كانت الظروف الاقتصادية التى صنعها اليهود تجبر المرأة على العمل بعد ان تتخلى عن دينها واخلاقها ، وكانت النظريات التى تزعم انها علمية ، تبرر للمرأة عملها وتزينه له ، وتشجعها على المضى قدما فى سبيل الحصول على حقوقها المسلوبة ، دون ان تلتفت الى تعاليم الدين والاخلاق لان الدين يكرس تبعية المرأة للرجل ، ويجعلها خاضعة ذليلة لسلطانه الاقتصادى ، قالوا لها ان الدين اخترعه الرجل لتمكين سلطته الاقتصادية فما حاجتك للدين بعد ان تتحرى اقتصاديا ؟ وقالوا لها ان الاخلاق ليست فطرية وليست مستمدة من الدين ، بل هى مستمدة من الوضع الاقتصادى والاديان والاخلاق تتطور تبعا لتطور العامل الاقتصادى ، فلا تلتفتى الى تعاليمها لانها تحرمك من حريتك فى ممارسة الجنس مع من تحبين وتحرمك من حقوقك المادية والمعنوية لمصلحة الرجل ، واليوم لا يوجد شيء تخافين عليه

فانت حرة فيما تفعلين ، ومستقلة عن الزوج ماليا ، والدولة تكفل رعاية الاطفال الشرعيين وغير الشرعيين .

من هذه الحالة السيئة التي وصلت لها المرأة الاوربية نتيجة لغياب شرع الله الصحيح عن التطبيق ، ونتيجة لحكم الطاغوت ، استمد ماركس نظريته عن الاسرة ، وقال ان الاسرة ليست نظاما فطريا ، وانما هي ناشئة من الوضع الاقتصادى ، ودعا الى هدم ركنى الاسرة الزواج وتربية الاطفال واشاعة النساء .

وسارت عجلة الزمن مسرعة ، وزاد انتشار الفساد الخلقى فى المجتمعات الاوربية حتى وصلت الى حالة يرثى لها نتيجة للاباحية المطلقة ، واصبحت نذير خطر يهدد كيان اوربا وامريكا والدول الشيوعية مما جعل الكتاب[1] والمفكرين يحذرون مجتمعاتهم وشعوبهم من عاقبة الفساد الاخلاقى ونادوا بالعودة الى الالتزام بالاخلاق ومحاربة الترف والفجور .

فقد كتب جيمس رستون فى النيويورك تايمز مؤخرا : " ان خطر الطاقة الجنسية قد يكون فى نهاية الامر اكبر من خطر الطاقة الذرية "[2] .

ان اوربا اليوم بقسميها الشرقى والغربى تعانى من ارتفاع حوادث الطلاق ، وانحلال الاسرة ، وجرائم الزنا ، وجرائم الاغتصاب ، والشذوذ الجنسى بشكل رهيب .

ففى امريكا نجح اليهود بتدمير الاخلاق والقيم ، فانحلت الاسرة بشكل مخيف وانتشرت الدعارة بشكل سافر . وقد كشفت مجلة (انسنسورد) - حقيقة هذه الدائرة التابعة لوزارة الخارجية الامريكية ، وقالت المجلة ان السياسة الامريكية الحديثة قد ادخلت الى المفاهيم الدبلوماسية مفهوما جديدا تخطى استعمال الفتيات الجميلات فى اعمال التجسس وسرقة الاسرار ، وتعرف هذه المهمة فى الاوساط السياسية الامريكية ب (الترفيه

---

(١) منهم ول ديورانت والكسيس كاريل وانظر كتاب الاسلام والجنس (ص ١٤ - ١٥) .

(٢) نفس المصدر (ص ١٠) .

من كبار الدبلوماسيين الاجانب) . واعترفت المجلة ان فى دوائر وزارة الخارجية الامريكية ملفا سريا يحتوى على اسماء وعناوين اكثر من عشرين فتاة رائعة الجمال جرى اختيارهن بدقة وعناية للقيام بالترفيه عن كبار الزائرين السياسيين كل حسب حاجته وذوقه وشذوذه الجنسى .. ويطلق عليهم فى دوائر الخارجية لقب فريق "الحب" . وذكرت المجلة اسماء زبائن كبار قدمت لهم فتيات من فريق الحب، منهم بعض الملوك والرؤساء والوزراء، مما لا يصح ان نفصح عنه"[1].

وفى السويد والدانمارك نجحت افكار اليهود فى تدريس الجنس واطلاق الحرية للفتيان والفتيات فى ممارسة نشاطهم الجنسى قبل الزواج ولا تكاد لا توجد فتاة فى هذين البلدين لا تعرف العلاقة الجنسية قبل الزواج ، كما ان المسئولين فى الدنمارك يشجعون عمليات الاجهاض التى تزيد على عشرين الف حالة فى السنة .

اما فى الدول الشيوعية فان كثرة الطلاق وتفسخ الاسرة بات نذير خطر يهدد روسيا فاضطرت أخيرا الى تقييد الطلاق واعادة الزواج .

وكما فشلت النظرية فى اهدافها الاقتصادية فشلت ايضا فى اهدافها الاجتماعية . فلقد اصدرت حكومة لينين قانون الاسرة سنة ١٩١٨ ومن نصوصه الاعتراف بالابناء غير الشرعيين اى الذين انجبوا سفاحا ولهم نفس الحقوق التى لغيرهم وذلك فى المادة ١٣٣ من هذا القانون ، وهذا اعتراف صريح بالزنا وتصريح ضمنى به . واباح القانون السوفيتى الطلاق لكل من الزوجين على قدم المساواة . ودخلت المرأة فى العمل على قدم المساواة مع الرجل دون مراعاة لوظيفتها فى رعاية الاطفال . وكان الاطفال من سن ٣ - ١٠ ، يوضعون فى رعاية الاطفال . ومن سن ٧ - ١٦ يستطيع الاطفال ان يلتحقوا بالمدن الدراسية . وكان نتيجة ضعف الاسرة وكثرة الرذائل الخلقية ان رغبت النساء عن الحمل فانتشر الاجهاض الذى كان يبيحه القانون وقل

---

(١) جذور البلاء (ص ١٧٦) نقلا عن الحوادث - بيروت ١٩/٢/١٩٦٢م .

الاقبال على الزواج وكثرة الاولاد غير الشرعيين وانتشر الطلاق . فاهتز المجتمع السوفيتي هزة عنيفة وقل عدد السكان مما ادى بالمشرع الى التدخل عام ١٩٣٦ فحرم الاجهاض، وقيد الطلاق بقيود صعبة جعلته اصعب من الطلاق الكاثوليكي "(١) .

المرأة في الاسلام .

على الرغم من كل الوسائل التي استخدمتها المرأة الاوربية في سبيل نيل حقوقها - من سفور وتبذل وقبول المساومة على عرضها، والمظاهرات والاضطرابات التي قامت بها، والكتابات التي ناصرتها في تحررها من الدين والاخلاق والقيم - ومساواتها بالرجل، على الرغم من كل مافعلته فانها لم تصل الى حقوقها كاملة الى يومنا هذا، لان اوربا مازالت تنظر اليها نظرة الكنيسة المستمدة من الخطيئة الاصلية . بينما نجد الاسلام يعطي المرأة حقوقا وامتيازات - تتمنى المرأة الغربية ان تحصل على بعض منها - دون ان تلجأ الى الوسائل التي لجأت اليها المرأة الاوربية، واليكم نماذج من الحقوق والواجبات التي اعطاها الاسلام للمرأة فضلا من الله ورحمة بها .

(١) ان المرأة كالرجل في الانسانية سواء بسواء . قال الله تعالى " يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء "(٢) .

(٢) دفع عنها اللعنة التي كان يلصقها بها رجال الديانات الاخرى، فلم يجعل عقوبة آدم بالخروج من الجنة منها وحدها، بل منهما معا قال تعالى " فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه "(٣) ويقول عن توبتهما : " قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن

---

(١) انظر الشيوعية اليوم وغدا (ص ١٣٦ - ١٣٨) .
(٢) النساء : ١ .
(٣) البقرة : ٣٦ .

من الخاسرين"[١] . ثم قرر مبدأ آخر يعفى المرأة من مسئولية امها حواء ، وهو يشمل الرجل والمرأة . قال تعالى : " تلك امة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون"[٢] .

(٣) قرر الاسلام ان المرأة اهل للتدين والعبادة ودخول الجنة ان احسنت ومعاقبتها ان اساءت قال تعالى " فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض"[٣] .

(٤) حارب التشاؤم بها والحزن لولادتها كما كان شأن العرب قبل الاسلام ، وشأن كثير من الامم ومنهم بعض الغربيين . قال تعالى " واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به ايمسكه على هون ام يدسه فى التراب الا ساء مايحكمون"[٤] . كما حرم وأدها وقتلها ، وشنع على ذلك اشد تشنيع قال تعالى " واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت"[٥] .

وقال تعالى : " قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم"[٦] .

(٥) امر باكرامها اما ، وبنتا وزوجة واختا ، وامر بتعليمها وتأديبها .

(٦) اعطاها حق الارث اما وبنتا وزوجة ، كما اوجب لها النفقة على الزوج ولو كانت موسرة .

(٧) حث الاسلام على الزواج المبكر ، وطلب من اولياء امور النساء تيسير المهور ، كما منع ولى المرأة ان يجبرها على الزواج بمن لا تريد وجعل موافقتها شرط لصحة عقد الزواج .

(٨) نظم قضية الطلاق وجعله ثلاثا ، وحد من التعدد غير المقيد وجعله

---

(١) الاعراف : ٢٠ .
(٢) البقرة : ١٣٤ .
(٣) آل عمران : ١٩٥ .
(٤) النحل : ٥٨ - ٥٩ .
(٥) التكوير : ٨ - ٩ .
(٦) الانعام : ١٤٠ .

اربعـــا .

(٩) جعلها قبل البلوغ تحت ولاية اهلها ، وجعل ولا يتهم عليها ولايـــة تأديب ورعاية وعناية بشئونها وتنمية لاموالها ، لا ولاية تطك واستبداد وجعلها بعد البلوغ كاملة الاهلية للالتزامات المالية كالرجل ســـواء بسواء ومن تتبع احكام الفقه الاسلامى لم يجد فرقا بين اهلية الرجـــل واهلية المرأة فى المعاملات كالبيوع والشراء ، والرهن والكفالة ، والسلـــم والاجارة ، والوكالة والشفعة والخيارات ، والاقالة ، والشركة والصلـــح والمضاربة والوديعة والهبة والوقف والعتق وغيرها .

من هذا الاستعراض السريع لموقف الاسلام من المرأة ، ومبادئه العامـــة التى اعلنها فى كل مايتعلق بحقوقها وكرامتها نستطيع ان نستخلص الحقائـــق التالية :

(١) ان موقف الاسلام من المرأة كان ثورة على المعتقدات والاراء السائـــدة فى عصره وقبله والتى كانت تشك فى انسانيتها .

(٢) انها ثورة على المعتقدات التى تحرم المرأة من تلقى الدين ودخـــول الجنة مع الصالحين .

(٣) انه ثورة على المعتقدات والتقاليد السائدة من عدم احترامها الاحـــترام الحقيقى اللائق بكرامتها الانسانية .

(٤) أنه كان تقدما فكريا انسانيا قبل الحضارة الاوربية باثنى عشر قرنـــا على الاقل حين اعترف باهلية المرأة كاملة غير منقوصة . وحتى نـــرى الفارق الكبير بين الاسلام والحضارة الاوربية يجب ان نبين ان اسبـــاب الحجر فى التشريع الاسلامى هى الصغر والجنون ، بينما هى فـــى القانون الفرنسى حتى عام ١٩٣٨ ثلاثة : الصغر والجنون والانوثة .

ولما عدل القانون الفرنسى فى عام ١٩٣٨ لرفع القيود من اهلية المـــرأة بقيت اهليتها مقيدة بقيود قانونية ناشئة من نظام الاموال المشتركـــة بين الزوجين . فمن هذه القيود عدم ممارسة المرأة الفرنسية احـــدى المهن بدون اذن زوجها . كما انها لا تستطيع اذا كانت متزوجـــة

ان تتصرف باموالها الخاصة الا باجازة الزوج ، واذن المحكمة وحده لا يكفى [1] .

(٥) ان التشريع الاسلامى المنزل من عند الله كان انسانى النزعة حين قرر حقوق المرأة دون ثورة النساء ومؤتمراتهن ، بينما لم تحصل المرأة الاوربية على بعض من حقوقها الا بعد مظاهرات واضرابات وثورات دموية .

كما كان التشريع الاسلامى نبيل الغاية والهدف حين اعطاها حقوقها من غير تملق لها واستغلال لانوثتها ، كما حدث فى الحضارتين : اليونانية والرومانية والحضارة الاوربية الحديثة التى استغلت المرأة ابشع استغلال للاستمتاع بانوثتها ، وامتهان كرامتها .

(٦) وعلى الرغم من كل الامتيازات التى اعطاها الاسلام للمرأة فانه راعى فى كل مارغب اليها من عمل وماوجهها اليه من سلوك ، ان يكون ذلك ملائما لفطرتها وطبيعتها ، وان لا يرهقها مالا تستطيع عليه صبرا . فلم يفرض عليها ان تعمل لتأكل كما هو عند الشيوعيين ابل اوجب لها النفقة ، ولم يمنعها ان تمارس البيع والشراء وشتى انواع المعاملات الاخرى . لكنه رغب اليها ان لا تباشر هذه الا عند الضرورة ، وافهمها ان الخير لها ولدينها ولبيتها وامتها ان تتفرغ لاداء رسالتها فى تربية الجيل وهى اسمى رسالة لها وادل على انسانيتها وكرامتها من مزاولة العمل خارج البيت .

ان الاسلام لم يمنع المرأة اهلية العمل خارج البيت ، ولا حرضها على هجر البيت وزين لها مزاحمة الرجل وترك شئون الاسرة كما هو شأن الحضارة الحديثة . ان الاسلام كان فى هذا الموقف جد حكيم وكيف لا يكون ذلك وهو تشريع رب العالمين .

---

(١) انظر المرأة بين الفقه والقانون (ص ٤٣) نقلا عن الزواج لزهدى يكن (ص ٢٢٤) .

(٧) واخيرا يحق للمرأة المسلمة ان تفاخر جميع نساء العالم بدينها وتشريعه الذى سبق جميع شرائع الامم السابقة واللاحقة بتقرير حقوقها ، والاعتراف بكرامتها اعترافا انسانيا نبيلا لا يشوبه غرض ولا هوى ، ولا يدفع اليه قسر ولا ضرورة [1] .

---

(١) انظر المرأة بين الفقه والقانون (ص٢٥ - ٤٥) ، اجنحة المكر الثلاثة (ص ٤٩٦ - ٥٢٨) ، شبهات حول الاسلام ـ فضل الاسلام والمرأة ، والاسلام وبناء المجتمع (ص ١٨٦ - ٢٠١) .

(البـــاب الثالـــث)

التصـــور الاســـلامي

ألفصل الاول : سنن الله فـــي الكون والحياة والانسان

التصور الاسلامى للألوهية والحاكمية

بعد أن رأينا كيف أن الشيوعية والجاهليات الحديثة ركزت على افساد البشرية حيث انحرفت فى تصورها لله وللكون والحياة والانسان • ومن انحرافها فى هذه التصورات انحرفت فى سلوكى كله ، فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والدين والاخلاق وفى كل شئ • أبين كيف تستقيم هذه الامور كلها حين يستقيم التصور فى فكر الانسان وضميره • ان التصور هو الاصل الذى ينشأ عنه السلوك • فينحرف بانحرافه أو يستقيم باستقامته • والتصور الاسلامى هو المقياس الاعلى الذى أجد فيه الدليل الكافى على هذه الحقيقة •

لقد استقام هذا التصور مرة فى حياة البشرية ، على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والامة المسلمة التى رباها على عينه ، والتى وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله " (١) وعندئذ استقامت شئون الحياة كلها وقامت أكبر حركة بعث فى التاريخ ، وانطلقت الحركة الاسلامية المهتدية بمنهج الله تنشر الهدى فى كل الارض ، وعلى الرغم مما أصاب المسلمين من انحراف تدريجى عن منهج الله ، فقد ظلوا قبسا منيرا فى كل الارض ، يعلمون الناس ويهدونهم الى سواء السبيل ويخرجونهم من ظلمات الكفر والشرك الى نور الايمان •

ولكن من رحمة الله بعباده أن الاسلام ليس مقيدا باتباعه ، وهذا هو الفارق بين الاسلام والانظمة الجاهلية الرأسمالية والشيوعية ، ان الانحراف فى صميم هذه الانظمة لانها من صنع البشر فمهما عدلوا وبدلوا فى النظام فان الظلم سيبقى ولن يزول الا بزوال النظام كله ، بخلاف الاسلام اذ ان الانحراف ليس فى طبيعته لانه

---

(١) آل عمران ١١٠

منزل من عند الله الذى لا يشرع لاحد على حساب الاخرين - بل ان الانحراف الذى أصاب المسلمين ناشئ عن انحراف المسلمين أنفسهم وليس عن طبيعة النظام الاسلامى . بل ان امر الافراد المسلمين يستقيم حين يعودون الى تعاليم دينهم القايمة .

فالطغيان الذى تمارسه الانظمة الكافرة الشيوعية والرأسمالية - باسم الحرية الفردية تارة ، وباسم المصلحة الجماعية تارة اخرى لن يزول الا بزوالها ، بينما الطغيان الذى يمارسه الافراد المسلمون لا يزول الا بعودتهم الى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فى حياتهم كلها ، ولقد كان الانحراف الاكبر الذى انشأ الجاهليات الحديثة كلها ، وترتب عليه ما ترتب من فساد فى التصور والسلوك ، وشقاء حياة الناس وقلقهم وحيرتهم واضطرابهم . هو انحرافهم فى تصور حقيقة الاله سبحانه وتعالى ، ثم الانحراف عن عبادته المتمثلة فى اتباع منهجه فى الحياة .

ولقد ركز القرآن الكريم تركيزا كبيرا فى الفترة الاولى من الدعوة الاسلامية على قضية واحدة أصيلة ، هى قضية توحيد الله فى سمائه وذاته وصفاته ، وتوحيده بالعبادة والطاعة والحاكمية .

ان قضية العقيدة فى الله هى محور ارتكاز البشرية كلها ، لا يقوم لها بناء ولا تستقيم لها حياة الا اذا استقامت هذه القضية فى نفوس البشر ، ورسخت فى قلوبهم وصارت هى الاساس الذى يقوم عليه كل البناء . لما نشأ المجتمع المسلم ودولته فى المدينة نزل القرآن بالتشريع والتوجيه فى العبادات والمعاملات ، والفروض المختلفة التى فرضت على الامة الاسلامية لتقوم برسالتها الكبرى للبشرية . ومع ذلك فان قضية العقيدة لم تتخل عن دورها لتفسح المجال لهذه التشريعات والتوجيهات ، بل ظلت العقيدة ملازمة لها حتى كملت الشريعة ، وظلت هى الاساس الذى تقام عليه التشريعات والتوجيهات فى الشعائر والمعاملات (١)

---

(١) انظر فى ظلال القرآن تفسير السور التالية المائدة ، والانعام ، والاعراف جـ ٦، ٧، ٨

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق والمدبر والرازق ، وهو المالك والمسيطر . والله هو المعبود لا شريك له فى شىء الملك أو الرزق أو الخلق والتدبير .

وما دام هو الخالق ، والمالك والمدبر والمسيطر والرزاق وحده ، فهو المستحق أن يتجه له الخلق بالعبودية .

فالانسان مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، وهو الذى منحه القوة والتمكين وسخر له ما فى السموات والارض فضلا منه ، فلا يستطيع أن يضع للكون قوانين يسير عليها ولا يستطيع أن يغير شيئا من نواميس الحياة لو أراد ، ولا يستطيع أن يمنح المادة خواص غير خواصها ، أو أن ينشئها على غير قوانينها التى خلقها الله بها لهذا لا يصح أن يتجه الناس اليه بالعبادة من دون الله ، أو معبودا مع الله .

والحتميات ، اليست هى قدر الله فى الكون والانسان والاشياء ، وهى حتمية بما فيها من قدر الله ، وليست حتمية فى ذاتها الا أن يشاء الله ، فلا تصلح أن معبودا من دون الله ، أو معبودا مع الله . (١)

وعلى هذا فانه لا يوجد شىء يمكن أن يتوجه اليه الخلق بالعبادة الا الله سبحانه وتعالى . ومن مقتضيات عبادة الله أن تكون الحاكمية له وحده ، وأن يأخذ الناس تشريعهم عنه سبحانه وتعالى . ولقد ضلت الجاهليات الحديثة ضلالتها الكبرى حين حرفت فى العقيدة وفصلت الشريعة عن العقيدة . ثم ترتب على هذا التحريف ما نراه من طغيان فى حياة الناس . ان الناس حين سمحوا للطاغوت أن يشرع لهم من دون الله صارت الامور الى عبودية من الناس وذلة ، وتجبر لحكم الطاغوت وغياب شرع الله عن التطبيق .

والاسلام اذ يعطى التصور الصحيح للالوهية وللحاكمية . يبسط هذا التصور فيشمل الكون والحياة والانسان

---

(١) أنظر جاهلية القرن العشرين ١٨٦ ــ ١٨٧

سنن الله فى الكون والحياة وخصائصها

الكون فى نظر الاسلام ليس الها وليس مخلوقا بلا غاية ولا تدبير ، انه لا يحيد فى ذاته ، ولا يستمد من ذاته حتمية حتى لنفسه ، وانما يستمد حتميات وجوده من الله سبحانه وتعالى . لان الله هو الذى خلقه ، ومن ثم فهو ذاته عابد الله ، يسير بمقتضى سنته ويهتدى بهداه (١) قال تعالى : " ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالت اتينا طائعين " (٢) . والكون يتميز بالتنوع والاختلاف ولو ترك دون ضابط لتنافر وانحل ، فهى سنة الله التى تمسكه فى نظام . " ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا " (٣)

وهذا الكون من الذرة البسيطة الى المجرة الضخمة يتحرك فيتخذ اشكالا دائمة التغير والتحور والتطور . فالذرة لا تهدأ والنجوم تتقد والخلايا تتكون وتهدم ، لا يعرف الكون السكون أبدا . هذه السنة هى قانون الله الذى يسلم له الكون طوعا وكرها ويذعن له كل شئ وكل حى رضى أم لم يرض ، من أكبر سيارة فى السماء الى أصغر ذرة فى الانسان قال تعالى : " أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون " (٤)

ان نواميس الكون هى سنة الوجود المادى وهى كلها الحق من عند الله قال تعالى :

" خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى الا هو العزيز الغفار " (٥)

فالحق هو قانون الكون اذا سار عليه انتظم ، واذا خرج عنه تفتت وانهار . قال تعالى :

" ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن " (٦)

---

(١) انظر نفس المصدر ص ١٨٩ — (٢) فصلت ١١

(٣) فاطر ٤١ — (٤) آل عمران ٨٣

(٥) الزمر ٥ — (٦) المؤمنون ٧١

فالكون لم يخلق عبثا ولا باطلا ، انما خلق بالحق . قال تعالى : " وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لا عبين ، ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون " (١) والحياة ليست عبثا ، فهى المقدمة التى تترتب عليها النتيجة فى الاخرة . قال تعالى : " أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون " (٢)

وقال تعالى : " وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون " (٣)

فالحياة الدنيا هى المكان والزمان المخصصان للابتلاء ، والحياة الاخرى هى المكان والزمان المخصصان للجزاء قال تعالى : " الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا " (٤) وقال تعالى : " كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة " (٥) . ان الانسان حين يعرف أن الحياة الدنيا ليست نهاية الاحداث تعتدل حياته ، ويستقيم أمره ، فلا يتلهف اللهفه المجنونة على متاع الارض ، ولا يدركه اليأس القاتل حين يرى مظالم البشر وانحرافاتهم ، التى لا حيله له فيها مهما حاول صارع الباطل واستيأس فى الصراع ، ثم يحس أنها النهاية الاخيرة وليس وراءها تصحيح للاوضاع الفاسدة ، ولا رد للمظالم الجائرة ، ولا يفسد قلبه ولا ايمانه بالحق والعدل الازليين ، فلا ينحرف فى سلوكه وأخلاقه فلا يظلم ولا يقبل الظلم ، ولا يبرر الوسيلة بالغاية ، ويخشى الله ويتقيه مادام يعلم انه ملاقيه ، فيعمل حساب هذا اللقاء بالتطهر والنظافة من الفساد .

لذلك ركز الاسلام تركيزا شديدا على قلب الانسان بذكر الاخرة وتصويرها ، وتجسيم مشاهدها ، وابرازها ووصلها بالحياة الدنيا ، وتوحيد الطريق من الدنيا الى الآخرة وترتيب هذه على تلك ، لان هذا هو المفتاح الذى يضبط الوتر على ضبطه الصحيح فلا تصدر عنه النغمة النشاز . (٦)

---

(١) الدخان ٣٨ ـ ٣٩ (٢) المؤمنون ١١٥

(٣) العنكبوت ٦٤ (٤) الملك ٢

(٥) آل عمران ١٨٥ (٦) نفس المصدر ص ١٩١ ـ ١٩٢

العميق الفعال فى تاريخ الحضارة واتجاه مسيرها فى جميع ميادين الحياة .

لقد نقل الاسلام العالم من النظرة الخرافية والميتافيزيكية والمجزأة الى النظرة الشاملة الجامعة الموضوعية والتجريبية المنتظمة فى سنن وقوانين ، وفتح آفاق التفكير العلمى فسار البحث العلمى فى طريق جديد ، وانتقلت العلوم الطبيعية من المرحلة العقلية النظرية عن اليونان الى المرحلة التجريبية منذ القرن الثانى للهجرة ، وانتهت الكيمياء والفيزياء والفلك الى مرحلة التجربة واكتشاف القوانين (١)

الانسان فى التصور الاسلامى

ثم يجئ دور الانسان ، والاسلام يقدمه فى أروع صورة وأبدعها ، ان الانسان فى الاسلام ليس الها ، وما هو كذلك بالحيوان ، ولا بالشيطان ، وانما هو انسان خلقه الله سبحانه وتعالى ليكون خليفة فى الارض ، وهو مخلوق فريد متميز (٢) كريم رفيع القدر ؛ فى حين أن الجاهليات الحديثة تخبطت تخبطات شتى ، فجعلت من الانسان الها ، ثم جعلت منه فى ذات الوقت حيوانا (بالمفهوم الداروينى) ثم جعلته فى النهاية عبدا سلبيا خانعا لا حول له ولا طول بازاء آلهة المادة والاقتصاد والحتميات (بالمفهوم الشيوعى) .

ان الاسلام يضع الانسان فى موضعه الحق الذى لا ينحرف به ولا يتخبط تخبط الجاهليات الحديثة . قال تعالى : " الذى أحسن كل شئ خلقه وبدا خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون " (٣)

---

(١) نظرة الاسلام العامة الى الوجود وأثرها فى الحضارة ص ٢١

(٢) انظر الباب الثانى الفصل الرابع والخامس

(٣) السجدة ٧ ـ ٩

انه لمخلوق عجيب ، انه من اصل ترابى ، ثم أصبح يتناسل كسائر انواع الحيوان ثم كان خلقا سويا ، وفي آخر هذه المراحل ونهايتها وحين نضج وكمل جعلت فيه نفخة من روح الله وبلغ الامر بتكريمه أن تسجد الملائكة له قال تعالى : " اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين " (١)

ان الاسلام لم يمرغ الانسان فى الوحل كما مرغته الداروينيه ، نعم لقد أشار الى حقارة منشئه كما أشارت الداروينيه • ولكنه حين يدلى بهذه الحقائق القاطعة لا يوحى بحقارة الانسان ، أو ضآلة قدره أو ضآلة دوره فى الحياة كما أوحت الداروينيه الى اتباعها الذين صاغوا كل التفسيرات الحيوانية السيئة للانسان بوحى من اليهود والقوى الهدامة • بل يردف هذه الحقائق بالحقائق الاخرى المكملة لها ، حقائق التفضيل وحسن التصوير والاختيار للامانة الكبرى ، امانة الخلافة فى الارض ، فيتحقق بهذا التوجيه أمران فى وقت واحد عظمة الخالق ورفعة الانسان ، وتعمل هاتان الحقيقتان لربط الكائن الانسانى بالله ، ورفعه الى المستوى اللائق بالخلافة ، وصيانته فى ذات الوقت من الغرور المردى والتردى الذميم •

والانسان فى تصوير الاسلام هو ذلك الكائن المزدوج الطبيعة ، المكون قبضة من طين الارض ونفخة من روح الله ممتزجتين مترابطتين غير منفصلتين • فلا هو قبضة من طين الارض خالصة فيهبط الى مستوى الجماد أو الحيوان ، ولا نفخة روح خالصة فيؤله أو يتأله ، انما هو مزاج من الطين ونفخة من روح الله يكونان هذا الكيان المتفرد فى الخلق المتميز عن كل الخلق • (٢) قال تعالى : " ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (٣)

---

(١) سورة ص ٧١ ـ ٧٢
(٢) انظر جاهلية القرن العشرين ١٩٢ ـ ١٩٣
(٣) الاسراء ٧٠

هذا الانسان المتفرد قادر على الارتفاع قدرته على الهبوط . قال تعالى : "ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها " (١)
وفى هذه الخاصية يكمن الابتلاء والجزاء ، فبمقتضى الهبوط والرفعة ، والارادة الممنوحة له ليختار بها فى كل لحظة وفى كل حالة بين الهبوط والرفعة ، بمقتضى ذلك يترك فى الارض ليعمل ثم يجازى على عمله يوم القيامه ان احسن فله الجنة ، وان أساء فله النار .

والانسان فى نظر الاسلام كيان موهوب ، وهبه الله ادوات الخلافة كلها ، قال تعالى : " وعلم آدم الاسماء كلها " (٢) وبهذه المواهب من سمع وبصر وفؤاد وعلم من الله يقوم بعمارة الارض ، ويكلف بالخلافه وحمل الامانة قال تعالى : " انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان " (٣)

ومن مقتضى ذلك كله أن يكون عنصرا فعالا فى الارض ، لا كما مهملا تتحكم فيه " الحتميات " وهو امامها خاضع ذليل ، انما يعمل قدر الله فى الارض خلال حركة الانسان وعمله قال تعالى : " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٤)
" ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض " (٥) ثم يسخر الله سبحانه وتعالى الكون للانسان " وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه " (٦)

وحين يرفع التصور الاسلامى الانسان الى هذا المدى الهائل الرفيع فانه لا يجعله خصما لله يصارعه ويبغضه ، انما يحبه ويخشاه . والرد الجميل على هذه العطايا والمواهب هو شكر الله ، وليس البغضاء والصراع كما صورته الجاهلية اليونانية والقت ظلاله على الجاهلية المعاصرة .

---

(١) الشمس ٧ ـ ١٠ (٢) البقرة ٣١
(٣) الاحزاب ٧٢ (٤) الرعد ١١
(٥) البقره ٢٥١ (٦) الجاثية ١٣

يقول الاستاذ محمد قطب " والانسان فى نظر الاسلام ــ كما هو فى حقيقة فطرته ــ كائن مترابط ، فلا انفصال بين عنصر الطين وعنصر الروح فيه ، ليس جسدا خالصا ولا روحا خالصة . ولا انفصال بين شعوره وسلوكه ، ولا عمله واخلاقه ، ولا مثله وواقعه ولا عقيدته وشريعته ، ولا دنياه وآخرته ، كلها مزاج واحد وحسبة واحدة . جسمه وروحه وحدة جسمية وروحية فى آن ، وشعوره وسلوكه وحدة شعورية سلوكية معا فى ذات الوقت ، وعمله واخلاقه وحدة عمليه خلقية بلا انفصال ، وعقيدته وشريعته شئ واحد هو " الدين " . ودنياه وآخرته جزآن متكاملان من حياة متصلة ليس فى داخلها انقطاع .

" وهو كائن متوازن ــ او ينبغى أن يتوازن . لا الجسد يغلب فيه على الروح ، لا الواقع على الخيال . لا نزعته السلبية على نزعته الايجابية .. لا دنياه على آخرته . لا ثقلته نحو الارض ولا رفرفته للسماء . ومن هذا الكيان المتوازن يتوازن الفرد والمجتمع والتصور والسلوك .. حين يستقيم هذا التصور الواضح المضئ فى ضمير الانسان . تستقيم حياته كلها على الارض . ولقد استقام هذا التصور فى نفس محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، والامة التى رباها على عينه ، فحدثت معجزات فى الارض لا مثيل لها فى التاريخ . تجمعت القبائل الجاهلية فصارت امة مسلمة .. وتركت النفوس الجاهلية الفها وعاداتها ، وعرفها وسلوكها ولذائذها المنحرفة ، وشهواتها ، واساطيرها وخرافاتها .. واستوت على الصراط نفوسا جديدة أنشأها الاسلام انشاء كانما ولدت اللحظة .. على المولد الجديد " الانسان " كله .. المولد الحقيقى فى ظل الله . لو قامت هذه النفوس المسلمة تنشئ واقعها انشاء على نمط غير مسبوق ولا ملحوق ، نمط ليس من وحى هذه البيئة ولا من عاداتها ولا من عرفها ولا من سلوكها الجاهلى وليس من وحى " ضرورة من كل ضرورات الارض .. قامت تحرر " الانسان " من الطاغوت لغير سبب بيئى ولا دنيوى يدفعها الى هذا التحرير " (١)

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٥ ــ ١٩٦

والى هنا ينتهى طوافى مع الاسـلام فى استعراض الكون والحياة والانسـان استعراضا سريعا . لان هذا الموضوع بحاجة الى مؤلف كامل يبحث فيه هـذه القضايا المهمة . وقد شق الطريق فى هذا المجال الشهيد سيد قطب فى كتابه خصائص التصور الاسلامى ومقوماتـه . والاستاذ محمد المبارك .

واختم هذا الفصل بنص للاستاذ المبارك حول هذا الموضوع " والاسلام فى نظـرته الى هذا العالم شارك الماديين فى نظرتهم الى الكون وحوادثه وسننه وقوانينـه وشاركهم كذلك فى أن السمع والبصر والتفكير والعقل هى ادوات الوصول الى معرفة حقائقه ، ولذلك طالما كرر القرآن الامر بالنظر والتفكر والتدبر ، ونسب الى المتأملين الالباب والعقل . ولكن الاسلام اذ يمر بنا فى آفاق النفس الانسانية ، لا يقف بنا فى المسير حيث تقف النظرة المادية ، بل يستمر حتى ينتقل من الكون الى موجده ، ومن الانسان الى خالقه ، ومن الحياه الانسانية الى ما وراءها "(١)

---

(١) نظـرة الاسـلام العامة الى الوجود ص ١٦

الفصل الثانـــى : تفسير تاريخ الامم بمقتضى التصور الاســلامى

الحضـــارة فى التصور الاســـلامى

ليست الحضارة فى التصور الاسلامى هى التقدم المادى والعمرانى ، لان الله سبحانه وتعالى يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، وقد تنتفخ الجاهلية بالـــــترف والرفاهية والفســـاد ، وقد يوجد معها نماذج محدودة من الاخلاق ، لان فطـــرة الانسان مجبولة على الخير والشر ، ولا يمكن للجاهلية أن تستنفد جميع الخـــــير ولكن العاقبة الى زوال ، لان الاصول التى بنيت عليها الحضارة الجاهلية ينخـــــر فيها الانحلال فلابد أن تنهار ، وهى نتيجة قد لا تظهر فى أول الطريق ولكنهـــا تظهر حتما فى نهايته .

والاسلام لا يحتقر المادة ولا ينبذها لانها جزء من كيان الانسان وجزء من بنيـــــة الوجود وهى موضوع الابتلاء وحقل الخلافة . قال تعالى : " قل من حرم زينة اللـــه التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيـــا خالصة يوم القيامة " (١)

فالاســـلام منشىء الابداع المادى ولكن فى اطـــار القيم الايمانية ، فان انفصـــل الابداع المادى عن القيم الايمانية كانت النكسة والانهيار ، والفارق الكبير بــــين المقياس الاســـلامى ، والمقياس الاوربى ، أن المدنية الاوربية الحديثة مقياسهـــا مادى لاغير ، فالتفوق المادى هو الذى يسجل درجة أى دولة فى التقدم والتأخـــر لكن هذا المقياس يتباين من وجهة النظر الرأسمالية عنه من وجهة النظر الشيوعيـــة وان اتفقـــتا فى النوع .

فالرأسمالية مقياس تقدمها أو تأخرها هو الدخل السنوى بالنسبة للفرد . فالدول التى يزيد دخول افرادها فيها عن مبلغ معين من الدولارات فى السنة تعتبر دولا متقدمـــة والتى تقل عن ذلك تعتبر دولا متخلفة . والشيوعية مقياس تقدمها أو تأخرها مرتبـــط بالمذهب أى مرتبط بصورة قوى وعلاقات انتاج . ومراحل التطور وضعها الشيوعيـــون

---

(١) الاعراف ٣٢

على درجات تبدأ بالشيوعية البدائية حيث الصيد الى مرحلة الرق والاقطاع حيث الزراعة الى الرأسمالية حيث الصناعة، واخيرا يصل الى اعلى مرحلة فى الاشتراكية الماركسية، وعلى حسب وضع أى دولة فى هذه الاطوار يكون مدى تقدمها أو انحطاطها وتأخرها .

الا أن مقياس التصور الاسلامى غير هذا ، انه تقوى الله وطاعته ، والنمو المادى فى اطار القاعدة الايمانية ، انه خضوع البشر المستخلفين فى الارض لله خضوعا كاملا يشمل الروح والمادة والفرد والمجتمع والدولة والعالم أجمع ، وما دون ذلك فهو الجاهلية ، وعلى هذا الاساس فالحضارة ليس معناها النمو المادى فحسب ، ولا النمو الروحى كذلك فحسب ، فلا هى مادية ولا رهبانية ، انها الاسلام لله والاذعان لاوامره ، فتعمر الارض بالاسلوب الذى امر الله به .

والتصور الاسلامى للحضارة الانسانية وتاريخها ينظر الى الحياة الانسانية على انها خطان متوازيان ، خط مشرق يمثل البشرية حين تهتدى الى الله وتلتزم بشرعة وتسلك طريق الانبياء الذين يتعاقبون لردها الى الطريق المستقيم ، وخط آخر مظلم يمثل حزب الشيطان وفترات الضلال والفساد الذى طرأ على الناس بعد أن كانوا أمة واحدة على الايمان بالله الواحد القهار .

يقول توينبى " والتاريخ الانسانى مؤلف من سلسلة من المواقف يتعين على الانسان أن يختار بين المضى فى سبيل الله ، أو الانحراف عن هذا السبيل ، وقد لوحظ أن حرية الانسان تبلغ أقصاها حين يتم الاتصال بينه وبين الله ، وتهوى الى الحضيض حين ينأى الانسان عن تعاليم الله وهديه . " (١)

---

(١) مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية والاسلام ص ٨٩ نقلا عن مجلة المجلات العالمية أغسطس ١٩٥٨

الهدف من دراسة تاريخ الامم السـابقـة

سرد القرآن الكريم نماذج مختلفة لحوادث تاريخية تحدثنا عن مواقف الافـراد والجماعات ازاء عدد من الاحداث والقيم التاريخية يمتد بعضها الى خلق آدم عليه السلام ، وردود الفعل التى اثارتها هذه الخطوة الالهية الحاسمة ، ويصل بعضها الى عدد من التجارب التى مارسها افراد عاديون سلبا (انظر قوم لوط ، اصحاب الحجر اصحاب الجنتين) او ايجابا (اصحاب الكهف واصحاب الاخدود) او نفذهـا قادة وملوك وزعمـاء كبار (كفرعون وقارون واصحاب الفيل) . مرورا بسلسلة الانبياء الطويلة التى بعثت لكى تجدد الحوار الموعود ، منذ عهد آدم بين السماء والارض ، وتسعى باقوامها الى صياغة حركة التاريخ بما ينسجم ومركز الانسان فى الكون . وتتجاوز بعض الايات القرآنية الماضى والحاضـر ، لكى تمد رؤيتها الى المستقبل القريب او البعيد ، فى تنبؤات تاريخية يحيطها علم الله المطلق بالصدق الكامل والضمانـة النهائية ، وقد نفذ بعضها فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وظل بعضهـا الاخر ينتظر التنفيذ اذ لم يحدد له زمن بالذات . وهنا ملاحظة جديرة بالانتبـاه وهى ان القرآن المنبثق عن علم الله الكامل ورؤيته المحيطة بمعجزات الزمان كلـه ماضيا وحاضـرا ومستقبلا . لم يسرف فى النبوءات التاريخية واكتفى منها بما يعد على اصابع اليدين لانه لم يجئ لكى يكون كتاب تنبوءات ، بل جاء ليكون دستور حيـاة المسلمين . فى حين ان ماركس قد اسرف فى تنبوءاته (1) حين فسر التاريـخ اسرافا خياليا وعلى الرغم من ذلك فانه زعم ان تنبوءاته علمية !

والهدف من ايراد الحوادث التاريخية وقصص الانبياء هو

١ ـ اثارة الفكر البشرى ، ودفعه الى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق .

---

(1) راجـع ص ٣٨٣

٢ ـ تقديم خلاصة التجارب البشرية عبرا يسير على هديها العقلاء .

٣ ـ ازاحة ستار الغفلة والنسيان فى نفس الانسان . وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة لكى تظل فى مقدمة قواه الفعالة التى هو بأمس الحاجة الى تفجير طاقتها وهو يواصل الجهاد فى عالم يرفض الذين يعانون الغفلة والكسل الذهنى والتواكل واليأس والنسيان .

٤ ـ تقديم الدليل على علم الله الواسع الذى أحاط بحركة التاريخ ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

٥ ـ تأكيد البرهان على الحق الواحد الذى جاء به الانبياء السابقون جميعا وسعوا الى أن يقودوا أممهم الى مصدره الواحد الذى لا اله الا هو (١)

أما النتائج المترتبة عن دراسة حركة التاريخ البشرى واحداثه فهى :

١ ـ ان القرآن يطرح علينا لاول مرة مسألة السنن والنواميس الربانية التى تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذى لا يخطىء ، وعبر مسالكها المقننة التى ليس للخروج عليها سبيل لانها منبثقة من صميم التركيب البشرى ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز واخلاقا وفكرا وعواطف ووجدانا ، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة فى العالم الذى يتحرك فيه الانسان ، متجاوزة فى اتساعها وشمولها نسبيات البيئة الجغرافية أو الوضع الاقتصادى ، لكى تتسع للفعل الانسانى والتى تنبثق عنها المواقف التاريخية سلبا وايجابا ، حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا الى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة من الوقائع التاريخية سلفا نتائجها التى تكاد تكون محتومة لارتباطها العضوى بمقدماتها اعتمادا على استمرارية السنن التاريخية واستمرارها .

---

(١) انظر التفسير الاسلامى للتاريخ ص ١٠٦

ان أى تأخر فى نفاذ هذه السنن سوف يؤدى الى تمييع الحركة التاريخية وبالتالى سيؤول الى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل ، وقد أكد القرآن الكريم فى أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها وعدم تبدلها وتحولها لانها موجودة أساسا فى صميم التركيب الكونى وفى قلب العلاقات المتبادلة بين الانسان والعالم . وقد كشف القرآن الكريم النقاب عن هذه السنن وأكد وجودها وثقلها فى حركة التاريخ .

٣ – والسنن والنواميس الربانية غير محددة ، ولا تأسر نفسها ، بل تمتد وتمتد مرنة منفتحة شاملة ، لكى تضم أكبر قدر من الوقائع ، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات ، وتبقى دائما الحصيلة النهائية ، والرموز المكثفة والدلالات الكبرى لحركة التاريخ .

٤ – والسنن الربانية فى نفس الوقت دافع حركى تفرض على الجماعة المدركة الملتزمة ، ان تتجاوز مواقع الخطأ التى قادت الجماعة البشرية السابقة الى الدمار ، وأن تحسن التعامل مع قوى الكون ، مستمدة التعاليم والقيم من الله سبحانه وتعالى .

٥ – والسنن الربانية فى التاريخ ثابتة وماضية ازاء الجماعات البشرية التى تتنكب عن الطريق المستقيم ، بغض النظر عن حجم هذه الجماعة وعن مدى دورها الحضارى ومقدار منجزاتها المادية والادبية فى مقياس الكم ومعايير المساحات .

٦ – انه ليس بالقوة والبطش تحيا الامم وتزدهر وتواصل الطريق ، انهما جانب فحسب فى المسيرة الحضارية ، وان أى طغيان لأى منهما سيعرض الجماعة للدمار (١)

---

(١) انظر نفس المصدر ص ١١٠ – ١١٦

سقوط الحضارات

أجمعت المذاهب الوضعية للتاريخ على سقوط الحضارات ، وخاصة مذهب ماركس في التفسير المادي للتاريخ ، حيث اخضع حركة التاريخ بدولها وحضاراتها وتجاربها لحتمية تبدل وسائل الانتاج وانعكاسه على الظروف ، وأن كل وضع تاريخي مآله الى الزوال باستثناء حكم الطبقة العاملة حيث لا زوال بعدها .

ولكن الاسلام يختلف في تفسيره للتاريخ عنها ابتداء ، لانه من وحي الله عز وجل ، انه يقرر منذ البدء قاعدة اساسية في موقفه ازاء الدول والتجارب البشرية والحضارات ، انه بواقعيته المعجزة يقرر منذ البدء عدم ديمومة أي من هذه المعطيات ، ولا يستثني منها المسلمين . انها المداولة بين الناس يقول الله تعالى :

" وتلك الايام نداولها بين الناس " (١)

والاسلام يطرح فكرة المداولة كعمل حركي يستهدف تمحيص الجماعات البشرية واثارة الصراع الدائم بينها . الامر الذي يتمخض عن تحريك الفعل التاريخي والاسلام اذ يقرر حتمية السقوط والانحلال ، نجده في نفس الوقت يقرر امكانية أية أمة أو جماعة أن تعود باستمرار لكي تنشئ دولة أخرى أو تمارس تجربة جديدة ، أو تتولى زمام القيادة الحضارية والعقائدية ، وحتى تتمكن أي امة من الصعود لابد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك وهي :

١ - عملية التغيير الداخلي ، الذي يمتد الى كافة المساحات الاخلاقية وسائر المكونات النفسية الاساسية . وكل العلاقات الداخلية مع ذات الانسان ومع الاخرين ، والتي تمكن الانسان فردا وجماعة من مواجهة حركة التاريخ . والقرآن الكريم يطرح مبدأ التغيير الداخلي مقابل حتمية

---

(١) آل عمران ١٤٠

السقوط والمداولة كوسيلة للاستعادة قال تعالى : " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (١)

ان تأكيد الاسلام على مبدأ التغيير فى جانبيه السلبى والايجابى يعنى أنه يمنح الارادة البشرية فرصتها فى صياغة مصيرها ، فى التشبث به أو استعادته اذا ما أفلت من بين يديها .

٢ ـ تتعرض الامم فى سيرها للصعود والهبوط ، للنجاح والفشل ، للارتفاع والانهيار اعتمادا على ممارستها ومعطياتها ، ثم تبرز المسئولية كعامل أساسى فى توجيه مصائر الحركة التاريخية . ويؤكد الاسلام على أن أية أمة مؤمنة كانت أم غير مؤمنة انما تحمل مسئووليتها كاملة ازاء نفسها أمام الله والتاريخ .

---

(١) الرعد ١١

عوامـل السـقوط واتجاهـاتها

ان قضية سقوط الحضارات تأخذ اتجاهات عدة ، سياسية وادارية واقتصادية واخلاقية واجتماعية وعقائديـة .

أما سقوط الحضارات السياسي فراجع الى العلاقة بين القيادة والقاعدة على السواء وذلك لان القيادة لا تمارس فاعليتها واخلاقياتها الحسنة او السيئة الا باقرار مكشوف أو ضمنى من القاعدة حركة وسكونا .

وحين تستلم القيادة حفنة من المترفين الفسقة او الاداريين الظلمة او المجرمين الطغاه ، فانهم يمارسون من خلال سلطتهم كل أسلوب من شأنه أن يؤول الى الحاق التفكك والدمار بالجماعة والامة التى ارتضتهم قادة لها ، كالترف والفسوق والعصيان والطغيان ، والفوضى والاستغلال ، والمكر والخداع والكذب والتضليل ، ورفض الدعوات الخيرة واستخدام أشد أنواع البطش والقسوة لصد الناس عنها . ان هؤلاء الطغاة أدوات بيد الله سبحانه وتعالى يسخرهم من حيث لا يشعرون لانزال عقابه العادل بطرفى الجريمة ، السلطة التى تظلم والقاعدة التى ترضى بالظلم قال تعالى : " واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " (١) وما من ريب أن المسألة الادارية ترتبط أشد الارتباط بممارسات السلطة السياسية فى اطارها الشامل ، وتأخذ ازاءها علاقة طردية ، فكلما زادت القيادة ظلما وطغيانا كلما اصيب الجهاز الادارى بالتفكك والعجز وبالعكس .

٢ ـ كما ركز الاسلام على المسألة الاجتماعية فى جانبها الاقتصادى ودوره فى التدهور والهبوط ، انه اذا اختفى العدل وانعدم التوازن ظهر الغنى الفاحش والترف الذى يهدم كيان المجتمع .

---

(١) الاسـراء ١٦

" أن الترف ممارسة مدمرة سواء للجماعة كلها التى تسكت عليها وتغض عنها الطرف أو تغلو فى انهزاميتها فتتملق وتتقرب وتداهن ، أو للمترفين أنفسهم الذين يحمى الثراء الفاحش ، وما ينبثق عنه من ممارسة مرضية متضخمة مبالغ فيها ـ بصائرهم ويطمس على ارواحهم ، ويسحق كل أحساس اخلاقى اصيل فى نفوسهم ويحجب عنهم ـ وهذا هو الاهم والاخطر ـ كل رؤية حقيقية لدور الانسان فى الدنيا ، وموقفه فى الكون ، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالمى الحضور والغياب ، والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والارض والسماء . (١)

كما شنع الاسلام على العلماء المنافقين الذين يتجاوزون بدينهم ، ويتملقون للمترفين والمفسدين ويدجلون على الناس باسم الدين ليأكلوا اموالهم بالباطل .

ان الدور الذى تمارسه هذه الفئة من الناس فى السير بالجماعات والحضارات نحو الانحطاط والتدهور والانهيار لا يقل خطورة عن دور المترفين ، ان لم يفقه بكثير وذلك لانهم يمارسون جريمة مركبة تقوم على استنزاف اعد ما يهم الناس فى حياتهم اليومية والتزوير فى ما يهمهم فى تجربتهم الدينية الشاملة .

وقد تجلى فى موقف رجال الكنيسة من الاقطاع وحمايتهم له وسلب اموال الناس باسم الدين ومحاربة العلماء والمصلحين . (٢)

٣ ـ وقد ركز الاسلام على القاعدة واعتبرها شريكة فى الاثم اذا لم تغير المنكر والظلم الذى تمارسه الطبقات الحاكمة . ويدفعها الى العمل المتواصل حتى تحقق العدل فى الارض بتطبيق شرع الله وهديه على الناس .

وفى ختام هذا البحث ، لا بد من تقرير الحقائق التالية :

١ ـ كان مصير جميع الديانات السماوية النجاح الحاسم[٣] ، ومصير الطغاه الدمار الكامل .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ وانظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٧١ ـ ٣٧٤

(٢) انظر الظروف التى مهدت لانتشار التفكير المادى فى اوربا

(٣) قبل أن يدخلها التحريف ويتخلى عنها اتباعها

٢ ـ كانت الجماعات المؤمنة ، حتى فى مرحلة كفاحها ومواجهتها لقوى الكفر التى تفوقها عدة وعددا اكثر سعادة وفرحا ، واعمق امنا ويقينا واشد ايمانا بالمستقبل والمصير من الجماعات الكافرة .

٣ ـ ان الايام سجال بين الناس تسقط حضارة وترتفع اخرى ، والميزان الذى تقاس به حضارة الامم هو مقدار التزامها بشرع الله وبعدها عنه .

٤ ـ أن الظلم والفجور والترف اذا اصاب امة من الامم فان مصيرها الى الهلاك والدمار .

٥ ـ ان الانسان مخلوق مكرم ذو حرية وارادة فضله الله على كثير من خلقه وكلفه بمهام الخلافة فى الارض بعد أن سخر له ما فى السماوات والارض فضلا منه ، ولم يتركه عبثا . هذا الانسان الذى خلقه الله فى احسن تقويم يظل فى هذه الصورة الكريمة منعما ما دام ملتزما بشرع الله ويهبط الى أسفل سافلين اذا تخلى عن عبادة ربه . ويرتفع الى السعادة من جديد ان عاد والتزم بأمر الله سبحانه وتعالى .

قال تعالى : " والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون " (١)

وفى ختام هذا الفصل أتمنى على الله أن يهيء شباب هذه الامة المسلمة لقيادة ركب الحضارة من جديد فى كل المجالات ، وأن يهيء منهم من يحقق الامنية التى يتمناها كل مسلم وهى كتابة التاريخ من وجهة النظر الاسلامية ، انه سميع مجيب .

---

(١) التين ١ ـ ٦

الخاتمـــــة

وفى نهاية هذا البحث ، بعد أن من الله عز وجل على فأبطلت بمنهج علمـــى وعقلى ادعـاءات الفكر الشيوعى فيما أسموه بالتفسـير المادى للتاريخ ، والاسـانيد التى اعتمد عليها هذا الفكر المزيف . أقدم للقارئ الكريم أمهات القضايا الـتى تبين لى بالمناقشـة العلمية بطلانها وأهمهـــا :

أولا : فيما يتعلق بالظروف التى مهدت لانتشـار التفكير المادى فى أوربا ، فقـد توصلت الى النتيجتين التاليتين :

ا ـ الفكر المادى ليس من ابتداع ماركس، بل هو ضارب فى اطناب الزمـن حيث يعود الى عهد الحضارتين الاغريقية والرومانية .

ب ـ ما كان للتفكير المادى أن ينتشـر لو أن الكنيسـة حكمت بشـرع اللـــه ولم تحل بين الناس وبين اعتناق الدين الاســـلامى .

ثانيا : وفى الباب الاول لم اناقش نظريات الماديين ، بل عرضتها عرضا أمينا كمـا جاءت من وجهة نظرهم ، وابرزت الاهداف التى يسـعون الى تحقيقهـــا وعلى سبيل المثال أن قولهم بأزلية المادة وابديتها يستهدف انكـــار وجود الله سبحانه وتعالى .

ثالثا : أما الباب الثانى والذى خصص لمناقشة النظرية ، فقد توصلت فيه الــــى النتائج التاليـــة :

ا ـ ناقشـت أزلية المادة وأبديتها وأسـبقيتها فى الوجود على الفكـــر ، واظهرت لى البحوث العلمية بطلان هذا الادعاء من أسـاسه ، وأن المادة حادثة خلقها الله بعد أن لم تكن ، وأن مصيرها الى الفنـــاء ، كما ظهر لى تراجع الماركسيين عن القول بأسـبقية المادة فى الوجـــود على الفكر .

ب ـ توصلت بالادلة العلمية الى بطلان فهم الماديين لقوانين المـادة فـــى

ذاتها ، كما وجدت أن التطور لا يكون دائما صاعدا ، وأن التغير هو الموجود بالفعل ، وقد يكون نحو الادنى أو الاعلى . وأن التناقض غير موجود فى المادة . وأن الماديين خالفوا علم المنطق فى فهمهم لقانون التناقض ، وانهم يقفون بقانونى التطور والتناقض عن العمل عند عند حدود الشيوعية ، وهذا العمل مخالف للمنهج العلمى ، كما أن قوانين المادة لا تنطبق على الانسان لانه كائن ذو حرية وارادة منحها الله سبحانه وتعالى له .

جـ ـ وجدت من خلال البحث أن نظرية التطور لم تصل الى درجة الحقيقة العلمية ، وأن كثيرا من العلماء فى أوربا لم يتقبلوها على أنها حقيقة علمية ، وانما لانه لا يوجد بديل عنها سوى الايمان بالله سبحانه وتعالى وهذا مما يحرم التفكير فيه عند كثير منهم ، وذلك راجع الى حماقة الكنيسة التى كرهت الناس بالدين ونفرتهم منه ، كما أنه لو صحت هذه النظرية فانها لا تنطبق على الانسان لانه متفرد له قوانين خاصة يسير عليها فى حياته تختلف عن قوانين الحيوانات .

د ـ وتوصلت الى أن العامل الاقتصادى هو احد العوامل المؤثرة فى حياة الانسان ،وأن ادوات الانتاج تحقيق لفطرته ، وأن حصره فى نطاق البحث عن الطعام والشراب خرافة لا تستند الى دليل علمى ، وأن السبب فى تغيير النظام لا يعود الى ادوات الانتاج ، لأن دولا كثيرة تملك ادوات انتاج متماثلة مع أن أنظمتها مختلفة ، كما اتضح لى أن القول بالحتميات مخالف للمنهج العلمى ، وأن نظرية الاحتمالات هى النظرية السائدة فى ميدان العلوم اليوم . وأن حتمية التطور خرافة ، فقد تجاوزتها الشيوعية بانتقالها من المرحلة الاقطاعية الى المرحلة الاشتراكية دون أن تمر بالمرحلة الراسمالية .

ووجدت أنهم لا يملكون الدليل العلمى القاطع على أن الناس فى المجتمعات الاولى كانوا يعيشون فى شيوعية عامة ، لا جشع فيها

ولا طمع ولا نهب ولا استغلال ٠

كما توصلت الى أن الظلم الذى شهده عصر الرق والاقطاع والراسمالية ناتج عن غياب شرع الله عن التطبيق ، وأن تلك الصورة المظلمة خاصة بتاريخ اوربا وحدها ولا تشمل غيرها ، وأن اسلوب التعميم الذى سلكه ماركس فى تفسيره المادى للتاريخ مخالف للمنهج العلمى ؛

لانه لا يجوز للباحث التاريخى أن يجعل دراسته قاصرة على حياة أمة من الامم فى فترة من الفترات ، ثم يعمم النتيجة التى توصل اليها على جميع الامم ، وأن القول بأن التاريخ البشرى أصبح بكامله منذ ظهور الملكية الخاصة مسرحا للصراع الطبقى باطل ، لانه لا ينطبق على الاسلام الذى لا يقر نظام الطبقات ، وذلك لان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم والمشرع ، والافراد منفذون لشرعه ٠ كما توصلت الى ان الملكية الفردية نزعة فطرية ، وأن الظلم ناشئ عن سوء استخدامها ، وأن الامم قد تشكلت قبل مرحلة الراسمالية ، بدليل أن الامة الاسلامية تشكلت قبلها ، والدول الراسمالية الحالية لا تشكل أمة واحدة ، وأن الاستعمار وجد فى العصور القديمة لانه شهوة منحرفة ناشئة عن بعد الناس عن شرع الله ، وأن السوء الذى وصلت اليه الراسمالية ، لم يكن نتيجة حتمية لطبيعة راس المال ، ولم تكن لتصل الى ما وصلت اليه لو أنها استقامت على دين الله ، وحاربت الربا ومخططات اليهود الشريرة الرامية الى افساد البشرية وتدمير أديانها واخلاقها ، ونهب اقتصادها ٠

كما توصلت الى أن التفسير المادى للتاريخ لا يستطيع أن يفسر ظهور الاسلام تفسيرا اقتصاديا ٠ فالاسلام مثلا حرر الرقيق قبل اوربا بسبعة قرون ، واعطى المرأة حقوقا وامتيازات لا مثيل لها فى تاريخ البشر ، دون أن يكون وراء ذلك دوافع اقتصادية ، كما أن الاسلام لا يقر نظام الاقطاع ، لان التشريع بيد الله ، والمال مال الله والانسان مستخلف فيه ، ونظام الارث يفتت الثروة ويحول دون التضخم

الذى يؤول الى جعل المال دولة بين الاغنياء .

كما وجدت أن شعار " من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته " الذى أطلقه الماديون خرافة لا يمكن أن تتحقق بحال من الاحوال ، وأن الحوادث التاريخية كذبت تنبؤات ماركس .

كما وجدت أنهم تراجعوا عن تطبيق كثير من مبادئ الشيوعية كاباحتهم أنواعا من الملكية الفردية والارث .

هـ - وقد ظهر لى ولله الحمد بطلان النظرة الشيوعية للدين التى تزعم أن الدين مخترع بشرى يتطور تبعا لتطور العوامل الاقتصادية ، وهو مخدر لاتباعه - واثبت أن التدين فطرى ثابت فى النفوس ، والتوحيد أصل التدين والشرك أمر طارئ ، ووجدت أن القول بأن الدين مخترع وهم وخداع يقصد منه هدم الاديان - امنية اليهود والمفسدين الغالية - . وأن الدين الصحيح لم يكن مخدرا لاتباعه فى يوم من الايام ، بدليل أن الثورات المعاصرة التى ثارت على الاستعمار الراسمالى والشيوعى معظمها قامت تحت راية الدين ، وأن الدين لا يشوه نظرة الانسان الى العالم ، فالدين الاسلامى مثلا يامر اتباعه ان ينظروا الى العالم نظرة تفاؤل وأمل ، وأن يسعوا فى الارض لاعمارها ، وأن ينهلوا من ينابيع العلم والمعرفة ما يستطيعون وفق شرع الله وهديه .

و - كما توصلت الى ان الاخلاق فطرية ثابته فى النفوس لا تتغير ، وتستمد تعاليمها من الدين ، وأن ما يزعمه الماديون تطورا اخلاقيا ليس الا انحرافا فى السلوك نتيجة لعدم تحكيم شرع الله فى حياة الناس ، وأن انحراف أوربا عن المعايير الخلقية كان نتيجة حتمية لابتعادها عن دين الله ومخالفتها لشرعه .

ز - توصلت الى بيان غرض الماديين من انكار دور الافراد البارزين وهو انكار دور الانبياء والمصلحين ، وأكدت على أن دور الانبياء والمصلحين فى دفع عجلة التاريخ حقيقة ثابتة لا سبيل الى نكرانها .

ح ـ تبين لى أن شيوعية النساء لم يقم عليها دليل علمى قاطع ، وأن الاسرة فطرية ، وأن آدم وحواء كانا أول زوجين أنشآ أول أسرة على وجه الارض ، وأن تطور الاسرة تبعا لتطور العوامل الاقتصادية خرافة ، وأن الانحلال الذى صارت اليه المرأة الاوربية ليس الا نتيجة لجفاف الينابيع الاخلاقية والظلم الاقتصادى، نتيجة لانحراف اوربا عن الدين الصحيح ، وانسياقا مع مخططات اليهود الراهية الى اشاعة الفاحشة فى الارض والقضاء على نظام الاسرة .

رابعا : أما فيما يتعلق بالتصور الاسلامى فقد توصلت من خلال النظرة الاسلامية للانسان أنه مخلوق مكرم ذو حرية وارادة ، سخر الله له الكون المادى ليستفيد منه ، وأمره بالاستقامة على دينه لينال سعادة الدنيا والفوز بالاخرة .

كما تبين لى أن الاسلام يقيس حضارات الامم بمقدار قربها أو بعدها عن الله ، وليس بما تملك من وسائل الانتاج ، وان الظلم والفجور والترف والضعف المادى والمعنوى والبعد عن شرع الله والسكوت على المنكر اذا اصيبت به أمة من الامم فانها ستنهار حتما لا محالة .

من خلال ما تقدم أستطيع أن أقول ان موقف الاسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ بصفة خاصة والشيوعية بصفة عامة ، هو الرفض التام المطلق ، لانهما قائمتان على تصور ملحد ينكر وجود الله ويحارب دينه ، ويخالف فطرة الانسان والمنهج العلمى الصحيح ، ويسعى الى نشر الفساد فى الارض .

هذا وقد مكننى الله سبحانه وتعالى من اتمام هذا البحث لا يسعنى الا أن أتوجه اليه سبحانه وتعالى بالشكر على ما أنعم ، واننى لا أستطيع أن أدعى لنفسى الكمال واننى أتيت فى هذا الموضوع مالم يستطعه الاوائل ، ولكننى أقول اننى بذلت جهدا وقضيت وقتا امتد قرابة ثلاث سنوات ، حاولت خلالها أن أبحث واستقصى وأن ارجع الى كل ماله مساس بالموضوع التماسا لايفائه ما يستحق من بحث وتمحيص ، فكم من رجل

من كبار رجال الفكر والعلم ورواد المعرفة قد كتب بحثا اليوم وأولاه من الجهد والوقت ما رآه أهلا له ، ولكنه بعد أن فرغ منه وجد فيه هنات وهنات ، وقال لو قدمت لكان أحسن أو أخرت لكان أجمل ، وتلك طبيعة البشر وغاية امكانه فسبحان من تفرد بالكمال واستعلى على النقد والنقصان •

وانني وأنا اقدم هذا البحث لآمل أن أكون وفيته حقه ، وأتيت فيه بجديد ، فان كنت وفقت لذلك فهذا ما أردت ، وان يكن قصر جهدى عن ادراك الغاية ، فعزائى أنى لم آل جهدا فى هذا السبيل ، وان الله لم يكلف نفسا الا وسعها فان أنا أحسنت فمن الله ، وان أسأت فمنى ومن الشيطان واستغفر الله •

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملى خالصا لوجهه الكريم ، وأن يرجح به كفة حسناتى وحسنات شيوخى ، ومن ساعدنى على اتمامه يوم الدين " يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم "(١) سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك " ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " (٢)

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين •

---

(١) الشعراء ٨٨ _ ٨٩

(٢) البقرة ٢٠١

ترجمة لاهم الاعلام الواردين في البحث

(١) ارسطو طاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق٠م) ٠

فيلسوف اغريقي معروف ، تتلمذ على يد افلاطون ، والف عددا من الكتب ظلت افكاره في منزلة لا يرقى اليها غيرها اكثر من خمسة عشر قرنا لا سيما في المنطق ، الا ان الفلسفة الحديثة هدمت كل نظرياته تقريبا .

(٢) ارنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) ٠

فيلسوف فرنسي ، كان في بداية امره رجل دين ، ثم انتقل بعد دراسته للفلسفة الى معاداة الدين ، حتى اصبح زعيما للمدرسة المسماة " مدرسة النقد التاريخي للكتب المقدسة" . هاجم الاسفار والاناجيل ورجال الدين .

(٣) اسبارطاكوس (توفي عام ٧١ ق٠م) ٠

مصارع روماني ، زعيم اكبر ثورة للعبيد في روما .

(٤) افلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق٠م) ٠

فيلسوف اغريقي مثالي قديم ، ولد في اثينا ، كان شاعرا ثم اختص بالفلسفة .

(٥) اميل دوركايم (١٨٥٨ - ١٩١٧) ٠

يهودي فرنسي ، ينسب اليه علم الاجتماع الحديث لا سيما نظرية العقل الجمعي ، واعتبار الظواهر الاجتماعية اشياء مستقلة عن الصور الفردية وتتبعه مدرسة مستقلة في هذا الميدان .

(٦) انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) ٠

رفيق ماركس في النظرية والنضال ، اسهم معه في وضع ما يسمى بالاسس العلمية للاشتراكية ، والده برجوازي كبير صاحب شركة نسيج ، تأثر بفلسفة هيجل ، شارك عام ١٨٤٤ وعام ١٨٤٥ مع ماركس في كتابي " العائلة المقدسة" و" الايديولوجية الالمانية" كما شاركه في كتاب " رأس المال والبيان الشيوعي" وفي عام ١٨٧٨ نشر كتابه "انتي دوهرنغ" الذي يعتبر اعمق توضيح للنظرية الماركسية سواء في جوانبها الفلسفية او الاقتصادية او الاجتماعية . ويعتبر

كتابه " جدليات الطبيعة" من اهم الكتب الماركسية بعد كتاب رأس المال الماركسي .

(٧) اوجست كوست (١٧٩٨-١٨٥٧) .

فيلسوف فرنسي ، وهو واضع اسس الفلسفة الوضعية وفكرة الانسانية بمفهومها الحديث ، كما انه وضع مبادئ علم الاجتماع التى اكملها تلميذه دوركايم .

(٨) اوغسطين " القديس" .

فيلسوف نصرانى جمع بين النصرانية والافلاطونية الحديثة ، كان صاحب نظرية نصرانية فى الحكم ، اوضحها فى كتابه " مدينة الله" بينما ترى الوجودية انه من اوائل الوجوديين ، كانت حياته فى الفترة مابين عامى (٣٥٤ ، ٤٣٠) .

(٩) آينشتين (١٨٧٩-١٩٥٥) .

يهودى المانى ، صاحب نظرية النسبية التى كان لها اثر بالغ فى الفكر والعلم المعاصرين ، وعلى اساسها سقطت معظم نظريات القرن التاسع عشر الكونية .

(١٠) بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤) .

شاعر ايطالى ، درس القانون فى ايطاليا وفرنسا ، واهتم بالدراسات الانسانية ، نظم بالايطالية كتاب " الاغانى" وكان يعتز بمؤلفاته اللاتينية .

(١١) بودان (١٥٣٠-١٥٩٦) .

جان بودان برجوازى فرنسى وعالم اجتماعى من انصار الحكم المطلق .

(١٢) جاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢) .

ولد بايطاليا ، ودرس الطبيعة والرياضيات ، وكان صاحب نظريات جديدة ، ادت الى اصطدامه بالكنيسة وحوكم وسجن بسبب قوله بدوران الارض واختراع المرقب " التلسكوب" .

(١٣) جردانو انوبرونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠) .

كان راهبا ولكنه انفصل عن الكنيسة بسبب تأثره بالنزعة الانسانية والعلوم الطبيعية ، ونظرية كوبرنيكس ، وترك سلك الرهبنة ، وفر الى

ايطاليا ولكنه وقع اخيرا فى قبضة محاكم التفتيش وسجن ثمانى سنوات واحرق حيا على عمود التعذيب، وكانت فلسفته مادية اجمالا ، قال بالحلول والاتحاد ولا نهائية العالم .

(١٤) جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) .

فيلسوف انجليزى ، ومن اصحاب المذهب الثنائي ومن انصار المذهب الحسى .

(١٥) داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) .

هو تشارلز داروين صاحب نظرية التطور العضوى المعروفة ، ولد بويلز فى بريطانيا ، والف كتابه " اصل الانواع" بعد رحلة طويلة وقد احدثت نظريته انقلابا فكريا فى معظم حقول المعرفة الاوربية ، نظرا للاستغلال العظيم الذى قام به المغرضون والهدامون ، ولا سيما اليهود .

(١٦) ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) .

اشتغل بالفلسفة حتى اصبح عالما على مذهب " السك" الحديث . له مؤلفات كثيرة اشهرها " رسالة فى الطبيعة البشرية" .

(١٧) ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) .

هو رينيه ديكارت ، فيلسوف ورياضى فرنسى بارز ، من اصحاب المذهب الثنائى ، مادى ميكانيكى .

(١٨) رابله (١٤٩٤ - ١٥٥٣) .

فرانسوا رابله ، كاتب فرنسى انسانى من عصر النهضة .

(١٩) روبرت اوين (١٧٧١ - ١٨٥٨) .

اشتراكى طوباوى انجليزى ، ومؤسس الحركة التعاونية ، كان من رجال الاعمال الناجحين فى مانشستر ، وقد حاول اقامة مجتمعات اشتراكية فى انجلترا وامريكا واهم كتبه " نظرة جديدة الى المجتمع" .

(٢٠) سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) .

اشتراكى طوباوى فرنسى ، كان مغامرا فى الحياة والفكر ، دعا الى تسليم زمام الحكم الى رجال الصناعة والعلم بدل الاشراف والقانونيين .

(٢١) سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) .

فيلسوف انجليزى ينتمى للمدرسة التطورية احدى مدارس علم الاجتماع الكبرى ، اشهر كتبه " مبادىء علم النفس" تعرض فيه لنظرية التطور .

(٢٢) سبنيوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) .

فيلسوف يهودى هولندى ملحد اشتهر بعداوته للنصرانية وكان من اصحاب مذهب وحدة الوجود ، كما انه أول من اسس فكرة النقد التاريخى للكتب المقدسة فى كتابه " رسالة فى اللاهوت والسياسة" .

(٢٣) ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) .

اسمه الحقيقى جوزيف فيسيار فيتش شوجا تشفيلى ، واتخذ اسم "ستالين" اسما مستعارا اثناء نشاطه الثورى فى بداية هذا القرن . كان ابوه اسكافا فقيرا ، وحاولت امه ان تجعله قسيسا فالحقته فى معهد دينى ولكنه هرب منه والتقى ستالين مع لينين الذى كان فى المنفى ، واصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، اتسم عهده بالوحشية والقسوة والجاسوسية والطغيان والانحراف من مبادىء لينين كما جاء فى التهم التى وجهها خروشوف لستالين بعد موته .

(٢٤) سقراط (٣٩٩ - ٢٧٠ ق.م) .

فيلسوف اغريقى شهير . استاذ افلاطون له نظريات فى الفلسفة والرياضيات والاخلاق ، حوكم واعدم عام ٢٧٠ ق.م بتهمة انكاره لالهة اليونان وادعاء انه رسول او يقوم بمهمة الرسل .

(٢٥) سيرفيت او سرفيتوس .

كاتب اسبانى الف كتابا هاجم فيه عقيدة التثليث ابان الصراع الدائر بين الكنيسة والعلم فى القرن السادس عشر ، اعدم عام (١٥٥٣) .

(٢٦) شارل فورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧) .

اشتراكى فرنسى طوباوى ، وهو احد اباء الشيوعية الحديثة ، دعا الى التعاون بين الافراد ، وان يختار كل فرد العمل الذى يوافق ميله ، ولا يتسنى هذا الاختيار الا فى فرق تمثل كل فرقة منها المهن الضرورية لبقائها ، وفى

كل قسم من اقسام المهنة يؤلف العمال جماعة اصغر بحيث يشعر الكل بتعاون الكل ، وكان يشير الى نظام الكلخوز الذى طبق فيما بعد فى روسيا .

(٢٧) شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) .

وليم شكسبير من كبار المسرحيين والشعراء والمؤلفين الانجليز .

(٢٨) فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) .

سيجموند فرويد يهودى نمساوى زعيم مدرسة التحليل النفسى التى تقوم على التفسير الجنسى للسلوك .

(٢٩) فريزر (١٨٥٤ - ١٩٤١) .

سير جيمس فريزر باحث اجتماعى اعتمد عليه علم مقارنة الاديان بصفة عامة والشيوعيون بصفة خاصة ، اشهر كتبه الغصن الذهبى .

(٣٠) فورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) .

لودفيغ فورباخ فيلسوف مادى وهو المانى بارز ، كانت ماديته رغم صفتها المحدودة والتأملية احدى المصادر النظرية للفلسفة الماركسية كان فى صف المناهضين للدين النصرانى فى اوربا حيث الف كتابه جوهر المسيحية كنقد لها .

(٣١) فيشته (١٧٦٢ - ١٨١٤) .

ابن فلاح من اهل سكسونيا ، درس اللغة وفقهها والفلسفة ، ثم وقف على كتب كانت ، كان من رواد فلسفة النقيض ، عين استاذا فى جامعة ايينا عام ١٧٩٣ وفى هذه الجامعة بسط مذهبه فى كتابه " المبادىء الاساسية لنظرية المعرفة " ١٧٩٧ ومن كتبه " القانون الطبيعى " .

(٣٢) كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) .

ولد فى مدينة نويون ، لاهوتى فرنسى من رجال الاصلاح الدينى تحول عن الكثلكة عام ١٥٣٣ وصار من قادة البروتستانت المشهورين ، وكتابه " انظمة الدين المسيحى " الذى كتبه بعد عام ١٥٣١ يوضح مبادىء اللاهوت على مقتضى مذهبه الجديد .

(٣٣) كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) .

هو عمانوئيل كانت فيلسوف الماني مثالي ، اسس الفلسفة الكلاسيكية الالمانية .

(٣٤) كوبرنيكس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) .

ولد نيقولا كوبرنيكس ببولاندا واهتم بدراسة الفلك حتى استطاع ان يأتي بنظريته في دوران الارض حول الشمس ، وهي اول نظرية هزت الفكر الاوربي والكنيسة الاوربية هزة قوية . وقد طبع كتابه " حركات الاجرام السماوية " قبيل وفاته ، فافلت من عقوبة الكنيسة ، ولكن من جاء بعده من انصاره لم يفلت منها .

(٣٥) لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) .

من المع وجوه الاصلاح الديني ومؤسس المذهب البروتستانتي في المانيا ، استغل اليهود دعوته لاحياء مجدهم والتذكير بامجادهم ، كان خادما امينا لتعاليم التوراة اليهودية والتلمود ، احيا الهالة التي اضفتها التوراة على بني اسرائيل بعد ان كانت النصرانية قد حطمت تلك الهالة وقضت على خرافة شعب الله المختار .

(٣٦) لومونوسوف (١٧١١ - ١٧٦٥) .

ميخائيل لومونوسوف ، عالم طبيعي ومفكر مادي روسي بارز .

(٣٧) ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) .

احد رواد الفلسفة الاوربية الحديثة وصاحب مذهب الذرات الروحية اشتغل بالقانون والسياسة وكان له بعض النظريات في ذلك .

(٣٨) لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) .

اسمه الحقيقي فلاديمير ايليتش لينين اوليانوف ، اعتنق الماركسية سنة ١٨٩٤ ، ومن ثم شارك في التنظيمات الشيوعية التي كانت تعمل في روسيا وبقية اوربا ، واصدر بعض الصحف الثورية ، وفي سنة ١٩٠٣ تزعم لينين الاغلبية الشيوعية المسماة " بولشفيك " وفي سنة ١٩١٢ انشأ الجريدة الشيوعية المعروفة " البرافدا " وفي سنة ١٩١٧ نشبت الثورة الروسية واستطاعت الاطاحة بالقيصر . وكان البولشفيك اقلية بين الاحزاب الثائرة ، ولكن لينين وحزبه

استطاعوا تصفية الاحزاب الاخرى بثورة داخل الثورة، وطبق الماركسيون نظاما سياسيا واقتصاديا لروسيا، وظل لينين يحكم روسيا بالسلطة الارهابية حتى هلك . واهم جهوده الفكرية هى التعديلات والاضافات التى ادخلها على الماركسية ضمن كتبه التى اهمها " تطور الرأسمالية فى روسيا " مما جعل الناس يطلقون على الشيوعية فى عصره " الفلسفة الماركسية اللينينية" .

(٣٩) ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) .

هو مؤسس المادية التاريخية، وحاخام الشيوعية وفيلسوفها الاكبر، كان جده ليفى حاخاما يهوديا كبقية آبائه واجداده . درس القانون فى جامعة برلين، ثم هجره الى الفلسفة، وحصل على الدكتوراة فيها سنة ١٨٤١، طرد من الجامعة وضويق فى المانيا بسبب اتهامه بالالحاد، فاضطر الى الهجرة الى باريس حيث كان الاشتراكيون الاوائل يبذرون فلسفتهم، وهناك بدأ فى انتهاج فلسفة ثورية تجمع بين نظرية هيجل بعد نقلها من الخيال الى الواقع وبين المذهب الاقتصادى الذى سلكه فلاسفة الانجليز، وبين نظريات الاشتراكيين الاوائل، امثال سيمون واوين . وبعد ظهور نظرية التطور استغلتها الفلسفة الماركسية لاثبات تطور المجتمعات حسب المراحل الخمس وللبرهنة على ان العوامل البيئية البحتة هى المؤثر الوحيد على الانسان كان عصبى المزاج انانى الطبع، لئيم حقود يتكل على غيره، عاش لوالديه واسرته وكان انجلز يساعده فى كثير من اعماله الصحفية والفكرية واهمها كتاب " رأس المال والبيان الشيوعى "، كما كان يساعده ماديا، وقد عاش ماركس متنقلا فى دول اوربا يبث سموم الفساد فى كل مكان يحل فيه حتى هلك .

(٤٠) ميكافيلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) .

نيقولا مكيافلى اول المفكرين السياسيين الاوربيين، اشتهر بكتابه " الامير" الذى كان دعوة صريحة الى فصل السياسة عن الدين والاخلاق ووضع مبدأ عمليا لها هو " الغاية تبرر الوسيلة" .

(٤١) مورغان (١٨١٨ - ١٨٨١) .

لويس هنرى مورغان، باحث اجتماعى تعتمد المصادر الشيوعية على

مؤلفاته التي اهمها " المجتمع القديم " . واستعان ماركس وانجلز بنظريته التطورية في دعم نظريتهما المادية في التاريخ .

(٤٢) نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) .

سير اسحق نيوتن عالم انجليزي فيزيائي ، وفلكي ورياضي كبير ، مؤسس الميكانيك الكلاسيكي .

(٤٣) هنري برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) .

صاحب النظرية الروحية الحديثة ، حصل على جائزة نوبل في الادب عام ١٩٢٧ ، اهم مؤلفاته " التطور الخلاق " .

(٤٤) هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) .

توماس هوبز ، فيلسوف انجليزي كبير وممثل للمادية الميكانيكية آراؤه الاجتماعية والسياسية كانت مناهضة للديمقراطية . كان من اشهر انصار الحكم المطلق .

(٤٥) هولباخ (١٧٢٣ - ١٧٨٩) .

فيلسوف فرنسي ملحد ، ممثل للمادية الميكانيكية ، اشهر كتبه "نظام الطبيعة" .

(٤٦) هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) .

هو جورج وليم فريدريك هيجل ، يعد اكبر فلاسفة العصر الحديث في اوربا ، اذ منه تستمد كلا الفلسفتين المادية والمثالية على اختلاف ما بينهما ، ومن اعظم اعماله وضع منهج للتفكير مغاير لمنطق ارسطو وهو نظرية " النقيض" التي اقتبستها الفلسفة المادية على يد ماركس .

(٤٧) هيراكليت (٥٤٠ - ٤٨٠ ق.م) .

فيلسوف يوناني قديم . احد مؤسسي الجدلية والمادية العفوية .

(٤٨) هيس .

جون هيس عميد جامعة براغ . يهودي حارب الفساد وناوأ تعاليم الكنيسة التي تساعد على ذلك الفساد . احرق حيا عام ١٤١٥ بقرار من

مجمع كونستانس، على الرغم من ضمان الامبراطور سلامته .

(٤٩) والاس (١٨٢٣ - ١٩١٣) .

باحث طبيعي وصل الى ماوصل اليه دارون وفى نفس الفترة تقريبـــا ولكن شهرة دارون فاقت عليه .

(٥٠) ويكلف (١٣٢٠ - ١٣٨٤) .

يهودى انجليزى كان قسيسا عالما فى اكسفورد ثم اشتغل بالتدريـس فى كلية " باليون " وتولى مناصب متنوعة فى الكنيسة، ثم شرع وقد علت به السـن يوجه سلسلة من النقد الصريح الى ماعليه رجال الكنيسة من فساد وماعليـه الكنيسة من حماقة، ترجم التوراة الى الانجليزية .

ثبت المراجع

القرآن الكريم

١ ـ اجنحة المكر الثلاثة : عبد الرحمن حسن حنبكه الميدانى ، دار القلم دمشق ١٣٩٥ هـ .

٢ ـ الاجتماع العائلى : د . مصطفى الخشاب ، الدار القومية ، ١٩٦٦م

٣ ـ احجار على رقعة الشطرنج : وليام غاى كار ت. سعيد جزائرلى . مراجعة م . بدوى ١٩٧٣م

٤ ـ الاسرة والمجتمع : د . على عبد الواحد وافى ،ط ٦ ، نهضة مصر ١٣٨٦هـ

٥ ـ أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها : عبد الرحمن حسن حنبكة الميدانى ، دار العربية للنشر .

٦ ـ الاسس الاخلاقية للماركسية : اوجين كامنكان . ت مجاهد عبد المنعم مجاهد منشورات دار الاداب بيروت ١٩٧١م .

٧ ـ أسس الاشتراكية العلمية المادية الديالكتيكية : مجموعة من العلماء السوفييت ترجمة فؤاد مرعى . بدر الدين السباعى . عدنان جاموس ،دار الجماهير دمشق ١٩٧٣م

٨ ـ اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية : سبركين وياخوت . ت محمد الجندى ، دار التقدم موسكو

٩ ـ الاسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ،ت . د . عمر فروخ ، مكتبة المنار الكويت .

١٠ ـ الاسلام فى وجه الزحف الاحمر : محمد الغزالى ،ط ٥ ، المختار الاسلامى ١٣٩٥هـ .

١١ ـ الاسلام وبناء المجتمع : د .أحمد محمد العسال ، دار القلم الكويت ١٣٩٥ هـ

١٢ ـ الاسلام والجنس: فتحى يكن ، دار النور بيروت ١٣٩٢ هـ

١٣ ـ الاسلام ومشكلات الحضارة : سيد قطب ، دار الشروق

١٤ ـ الاسلام يتحدى : وحيد الدين خان . تظفر الاسلام خان ، ومراجعة د . عبد الصبور شاهين ط ٦

١٥ ـ الاشتراكية : د . أحمد شلبى ط ٣ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨م

١٦ ـ اشتراكيتهم واسلامنا : بشير العوف بيروت ١٩٦٦م

١٧ ـ اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة : فريدريك انجلز ت أديب يوسف دار الفارابى والكتاب العربى .

١٨ ـ أصل الانواع : تشارلز داروين ، ترجمة اسماعيل مظهر ، مكتبة النهضة بيروت ١٩٧٣م

١٩ ـ أصول الفلسفة الماركسية : جورج بولتيزر ورفيقاه تعريب شعبان بركات المكتبة العصرية ، بيروت .

٢٠ ـ أضواء على المسيحية : متولى يوسف شلبى ط ٢ الدار الكويتية للنشر ١٣٩٣هـ

٢١ ـ الافعى اليهودية فى معاقل الاسلام : عبد الله التل ، ط ٢ المكتب الاسلامى

٢٢ ـ أفكار ورجال (قصة الفكر الغربى) جرين برنتون ، ت محمود محمود ، مصر ١٩٦٥م .

٢٣ ـ أفيون الشعوب (المذاهب الهدامة) عباس العقاد ط ٥ دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٥م

٢٤ ـ اقتصادنا . محمد باقر الصدر . دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٣٩٨م .

٢٥ ـ الله جل جلاله . سعيد حوى ١٣٩٢ هـ

٢٦ ـ الله يتجلى فى عصر العلم : مجموعة من العلماء الاميركيين ، الدمرداش سرحان مؤسسة الحلبى للنشر القاهرة .

٢٧ ـ آنتى دوهرنغ فريدريك انجلز : ت . د . فؤاد ايوب ، دار دمشق ١٩٦٥م

٢٨ ـ انسانية الانسان (نقد علمى للحضارة المادية) رينيه دوبو تعريب د . نبيه صبحى الطويل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩٩ هـ .

٢٩ ـ الانسان بين المادية والاسلام : محمد قطب ، ط ٢ ، دار احياء الكتب العربية ١٩٥٧م

٣٠ ـ الانسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل ، ط٢ ، تعريب شفيق اسعد فريد ، مؤسسة المعارف بيروت ١٩٧٧م

٣١ ـ الانسان والاخلاق والمجتمع : فلوجل ، ت عثمان نويه وزميله ، مصر ١٩٦٦م

٣٢ ـ الانسان والارتقاء ، جون لويس ، ت عدنان جاموس دار الجماهير ١٩٧٠م

٣٣ ـ الايديولوجية الالمانية : كارل ماركس ، فريدريك انجلز ، ت د ٠ فؤاد ايوب دار دمشق ٠

٣٤ ـ بديل البديل : علال الفاسي ، نشر دار الكتاب الدار البيضاء

٣٥ ـ بروتوكولات حكماء صهيون (أو الخطر اليهودي) ، ت محمد خليفه التونسي ط ٥ مصر ، وطبعة اخرى ترجمة زكريا م

٣٦ ـ بؤس الفلسفة : كارل ماركس ت ٠ أندريه يازجي ط٢ ، دار اليقضة العربية ومكتبة الحياة ، سوريا ، لبنان ١٩٦٧م

٣٧ ـ البيان الشيوعي : كارل ماركس ، فريدريك انجلز ، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت

٣٨ ـ بين الدين والعلم ٠ عبد الرزاق نوفل ، دار مطابع الشعب

٣٩ ـ التاريخ الاسلامي والمذهب المادي في التفسير ، محمد فتحي عثمان الدار الكويتية للنشر ١٩٦٩م

٤٠ ـ تاريخ العالم ، جمع جوا ٠ هامرتن ، ت ٠ ادارة الترجمة بمصر

٤١ ـ تاريخ عمر بن الخطاب ٠ الامام ابو الفرج بن الجوزي ، تقديم اسامة عبد الكريم الرفاعي ، دار احياء علوم الدين للنشر دمشق ٠

٤٢ ـ تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون ، عمر فروخ ، دار العلم للملايين بيروت ١٣٩٢هـ

٤٣ ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ٠ يوسف كرم ، مكتبة دار المعارف بمصر

٤٤ ـ التضليل الماركسي ٠ د ٠ رؤوف شلبي ، مكتبة الازهر ١٩٧٦م

٤٥ ـ تطور المجتمع الامريكي ، كيث لن ، ت ـ نعيم موسى ، دار النهضة ١٩٦٦م

٤٦ ـ تطور الملكية الفردية ٠ احمد محمد غنيم ، الدار القومية للنشر ٠

٤٧ ـ التطور والثبات في حياة البشر ، محمد قطب ، دار الشروق ١٣٩٧هـ
٤٨ ـ التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ، محمد الغزالى ، دار البيان الكويت
٤٩ ـ التفسير الاسلامى للتاريخ ، د ـ عماد الدين خليل ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٥م
٥٠ ـ تفسير التاريخ ، عبد الحميد صديقى ت ، كاظم الجوادى ، الدار الكويتة للنشر
٥١ ـ تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ط ٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر ١٣٨٩ هـ .
٥٢ ـ تكوين العقل الحديث جـ ، هـ راندال ، ت ـ جورج طعمة ، دار الثقافة
٥٣ ـ تهافت الفكر المادى التاريخى (بين النظر والتطبيق) د ، محمد البهى ط ٣ ، مكتبة وهبة القاهرة ١٣٩٥ هـ
٥٤ ـ الثقافة الاسلامية المستوى الاول ١٠١ ـ عبد الرحمن الميدانى ومحمد الغزالى مطبوعات جامعة الملك عبد العزيز .
٥٥ ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ، ابن جرير الطبرى ، مطبعة الحلبى مصر ١٣٨٨ هـ
٥٦ ـ جامع الترمذى مع شرحه تحفة الاحوذى ، الترمذى ، ط ٢ دار الكتاب العربى بيروت .
٥٧ ـ الجامع الفريد كتب ورسائل لائمة الدعوة الاسلامية ، ط ٢ ، دار الصفهانى جدة
٥٨ ـ الجامع لاحكام القرآن ، القرطبى دار الشعب
٥٩ ـ جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب ، مكتبة وهبة
٦٠ ـ جذور البلاء عبد الله التل ط ٢ المكتب الاسلامى بيروت ١٣٩٨ هـ
٦١ ـ الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ، محمد على يوسف بيروت ١٩٦٦م
٦٢ ـ حرب الفلاحين فى المانيا ، تعريب محمد ابو خضور ، دار دمشق للطباعة والنشر
٦٣ ـ حرية الفكر ، سلامة موسى ، بيروت ١٩٦١م
٦٤ ـ حقائق الاسلام واباطيل خصومة ، عباس العقاد ، دار العلوم للطباعة .

٦٥ ـ حوار مع الشيوعيين في اقبية السجون ، عبد الحليم خفاجي ، دار القلم الكويت ١٣٩٤ هـ .

٦٦ ـ حول الدين ، كارل ماركس ، فريدريك انجلز ت ـ زهير حكيم ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٤م

٦٧ ـ حول المسألة اليهودية ، باور، ماركس ، ت الياس مرقص ، دار الحقيقة بيروت

٦٨ ـ خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ، سيد قطب دار الشروق

٦٩ ـ خلق المسلم ، محمد الغزالي ط ٤ دار الكتب الحديثة مصر ١٣٧٩ هـ

٧٠ ـ الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ، عبد العزيز سيد الاهل ط ٥ ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧ م

٧١ ـ دراسات في النفس الانسانية ، محمد قطب دار القلم

٧٢ ـ دراسات قرآنية ، محمد قطب ، دار الشروق

٧٣ ـ دستور الاخلاق في القرآن ، د . محمد عبد الله دراز ، تعريب د . عبد الصبور شاهين مؤسسة الرسالة ١٣٩٣ هـ

٧٤ ـ الدفاتر الفلسفية ، لينين ت ، الياس مرقص ، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٤م

٧٥ ـ الدين ، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الاديان، د . محمد عبد الله دراز، مطبعة السعادة ١٣٨٩ هـ

٧٦ ـ الديناميكا الحرارية ، ابراهيم أبراهيم شريف مصر ١٩٧٠ م

٧٧ ـ الدين في مواجهة العلم ، ت ظفر الاسلام خان ، مراجعة عبد الحليم عويس ط ٢ ، المختار الاسلامي القاهرة ١٩٧٣م

٧٨ ـ الدين والمادية الجدلية ، احمد على حيشي ، رسالة ماجستير ، جامعة الملك عبد العزيز ، كلية الشريعة ١٣٩٦هـ

٧٩ ـ الذرة ومنافعها السلمية ، مارتين مان . ت الدكتور عبد الحميد أمين ، عالم الكتب للنشر

٨٠ ـ الرد على الدهريين ، جمال الدين الافغاني ت الشيخ محمد عبده ط ٤، المكتبة التجارية مصر ١٣٣٣هـ

٨١ ـ الرسالة الخالدة ، عبد الرحمن عزام ط ٤ ، دار الشروق ، دار الفكر بيروت ١٩٦٩م .

٨٢ ـ روح الجماعات ، غوستاف لوبون ، ت عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٥م

٨٣ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة ، ابى جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري تحقيق الشيخ محمد مصطفى ابو العلا ، مكتبة الجندى

٨٤ ـ السلام العالمي والاسلام ، سيد قطب ١٣٨٦ هـ

٨٥ ـ سنن ابى داود ، سليمان بن الاشعث ، تعليق عزت عبيد الدعاس ، نشر محمد على السيد ، حمص

٨٦ ـ سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، دار الباز للنشر مكة المكرمة

٨٧ ـ شبهات حول الاسلام ، محمد قطب ، دار الشروق .

٨٨ ـ شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه ، ت . فاروق بيضون وزميله بيروت ١٩٦٩ م

٨٩ ـ الشيوعية اليوم وغدا ، سلسلة مقالات لمجموعة من المفكرين والادباء العرب مكتبة مصر .

٩٠ ـ الشيوعية نظريا وعمليا ، كاريوهنت ، دار الكتاب المصرى . القاهرة

٩١ ـ الشيوعية والانسانية ، عباس العقاد ط ٢ ، دار الكتاب العربى ، بيروت

٩٢ ـ الشيوعية والشيوعيون فى ميزان الاسلام ، د . عبد الجليل شلبي ، دار الشروق ١٩٧٦م .

٩٣ ـ الشيوعية وليدة الصهيونية ، احمد عبد الغفور عطار ، المكتبة العصرية بيروت ١٣٩٤ هـ

٩٤ ـ صحيح البخارى بحاشية السندى ، الامام محمد بن اسماعيل البخارى ، دار الباز للنشر ، مطبعة الحلبى واولاده بمصر

٩٥ ـ صحيح مسلم ، الامام مسلم بن الحجاج القشيرى ، ترقيم فؤاد عبد الباقى ، دار احياء التراث بيروت .

٩٦ ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم • عبد الرحمن الميدانى ، دار القلم بيروت ١٣٩٤هـ

٩٧ ـ الصنم الذى هوى ، ستة من كتاب الغرب ت ـ فؤاد حمودة ، المكتب الاسلامى ١٣٨٠ هـ

٩٨ ـ ضوابط المعرفة واصول الاستدلال والمناظرة ،عبد الرحمن حبنكه الميدانى دار القلم دمشق بيروت ١٣٩٥هـ

٩٩ ـ الطبقة الجديدة ، ميلوفان دجيلاس ، تقديم قدرى قلعجى بيروت

١٠٠ـ الطفولة الجانحة ،جان شازال ، ت • انطوان عبده ، بيروت ١٩٧٢م

١٠١ـ عائد من الجحيم ، أنطوان دومازه ، بدون ، ١٩٧٢م

١٠٢ـ العائلة المقدسة ، او نقد النقد النقدى ، كارل ماركس ، فريدريك انجلز ت • حنا عبود ، ومراجعة د • فؤاد ايوب دار دمشق للنشر •

١٠٣ـ العدالة الاجتماعية ، سيد قطب ، دار الشروق ١٣٩٤هـ

١٠٤ـ عرض موجز للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ،بود وستينك وياخوت • دار التقدم موسكو •

١٠٥ـ عقائد المفكرين فى القرن العشرين ، عباس العقاد ط٢ ، دار الكتاب العربى بيروت ١٩٦٩م

١٠٦ـ العقيدة الاسلامية وأسسها ،عبد الرحمن حبنكه الميدانى ،دار القلم بيروت ١٣٨٥هـ

١٠٧ـ على اطلال المذهب المادى ، محمد فريد وجدى ، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين ١٩٢١م

١٠٨ـ العلمانية وآثارها فى الحياة الاسلامية المعاصرة ، سفر عبد الرحمن ، رسالة ماجستير جامعة الملك عبد العزيز ١٣٩٨ هـ

١٠٩ـ العلم يدعو للايمان ، ١ • كريسى موريسون ،ت • محمود صالح الفلكى ، تقديم د • احمد زكى ط٥ ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥م

١١٠ـ الغصن الذهبى ، جيمس فريزر ، ت • احمد ابو زيد ١٩٧١م

١١١ـ فتح القدير ، محمد بن على الشوكانى ط٢ ، مصطفى بابى الحلبى القاهرة ١٣٨٣هـ

١١٢ـ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ط ٥، دار الفكر بيروت ١٩٧٠م

١١٣ـ الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها : د • توفيق الطويل

١١٤ـ فلسفتنا : محمد باقر الصدر ط ٥ ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٤ هـ

١١٥ـ في التاريخ فكرة ومنهاج : سيد قطب ط ٢ ، دار الشروق ١٣٩٨ هـ

١١٦ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب ط ٦ بيروت

١١٧ـ في النفس والمجتمع ، محمد قطب ، دار الشروق بيروت

١١٨ـ قراءات في المادية الجدلية ، كارل ماركس ،فريدريك انجلز ، لينين وآخرون تحرير قيس الشامي ،دار الطليعة بيروت

١١٩ـ القاموس السياسي ، ب •ن • بونوماريوف • ت عبد الرزاق الصافي،مركز الطباعة الحديثة ، بيروت •

١٢٠ـ قصة الحضارة : ول ديورانت ت • محمد بدران ، مطبعة لجنة التاليف والنشر القاهرة ١٩٦٤م

١٢١ـ قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ، نديم الجسر ط ٣ ، المكتب الاسلامي بيروت ١٣٨٩ هـ

١٢٢ـ قضايا الفكر الاسلامي المعاصر ، الندوة العالمية ، بحوث ومحاضرات ، الندوة العالمية للشباب الاسلامي ، الرياض ١٣٩٦ هـ

١٢٣ـ قضايا المادية التاريخية : انطونيو غرامشي ، ت• فواز طرابلسي ، دار الطليعة بيروت •

١٢٤ـ كارل ماركس ، هنري لوفافر ، ت • محمد عيتاني ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٢م •

١٢٥ـ الكتاب المقدس ، العهد الجديد (الاناجيل والرسائل) مصر ١٩٧٦م

١٢٦ـ كتب غيرت وجه العالم ، روبرت ،ب • داونز • ت • احمد صادق مهدي وزميله دار الثقافة •

١٢٧ـ الكفاح من أجل الحياة ، مجموعة من العلماء السوفييت ، دار التقدم موسكو .

١٢٨ـ لباب التأويل فى محاسن التنزيل ، على بن ابراهيم الخازن ط ٢ ، مصطفى الحلبى مصر ١٣٧٥م .

١٢٩ـ لسان العرب ، العلامة الفضل جمال الدين محمد بن منظور ، دار صادر وبيروت للنشر ، بيروت ١٣٧٤، ١٣٧٥ هـ

١٣٠ـ لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ ، ل .سيغال ، ط ٥ ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٤م .

١٣١ـ لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . فريدريك انجلز، دار التقدم موسكو

١٣٢ـ المادة وضد المادة ، موريس د وكين .ت . د . رمسيس شحاته ـ دار المعارف بمصر ١٦٦٨م

١٣٣ـ المادية التاريخية .ف . كيلى ، م . كوفالزون ت . احمد داود . مراجعة د . بدر الدين السباعى ، دار الجماهير دمشق ١٩٧٠م

١٣٤ـ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، ستالين ، دار دمشق للطباعة والنشر

١٣٥ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . ابو الحسن الندوى ط ١٠ مطابع على بن على الدوحة ١٣٩٤ هـ

١٣٦ـ الماركسية تفسير وتعريب ، احسان مراش ، دار دمشق للطباعة والنشر .

١٣٧ـ الماركسية فى مواجهة الدين ، حقائق ووثائق ، د . عبد المعطى محمد بيومى دار الانصار بمصر

١٣٨ـ ماركسية القرن العشرين ، روجيه غارودى . ت . نزيه الحكيم ، ط ٣ ، دار الاداب بيروت ١٩٧٢م

١٣٩ـ الماركسية والاسلام د . مصطفى محمود ، دار المعارف بمصر

١٤٠ـ الماركسية والايديولوجيا ، جورج طرابيشى ، دار الطليعة للنشر بيروت ١٩٧١م

١٤١ـ مبادئ الفلسفة أ . س . راببورت . ت محمد أمين ، دار الكتاب العربي بيروت

١٤٢ـ مبادئ فلسفة المستقبل ، لودفيغ فورباخ ، ت . الياس مرقص ، بيروت

١٤٣ـ مباهج الفلسفة . ول ديورانت ، ت د . أحمد فؤاد الاهواني ، مكتبة الانجلو مصرية ١٩٥٧م

١٤٤ـ محاضرات في النصرانية ، محمد أبو زهرة ط ٤ ، دار الفكر العربي ١٣٩٢ هـ

١٤٥ـ مختارات جديدة نصوص حول الموقف من الدين ، لينين ، ت . محمد كبه ، تقديم العفيف الاخضر ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٢م

١٤٦ـ مخطوطات كارل ماركس لعام ١٨٤٤ ، ت . محمد مستجير مصطفى ، دار الثقافة الجديدة .

١٤٧ـ مدخل الى المادية التاريخية ، موريس كورنفورث . ت . محمد مستجير مصطفى دار الفارابي ، بيروت ١٩٧٥م

١٤٨ـ مدخل الى المادية الجدلية ، موريس كورنفورث . ت . محمد مستجير مصطفى دار الفارابي بيروت ١٩٧٥م

١٤٩ـ المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية ، ليون جوتيه ، ت محمد يوسف موسى ، دار الكتب الاهلية ١٣٦٤ هـ

١٥٠ـ المذاهب الاقتصادية الكبرى ، جورج سول ، ت . راشد البراوي . مصر ١٩٦٥م

١٥١ـ مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة ، يحيى هويدي ، اصدار جامعة الملك عبد العزيز ١٣٩٣ هـ

١٥٢ـ مذهب ذوي العاهات ، عباس العقاد ، المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٧م

١٥٣ـ مذهب النشوء والارتقاء ، منيره على الغاياتي ، تقديم د . محمد البهي مصر ١٣٩٥ هـ

١٥٤ـ المرأة بين الفقه والقانون ، د . مصطفى السباعي ط٥ المكتب الاسلامي بيروت

١٥٥ـ المرأة والاشتراكية ، لينين وآخرون • سلسلة مقالات ، ت • جورج طرابيشي
ط٢ دار الاداب ١٩٦٣م

١٥٦ـ المرشد السليم فى المنطق الحديث والقديم ، د • عوض الله حجازى ط٤ ، دار
الطباعة المحمدية بالازهر ، القاهرة

١٥٧ـ مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية الاسلام ، يوسف كمال محمد ، المختار
الاسلامى ١٣٩٤هـ

١٥٨ـ المسيح فى القرآن والتوراة والانجيل ، عبد الكريم الخطيب ، دار الكتب الحديثة
١٣٨٥ هـ

١٥٩ـ المسيحية ، د • احمد شلبى ط ٣ ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٦٧م

١٦٠ـ مصير الانسان ، اليكونت دى نوى ، ت خليل الجر ، المنشورات العربية •

١٦١ـ معالم تاريخ الانسانية ، هـ • ج ولز ، ت عبد العزيز توفيق جاويد ط٣ القاهرة
١٩٧٢م

١٦٢ـ معركة التقاليد ، محمد قطب

١٦٣ـ مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ط٤ ، دار الباز للنشر مكة المكرمة
١٣٩٨ هـ

١٦٤ـ منازع الفكر الحديث : جود ، ت • عباس فضلى خماس • مطبعة المجمع
العلمى العراقى ١٩٧٥م

١٦٥ـ منشأ الفكر الحديث ، كرين برنتون ، ت • عبد الرحمن مراد ، دمشق

١٦٦ـ منعطف الاشتراكية الكبير ، روجيه غارودى ، ت • ذوقان قرقوط ، ط٢ ، دار
الاداب ، بيروت ١٩٧٨م

١٦٧ـ منهج التربية الاسلامية ، محمد قطب ، دار الشروق

١٦٨ـ المنهزمون • يوسف العظم ط ٢ ، دار القلم دمشق بيروت ١٣٩٧ هـ

١٦٩ـ موجز تاريخ الفلسفة ، جماعة من الاساتذة السوفييت ، ت• توفيق ابراهيم
سلوم ، دار الجماهير العربية •

١٧٠ـ الموسوعة العربية الميسرة ، باشراف محمد شفيق غربال ، دار العلم ، ومؤسسة فرانكلين للنشـــــر
١٧١ـ موسوعة الهلال الاشتراكية ، دار الهلال مصـــــر ١٩٧٠م
١٧٢ـ نصوص مختارة ، فريدريك انجلز ، جمع جان كانابا ، ت ٠ وصفى البنى ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٢م
١٧٣ـ نصوص حول اشكال الانتاج ما قبل الرأسمالية ، كارل ماركس ، ت ٠ د ٠ صادق جلال العظم ، دار ابن خلدون للنشر بيروت ١٩٧٤م
١٧٤ـ نظام الاسلام العقيدة والعبادة ، محمد المبارك ط٣ ، دار الفكـــر بيروت ١٣٩٣هـ
١٧٥ـ نظرة الاسلام العامة الى الوجود واثرها فى الحضارة ، محمد المبارك ، المطبعة الجديدة دمشق
١٧٦ـ نظرية التطور وأصل الانسان ، سلامة موسى ط ٦ ، سلامه موسى للنشـــــر والتوزيع القاهرة ١٩٦٣م
١٧٧ـ نظرية الثورة العربية ، الاسس ٠ د ٠ عصمت سيف الدولة دار المسيرة بيروت ١٩٧٩م
١٧٨ـ نظـرية دارون بين مؤيديها ومعارضيها ، قيس القرطاس ، بيروت ١٣٩١هـ
١٧٩ـ النظرية الماركسية اللينينيه ٠ فى المادية الديالكتيكية والمادية التاريخيـــــة ايزرين ورفقاه ت ٠ خيرى الضامن ، دار التقدم ٠
١٨٠ـ نقض الاشتراكية الماركسية ، غانم عبده ، دار الايمان بيروت ١٣٨٣هـ
١٨١ـ نقض اوهام المادية الجدلية ، د ٠ محمد سعيد رمضان البوطى ، دار الفكـــر دمشـــــق ١٣٩٨هـ
١٨٢ـ هذا الديــــن ، سيد قطب ١٩٧٠م
١٨٣ـ هزيمة الشيوعية فى عالم الاسلام ، انور الجندى ، دار الاعتصام
١٨٤ـ الهلال الشهيد ، ريمون شارل ، منشورات المعهد الدولى للبحوث والدراسات الاسلامية باريس ١٩٦٢م

١٨٥ــ الوجود الحــــق د • حسن هويدى ط ٣ المكتب الاسلامى •

١٨٦ــ لا رق فى الاســــلام ، ابراهيم هاشم الفلالى ، الدار القومية للنشــر